حُسْنُ البَيَانِ
فِي
تَفْسِيرِ القُرْآنِ

تأليف

المرحوم العلامة الشيخ محمد بن الشيخ طه الباليساني

(رحمة الله عليه)

المجلد الأول

(هذا التفسير)

قام بجمعه وإدخاله الحاسوب على حسابه الخاص والإشراف عليه
والتصحيح الأولي الأستاذ المساعد الدكتور حسين الباليساني

وقام بالمراجعة والتصحيح النهائي وبعض الأحاديث وبعض التعليقات في
الهامش الأستاذ الدكتور أحمد الباليساني، وكلاهما نجلا الشيخ المفسر.
نسأل الله لهما العفو والعافية والأجر والثواب.

دار إحياء التراث العربي
بيروت - لبنان
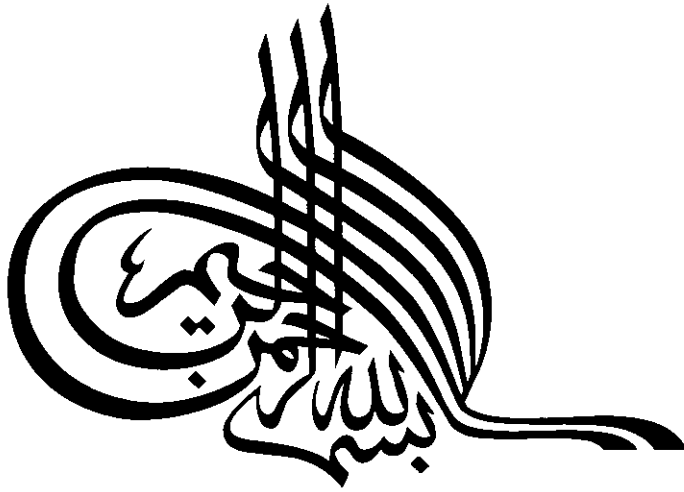
تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]

الحمد للّٰه والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد رسول اللّٰه وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد:

فهذا التّفسير الموسوم بـ(حسن البيان في تفسير القرآن) مدوّن بقلم والدي فضيلة الشّيخ محمّد الشّيخ طه الباليساني (رحمة الله تعالى عليه)، وهو بنفسه ذكر لنا (رحمة الله تعالى عليه) قصّة بدء كتابته والانتهاء منه وكيفيّة تسميّته في مقدّمة الجزء الأوّل منه، كما عاش أحداثه بقلمه في وقتها، وقد طبع من هذا التّفسير في حياته أجزاءً بصورة متفرّقة في أوقات متفاوتة، لكلّ منها دوافع وأحداث ذكرها في مقدّمات تلك الأجزاء المطبوعة وقت ذاك. إلّا أنّ طبع هذا التّفسير بكامله بقي دون المنال، حيث إنّ المؤلّف (رحمة اللّٰه عليه) كان قد حاول من أجل ذلك محاولات كثيرة وطرق أبواباً عديدة، ولكن دون جدوى، وكان من جملة علامات اهتمامه واعتزازه بهذا التّفسير وتفضيله على غيره مما كان يملكه أنّه في أحداث عام ١٩٩١م عندما ترك بغداد متوجّهاً إلى أربيل، بسبب الحرب العراقيّة - الأمريكيّة، ترك بيته وأثاث بيته وكلّ ممتلكاته فيها، وحمل معه فقط مسوّدات مخطوطة هذا التّفسير إلى أربيل؛ خشية ضياعها وتلفها. وقد حدث أن تركنا أربيل أيضا في وقتها بسبب هجوم الجيش العراقي بعد الحرب مباشرة، فكان يأمرنا أن نحفظ تلك المخطوطات في مكان حصين حتّى لا تضيع أو تصلها أيدي

العابثين، وفي أواخر أيّامه كان يكرّر أمامنا دائماً عبارات تدلّ على خوفه من عدم تمكّنه من طبع هذا التّفسير قبل وفاته، وكان يوصينا فعلاً أن ننجز طبعه إن لم يتمكّن هو من إنجازه، وحدث فعلاً ما كان يجول في خاطرته، ووافته المنيّة قبل طبع هذا التّفسير، فانتقل إلى رحمة اللّه تعالى في بغداد في اليوم الرّابع والعشرين من ذي القعدة ١٤١٥ هجرية الموافق للرّابع والعشرين من نيسان ١٩٩٥ ميلادية، وبقيت المخطوطات الخاصّة بهذا التّفسير وغيرها دون أن تطبع وتنشر ليستفيد منها المسلمون.

إنّ ذلك الحرص الشّديد في الحفاظ على مسوّدة التّفسير وتلك المحاولات الجادّة المتكرّرة في وقتها، والتّي مع الأسف لم تنجح في طبعها، وتلك العبارات المؤثّرة التّي كان يردّدها والدي والوصيّة التّي كان يوصينا بها، وفيها يأمرنا أن نطبع هذا التّفسير بالكيفيّة الّتي دوّنها في كتابته مقدّمة تفسيره، بقيت ذات أثر بالغ في نفسي وفي نفس شقيقي الكبير الدّكتور أحمد الباليساني فبدأنا بعد وفاته (رحمة اللّه عليه) محاولات عديدة لطبع هذا التّفسير، هو يحاول في بغداد، وأنا أحاول في أربيل، فتارةً نطرق أبواب دور النّشر، وتارةً أخرى نحاول التّعامل مع المطابع، وتارةً نفاتح ذوي الجاه والنّعمة، وتارةً أخرى نلتجئ إلى المؤسّسات التّي تعنى بنشر وطبع مثل تلك الكتب، رسميّة كانت أو غير رسميّة، في العراق وغيره من البلدان المجاورة، وحاول معنا بعض الأصدقاء والمحبّين للشّيخ الوالد (رحمة اللّه عليه) حين علموا بمحاولاتنا، فخابت محاولاتنا أحياناً، وحصلنا على وعود في بعض الأحيان، ولكن دون تنفيذ. وأثناء هذه المحاولات فكّرت في إنجاز بعض الاجراءات الأوّليّة التّي لا بدّ منها، والتّي هي في المستطاع بعد أن توفّرت الكومبيوترات وأصبحت في متناول اليد، فبدأت بإدخال مسوّدة التّفسير إلى الكومبيوتر، أدخلنا بعضها عن طريق مكاتب الكومبيوتر، وأدخلنا البعض الآخر عن طريق الأقرباء والأصدقاء والأولاد ممّن لهم إلمام باللّغة العربيّة، ولكنّ القسم الأكبر منها أدخلته أنا بنفسي، وكان الأمر شاقّاً عليّ لكثرة صفحاته الّتي زادت على (٤٠٠٠) صفحة من نوع (A٤)، وزادت الصّعوبة بعثرة بعض الأجزاء بين بغداد وأربيل وصعوبة وصولها إليّ في بعض الأحيان - قبل سقوط نظام صدّام- ومن ثمّ قمت بمراجعة المسوّدة جميعها فصحّحت الأخطاء المطبعيّة، ونسخت الآيات القرآنيّة من القرآن الكريم بالرّسم العثماني لإعطائه جماليّة ذلك الخط، ثمّ بعد ذلك تمّ عرض التّفسير على ضليع باللّغة العربية ليصحّح الأخطاء التّي يمكن حدوثها نتيجة عدم وضوح الكلمات في المسوّدة أحياناً، أو نتيجة النّقل من المسوّدة إلى الكومبيوتر أحياناً أخرى،

فقام أستاذي السّيّد محمّد حسين قرني[١] (رحمة الله عليه) بالرّغم من مرضه في وقتها بمراجعته مشكوراً، وتمّت المراجعة الأخيرة للتّفسير من قبل شقيقي الدّكتور أحمد الباليساني، فقام جزاه الله خيراً بتخريج الأحاديث وإضافة تعليقات رآها نافعة في الهامش لزيادة النّفع للقاريء الكريم، مع بيان نبذة عن حياة الشّيخ المفسّر ومنهج تفسيره، فأصبح التّفسير بعد هذا الجهد الجهيد مجموعاً وجاهزاً بهذا الشّكل الأنيق للطّبع.

وبعد ذلك بدأت المحاولات مرةً أخرى إلى أن كتب اللّه لمحاولاتي النّجاح، وهي أمنيّة غالية وخدمة جليلة لتفسير كتاب اللّه الكريم بأسلوب يتّسم بالبساطة والوضوح وحسن التّرتيب، وبهذا الأسلوب والتّرتيب اختلف هذا التّفسير عن تفاسير الأقدمين، بخلوة ممّا لا يتعلّق بآيات القرآن الكريم ومعانيه، كما اختلف عن تفاسير المتأخّرين أيضاً، لما فيها من الحكايات والفوائد والتّنبيهات والقصص والنّكت الحكيمة بحسب المقام وما يقتضيه المقال؛ ما يزيد استفادة الخواصّ ويقرّب الفهم إلى المبتدئين من القرّاء، ونيّتنا في ذلك هي خدمة كتاب الله تعالى وخدمة ما يهدف اليه من سعادة حياة الدّنيا وحسن ثواب الآخرة، ليستفيد منه المبتدئ ولا يستغني عنه المنتهي.

وفي الختام نسأل اللّه العليّ القدير أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه وأن يجعله سبباً لأن يدعو لوالدي ولنا كلّ من يرى هذا الكتاب أو يقرأه بالرّحمة والمغفرة وعلوّ المنزلة في الآخرة، وأن يذكرنا كلّ من يستفيد منه أو يراه بالخير، ويدعو لأولاده بالعمل الصّالح والتّقوى وحسن الخاتمة في الدّنيا، والرّحمة والمغفرة والجنّة في الآخرة، وآخر دعوانا أن الحمد للّه ربّ العالمين، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين.

الدّكتور
حسين الشّيخ محمّد الباليساني
دكتوراه في القانون الجنائي

---

(١) كان من طلبة العلوم الدينية عند الوالد الشيخ المفسر في مدرسته في جامعه المسمى بجامع الشيخ محمد الباليساني، ثم بعد إكماله أصبح معلما وكان إخي د. حسين تلميذا عنده في المدرسة التي عين فيها لهذا يقول له أستاذي...

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(نبذة عن حياة العلّامة المفسّر الشّيخ محمّد بن الشّيخ طه الباليساني)

هو العلامة الشّيخ محمّد بن الشّيخ طه بن الشّيخ علي بن الشّيخ عيسى بن الشّيخ مصطفى بن الشّيخ أحمد الّذي ينتهي نسبه إلى الشّيخ السّيّد محمّد الزّاهدي المعروف لدى الكورد بـ(البير خضر الشّاهويي)، ومنه يصل نسبه إلى سيّدنا الحسين، ثمّ إلى الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم، فهو من سلالة علميّة عريقة، ذكر الشّيخ عبد الكريم المدرّس[١] (رحمه الله تعالى) في حفل تأبينه أنّه لم يعرف منذ خمسين ظَهْراً من آباء الشّيخ الباليساني من لم يكن عالماً، إذ كانوا كلّهم علماء توارثوا العلم فيما بينهم.

وكان الشّيخ الباليساني مفسّراً وفقيهاً وشاعراً وأديباً وداعياً لا يدخّر كلمة في سبيل الدّعوة إلى الإسلام إلّا قالها ولا حقّا إلّا أظهره، وله مؤلّفات في التّفسير وقواعد التّجويد والفقه والعقائد والسّيرة النّبويّة والأدعية والتّربية، وقد نظّم قصائد ومنظومات، وكلّ ذلك باللّغتين العربيّة والكرديّة، وكان يحسن الفارسيّة أيضاً قراءة وكتابة لا تحدّثاً.

ولد الشّيخ الباليساني سنة ١٣٣٦هـ الموافق سنة ١٩١٨م في قرية باليسان التابعة في محافظة أربيل بكوردستان العراق، تلك القرية المشهورة بالعلم والعلماء من آباء الشّيخ الّذين تواصلت فيهم السّلسلة العلميّة دون انقطاع.

لمّا بلغ عمره ثمان سنوات وضعه والده في مدرسته في القرية المذكورة، فدرس

---

(١) رئيس رابطة علماء العراق آنذاك.

القرآن الكريم، ثمّ بدأ بدراسة بدايات علوم الشّريعة ومفاتيحها، لكنّه فجع بوفاة والده سنة ١٣٤٨هـ حين أصبح عمره اثنتي عشرة سنة؛ فأرسلته والدته إلى قرية (سكتان) كي يواصل دراسته عند (الشّيخ عبد الله السّكتاني) في مدرسة تلك القرية، وكان ذلك الشّيخ من طلاب والده (الشّيخ طه)، فكان يكرمه ويمنحه رعاية خاصّة لكونه ابن أستاذه، وبذلك بدأت رحلته العلميّة لطلب العلم كما كان عادة أهل العلم وقتذاك في المنطقة الكورديّة، فظلّ ينتقل من قرية إلى أخرى ومن مدينة إلى غيرها في كوردستان العراق حتّى أكمل العلوم المطلوبة حسب المناهج المعتبرة في تلك المنطقة، فأخذ الإجازة العلميّة على يد شقيقه الأكبر منه (الشّيخ عمر الباليساني) الّذي كان يلقّب نفسه بالنّقشبندي، لأنّه كان يمارس التّصوّف والإرشاد على النّهج النّقشبندي.

تزوّج في السّنة نفسها بابنة عمّه عائشة بنت الشّيخ محمد بن الشّيخ علي الباليساني، وعيّن في سنة ١٩٤٤م إماما ومتولّيا في الجامع الكبير في باليسان، حيث كانت القرية تضمّ أربعة مساجد هي:

١ ـ مسجد الشّيوخ وهو مسجد آباء الشّيخ ومدرستهم الكائنة في حيّ الشّيوخ المسمّى باسم ساكنيها.

٢ ـ مسجد(بك زادان)، أي مسجد (آل البيكات)، وكان يسكنه طلبة العلم لكثرة غرفه ووفرة مياهه.

٣ ـ مسجد(الميروسي)، وكان في حي آخر غير الحيّ الذي فيه المسجدان المذكوران، وتسكنه عشيرة الميروسيّة.

٤ ـ المسجد الجامع، (الجامع الكبير) الّذي كان واسعاً وكان يقع في وسط القرية، حيث يجتمع فيه أهل القرية كلّهم لإداء صلاة الجمعة.

وأسندت إلى الشّيخ وظيفة الخطابة أيضاً في الجامع المذكور سنة ١٩٤٥م بعدما تركها أخوه الشّيخ عليّ لمرض أصابه. وفي السّنة نفسها ترك أخوه الشّيخ عمر(رحمه الله تعالى) التّدريس لانشغاله بالتّصوّف، فأسند التّدريس إلى الشّيخ محمّد، وبذلك أصبح الشّيخ محمّد إماماً وخطيباً ومدرّساً في قرية باليسان، وكان تدريسه في مسجد الشّيوخ.

فاشتهر الشّيخ بجودة تدريسه وفصاحة خطاباته وبراعة بيانه وجمال صوته وحسن

أدائه لقراءة القرآن؛ ممّا طمع فيه الشّيخ علاء الدّين رئيس الطّريقة النّقشبنديّة في (بيارة) آنذاك، فطلبه للتّدريس والخطابة هناك، وكان بيارة مركزا للتّصوّف والعلم وتجمّع العلماء، يقصدها النّاس من مختلف البلدان، كالعراق وإيران وتركيا والشّام ولبنان ومصر وغيرها.

فارتحل الشّيخ رحمه الله تعالى إلى بيارة وتولّى التّدريس والخطابة والإمامة فيها سنة ١٩٥١م، وبقي فيها حتّى وفاة الشّيخ علاء الدّين النّقشبندي سنة ١٩٥٤م، فتركها لظروف معيشيّة واختلاف مع خلف الشّيخ علاء الدين، وعاد إلى أربيل، حيث مسجد أخيه الشّيخ عمر الباليساني ومدرسته في محلّة (سيطاقان). وفي سنة ١٩٥٥م نقل مدرسته إلى جامع صغير في محلّة (طيراوه) لأسبابٍ اجتماعيّة وأدبيّة تجاه أخيه الشّيخ عمر الباليساني. وبنى في الحيّ نفسه له مسجداً ومدرسة سمّي باسمه مسجد الشّيخ محمّد الباليساني، وأصبح فيه إماماً ومدرّساً، ولكنّه بقي خطيباً في جامع أخيه الشّيخ عمر حتّى سنة ١٩٦٢م.

وفي سنة ١٩٦٢م صدر أمرٌ بإلقاء القبض على الشّيخ من قبل حكومة عبد الكريم قاسم لأسباب:

الأوّل: اعتراض الشّيخ على ذلك الرّئيس حين أصدر أمراً بالمساواة بين الرّجل والمرأة في الميراث فجعله قانوناً، فأعلن الشّيخ الوالد اعتراضه في مذكرة أرسلها إليه وطلب من بعض المجلّات والصّحف نشرها وتكلّم في ذلك على المنبر والمجالس العامّة.

الثّاني: أسّس الشّيخ جمعيّة لرجال الدّين في أربيل كي يحتوي شيوخ العلم وطلابه ويحفظهم من الانضمام إلى التّيّارات غير الإسلامية التّي فتح عبد الكريم قاسم الطّريق أمامها في المجتمع العراقي إبّان حكمه. وحين غيّر عبد الكريم قاسم سياسته وألغى الحريّات السّياسية عُدّت تلك الجمعيّة الدّينيّة مناهضة لسياسته.

الثّالث: تأييده للإصلاح الزّراعي وإلغاء الأقطاع الظّالم ممّا أدى ببعض رؤساء العشائر أن يتّهموا الشّيخ على أساس ذلك باتجاه مناويء لعبد الكريم قاسم، فصدر الأمر بإلقاء القبض عليه اعتماداً على وشاية أحد الآغوات باتّهامه بمعارضته للحكومة وبكونه من اتّجاه هو منه بريء.

فاضطرّ الشّيخ إلى اللّجوء إلى الجبال الكورديّة، حيث القرى والمناطق الّتي لا تصلها يد الحكومة آنذاك، لكونها تحت سيطرة القائمين بالحركة الكورديّة لنيل الاستقلال، وبقي هناك قاضياً وواعظاً وداعياً إلى الإسلام، ثمّ دعا أصحاب السّلطة هناك، أي من بيده زمام الأمور إلى عدم مخالفة تعاليم الشّريعة الإسلاميّة في تلك المنطقة، فلم يُكترث لأقواله، فعانى من اللّامبالاة به وبالدّين؛ فاختلف إثر ذلك ببعض المسؤولين اللّادينيّين، فعاد سنة ١٩٦٤م إلى ظلّ الحكومة الرّسميّة بعد صدور العفو عمّن يعود إلى صفّها حين كان عبد السّلام عارف رئيسها، وعُرضت عليه مغريات معيّنة، إلّا أنّه أبى إلّا أن يعود إلى المسجد، فعيّن إماماً وخطيباً ومدرّساً في الجامع الكبير في قضاء كويسنجق(كويه) التّابعة لمحافظة أربيل، تلك المدينة الّتي كانت تضمّ بين جوانحها أكثر من عشرين مسجداً، في كلّ مسجد إمام عالم ومؤذّن وقارىء وخادم. استطاع الشّيخ أن يلمّ شملهم ويجمعهم على قلب رجل واحد بعد تفرّقهم فيما قبل ذلك، فكانوا يجتمعون كلّ يوم في مجلسه في الجامع الكبير منذ الصّباح وحتّى حلول صلاة الظّهر يتداولون أطراف الحديث في الفقه والتّفسير والأدب والقصص وحتّى النّكتة الاجتماعيّة.

كما استطاع الشّيخ في تلك المدينة أن يجلب انتباه الشّباب المتأثّرين بالتّيارات غير الإسلاميّة إلى الإسلام، وتمّ ذلك بتناول المواضيع العصريّة في خطبه الهادفة ومواعظه الموجّهة على الرّغم من قصر فترة بقائه في (كويه) الّتي لم تبلغ سنتين.

ثمّ انتقل الشّيخ سنة ١٩٦٦م إلى قرية كبيسة بمحافظة الرّمادي (الأنبار) بناءً على طلب بعض أهاليها ووزارة الأوقاف، وذلك بعد أن توفّي شيخ تلك المدرسة بحادث مؤسف وخلّف بعده مسجداً جامعاً ومدرسة عامرة بالطّلاب، كان قد درّسهم بدايات العلوم الإسلاميّة، فبقي الطّلاب بعد وفاته في بداية الطّريق دون شيخ يستمرّ معهم.

ولثقتهم بالشّيخ الباليساني وقدرته العلميّة طلبوا منه ملء ذلك الفراغ والاضطلاع بذلك الواجب الصّعب، وكانت تنبع صعوبة ذلك الواجب من بُعد تلك القرية وعزلتها، وغربة العيش فيها بالنّسبة لرجل كرديّ عاش وتربّى وترعرع في المنطقة الجبليّة، في منطقته الكورديّة بين قومه وأهلها الّذين كان الإبتعاد عنهم وحشة وفراقهم صعباً. مع ذلك استجاب الشّيخ لذلك، لأسباب معيشيّة قهريّة، وظروف اجتماعيّة، ومشيئة إلهية شاءها الله سبحانه وتعالى، وكان شعاره دائماً هذا البيت من شعره الّذي كتبه يوم لجوئه إلى الجبال فراراً من الحكومة الدّكتاتوريّة:

سلّمت نفسي إلى أيدي القضاء والقدر ... نعم السّبيل هو يوم الأماني والخطر

فاستطاع الشّيخ في تلك القرية أن يدخل إلى قلوب أهلها وأن يخرج طلاب تلك المدرسة من عزلتهم الاجتماعيّة ومحدوديّة اطلاعاتهم العلميّة، ففتح لهم باب مكتبة المدرسة وسمح لهم بالسّفر خارج القرية، فاطّلعهم على اجتهادات العلماء ووسعة المذاهب، كي لا تؤدّي بهم قلّة الإطّلاع ومحدوديّة التّفكير إلى التّعصب الأعمى والانغلاق الفكري على رأي يمنع عنهم النّظرة الشّموليّة إلى الإسلام وعلمائه والتّفكير السّليم عن الحياة.

فتخرّج على يده في كبيسة علماء متنوّرون تصدّوا للخطابة والتّدريس في مختلف أنحاء العالم العربيّ والإسلامي أيضاً، إذ حصل بعضهم فيما بعد على شهادات جامعيّة عليا، وهم الآن أساتذة في بعض الجامعات الإسلاميّة أحياء يشهدون لهذا.

وبعد أن أنهى واجبه في كبيسة انتقل إلى بغداد العاصمة سنة ١٩٧١م وعيّن إماماً وخطيباً في جامع المصرف ومدرّساً في المعهد الإسلامي التّابع لوزراة الأوقاف، ثمّ نقل إمامته وخطابته إلى جامع حسن البارح سنة ١٩٧٦م وبقي حتّى سنة١٩٨٤م فأحال نفسه على التّقاعد حتّى لا تُستغل وظيفته كعنصر ضغط عليه للرّضوخ لسياسة الحكومة اللّادينية (العلمانيّة) الظّالمة آنذاك، إلّا أنّه استمرّ في وظيفته تكليفا، وفعلا أعفي من وظيفته تلك سنة ١٩٨٦م نتيجة صراحته في البيان ومجاهرته بكلمة الحقّ حين انتقد سياسة الحكومة أمام ثاني مسؤول في الدّولة آنذاك.

فالتزم بعد ذلك بيته، إلّا أنّه ظلّ يستقبل طلاب العلم والمسترشدين والمستفتين والمستفسرين منه، فتحوّل بيته رغم صغره وبساطته إلى دار للتّدريس والإفتاء والإرشاد واستقبال الضّيوف، وكان كثيرٌ من النّاس لا يطمئنون إلّا لفتواه، ولا يرتاحون إلّا لما يبديه هو من رأي، فأحبّه أهل بغداد وأحبّهم. لذلك أوصى قبل وفاته ألّا يدفن إلّا في بغداد بين من أحبّهم وأحبّوه، ثمّ وافاه الأجل إثر مرض عضال أصابه في ٢٤ نيسان سنة ١٩٩٥م، الموافق ٢٤ ذي القعدة ١٤١٥ه ـ وشيّع تشييعاً جماهيرياً إسلاميّاً لم تشهد بغداد مثله في العهد القريب، في موكب مؤلّف من العلماء وطلّاب العلم والمثقّفين المسلمين والعوام وموظّفي وزارة الأوقاف وغيرهم، وبدأ تشييعه من داره الكائنة في سبع أبكار إلى جامع سبع أبكار، ثمّ إلى جامع الإمام الأعظم (أبي حنيفة النّعمان) في الأعظميّة، ومن ثمّ إلى جامع الحضرة الكَيلانية مشياً أحياناً وركوباً أحياناً أخرى تحت

هتاف كلمة لا إله إلّا الله، فدفن جثمانه الشّريف في المقبرة الكَيلانيّة في جامع الشّيخ عبد القادر الكَيلاني (رحمه الله) وإيّانا، فأسكن الله الشيخ فسيح جنّاته آمين يا ربّ العالمين.

(الاتّجاه العلمي للشّيخ محمّد الباليساني)

كان الشّيخ (رحمه الله تعالى) عالماً في التّفسير والفقه وأصوله والسّيرة النّبويّة الشّريفة واللّغة العربية وعلم الكلام والفلك والمنطق وعلم المناظرة والإستدلال، كما كان شاعراً وأديباً، له ديوانان أحدهما باللّغة العربيّة والثّاني باللّغة الكورديّة، ومن حيث أصل الالتزام كان الشّيخ شافعيّ المذهب، فهو كان يتّبع في عبادته عمليّاً المذهب الشّافعي ومتربّيا عليه، لكنه في التّطبيق العملي كان يرغب جهد الإمكان أن يجمع بين المذاهب، فيحاول أن تكون عباداته موافقة لجميع المذاهب إن أمكن، ورعاً واحتياطاً لدينه، لأنّه كان ينظر إلى المذاهب الإسلاميّة كوحدة واحدة لا ينفصل أحدها عن الآخر، لذلك كان يبيّن للمستفتي آراء جميع المذاهب ليطلّع عليها في المسألة، فيخبره أنّه حرٌّ في العمل بأيّها شاء، فلا يجبر النّاس على الالتزام برأي شخص أو مذهب معيّن، وذلك تيسيرا على النّاس وتخفيفا عنهم؛ بغية جعل النّاس يتمسّكون بدينهم حتّى في الأحوال والظّروف الصّعبة، كي لا يبتعدوا عن العمل بالأحكام الشّرعيّة في وقت الضّيق والحرج عليهم. لذلك كان ييسّر في الفتوى في المعاملات للنّاس كي لا يحرج المسلمين الملتزمين ولا يبعدهم عن الحياة العامّة؛ لكي لايستلمها بدلهم الفسقة والكفرة، وحتّى لا تُسلّم الدّنيا في النّتيجة إلى الأشرار. لكنّه مع ذلك كان متشدّدا في مسألة الرّبى فلا يتفاهم فيها، ربّما إلّا بوجود رخصة الضّرورة، كما كان متشدّدا في مسألة سفور النّساء واجتماعهم مع الرّجال، فلا يقبل العذر في ذلك بأيّ حال من الأحوال.

وكان رحمه الله يرى أنّ جميع آراء المجتهدين والعلماء محترمة، صحيحها مقبول وخطؤها مغفور، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد، فلا يجوز الطّعن في بعض لأجل البعض الآخر، أو التّعصب لرأي شخص على حساب الآراء الأخرى اتّباعا لعادة متّبعة، أو طلبا لمصلحة شخصيّة أو منفعة ذاتيّة أو نزوة دانية.

وكان يرى أن يترك النّاس وما يعملون ماداموا يتحرّكون ضمن حدود الشّريعة وداخل إطار الإسلام، لذلك كان ينكر على الّذين يحاربون التّيار السّلفي الدّاعي إلى

الرّجوع إلى الكتاب والسّنّة، كما كان ينكر على السّلفية اعتراضهم الجارح على الملتزمين بالمذاهب الإسلاميّة، وينكر على الّذين يتّخذون من بعض الفروع الصّغيرة شعارا للدّعوة الإسلاميّة، لأنّ هذا ليس مهمّة الدّعاة إلى الإسلام في الوقت الحاضر، وإنّما مهمّة المسلمين الكبرى وعملهم الأساس هو إنقاذ الإسلام من سجنه المظلم اليوم وإخراجه إلى الحياة العامّة كنظام للمجتمع كما هو واضح في تفسيره هذا، وكان يدعو إلى إنقاذ المسلمين من المخاطر والدّسائس المحيطة بهم، إلى أن يتكوّن للإسلام كيان إسلامي قويّ ووضع مستقلّ وحكم مخلص صحيح، عند ذلك يمكن تصفية الأمور والسّير على النّهج الّذي تراه الدّولة الإسلاميّة مناسبا وجديرا بالتّبنّي.

أمّا نظرته إلى العقائد فكانت كنظرته إلى الفقه، إذ كان يعتبر الآراء الكلاميّة الإسلاميّة كلّها آراء إجتهاديّة للمصيب فيها أجران وللمخطيء أجر واحد، وكان يرفض إعادة الصّراعات الكلاميّة مستندا إلى نظرته التّي ترى أنّ مهمّة المسلمين الأساسيّة ليست هذه التّحقيقات والمجادلات التّي لا نهاية لها ولا نعيشها اليوم، بل الواجب هو العمل على إنقاذ الأمّة والتّخلّص من نفوذ دول الغرب وردّ مكائدهم وإنهاء سيطرتهم على بلادنا.

أمّا تفسيره للقرآن الكريم فكان ينبع من فكره النّيّر الّذي يرى أنّ معاني القرآن الكريم تستوعب الأمور جميعها في كلّ زمان ومكان، فهي قابلة للتّجدّد بتجدّد العصور والدّهور، وتزداد كلّما زادت مساحات العلوم والعرفان، فلا يزال النّاس يحتاجون إلى توسيع تفسيره واستيعاب فهمه ودقّة بيانه، وذلك حسب عقليّة الإنسان المتجدّدة بتجدّد الحياة وتنوّع أساليبها وظهور العلوم واكتشافاتها، بشرط ألّا يخرج عن الأصول والضّوابط والقواعد المشترطة لتفسير القرآن الكريم، كي لا يذهب بالقرآن إلى غير ما أنزل له أو يساق إلى غير مقاصده، لذلك لم يتقيّد الشّيخ الجليل في تفسيره بآراء تفسيريّة معيّنة لمن سبقه أحياناً، فالملاحظ أنه حين ينقل تلك الآراء، قد لا يرضى بجميعها ويبدي رأيا له آخر وفق فهمه واجتهاده، اعتمادا على ملكته التّي وهبها الله تعالى إياه، وعلى ما اكتسب من علم وخبرة خلال دراسته واطلاعه ومطالعاته وتجاربه في حياته.

يميل الشّيخ كثيراً إلى تفسير القرآن بالقرآن إذا أمكن ذلك، لذلك يلاحظ إكثاره من ذكر الآيات والمقارنة بينها للوصول إلى حقيقة ما تفيده الآيات، وإذا لم يمكن ذلك لجأ إلى السّنة فيفسّر القرآن بها، ثمّ بعد ذلك يلجأ إلى الرأي معتمدا على العلوم المطلوبة

من اللّغة وغيرها، ثمّ العقل وإن خالف فيها جلّ المفسّرين، ويعتمد أحيانا على ما وصل إليه العلم الحديث.

يتّصف تفسير الشّيخ بسهولة العبارة وسلاسة الأسلوب، ويتّبع في تفسيره الطّريقة العلميّة و الفكريّة محاولا تنوير العقل الإسلامي وتسخير المفاهيم للدّعوة إلى الإسلام، فيلجأ أحياناً إلى تقريب المفاهيم إلى الأذهان عن طريق القصص الواقعيّة والنّكات التعبيريّة وإيراد التّنبيهات واللّطائف، مع استعمال أسلوب الحوار وإثارة السّؤال والجواب عنه، ليستخرج من كلّ ذلك بعض الفوائد واللّطائف حسب ما يراه من مفاد الآيات التّي هو بصدد تفسيرها.

فقد سألته مرّة، لماذا تكتب بلغة سهلة وبسيطة ولا تكتبها بلغة يرى فيها العلماء مبلغ علمك وقوّة أسلوبك؟ فأجاب: إنّ القرآن أنزل مبينا للنّاس عامّة، لأنّ الواجب على جميع النّاس أن يفهموا دينهم عن طريق فهم القرآن، كلّ حسب مستوى فهمه وتفكيره؛ ولكي لا تكون العبارات الصّعبة حاجزا بين النّاس وفهم القرآن؛ فيحول دون العمل به والتّأثّر بمعانيه؛ فيسبّب ذلك لجوء المسلمين إلى من يكتب لهم ما يخالف الإسلام بلغة يفهمونها بسرعة فيتأثّرون بالأفكار والمباديء المناهضة للإسلام والمسلمين فيَضلّون ويُضلّون، لذلك لم يكن يكتب لأهل الاختصاص فحسب، بل كان يكتب لجميع النّاس، علمائهم وعوامّهم وخواصّهم وبسطائهم ومثقّفيهم.

ومع ذلك فهو يقف في تفسيره لآيات الأحكام عند المسائل الفقهيّة فيبيّنها تفصيلا والعقائديّة أو الكلاميّة فيوضّحها جيدا واللّغوية فيحلّلها نحوا وصرفا، لذلك خرج تفسيره هذا موسوعة احتوت كثيرا من الجوانب العلميّة الإسلاميّة.

وكان عملي في هذا التّفسير كما بيّنه أخي الدّكتور حسين في مقدمته القصيرة أنّي قمت بمراجعته ثلاث مرات لتصحيح الأخطاء المطبعيّة وتخريج الأحاديث الّتي استشهد بها مع بعض التّعقيبات التّي رأيتها ضروريّة فسجّلتها في الهامش لعلّها تنفع القاريء الكريم، مع ذلك لم أقم بتحقيق متكامل لقصر وقتي وكثرة انشغالي وتركت ذلك لطلبة العلم عسى أن يقوموا به ويكملوا جهدي مستقبلا فينتفعوا وينفعوا.

هذا وأرجو أن أكون قد وفّقت إلى إظهار ما يهمّ المسلمين معرفته من حياة والدي الشّيخ المفسّر للقرّاء الكرام وما يهمّ المطّلعين على هذا السّفر الخالد الّذي أرجو أن

يحقّق المرام، ويغفر الله تعالى لي ولوالديَ وللمسلمين وللمسلمات. وأنا العبد الفقير إلى العناية واللّطف الرّبّاني أحمد بن الشّيخ المفسّر الشّيخ محمّد الباليساني، كتبت هذه المقدّمة في ١|٩| ١٩٩٥م، والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً.

أ.د. أحمد الشيخ محمد الباليساني
كلية القانون والسياسة/
جامعة صلاح الدين/ أربيل

مقدّمة المؤلّف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه على ما أنعم، وعلّم الإنسان ما لم يعلم، والصّلاة والسّلام على من بعثه بالمنهج الحقّ والنّظام الأقوم ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للتّي هي أقوم﴾ سورة الإسراء الآية/ ٩، محمّد رسول اللّه الذي وصفه اللّه تعالى بأنّه ﴿لعلى خلق عظيم﴾ سورة القلم الآية/ ٤، وقال له: ﴿وإنّك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ سورة الشورى آخر الآية/ ٥٢ ـ فوصفه الكامل ومدحه التّام ليس من مقدور العباد فكيف بمن مدحه ربّ العباد، فعليه ما لا يحصى من الصّلاة والتّسليم، وعلى آله وأصحابه أئمة الهدى وقادة التّعليم، وعلى كلّ من اهتدى بهديهم واستقام على طريقتهم إلى يوم الدّين ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلّا من أتى اللّه بقلب سليم﴾ سورة الشعراء الآيتان/ ٨٩ و٨٨. وعلينا وعلى جميع إخوتنا وأحبّتنا ومن صاحبنا وصاحبناه في التّعلّم والتّعليم، وما ذلك على اللّه تعالى بعزيز، واللّه على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

أمّا بعد: فإنّ القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ربّ العالمين ومنهجه القويم وصراطه المستقيم، من تمسّك به نجا، قال تعالى: ﴿فمن اتّبع هداي فلا يضلّ ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فانّ له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربّه ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى﴾ سورة طه الآيات/ (١٢٤-١٢٨). هذا وقد اهتدى بهدي هذا القرآن العظيم السّلف الصّالحون فآتاهم اللّه تعالى السّيادة العظمى على العالمين وقيادة

الأمم في الدّنيا وفي الدّين. وحينما انحرفنا عن تعاليمه سلّط الله تعالى علينا الذّلّ تحت نير المستعمرين، فساموناً سوء العذاب وسلبوا منّا فلسطين وغيرها من البلاد[١]. فهذا ما عوقبنا به في الدّنيا، ولست أدري ماذا يفعل بنا الله تعالى في يوم المعاد؟ وحيث إنّ هذا القرآن منهج الحياة للأفراد والأمم، وبه يسود المسلمون في الدّنيا، ويرفعون رايات المجد والعلم، ويفوز من تمسّك به بسعادة الدّنيا والآخرة، كان فهمه وتفهيمه وتعلّمه وتعليمه من أفضل الطّاعات، والاشتغال به تلاوةً وترتيلاً وحفظاً وتأويلاً من أفضل القربات، وقد حبّب الله تعالى إليّ هذا القرآن المبين، وجعلني والحمد لله من سدنته وخادمه الأمين، كيف لا! وقد نشأت في عائلة عريقة في العلم والدّين، فشرعت منذ شبابي أحفظ منه أعشاراً وأحزاباً. وأتلوها بصوت جهوري في مجالس تلمّ أصدقاءً وأحباباً. وكان صوتي يعجب السّامعين، وتلاوتي لا بأس بها من حيث التّجويد والتّحسين. وبذلك كنت محبوباً عند الأساتذة والمسلمين، لا سيّما شقيقي الأكبر وشيخي الشّيخ عمر، فكان لا يدعني أن أُفارقه في الحضر والسّفر وفي مجالس الإرشاد والعِبر. فكنت أتلو بأمره قبل بدئه إلقاء دروس الوعظ والإرشاد، وفي غير ذلك في مجالس ومناسبات تفتح بكلام ربّ العباد. ثمّ شوّقني اللّه تعالى، بل وساقني إلى التّفسير، لأنّي كلّفت من جهة رسمية[٢] أن أشترك في لجنة تقوم بالتّفسير، وقد عيّن لي قسم من هذا الأمر الخطير. فلمّا انتهيت ممّا فوّض إليّ حسب التّقسيم، حدا بي الشّوق إلى تفسير سورة يوسف (عليه السلام)، ففسّرتها تحت عنوان (**القول المنصف في تفسير سورة يوسف**) .ثمّ فتحت وزارة الأوقاف في بغداد دورة تطويرية للأئمة والخطباء، الذين هم في عنفوان الشّباب، ويشتاقون إلى المزيد من فهم الفقه والإطّلاع على السّنّة والكتاب، فعيّنت محاضراً في تلك الدّورة المباركة المهمّة، وفسّرت لهم (**جزء عم**) تحت عنوان (**تفهيم الأمة تفسير جزء عم**). ثمّ أحببت أن أفسّر سورة (**يس**) لكثرة فضيلتها وكثرة تلاوتها بين المسلمين، ففسّرتها تحت عنوان (**القول الحصين في تفسير سورة يس**)، ثمّ عزمت أن أسدّ هذا الفراغ الأهم فأفسّر ما بين سورة (**يس**) و (**جزء عم**)، فبدأت بجزء تبارك، وفسّرته تحت

---

(١) اي الأندلس وبعض بلاد شرق أوروبا.

(٢) لجنة من وزارة التربية والتعليم لوضع مناهج تفسير جديدة للمدارس التابعة لوزراة التربية يدرس فيها تفسير للقرآن الكريم مكتوب بأيدي عراقية وكان ذلك سنة ١٩٨١م.

عنوان (**القول المبارك في تفسير جزء تبارك**)، ثمّ فسّرت جزء (قد سمع الله) تحت عنوان (**حسن الانتباه تفسير جزء قد سمع الله**) وجزء (والذّاريات)، وسمّيتها (**الدّرر الغاليات في تفسير جزء والذّاريات**)، ثمّ تركت هذا التّرتيب، فصعدت إلى سورة (الصّافات)، ففسّرت سورة (**الصّافات**) و (**ص**) و (**الزّمر**) و(غافر) تحت عنوان (**تنوير البصائر في تفسير سورة والصّافات وزمر وغافر**)، ثمّ فسّرت سورة الشّورى والزّخرف والدّخان والجاثية، وسمّيتها (**جوهرة غالية في تفسير سورة الشّورى والزّخرف والدّخان والجاثية**). ثمّ فسّرت باقي سور الذّاريات وسمّيتها (**كشف الأصداف في تفسير سورة الأحقاف ومحمد والفتح والحجرات وقاف**)، وقد طبع بعض هذه العناوين، وسنطبع الباقي إن شاء الله تعالى ربّ العالمين. ثمّ بعد الفراغ من إتمام هذه الأجزاء اقترح علينا بعض الأحبّة والخلّان أن انتقل إلى أوّل القرآن فأبدأ من سورة (**الفاتحة**) واستمرّ على هذا العمل إلى أن أكمّل تفسير هذا الكتاب الأجلّ إن شاء اللّه تعالى الميسّر للأمور، فاستحسنت ذلك الاقتراح، ولبّيت طلبهم بكلّ ارتياح، فبدأت بهذا العمل الخطير. وتوكّلت على اللّه العليّ القدير، فعسى أن يوفّقني ويسهّل عليّ هذا المرام، وأرجو أن يعصمني من الزّلل والخطأ في الكلام، وأن يرزقني إتمام هذا العمل خير إتمام، وأن يتوّجني بتاج حسن الخاتمة وحسن الختام، وأن يغفر ذنوبي الكثيرة وما اقترفتها من المعاصي والآثام، وأن لا يفضحني يوم الحساب، وأن يتفضّل علي بالزّلفى وحسن مآب، إنّه غفور رحيم وبعباده لطيف كريم، وسمّيته (**حسن البيان في تفسير القرآن**)، وأوصي الأولاد والأحفاد أنّهم إذا أرادوا طبع ما كتب أو إعادة طبع ما طبع من هذا التّفسير أن يجعلوا هذا العنوان كالعنوان العام. وعدم إزالة مقدّمات الأجزاء بعد إدراجها في هذا العنوان العام، وذلك لتكون ذكرى للأحباب، وليطّلعوا كيف بدأت بتفسير هذا الكتاب، وليعرفوا عذري حينما يرون الاختلاف في الأسلوب والتّرتيب، هذا واللّه الموفّق، وهو يهدي السّبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين. وبدأت بهذا العمل يوم السّبت الموافق ٢٤ شعبان/١٤٠٦ هجرية.

تنبيه: ذكرت كيفيّة عملي في كتابة هذا التّفسير لينتبه لها القراء الكرام، وليعلموا السّبب في أنّي كثيراً ما أحيل القارىء من السّابق على اللّاحق وبالعكس، فأقول مثلاً في تفسير جزء تبارك(وقد ذكرت هذا في تفسير جزء عمّ مفصّلاً)، أو أقول لقد فصّلت هذا

الموضوع فى سورة يوسف وهكذا، وليعلم أنّ ذلك حصل بسبب أن تفسيري لم يحصل من أوّل القرآن إلى آخره تنزّلاً ولا من آخره تصاعداً، بل كان متفرّقاً كما ذكرنا وحسب المناسبات! ولذلك اختلفت الاشارات إلى المواضيع والإحالة إلى المراجع. وهكذا كان عملي، فما كان حسناً فهو من هداية اللّه تعالى، وما لا، فهو من قصوري وزللي. فأرجو المعذرة وسدّ الخلل وللّه دّر من قال:

وإن تجد عيباً فسدّ الخللا فجلّ من لا عيب فيه وعلا

مقدّمة وفيها فوائد

الفائدة الأولى: بيان فضيلة القرآن الكريم: لقد وردت آيات وأحاديث كثيرة في فضل هذا القرآن الكريم والإشادة بهذا الكتاب العظيم، وإليك بعضاً من هذه الآيات والأحاديث. والآيات التي تنطق بفضل القرآن الكريم قسمان:

القسم الاوّل: آيات تسمّيه بالقرآن أو الصّحف، وهي:

١- قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٥.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ سورة الاسراء الآية/ ٩.

٣- قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ سورة الاسراء الآية/ ٢٨.

٤- قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء الآية/ ٨٨.

٥- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ سورة الزمر الآية/ ٢٧-٢٨.

٦- قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ سورة الجن الآية/ ١-٢.

٧- قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ سورة البروج الآية/ ٢١-٢٢.

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ (٧٨) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ سورة الواقعة الآية/ ٧٧-٧٩.

٩- قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ سورة عبس الآية/ ١١-١٧.

القسم الثّاني: آيات تسمّي القرآن بالكتاب وهي: ١- قال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١-٢.

٢- قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة المائدة الآية/ ١٥-١٦.

٣- قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ سورة الأنعام الآية/ ٩٢.

٤- قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ سورة الانعام الآية/ ١٥٥.

٥- قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ سورة هود الآية/ ١.

٦- قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ سورة الكهف الآية ١-٢.

٧- قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ سورة الزمر الآية/ ٢٣.

٨- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) ـ سورة الأحقاف الآية/ ٢٩-٣٠.

إلى غير ذلك من الآيات وفي هذا القدر كفاية لأولي الألباب.

(الأحاديث الواردة في فضل القرآن الجليل)

١- عن عثمان رضي الله عنه عن النّبيّ (ﷺ) قال: خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه. رواه البخاري وأبو داود والتّرمذي[١] كما ذكره التّاج[٢].

٢- عن عائشة رضي الله عنها عن النّبيّ (ﷺ) قال: الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩١٩ الحديث رقم ٤٧٣٩، سنن أبي داود ٢/ ٧٠ الحديث رقم ١٤٥٢، سنن الترمذي ٥/ ١٧٣ الحديث رقم٢٩٠٧.

(٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (ﷺ) للشيخ منصور علي ناصف ٤/ ٤.

والذي يقرأ وهو يشتّد عليه له أجران. رواه الأربعة، أي البخاري ومسلم وأبو داود والتّرمذي كما في التّاج[١].

٣- عن أبي موسى ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيّب وطعمها طيّب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القران مثل التّمرة طعمها طيّب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القران مثل الرّيحانة ريحها طيّب وطعمها مرّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مرّ. رواه الخمسة، والمراد بالخمسة إذا ذكروا هؤلاء الأربعة والنّسائي[٢].

٤- عن عقبة بن عامر ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: خرج علينا رسول اللّه (ﷺ) ونحن في الصّفّة، فقال: أيّكم يحبّ أن يغدو كلّ يوم إلى بطحان أو العقيق فيأتي منه بناقتين كوماوين في غير إثم باللّه ولا بقطع رحم؟ فقلنا: يا رسول اللّه كلّنا نحبّ ذلك، قال: فلإن يغدو أحدكم كلّ يوم إلى المسجد فيتعلّم آيتين من كتاب اللّه عزّ وجلّ خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الأبل. رواه مسلم وأبو داود[٣] رضي اللّه تعالى عنهما

٥- عن أبي هريرة ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: (ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل اللّه له به طريقاً إلى الجنّة. وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلّا نزلت عليهم السّكينة وغشيتهم الرّحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم اللّه فيمن عنده). رواه مسلم وأبو داود كما في التّاج[٤].

---

(١) التاج الجامع للأصول ٤/ ٤ بهذا اللفظ. ولكن لم يرد بهذا اللفظ في الكتب المذكورة، وفي مصنف عبد الرزاق بلفظ قريب من هذا وهو: (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ وهوعليه شديد فله أجران اثنان | انظر المصنف ٢/ ٤٩١ الحديث رقم٤١٩٤، وفي صحيح مسلم عن عائشة (ﷺ) قالت: قال رسول الله (ﷺ) الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران) وقال مسلم وفي حديث وكيع: والذي يقرأ وهو يشتد عليه له أجران.

(٢) البخاري ٥/ ٢٠٧٠ الحديث رقم ٥١١١ بلفظ (كمثل بدلا من مثل)، مسلم ١/ ٥٤٩ الحديث رقم٧٩٧، سنن ابي داود ٤/ ٢٥٩ الحديث رقم ٤٨٢٩ بلفظ (الفاجر بدلا من المنافق)، سنن الترمذي ٥/ ١٥٠ الحديث رقم ٢٨٦٥ بلفظ (كمثل)، النسائي ٦/ ٥٣٨ الحديث رقم ١١٧٦٩، ابن ماجة ١/ ٧٧ الحديث رقم ٢١٤.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٥٥٢ الحديث رقم ٨٠٣ واللفظ له، أبوداود ٢/ ٧١ الحديث رقم ١٤٥٦،

(٤) التاج ٤/ ٥، مسلم ٤/ ٢٠٧٤ الحديث رقم ٢٦٩٩ واللفظ له ضمن حديث بدايته (من نفس عن مؤمن كربة....) وآخره (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه)، أبو داود ٣/ ٣١٧ الحديث رقم ٣٦٤١

٦- عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النّبيّ (ﷺ) قال: يقال لصاحب القرآن: إقرأ وارق ورتّل كما كنت ترتّل في دار الدّنيا فإنّ منزلتك عند آخر آية تقرؤها. رواه أبو داود والتّرمذي كما في التّاج[١].

٧- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ (ﷺ) قال: يجيء القرآن يوم القيامة فيقول: يا ربّ حلّه فيلبس تاج الكرامة. ثمّ يقول: يا ربّ زده فيلبس حلّة الكرامة. ثمّ يقول: يا ربّ ارض عنه فيرضى عنه، فيقال له: إقرأ وارق ويزاد بكلّ آية حسنةً. رواه التّرمذي بسند صحيح كما في التّاج[٢].

٨- وفي حديث لأبي داود: من قرأ القرآن وعمل بما فيه أُلبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشّمس في بيوت الدّنيا لو كانت فيكم فما ظنّكم بالذي عمل بهذا[٣].

٩- عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ الّذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيت الخرب[٤].

١٠- عن عبداللّه[٥] رضي الله عنه عن النّبيّ (ﷺ) قال: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف[٦].

١١- عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النّبيّ (ﷺ) قال: يقول الرّبّ تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السّائلين وفضل كلام اللّه على سائر الكلام كفضل اللّه على خلقه[٧].

---

(١) سنن ابي داود ٢/ ٧٣ الحديث رقم١٤٦٤، سنن الترمذي ٥/ ١٧٧ الحديث رقم٢٩١٤ وقال: هذا حديث حسن صحيح. التاج ٤/ ٥.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٧٨ الحديث رقم ٢٩١٥، ولم أجده في سنن أبي داود ن التاج ٤/ ٥.

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٧٠ الحديث رقم ١٤٥٣.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١٧٧ الحديث رقم ٢٩١٣ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٥) أي عبد الله بن مسعود كما في سنن الترمذي ٥/ ١٧٥.

(٦) سنن الترمذي ٥/ ١٧٥ الحديث رقم ٢٩١٠ وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٧) سنن الترمذي٥/ ١٨٤ الحديث رقم ٢٩٢٦ وقال هذا حديث حسن غريب.

١٢- عن علي ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: من قرأ القرآن واستظهره فأحلّ حلاله وحرّم حرامه أدخله اللّه به الجنّة وشفعه في عشرة من أهل بيته كلّهم وجبت لهم النّار[١].

١٣- عن أبي أمامة ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: (ما أَذِنَ اللّه لعبد في شيء أفضل من ركعتين يصلّيهما، وأن البرّ ليذر على رأس العبد ما دام في صلاته، وما تقرّب العباد إلى اللّه بمثل ما خرج منه، يعني القرآن[٢].

١٤- عن أبن عباس ﷺ قال: قال رجل: أي العمل أحبّ إلى اللّه؟ قال: الحالّ المرتحل، قال: وما الحالّ المرتحل؟ قال: الذي يضرب من أوّل القرآن إلى آخره كلّما حلّ ارتحل[٣].

١٥- عن الحارث الأعور قال: مررت في المسجد فاذا النّاس يخوضون في الأحاديث فدخلت على عليٍّ ﷺ فقلت: يا أمير المؤمنين ألا ترى أنّ النّاس قد خاضوا في الأحاديث؟ قال: وقد فعلوها؟ قلت: نعم. قال: أما أنّي سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: ألا إنّها ستكون فتنةٌ، فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأُ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبّار قصمه اللّه، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه اللّه، وهو حبل اللّه المتين، وهو الذّكر الحكيم وهو الصّراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرّدّ، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجنّ إذا سمعته حتّى قالوا: (إنّا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرّشد) من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم. خذها اليك يا أعور[٤]. روى هذه الأحاديث السّبعة التّرمذي كما ذكره التّاج[٥].

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٧١ الحديث رقم ٢٩٠٥ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بصحيح.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٧٦ الحديث رقم٢٩١١، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ١٩٧الحديث رقم ٢٩٤٨، وقال هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث ابن عباس إلا من هذا الوجه وإسناده ليس بالقوي.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١٧٢ الحديث رقم ٢٩٠٦، وقال هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول، وفي الحرث مقال.

(٥) التاج ٤/ ٧.

١٦- عن النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ اللّه تبارك وتعالى قرأ (طه) و(يس) قبل أن يخلق السّموات والأرض بألف عام، فلمّا سمعت الملائكة القرآن قالت: طوبى لأمّة ينزل هذا عليها، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسنة تتكلّم بهذا. رواه البغوي في المصابيح(١). وهذا ما سردنا من الأحاديث التّي تتعلّق ببيان فضيلة القرآن، وتوجد أحاديث كثيرة أخرى في هذا الموضوع. وتوجد أحاديث تتعلّق ببعض السّور بخصوصها، نذكرها عند تفسير تلك السّور إن شاء اللّه تعالى. وإنّ هذه الأحاديث كلّها نقلتها من التّاج في مستهلّ الجزء الرّابع في كتاب فضائل القرآن .

الفائدة الثّانية:

الاستعاذة ومعناها: قال اللّه تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة النحل الآية/ ٨٩ .فهم العلماء من هذه الآية وممّا أخذوها من أقوال وأفعال الرّسول (ﷺ). أنّه يسنّ لمن أراد أن يقرأ شيئاً من القرآن الكريم أن يستعيذ باللّه من الشّيطان الرّجيم قبل القراءة، سواءٌ أكانت القراءة في الصّلاة أو خارجها، وعند البعض(٢) أنّ الاستعاذة واجبة لظاهر الأمر بها في الآية، والأمر للوجوب إلّا أن يقترن به قرينة تصرفه عن الوجوب، وقول الجمهور أصحّ لوجود دلائل صرفت الأمر عن الوجوب، وهذه الدّلائل ليس هنا مجال لذكرها. وإنّ وقت الاستعاذة قبل الشّروع في القراءة كما هو قول الجمهور، وعند بعضٍ وقتها بعد الفراغ من التّلاوة. وهذا القول بعيد جدّاً، لأنّ التّالي يتعوّذ باللّه من الشّيطان رجاء أن يمنعه من أن يفسد عليه تلاوته بما يُلقي في قلبه من الوساوس وأحاديث النّفس أو الجهر بها خارج الصّلاة، وأمّا فيها ففي الصّلاة السّرية يخفيها كما يخفي القراءة، وفي الجهرية قولان: الأكثر على أنه يسرّ بها(٣)، والأرجح استحبابها في الصّلاة في الرّكعة الأولى فقط ؛ لأنّ الصّلاة كلّها قراءة واحدة فتكفيها استعاذة واحدة، وعند البعض يسنّ الاستعاذة في كلّ ركعة، والأحسن أن

---

(١) مشكاة المصابيح ١/ ٦٢٢ الحديث رقم ٢١٤٨.وقال ابن الجوزي هذا حديث موضوع انظر الموضوعات١/ ٦٨.

(٢) وهو عطاء بن رباح انظر تفسير القرطبي ١/ ٨٦.

(٣) وروي عن عمر بن الخطاب و أبي هريرة (رضي الله عنهما) انهما جهرا بها وعند الشافعي كلا الأمرين جائز [أنظر تفسير الرازي ١/ ٥٩.وأحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٥٨.

يعمل المرء بما يخرج به عن الخلاف فيتعوّذ في كلّ ركعة. وصيغتها المشهورة هي: (أعوذ باللّه من الشّيطان الرّجيم)، وقال بعض الأحسن أن يقول: (أعوذ باللّه السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم) لسماع تلك الصيغة من الرّسول (ﷺ). ومعناها ألتجئ إلى اللّه تعالى لأن يحفظني من الشّيطان الرّجيم من أن يوسوس في قلبي فيصرفني عن التّلاوة أو يشوشها عليّ أو أن يغفلني عن التّدبّر فيها. فإنّ (أعوذ) مضارع (عاذ)، و(عاذ) معناه التجأ إلى غيره لأن يحفظه مما يحذر ويخاف منه. كما أنّ (لاذ) معناه التجأ إلى الغير ليحصل له ما يطلب ويريد.قال الشّاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمّله كما أعوذ به فيما أحاذره

لا يجبر النّاس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

والشّيطان اسم لكلّ شخص يدعوك إلى الشّرّ أو إلى مخالفة شرع اللّه تعالى. سواء كان ذلك الشّخص من الجنّ أو من الإنس، بدليل قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّاً شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ سورة الأنعام الآية/ ١١٢. وقال تعالى: ﴿الخناس * الذي يوسوس في صدور النّاس * من الجنّة والنّاس﴾ سورة الناس الآيتان/ ٥،٦. ولأنّ الشّيطان إمّا مشتقّ من (شطن)، أي تباعد؛ سمّي به أبليس لأنّه تباعد عن الحقّ، أو هو مشتقّ من (شاط)، أي هلك؛ سمّي به إبليس لأنّه هلك بسبب معصيّته، فكلّ من ابتعد عن الحقّ ودعا إلى الباطل أو هلك بسبب ابتعاده عن الحقّ وخوضه في الباطل فهو شيطان، سواءٌ كان إنساناً أو جناً. ولا شكّ أنّ شيطان الإنس أكثر ضرراً وإضلالاً من شيطان الجنّ، لأنّ شيطان الجنّ لا يستطيع فعل شيء إلّا أن يدخل الوسوسة وميل الشّرّ في القلب ويخنس عند ذكر اللّه تعالى. ولكن شيطان الإنس يواجهك بالدّعوة إلى المعصيّة ويزيّنها إليك ويحضر لك أسبابها، ومنهم من يجبرك عليها؛ فهو أكثر تماسّاً وأكثر تأثيراً، ولذلك قدّمه اللّه تعالى في الذّكر، فقال: شياطين الإنس والجنّ، وإنّما أخّره في سورة النّاس، لأنّ التّرقّي هناك من الأدنى إلى الأعلى كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿قل أعوذ بربّ النّاس * ملك النّاس * إله النّاس﴾ سورة الناس الآيات/ ١، ٢، ٣. ـ فإنّ الإله أعلى من المَلِك والمَلِك أعلى من الرّبّ ولا يخفى ذلك. والرّجيم فعيل بمعنى المفعول من الرّجم وهو الطّرد، فالرّجيم هو المطرود، لقب به إبليس، لأنّه طرد من حضرة الرّبّ ومن رحمته، وذكره في الاستعاذة للإشارة إلى أنّ كلّ من دعاك إلى شرّ ومخالفة للشّرع فهو مطرود ويجب

عليك طرده والابتعاد عنه مهما كانت منزلته منك وإليك وعليك، فنعوذ باللّه من كلّ شيطان رجيم. وتقديم الاستعاذة على البسملة للدّلالة على وجوب تقديم التّخلّي عن الرّذائل على التّحلّي بالفضائل، ولهذه الحكمة أيضاً قدّم النّفي على الإثبات في كلمة (لا إله إلا اللّه) كلمة التّوحيد، وقدّم الوضوء على الصّلاة والله تعالى أعلم. والاستعاذة ليست آية من الفاتحة ولا من القرآن الكريم، بل هي صيغة وردت من الرّسول (ﷺ) للاستعاذة بها.

❊ ❊ ❊

الفائدة الثّالثة: فضيلة سورة الفاتحة: ١- عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنت أصلّي فدعاني النّبيّ (ﷺ) فلم أجبه، قلت: يا رسول الله إنّي كنت أصلّي. قال: ألم يقل اللّه ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[١] سورة الأنفال الآية/ ٢٤ ـ ثمّ قال: ألا أعلّمك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلمّا أردنا أن نخرج قلت: يا رسول اللّه إنّك قلت لأعلّمنّك أعظم سورة من القرآن، قال: (الحمد للّه ربّ العالمين) هي السّبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " رواه البخاري وأبو داود والتّرمذي[٢]، وزاد التّرمذي والّذي نفسي بيده ما أُنزلت في التّوراة ولا في الإنجيل ولا في الزّبور ولا في الفرقان مثلها، وإنّها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته٢,- عن أبي هريرة ﷺ عن النّبيّ (ﷺ) قال: الحمد لله ربّ العالمين أمّ القران وأمّ الكتاب والسّبع المثاني رواه أبو داود والتّرمذي وصحّحه[٣].

٣- عن ابن عباس ﷺ قال بينما جبريل قاعد عند النّبيّ (ﷺ) سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السّماء فتح اليوم لم يفتح قط إلّا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلّا اليوم، فسلّم فقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبيّ قبلك! فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلّا أعطيته[٤]. رواه مسلم/ التّاج.

---

(١) الأنفال . ٢٤.

(٢) البخاري ٤/ ١٦٢٣ الحديث رقم ٤٢٠٤،

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٧١ الحديث رقم١٤٥٧. سنن الترمذي ٥/ ٢٩٧ الحديث رقم ٣١٢٤.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٥٥٤ الحديث رقم ٨٠٦.

سورة الفاتحة

(مكيّة، وهي سبع آيات)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قبل الشّروع في المقصود وزيادةً للاستفادة نشرح هذه الألفاظ: (السّورة، الفاتحة، مكيّة، سبع آيات، الآيات) إن شاء اللّه تعالى، فنقول وباللّه التّوفيق.

١ ـ السّورة: المراد بها في القرآن الكريم طائفة من آيات الذّكر الحكيم فصّلت عن قريناتها بالبسملة وبشكل على صورة المحراب أو دائرة مستطيلة وسمّيت بذلك لأمور: **الأوّل:** إنّ السّورة واحدة السّور، كما أنّ التّمرة واحدة التّمر، و(السّور) ما يصنع من حائط أو سياج حول بلدة أو بستان أو عرصة أو دار لتتميّز وتنفصل عن غيرها، فالسّورة هنا ما فصّل من الآيات عن قريناتها، فالسّورة إذن بمعنى المسوّرة، أي المسيّجة والمحاطة، أي الطّائفة من الآيات المسيّجة.**الثّاني:** جاءت السّورة بمعنى المنزلة، فكلّ سورة لها منزلة من منازل القرآن الكريم.**الثّالث:** السّورة جاءت بمعنى الفضل والشّرف، فكلّ سورة فاضلة وشريفة.**الرّابع:** إنّ السّورة جاءت بمعنى العلوّ، فكلّ سورة عالية في الرّتبة والشّرف، فلهذه المناسبات سمّيت هذه الآيات بالسّورة.

٢ ـ لهذه السّورة اثنا عشر اسماً: **الأوّل:** **الفاتحة:** اسم فاعل أطلق بمعنى اسم الآلة، أي ما يفتح به الشّيء، سمّيت هذه السّورة بها، لأنّها تُفتح بها القرآن، فهي أوّلها، وتُفتح بها الصّلاة أيضا، وتُفتح بها الكتب والكتابة، وتُفتح بها الخطب. قال الرّسول (ﷺ): (كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه بالحمد للّه فهو أقطع)[1]، أي مقطوع البركة.**الثّاني:**

---

(١) سنن النسائي٦/ ١٢٧ الحديث رقم ١٠٣٢٨.

الصّلاة: أي سورة الصّلاة، لأنّها تُقرأ فيها فرضاً أو وجوباً.**الثّالث**: **سورة الحمد**: لأنّها صدرت بجملة (الحمد للّه).**الرّابع**: **أمّ الكتاب**: لأنّها إجمال لما في القرآن كلّه، وكلّ ما في القرآن يرجع إليه، لأنّ كلّ ما في القرآن إمّا توحيد، أو ذكر لصفات اللّه، أو أحكام، أو قصص، أو وعد أو وعيد، وكلّ ذلك موجود في الفاتحة إجمالاً وإشارة، فقوله: **(الحمد للّه ربّ العالمين)** فيه إثبات جميع صفات الكمال له، ومن ضمنها التّوحيد لذاته. وقوله: **(الرّحمن الرّحيم)** فيه الوعد بالثّواب لمن أطاعه. وقوله: **(مالك يوم الدّين)** إشارة إلى عقاب من عصاه، و**(إيّاك نعبد)** إشارة إلى الأحكام، لأنّ العبادة هي الإطاعة، والإطاعة لا تكون إلا إذا كان للمطاع أمر ونهي، والأمر والنهيّ يشمل ويحتوي على الأحكام كلّها، وفيه أيضاً توحيده في العبادة والحكم .**(اهدنا الصّراط المستقيم)** فيه توحيده بالدّعاء والتّضرع إليه، **(صراط الذين أنعمت عليهم)** فيه إشارة إلى قصص وذكر الأنبياء والصّالحين الذين سبقونا وأنعم اللّه عليهم، **(غير المغضوب عليهم ولا الضّالين)** فيه التّذكير بأحوال المجرمين وما جرى عليهم من الأمم الذين أهلكوا نتيجة الانحراف عن اللّه تعالى وشريعته. وكره أنس والحسن وابن سيرين تسميّة سورة الفاتحة بـ (أمّ الكتاب) وقالوا،لأنّ أمّ الكتاب هو اللّوح المحفوظ. **الخامس**: **أمّ القرآن**: سمّيت بهذا الاسم للمعاني أنفسها التي ذكرتها في تسميّتها بأمّ الكتاب، وكره ابن سيرين والحسن وأنس تسميّتها بهذا الاسم أيضاً، قال القرطبي توجد أحاديث صحيحة ترد فيها هذين القولين، منها: ما روى التّرمذي عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه قال: قال رسول اللّه (ﷺ) (الحمد للّه أمّ القرآن وأمّ الكتاب والسّبع المثاني)[1] وقال التّرمذي هذا حديث حسن صحيح .**السّادس**: **المثاني**: سمّيت بذلك، لأنّها تثنّى في الصّلاة، ولأنّها استثنيت وخصّت بهذه الأمّة فلم تنزل على أمّة أخرى من قبل.**السّابع**: **القرآن العظيم**: لما فيها من جميع معاني القرآن إجمالاً، كما ذكر سابقاً.**الثّامن**: **الشّفاء**: لما روى الدارمي عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللّه (ﷺ) فاتحة الكتاب شفاء من كلّ سمّ. وفي رواية (من كلّ داء).**التّاسع**: **الرّقيّة**: لأنّه رقى بها أحد الأصحاب الذي كان ملدوغاً فطاب، وقال له الرّسول (ﷺ): ما أدراك أنّها رقيّة ؟ فقال: يا رسول اللّه شيء ألقي في روعي[2]).**العاشر**: **الأساس**: قال الشّعبي سمعت ابن عباس ﷺ يقول: لكلّ شيء

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٣٩٧ الحديث رقم٣١٣٤ وقال حسن صحيح.

(٢) نصّ الحديث: ما روي عن أبي سعيد الخدري (ﷺ) قال: إن ناسا من أصحاب رسول الله (ﷺ) مروا

أساس، وأساس الدّنيا مكّة، لأنّها منها دحيت الأرض، وأساس السّماوات عريباً وهي السّماء السّابعة (وفي بعض الأصول غَريباً، وهو الأرجح لمناسبته لعجيباً الذي يأتي)، وأساس الأرض عجيباً وهي الأرض السّابعة (أي الطبقة السّابعة من الأرض)، وأساس الجنان جنّة عدن، وهي سرّة الجنان عليها أسّست الجنّة، وأساس النّار جهنّم، وهي الدّركة السّابعة السّفلى عليها أسّست الدّركات، وأساس الخلق آدم ، وأساس الأنبياء نوح، وأساس بني إسرائيل يعقوب، وأساس الكتب القرآن، وأساس القرآن الفاتحة، وأساس الفاتحة (بسم اللّه الرّحمن الرّحيم) فاذا اعتللت أو اشتكيت فعليك بالفاتحة تشفى.**الحادي عشر: الوافية:** لأنّها لا تنتصف بأن تقرأ نصفها في ركعة ونصفها الآخر في ركعة أخرى، فإنّها لا يجوز أن تنتصف بخلاف باقي السّور .**الثّاني عشر: الكافية:** لأنّ قراءتها تكفي عن سواها في الصّلاة، وغيرها من السّور لا تكفي، روى محمّد بن خلّاد الأسكندراني قال: قال النّبيّ (ﷺ) : (أمّ القرآن عوض من غيرها، وليس غيرها منها عوض)[1]. ٣- مكيّة: قسّمت سور القرآن وآياتها على ليليّة ونهاريّة وفراشيّة وسفريّة وحضريّة ومكيّة ومدنيّة. فاللّيليّة ما نزلت باللّيل، والنّهاريّة ما نزلت بالنّهار، والفراشيّة ما نزلت والرّسول على الفراش، والسّفرية ما نزلت في السّفر، والحضريّة ما نزلت في الحضر، والمكّيّة ما نزلت قبل الهجرة، ولو في غير مكّة، والمدنيّة ما نزلت بعد الهجرة، ولو في غير المدينة.

فسورة الفاتحة نزلت في مكّة، وقيل: نزلت في مكّة حينما فرضت الصّلاة، ونزلت في المدينة مرّة أخرى حينما حوّلت القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، لئلا يظنّ النّاس أنّ القراءة في الصّلاة تبدّلت كما تبدّلت القبلة. وقيل مدنيّة، ومكّيّتها أصحّ.

بحي من العرب،فلم يقروهم ولم يضيفوهم، فاشتكى سيدهم فأتونا فقالوا عندكم دواء؟ فقلنا نعم ولكنكم لم تقرونا ولم تضيفونا! فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا، فجعلوا لهم على ذلك قطيعا من الغنم، فجعل رجل منا يقرأ عليه فاتحة الكتاب فبرأ، فلما أتينا النبي (ﷺ) ذكرنا ذلك له قال:وما يدريك أنها رقية؟ولم يذكر نهيا منه، فقال: كلوا واضربوا لي معكم بسهم في الجعل! . أنظر سنن الترمذي ٤/ ٣٩٩ الحديث رقم ٢٠٦٤، والمنتقى لابن الجارود ١/ ١٥١ الحديث رقم ٥٨٨. ولم أجد عبارة (يا رسول الله شيء ألقي في روعي) إلا في تفسير القرطبي ١/ ١٣.

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ٣٦٣ الحديث رقم ٨٦٧.

٤ ـ وهي سبع آيات بالاتّفاق إلّا أنّهم اختلفوا في أولى آياتها، وذلك لأنّ في آية البسملة ثلاثة أقوال: **الأوّل:** أنّها ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها، إلّا أنّها جيء بها في أوائل السّور للفصل بين سورة وأخرى، وهذا قول مالك والأحناف. **الثاني:** أنّها آية من كلّ سورة، وهو قول عبدالله بن المبارك. **الثّالث:** أنّها آية في الفاتحة وتردّد في سائر السّور، وهو قول الشّافعي.

فمرّة قال: هي آية من كلّ سورة، ومرّة قال: ليست بآية إلّا في سورة الفاتحة، ولا خلاف في أنّها آية في سورة النّمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ سورة النمل الآية/ ٣٠ ـ .

ولكلّ صاحب قول من هذه الأقوال حجّته ودليله يطول ذكره هنا. فعلى القول بأنّها آية في الفاتحة فهي آية، و(**الحمد للّه ربّ العالمين**) الآية الثّانية، والثّالثة (**الرّحمن الرّحيم**)، والرّابعة (**مالك يوم الدّين**)، والخامسة (**إيّاك نعبد وإيّاك نستعين**)، والسّادسة (**اهدنا الصّراط المستقيم**)، والسّابعة (**صراط الّذين**) إلى آخرها.وأمّا من لم يجعلها آية من الفاتحة فيجعل (**صراط الّذين أنعمت عليهم**) الآية السّادسة و(**غير المغضوب عليهم ولا الضّالين**) الآية السّابعة. هذا، فالأمّة متّفقة على أنّ الفاتحة سبع آيات، وشذّ(عمرو بن عبدالله) فعدّها ثماني آيات، حيث عدّ (**إيّاك نعبد**) آية مستقلّة، وشذّ أيضاً (حسين الجحفي) في قوله: إنّها ست آيات، فلا عبرة بالشّاذّين.٥- **الآيات:** جمع آية، والآية وردت في القرآن الكريم لمعان، منها:

أ ـ العلامة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ سورة مريم الآية/ ١٠ ـ أي: قال زكريا ربّ اجعل لي علامة على هبتك لي ولداً، ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ سورة مريم الآية/ ١١.

ب ـ المعجزة قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١٨، أي أمر خارق للعادة، كعصا موسى وناقة صالح أو إحياء الموتى مثل عيسى.

ج ـ الحكم، قال تعالى: ﴿ما ننسخ من آيةٍ﴾، أي ما ننسخ من حكم عند البعض ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) سورة البقرة الآية/ ١٠٦.

د ـ الدّليل والبرهان: قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا

حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٣٣ ـ ، أي ودليل واضح لهم وبرهان ساطع على وجود اللّه تعالى وقدرته على الإحياء بعد الموت أنّ الأرض اليابسة التّي لا تنبت شيئاً في الشّتاء إذا جاء الرّبيع أحييناها وحرّكنا قواها الإنباتية فأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون.

هـ ـ الجمل المخصومة في القرآن والتّي فصّلت عن قرينتها بشكل مدوّر قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧ .فالمراد بالآيات هنا المعنى الأخير فسورة الفاتحة سبع جمل مفصولة بعضها عن بعض كما مرّ الكلام فيها.

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾

قد مرّ الكلام على أنّ بعض العلماء يجعل البسملة آية من الفاتحة وأنّ الآخرين لا يجعلونها منها؛ قائلين إنّما جيئ بها للاستفتاح والتّبرّك بها؛ وعلى هذا اختلفوا أيضاً في قراءتها في الصّلاة في أوّل الفاتحة على أقوال: **القول الأوّل:** إنّها لا تقرأ في الصّلاة المفروضة ولا في غيرها سرّاً ولا جهراً، ويجوز قراءتها في النّوافل فقط، وهذا قول مالك، وفي رواية أخرى عنه أنّها تقرأ في أوّل السّورة في النّوافل فقط، ولا تقرأ في أوّل الفاتحة مطلقاً. وروى عنه ابن نافع أنّها تبدأ القراءة بها في الفرض والنّفل ولا تترك بحال.**القول الثّاني:** لابدّ من قراءتها ولا يجوز تركها، وهذا قول بعض أهل المدينة، منهم: ابن عمر وابن شهاب وأبو عبيد، وهو قول الشّافعي.**القول الثّالث:** مذهب بعض العلماء أنّها تقرأ سرّاً لا جهراً مع الفاتحة، وبذلك قال أبو حنيفة والثّوري، وروي ذلك عن عمر وعليّ وابن مسعود وعمّار وابن الزّبير، وهو قول الحكم وحمّاد، وبه قال أحمد بن حنبل والأوزاعي.

قال القرطبيّ: ومن هذا التّفصيل يتبيّن أنّ المسألة اجتهاديّة لا قطع فيها، كما ظنّ بعض الجهّال من المتفقّهة الّذي يلزم على قوله تكفير المسلمين.

أقول: وما أكثر هذه المسائل التّي لا قطع فيها ويجوز للمقلّد العمل والتّقليد لقول كلّ واحد من المختلفين فيه ولا اعتراض عليه، إلّا أنّ بعض الجهلة يكفّرون من خالف إمامهم أو يفسّقونه تعصّباً للمذهب، وهذا ضلال وجهل بالدّين.

ومن هنا نأتي إلى بيان معنى (**بسم اللّه الرّحمن الرّحيم**) إن شاء الله تعالى، فأقول: كان المشركون يبدؤون بأعمالهم باسم اللّات والعزّى وغيرهما من أسماء أصنام كانوا

يعبدونها، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية الكريمة تعليماً للمسلمين أن يبدأوا اعمالهم باسم اللّه تعالى لا باسم غيره، فيقولوا حين البدأ بالعمل أي عمل كان: (**بسم اللّه الرّحمن الرّحيم**) ويقدّر الفعل لتعلّق باء (**باسم اللّه**) الذي يبدأ به. ففي الأكل مثلاً ينوي آكل (**باسم اللّه**)، وفي الشّرب أشرب (**باسم اللّه**)، وفي السّير أسير، وفي القراءة أقرأ وهكذا. ويقدّر هذا الفعل مؤخّراً عن (**باسم اللّه**)، فينوى (باسم اللّه آكل مثلاً)، ولا ينوي آكل (باسم اللّه)، وذلك ليفيد الحصر، فإنّ تقديم المتعلِّق (بكسر اللاّم) على المتعلَّق (بفتح اللاّم) يفيد الحصر، فيفيد (باسم اللّه) وحده أعمل هذا العمل، لا باسم أحد غيره. و(الاسم) بمعنى العلامة، فإنّه إذا سمّيت شخصاً (محمّداً) فلفظ محمّد يكون علامة عليه به يعرف وبه يمتاز عن غيره، وبه ينادى ويخبر عنه. وبهذا المعنى يكون كلّ الموجودات اسماً، أي علامة على اللّه تعالى، لأنّ اللّه تعالى يعرف بموجوداته ومصنوعاته وبها يستدلّ علي وجوده وقدرته. قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

هذا وإنّ أقرب موجودات اللّه تعالى إلى العبد هو القدرة الّتي يهبها اللّه تعالى له فيعمل بها الأعمال وينجز بها الأمور والأشغال. فمعنى (**باسم اللّه**) بالقدرة التي يخلقها اللّه تعالى ويهبها لي أعمل هذا العمل، ولولا ذلك فلا أستطيع أن أعمل شيئاً ولن أستطيع، وفي هذا أمر بالاستمداد من اللّه تعالى فقط دون أحد سواه، فيفيد أنّ كلّ من يستمدّ القوّة والقدرة والإمداد المعنوي من غير اللّه تعالى فقد ضاهى المشركين في عملهم ورجع إلي الجاهلية الأولى. فإذن كلّ من بدأ بعمل من الأعمال باسم غير اسم الله تعالى أيّاً كان صاحب ذلك الاسم هو عودة إلى الشّرك والجاهليّة الأولى، شعر المرء بذلك أو لم يشعر.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

هما صفتان للّه تعالى، ومعناهما المحسن والمنعم، لأنّهما مشتقّان من (الرّحم)، والرّحم حالة أو حرارة تأتي على القلب فتحمل صاحبها على الإحسان والإنعام على غيره، ويعبّر عن هذه الحالة برقّة القلب، كما يعبّر عن ضدّها بقسوة القلب، وحيث لا يجوز إطلاق هذا المعنى على اللّه تعالى يجب أن يفسّر بلازمه وثمرته، وهما الإحسان والإنعام، وهكذا فكلّ صفة لا تليق معناها المفهوم بذات اللّه تعالى يجب أن نفسّرها بلازمها وثمرتها، كـ (الغضب) مثلاً، فإنّه عبارة عن ثوران في الدّم واضطراب في

الأعصاب يحمل صاحبه على الانتقام أو إيذاء الغير، فإذا نسب إلى اللّه تعالى فإنّما يراد منه الانتقام والعقاب، فعليك بهذه القاعدة فإنّها تحلّ لك كثيراً من إطلاقات الألفاظ في القرآن على اللّه تعالى أو غيره ممّا لا يمكن الأخذ بحقيقته، هذا وقد ذكر العلماء في الفرق بين الرّحمن والرّحيم وجوهاً شتّى، أحسنها بل أصوبها وما يرتاح له البال هو: أنّ الرّحمن صفة فعل للّه تعالى، يدلّ علي الكثرة والتّكرار والتّجدّد، ففي كّل آن ملايين ملايين من الإنعامات تنزل من اللّه تعالى على العباد ويتكرّر ويتجدّد ذلك باستمرار وإلى الأبد، ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٣٤، فالرّحمن إذن صفة فعل حادثة تتجدّد وتتكرّر دائماً، ولاشكّ أنّ لكلّ صفة فعليّة يجب أن تكون للّه تعالى صفة ذاتيّة قائمة بذاته تعالى وقديمة تكون مصدراً لهذه الصّفة الفعلية، فالرّحيم هو تلك الصّفة الذّاتية، وهي مصدر تلك الإنعامات والإحسانات اللامتناهية، فالمعنى: باسم اللّه الذي ينعم ويحسن وتتكرّر إحساناته وإنعاماته علينا دون عدّ وإحصاء، والصادرة تلك الإنعامات من صفة الإحسان الذّاتية القديمة التّي لا تفنى ولا تزول أبداً بهذا العمل، وجييء بهما معاً للدّلالة على أنّ إحسانه وإنعامه على العبد بإمداده على العمل وخلق القدرة له وغير ذلك من الإنعامات ناشيء من إحسانه الذّاتي، الذي هو صفة ذاتيّة له، أي إنّه يحسن وينعم، لأنّه محسن ومنعم، يحبّ الإحسان والإنعام والإفضال، ليس لحاجته إلى الإحسان، ولا إلى المحسن عليه، ولا لضرورة تلجئه إلى ذلك، ولا لوجوب عليه، بل هو مخيّر في خلقه يعمل ما يشاء ولمن يشاء، ويحسن إلى من يشاء لمجرّد الإحسان والإفضال لا لأيّ أمر آخر، كما يظنّ ذلك بعض الجهلة أو يعتقده بعض السّفلة، فخلاصة المعنى: بالقدرة التّي يهبها اللّه تعالى لي أعمل هذا العمل وقد أحسن إليّ بأن أقدرني على هذا، لأنّه محسن ويحبّ الإحسان، فبإحسانه يوفّقني ويجعلني قدرا بقدرته أعمل هذا العمل لا بنفسي ولا بقدرتي، فإنّي لا أقدر شيئاً لولا إقداره لي ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الصافات الآية/ ٩٦ .

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

(**الحمد للّه**)، (الحمد) هو أن يصف أحد اللّه أو غيره بوصف جميل اختياري، كأن تقول مثلاً: رزقني اللّه تعالى ولداً، أو وهب لي زيد مائة دينار. واللّام في (**الحمد**) للاستغراق، فيفيد أنّ كلّ حمد صادر من أيّ حامد وواقع على أي محمود سواء اللّه أو غيره وبأيّ وصف جميل كان، فذلك الحمد هو للّه تعالى؛

وذلك لأنّ المراد بالوصف الجميل الاختياري هو الأفعال الاختياريّة الجميلة، فأفعال اللَّه تعالى كلّها جميلة، لأنّه لا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة متقنة ومصلحة عظيمة علم بها النّاس أو لم يعلموا، وكلّ أفعاله اختياريّة أيضاً، لأنّه لا أحد ولا شيء يجبر اللَّه تعالى على أيّ فعل من الأفعال، بل هو: (يفعل ما يشاء، وهو على كلّ شيء قدير). وأمّا أفعال العباد الاختياريّة الجميلة فوصفهم بها وحمدهم عليها حمد للَّه تعالى أيضاً، أمّا على مذهب الجبريّة فظاهر، لأنّهم يعتقدون أنّ لا فعل للعبد وأنّ كلّ افعال العبد مخلوقة للَّه تعالى ويجبره اللَّه تعالى عليها، فالعبد عندهم كالقلم بين يدي الكاتب يسوقه اللَّه تعالى إلى ما يشاء من العمل، فعندهم كلّ فعل العبد هو للَّه، فحمده عليه هو حمد للَّه تعالى، وأمّا على مذهب الأشعرية فلأنّ الفعل وإن كان بميل العبد وكسبه وحبّه له إلّا أنّ خلقه وإيجاده بيد اللَّه تعالى، فما لم يخلقه اللَّه تعالى لا يوجد، وإن بذل العبد كلّ مساعيه له، وبهذا يرجع أعمال العباد إلى اللَّه تعالى أيضاً، وحمدهم عليها يكون حمداً للَّه تعالى، وأمّا على مذهب القدريّة فلأنّ الفعل وإن كان من خلق العبد ولا دخل للَّه فيه عندهم إلّا أنّ القدرة التّي يخلق العبد بها فعله فهي مخلوقة للَّه تعالى عندهم، فلو لم يخلق اللَّه تعالى له هذه القدرة لم يستطع العبد أن يخلق شيئاً، ألا ترى أنّ الزمن لا يستطيع أن يخلق المشي، لأنّ اللَّه تعالى سلب منه القدرة عليه، وبذلك أيضاً يرجع عمل العبد إلى اللَّه تعالى ويكون حمده عليه حمداً للَّه تعالى.

سؤال: فعلى ما حرّرت يرجع أعمال العبد القبيحة إلى اللَّه تعالى فيكون ذمّ العبد ذمّاً للَّه تعالى(معاذ اللَّه وسبحانه) فكيف التّخلّص من هذا؟

الجواب: نعم إنّ أفعال العبد القبيحة ترجع إلى اللَّه تعالى خلقاً وتقديراً وإرادةً، إلّا أنّها بالنسبة إلى تقدير اللَّه تعالى لها ليست قبيحة، بل إنّها أعمال حسنة يستحقّ اللَّه تعالى الحمد عليها، وذلك لأنّ اللّه تعالى لا يقدّر عملاً إلا لحكمة ومصلحة؛ فيكون كلّ ما قدّره من عمل العباد حسنة لتلك الحكمة والمصلحة، ولكنّها قبيحة بالنسبة إلى العبد، لأنّه لا يعمل ذلك العمل للحكمة والمصلحة، بل ولا يعلم الحكمة والمصلحة التي أنيطت بذلك العمل، وللتّوضيح: إنّ الطّبيب إذا شقّ بطن شخص يكون عمله مفيداً حسناً، لأنّه لا يشقّه إلّا لحاجةٍ صحّيّةٍ ومعالجة ذلك الشّخص، ولكن لو شقّه عامّيّ يعتبر فعله هذا قبيحاً ويعاقب عليه، ولذلك يقال الحمد للَّه على كلّ حال سوى

الكفر والضّلال. وكتب والدي[١] هنا فقال: حتّى الكفر والضّلال، من حيث إنّه قضاء اللّه لا من حيث أنّه وصف الكافر والضّالّ وفعلهما.

فائدة:

في الفرق بين الحمد والشّكر والمدح: نقول:

(الحمد): هو وصف الحامد المحمود بفعل جميل اختياري صدر من المحمود باختياره، ويجب أن يكون باللسان، سواء كان ذلك الفعل نعمة وصلت إلى الحامد، كأن تقول: لقد شرح اللّه صدري ففهمت هذه المسألة، أو وهب اللّه تعالى لي داراً مريحة، أو وهبني زيد مائة دينار. أو لم يكن ذلك الفعل نعمة، كأن تقول: إنّ اللّه تعالى عالم بكلّ شيء أو قادر عليه، أو تقول إنّ زيداً لعالم. أو كانت نعمة إلّا أنّها لم تصل إلى الحامد، كأن تقول لقد أنعم اللّه تعالى بالرّسالة على محمّد (ﷺ)، أو وُهب زكريّا يحيى عليهما السلام، أو تقول وهب زيد خالداً ألف دينار. فالحمد هو الوصف باللّسان بالجميل الاختياري، سواء كان غير نعمة[٢] أو نعمة على الحامد أو على غير الحامد.

(الشّكر): هو مكافأة الشّاكر المشكور في مقابلة عمل اختياري من المشكور، وكان نعمة على الشّاكر، سواء كانت تلك المكافأة باللسان، كأن يمدحه ويعترف بفضله عليه، أو بالجوارح كأن يعمل له عملاً، أو بالقلب كأن يحبّه.

قال الشاعر:

أفادتكم النّعماء منّي ثلاثة ... يدي ولساني والضّمير المحجّبا

أي أعمل لكم بيدي وأمدحكم بلساني وأحبّكم بقلبي وجناني في مقابلة نعمائكم

---

(١) أي الشيخ طه بن الشيخ علي البنيسني، وكان عالما بارعا ومعروفا ورعا وزاهدا، ومن زهده أنّه حين تحوّل من دار إلى أخرى كان كلّ ما يملكه من عفش البيت حملين للحمار، يقال أنه كان ينادي زوجته حين كانوا ينقلون عفش البيت يعائشة، ما هذا العفش لم يتم! هل هو بيت فرعون؟، والقرآن القديم إني أخاف غضب الله تعالى، ومنه أنه لمّا رآه أحد مريديه في المنام على حالة رفيعة فأخبره بالرؤيا غضب و قال له أسكت، هذا لست أنا بل الشّيطان تمثّل بي ليغرّك بي وإلّا فما أنا حتّى تراني في المنام؟. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٩٣٠م وعمره خمسون سنة، إثر سقوط داره المتواضع عليه نتيجة بساطة البناء وحصول خطأ في بنائه.

(٢) كأن يكون وصفا ذاتيا كما ذكر بأن تقول: الله تعالى عليم قدير.

عليّ وإحسانكم إليّ، فالشّكر خاصّ بالنّعمة، هذا ويجتمع الحمد والشّكر في قولك: الحمد للّه الذي وهب لي ولداً، ويفارق الحمد الشّكر في قولك الحمد للّه الذي علم كلّ شيء أو يقدر على كلّ شيء، فإن ذلك حمد وليس شكراً، لأنّه ليس في مقابلة نعمة، ويفارق الشّكر الحمد في أن تسجد لله سجدة شكر حينما فرج الله عنك كربة أو وهب لك نعمة، فإنّ ذلك شكر فقط.

(المدح): هو الوصف بالجميل الاختياري، كأن تقول: فلان كريم أو سموح، وبغير الاختياري، كأن تقول: فلان حسن الوجه أو معتدل القامة، وبما هو نعمة عليك، كأن تقول: فلان وهبني ألفاً، أو غير نعمة أصلاً، كأن تقول: فلان جميل، أو نعمة لغيرك، كأن تقول: فلان وهب زيداً ألفاً. ومن هذا يعلم أنّ المدح قد يجتمع مع الحمد، كأن تقول: إنّ اللّه لكريم، حيث وصفت اللّه تعالى باللّسان بوصف جميل اختياري، ويفارقه في أن تقول: إنّ زيداً جميل جسداً، فإنّ هذا مدح وليس بحمد، لأنّ الجمال ليس وصفاً اختيارياً لزيد، وقد يجتمع مع الشّكر كأن تقول: فلان أعطاني ألفاً، ويفارقه في أن تسجد للّه تعالى سجدة شكر مقابل نعمةٍ، لأنّ هذا شكر وليس مدحاً، لأنّه ليس باللّسان، فنسبة كلّ واحد إلى الآخرين عموم وخصوص من وجه، أي يجتمعان ويفترقان.

تنبيه: لا يقال الحمد لغير اللّه تعالى؛ لأنّ الحمد كما ذكرنا هو الوصف بالفعل الجميل الاختياري، ولا يوجد لغير اللّه تعالى الاختيار المحض، لأنّ كلّ أحد غير اللّه لا يستطيع أن يعمل عملاً، ولا يتمّ له عمله إلّا بعد أن يخلقه اللّه تعالى له، فلا يقال: الحمد لفلان أو لفلانة، وتسمية عبدالمطلب الرّسول محمّداً وقوله حينما قالوا له: كيف سمّيته محمّداً وهو ليس من أسماء آبائك؟ قال: رجوت بذلك أن يحمد في السّموات والارض، فكان كما رجا، وهذا مجاز، لأنّه استعمل الحمد وأراد به غيره وهو المدح؛ ولذا لا تجد في القرآن ولا في السّنّة إطلاق الحمد لغير اللّه تعالى، و(مَقاماً مَحْموداً)[١] إما مجاز، أو معناه يحمد اللّه على هبته؛ ولذلك قال تعالى: ﴿الحَمْدُ لله﴾ أي لا لغيره.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) أي قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾.

(الرّبّ) بمعنى المربّي، و(العالمين) جمع عالَم، و(العالَم) ما سوى اللّه تعالى، سمّي غير اللّه تعالى عالَماً، لأنّ العالَم كالخاتم[1]، فكما أنّ الخاتم ما يختم به الشّيء، فالعالم ما يعلم به الشّيء، فسمّي ما سوى اللّه تعالى من الموجودات كلّها عالماً، لأنّه يُعلم به اللّه تعالى، وجمعه باعتبار الأجناس والأنواع، فاللّه تعالى مربّي الموجودات كلّها خلقاً وإيجاداً وتصويراً وتربيته تربيّة جسديّة وروحية وماديّة ومعنويّة، فالموجودات كلّها من الملائكة والإنس والجن والحيوان والنّبات والمعادن والسّموات والأرض لولا تربية اللّه تعالى لها لما وجدت، ولما بقيت لحظة. وهذا كالاستدلال والتعليل لقوله: (الحمد للّه)، فكأنّه قال الحمد للّه وحده لا لغيره، لأنّه مربّي كلّ شيء سواه؛ فمن كان هذه صفته فهو الحقيق بالحمد لا غيره.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

(الرّحمن الرّحيم): قد مرّ شرح هذه الآية في البسملة، وذكرت هنا بعد ذكرها في البسملة لأمرين: **الأمر الاوّل**: ليفيد أنّ تربية اللّه لغيره وللموجودات كلّها ليس إلّا لأنه رحمان رحيم، فلرحمته بالعباد يربّيهم، ولرحمته بهم يربّي كلّ الموجودات؛ لأنّ كلّ الموجودات خلقت لأجل العباد وانتفاعهم بها، وليس تربيته للعالم لحاجته إليه، أو لسبب آخر سوى الرّحمانية والرَّحيمية.**الأمر الثّاني**: هو أنّه حينما قال ربّ العالمين يفهم أنّ للّه تعالى امتحاناً للعباد؛ لأنّ من مقتضى التّربية الامتحان، وبعد الامتحان يظهر النّاجح من الرّاسب، فقال: الرّحمن الرّحيم ليكون وعداً بالثّواب للنّاجحين العاملين وفق التّربية والتّوجيه، وبأنّ اللّه تعالى يرحمهم وينعم عليهم في الدّنيا والآخرة، كما وأنذر الرّاسبين بقوله:

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

(مالك يوم الدّين)، أي مالك الأمر كلّه يوم الجزاء، يعاقب المنحرفين عن تربيته وتوجيهه، ولو جعلنا **(الرّحمن الرّحيم)** مقتصراً على الفائدة الأولى لكان **(مالك يوم الدّين)** وعداً ووعيداً؛ فيكون هو مالك لأمر يوم الدّين، فينعم على من نجح في هذا الامتحان بجنّة النّعيم، ويعاقب من رسب بالعذاب الأليم. هذا وبعد أن ذكر الله تعالى

---

(١) أي من حيث الصيغة.

أنّ الحمد للّه وحده، وإنّه هو ربّ العالمين يربّيهم ماديّاً ومعنويّاً وجسديّاً وروحيّاً وتوجيّهاً وتعليماً، وإنّه المنعم والمحسن على عباده دون عدّ وإحصاء، وإنّه يحاسبهم يوم الجزاء فينعم على من يشاء ويرحمه، ويعذب من يشاء ويعاقبه، ظهر وتبيّن أنّه هو الحقيق بأن يعبد ويستعان فيجب على العبد أن يعاهده على ذلك ويتوجّه إليه ويخاطبه ويقول صدقاً وحقّاً:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

(إيّاك نعبد)، أي نخصّك بالعبادة، فنعبدك ولا **نعبد** غيرك يا اللّه، ويا من هو موصوف بهذه الصّفات الجليلة والعظيمة، ومن عبد غيرك فقد استحقّ العقاب، وهنا يجب أن نعرف ما هو معنى العبادة لنخصّ الله تعالى بها فنعبده ولا نعبد غيره، فنقول: إنّ العبادة وردت في القرآن الكريم لثلاث معان:

الأوّل: هو أن تسجد لشيء أو شخص أو تصلّي له، أو تذبح له النّذور أو القرابين تقرّباً إليه، أو تعتقد أنّه ينفع أو يضرّ بسلطته الغيبيّة وفي خارج دائرة الأسباب والمسبّبات بل بمحض إرادته وروحيّته، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى حكاية عن سيّدنا ابراهيم (عليه السلام): ﴿إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ سورة مريم الآية/ ٢٤ ـ ، أي لا يدفع عنك ولا يرفع ضرراً ولا يجلب لك نفعاً، فإنّ والد إبراهيم كان يسجد للأصنام ويذبح لها ويعتقد فيهم أنّهم ينفعونه ويضرّونه، وإنّ هذا ليس من مقدور أحد لقوله تعالى: ﴿قل﴾ يا أيها الرّسول ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ سورة الجن الآية/ ١٢، أي إنّ النّفع والضّرر كلّه بيد اللّه تعالى وحده، ولا يستطيع ذلك أحد خارج دائرة الأسباب والمسبّبات ولا في دائرة الأسباب والمسبّبات إلّا بإذنه وإرادته تعالى، والأسباب قد تكون ماديّة وهي معلومة، و قد تكون روحيّة وهي الدّعاء فقط، أي التّضرّع إلى اللّه تعالى والطّلب منه أن ينفع فلاناً أو يضرّه، فمن اعتقد أنّ غير اللّه تعالى ينفع أو يضرّ بالذّات فقد عبده واتخده الهاً.

الثّاني: هو الإطاعة، فـ (عبد) بمعنى أطاع وامتثل، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى: ﴿أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ سورة الفرقان الآية/ ٣٤، أي أرأيت من جعل هواه إلهاً له فعبده، ولاشكّ أنّه لا يسجد أحد لهواه، بل إنّما يطيعه ويعمل حسبما يريد منه، ومفهوم أيضاً من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا

تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ سورة يس الآية/ ٦٠، فالنّهي هنا عن العبادة بمعنى الطّاعة، أي لا تطيعوا الشّيطان فإنّه لا يوجد أحد يسجد للشّيطان أو يذبح له أو يصلّي له، بل إنّما يطيعه فيما يوسوس إليه، فالعبادة بكلا المعنيين يجب أن تكون للّه وحده؛ فمن عبد غير اللّه تعالى بأيّ واحد من المعنيين فهو مشرك باللّه إن آمن بوجوده وإلّا فملحد.

الثّالث: وهو الاعتقاد بأنّه ليس لأحد غير اللّه تعالى حقّ التّشريع، فمن اعتقد أنّ لأحدٍ غير اللّه تعالى حقّ التّشريع والحكم فقد عبد غير اللّه تعالى، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٠.

ولتوضيح هذه المعاني **نقول:** اعلم أنّ العبادة لغير اللّه تعالى تكون بوجوه: **الأوّل:** يكون بالصّلاة لغير اللّه تعالى والنّذر له وذبح القرابين تقرّباً إليه، وهذا واضح.

الثّاني: هو إطاعة الغير لذاته، باعتقاد أنّه يستحقّ الإطاعة، فمن أطاع الوالدين مثلاً لذاتهما واعتقد أنّهما يستحقّان الإطاعة لذاتهما، أو أطاعهما فيما حرّم اللّه تعالى فقد عبد غير اللّه تعالى، وإن أطاعهما لأنّ اللّه تعالى أمر باطاعتهما، وكانت الإطاعة فيما جاز في شرع اللّه تعالى فقد عبد اللّه تعالى وأطاعه ويستحقّ الثّواب. وهكذا فكلّ إطاعةٍ للغير من الأستاذ والآمر وغيرهما ممّن أوجب اللّه تعالى إطاعته إن كانت الإطاعة امتثالاً لأمر اللّه تعالى فهي عبادة للّه، وإن كانت لذاتهما أو في غير ما أباح اللّه فهي عبادة لغير اللّه تعالى.

الثّالث: أن ترى وتعتقد النّفع والضّرر من غير اللّه تعالى بالذّات، ونذكر من هذا النّوع أمثلة: **المثال الأوّل:** من كان مريضاً وذهب إلى الطّبيب أو ذهب بمريض إليه واعتقد أنّ الطّبيب سبب؛ وأنّ اللّه تعالى خلق الطّبيب وخلق الأدوية وعلّمها الطّبيب؛ وأنّ الشّفاء بيده تعالى يخلقه بعد استعمال الأدوية إن شاء لا حتماً، فقد عبد اللّه تعالى، لأنّ الرّسول (ﷺ) أمر بالتّداوي، فعن أسامة بن شريك قال: أتيت النّبيّ (ﷺ) وأصحابه كأنّما على رؤوسهم الطّير، فسلّمت ثمّ قعدت، فجاء الأعراب من ههنا وههنا، فقالوا: يا رسول اللّه أنتداوى؟ قال: تداووا فإنّ اللّه لم يضع داءً إلّا وضع له دواء غير داء واحد الهرم. رواه أصحاب السّنن بسند حسن كما في التّاج. وأمّا من يعتقد أنّ الطّبيب هو يشفي، أو أنّ الأدوية هي تشفي بذاتها دون إرادة اللّه تعالى فقد أشرك باللّه وعبد غيره.

المثال الثّاني: من خاف من سلطان أو ذي قوّة أو طمع فيه لأنّ اللّه تعالى جعل في يده أسباب النّفع والضّرر وجعله اللّه تعالى سبباً لذلك فلم يعبد غير اللّه تعالى، وأمّا إذا اعتقد أنّه ينفع أو يضرّ دون إرادة اللّه تعالى فقد عبد غير اللّه تعالى وأشرك به.

المثال الثّالث: من أحبّ الصّالحين وأولياء اللّه تعالى لأنّهم عباد اللّه تعالى الممتثلون لأمره والمجتنبون عن ما نهى عنه، وإنّ اللّه تعالى يحبّهم ويستجيب دعواتهم إن شاء لا حتماً؛ فطلب منهم أن يدعوا له فقد عبد اللّه تعالى، لأنّ طلب الدّعاء بين النّاس بعضهم لبعض مأمور به، فقد أمر الرّسول (ﷺ) أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) أنّهما إذا رأيا أويساً القرني أن يطلبا منه أن يدعو لهما[1] .

وأمّا من اعتقد أنّهم ينفعون أو يضرّون بإرادتهم فهو شرك باللّه وعبادة لغيره؛ قال تعالى لرسوله (ﷺ): ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ سورة الجن الآية/ ١٢. وكذلك الاعتقاد فيهم أنّهم يقرّبونك إلى اللّه تعالى أو يوصلونك إليه شرك باللّه وعبادة لغيره؛ قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ

(١) الحديث بتمامه: عن أسير بن جابر قال كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا أتت عليه أمداد اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟حتى أتى عليه أويس فقال أنت أويس بن عامر؟قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال ألك والدة؟ قال: نعم،قال عمر: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها برّ لو أقسم على الله لأبرّه،فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل فاستغفر لي، فاسغفر له ثم قال عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: الا أكتب لك إلى عمّالها فيستوصوا بك خيرا؟ فقال لا، لأن أكون في غبراء النّاس أحبّ إليّ،فلما كان في العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فسأل عمر عن ويس كيف تركته؟ قال: تركته رث البيت قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) قال يأتي عليكم اويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن،كان به برص فبرأ منه إلّا موضع درهم، له والدة هو بها برّ، لو اقسم على الله لأبرّه،فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل.فلما قدم الرجل أتى أويسا فقال: استغفر لي، قال: أنت أحدث النّاس بسفر صالح،فاستغفر لي،فقال لقيت عمر بن الخطاب؟ قال: نعم قال: فاستغفر له، قال ففطن له النّاس فانطلق، قال أسير: فكسوته بردا، فكان إذا رآه عليه إنسان قال من أين لأويس هذا؟ انظر المستدرك على الصحيحين ٣/ ٤٥٦ الحديث رقم ٥٧١٩، قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه بهذه السياقة.

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ سورة الزمر الآية/٣ ، وذلك لأنّ العبد لا يوصله إلى اللّه ولا يقرّبه منه إلّا عمله وعبادته وتطبيق شريعته. فالعبد مهما بلغ من القرب إلى اللّه تعالى ليس في يده شيء إلّا الدّعاء وإنّ اللّه تعالى مخيّر في استجابة دعواتهم، فإن شاء استجاب وإلّا فلا. ونداء الصّالحين والاستعانة بهم في طلب الحاجات أو دفع الملمّات شرك، إلّا أن تريد بالنّداء والاستغاثة طلب الدّعاء منهم وأن يتضرّعوا إلى اللّه تعالى أن يخلق ما تريده، قال مفتي بغداد محمّد فيضي الزّهاوي (رحمة اللّه تعالى عليه):

لا تدع في حاجة بازاً ولا أسداً   اللّه ربّك لا تشرك به أحداً

المثال الرّابع: من اعتقد في أيّ إنسان أنّ له حقّ التّشريع ووضع الأحكام من عند نفسه فقد عبد غير اللّه تعالى، لأنّ الحكم للّه تعالى تكويناً وتشريعاً. قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٠ ـ وقال تعالى: ﴿لا إله إلا اللّه﴾، أي لا حاكم تكويناً ولا تكليفاً إلّا اللّه تعالى .

تنبيه: فإن قيل فإذا كان الحكم والتّشريع للّه وحده وليس لأحد أن يشرّع، فكيف نأخذ الحكم من أحاديث رسول اللّه (ﷺ)، وقد قال تعالى: ﴿إن الحكم إلّا الله﴾؟ قلنا: نأخذ الحكم من الرّسول (ﷺ) لا من حيث ذاته، بل من حيث أنّ كلامه كلام اللّه تعالى، وإنّ حكمه حكم اللّه؛ لأنّ اللّه تعالى قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم الآية/(٣-٤)، فكلّ ما قاله الرّسول من الأحكام أو سنّه بالأفعال أو التّقرير، فهو إمّا مأخوذ من كتاب اللّه تعالى، أو أوحي إليه بوحي آخر غير القرآن، وإنّ ما يوحى إلى الرّسول (ﷺ) على ثلاثة أقسام: **الأوّل**: ما يكون لفظه ومعناه من اللّه تعالى، وهو معجز، فذلك هو القرآن.

الثّاني: ما يكون لفظه ومعناه من اللّه تعالى أيضاً إلّا أنه ليس بمعجز، وذلك هو الحديث القدسي، أو الحديث الربّاني، وهي الأحاديث المصدّرة بقوله (ﷺ): قال ربّي، أو قال اللّه عزّ وجلّ.

الثّالث: ما يكون معناه من اللّه تعالى ألقى في قلبه الشّريف فعبّر عنه بلفظه (ﷺ)، وهذا هو الأحاديث النّبويّة.

خلاصة الأمر أنّ من اعتقد أنّ الرّسول (ﷺ) له حقّ الحكم والتّشريع مستقلاً[١] فقد أشرك بالله تعالى، بل هو مبلّغ من اللّه تعالى حكمه وليس بمشرّع، وإن قيل: فكيف نقلّد الأئمة المجتهدين؟ فنقول: لا نقلّدهم باعتبار أنّهم حاكمون ومشرّعون، بل نقلّدهم لثقتنا بهم أنّهم جاهدوا واجتهدوا فاستنبطوا هذه الأحكام من كتاب اللّه تعالى أو من سنّة رسوله (ﷺ)، وإنّهم يصيبون ويخطئون، فلهم أجران إذا أصابوا وأجر واحد إن أخطاؤا، كما أخبر عن ذلك الحديث[٢]، وقد وصّى كلّهم بأنّه إن ظهر قولهم مخالفاً لحديث صحيح أو لآية كريمة أن يترك قولهم ويضرب به عرض الحائط. وليس ذلك التّقليد بهذا المعنى شركاً، بل هو واجب، إذ ليس في وسع كلّ واحد أن يأخذ الأحكام من الكتاب والسّنّة أو الإحاطة بهما، فهذا عليه أن يقلّد من استطاع ذلك وبلغ رتبة الاجتهاد، نعم من قلّدهم باعتبار أنّهم هم المشرّعون، أو فضّل قولهم وقدّمه على حديث رسول اللّه أو كلام اللّه تعالى فهو مشرك. إلّا إذا كان له حجّة أو تأويل.

فهذه الأقسام الثّلاثة[٣] كلّها شرك، فالأوّل شرك في العبادة، والثّاني شرك في الخلق، والثّالث شرك في الحكم، فاجتنب الكلّ وإلّا فلا تكون موحّداً. ويتفرّع عن هذا أنّ كلّ من التزم حكماً خلاف حكم اللّه تعالى اختياراً لا جبراً وباعتقاد أنّ ذلك حقّ فقد أشرك باللّه، صدر ذلك الحكم من أي حاكم كان، فإنّ الحاكم في الإسلام هو المنفّذ لأحكام اللّه وليس واضعاً للأحكام. كما وإنّ الإسلام حينما يعترف بالشّورى فإنّما يعترف به بمعنى أن يتشاوروا للتّفحص عن نصّ ورد فيما يتشاورون فيه، أو يتشاوروا في إلحاقه بما ورد فيه نصّ، أو يتشاوروا فيما لم يتعرّض له الشّارع من أمور مرسلة فيقدّرون فيه ما هو مصلحة لدين الأمّة ودنياها، وذلك في أمور الإدارة والسّياسة وإصلاح الأمّة، وغير ذلك مما لم يرد فيه نصّ ولم يلحق بنصّ وحسب ما يوافق القواعد العامّة التّي وضعها الشّارع الحكيم.

---

(١) لعله يقصد أن من اعتقد أن له صلاحية وضع الشرع دون إذن من الله تعالى.

(٢) إشارة إلى ما ورد عن عمر بن العاص (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله (ﷺ) يقول:إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران،وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر. متفق عليه / البخاري الحديث رقم ٦٩١٩، مسلم الحديث رقم ١٧١٦.

(٣) أي السجود لغير الله تعالى وطاعة غيره تعالى لذاته واعتقاد غيره تعالى شارعا. أشار بهذه لقربه في الذهن وإن بعد كتابته.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أي ونخصك بالاستعانة فنطلب منك المعونة والعون لا من غيرك في كلّ شيء وفي كلّ أمر وفي كلّ ما تقتضيه الحياتان[1]، فإنّ من استعان بغيرك واتّكل عليه فقد أشرك (معاذ اللّه تعالى).

سؤال مهم: كيف يقال: أنّ من استعان بغير اللّه واتّكل عليه فقد أشرك باللّه(معاذ اللّه تعالى)، وقد أمرنا اللّه تعالى أن نتعاون فيما بيننا، فقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ سورة المائدة الآية/ ٢. وأنّ الأمّة كان أفرادها دائماً يطلب بعضهم المعونة من البعض دون إنكار، وأجمعت الأُمّة على جواز ذلك وخلاف الإجماع كفر(والعياذ باللّه تعالى)؟ **الجواب:** للجواب عن هذا السّؤال بوجوه: **الوجه الاوّل:** إنّ كلّ ما أباح اللّه تعالى الاستعانة به من الغير فهو استعانة باللّه تعالى وليست استعانة من غيره؛ لأنّ اللّه تعالى خلق هذا الشّيء وأمر وأباح الاستعانة به، وكلّ ما حرّم اللّه تعالى التّمسّك والاستعانة به فالاستعانة به استعانة بغير اللّه تعالى.

الوجه الثّاني: إنّ اللّه تعالى خلق الدّنيا، وخلق فيها الأسباب والمسبّبات، وربط المسبّبات بالأسباب وأمر عباده باتّخاذ الأسباب لنيل المسبّبات، فتتبّع الأسباب واتّخاذها ليس استعانة بغير اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سورة الكهف الآية/ (٨٣-٨٥) - .لكن الذي يعتقد بأنّ الأسباب تكفي لحدوث المسبّب أو يجبر اللّه تعالى على إحداثه فذلك شرك واستعانة بغير اللّه تعالى؛ فإنّه لو وجدت كلّ الأسباب فلا يوجد المسبّب إلّا بعد إرادة اللّه تعالى خلق المسبّب عند وجود الاسباب. ألا ترى أنّ سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) أُدخل في النّار ولم يحترق! فوجد السبب وهو دخول النّار ولم يوجد المسبّب وهو الاحتراق، لأنّ اللّه تعالى لم يرده، ووجد آدم (عليه السلام) بدون ذكر وأنثى،لأن آللّه تعالى أراد وجوده، ووجدت حواء بدون أُنثى، لأنّ اللّه تعالى أراد وجودها، ووجد سيّدنا عيسى (عليه السلام) بدون والد، لأنّ اللّه تعالى أراد وجوده. فالأسباب أمور اعتياديّة لا توجب وجود المسبّب، فإنّ الأسباب قد تجتمع ولا يوجد

---

(١) اي الدنيا والآخرة.

اللّه المسبّب، وقد لا توجد الأسباب فيوجد المسبّب بدونها وللتّوضيح نذكر أمثلة:
الأوّل: إنّ من أراد الولد فتزوّج وباشر وتوكّل بعد ذلك على اللّه تعالى في أن يرزقه الولد فقد استعان باللّه، ومن رأى أنّ الزّواج والمباشرة كاف في حدوث الولد فقد استعان بغير اللّه تعالى وأشرك، قال تعالى: ﴿أفرايتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون*﴾ سورة الواقعة الآية/(٥٨-٥٩) ـ الثّاني: من حرث الأرض وبذرها واتّكل على اللّه في أن يخلق النّبات ويثمره فقد استعان باللّه تعالى، ولكن الذي يعتقد بأن هذا كاف في وجود النّبات والثّمر فقد استعان بغير اللّه تعالى وأشرك، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ سورة الواقعة الآية/(٦٣-٦٧).

الثّالث: المراد بالاستعانة هنا هي الاستعانة في غير طريق الأسباب، بل في ما وراء الأسباب، كأن تطلب من الغير أن يعمل لك شيئاً بدون سبب، بل بإرادته المحضة وقوّته الرّوحية وسلطته الغيبيّة؛ فإنّ هذا شرك لأنّ اللّه اختصّ بهذه القدرة ولم يعطها لأحد غيره، وذلك مثلما كان المشركون يطلبون من الأصنام الولد والرّزق وجلب النّفع ودفع الضّرر ورفعه، ويذبحون لهم وينذرون لذلك، ويتضرّعون إليهم بالنّذور والقرابين ووسائل أخرى، وإنّ هذه الاستعانة شرك محض واستعانة بغير اللّه تعالى، (أعاذنا اللّه تعالى منها).

تنبيه: من هنا ينجرّ الكلام إلى الاستعانة بالأولياء والرّجال الصّالحين، وقبل الخوض في الكلام يجب أن نعرف من هو الوليّ؟ ومن هو الرّجل الصّالح؟

فنقول: الوليّ من كان يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشرّه، فيؤمن بذلك إيمانا صادقاً وصحيحاً دون شكّ وارتياب، ودون خلط والتباس، وكان عالماً بشريعة اللّه تعالى ممتثلاً لأوامر الشّرع فأدّى الواجبات واجتنب النّواهي، فاجتنب المحرّمات وآثر الآخرة على الأولى، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾، ثمّ عرّفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ سورة يونس الآيتان/(٦٢-٦٣)، ومن هذا يُعلم أنّ الوليّ ليس له نسب خاصّ ولا زيّ خاصّ ولا هيئة خاصّة، بل كل مؤمن مسلم فهو وليّ اللّه تعالى، وإنّما تختلف درجاتهم نزولاً وصعوداً حسب الامتثال والتّقوى. فالوليّ هو العالم العامل ليس غيره، فلا ولاية لجاهل بالدّين ولا ولاية لغير العاملين بدين اللّه، فالعمل بدون العلم ضلال والعلم بدون العمل وبال.

قال الشّاعر:

فعالم بعلمه لم يعملن معذّب من قبل عبّاد الوثن

وكل من بدون علم يعملُ أعماله مردودة لا تقبلُ

فالوليّ: له حالتان، حالة الحياة وحالة الوفاة، فأمّا في حال الحياة فتكون الاستعانة به، أي الاستفادة منه بثلاث طرق: **الطّريقة الأولى:** أن تتّعلم عنده دينك وأحكام الشّرع من الحلال والحرام والواجب والمندوب والمباح، فتتفقه لديه وتكون على بصيرة من دينك. قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذّكر إن كنتم لا تعلمون﴾ سورة النحل الآية/ ٣٤ .قال النّبيّ (ﷺ): (كن عالماً أو متعلّماً أو مستمعاً ولا تكن الرّابع فتهلك)[١] فإنّك إن لم تتعلّم الصّحيح من الفاسد والحقّ من الباطل ليغوينّك شياطين الإنس الذين يروّجون أموراً باسم الدّين ولا علاقة لها بالدّين ، بل هم يجعلونها من صميم الدّين.

الطّريقة الثّانية: أن تصاحبه فتتخلّق بأخلاقه الحميدة وتتّصف بأوصافه الحسنة وتتخلّى عن الرّذائل وتتحلّى بالفضائل، فمصاحبة الأخيار مأمور بها من اللّه تعالى ، قال تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ١١٩.، وقال الرّسول (ﷺ): (مثل الجليس الصّالح والجليس السّوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إمّا أن يحذيك، وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحا طيّبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحا خبيثة)[٢] الطّريقة الثّالثة: هي أن يدعو لك، فإنّ دعاء الأخيار أقرب إلى الاستجابة، وطلب الدّعاء من الغير مأمور به، سواء كان الغير أعلى منك رتبة ـ فإنّ النّاس كانوا يطلبون من الرّسول (ﷺ) أن يدعو لهم فيدعو هو لهم ـ أو كان الغير أصغر منك رتبة ؛ فإنّ الرّسول (ﷺ) لمّا ودّع عمر (رضي الله عنه) اللّه تعالى عنه

(١) عن أبي بكرة عن أبيه قال سمعت رسول الله (ﷺ) يقول:أغد عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك | المعجم الصغير (الروض الداني) ٢/ ٦٣ رقم الحديث ٧٨٦، وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: أغد عالما أو متعلما أو مستمعا ولا تكن الرابع فتهلك|. سنن الدارمي ١/ ٩١ الحديث رقم ٢٤٨.

(٢) متفق عليه : صحيح البخاري ٥/ ٢١٠ الحديث رقم ٥٢١٤، وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٢٦ الحديث رقم ٢٦٢٨.

إلى العمرة قال له: (أخي لا تنسانا)[١]، أي من الدّعوات. وقد أمر الرّسول (ﷺ) أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) أن يطلبا أويساً القرني أن يدعو لهما[٢]، وأويس كان أصغر منهما، لأنّه كان تابعياً. وأمّا غير هذه الطّرق الثّلاث فلا أصل له من الاستفادة من الوليّ، فإنّه ليس بيده غير ذلك من شيء. وأمّا الوليّ في حال مماته، فمن البداهة أنّه لا يمكن التّعلّم عنده ولا سماع نصيحته ولا مصاحبته، فلم يبق إلّا طلب الدّعاء منه، فطلب الدّعاء من الميّت مختلف فيه: فعند بعضٍ: أنّه لا يجوز، لأنّ الدّعاء عبادة، والميّت ليس من أهل العبادة، فلا فائدة في طلب الدّعاء منه، ولأنّ طلب الدّعاء من الميّت بدعة، لأنّه لم يعرف من الصّحابة والسّلف الصّالحين أنّهم طلبوا الدّعاء من الميّت، وكلّ بدعة ضلالة بنصّ الحديث الصّحيح[٣]. وعند البعض: يجوز، لأنّ الرّسول (ﷺ) يقول في حديث المعراج: رأيت موسى يصلّي، فثبت بذلك أنّ الميّت يتعبّد، إلّا أنّه يتعبّد تلذّذاً لا تكليفاً، لأنّ الرّسول (ﷺ) يقول: إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا عن ثلاث، أي انقطع عمله بالتّكليف الذي يثاب عليه، وأمّا العمل للتّلذّذ فلا ينقطع ولا يثاب عليه، لأنّه ليس فيه مشقّة على النّفس ولا تكليف.

والحاصل أنّ المسألة خلافية واجتهادية، ليس لجانب حقّ الإنكار على الآخر كسائر المسائل الاجتهادية، وللمقلّد أن يقلّد من شاء ويعمل بقوله، وهذا الكلام طويل فنكتفي بهذا القدر لما فيه من الكفاية، فإنّ العاقل تكفيه الإشارة، ولكنّ المذهب الأوّل أسلم، لأنّ المذهب الثّاني أصبح سبباً لجرّ كثير من العوامّ إلى الإشراك باللّه تعالى والخروج عن حدود الشّرع.

سؤال مهمّ: إنّ الذي يقرأ القرآن هو منفرد والذي يصلّي وحده منفرد أيضاً، فلماذا يقول: إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، ولم لا يقول: (إيّاكَ أعبد وإيّاك استعين)؟

---

(١) إشارة إلى ما روي عن سالم عن أبيه قال: أن عمر (رضي الله عنه) إستأذن رسول الله (ﷺ) في العمرة فأذن له وقال: لا تنسانا من دعائك يا أخي]. أنظر / أخبار مكة للفاكهي ١/ ٤٠٧ الحديث رقم ٨٧٥.

(٢) قد مر تخريج الحديث بهذا الصدد.

(٣) عن جابر قال: كان رسول الله (ﷺ) يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له نأصدق الحديث كتاب الله واحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار...ألخ. سنن النسائي ١/ ٥٥٠ الحديث رقم ١٧٨٦.

الجواب: إنّ هذه إشارة إلى وحدة كلمة المسلمين، وإنّ المسلمين كلّهم كشخص واحد؛ مقالة واحد منهم مقالة الكلّ؛ ومعاهدة فرد منهم معاهدة الكلّ؛ ونفع واحد منهم نفع الكلّ؛ وضرر واحد منهم ضرر الكلّ، كما يقول الرّسول (ﷺ): (مثل المؤمنين في توادّهم وتحابّهم كمثل جسد واحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسّهر والحمّى)[1]، ولذلك اصبح من مقرّرات الحكم الاسلامي؛ إن أبسط جندي من جنود الإسلام؛ فأعطى الأمان لحربيّ فهو أمان من الكلّ، ويجب على الأمير تنفيذه، وهكذا يجب أن يكون المسلمون، وإلّا فليسوا بمسلمين صادقين ولا ينجحون.

﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

الهداية جاءت لمعنيين:

الأوّل: إراءة الطّريق والإرشاد إليها، وهي وظيفة كلّ الأنبياء والمرسلين ووظيفة ورثتهم من العلماء العاملين والدّعاة المخلصين، وقد أرشد اللّه تعالى كلّ النّاس إلى الطّريق، فأنزل الكتب وأرسل الرّسل، وهم قد بلّغوا وبشّروا وأنذروا، فليس المراد بالهداية هنا هذا المعنى، لأنّ ذلك حصل، فطلبه طلب تحصيل الحاصل وهو محال.

الثّاني: هو الإيصال إلى الطّريق، وهو المراد هنا، فالمعنى: أوصلنا يا ربّنا إلى الصّراط المستقيم، أي الصّراط الذي لا عوج فيه ولا التواء ولا انحراف، والذي يصل بالمرء إلى المنزل فلا يضلّ سالكه. والهداية بهذا المعنى خاصّ باللّه تعالى، وليس في وسع أحد ذلك. قال تعالى لرسوله (ﷺ): ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ سورة القصص الآية/ ٦٥، أي إنّك لا توصل إلى الحقّ من أحببت، ولاتستطيع أن تأتي به إلى الصّراط المستقيم والإيمان واعتناق الإسلام [2]، فإنّ ذلك ليس في وسعك، بل هو خاصّ باللّه تعالى ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاء﴾، ولكنّ الهداية بمعنى الإرادة والإرشاد في وسع الرّسول (ﷺ) وغيره من الدّعاة والعلماء، وقد فعل

---

(١) الحديث كما في صحيح مسلم: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله (ﷺ): مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم تعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٩ الحديث رقم ٢٥٨٦. وروي بألفاظ مختلفة في كتب الحديث الأخرى.

(٢) أي بتغيير قلبه بقدرة غيبية.

الرّسول (ﷺ) ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمْ﴾ سورة الأحقاف الآية / ٢٥.

سؤال: (ماهو الصّراط المستقيم)؟.

الجواب: إنّ الصّراط المستقيم بيّنه اللّه تعالى في قوله إذ يقول: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ سورة يس الآية/ ٦٠-٦١، فالصّراط المستقيم: هو أن تعبد اللّه تعالى وتطيعه ولا تطيع الشّيطان في شيءٍ من الأشياء، وذلك يكون بالتّمسك بالإسلام وتطبيقه وعدم الانحراف عنه. وبيّنه تعالى أيضاً بقوله: (إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِيْنْ * عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمْ﴾ سورة يس الآية/ (٣-٤). والرّسول (ﷺ) مرسل على الإسلام كما لا يخفى، فالإسلام هو الصّراط المستقيم، فمن انحرف عنه انحرف عن الصّراط المستقيم بقدر ما انحرف؛ فإن كان كلّياً فهلك وكفر، وإن كان جزئيّاً ففسق وفجر.

❊ ❊ ❊

سؤال: إنّ المسلم هو على الصّراط المستقيم، لأنّه مسلم، فكيف يدعو أن يصله اللّه تعالى إليه، أليس هذا طلباً لتحصيل حاصل؟**الجواب:** المراد هو طلب الثّبات على هذا الصّراط المستقيم والاستقامة عليه، كما يقال للقائم: قم، أي دم على قيامك، او للقاعد أقعد، أي دم على قعودك، فالمعنى: أدمنا وثبّتنا على الصّراط المستقيم، أو يقال إنّ درجات الصّراط المستقيم من معرفة اللّه تعالى ومراتب العمل بالإسلام كثيرة، فكلّ درجة وصلت إليه تجد فوقه درجات، ولذلك قال الرّسول (ﷺ): (سبحانك ما عرفناك حقّ معرفتك يا اللّه وما عبدناك حقّ عبادتك)[1]، فيكون المعنى: أوصلنا إلى درجات هي فوق ما نحن فيه من الدّرجات من المعرفة والعمل للّه والإخلاص في الاعمال.

❊ ❊ ❊

---

(١) لم أجد هذا حديثا من كتب الحديث إلا ما ذكره المناوي في (فيض القدير) من قوله وفي الخبر(سبحانك ما عرفناك حق معرفتك) أ فيض القدير ٢/ ١٤، وكذلك نسبه الكرمي في كتاب أقاويل الثقات الى النبي (ﷺ) أنظر أقاويل الثقات ١/ ٤٥: وذكره كثير من العلماء للإستدلال على عدم معرفة كنه حقيقة الله تعالى أو كنهه وحقيقته لكونه ظاهرا وباطنا، وانظر حاشية السندي على صحيح البخاري ٥/ ٨٧ وغيره.

سؤال: إنّ القارىء وحده أو المصلّي وحده منفرد وشخص واحد، فلماذا يقول: اهدنا ولا يقول اهدني؟**الجواب:** إنّ هذا تعليم للمؤمنين ودرس لهم وأمر بأنّهم حينما يدعون فليدعوا لكافة المسلمين، لا لأنفسهم فقط، فإنّه يقول الرّسول (ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتى يحبّ لأخيه المسلم ما يحبّ لنفسه)[1]، فإذا دعا وطلب لنفسه شيئاً يجب أن يحبّ ذلك لغيره ويطلبه لسائر المسلمين، قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ سورة محمد الآية/ ١٩. وحينما دعا نوح (عليه السلام) دعا لنفسه ولجميع المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ سورة نوح الآية/ ٢٨ ـ . هذا وإنّ من دعا لنفسه وترك غيره فقد بخل، ومن دعا لغيره وترك نفسه فقد أعجب، والبخل والعجب صفتان ذميمتان يجب التّحرّز عنهما، فإذا دعوت فادع لنفسك ولوالديك ولجميع المؤمنين والمؤمنات امتثالاً لأدب القرآن الكريم، وهذا في الأمور العامّة، وأمّا في الأمور الخاصّة كأن تقول اللّهم يسّر لي أن أتزوّج بفلانة فليس كذلك، فمعنى (اهدنا)، أي أوصلنا يا ربّنا معاشر المسلمين جميعاً (الصّراط المستقيم)، وهو دين الإسلام وثبّتنا عليه.

* * *

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الصّراط المستقيم ماهو؟ فقال: هو صراط الذين أنعم اللّه تعالى عليهم في الدّنيا بالوصول إلى الحقّ ومعرفة الحقّ من الباطل والصّحيح من الفاسد والخير من الشرّ، وفي الآخرة بالاحترام والتّكريم والإسكان في جنّات النّعيم، فقال تعالى:

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

(صراط)، أي منهج وطريقة الأشخاص **(الذين أنعمت عليهم)** يا اللّه، وقد ذكر اللّه تعالى هؤلاء الأشخاص، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ سورة النّساء الآية/ ٩٦. وظهر من هذا أنّ الإسلام هو منهج وطريقة النّبيّين والمرسلين جميعاً، ودلّت على ذلك آيات كثيرة، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ الحديث رقم ١٣.

كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/٧٦، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/(١٣٠-١٣٢). إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ على أنّ دين جميع الأنبياء كان الإسلام، ولولا اختلاف أممهم وتبديلهم لدينهم وتحريفهم له لكفى مجيء رسول واحد؛ إلّا أنّه كلّما اختلف النّاس وحرّفوا الدّين أرسل الله تعالى رسولاً ليرجع بهم إلى الدّين الصّحيح والمنهج المستقيم؛ لذا قال تعالى: ﴿كانَ النّاسُ أمّةً واحدةً﴾، أي فاختلفوا ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة البقرة الآية/٢١٣. وهكذا إلى أن ختمت النّبوّة بالرّسول محمّد (ﷺ) فإنّ اللّه تعالى وعده بصون كتابه ودينه من التّبديل والتّحريف، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية/٩ ـ ، فأصل الدّين وهو القرآن محفوظ منَ التّحريف والتّبديل، إلّا أنّه تُلصق بالإسلام أمور لا صلة لها به؛ فلذا يأتي على رأس كلّ مئة سنة من يطهّر هذا الدّين ممّا ألصق به ـ والدين عنه بعيد وبريء ـ ويرجع بالنّاس إلى أصل دينهم الكتاب والسّنّة، كما قال سيّد المرسلين (ﷺ): (إنّ اللّه يبعث على رأس كلّ مئة سنةٍ من يجدّد أمر هذا الدّين)[1]، فما أحوجنا اليوم إليه، فأرسله يا ربّنا ويا أكرم المكرّمينَ آمين.

﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

(غير المغضوب)، أي غير منهج النّاس الذين غضبت **(عليهم)** لأعمالهم القبيحة، أو عقائدهم الباطلة، **(ولا)** منهج النّاس **(الضّالّين)** الذين ضلّوا الصّراط المستقيم ولم يهتدوا إليه.

---

(١) روى أبو داود عن أبي علقمة عن أبي هريرة () فيما أعلم عن رسول الله (ﷺ) قال إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها.أنظر سنن أبي داود ٤/ ١٠٩ الحديث رقم ٤٢٩١.

(آمين) اسم فعل، معناه: استجب هذا الدّعاء يا اللّه، ويقرأ بالمدّ كـ (ياسين)، وبالقصر كـ (آمين)، وإنّه ليس كلمة من القرآن ولا من الفاتحة، بل سنّ أن يقال بعد الدّعوات والفاتحة دعاءً، فسنّ أن يقال بعدها، قال ابن كثير[١] : روى الإمام أحمد وأبو داود والتّرمذي عن وائل بن حجر (رضي الله عنه) قال سمعت النّبيّ (ﷺ) قرأ: (غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين)، فقال (آمين)، ومدَ بها صوته، فيسنّ (آمين) للمنفرد والمأموم والإمام لما جاء في الصّحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول اللّه (ﷺ) قال: (إذا أمّن الإمام فآمنوا، فإنّه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢]، ولمسلم أنّ رسول اللّه (ﷺ) قال: (إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السّماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه). وورد في ذلك أحاديث كثيرة يطول ذكرها.

سؤال: هل يجهر بقوله: (آمين) أو لا؟ **الجواب:** اتّفق العلماء على أنّه إذا نسى الإمام التأمين جهر المأموم به، وإن جهر الإمام به فمذهب أبي حنيفة والقول الجديد للشّافعي: أنّه لا يجهر المأموم بهنّ. وكذا في رواية عن مالك، وعلّلوا ذلك بأنّه ذكر والأذكار في الصّلاة لا تجهر بها. وعند الإمام أحمد ورواية عن مالك والقول القديم للشّافعي: أنّه يجهر المأموم بها حتي يرتجّ المسجد؛ لرواية ابن ماجه عن أبي هريرة (رضي الله عنه) : كان رسول اللّه (ﷺ) إذا قال: (غير المغضوب عليهم ولا الضّالّين) قال: آمين، حتى يسمع من يليه من الصّف الأوّل فيرتجّ بها المسجد)[٣] .

* * *

فائدة: من المراد بالمغضوب عليهم والضّالّين؟

قال بعض المفسّرين: (المغضوب عليهم) هم اليهود، و(الضّالون) هم النّصارى. وذكروا حديثاً من الرّسول (ﷺ) أنّه فسّر المغضوب عليهم باليهود والضّالّين بالنّصارى[٤]، ولكن قال الإمام الرّازي: إنّ هذا التّفسير ضعيف، لأنّ المشركين كانوا شرّاً من اليهود والنّصارى، فهم أولى بأن يكونوا مغضوباً عليهم وضالّين، وقال: إنّ

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٢.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٧٠.

(٣) سنن ابنماجة ١/ ٢٧٨ الحديث رقم٨٥٣.

(٤) أنظر المعجم الأوسط ٦/ ٢٧٩ الحديث رقم٦٤١١.

الحديث الذي فسّر هكذا ضعيف أيضاً .**أقول:** ويؤيّد ما قاله المفسّرون: إنّ الله تعالى ذكر في اليهود أنّه غضب عليهم، فقال: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٦١. وقال تعالى: ﴿وباءوا بغضب من اللّه﴾ سورة آل عمران الآية/ ١١٢ ـ ، وقال تعالى في الفريقين: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ سورة المائدة الآية/ ٧٧ ـ هذا وإنّ الحديث ينصّ على ذلك. وإنّ ضعفه يتقوّى بموافقته للقرآن الكريم، ويجاب عن قول الإمام الرّازي: (إنّ المشركين كانوا شراً) بأنّ قول الرّسول (ﷺ): هم (اليهود والنّصارى) لايستلزم الحصر فيهم، وإنّما هو يفيد أنّ اليهود والنّصارى هم مغضوب عليهم وضالّون، وإن كان هناك من هم مغضوب عليهم وضالّون أكثر من اليهود والنّصارى، إلّا أنّ الحديث ذكر اليهود والنّصارى فقط، لأنّه ورد في وقت كانت معركة المسلمين مع اليهود والنّصارى فقط، لأنّ المشركين لم يبقوا بل أسلم كلّهم بعد فتح مكة. وكذلك الآيتان تفيدان أنّ اليهود مغضوب عليهم، ولا تفيد ألّا مغضوب عليهم سواهم. فبذلك علمت أن المغضوب عليهم ليسوا اليهود فقط، وإنّ الضّالّين ليسوا النّصارى فقط، بل كلّ من انحرف وضلّ عن الصّراط المستقيم صراط الذين أنعم اللّه عليهم وهو الإسلام فهم مغضوب عليهم، فهم ضالّون إن كان انحرافهم عن الصّراط المستقيم عن علم بحقيقته وإنّما انحرفوا عناداً وكبرياءً وخوفاً من زوال الرّياسة، وهم ضالّون إن كان انحرافهم عن جهل وتقليد لعاداتهم وساداتهم وكبرائهم، فهم ضالّون، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ سورة الاحزاب الآية/ ٧٦ .فالمغضوب عليهم هم أئمة الشّرّ ودعاته، والضّالّون هم الأتباع والعوامّ المقلّدون لهم. سواء منهم المشركون والملحدون واليهود والنّصارى وغيرهم من كلّ أمّة ضلّت عن الصّراط المستقيم بقرينة التّقابل بينهما وبين الصّراط المستقيم في السّورة، وهذا هو المعنى الصّحيح واللّه تعالى أعلم.

* * *

خاتمة: في حكم قراءة الفاتحة في الصّلاة:

عند أبي حنيفة (رضي الله عنه) لا يتعيّن قراءة الفاتحة في الصّلاة، بل تكفي قراءة ما تيسّر من القرآن الكريم بدليل قوله تعالى: ﴿فَاقْرَؤوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآن) سورة المزمل الآية/ ٢٠

- وبدليل أنّ الرّسول (ﷺ) حينما علّم الأعرابي الذي أساء في صلاته الصّلاة قال له: (إذا قمت إلى الصّلاة فكبّر، ثمّ اقرأ ما تيسّر معك من القرآن)، ولم يعيّن له الفاتحة، فالصّلاة بدونها صحيحة إلّا أن تركها إثم. وعند باقي الأئمة إنّها تتعيّن قراءتها ولا تصحّ الصّلاة بدونها بدليل ما ثبت في الصّحيحين[١] عن عبادة بن الصّامت أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب). ولما ثبت في صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال رسول اللّٰه (ﷺ): (لا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بأمّ القرآن)[٢]. والأحاديث في هذا كثيرة.

إلّا أنّ القائلين بتعيين قراءتها اختلفوا، فمنهم من قال: تتعيّن قراءتها في كلّ ركعة،وهذا مذهب الشّافعي وجماعته من أهل العلم. وقال آخرون: تكفي قراءتها في معظم الرّكعات. وقال الحسن وأكثر البصريين: إنّما تجب قراءتها في الرّكعة الأولى فقط. وكذلك اختلفوا في قراءة المأموم وراء الإمام على أقوال ثلاثة: **القول الأوّل**: إنّها تجب عليه في السّريّة والجهريّة، وهذا مذهب الشّافعي (رضي الله عنه).

القول الثّاني: إنّه لا تجب عليه القراءة لا للفاتحة ولا لضمّ السّورة لا في السّريّة ولا الجهريّة، وهذا مذهب الحنفية (رضي الله عنهم).

القول الثّالث: تجب على المأموم القراءة في السّريّة، ولا تجب عليه في الجهريّة، والأقوال موجودة في ابن كثير مع أدلّتها في ج/١ص/٢١.

ونختم القول بما قال الحافظ أبو بكر البزّار: حدّثنا إبراهيم بن سعد الجوهري حدّثنا غسان بن عبد عن أبي عمران الجويني عن أنس (رضي الله عنه) قال رسول اللّٰه (ﷺ): (إذا وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو اللّٰه أحد فقد أمنت من كلّ شيء)[٣] .اللّهم آمِنّا، آمين برحمتك يا أرحم الرّاحمين، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين وعلى آلهم وأممهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٦٣ الحديث رقم ٧٢٣ ن وصحيح مسلم ١/ ٢٩٥ الحديث رقم الحديث رقم ٢٩٤.

(٢) صحيح ابن حبان٥/ ٨٦ الحديث رقم ١٧٨٥، وابن خزيمة١/ ٢٤٨ الحديث رقم٤٩٠ واللفظ له.

(٣) لم أجد الحديث في مسند البزار ولكن في غيره. أنظر | كنز العمال ١٥/ ١٤٤ الحديث رقم ٤١٢٧٩، مجمع الزوائد ١٠/ ١٢١ قال وفيه غسان بن عبيد وهو ضعيف وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح.

سورة البقرة

(مدنيّة، وسمّيت سورة البقرة لما فيها من أمر اللّه لبني إسرائيل بذبح بقرة، وقصّتها وردت في الآيات (٧١-٧٦)، ونزلت بمنى في حجّة الوداع، وهي (٢٨٦) مائتان وستّ وثمانون آية، وهي أوّل ما نزلت بالمدينة كما ذكر)[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فائدة في بيان فضلها:

١- عن أبي أمامة الباهلي (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: إقرأوا القرآن فإنّه ياتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزّهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنّهما يأتيان يوم القيامة كأنّهما غمامتان، أو كأنّهما غيابتان (مظلّتان)، أو كأنّهما فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإنّ أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعهما البطلة رواه مسلم والترمذي كما ذكر في التاج[٢] وفي رواية يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الّذين كانوا يعملون به تقدّمه سورة البقرة وآل عمران وضرب لهما رسول اللّه (ﷺ) ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد كأنّهما غمامتان ... إلخ.

٢ ـ عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: بعث رسول اللّه (ﷺ) بعثاً وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كلّ رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل من أحدثهم سنّاً فقال: ما معك يا فلان؟ قال: معي كذا وكذا وسورة البقرة، قال: أمعك سورة البقرة؟

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ١٥٢.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٥٥٣ الحديث رقم ٨٠٤،

فقال: نعم، قال: فاذهب فأنت أميرهم، فقال رجل من أشرافهم: واللّه يا رسول اللّه ما منعني أن أتعلّم سورة البقرة إلّا خشية ألّا أقوم بها، فقال رسول اللّه (ﷺ): تعلّموا القرآن واقرأوه فإنّ مثل القرآن لمن تعلّمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشوّ مسكاً يفوح بريحه كلّ مكان، ومثل من تعلّمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكيء على مسك[١].

٣- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: لا تجعلوا بيوتكم مقابر، وإنّ البيت الّذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشّيطان[٢] .وقال حسن صحيح .

٤ ـ عن أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: (اللّه لا إله إلّا هو الحيّ القيوم)، قال فضرب في صدري وقال: والله ليهنئك العلم أبا المنذر .**أقول**: وهذه الآية من سورة البقرة فإذا كانت هي أعظم فسورة البقرة أعظم السّور،لأنّ المشتمل على الأعظم أعظم بالأولى.

٥ ـ عن أبي أيّوب الأنصاري (رضي الله عنه) أنّه كانت له سهوة (بيت حفر في الأرض أو طاق) فيها ثمر فكانت تجيء الغول[٣] فتأخذ منه، فشكا ذلك إلى النّبيّ (ﷺ) قال: فاذهب فإذا رأيتها فقل باسم اللّه أجيبي رسول اللّه (ﷺ) قال: فأخذها، فحلفت ألّا تعود فأرسلها. فجاء إلى رسول اللّه (ﷺ) فقال ما فعل أسيرك قال: حلفت ألّا تعود. قال: كذبت وهي معاودة للكذب. قال: فأخذها مرّة أخرى فحلفت ألّا تعود فأرسلها، فقالت: إنّي ذاكرة لك شيئاً آية الكرسي إقرأها في بيتك فلا يقرّبك شيطان ولا غيره، فجاء إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: ما فعل أسيرك؟ فأخبره بما قالت، قال: صدقت وهي كذوب[٤].

٦- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: لكلّ شيء سنام وإنّ سنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيّدة آي القرآن، هي آية الكرسي[٥].

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٥٦ الحديث رقم٢٨٧٦ وقال حديث حسن.

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٥٧ الحديث رقم٢٨٧٧.

(٣) نوع من الجن يتلون ألوانا أنظر ترتيب القاموس المحيط مادة (غول) ٣/ ٤٣٠.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ١٥٨ الحديث رقم ٢٨٨٠.

(٥) سنن الترمذي ٥/ ١٥٧ الحديث رقم٢٨٧٨.

٧- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أيضا عن النبيّ (ﷺ) قال: من قرأ (حم) المؤمن ...إلى ... إليه المصير، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتّى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتّى يصبح[١] (رواهما الترمذي بسندين ضعيفين)، ويقال إنّ الضعيف يعمل به في فضائل الأعمال.

٨ ـ عن ابن مسعود (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه[٢].

٩ ـ عن النّعمان بن بشير (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ اللّه كتب كتاباً قبل أن يخلق السّماوات والأرض بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقرّبها شيطان [٣] .

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾

(ألم) ألف، لام، ميم، أمثال هذه الحروف التي وردت في أوائل بعض السّور أسماء لحروف مقطّعة من حروف الهجاء، جيئ بها في أوائل تلك السّور، وفيها مسألتان:

الأولى: هل يجوز تأويلها أولا ؟

الثّانية: ما هو تأويلها؟ **المسألة الأولى:** اختلف العلماء في جواز تأويل الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور، أي في ذكر المعنى الّذي قصد من الإتيان بها لا في بيان معنى ذواتها؛ فإنّ معناها واضحة، فإنّ ألف اسم للحرف الأوّل من (أعلم) ولام للحرف الثّالث منه وميم للحرف الرّابع منه وأصبحوا صنفين[٤].

الصّنف الأوّل: قالوا: لا يجوز تأويلها، لأنّها من الآيات المتشابهة الّتي لا يعلم تأويلها إلّا اللّه تعالى، واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٥٧ الحديث رقم ٢٨٧٩.

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٤٧٢ الحديث رقم٣٧٨٦.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ١٥٩ الحديث رقم ٢٨٨٢.

(٤) أي العلماء على قولين.

تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٧. فعندهم الوقف على لفظ الجلالة في (إلّا اللّه) فيفيد أنّه لا يعلم تأويلها إلّا اللّه، فلا يجوز للعبد الخوض فيه لأنّه سرّ من أسرار اللّه تعالى في القرآن. سيّما وقد ذمّ اللّه تعالى الذين يتّبعون تأويلها ووصفهم بأنّ في قلوبهم زيغ، والزّيغ هو الميل والبعد عن الحقّ، فمن ابتغى تأويلها فهو مائل عن الحقّ كما يقولون وهذا مذهب السّلف، إلّا أنّه ليس مذهب كلّ السّلف؛ لأنّ كثيراً منهم ذكروا لها معاني وأوّلوها كلّ حسبما أدّى إليه ذهنه أو علمه.

الصّنف الثّاني: وهو مذهب الخلف وكثير من السّلف، قالوا: يجوز تأويلها ويستدلّون على ذلك بالآية الكريمة نفسها، فإنّهم يقفون على (في العلم) في قوله: (والرّاسخون في العلم) فيكون التّقدير (وما يعلم تأويله إلّا اللّه والرّاسخون في العلم). فتفيد الآية أنّ الرّاسخين في العلم يعلمون تأويلها أيضاً. وإنّ اللّه تعالى لم يذمّ الذين يتّبعون تأويلها مطلقاً، بل ذمّ الذين يتّبعون تأويلها إلى معان يفتنون بها النّاس ويبعدونهم بها عن دينهم فيؤوّلونها حسب أهوائهم وحسب ما يوافق مذهبهم الفاسد، وإلى معان لا تتّفق مع الآيات المحكمات الّتي هنّ أمّ الكتاب، أي أصل الكتاب والمرجع الّذي يجب أن يردّ المتشابهات إلى مدلولاتها ومقتضياتها؛ وبذلك يضلّون ويضلّون أناساً عن مقاصد الشّرع وأحكام الإسلام وقواعده وعقائده الثّابتة في المحكمات. وهؤلاء كالفلاسفة يحملون آيات القرآن على معان بعيدة عن روح الإسلام ويصرفونها عن ظاهرها الواضح المبيّن كما يفسّرون النّار بالغضب في قوله تعالى: ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٦٩. فيقولون معناه: قلنا لغضب نمرود كن برداً وسلاماً على إبراهيم، وذلك لأنّهم يزعمون أنّ قدرة اللّه تعالى لا تقدر أن تصرف الأشياء عن مقتضى طبيعتها فلا يمكنها أن تجعل النّار باردة، وكذلك يؤوّلون كلّ معجزات الأنبياء الّتي خرقت نواميس الطّبيعة إلى ما يوافق مقتضى الطّبيعة، فإنّ الطّبيعة عندهم حاكمة على اللّه تعالى وليس الله حاكماً عليها، فيقولون: إذا وجد السّبب وجب على الله خلق المسبّب. فتعالى اللّه عمّا يقولون علوّاً كبيراً. وكالباطنيّة الّذين يصرفون الآيات عن ظواهرها ومدلولاتها إلى معان تخالف ما ثبت في محكمات الآيات الّتي هنّ أمّ الكتاب، وقصدهم من ذلك نبذ الأحكام الدّينيّة وتعطيلها والخروج عن التّكاليف الشّرعية، فمثلاً يفسّرون ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ سورة

النّساء الآية/ ٦٣. فيقولون: الجار ذي القربى يعني: القلب، والجار الجنب هو الطّبيعة، والصاحب بالجنب هو العقل المقتدي بالشّريعة، وابن السبيل هو الجوارح المطيعة للّه تعالى. وهكذا يفسّرون الآيات ويحملونها على معان بعيدة عن المعنى الحقيقي للألفاظ العربية دون قرينة صارفة لها عن معانيها وحسب أهوائهم.

فائدة: اشترط أهل الحقّ[1] في صرف الآيات عن ظواهرها وحملها على معان خلاف الظّاهر أحد الأمور الآتية: **الأوّل:** أن يتحمّل اللّفظ ذلك المعنى المصروف إليه حقيقة أو مجازاً وتوجد قرينة تصرف اللّفظ عن الظّاهر وتمنع عن إرادته.

الثّاني: أن يشهد له شاهد من الكتاب أو السّنة نصّاً أو التزاماً.

الثّالث: أن يؤخذ بظاهره، ثمّ يستنبط منه معنى لطيف، فيقال: أمّا ظاهره فهكذا ونأخذ به، وأمّا باطنه فهكذا، فيذكر له معنى لطيفاً ينسجم مع لفظ الآية ومقتضى قواعد الدّين وما ثبت في الآيات المحكمات الّتي هنّ أمّ الكتاب، وبدون أحد هذه الشّروط فهو صرف للقرآن عن الأحكام وينجرّ أخيراً إلى هدم الإسلام وقواعده وعقائده وأحكامه فيكون كفراً، قال في رسالة اللّطف الخفيّ[2] نظم عقائد الإمام النّسفيّ:

إنّ النّصوص للظّواهر تردّ ... فرّ وإلحاد إذا تبغي تردّ

إلى معان يدّعيها الباطنون ... فإنّهم عن الصّراط حائدون

فكلّ معنى باطني أو فلسفي أو إشاري يراد منه نبذ الظّواهر بدون داع ودليل عليه فهو كفر وإلحاد، وإن أريد إظهار لطيفة تؤخذ بإشارة[3] بعد الأخذ بظاهر الآية والالتزام بما فيها من الأحكام والعقائد فلا مانع من ذلك، ولكن يجب أن يسدّ هذا الباب أيضاً لئلّا ينجرّ إلى فتح الباب والخروج عن الصّواب إلّا ما التزمه المعنى الظّاهر، كدلالة الاقتضاء ومفهوم المخالفة وفحوى الخطاب، وغير ذلك من الدّلالات التّي احتجّ بها علماء الأصول وجعلوها حجّة لأحكام أُخر مع الحكم الّذي يفهم من الظّاهر، وذلك من مقتضى اللّغة وليس خارجاً عنها.

---

(١) أي أهل السنة والجماعة.

(٢) رسالة كتبها الشيخ المفسر في العقائد، نظم فيها العقائد النسفية ثم شرحها، وسماها بعض المحبين بالعقائد الباليسانية، وهي مخطوطة الآن محفوظة عندنا لم يطبع بعد.

(٣) أي بدليل الإشارة.

توضيح: سلك النّاس في تفسير القرآن الكريم مذاهب شتّى، فمنهم من يحمل آيات القرآن كلّها على ظاهرها ولا يؤوّل شيئاً منها، ويفسّرها تفسيراً حرفيّاً، وهذا مذهب بعض أهل الظّاهر فوقعوا بذلك في تجسيم اللّه تعالى وسمّوا المجسّمة.ومنهم من يصرف القرآن كلّه عن ظاهره، ويقولون ليس المراد بالقرآن ظاهره، بل يراد به معان لا يفهمها إلّا بعض الخواصّ، وهم الباطنية، ومنهم من يؤوّل كلّ آية تصطدم مع قواعد مذهبه إلى ما يلائم مذهبه وينسجم معه، وهم الفلاسفة والمتعصّبون في المذاهب، ومنهم من يأخذ بظاهر الآيات ويأخذ بما يفهم منها من الأحكام، ثمّ يستخرج منها رموزاً وإشارات إلى معان لطيفة لا تخالف أصل الدّين ولا تصطدم مع قواعد الإسلام وأحكامه، وهم أهل التصوّف والإشارات[1]، ومنهم من يفسّر القرآن كما يقتضيه ظاهر اللفظ العربيّ، ولا يؤوّله إلّا لداع إلى ذلك من عقل أو نقل قطعيين، وهذا مذهب أهلّ السّنّة والجماعة، ومشى عليه الصّحابة والتّابعون، وهذا هو الحقّ والواجب اتّباعه. فإنّ القرآن نزل هداية للنّاس أجمعين فلا يعقل أن يراد منه ما يخفى إلّا على بعض الخواصّ من النّاس كما يدّعيه الباطنيون، وليس من المعقول أيضاً أن لا يكون في هذا الكتاب البليغ ما يراد منه غير ظاهره من المجاز أو الكنايات أو الاستعارات أو غير ذلك ممّا يورث الكلام رونقاً وجمالاً كما يدّعيه أهل الظّاهر، وإنّ القرآن نزل ليكون قيّماً ومهيمناً على غيره من الكتب والمذاهب فيوزن به غيره فما وافقه يؤخذ به وما لا فيضرب به عرض الحائط، ولم يأت لأن يكون تابعاً ويكون قول النّاس ومذهبهم قيّماً ومهيمناً عليه، قال الرّسول (ﷺ): (لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى يَكونَ هَواهُ تَبَعاً لما جِئْتُ بِهِ)[2]. فلا يمكن أن يهيمن عليه غيره ويؤوّله حينما اصطدم معه كما يفعله المتفلسفون والمتمذهبون[3].

فالحاصل أنّ تأويل المتشابهات إلى معان لا تخالف قواعد الدّين ولا تصطدم مع عقيدة أو حكم، وتتلاءم مقتضى الآيات المحكمات اللّاتي هنّ أمّ الكتاب مجمع عليهما

---

(١) اي أهل التربية الروحية الصادقين الملتزمين بالضوابط العلمية لا المدعين الباطنية وعلم الباطن غير المنضبط بضوابط شرعية.

(٢) شرح السنة ١/٢١٣ الحديث رقم ١٠٤.

(٣) يقصد بهم المتعصبون لمذهب إلى حد يؤولون النصوص لصالح مذهبهم وإلا فإن الشيخ الوالد رحمه الله تعالى كان شافعي المذهب إلا إذا ظهر له بالدليل ما يدعوه إلى مخالفة المذهب فيخالفه اتباعا للدليل.

بين المسلمين ـ واللاّتي يجب أن يردّ إليهنّ المتشابهات ـ . جائز ولا مانع من مثل هذا التأويل، سيّما وأنّ اللّه تعالى حثّ المسلمين على مراجعة أهل العلم فيما أشكل عليهم وذمّهم على ترك ذلك، ومدح أهل العلم باستنباطهم الأمور من موارد ومعين الكتاب والسّنّة، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سورة النساء الآية/ ٨٣. وأولوا الأمر هم أهل العلم، فإنّه لا يجوز أن يولي الأمر إلّا من كان عالماً بشرع اللّه ومتفقّهاً في الدّين ومتفهّماً للقرآن الكريم وسنّة سيّد المرسلين، وهذا هو حكم الإسلام. وفقّنا اللّه تعالى وهدانا إليه وهو على كلّ شيء قدير.

خاتمة المسألة الأولى: إنّ لكلّ من الصّنفين السّلف والخلف عذرهم المقبول ووجهتهم الحسنة فيما ذهب إليه، فإنّ السّلف الصّالحين (ﷺ) عاشوا في أمّة ثابتةٍ على دينها راسخة في عقيدتها لهم قلوب صافية خالية عن الشّكوك والأوهام، ولم يخوضوا في التوغّل في الأمور؛ مستسلمين لقول العلماء دون تلكّؤ منهم وتردّد، فلم يكن السّلف بحاجة إلى الخوض فيما لم يظهر معناه من آي القرآن الكريم، سيّما ولم يتعلّق بتلك الآيات من أحكام العباد شيء ولا حاجة من حوائج النّاس، فلم يتصدّوا لتأويل هذه المتشابهات وفوّضوا علمها إلى اللّه تعالى مخافة أن يقعوا في خطأ، ولم يلجئهم إلى ذلك داع من النّاس أو من الدّين، ولذلك فمذهب السّلف أسلم. وأمّا الخلف الصّالحون فجاؤوا في زمان دخلت الفلسفة بين المسلمين وانتشرت العقائد الفاسدة بين المؤمنين وكثر المنحرفون عن المنهج المستقيم؛ فكانوا يثيرون الجدال في المتشابهات ويتمسّكون بها في ترويج أباطيلهم ويؤوّلونها حسبما يريدون؛ فبذلك كانوا يفتنون النّاس عن الدّين وأضلّوا كثيراً من أبناء المسلمين، فما كان يمكن للخلف أن يقولوا: إنّ هذا ممّا استأثره اللّه تعالى بعلمه. كيف وأنّه كتاب جاء ليخاطب النّاس كافّة لا لمجرّد التعبّد بتلاوته، بل لفهمه والعمل به، فكيف يكون الخطاب بما لا يفهم، ولم يمكنّهم القول أيضاً بأنّ لكلّ ملِك شفرات مع خواصّه لا يعلمها إلّا الخواصّ، وليكن هذا رموزاً بين اللّه تعالى ورسوله (ﷺ)، فإنّه كتاب خالد ومنهج عام نزل على رسوله لا له فقط، بل ليبلّغه النّاس كافّة، ويبقى هذا الكتاب جيلاً بعد جيل إلى أن يحكم اللّه تعالى على الحياة في الأرض ويأتي ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ سورة الشعراء الآية/ ٨٨-٩٨ ـ . فلا يعقل أن يكون فيه ما يخفى مدى الدّهر، سيّما وأنّ اناساً

مفسدين قاموا بتأويلها حسب أهوائهم السّقيمة، ويروّجون بها مذاهبهم الباطلة دون الرّجوع إلى المقتضى العام المفهوم من الآيات المحكمات التي هنّ أمّ الكتاب؛ فاضطرّ الخلف إلى تأويل هذه الآيات وحملها على معان تتفّق مع قواعد الدّين ولا تصطدم مع عقيدة من عقائد المسلمين، ولا تبطل حكماً مجمعاً عليه بين المؤمنين، وبحيث تلائم المقتضى العام المفهوم من الآيات المحكمات التي هنّ أمّ الكتاب توقيفاً[1] لحركة العابثين بالقرآن الكريم وإراحة لقلوب المسلمين الحائرين، ولذلك فمذهب الخلف أحزم. فجزاهم الله تعالى خير الجزاء ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٨ .

المسألة الثّانية في تأويلها: ذهب المجوّزون لتأويل الآيات المتشابهات في تأويل هذه الحروف المقطّعة إلى مشارب مختلفة بعد الاتّفاق على أنّها أسماء لحروف مقطّعة من حروف التهجّي، فالخلاف ليس في المعنى الموضوع له تلك الحروف، بل الخلاف في المقصود من الإتيان بها في أوائل تلك السّور، فمنهم من قال: إنّها أسماء لتلك السّور المفتتحة بها، فالتّقدير هذه سورة (ألم)، وهذه سورة (طس) إلى غير ذلك. ولا مانع من أن يكون للسّورة أكثر من اسم واحد، فليكن اسم هذه السّورة مثلاً (البقرة) و(ألم) أيضاً. وقيل إنّها أسماء للّه تعالى، أقسم اللّه تعالى بها لتأكيد الخبر الّذي يأتي بعدها، وقيل أسماء للقرآن جيء بها للقسم أيضاً. ويبعد هذه الوجوه الثّلاثة، لأنّ أسماء اللّه تعالى وأسماء السّور وأسماء القرآن كلّها توقيفيّة، يتوقّف إطلاقها على السّماع من الشّارع، ولم يسمع من الرّسول (ﷺ) أنّه سمّى اللّه تعالى أو القرآن أو السّور بهذه الأحرف. وما ورد في الصّحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول اللّه (ﷺ) قرأ في صلاة الصّبح (ألم) السّجدة و﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ سورة الإنسان

الآية/ ١، فليس ذلك تسمية لهاتين السّورتين بهذين الإسمين، لأنّ الأوّل ذكرها باسمها السّجدة وذكر معها (ألم) لدفع الالتباس بسورة أخرى تسمّى بالسّجدة، وهي سورة (حم) فصّلت، فإنّها تسمّى بـ (فصلت) وبـ (السّجدة) أيضاً. وأنّ الثّانية لا يعقل أن تكون هذه العبارة الطويلة اسماً للسّورة، وإنّما ذكرها أبو هريرة هكذا، لأنّها تسمّى

(١) أي إيقاف.

بسورة الدّهر أو سورة الانسان، فللتردّد في التّسمية ذكرها هكذا، والله تعالى أعلم.
وقيل: إنّ هذه الحروف اختصار لأسماء، فكلّ حرف يشير إلى اسم. ففي (ألم) مثلاً يقولون: الألف (أنا)، واللّام (اللّه)، والميم (أعلم)، فيكون التّقدير (أنا اللّه أعلم) وهذا أبعد من السّوابق، لأنّ الاختصار لا بدّ أن تكون له قرينةً تعيّن المختصر منه. مثل قول الشّاعر:

بالخير خيرات وإن شرّاً فا ولا أريد الشّرّ إلّا أن تا

فكلمة (إن شراً) تدلّ على أنّ المراد بـ (ف) فشرّاً وكلمة (ولا أريد الشرّ) تدلّ على أنّ المراد ب ـ (أن تا) أن تريد الشّرّ. وإلّا فإن جوّز الاختصار بدون قرينة تعيّن المختصر منه فكلّ شخص يقدر حسب هواه، فيكون هنا مجال للمشرك أن يقول: الالف (أنا) واللّام (اللّات) والميم (أعلم)، فيكون المثل: أنا اللّات أعلم، وهذا باطل.

وقيل: إنّها للتّنبيه، أي لتنبيه الرّسول (ﷺ) إلى استماع ما يوحى إليه، وهذا وإن كان معقولاً إلّا أنّه بعيد، لأنّ الموضوع الّذي يكون للتّنبيه إمّا أن يكون حسب اللّغة، أو حسب الاصطلاح بين المتخاطبين، وعلى التّقديرين يكون شيئاً معنيّاً، مثل (ألا) و(هلا) الموضوع للتّنبيه لغة، أو مثل (هلاو) الشّائع اصطلاحاً بين المخابرين بالهاتف، ولا يكون مثل هذه الحروف تأتي في كلّ سورة بنوع يخالف ما في الأخرى غالباً. وقيل: إنّها للفصل بين السّور، وهذا ضعيف أيضاً، لأنّه لو كانت للفصل للزم أن يؤتى بها أوّل كلّ سورة، على أنّ الفصل حاصل بالبسملة.

وقيل: أوتي بها لأنّ الافتتاح بها غريب وعجيب، فيجلب آذان النّاس إلى استماع ما بعدها ليقع في نفوسهم موقعها، وهذا حسن جدّاً، ولكنّ الأحسن من هذا ما قاله الجمهور إنّها حروف جيء بها **لأمرين:**

الأمر الأوّل: للدلالة على أنّ ما أنزل على الرّسول (ﷺ) وحي من اللّه تعالى. فكأنّه قال تعالى: إنّ هذا المنزّل على محمّد مؤلّف من نفس الحروف التي تؤلّفون أنتم منها خطبكم وأشعاركم، وليس من حروف غريبة عليكم. فإذا لم يكن من اللّه تعالى فلماذا عجزتم عن الإتيان بمثله ولو بمثل أقصر سورة منه ومن نفس هذه الحروف، وأنتم بلغاء العرب وفصحاؤها، ومحمّد أمّي لم يمارس الشّعر والخطابة قط؟ فيدلّ عجزكم عن المعارضة مع حرصكم عليها على أنّ هذا القرآن من اللّه تعالى ولا قدرة للبشر على صياغة كلام مثل كلام اللّه تعالى رونقاً وجمالاً وبلاغة واتّقاناً في الصّياغة والتّعبير.

الأمر الثّاني: إنّ محمّداً أمّيّ والأمّي إنّما يعرف التلفّظ بالحروف، ولكنّ معرفة

أسماء الحروف مختصّة بالكاتبين والدّارسين والقارئين، فحينما يعبّر محمّد عن أسماء هذه الحروف دون وجود أيّ ممارسة منه للكتابة والقراءة فذلك يدلّ على أنّه تعلّم من اللّه تعالى وأوحي إليه هذا العلم والتّعبير. فإن قيل: يضعّف هذين الأمرين أنّه لو كان كذا فلابدّ أن يؤتى بهذه الحروف أوّل كلّ سورة .**قلنا:** ليس الأمر كذلك وإنّما يلزم أن يؤتى بها في أوائل السّور اللّاتي تصدر بالإخبار عن أنّ القرآن من اللّه تعالى، أو أنّ محمّداً رسول اللّه، وعليك بتتبّع السّور التّي جيء بهذه الحروف في أوّلها ليظهر لك أنّ هذه الحروف ما جاءت إلّا ويذكر بعدها مباشرة الخبر عن القرآن بأنّه من اللّه تعالى، أو التّنويه بشأن هذا القرآن العظيم، و الإخبار بأنّ محمّداً رسول اللّه لم يأت إلّا نادراً. هذا واللّه تعالى أعلم بالصّواب.

* * *

(ذلك الكتاب)، كلمة **(ذلك)** مبتدأ و**(الكتاب)** صفته، وجملة **(لا ريب فيه)** خبره، فالمعنى: ذلك الكتاب المعهود والّذي أتى به محمّد وهو القرآن **(لا ريب)** لا شكّ **(فيه)** أنّه من اللّه تعالى، وقوله: **(هدى للمتّقين)** خبر ثان لذلك الكتاب، ويجوز أن نقول: أنّ **(ذلك)** مبتدأ و**(الكتاب)** صفته و**(هدى للمتقين)** خبره، وجملة **(لا ريب فيه)** اعتراض وقع بين المبتدأ والخبر لتأكيد مضمون الخبر، كما يقال: زيد لا ريب فيه عالمٌ، أي زيد لا ريب في علمه، فيكون المعنى: ذلك الكتاب هدى للمتّقين لا ريب في هدايته إلى الحقّ والمنهج المستقيم. ويجوز أن يراد المعنيان، لأنّ كلّ من تفكّر في القرآن وتدبّر في معانيه واطّلع على أحكامه النّافعة وأخلاقه الفاضلة والأخبار عن المغيّبات كما هي، وعن أسرار الكون كما يكشفه العلم، وما فيه من البلاغة التّي لم يستطع ولن يستطيع أيّ بليغ أن يأتي ولو بمثل أقصر سورة منه بلاغة ورونقاً وجمالاً في التّعبير، فمن تفكّر في القرآن واطّلع على هذه الأمور لا يبقى له شكّ في أنّ هذا القرآن من اللّه تعالى، وأنّه **(هدى للمتّقين)**، و**(هدى)** مصدر، وهو ضدّ الضّلال والغواية والانحراف عن المنهج الحقّ المستقيم، فالهدى يكون بمعنى الحصول على المنهج الحقّ المستقيم وحينما نسب إلى القرآن يكون بمعنى اسم الفاعل، فالمعنى: أنّ القرآن هاد إلى المنهج الحقّ المستقيم، وقصد بذلك المبالغة، فإنّ القرآن لقوّته في الهداية كأنّه هو الهداية نفسها، مثل ما يقال: (زيد عدل). هذا وإذا نظرنا إلى الحقيقة نرى أنّ القرآن هو مانزّل على الرّسول (ﷺ) بتلك الألفاظ المسموعة والمتلوّة، وهذه الألفاظ تدلّ على أحكام

وتهدي الى أخلاق وأعمال وصفات حميدة، وإلى بيان ماهو خير وما هو شرّ وإلى منهج حقّ مستقيم، فيكون القرآن هو نفسه منهجاً حقّاً ومستقيماً، فيؤوّل المعنى إلى أن تقول: ذلك الكتاب وهو القرآن هو منهج حقّ ومستقيم نزّل (**للمتّقين**)، أي للّذين يريدون التحفّظ والتجنّب من المناهج الضالّة والمبادىء الفاسدة، فإنّ المتّقي اسم فاعل من (أوتقى) قلبت الواو تاءً وأدغم في التّاء فصار متقيّاً، و(أوتقى) من وقى، و(وقي) بمعنى حفظ، فيكون (اتّقى) بمعنى احتفظ وتجنّب واحترز، فإذا ذكر مع الكفر يكون معناه احترز واحتفظ من الكفر، وإذا ذكر مع الفسق معناه احتفظ من الفسق، وإذا ذكر مع الشّرّ يكون معناه اتّقى الشّرّ، وهكذا يكون معناه الاتّقاء والاحتفاظ عمّا ذكر معه أو عن ضدّه، وهنا ذكر مع الهداية فيكون المعنى أنّ القرآن هداية لمن يحبّ الحقّ والمنهج المستقيم ويحبّ أن يتجنّب الضّلال والغواية والمناهج الفاسدة، فتفيد الآية: أنّ القرآن هو منهج للحياة ونظام للعمل جاء ليعمل به المتّقون عن الضّلالة وعن الانحراف عن الحقّ وليطبّقوه في شؤونهم وجميع نواحي حياتهم، وتفيد بدلالة العكس ومفهوم المخالفة أنّ كلّ من إتّبع منهجاً غير منهج القرآن فهو ضالّ منحرف عن الحقّ وعمّا تقتضيه طبيعة الإنسان المستقيم والإنسان كما هو الإنسان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر المتّقين بصفاتهم ليتميّزوا عن غيرهم ولتتعيّن شخصيتهم، فقال جلّ وعلا:

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

(**الّذين يؤمنون بالغيب**)، وهو ما غاب عن الحواسّ الخمس الظّاهرة - الّتي هي: الشمّ واللّمس والذّوق والسّمع والبصر- فلا يدرك بها، وذلك ما وراء الطّبيعة[١] مثل: (اللّه والملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر وقضاء اللّه تعالى وقدره)، والمراد بالكتب

---

(١) مصطلح فلسفي يطلق على كل ماهو غيب، ويسمى بالميتافيزيقا وكل اعتمادهم في بحثه على التحليل المنطقي الفكري بعكس العلماء في الطبيعيات حيث يعتمدون على المنهج التجريبي. الموسوعة العربية العالمية ٢٤/ ٥٠٤.

والرّسل كون الكتب من اللّه تعالى وكون الرّسل رسلاً، لا ذوات الكتب والرّسل، فإنّها محسوسة كما لا يخفى، وتلك الأشياء السّتّة هي أصول الإيمان الّتي أخبر عنها الرّسول (ﷺ) حينما قال له جبريل: يا محمّد ما الإيمان؟ فقال (ﷺ): (أن تؤمن باللّه واليوم الآخر وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشرّه)[١]، فالإيمان هو الاعتقاد والتّصديق بهذه الأشياء السّتّة، أي وجود اللّه تعالى والملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر وبالقضاء والقدر، وكلّ هذه الأمور غيب لا يدرك بالحواسّ.

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الإيمان ومتعلّقه، أراد أن يذكر الإسلام فقال: **(ويقيمون الصّلاة)**، والمراد بإقامة الصّلاة هو أداؤها وجعلها قائمة بين النّاس بالأمر بها حسب المستطاع بالقوّة أو اللّسان والموعظة الحسنة[٢]، **(وممّا رزقناهم ينفقون)**، وهذا يشمل الانفاقات كلّها من الزّكاة والصّدقات والنّفقات وأداء حقوق العباد وانفاق القوّة أو الجاه لمن يحتاج إلى ذلك. وفي ضمن هاتين الجملتين تمّ ذكر الإسلام كلّه، لأنّ أعمال الإسلام كلّها إمّا بدنيّة وإمّا ماليّة، فالأولى العبادات البدنيّة والثّانية العبادات الماليّة، فالصّلاة رمز لكلّ العبادات البدنيّة والانفاق رمز لكلّ العبادات الماليّة، فيكون المراد من قوله: **(ويقيمون الصّلاة)** يؤدّون العبادات البدنيّة كلّها، وبقوله: **(وممّا رزقناهم ينفقون)** يؤدّون العبادات الماليّة جميعها، وبهذا يتمّ وصف المتّقين بأنّهم يؤمنون بما وجب الإيمان به ويؤدّون أعمال الإسلام، فهم مؤمنون ومسلمون أيضاً، فإنّ الإيمان في الحقيقة هو التّصديق بما جاء به الرسول (ﷺ)، والإسلام هو العمل به، إلّا أنّه قد يطلق الإيمان ويراد منه الإسلام، وقد يطلق الإسلام ويراد منه الايمان وذلك في آيات وأحاديث، ويعرف المراد حسب الحال والمقام. وذلك الإطلاق هو لأنّهما متلازمان في الجملة.

هذا وحيث إنّ أهل الكتاب كاليهود والنّصارى كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر والكتب والرّسل والملائكة والقضاء والقدر، وكان عندهم الصّلاة والانفاق، ولإخراج غير المؤمنين منهم عن دائرة المتّقين قال تعالى: **(والذين يؤمنون بما أنزل إليك)** من القرآن وبأنّك رسول من اللّه تعالى وما أنزل من قبلك من التّوراة والإنجيل، فيمتثلون

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٩٣ الحديث قم ٤٤٩٩، صحيح مسلم ١/ ٣٠ الحديث رقم١٠٦.

(٢) أي إقامة الصلاة نوعان: الأول: إقامتها في النفس بضبط شروطها وأركانها وأعمالها كلها، الثاني: إقامتها في المجتمع ويكون عن طريقين: طريق الدولة بالامر بها ومعاقبة تاركها، وطريق الافراد بالحث عليها عن طريق الوعظ والترغيب والترهيب.

بما في التّوراة والإنجيل من الأمر بالإيمان بك واتّباعك **(وبالآخرة)**، أي بيوم القيامة **(هم يوقنون)** فيخافون عذابه ويوفون بالعهد الذي أخذ منهم في هذه الكتب بأن يتّبعوك ويؤمنوا بك **(أولئك)** المتّصفون بالصّفات الّتي سبق ذكرها من الإيمان بالغيب وإقامة الصّلاة والانفاق ممّا رزقوا والإيمان بما أنزل إليك **(على هدى)** منهج حقّ ومستقيم جاءهم **(من ربّهم)** الذي أمرهم باتّباع هذا المنهج **(وأولئك هم المفلحون)** الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

كان رسول اللّه (ﷺ) يحبّ أن يؤمن من أهل المدينة أشخاص كانوا سادةً وقادةً في قومهم، فلو آمنوا لآمن كثير من النّاس، وكان في ذلك قوّة للإسلام وشوكة له، وكان الرّسول يتحسّر على عدم إيمانهم، فأخبره اللّه تعالى أنّهم لا يؤمنون إراحة لقلبه الشّريف، ولئلّا يذهب نفسه حسّرات عليهم، فقال تعالى: **(إنّ الذين كفروا)** أي صمّموا على الكفر وعقدوا قلوبهم عليه **(سواء عليهم)**، أي استوى بالنّسبة إليهم **(أأنذرتهم)** ووعظتهم **(أم لم تنذرهم)** فتركت إنذارهم ووعظهم، فالإنذار وعدم الإنذار سواء، لأنّهم **(لا يؤمنون)** أبداً فلا تحزن عليهم، لأنّه **(ختم اللّه على قلوبهم)** فلا يدخل الحقّ فيها ولا يتفكّرون بها تفكيراً صحيحاً يؤدّيهم إلى الإيمان، **(وعلى سمعهم)** ختم أيضاً فلا يسمعون الحقّ سماع القبول، **(و)** استقرّ **(علي أبصارهم غشاوة)** منعتها من رؤية الحقّ واتّباعه **(ولهم عذاب عظيم)** في الآخرة على تمرّدهم وعتوّهم هذا.

سؤال: فبعدما أن ختم اللّه على قلوبهم وعلى سمعهم وجعل على أبصارهم غشاوة وجعلهم بحيث لا يهتدون للحقّ فلماذا يعذّبهم؟ أليس ذلك كما يقول الشّاعر:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

الجواب: إنّ اللّه تعالى نسب الختم إلى ذاته، لأنّه تعالى خلق الأسباب والمسبّبات وربط بينهما؛ فإذا وجد السّبب جعل من عادته أن يخلق المسبّب، فمن دخل النّار خلق له الاحتراق، ومن قذف بنفسه في البحر خلق له الغرق والاختناق، ومن ضرب نفسه بطلقة خلق له الموت، وإنّ هذه الحالة من الختم على القلب والسّمع والغشاوة على الأبصار حصلت لهم بسبب استكبارهم وعتوّهم وعنادهم وتقاليدهم الموروثة واتّباعهم لها؛ فسبّب

كلّ ذلك ضلالهم، وإن خلق الله تعالى لهم الضّلال وخلق لهم الختم والغشاوة. أو نقول: إنّ هذا تشبيه - وأنّ اللّه تعالى شبّههم في عدم التفكّر في الحقّ وعدم السّماع له وعدم النّظر إليه بمن أغلق اللّه تعالى قلبه وسمعه فختم عليهما وجعل أبصارهم محجوبة بسبب الغشاوة عليها- وليس على حقيقته، فلأنّهم كانوا يعرفون الحقّ بقلوبهم ويسمعونه بآذانهم ويرونه بأعينهم إلّا أنّهم لم يؤمنوا حسداً واستكباراً، أو عتوّاً أو تقليداً، أو خوفاً من زوال الرّياسة أو تبعيّة للسّادة والكبراء؛ وذلك بدليل أنّ صفيّة بنت حيىء بن أخطب زوج الرّسول (ﷺ) تقول: إنّ والدي وعمّي حينما سمعا بقدوم الرّسول إلى قبا ذهبا إليه، فلمّا رجعا سمعت عمّي يقول لوالدي: أليس هو المذكور في التّوراة؟ قال: نعم. قال: فما موقفك معه؟ قال: واللّه لا أؤمن به أبداً. وقد كان بين اليهود والأوس والخزرج عداوات وأيّام. فكانت اليهود تقول للأوس والخزرج: لقد آن ظهور النّبيّ الموعود في التّوراة فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، ولكن بعدما جاء كفروا به، وهذا ما أخبر اللّه تعالى به، فقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٩٠،٨٩.

وهكذا فكثير من النّاس يظهر لهم الحقّ إلّا أنّهم يعرضون عنه لسبب ما، مثل هرقل الرّوم حين بلغته دعوة الرّسول (ﷺ) عرف الحقّ وآمن به وصعد على شرفة من شرف ديوانه،وجمع النّاس ووعظهم ونصحهم وأمرهم بالإيمان، فهجم النّاس عليه وأرادوا أن يقتلوه، فقال لهم: إنّما أردت أن أجرّب إيمانكم! وأعرض عن الحقّ خوفاً من زوال ملكه، فلو كان طالباً للحقّ لآمن واختفى وهاجر والتحق بالرّسول (ﷺ) وأصحابه، وكان يربح الدّنيا والآخرة. وقد رأيت وفداً من المسلمين من الهند جاؤوا إلى بغداد. فذكر أحدهم أنّه زار (نهرو) رئيس وزراء الهند في وقته مع جماعة من المسلمين. فسأل أحد الزائرين نهرو عن الإسلام، فتكلّم عن الإسلام بما يعجب، فقال له: فلماذا لا تسلم وأنت تعرف هذه المعرفة بالإسلام؟ فقال: إنّ الدّين كالولد فكما أنّ من له ولد أقرع مشوّه الخلقة والمنظر لا يبدّل بولد غيره الّذي هو حسن المنظر جميل الوجه وسليم البنية. فكذلك يصعب على المرء أن يبدّل دينه بغيره، فكان لا يؤمن لحبّه لما ورثه من الآباء والأجداد من الدّين وإن ظهر له أنّه باطل.

سؤال آخر: لماذا ذكر القلب والبصر بلفظ الجمع وذكر السّمع مفرداً؟

الجواب: إنّ القلب والسّمع والبصر كلّها معان مفردة لا تعدّد لها، وإنّما التعدّد يكون لمتعلّقاتها؛ فحيث أنّ السّمع له متعلّق واحد وهو الأصوات لذلك ذكر مفرداً، ولكنّ متعلّق القلب والبصر أنواع؛ فلذا جمعا، وذلك لأنّ القلب يدرك به التّصوّر والتّصديق والوهم والظنّ والشّكّ واليقين، ويدرك به الضّروري والنّظري، وكذلك البصر فإنّه يدرك به الألوان والأشكال والحركة والسّكون والاجتماع والافتراق والسّيولة والجمودة والطّول والقصر والعلوّ والسّفل.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى لرسوله والمؤمنين حال الكافرين أراد أن يذكر لهم حال المنافقين ليكون الرّسول والمؤمنون على حذر منهم فإنّهم كانوا أشدّ ضرراً من الكافرين، فإنّ العدوّ الظّاهر معروف يحذر منه، ولكن العدوّ المتظاهر بمظهر الصّديق الحميم لا يعرف ولا يحذر منه، فيطّلع على علانيتك وأسرارك فيكون أكثر ضرراً من العدوّ الظّاهر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

(و) متعلّق بمحذوف، فيكون التّقدير ويوجد **(من النّاس من يقول آمنّا باللَّه واليوم الآخر)** وبما جاء به الرّسول (ﷺ)، يقولون هذا بلسانهم **(وما هم)** في الحقيقة والباطن بمؤمنين بالإسلام؛ وإنّما كانوا يفعلون ذلك لأنّهم **(يخادعون اللَّه)**، أي يخدعونه، أي يعملون معه كيداً وحيلة ويغرونه، ولا يخفي أنّ الخدعة والحيلة مع اللَّه تعالى محال، لأنّه عالم بكلّ شيء؛ فلا يخفى عليه هواجس النّفس وخواطر القلوب، فلهذا أتى بعطف البيان بقوله **(والذين آمنوا)** إشارة إلى أنّ من خدع المومنين فكأنّ ما خدع اللَّه تعالى، ومن غشّهم فكأنّما غشّ اللَّه تعالى، وهم كانوا يخدعون المؤمنين بهذا التّظاهر الكاذب فيحفظون أنفسهم منهم وينتفعون بما ينتفع به المؤمنون **(وما يخدعون)**، أي وما يضرّون بهذه الخدعة **(إلّا أنفسهم)**، لأنّهم يعرضونها لعذاب اللَّه تعالى يوم القيامة، فإنّ المنافقين في الدّرك الأسفل من النّار، ويعرضون أنفسهم لغضب المؤمنين أيضاً إذا انكشفت أحوالهم وظهر نفاقهم وافتضح أمرهم.

ثمّ بيّن الله تعالى سبب نفاقهم هذا والتّظاهر بالإسلام والإيمان كذباً، فقال تعالى: **(في قلوبهم مرض)** وهو الحذر والخوف من المسلمين والطّمع في منافع أهل الإيمان **(فزادهم اللّه مرضاً)** بزيادة قوّة المسلمين ومنافعهم **(ولهم عذاب أليم)** مؤلم جدّاً **(بما)** (ما) بمعنى (الّذي)، فالمعنى: لهم عذاب أليم **(بما كانوا يكذبون)** بسبب الّذي يكذبونه من قولهم: آمنّا كذباً ونفاقاً. أو **نقول**: (ما) مصدريّة، فيكون التّقدير بسبب كونهم يكذبون في ادّعاء الإيمان، وهذا التّقدير أولى من الأوّل.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ هؤلاء المنافقين قد توغّلوا في باطلهم إلى حدّ لا يقبلون كلّ نصح وإرشاد، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾

(وإذا قيل لهم) لهؤلاء المنافقين **(لا تفسدوا في الأرض)** بالنّفاق والتّجسّس على المسلمين والنّميمة بنقل أخبارهم إلى اليهود وبالعكس لإيقاع الفتنة بين الفريقين كذبوا كذبة أخرى، و**(قالوا إنّما نحن مصلحون)**، أي نختلط مع الطّرفين للاصلاح بينهم لا لإيقاع الفتنة، أو أرادوا أنّ ما يعملون إصلاح في الأرض، لأنّهم أرادوا أن يقتتل المسلمون واليهود فيضعف الطّرفان وتبقى القوّة والسّيطرة لهم، ورأوا أنّ ذلك إصلاح في الأرض، لأنّهم على حقّ، فردّ اللّه تعالى بقوله: **(ألا إنّهم هم المفسدون)**، لأنّهم على الباطل وعقيدتهم فساد في الأرض حيث كانوا وثنيّين، أو هم المفسدون ويريدون الفساد بين المؤمنين واليهود لا الإصلاح **(ولكن لا يشعرون)**، إنّ ما يعملونه إفساد بكلا المعنيين، وهذه هي المصيبة العظمى والجريمة التّي لا تغتفر، وهي أن يرى المرء الفساد صلاحاً والذّنب لا ذنباً والقبيح حسناً والحسن قبيحاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ سورة الكهف الآية/١٠٣، ١٠٦. فإنّ من يرى قبيحه حسناً وإفساده إصلاحاً لا يمكن ولا يتصوّر يوماً ما أن يتوب عن سيّئاته، ولكنّ الذي يرى القبيح الّذي يعمله

والمعصية الّتي يرتكبها قبيحاً وسيّئة فلا بد من يوم أن يتدارك موقفه ويرجع إلى الحقّ ويتوب فيغفر اللّه تعالى له، حيث قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٣٣.

فإن قيل: عدم الشّعور جهل والجاهل معذور لا يذمّ ولا يعذّب، فكيف ذمّ هؤلاء؟ قلنا: إنّ عدم الشّعور والجهل النّاشئ عن الاستكبار والعتوّ والعناد وعدم التّفكّر في ما يوصل إلى الحقّ مذموم، ويعذّب صاحبه، سيّما وأنّ عدم شعورهم نشأ بعد العلم بالحقّ، لأنّهم علموا حقّيّة رسالة الرّسول (ﷺ) ودينه بالعلامات والأخبار الموجودة في التّوراة والإنجيل والمعجزات الدالّة على ذلك؛ فكان عدم شعورهم ارتداداً عن العلم لا جهلاً **(وإذا قيل لهم آمنوا)** بالإسلام ورسوله **(كما آمن النّاس)** صدقاً بدون نفاق **(قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء)** وهم الأنصار الّذين آمنوا صدقاً سمّوهم سفهاء، لأنّهم خالفوا رأيهم، فردّ اللّه تعالى عليهم، فقال: **(ألا إنّهم هم السّفهاء)** لا غيرهم الّذين آمنوا بإخلاص وبدون نفاق **(ولكن لا يعلمون)** أنّهم سفهاء، والكلام في عدم العلم هنا كالكلام الّذي مرّ في عدم الشّعور.

ثمّ ذكر الله تعالى كيفيّة نفاقهم وأنّهم كيف يخالطون المومنين وأعداءهم الكافرين، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

(وإذا لقوا الّذين آمنوا) بالإسلام ورسوله **(قالوا)** لهم كذباً ونفاقاً **(آمنّا)** بما آمنتم به **(وإذا خلوا)** مضوا **(إلى شياطينهم)** ـ أئمتهم في الكفر ـ **(قالوا إنّا معكم)** عقيدةً وعملاً **(إنّما نحن)** في قولنا للمؤمنين آمنّا ومخالطتنا لهم **(مستهزئون)** بهم، فردّ اللّه تعالى عليهم قائلاً: **(اللّه يستهزىء بهم)**، أي يجزيهم على استهزائهم هذا. ثمّ بيّن تعالى كيفيّة استهزائه بهم، فقال: **(ويمدّهم)**، أي ويقوّيهم ويمهّلهم **(في طغيانهم)** وكفرهم وفسقهم **(يعمهون)**، يعمون عن الرّشد ويتحيّرون فيه، وذلك ليزدادوا إثماً، فيزداد عذابهم كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٧٨. وقال اللّه تعالى: **(اللّه يستهزىء بهم)** للمشاكلة، ومعناه يعاقبهم على استهزائهم بالمؤمنين، وفي القرآن كثير من مثل هذه الآيات، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ **سورة الطّارق الآيتان/**

١٥، ١٦ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٤ ـ ، ومنه (وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ سورة الشورى الآية/ ٤٠ ـ وقال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ سورة النساء الآية/ ١٤٢ ـ وقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سورة التوبة الآية/ ٧٩ ـ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ سورة التوبة الآية/ ٦٧ ـ ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ١٩٤ ـ و(المشاكلة) ذكر معنى بلفظ غيره لوقوعه بجنبه أو مقابلاً له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

(أولئك) المذكورون الّذين آمنوا نفاقاً ثمّ كفروا **(اشتروا)** أخذوا **(الضّلالة)** الكفر والنّفاق **(بالهدى)** بدل الهداية وسلوك السّبيل المستقيم وهو الإسلام، وسمّى ذلك شراءً، لأنّه كان في وسعهم اعتناق الإسلام صدقاً وإخلاصاً، فلمّا بدّلوه فكأنّما بدّلوا ما في أيديهم من الهداية بشيء آخر وهو الضّلالة، وما الشّراء إلّا تبديل ما في يدك بشيء آخر، **(فما ربحت)** أي فما ربحوا في **(تجارتهم)** ـ بيعهم وشرائهم ـ هذا، لأنّهم بدّلوا الحسن بالقبيح والجيّد بالرّديء، **(وما كانوا مهتدين)**، أي عارفين بطريق التّجارة والرّبح.

ثمّ ذكر الله تعالى ثلاثة أمثلة لضلالهم وحيرتهم، فقال جلّ وعلا في المثل الأوّل:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

(مثلهم) في الضّلالة والحيرة وعدم الاهتداء إلى السّبيل الحقّ **(كمثل)** الشّخص الّذي يسير في ليلة ظلماء لا يهتدي إلى الطّريق **(الذي استوقد ناراً)** ـ واستوقد بمعنى أشعل ناراً ـ **(فلمّا)** اشتعلت النّار و**(أضاءت ما حوله)**، أي أطراف الشّخص الموقد لها وتمكّن من السّير وسلوك الطّريق **(ذهب اللّه بنورهم)** الّذي كانوا يستنيرون به الطّريق **(وتركهم)** اللّه تعالى **(في ظلماتٍ)**، ظلمة اللّيل والجهل بالطّريق والسّحاب وغير ذلك **(لا يبصرون)** الطّريق فيسلكوه.

لطيفة: قال تعالى: **(ذهب اللّه بنورهم)**، ولم يقل: بنارهم، مع أنّه قال: استوقد ناراً،

إشارة إلي أنّ نورهم ذهب لا نارهم؛ فإنّهم أهل النّار. شبّه تعالى قولهم للمؤمنين: **(آمنّا)** بإيقاد النّار لهم، وشبّه إطّلاعهم على بعض أمور الإسلام بظهور الطّريق الحقّ لهم. ثمّ شبّه كفرهم بقولهم لشياطينهم: (إنّا معكم ... إلخ) بذهاب نورهم، لأنّ قولهم هذا[1] أطفأ إيمانهم، كما تطفأ النّار بالماء، وشبّه تعالى استمرارهم في الكفر ببقائهم **(في ظلمات لا يبصرون)** بسببها الطّريق الموصل إلى المنزل والسّعادة، وقال تعالى: ﴿ذهب اللّه بنورهم﴾، ولم يقل ذهبوا بنورهم مع أنّهم أبطلوا إيمانهم بقولهم: **(إنّما نحن مستهزئون)**، لأنّ هذا قول وفعل وأثره هو زوال النّور، وأثر الأفعال بيد اللّه تعالى لا علاقة للعبد في تحصيله. فمثلاً إنّ الإنسان يضرب بطلقة شخصاً،ولكنّ أثر الطّلقة ورميها وهو موت الشّخص أو جرحه إنّما يخلقه اللّه تعالى، فبقولهم: **(إنّما نحن مستهزئون)** أطفأ اللّه نور إيمانهم. أعاذنا اللّه تعالى من ذلك ومن كلّ سوء. ثمّ قال تعالى للمثل الثّاني:

﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

أي هم **(صمّ)** جمع أصمّ، شبّههم بهم، لأنّهم لا ينتفعون بسماعهم الحقّ، كما لا ينتفع الصّمّ، **(بكم)** جمع أبكم، وهو من لا نطق له، شبّههم بهم، لأنّهم لا ينطقون بالحقّ، كما لا ينطق الأخرس والبكم، **(عمي)** جمع أعمى، وهو من لا عين له، شبّههم بهم، لأنّهم لا ينظرون إلى دلائل الحقّ ليروها رؤية اتّباع كما لا يراها العمى، **(فهم)** بهذه الحالة **(لا يرجعون)** عن الضّلالة والسّبيل الّذي سلكوه جهلاً وعناداً واستكباراً وتقليداً أبداً، كما لا يرجع الصّمّ البكم والعمى إذا سلك طريقاً، ولا يمكن أن ترجع بهم أنت، لأنّهم لا يسمعون فتناديهم، ولا يبصرون فتشير لهم، ولا يعرفون الكلام فتقول لهم.

وقال تعالى في المثل الثّالث:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ

(١) أي (إنا معكم إنما نحن مستهزؤن)

وَأَبْصَـٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

(**أو كصيّب**)، أي بل مثلهم كجماعة وقعوا في (**صيّب**) وهو المطر المنصب بشدّة وكثرة، ينزل ذلك (**من السّماء**)، أي من جميع جوانب السّماء، أي هو مطر عامّ وسحاب مطبق في الآفاق جميعها، (**فيه**) في ذلك الصيّب (**ظلمات**)، وهي ظلمة اللّيل وظلمة السّحاب وظلمة المطر المنصبّ، (**ورعد وبرق**) كثير، ذلك المطر، وحالهم أنّهم (**يجعلون أصابعهم**)، أي أناملهم، عبّر بالأصابع للمبالغة، فالمعنى: لو استطاعوا لأدخلوا الأصابع كلّها (**في آذانهم**) خوفاً (**من الصّواعق**) أن تصيبهم، (**حذر الموت**)، أي لاجتناب الموت والخوف منه، ولكن كلّ ذلك لا يفيدهم شيئاً، حيث (**واللّه محيط بالكافرين**)، أي بهم، عبّر عنهم بالكافرين للإشارة إلى أنّ حالهم هذا ناشيء عن كفرهم، ومعنى إحاطة اللّه بهم إحاطة قدرته وآثار قدرته بهم من المطر والظّلمة والرّعد والبرق وغير ذلك فلا يقدرون التّفلّت منها. وحالهم أنّه (**يكاد البرق**) من شدّته (**يخطف أبصارهم**)، أي يذهب به ويقتلعه من مكانها، (**كلّما أضاء لهم**) الطّريق (**مشوا فيه**) في هذا البعض المضاء من الطّريق. (**وإذا أظلم**)، أي استولى الظّلام (**عليهم قاموا**)، أي وقفوا عن الحركة والمشي، حيث لا يرون الطّريق، (**ولو شاء اللّه لذهب بسمعهم وأبصارهم**) بسبب البرق والرّعد، (**إنّ اللّه على كلّ شيء**) من ذلك (**قدير**) ذو قدرة لا يعجز عن ذلك، وهذا تشبيه مركّب، أي تشبيه هيئة بهيئة وحال بحال، فشبّه تعالى حال المنافقين في الحيرة والتّيه بحال الّذين وقعوا في مطر مثل هذا المطر، وقال العلماء: لا يشترط في تشبيه الهيئة بالهيئة والمركّب بالمركّب وقوع التّشابه بين جميع أجزاء وجمل المركّبين، بل إنّما يكفي المشابهة بين الهيئتين، فهيئة المنافقين وحالهم في الحيرة كهيئة أصحاب ذلك المطر، فلا داعي إلى المحاولة لإخراج التّشابه بين كلّ فقرة من هذا المثل وكلّ جزء من حال المنافقين.

سؤال: إنّ الرّسول (ﷺ) كان يعرف كثيراً منهم، فلماذا لم يقتلهم؟ وهم مرتدّون وقتل المرتدّ واجب، كما قال الرّسول (ﷺ): من بدّل دينه فاقتلوه، فإنّهم حينما(قالوا آمنّا) أسلموا وحينما (قالوا: إنّما نحن **مستهزئون**) ارتدّوا؟

الجواب: عن هذا بوجوه، أحسنها وجهان: **الأوّل**: ما ثبت في الصّحيحين أنّ الرّسول (ﷺ) قال لعمر (رضي الله عنه) حينما قال: دعني أضرب عنقه: (أكره أن يتحدّث العرب

أنّ محمّداً يقتل أصحابه)[١]. أي فيكون ذلك سبباً لعدم دخولهم في الإسلام، لأنّهم لا يعرفون سبب قتلهم حقيقة، بل إنّما يسمعون أنّه يقتل أصحابه.

الثّاني: أنّه قال: (أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله، فاذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منّي دمائهم وأموالهم، إلّا بحقّها وحسابهم على الله)[٢] ومعنى هذا أنّ من قالها يجري عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدها أيضاً وجد ثواب الآخرة أيضاً وإلّا فلا، وإنّ هذا الثّاني يضعف بالأمر بقتل المرتدّ، فيقال: لعلّ الأمر بقتل المرتدّ صدر بعد قوّة الإسلام وتعمّمه حينما دخل النّاس فيه أفواجاً، أو أنّ قتله يترك إذا وجدت مصلحة في تركه، والمصلحة هي عدم وهم النّاس قتل الرّسول أصحابه فيبتعدوا عن الإيمان به، أو تركهم لعلّهم يترسّخ الإيمان في نفوسهم فيتركوا النّفاق، أو لرجاء أن يولد منهم من يؤمن ويخلص في إيمانه، والله تعالى اعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى حال الكافرين في الضّلالة والغواية وحال المنافقين من الحيرة والعماية توجّه الى كافّة النّاس، فناداهم وأمرهم بأن يتوجّهوا إلى الله تعالى بالعبادة وأن يعتنقوا الإسلام ويؤمنوا برسوله صدقاً، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

---

(١) اختصر الشيخ المفسر رحمه الله تعالى هذا الحديث للإقتصار على المقصود، وأتى بمعناه مختصرا اعتمادا على قول من يجيز رواية الحديث بالمعنى.وتمام الحديث هو: ما ورد عن جابر (رضي الله عنه) يقول كنا مع النبي (ﷺ) في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار، فقال الأنصاري ياللأنصار وقال المهاجري ياللمهاجرين، فسمعها الله رسوله (ﷺ) فقال ماهذا؟ فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الانصار، فقال الأنصاري ياللأنصار وقال المهاجري ياللمهاجرين، فقال النبي (ﷺ): دعوها فإنها منتنة،قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي (ﷺ) أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبدالله بن أبي:أوقد فعلوا؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر (رضي الله عنه) دعني يارسول الله أضرب عنق هذا المنافق،قال النبي (ﷺ) دعه،لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل اصحابه|.صحيح البخاري ٤/ ١٨٦٣ الحديث رقم٤٦٢٤، صحيح مسلم ٤/ ١٩٩٨ الحديث رقم ٢٥٨.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٨٢ الحديث رقم ٦٩٣٤.

(يا أيّها النّاس اعبدوا)، أي أطيعوا (ربّكم) بالانخراط في الإسلام صدقاً و إخلاصاً واتّباع الرّسول (ﷺ)، لأنّ اللّه تعالى هو**(الذي خلقكم) أوجدكم من العدم، (و)** خلق **(الذين من قبلكم)** من الآباء والأجداد والأمم **(لعلّكم)**، أي لكي **(تتّقون)** عذابه ومقته وعقابه يوم القيامة بالإيمان به واتّباع رسله وتطبيق شريعته. وهكذا فكلّما وقع (لعلّ) في كلام اللّه تعالى فهو بمعنى (كي)، لأنّ اللّه تعالى لا يترجى ولا يتمنّى. وإنّ ربّكم هو**(الذي جعل لكم الأرض فراشاً)** لتسكنوا عليها وجعل **(السّماء بناءً)** سقفاً تستنيرون منها وتمطرون وترزقون منها، **(وأنزل من السّماء ماءً)** وهو المطر ينزل من السّحاب، كما قال تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن﴾، أي من السّحاب ﴿أم نحن المنزلون﴾ سورة الواقعة الآية/ ٦٨،٦٩ ـ، **(فأخرج)** اللّه تعالى وخلق به، أي بذلك الماء أنواعاً **(من الثّمرات)** المختلفة في الألوان والأطعمة والأشكال والأزمان والأمكنة، لتكون تلك الثّمرات **(رزقاً لكم)** أيّها النّاس، والمراد بالثّمرات ما يشتمل الحبوب أيضاً، فالرّبّ الذي يربّيكم هذه التّربية ويراعيكم هذه الرّعاية لا يليق بأن تطيعوا غيره وتنحرفوا عن دينه، وإذا كان الأمر كذلك **(فلا تجعلوا)** ـ فلا تتّخذوا ـ **(لله أنداداً)** شركاء له تطيعونهم فيما يخالف أمره **(وأنتم تعلمون)** أنّه لا إله غيره ولا خالق سواه. ثمّ بعد أن أثبت تعالى أنّه لا يليق بالعبادة سواه وأنّه هو الحقّ بالعبادة أراد أن يثبت حقّيّة الإسلام وأنّ القرآن هو من اللّه تعالى وأنّ محمّداً (ﷺ) هو رسوله، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(وإن كنتم) ايّها النّاس **(في ريب ممّا نزّلنا)** وهو القرآن **(على عبدنا)** محمّد(ﷺ) فتشكّون أنّه من عند نفسه، أو من عند غيره من البشر علّمه إيّاه، وليس من عند اللّه **(فأتوا)** أنتم **(بسورة)** واحدة **(من مثله)**، من مثل القرآن ولو كان مثل أقصر سورة، كسورة الكوثر مثلاً، **(وادعوا)**، وأجمعوا للإتيان بمثله **(شهداءكم)**، كلّ من يعاونكم في هذا الأمر من دون اللّه، **(إن كنتم صادقين)** في أنّ القرآن من البشر فأتوا بمثله، لأنّ البشر لا يعجز عن أن يأتي بمثل ما يأتي به البشر؛ فحيث عجزتم عن الإتيان ولو بمثل أقصر سورة من القرآن مع كثرة تحدّي القرآن وطلبه ذلك منكم في سور كثيرة ومع

حرصكم على ذلك، ثبت أنّ هذا القرآن من اللّه تعالى، وليس من كلام البشر، وبذلك ثبت أنّ محمّداً رسول اللّه تعالى فاتّبعوه، كما قال تعالى: **(فإن لم تفعلوا)** الإتيان بمثل القرآن إلى الآن **(ولن تفعلوا)**، أي ولن تستطيعوا أن تفعلوا الإتيان بمثله إلى الأبد، ثبت أنّ القرآن من اللّه تعالى، فإذا كان الأمر كذلك **(فاتّقوا)** بسبب الإيمان بالرّسول واتّباعه، اتّقوا **(النّار التّي وقودها)**، أي ما توقد وتشعل به **(النّاس والحجارة أعدّت)** هذه النّار **(للكافرين)** بهذا القرآن وبمحمّد (ﷺ) ولكلّ من يكفر باللّه أو برسول وقته وزمانه.

تنبيه: إنّ إعجاز القرآن ليس من جهة فصاحته وبلاغته فقط، بل إنّه معجز من جهة البلاغة والإخبار عن الماضي كما كان، وعن المستقبل كما يكون، وعن أسرار الكون كما هي، وعمّا في قلوب النّاس كما خطر بها، ومن جهة الأحكام الرّصينة والأخلاق الرّفيعة والسّياسة الحكيمة، وغير ذلك ممّا يبهر العقول ويدهش العقلاء في كلّ زمان ومكان، هذا وقد ذكرت هذا الموضوع بتفصيل مفيد جدّاً في تفسير سورة (يس) عند قوله تعالى: ﴿والقرآن الحكيم﴾ سورة يس الآية/ ٢.

* * *

فائدة: في هذه الآية الكريمة معجزة، وهي أنّ القرآن أخبر بأنّه لن يأتي أحد ولن يعارض هذا القرآن ولو بمثل أقصر سورة منه إلى يوم القيامة، فلو لم يكن هذا القرآن من الله تعالى، فكيف يجرؤ محمّد (ﷺ) أن يخبر هذا الخبر ويأتي الزّمان في كلّ أدواره يصدّق هذا الخبر؛ فأشهد بأنّ هذا القرآن من اللّه تعالى وأنّ محمّداً رسول اللّه.

* * *

ثمّ بعد أن أنذر اللّه تعالى الكافرين بالقرآن بعذاب النّار أراد أن يبشّر المؤمنين به بنعيم الجنّة، كعادته في القرآن أنّه ياتي بالوعد بعد الوعيد وبالعكس وبأخبار الكافرين بعد المؤمنين وبالعكس، فقال جلّ وعلا:

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(وَبَشّر) يا محمّد ويا كلّ داعية إلى الإسلام بشّر **(الذين آمنوا)** بهذا القرآن واتّبعوه

وطبّقوه على أنفسهم وعلى من تحت إدارتهم، فبشّرهم بشارة عظيمة، وهي **(أنّ لهم جنّات)** بساتين، وذكرت (جنّات) نكرة للتعظيم، أي جنات لا يدرك كنهها إلّا من دخلها. ثمّ ذكر الله تعالى بعض أوصافها، فقال تعالى: **(تجري من تحتها)**، أي من تحت أشجارها **(الأنهار)** لسقيها، أو من تحت قصورها أنهار من اللّبن والعسل والخمر والماء العذب الزّلال لشربها. أو يراد به كلا المعنيين، فإنّ كلا النّوعين من الأنهار موجودة فيها، ويرزقون في تلك الجنّات من الثّمرات، وحالهم أنّهم **(كلّما رزقوا منها)** رزقاً من أشجار الجنّة (**من ثمرة**) من ثمارها اللّذيذة **(قالوا)**، أي قال بعضهم لبعض **(هذا الذي رزقنا** من **قبل)**، أي في الدّنيا أو في الجنّة قبل هذا الآن، ويقولون ذلك حيث **(وأتوا به)** بالثّمر **(متشابهاً)** لثمار الدّنيا، مثل التّفاح والرّمان والعنب والتّين وغير ذلك، أو متشابهاً لثمار الجنّة فإنّه يؤتوا به في وقت، ثمّ يؤتوا به في آخر مثله، فيقولون ذلك، فيقال لهم: كلوا فإنّ اللّون نفس اللّون، ولكن الطّعم مختلف، فيكون المعنى أنّ طعم ثمار الدّنيا مختلف مع طعم ثمار الجنّة، كما يختلف ثمار الجنّة في كل وقت مع ما قبله في اللّذة، وإن كان مثله، ففي كلّ وقت يزداد حلاوة في طعمه ولذّة، **(ولهم فيها)** في الجنّة **(أزواج)** نساء **(مطهّرة)** من الحيض والنّفاس وكلّ ما يستقذر، **(وهم فيها خالدون)** مؤبّدون لا هم يخرجون منها ولا أحد يخرجهم منها، وهذا من كمال النّعمة، فإنّ نعم الدّنيا كلّها يكدّرها خوف الزّوال وترقّب الموت وعدم البقاء، ولذلك يقال للموت: هادم اللّذات، أي لا لذّة لأيّ شيء يعقبه الموت ويناله الفوت لمن يراقب الموت ويجعله نصب عينيه، أمّا الغافل فكالبهائم بل أضلّ سبيلاً.

حكاية: يقال أنّ أحد الملوك بنى قصراً من أفخم ما يبنى في وقته ومن أجمل ما يوجد في عصره، فبعد أن دعا إليه أحد الصّالحين لافتتاحه، فسأله عمّا يجد فيه من عيب أو نقص، فقال: إنّ فيه عيبين كبيرين جدّاً، فسأل متعجّباً: وما هما؟! قال: إنّه سينهدم، وإنّ صاحبه يموت، فقال: أيوجد قصر لا ينهدم ولا يموت صاحبه؟ قال: بلى، فقال: وما ذلك؟ فذكر له قصور الجنّة ونعيمها وخلود أهلها إلى أن غلب على الملك حال استقال عن الملك وتاب وتوجّه إلى العبادة وأصبح من الصّالحين. قال الشّاعر:

لنا ملك ينادي كلّ يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

* * *

ثمّ إنّ اللّه تعالى يذكر كثيراً من الأمثال في القرآن الكريم ممّا يوجب التفكّر، وتزيد العبارات رونقاً و جمالاً وحسن بيان، فقال تعالى هنا: ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾.. الخ.، وقال أيضاً: ﴿صمّ بكم عمى فهم لا يرجعون﴾، وقال ﴿أو كصيّب من السّماء﴾.. الخ.، وقال ﴿يا أيّها النّاس ضُرب مثلٌ فاستمعوا له إنّ الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذّباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطّالب والمطلوب﴾ سورة الحج الآية/ ٧٣ ـ وقال: ﴿مثل الّذين اتّخذوا من دون اللّه أولياء كمثل العنكبوت اتّخذت بيتاً وإنّ أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ سورة العنكبوت الآية/ ٤١. وقال تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب اللّه مثلا كلمةً طيّبةً كشجرةٍ طيّبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السّماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب اللّه الأمثال للنّاس لعلّهم يتذكّرون ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٢٤، ٢٥. إلى غيرذلك من آيات كثيرة فيها الأمثال، فاتّخذ المنافقون هذه الأمثال وسيلة للطّعن في القرآن، وقالوا: كيف يكون هذا القرآن من الله تعالى، وفيه من هذه الأمثال التّي تمثّل بأشياء حقيرة وصغيرة، فاللّه أكبر من أن يذكر هذه المحقّرات ويمثّل بها؟ فرد اللّه تعالى عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

(إنّ اللّه لا يستحي) ـ الحياء حالة وانفعال يعتري الإنسان فيسوقه إلى ترك بعض الأشياء أو فعل بعض الأمور، وإنّ هذا المعنى محال إطلاقه على اللّه تعالى، فلذلك يراد به مآله وهو الفعل أو التّرك ـ فالمعنى هنا **(إنّ اللّه)** تعالى لا يستحي، أي لا يترك **(أن يضرب)** أن يذكر **(مثلاً ما)** ،أيّ مثل كان، سواء أكان الممثّل به كبيراً أو صغيراً، وإن بلغ من صغره **(بعوضة فما)** يكون **(فوقها)**، فوق البعوضة في الصّغر كأصغر حشرة، لأنّ كلّ مثل يأتي حسب المقام، فاذا أريد تصغير الشّيء يمثّل بالصّغير، وإذا أريد تعظيمه يمثّل بالعظيم والكبير، فليس ذكر الصّغير نقصاً للذّاكر وهو اللّه تعالى، كما أنّ خلقه للصّغير ليس نقصاً له، ثمّ إنّ الصّغير والكبير بالنّسبة إلى اللّه تعالى سواء،

فكلّه من خلقه، وليس أحد أفضل من غيره بالنّسبة لخلق اللّه تعالى له، على أنّ الصّغير ربّما يكون له فائدة لا توجد في الكبير وبالعكس، فمخلوق اللّه تعالى كلّه كبير من حيث أناط اللّه تعالى به فائدة أو فوائد،، فهذا يتمّ حاجة هذا وبالعكس، وبالكلّ يتمّ حوائج الكلّ، علموا بذلك أم لم يعلموا، فالكلّ مفيد وكبير. ولله درّ الشّاعر إذ قال:

النّاس للنّاس من بدو ومن حضر بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وإنّي أقول:

الخلق للخلق من بقّ إلى ملك بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فمن الحماقة أن تستصغر أو تستحقر شيئاً ممّا خلقه اللّه تعالى.

حكاية: يقال إنّ أحد الملوك دخل المرحاض فعضّت دبره صرصرة من الصّراصر التّي تحدث من المرحاض، فغضب الملك، وقال: لماذا خلق اللّه تعالى هذه؟ وما الفائدة فيها؟ فبعد أيّام اصيب الملك بمرض، فعجز الأطباء عن تشخيصه وعلاجه، فجاء بدويّ، وقال: أنا أداوي الملك، قالوا: كيف وقد عجز الاطباء عن علاجه؟ قال: لا بأس أتركوني فإن أفدته فبها ونعم، وإلّا فما خسرتم شيئاً، فلمّا ذهبوا به إلى الملك ونظر إليه، قال: إنّ دواءه أن تجفّف صرصرة من صراصر المرحاض وتسحق فيأكله الملك، فصاح النّاس: أهذا الدّواء؟ وكيف يعطى هذا الدّواء للملك؟ فسمع الملك بذلك، فقال: لقد صدق واللّه إنّي أخطأت وتكلّمت في حقّ اللّه شيئاً فأصابني بهذا المرض عقاباً عليه فلا يشفيني حتّى يطعمني الصرصرة الخبيثة، فعملوا له ذلك، فأكل فطاب، فلا يحقر شيئاً من خلق اللّه تعالى إلّا الجاهل بما فيه، ولقد صدق القائل: (المرء عدوّ لما جهل)، فاللّه تعالى لا يترك الأمثال ويضربها[1]، ويكون النّاس عند سماع الأمثال قسمين: المؤمن والكافر، فأمّا الذين آمنوا بالله وعلمه وقدرته وبالرّسول وأنّ القرآن من اللّه تعالى **(فيعلمون أنّه)**، أي أنّ هذا المثل **(الحقّ)** والصّدق والواقع نزل **(من ربّهم)** ليوضّح لهم به ما أراد توضيحه **(وأمّا الذين كفروا)** بالقرآن وبرسالة محمّد **(فيقولون)** للطّعن في القرآن **(ماذا أراد اللّه بهذا مثلاً)**، والاستفهام للإنكار، أي لم يرد اللّه بهذا المثل شيئاً، فإنّه أعظم من أن يأتي بمثل هذه الأمثال، فهذا المثل ليس من اللّه، بل إنّ

---

(١) أي لا يترك الأمثال بل يضربها.

محمّداً يفتري على اللّه هذا المثل وهذا القرآن؛ فأجابهم اللّه تعالى، فقال: (**يضلّ به كثيراً**)، أي إنّ اللّه تعالى يذكر هذه الأمثال وغيرها امتحاناً، و(**يضلّ به**) بهذا الامتحان وهذه الأمثال، أي يظهربه ضلال كثير من النّاس المغترّين بعقولهم والجاهلين بحكم اللّه تعالى، (**ويهدي به**) بهذا النّوع من الأمثال (**كثيراً**)، أي يظهر هدايتهم وإيمانهم بذلك، فإنّه لا يتميّز المؤمن من الكافر إلّا بعد ورود الأحكام أو الأمثال أو الآيات التي لا توافق ظاهر عقول النّاس، فيقبله المؤمن دون تردّد ويردّه الكافر المغتّر بعقله وفهمه، فالمؤمن يزن عقله بكتاب اللّه وسنّة رسوله، ولا يزن ذلك بعقله، قال رسول الله (ﷺ): (لا يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1] (وما يضلّ به)، أي وما يظهر بهذا النّوع من الأمثال (**إلّا**) ضلال (**الفاسقين**)، أي الخارجين عن الحقّ والأمور الربّانيّة والإسلام، وعن العهد والميثاق الذي أخذه اللّه منهم.

* * *

مثال: حينما أسري برسول اللّه (ﷺ) أخبر قومه به بعد ما أصبح الصّباح، فقال أبو جهل: أتقول ذلك لكلّ أحد؟ قال: نعم، ففرح أبو جهل، لأنّه اعتقد أنّ كلّ من يسمع هذا القول من محمّد يكذّبه، فأوّل من أراد أن يخبره كان أبا بكر أملاً في ارتداده وتكذيبه للرّسول (ﷺ)، ولكنّ أبا بكر رضي الله عنه حينما أخبر بهذه القصّة، قال: أو يقول محمّد هذا؟ قالوا: نعم، قال: إذن صدق، قالوا: أفتصدّقه في ذاك؟ قال: نعم، وأصدقه في أكبر من ذلك، فسمّي لذلك صدّيقاً، ولكنّ أبا جهل وغيره من الكفّار بقوا على الكفر والتّكذيب رغم أنّه أخبرهم بصفات بيت المقدس وبحال قوافلهم في الطّريق، وظهر كلّ ذلك كما أخبر به؛ فسمّي أبو جهل بأبي جهل هذا. وإنّ الصدّيقيّة وأبوّة الجهل لم تنته، بل كلّ من سمع آيةً أو حديثاً أو حكماً من أحكام الله تعالى ورسوله فآمن وصدّق بدون تردّد فهو صدّيق، وكلّ من أراد أن يوافق حكم اللّه أو خبره أو خبر الرّسول (ﷺ) عقله وما لم يوافقه رفضه فهو أبو جهل وما أكثر هؤلاء اليوم.

* * *

(١) شرح السنة للبغوي ١/ ٢١٣ الحديث رقم ١٠٤. قال ابن حجر العسقلاني: رجاله ثقات وصححه النووي انظر فتح الباري ١٣/ ٢٨٩.

ثمّ بيّن الله تعالى ذلك النّكث للعهد، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(الّذين ينقضون)، أي يبطلون **(عهد اللّه)** تعالى، فلا ينفّذونه، بل يخالفونه ويعاملون بالنّقض والإبطال، وعهود اللّه تعالى ثلاثة: **العهد الأوّل**: العهد الّذي أخذه من آدم وحواء وذرّيتهما، حينما تاب عليهما وأنزلهما إلى الأرض وأسكنهما فيه، وذلك العهد مذكور في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٨، ٣٩. وقد استمرّ هذا العهد برسالات الرّسل الّذين جاءوا ليذكّروا النّاس بهذا العهد بأن يتّبعوا شريعة اللّه تعالى ولا ينحرفوا عنه[1]، وكذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ سورة طه الآية/ ١٢٣-١٢٤-١٢٥.

العهد الثّاني: إنّ اللّه تعالى خلق الإنسان ووهبه عقلاً مدركاً وحواسّاً مدركة، ونصب له الأدلّة على وجود اللّه تعالى ووحدته وحقّيّة شريعته ووجوب إطاعته واتّباع منهجه ودينه، فإذا استعمل الإنسان هذا العقل المدرك وهذه الحواسّ، ونظر بها إلى الأدلّة دون تحيّز وتعصّب واستكبار لوصل إلى الحقّ واهتدى، ولم ينحرف عن منهج اللّه تعالى وشريعته لا اعتقاداً ولا عملاً ولا تطبيقاً ولا تنفيذاً أو حكماً، وقد أشار الله تعالى إلى هذا العهد بقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ سورة يوسف الآية/ ١٠٥. وبقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمّد الآية/ ٢٤. وغير ذلك من الآيات الّتي تأمر بالتفكّر في ملكوت السّموات والأرض وفي آيات اللّه الكونيّة في الكون والآيات القوليّة في القرآن ليظهر لهم الحقّ فيتّبعوه.

---

(١) أي عن العهد.

العهد الثّالث: العهد الّذي أخذ اللّه من أهل الكتاب أن يؤمنوا بمحمّد (ﷺ) إذا جاء، وكان ذلك العهد موجوداً في التّوراة والإنجيل، ويخبرنا اللّه تعالى عنه في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨١ .ومنها ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٨٧ .ومنها ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ سورة الصّف الآية/ ٦.

إلى غير ذلك من الآيات التي تذكّر النّاس بتلك العهود الثّلاث[١]، وبهذا تبيّن أنّ كلّ من انحرف عن شريعة الإسلام فهو من الذين ينقضون عهد اللّه **(من بعد ميثاقه)** مع آدم وذرّيّته أوّل ما نزل إلى الأرض بالقول والخطاب ومع كلّ النّاس بهبة العقل والحواسّ لهم ونصب الأدلّة لهم على الحقّ والهداية ومع أهل الكتاب من اليهود والنّصارى في التّوراة والإنجيل فينقضون هذه العهود كلّها **(ويقطعون ما أمر اللّه به أن يوصل)** فلا يوصلونه، وما أمر اللّه تعالى به أن يوصل عدّة أُمور:

الأوّل: وصل الإيمان بالرّسل السّابقين بالإيمان بالرّسول الأمين خاتم المرسلين.

الثّاني: صلة الرّحم بين الأقارب.

الثّالث: صلة كلّ حقّ إلى صاحبه.

الرّابع: صلة الدّنيا بالدّين فيعمّرونها حسب ما أمر اللّه ربّ العالمين ويحكمونه

---

(١) ربما هناك عهد آخر وهو قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢)﴾ كما عند بعض المفسرين.أنظر الدر المنثور٣/ ٥٠٨ .وكذلك آخر أيضا كما في قوله تعالى في الروم:) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)) إن لم تكن الثانية تفسيرا للأولى كما عند بعض المفسرين .أنظر تفسير إبن كثير ٢/ ١٥٣.

بشريعته في الاعتقاد والعمل والحكم على النّاس أجمعين.

(ويفسدون في الأرض) بالظّلم، أو الاستهانة بحقوق النّاس أو بكرامتهم وحرّيّتهم، أو استعبادهم واستغلالهم، أو بأكل أموالهم بالباطل، أو توجيههم إلى ما هو غير صحيح، أو بالانحراف عن الشّرع المبين، الّذي أنزله اللّه تعالى على خاتم النّبيّين، فكلّ ما يكون من الأعمال مخالفاً لدين اللّه وأمره فهو فساد في الأرض، ومن يروّجه فهو المفسد في الأرض من كان ومتى كان ومهما كان وأين كان، ولا إفساد أكثر فساداً من تبعيد النّاس عن الدّين وترويج النّاس إلى عقائد زائفة يكتسبون بها مصالح دنيويّة ويستفيدون بها الأموال من النّاس، أو يسودون بها عليهم، وما لعن الشّيطان إلّا بذلك، حيث انحرف عن أمر اللّه خوفاً من زوال سيادته وحسداً بآدم في ذلك، **(أولئك هم الخاسرون)** في الآخرة، حيث يخسرون عفو اللّه تعالى ونعيمه في الجنّة ويلقون العذاب بالنّار في سواء الجحيم، وأيّ خسارة أعظم من هذه الخسارة.

* * *

ثمّ بعد أن صبّ اللّه تعالى سوط الملامة على المنافقين والكافرين الّذين لم يؤمنوا بالإسلام ورسوله وجّه الملامة إلى الّذين يكفرون بالله تعالى ووجوده، فقال جلّ وعلا:

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(كيف) الاستفهام للتعجّب، فالمعنى من العجب جدّاً أنّكم **(تكفرون بالله)** والدّلائل القاطعة على وجود اللّه أمامكم وليست خافية عنكم، بل إنّها في ذواتكم، فإنّكم كنتم معدومين **(وكنتم أمواتاً)**، فإنّ النّاس كلّهم كانوا قبلُ أمواتاً، لأنّهم من التّراب، والتّراب ميّت، فالتّراب يصير نباتاً، والنّبات وثمراته تصير غذاءً، والغذاء يكون نطفة، والنّطفة تقذف في أرحام النّساء فتكون علقةً، ثمّ تصير العلقة مضغة، ثمّ تصوّر المضغة، ثمّ ينفخ فيها الرّوح، ثمّ يخرج من بطن الأمّ فيصير طفلاً، ثمّ رجلاً، ثمّ شيخاً، وهكذا خلقتم فكنتم أمواتاً، **(فأحياكم)** اللّه تعالى وأوجدكم، **(ثمّ يميتكم)** عند انتهاء آجالكم، **(ثمّ يحييكم)** إذا جاء يوم القيامة، **(ثمّ)** بعد هذا الإحياء **(إليه ترجعون)** للحساب والجزاء وفق أعمالكم، فهذه الأمور التي تاتي على أنفسكم بالذّات لأكبر دليل على

وجود اللّه تعالى ووحدته، فإنّ هذا الخلق العظيم والدّقيق لا يمكن أن يكون بدون صانع، وإنّ صانعاً صنع مثل هذا الخلق لابدّ وأن يكون علمه في أعلى درجات ما يسمّى بالعلم، وقدرته في أعلى درجات ما يتصوّر، وأن يكون حيّاً، لأنّ الميّت أو الجاهل أو العاجز لا يستطيع أن يخلق أيّ خلق وأيّ إيجاد، فضلاً عن مثل هذا الإيجاد، إيجاد مثل هذا الصّنع العظيم، صنع الإنسان الذي لا يزال الفلاسفة والحكماء والأطباء حائرين فيه، ولن يزالوا حائرين، وإنّ من استطاع هذا الخلق فهو في غاية الاقتدار، فلا يحتاج إلى شريك، لأنّ الشّريك إنّما يتّخذه العاجز عن عمله، فمن تفكّر في نفسه وخلقه وأطواره آمن بوجود اللّه تعالى ووحدته، ولذلك قيل: (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)، وقال تعالى: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ سورة الذاريات الآية/ ٢١.

سؤال: استدلّ اللّه تعالى على وجوده ووحدته بأحوال الإنسان، وهو أنّه كان ميّتاً وتراباً وهذا أمر بديهي لا ينكره أحد، وبالحياة الدّنيويّة، وهي كذلك معترف بها عند كلّ أحد، وبالموت بعد الحياة وهو معلوم أيضاً، إلّا أنّ قوله: **(ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون)** ليس معلوماً ولا معترفاً به، فكيف استدلّ تعالى به؟ والمستدلّ به يجب أن يكون معترفاً به عند الخصم؟**الجواب:** إنّ هذا معلوم ومكتسب علمه من الموت الأوّل والحياة الأولى، فإنّ الّذي يقدر على إيجاد الإنسان من التّراب الميّت وبهذه الأطوار فلا جرم أنّه يستطيع أن يعيد إليه الحياة بعد الموت ومن نفس التّراب الّذي خلق منه، وبهذا ثبت إمكان إحيائه بعد الموت. ثمّ بعد أن تفكّر الإنسان في الإنسان هذا الخلق العجيب والصّنع البديع يعترف ويصدّق بأنّ هذا النّوع العجيب لم يخلق لأجل محدود وهو ستون سنة أو أكثر بقليل أو أقلّ، بل خلق ليبقى إلى الأبد، فلابدّ وأن يكون له حياة أخرى وأن يحيا بعد موته هذا إلى الأبد، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يرى الإنسان هذا الإنسان المتعدّد في أفراده والمختلف في ميوله وغاياته والمتنافس في حياته ومعاشه لا يمكن أن يترك ولا يوضع له نظام من عند خالقه وبارئه وأن لا يكلّف بشريعة يؤمّن بها مصالحه ويحلّ بها مشاكله ويقيم بها أخلاقه ويفصل بها منازعاته، فلا بدّ أن يكون هنالك شريعة ودين، وأنّ الشّريعة والدّين يقتضيان أن يكون[1] ثواب للمطيع وعقاب على العاصي، وأنّ هذا الثّواب والعقاب لا يجريان في الدّنيا كليّاً، فكثير من المجرمين

(١) يكون هنا فعل تام بمعنى يوجد.

يموتون دون عقاب، وكثير من الصّالحين يموتون ولا يرون ثواباً لصلاحهم، فلو مات الاثنان وذهبا دون أن يكون بعد ذلك حساب وفرق بينهما لما تحقّقت عدالة اللّه تعالى، فلذا حكم اللّه تعالى أن يأتي يوم يحيا فيه كلّ النّاس، ويحاسبوا على أعمالهم، فينال الصّالح ثواب صلاحه والطّالح عقاب فسقه وفجوره، فاختلاف النّاس في الأفعال والأعمال والأخلاق والأفكار والميول والنّزعات والصّلاح والفساد يثبت أن يكون يوم يجزى فيه كلّ حسب عمله وينال عاقبة أخلاقه وأفعاله، ليظهر عدل اللّه وهو أحكم الحاكمين وليظهر الفرق بين الحسن والقبيح من الأفعال في النّتيجة، وبهذه الطّريقة يكون الحياة بعد الموت والحساب بعد ذلك معلوماً لأولي الالباب والتّفكير.

* * *

ثمّ بعد أن ذكرالله تعالى كيفيّة خلق أفراد الإنسان أراد أن يذكر خلق السّماوات والأرض ليستدلّ به أيضاً على وجوده ووحدته، فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

(**هو**)، أي اللّه القدير (**الّذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً**) لتنتفعوا وتعيشوا به، (**ثمّ استوى**)، وجّه إرادته (**إلى**) خلق (**السّماء**)، فخلقهن، (**فسواهنّ سبع سماوات**)، وقد ذكرت تحقيقاً وافياً في بيان سبع سماوات وإنّها موجودة ومطبقة ومحيطة بالعالم وذلك في تفسير (سورة تبارك الملك) عند قوله تعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ فارجع إليه .(**وهو بكلّ شيء عليم**)، فبعلمه هذا خلق هذه الأرض العجيبة وهذه السّماوات العظام.

سؤال: إنّ هذه الآية تفيد أنّ الأرض خلقت قبل السّماوات، وقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾ سورة النّازعات الآيات/٢٧-٣٠. يفيد بأنّ الأرض خلقت بعد السّماء، فكيف التّوفيق بين ما هنا وما في النّازعات؟

الجواب: إنّ السّماء خلقت بعد خلق الأرض كما هنا، إلّا أن دّحو الأرض وتسطيحها للسّكن كان بعد خلق السّماوات، وقد كتبت تحقيقاً في تفسير سورة النّازعات

أثبتت فيه أنّ الأرض خلقت قبل السّماوات، وذلك بذكر الآيات الكريمة والأحاديث الدالّة على ذلك فراجعه إن شئت.

سؤال ثان: إنّ السّماء مفردة، فكيف أعيد إليها ضمير الجمع، فقال: فسواهنّ سبع سماوات؟

الجواب: إنّ هذا جرى وفق المآل، لأنّها أصبحت سبع سماوات والمآل والخبر هو محطّ الفائدة فاتبع الضّمير له.

تنبيه: استدلّ الله تعالى بخلق الأرض والسّماوات على وجوده ووحدته، فالتّقدير: (كيف تكفرون باللّه وهو الذي خلق لكم ما في الأرض ... إلخ)، وكيفيّة الاستدلال أنّ من نظر إلى هذه السّماوات العظام والكواكب والأجرام التي وقفت كلّ واحدة منها على مدارها دون عماد وبناء، ويجري كلّ واحد منها بحساب دقيق وحركة كلّها عدل واتّزان، وهذه الشّمس التي تشرق الكائنات والقمر الذي ينوّر ما أراد اللّه تعالى أن ينوّره، وإلى هذه الأرض والجبال الرّاسيات وما فيها من الأشجار والثّمار والنّبات والمعادن والرّكائز والأنهار والعيون الجاريات والوديان والصّحاري والتّلال والمسطحات، فمن نظر في هذا الخلق البديع والنّظام العجيب وهذا الصّنع المدهش للقلوب والمحيّر للعقول يعلم أنّ هذا الكون لا يوجد بنفسه، لأنّ الشّيء لا يوجد نفسه بنفسه، وأيضاً لم يحدثه الطّبيعة،لأنّ هذا الصّنع يحتاج إلى قدرة لا نهاية لها وعلم لا حدّ له، وأن يكون صانعه حيّاً مريداً مختاراً، فإنّ الميّت أو العاجز أو الجاهل لا يستطيع أن يصنع شيئاً، فكيف بهذا الخلق العظيم، وأنّ الطّبيعة هي جماد لا علم ولا قدرة ولا حياة لها، فلا يمكنها أن تحدث هذا الخلق وهذا الصّنع الكبير، فلابدّ أن يكون لهذا النّظام من صانع عليم قدير حيّ مريد، وهو اللّه تعالى، وكذلك يقال أنّ من له هذه القدرة التّي خلق بها هذا النّظام لا يوجد له شريك، لأنّ الشّريك لا يتّخذه إلّا العاجز عن عمله، ومن له هذه القدرة ليس بعاجز، إذن فلا شريك له؛ وبهذا تمّ الاستدلال على وجوده ووحدته بما في الأنفس والآفاق.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى خلق أفراد الإنسان وخلق السّموات والأرض أراد أن يذكر قصّة خلق الإنسان الأوّل، الّذي هو آدم (عليه السلام)، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

يظهر من الآيات السّابقة أنّ اللّه تعالى خلق الأرض والسّماوات للإنسان وليهيّئ له مسكناً، ثمّ يخلقه ويسكنه فيه، ليؤدّي خلافة اللّه تعالى ويُظهر آثار قدرته ويقوم بعبادته وتنفيذ شريعته، فبعد أن تمّ خلق السّماوات والأرض وأصبحت الأرض صالحة للسّكن توجّهت إرادته إلى خلق الإنسان، وأخبر الملائكة بذلك وأنّه يخلق الإنسان ويسكنه هذه الأرض، وذكّرنا بهذه القصّة، فقال تعالى: **(وإذ قال)**، أي واذكر أيّها النّبيّ ويا كلّ من يتلو هذا القرآن **(إذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة)**، أي جماعة، قيل معناه: يخلفون الجانّ في الأرض ويسكنون فيها بعده، وهذا القول ضعيف، لأنّ الجانّ هو الجنّ، والجنّ لا يزالون يسكنون الأرض مع الإنسان، فالمعنى الصّحيح **(خليفة)**[1] لله فينفذ أوامره في الأرض ويعمّر الأرض ويُظهر آثار قدرته فيها. وجاء في بعض

---

(١) كون البشر خليفة لله في الأرض مجازية باعتبار أن الله تعالى جعله سبباً لتعمير الأرض والعمل فيه بالصناعة والزراعة وابتداع مالم يكن قبل خلقه بدلا من توجه إرادة الله تعالى إلى المخلوق بقوله (كن فيكون) وإلا فإن إطلاق لفظ خليفة الله على البشر غير جائزة عند جمهور العلماء لأمرين: الأول: الخلافة في حق الغائب والله تعالى حاضر غير غائب فلا خلافة في حقه. الثاني:نهى الإمام أبو بكر الصديق (ﷺ) لمن دعي به؛ ففي كنز العمال عن ابن أبي مليكة قيل لأبي بكر خليفة الله،فقال: لست خليفة الله،ولكني خليفة رسول الله (ﷺ) وأنا راض بذلك. الحديث رقم ١٤٠٤٨ ؛ لذلك فسر أصحاب هذا القول بأن المقصود بالآية (إني جاعل في الأرض خليفة) خليفة غيره من المخلوق الذي كان موجودا قبله/ أنظر القرطبي ١/ ٢٦٣.، وذهب بعض العلماء إلى جواز تسمية البشر خليفة الله اعتبارا بالخلافة المذكورة في قوله تعالى:(إني جاعل في الأرض خليفة) وقوله تعالى في الأنعام. الآية ١٦٥.: (وجعلكم خلائف الأرض). ولعل الشيخ الوالد رحمه الله تعالى رأى ما تفيده ظاهر الآية هنا فإنه كان يكره التأويل إلا لمقتضي.

التّفاسير: إنّ اللّه تعالى استشار الملائكة في خلق آدم، وفعل ذلك تعليماً لنا في أن نعمل ونستشير غيرنا في أعمالنا كيف وقد استشار اللّه تعالى الملائكة حينما خلق آدم، وهذا القول لا يثلج البال، فإنّ الاستشارة إنّما تكون لمن يكون علمه ناقصاً ورأيه ضعيفاً كأفراد الإنسان، فيستشير غيره لعلّهم يعرفون عاقبة هذا الأمر أحسن أم لا، فيهدونه إلى ما هو أحسن وأسلم، واللّه تعالى لشمول علمه لكلّ شيء وعواقبه منزّه عن أن يحتاج في الأمور إلى الاستشارة بغيره، فالأصحّ أنّ هذا إخبار من الله تعالى، أخبر به الملائكة أنّه يخلق هذا النّوع من مخلوقاته وأمرهم أنّه إذا تمّ خلقه أن يساعدوه[1] ويعاونوه ويخدموه وينقادوا لخدمته وأن يحترموه ويعترفوا بفضله بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ سورة(ص) الآيات/ ٧١-٧٤. فلمّا أخبر اللّه تعالى الملائكة هذا الخبر **(قالوا أتجعل فيها)**، أي تخلق وتسكن هذه الأرض **(من يفسد)** بعض أفراده **(فيها)** في هذه الأرض الطّيبة الطّاهرة. والمراد بالفساد القيام بمعاصي اللّه تعالى والانحراف عن منهجه وشريعته، فمن أكبر تلك المعاصي بعد الكفر والشّرك بالله هو قتل النّفس التّي حرّم اللّه تعالى قتله، ولذلك خصّصوه بالذّكر، فقالوا: **(ويسفك الدّماء)** وهنا شعر الملائكة أنّهم يجابون بأنّه يوجد من هذا النّوع من يعبد اللّه تعالى ويقدّسه ويسبّح بحمده ولا يرتكب الفساد وسفك الدّماء، فقالوا دفعاً لهذا الجواب: **(ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك)**، أي إن كان المراد من خلقهم أنّ قسماً منهم يسبّحون بحمدك ويقدّسونك بالعبادة والإطاعة والتّوحيد فنحن قائمون لك بذلك فلا داعي إلى خلقهم حسب إدراكنا ومعرفتنا، فأجابهم اللّه تعالى: **(قال)** تعالى في جوابهم **(إنّي أعلم)** من أنّ فيهم من الخواصّ والمزايا سوى التّسبيح والحمد والتّقديس لا توجد تلك المزايا فيكم ومنكم. وإنّ قول الملائكة هذا ليس اعتراضاً على اللّه تعالى، لأنّ الاعتراض عليه كفر، والملائكة معصومون من المعاصي فكيف بالكفر، بل كان قصدهم معرفة حكمة اللّه تعالى من خلقه هذا النّوع مع أنّهم فيهم من يفسد ويسفك الدّماء، فلمّا أخبرهم الله تعالى بأنّ فيهم مزايا لا توجد فيهم وأنّ اللّه تعالى يعلم تلك المزايا وهم لا يعلمون بها، رضوا واطمأنّوا وسكتوا وانتظروا أن يروا تلك المزايا من آدم وذرّيّته. وقيل: إنّ هذا القول قاله الشّيطان وأسند

(١) اي يساعدوا الإنسان و...الخ

إلى الملائكة، لأنّه كان فيهم وسكتوا عن قوله، وقال ذلك اعتراضاً على اللّه تعالى ولم يرض بخلقه تعالى لهذا النّوع، وكان كافراً في ذلك الوقت إلّا أنّه لم يظهر كفره إلّا بعد أن أُمر بالسّجدة لأدم، كما قال تعالى: (**فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**) ، ثمّ خلق اللّه تعالى آدم ونفّذ إرادته على رغم الشّيطان، فأراد أن يُظهر للملائكة المزايا التّي توجد في آدم ولا توجد فيهم بعد خلقه له (**وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم**)،أي عرض المسمّيات وأراهم للملائكة، (**فقال**) تعالى للملائكة (**أنبئوني باسماء هؤلاء**) المسمّيات (**إن كنتم صادقين**) في قولكم لا داعي إلى خلق هذا النّوع من الموجودات، (**قالوا سبحانك**)، أي ننزّهك عن الظّلم في أنّك لم تعلّمنا أسماء هذه المسمّيات، والحال أنّه (**لا علم لنا إلّا ما علّمتنا**) فلا نعلم هذه الأسماء (**إنّك أنت العليم**) الذي لا يعلم أحد إلّا ما علّمته، (**الحكيم**) في تعليمك، فبحكمتك الواسعة علّمت آدم هذه الأسماء، وما علّمتنا يا اللّه، وقد صدق الملائكة لأنّ اللّه تعالى لا يعمل شيئاً إلّا لحكمة ولمصلحة، فلهذه الحكمة ولتلك المصلحة تكون جميع أعماله عدلاً وحسناً، (**قال**) تعالى بعد عجز الملائكة عن الإخبار بأسماء تلك المسمّيات (**يا آدم أنبئهم بأسمائهم**) فأنبأهم بالأسماء كلّها دون خطأ وغلط ونسيان، (**فلما انبأ**) آدم (**هم**) الملائكة (**بأسمائهم**) المسميات، (**قال**) تعالى للملائكة (**ألم أقل**) أوّل الأمر وحينما أخبرتكم بخلقه إنّي أعلم (**غيب السّموات**) كلّه (**والأرض**) جميعه فاعلمُ بذلك أنّ في ذرّيّة آدم من المزايا لا توجد فيكم، وأنّ هذه المزايا تعوّض ما في بعضهم من الفساد وسفك الدّماء، (**وأعلم ما تبدون**) من قولكم (أتجعل)، (**وما كنتم تكتمون**) ما في أنفسكم من قولكم لا يكون أكرم منّا عند اللّه وأعلم أحد.

سؤال: بماذا علمت الملائكة أنّ ذرّيّة آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدّماء؟**الجواب**: قيل: أنّهم قاسوهم على الجانّ. وقيل: علموا ذلك من اللّوح المحفوظ، وقيل: أنّهم عرفوا ذلك من مادّة خلقهم وصورة تركيبهم. ولكنّ الذي **أقول**: إنّ القرآن مجمل يعرف تفصيله من سياقه ومن قرائن أخرى، فحينما قال تعالى هنا إنّي جاعل في الأرض خليفة وقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ ـ سورة ص الآيتان/ ٧١، ٧٢. يعرف أنّ اللّه تعالى حينما أخبر الملائكة بخلق آدم أعلمهم بصفاته وأحواله وإنّ له الغضب والشّهوة وغير ذلك من الصّفات التّي تكون مصدراً للفساد وسفك الدّماء، فبذلك عرفوا وعلموا ذلك فقالوا: (أتجعل .... إلخ).

سؤال: ماذا كانت تلك الأسماء؟ **الجواب:** اختلف النّاس في هذه الأسماء، **فقال بعضهم:** علّمه أسماء الأشياء كلّها جليلها وصغيرها حتّى الجفنة والمحلب، ويستدلّون على قولهم بما في البخاري من حديث أنس (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: ويجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربّنا فيأتون آدم، فيقولون له: أنت أبو النّاس خلقك اللّه بيده وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كلّ شيء....)[١]، ولكن هذا القول: وعلّمك أسماء كلّ شيء ليس من قول الرّسول (ﷺ)، بل إنّه قول المؤمنين لآدم يوم القيامة فيحكيه الرّسول (ﷺ) فلا يقوم حجّة. ثمّ إنّ قولهم وعلّمك (أسماء كلّ شيء) هو مثل قوله تعالى (وعلّم آدم الأسماء كلّها) فكان كتفسير الماء بالماء، وليس من المعقول ألّا يعرف الملائكة أسماء الأشياء التي يتداولها آدم، فإنّهم إذا لم يعرفوها فكيف يكتبونها عليهم؟.

وقال آخرون: المراد بالأسماء الأوصاف، والمراد بالتّعليم الهبة، فالمعنى: وهب اللّه تعالى من صفاته كلّها نبذةً ومثالاً لآدم، فوهبه العلم والقدرة والسّمع والبصر والكلام والإرادة والحياة والغضب إلى آخر أسماء الصّفات والأفعال لله تعالى والتّي تليق بغير اللّه، أي باستثناء ما لا يليق بغيره تعالى من الألوهية والقدم والخالقية ... إلخ، وهذا[٢] معنى قوله (ﷺ): (إنّ اللّه خلق آدم على صورته)[٣] .

ويقول البعض الآخر: إنّ المراد بالأسماء الاستعدادات التي توجد في آدم للعمل والفنّ والاختراع والصّنعة وما يحتاج إليه لتعمير الأرض وإحيائها وإظهار قدرة اللّه تعالى فيها، أو يقال خصّص اللّه تعالى بعض الأشياء فعلّمها آدم أسماءها ولم يعلم بها الملائكة، وقوله (كلّها) لا ينافي ذلك، لأنّ المعنى كلّها من تلك الأسماء، كما قال تعالى: ﴿ولقد أريناه)، أي فرعون (آياتنا كلّها فكذّب وأبى﴾ سورة طه الآية/ ٥٦. ومن المعلوم أنّه لم يظهر لفرعون كلّ معجزات اللّه تعالى، وإنّما أري كلّ المعجزات التي خصّصت لإراءتها إياه، ويسمّى هذا استغراقاً عرفياً، وهو في القرآن كثير، قال تعالى:

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٢٤ الحديث رقم ٤٢٠٦. وهو جزء من حديث طويل.

(٢) أنظر هذا المعنى للشيخ علي بن السلطان محمد الهروي القاري في مرقاة المفاتيح ٧/ ٨٠.

(٣) سبب ورود الحديث هو أنه ضرب رجل وجه عبده / فتح الباري ١١/ ٣. وتمام الحديث ما ورد عن أبي هريرة و ابن أبي حاتم عن النبية(ﷺ) إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته./ صحيح مسلم ٤/ ٢٠١٧ الحديث رقم ٢٦١٢.

﴿وأوتيت من كلّ شيء﴾، و(تدمّر كلّ شيء)، وإلى غير ذلك من استعمال (كلّ) لشمول بعض الأشياء المعنويّة لا لكلّ الأشياء على العموم.

فائدة: يستنبط من هذه الآية أمور: **الأوّل:** إنّه يجب على الأمّة أن ينصبوا إماماً يقوم بإدارة أمور الرّعيّة وتنفيذ أحكام اللّه تعالى فيهم وحلّ مشاكلهم وفصل خصوماتهم حسب شريعة اللّه تعالى. قال القرطبي: وهذا ما أجمع عليه الأمّة ولم يشذّ عن هذا القول إلّا ما روى عن الاصمّ الذي عن الشّريعة أصمّ، فإنّه قال: إنّ نصب الإمام غير واجب وإنّما هو جائز، وإنّ الأمّة متى أقاموا حجّهم وجهادهم وتناصفوا فيما بينهم وبذلوا الحقّ من أنفسهم وقسّموا الغنائم والفيء والصّدقات على أهلها، وأقاموا الحدود على من وجبت عليهم أجزأهم ذلك، ولا يجب عليهم أن ينصبوا إماماً يتولّى ذلك)[1].

أقول: لا حقّ للقرطبي في أنّه قال: (الذي هو عن الشّريعة أصمّ)، وكذلك كلّ من قال بقوله وقال برأيه ومذهبه، فإنّه لم يخالف الجماعة، لأنّ الجماعة يقولون بوجوب الإمام لتنفيذ ما قال به الأصمّ، فإذا نفّذ بدون إمام لا يحتاج إلى إمام، لأنّه من القاعدة أنّ الحكم يرتفع بانتفاء علّته، ولكن ما قاله الأصمّ محال، لأنّ الأمّة لا يمكنها تنفيذ هذه الأمور وفعلها بدون إمام؛ فوجب الإمام على قوله أيضاً، فلا خلاف.

الثّاني: يستنبط منها ومن آيات سورة (ص)[2] أنّ من أراد أن ينزل ملكه أو بيته ضيفاً فعليه أن يخبر خدمه وأهله ليتهيّأوا لإكرامه واحترامه، وأن يبيّن لهم كيفيّة احترامه؛ فإنّ اللّه تعالى أخبر الملائكة بإسكانه آدم في ملكه، وهي الأرض، وبيّن كيفيّة احترامهم له، بقوله: (فقعوا له ساجدين﴾ سورة ص الآية/ ٧٢ ـ الثّالث: إنّ السّؤال عن أمر اللّه وحكمه وتقديره للإطلاع على الحكمة جائز ومشروع، فإنّه لو لم يجز ذلك فكيف يجوز القيس؟ وإنّ الملائكة سألوا اللّه تعالى عن الحكمة في خلق آدم وهم معصومون لا يسألون ما لا يجوز. وأمّا السؤال للاعتراض على حكم اللّه تعالى فكفر؛ ولذلك لعن إبليس حيث اعترض على حكم اللّه بأمره بالسّجود لآدم ف(قال أنا خير منه)[3]، فكيف أسجد له، وكان قصده الاعتراض على حكم اللّه في أمره بالسّجدة لآدم لأنّه خير من آدم حسب وهمه.

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ٢٦٤.

(٢) أي من قوله تعالى (إذ قال ربك للملئكة إني خالق بشرا من طين).٧٠ إلى آخر السورة.

(٣) سورة ص الآية ٧٦.

الرّابع: من حسن العمل أن يقنع المرء غيره بالحجّة والبرهان لا بالقوّة والسّلطان، فإنّ اللّه تعالى مع قدرته العظيمة أقنع الملائكة بأنّ أظهر لهم علم آدم وفضله وأنّه يوجد فيه ما لا يوجد فيهم، فيليق بأن يجعله وذرّيّته خليفة في الأرض بالرّغم ممّا يوجد في بعض أفراد ذرّيّته من الفساد وسفك الدّماء.

الخامس: إنّ جميع مخلوقات اللّه تعالى من الملائكة والجنّ والإنس والسّماوات والأرض والنّباتات والأشجار وغير ذلك كلّها متساوية النّسبة إلى كلّ الصّفات والمزايا والنّتائج والمفاعيل والآثار، وإنّ تخصيص كلّ قسم بصفاته ومزاياه وآثاره ومفاعيله ليس من ذاته بل بتخصيص اللّه تعالى إيّاه بها، فلو أراد أن يثمر التّفاح عنباً والكرم تفاحاً لوقع كما أراد، ولو أراد أن تشرق الأرض وتنبت الشّمس لكان كما أراد، فتخصيص كلّ شيء بشيء منه[1]، وإنّه حكيم في ذلك وعليم، فبعلمه وحكمته واختباره يفعل ذلك التّخصيص، ولذا لم يعلم الملائكة ما علم آدم، سبحانك إنّك أنت العليم الحكيم في كلّ شيء، وهكذا يجب أن يعترف المرء بعلم اللّه وحكمته وعظمته وتدبيره في خلقه ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٤.

❊ ❊ ❊

وبعد أن أظهر اللّه تعالى علم آدم وفضله على الملائكة أمر الملائكة بالسّجود له، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

(وإذ)، واذكر يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مخاطب **(إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا)** امتثالاً لأمرنا **(إلّا إبليس أبى)** امتنع أن يسجد لآدم، وعلّل تعالى عدم سجوده لآدم بقوله: **(واستكبر)**، أي ورأى نفسه أكبر من آدم، وكذلك رأى نفسه أكبر من أن يطيع اللّه تعالى في هذا الأمر، لأنّه رأى أنّ اللّه تعالى ظلمه بهذا الأمر وأخطأ ـ معاذ اللّه ـ لأنّه خير من آدم حسب وهمه، لأنّه من النّار وآدم من الطّين، وبسبب هذا الكبرياء هلك **(وكان)**، وأصبح **(من الكافرين)** بالله تعالى غير مؤمن به إيماناً صحيحاً.

---

(١) أي من الله تعالى.

تنبيه: قد اختلف العلماء في معنى سجود الملائكة لآدم (عليه السلام)، فمنهم **من قال**: اسجدوا، أي انقادوا له واحترموه، وليس معناه السّجود الحقيقي. ومنهم **من قال**: كان السّجود لله والقبلة آدم، فمعنى اسجدوا لآدم، أي اسجدوا لله وتوجّهوا فيه إلى آدم، وبعضهم يقولون: كان السّجود سجود احترام وتقدير لا سجود عبادة، إلى غير ذلك من التّوجّهات كلّ ذلك هرباً من أن يكون السّجود لغيره فيكون كفراً، لأنّ السّجود لغير اللّه تعالى كفر.

وإنّي أقول: لا داعي إلى أيّ واحد من هذه التّأويلات، والحقّ هو أنّ الجواز في كلّ شيء وعدم الجواز والحرمة والوجوب كلّ ذلك مربوط بأمر اللّه تعالى به أو نهيه عنه، فإذا أوجب شيئاً وجب، وإذا حرّم نفس الشّيء حُرّم، فلا واجب لذاته ولا حرام لذاته، بل الحرام يصير واجباً بأمر اللّه والواجب يصير حراماً إذا نهى عنه، وله كلّ ذلك، فإنّه مختار في التّكليف والتّكوين، أليس ذبح الولد حراماً؟ ولكن عزم عليه سيّدنا إبراهيم (عليه السلام)، لأنّ اللّه تعالى أمره به فصار واجباً، ثمّ فدى عن ولده ونهى عن تنفيذ الذّبح فصار حراماً، فشيء واحد كان بالأمس حراماً ثمّ واجباً ثمّ حراماً، أليس قتل النّفس الزّكيّة حراماً بغير نفس؟ وقتل صاحب موسى (عليه السلام) نفساً زكيّةً حيث أمره اللّه تعالى به، إلى غير ذلك من الأمثلة. فالسّجود لغير اللّه تعالى حرام، بل كفر وشرك، لأنّ اللّه تعالى حرّمه وجعله شركاً. فاذا أمر به يكون واجباً، وقد أمر الله تعالى إخوة يوسف وأباه وأمّه بالسّجود ليوسف، فصار واجباً عليهم فسجدوا له، وأمر الملائكة بالسّجود لآدم فوجب عليهم فسجدوا، فالمدار على أمر اللّه تعالى ونهيه في الأمور لا بتصوّرنا وتقديرنا للأشياء، وهذا ما أرى واللّه تعالى أعلم.

* * *

خاتمة: يفهم من هذه الآية فوائد:

الأولى: إنّ الفضل كلّ الفضل في العلم، ولزيادة العلم أمر الله تعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم، وفي هذا يظهر مدى ترويج الإسلام للعلم؛ فإنّ كتابهم يحثّ المسلمين على العلم، وأنّ الملائكة بسبب فضيلة العلم سجدوا لآدم (عليه السلام)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ـ سورة الزّمر الآية/ ٩.

الثّانية: إنّ الكبر والحسد من أخبث الصّفات الذّميمة، وأنّ إبليس حمله الكبر والحسد على أن يأبى السّجود لآدم فلعن وطرد من رحمة اللّه تعالى، وأنّ أكثر الّذين يكفرون أو كفروا بالرّسل كان لأجل الكبر والحسد، قال تعالى في حقّ اليهود في هذه

السّورة: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾ أي حسداً ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ٩٠ ـ الثالثة: إنّ البشر أفضل من الملائكة. كما قال أهل السّنّة والجماعة: إنّ خواصّ البشر أفضل من خواصّ الملائكة، وخواصّ الملائكة أفضل من عوام البشر، وعوام البشر أفضل من عوام الملائكة[1]. وخالفهم البعض. وقالوا: إنّ الملائكة أفضل من البشر مطلقاً[2] واستدلّوا بما يلي:

١- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ سورة يوسف الآية/ ٣١ ـ وهي حكاية قول النّسوة وليس بقول اللّه، وقول النّسوة لا يكون حجّة[3]، ولو سلّمنا أنّه حجّة فالنّساء لم يفضّلن يوسف ولم يعظّمنه على البشر وألحقنه بالملائكة في الفضائل المعنويّة والرّوحيّة، وهذا لا يفيد أنّ الملائكة أفضل من البشر، بل إنّما فضّلنه على البشر في الحسن والجمال، وكان السّائد بين النّاس وقتئذ أنّهم يشبّهون ما يعجبهم في الحسن بالملائكة حسب خيالهم وعاداتهم، ولا يزال هذا الأمر موجوداً بين النّاس.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ سورة النّساء الآية/ ١٧٢. وهذا ترقّ من الأدنى إلى الأعلى، فيكون الملائكة أعلى وأفضل من عيسى، وعيسى من أولي العزم من البشر، فيكون الملائكة أفضل من البشر كيف لا، وعيسى من خيار البشر، فإذا كانت الملائكة أفضل منه يكون أفضل من البشر. وهذا الاستدلال مردود أيضاً، وذلك لأنّ النّصارى ادّعوا أنّ المسيح إله، أو ابن إله، وليس بشراً وعبداً، وإنّما ادّعوا ذلك، لأنّه كان مجرّداً، حيث ولد بدون أب؛ فقال تعالى: إنّ الملائكة أكثر تجرّداً من المسيح، لأنّهم وجدوا بدون أب وبدون أمّ مع أنّهم عباد اللّه تعالى فلن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله، لأنّه لا أب له ولا الملائكة المقرّبون الذين لا أب لهم ولا أمّ، فالتّرقّي إلى الأعلى من حيث التّجرّد لا من حيث التّفضل، فالحقّ ما قاله أهل السّنّة والجماعة نقلاً وعقلاً. أمّا نقلاً فلهذه الآية الكريمة، فإنّه لو لم يكن آدم أفضل من الملائكة لما أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا له،

---

(١) تفسير النسفي ١/ ٢٦٤، حاشية ابن عابدين ١/ ٥٢٧، حاشية قليوبي ١/ ٨، شرح منتهى الإيرادات ١/ ٨.

(٢) أنظر تفسير روح المعاني للآلوسي ٦/ ١٦٢.

(٣) أي ليس حجة على تفضيل الملائكة على البشر.

ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البيّنة الآية/ ٧ ـ والبريّة بمعنى المخلوق، فتفيد الآية أنّ المؤمنين خير المخلوقات كلّها، والملائكة من المخلوقات، فيكون المؤمنون خيراً وأفضل منهم، وأمّا عقلاً فلأنّ البشر يعمل الصّالحات مع عائق الشّهوة والنّفس والهوى والشّيطان، ويجاهد كلّ هؤلاء في سبيل أداء صالح من الأعمال. ولكنّ الملائكة لا يجدون كلّ هذه العوائق في أداء أعمالهم، بل إنّهم جبلوا على الطّاعة والامتثال، لا شهوة لهم ولا الهوى ولا النّفس الأمارة، ولم يسلّط الشّيطان عليهم. ولا شكّ أنّ العامل مع العائق أفضل من العامل بدون عائق، لأنّ الأجر على قدر المشقّة[1]. فالفرق كثير وواضح بين من مشي في طريق وعر محفوف بالأشواك لإنجاز عمل ما وبين من يمشي في طريق مبلّط مزروع فيه الرّياحين والأوراد لانجاز نفس العمل المطلوب[2]، فالبشر إذن أفضل من الملائكة، هذه كلّه في الإنسان المؤمن والبشر الصّالح، وأمّا الكافر من البشر فهو من شرّ خلق اللّه تعالى كلّه، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة الآية/ ٦.

* * *

ثمّ بعد أن سجد الملائكة لآدم ولعن إبليس من حظيرة القدس أمر اللّه تعالى آدم أن يسكن هو وزوجه حوّاء الجنّة، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

(وقلنا) بعد سجود الملائكة لآدم وطرد الشّيطان من حظيرة القدس ـ وهي مكان خاص يجتمع فيه الملائكة المقرّبون ـ **(قلنا)** لآدم **(يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة**

(١) قاعدة فقهية المقصود منها أن الأجر والثواب على قدر المشقة إذا كان العمل والعبادة مستلزما للمشقة كما شرع كصيام رمضان في الصيف لطول النهار وشدة الحر، لا أن المشقة والتعب مقصودان من العمل كالرهبنة المبتدعة وما مثلها مما لم يشرع، أنظر مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٦٢٢، وانظر القاعدة في حاشية ابن عابدين ٢/ ٤٧٨.

(٢) كصلاة الجمعة لا الأعمال المبتدعة كالمشي إلى زيارة القبور.

وكلا منها) رزقاً **(رغداً)** واسعاً، **(حيث)** من أي شيء **(شئتما)**، من كلّ نبات ومن كلّ ثمر ومن كلّ لحم ومن كلّ شجر، إلّا أنّه **(ولا تقربا هذه الشّجرة)** فتأكلا منها، لأنّه إذا أكلتم منها تخرجا عن أمر اللّه تعالى وحدوده **(فتكونا من الظّالمين)**، أي الّذين تجاوزوا حدود اللّه تعالى وخالفوا أوامره، وبعدما أسكن آدم وزوجته الجنّة وحرّم عليهما الشّجرة وجد الشّيطان وسيلةً لأن يلحق بآدم ضرراً وإيذاءً، ولأن يبعده من الرّتبة التي أبعد هو عنها، وهو القرب من اللّه تعالى وإكرام اللّه له، فوسوس إلى آدم وحواء وذهب وجاء[1] إلى أن حملهما على الأكل من الشّجرة وأوقعهما في الخطأ، وذلك كما قال تعالى:

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(فأزلّهما)، أي فأوقعهما في الزّلل، فأبعدهما **(الشّيطان عنها)**، أي بسبب الشّجرة والأكل منها، **(فأخرجهما)**، فأصبح سبباً لإخراجهما، أي آدم وحواء **(مما كانا فيه)** من الجنّة ونعيمها، **(وقلنا)** للشّيطان ولآدم وحواء **(إهبطوا)**، أي من الجنّة **(بعضكم)**، أي بعض ذرّيّتكم، وهو ذرّيّة الشّيطان، وهم الكفرة من الجنّ الّذين يسمّون بالشّياطين **(لبعض)**، وهم ذرّيّة آدم المؤمنين **(عدوّ)**، وأمّا ذرّيّة آدم غير المؤمنين فهم شياطين أيضاً، لأنّه ورد في القرآن والحديث أنّه يوجد شياطين من الإنس وهم الكفرة منهم، وشياطين من الجنّ وهم الكفرة منهم أيضاً[2]، فالمؤمنون من الطّرفين يعاديهم الشّياطين من

---

(١) أي حول.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾. ومن السنة ما روي عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: دخلت المسجد ورسول الله (ﷺ) فيه فجئت فجلست إليه، قال: يا أباذر تعوذ من شياطين الجن والإنس قلت: أو للإنس شياطين؟ قال: نعم. انظر سنن النسائي ٤/ ٤٦١ الحديث رقم ٥٤٢٤ [illegible].

الطّرفين، وهذا معنى بعضكم لبعض عدوّ، **(ولكم في الأرض مستقرّ)** محلّ إقامة واستقرار **(ومتاع)** وتمتّع بالحياة ومقتضياتها**(إلى حين)**، إلى إنتهاء الأجل المحدود لكم، والأجل أجلان: أجل الأفراد، فكلّ فرد يستقرّ في الأرض ويتمتّع بالحياة فيها إلى أن ينتهي أجله المحدّد له فيموت، وهذه هي القيامة الصغرى، قال الرّسول (ﷺ): (من مات فقد قامت قيامته)[1]، وأجل الأمّة والنّوع، فلبقاء نوع الإنسان أجل محدّد، فإذا جاء ذلك الأجل يموت كلّ إنسان، ولا يبقى على هذه الأرض أحد، فينهدم هذا الكون ويتبدّل بكون آخر، وهذا هو القيامة الكبرى والسّاعة التي أخبر تعالى عنها في القرآن الكريم في سور كثيرة وآيات عديدة، فلمّا وقع آدم في هذا الخطأ وتندّم كثيراً ألهمه اللّه تعالى كلمات يدعو بها، فدعا بها فتاب عليه، كما قال تعالى: **(فتلقّى آدم من ربّه كلمات)**، أي ألقي إلى آدم من ربّه تعالى كلمات فتلقّاها وأخذها وحفظها آدم، فدعا بها وتاب، **(فتاب)** اللّه تعالى عليه، أي قبل توبته **(إنّه)**، أي أنّ اللّه تعالى **(هو التوّاب)** كثير القبول لتوبة عباده، فكلّما تابوا قبل منهم توبتهم، **(الرّحيم)**، أي إنّه كثير الرّحمة فلرحمته هذه فقط يقبل توبة عباده لا لأمر آخر، فإنّه لا يحتاج إلى العباد ولا إلى توبتهم، ولا يجب عليه قبول التّوبة، لإنّه فاعل مختار في كلّ شيء، فقبوله توبة عباده ليس إلّا لرحمته ولطفه بهم اللّهم فارحم بنا والطف بنا يا أرحم الرّاحمين .

* * *

سؤال: ماهي تلك الكلمات التي دعا بها آدم وزوجه فتاب اللّه تعالى عليهما بها؟

الجواب: ذكروا في هذه الكلمات كثيراً من الأقوال، ولكنّ القرآن يفنّد كلّ قول إلّا قولاً وافق القرآن، حيث ذكر القرآن تلك الكلمات: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة الاعراف الآية/ ٢٣.

* * *

تنبيه: قوله تعالى: **(إنّه هو التّوّاب الرّحيم)** يفيد الحصر، فيفيد أنّه لا توّاب يقبل التّوبة ويعفو عن العبد بالتّوبة غيره، فالتّوبة معاملة بين العبد وربّه تعالى، وهي عبارة عن النّدم عمّا فعله العبد والخروج عنه وتركه والعزم على عدم العودة إليه وإعادة حقوق

---

(١) روي عن أنس مرفوعاً انظر / تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الزمخشري للزيلعي ١/ ٤٣٦ الحديث ٤٤٥ وقال عنه غريب.

العباد إليهم، فإنّ حقوق اللّه تعالى والمعاصي التي ليس فيها حقوق النّاس تعفى وتغفر بنفس التّوبة، ولكن حقوق العباد لا تعفى إلّا بأدائها او طلب المسامحة عنها، فإن لم يجد أو لم يستطع ذلك فهي مغفورة أيضاً ويُرضي اللّه تعالى عنه أصحاب الحقوق. فبما ذكر فقط يتوب اللّه تعالى على عبده دون توسّط وبلا توسّل، فإذن فبأيّ دليل نصب بعض النّاس أنفسهم وكلاء عن اللّه تعالى ويتوب النّاس على أيديهم، أليس هذا بابويّة أدخلوها في الإسلام؟ بلى ثمّ بلى. نعم كلّ مسلم عاص غير دارس للشّريعة يحتاج إلى أن يراجع عالماً ليعلّمه أمور دينه ويرشده إلى الواجب والمندوب والمباح والصّحيح والباطل، وغير ذلك من أمور الدّين. وكلّ عالم يصلح لذلك، فبأي وجه ودليل خصّصوا للإرشاد بعض العلماء دون بعض، أو خصّصوا بعض الجهلة بسبب النّسب والوراثة[1] للإرشاد في الدّين، أليس هذا استغلالاً واحتكاراً للدّين؟ طمعاً في أكل أموال النّاس بالباطل وجمع النّاس لقصد غير مبين (فإنّا لله وإنّا إليه راجعون) وإنّ الوعظ والإرشاد وظيفة كلّ عالم بل وواجب على كلّ مسلم ولا تخصّص[2] فيه ولا احتكار، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ سورة العصر الآية/ ١-٣.

ثمّ بعد أن أنزل اللّه تعالى آدم وذرّيّته إلى الأرض وأسكنهم فيها أخذ منهم العهد بأنّ يعملوا ويعيشوا على هذه الأرض وفق منهجه الّذي يرسل إليهم وشريعته الّتي ينزلها عليهم جيلاً بعد جيل. ووعدهم بأنّهم إن فعلوا ذلك وعاشوا على ذلك المنهج فإنّه يعيدهم إلى الجنّة بكلّ تكريم وتقدير، ولا ينالون خوفاً ولا حزناً يوم القيامة، ولكنّ الّذين يكفرون بدينه ويتركون شريعته فإنّهم يدخلون جهنّم ويخلدون فيها. وعلى هذا العهد أسكن اللّه تعالى ذرّيّته في الأرض، كما قال وعزّ من قائل: **(قلنا اهبطوا)** يا آدم وحواء ويا إبليس اهبطوا أنتم وذرّيّتكم **(منها)**، من الجنّة **(جميعاً)** مجتمعين في الأرض **(فإمّا)** ـ كلّما اجتمعت (إن) و(ما) فالمتأخر منهما زائدة ـ فإذن **(فإمّا)** تقديره فإن **(يأتينّكم منّي هدىً)** منهج وشريعة بسبب الرّسل والأنبياء والدّعاة إلى اللّه تعالى **(فمن تبع هداي)** منهجي

(١) يقصد متشيخة المتصوفة الذين ابتدعوا أمورا ما أنزل الله بها من سلطان فيضللون بها الناس باسم التصوف.

(٢) يقصد لا يختص به أحد دون آخر وفق المدعى من النسب وغيره. وإنما هو عام لكل العلماء يجب عليهم أن يعلموا يدعوا ويرشدوا.

وشريعتي وعمل بها وطبّقها على نفسه وعلى من تحت رعايته وأمره **(فلا خوف عليهم)** يوم القيامة من العذاب، **(ولا هم يحزنون)** بسبب فوات حياة الدّنيا أو النّعم فيها، لأنّهم يدخلون الجنّة الّتي لا نعيم أفضل من نعيمها، ولا حياة أفضل من حياتها، حياة أبديّة لا زوال لها وخالية عن الهم والغم والحزن والغصص والكدر وكلّ ما يؤذي ويؤلم، **(والّذين كفروا)** بمنهجنا **(وكذّبوا بآياتنا)**، أي بأحكامنا فلم يعملوا بها ولم يطبّقوها **(أولئك أصحاب النّار هم فيها)** في النّار **(خالدون)** لا يخرجون منها أبداً. وعلى هذا العهد جئنا إلى الدّنيا وأسكننا اللّه تعالى هذه الأرض، وهذا هو عهد اللّه تعالى إلى بني آدم الذي يذكره اللّه تعالى في قوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ سورة (يس) الآية/ ٦٠-٦١.

فائدة: أعاد تعالى قوله: (قلنا اهبطوا) إشارة إلى أنّ قبول التّوبة لم يسقط الأمر الأوّل بالهبوط إلى الأرض والخروج من الجنّة، بل إنّما أسقط الذّنب والعذاب بالنّار، وهنا يتوجّه ستة أسئلة: **السّؤال الأوّل:** ما هي الشّجرة التي أكل منها آدم وحواء فطردا بسبب الأكل منها من الجنّة؟ **الجواب:** قال ابن كثير، بعد نقل كثير من الاقوال التي وردت في ذلك: قال الإمام العلامة أبو جعفر ابن جرير الطّبري: فالصّواب في ذلك أن يقال: إنّ اللّه تعالى نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنّة دون سائر الأشجار فأكلا منها، ولا علم عندنا بأنّها أيّ شجرة كانت على التّعيين، لأنّ اللّه تعالى لم يضع لعباده دليلاً على تعيينها لا في القرآن ولا في السّنّة الصّحيحة. وقد قيل أنّها التّين أو البرّ أو العنب، وجائز أن تكون واحدة منها. وإنّ العلم بهذه الشّجرة لا ينفع العالم به شيئاً ولا يضر الجاهل به شيئاً؛ لأنّه لا يتعلّق به حكم من أحكام الدّين ولا شأن من شؤون الحياة واللّه تعالى أعلم، وكذلك رجّح الإمام الرّازي هذا الرأي في تفسيره وهو الصّواب . **السّؤال الثّاني:** أيّ جنّة كانت هذه الجنّة التي كان فيها آدم؟ **الجواب:** إنّها كانت جنّة الخلد التي وعد المتّقون والّتي تكون محلّ الثّواب للمؤمنين. وبهذا قال الجمهور. وقال البعض إنّها لم تكن جنّة الخلد، بل كانت جنّة (بستاناً) خلقها اللّه تعالى في مرتفع من الأرض أو من السّماء، على اختلاف بينهم، وأسكن آدم وحواء فيها واستدلّوا على قولهم هذا بأدلّة، منها:

١ ـ قالوا: إنّ جنّة الخلد ليست دار تكليف وابتلاء، بل هي دار نعيم وجزاء.ويردّ ذلك بأنّ كون جنّة الخلد دار نعيم لا دار ابتلاء ليست من ذاتها، بل من إرادة اللّه تعالى وجعله، فيمكن أنّ اللّه تعالى جعلها دار تكليف وابتلاء أوّل ما اسكن آدم وحواء

فيها ومن غير نتيجة عمل منهما، وسيجعلهما دار نعيم لا ابتلاء ولا تكليف فيها يوم القيامة حينما يدخلها النّاس نتيجة أعمالهم، بل وإنّ هذه القصّة تدلّ على ذلك.

٢ ـ قالوا: إنّ جنّة الخلد لا يدخلها إبليس، وقد دخلها ووسوس فيها إلى آدم وحواء، ويردّ ذلك بأنّ جنّة الخلد لا يدخلها إبليس يوم القيامة بعد طرده من الجنّة، وحينئذ لم يكن مطروداً منها كما نوضّح ذلك بعد.

٣ ـ قالوا: إنّ جنّة الخلد من دخلها لا يخرج منها ولا نوم فيها، وقد أخرج آدم من تلك الجنّة ونام فيها، ويردّ ذلك بأنّ من دخل جنّة الخلد يوم القيامة نتيجة الأعمال لا يخرج منها ولا نوم فيها، وأمّا أوّل ما أدخل آدم فيها دون عمل منه وقبل يوم القيامة فيمكن الإخراج منها والنوم فيها، وكلّ ذلك بإرادة اللّه تعالى. وإنّ هذه القصّة تدلّ على ذلك كلّه، فالحقّ ما قاله الجمهور، وذلك للأدلّة الآتية:

أ ـ ذكر ابن كثير أنّه ورد في صحيح مسلم أنّ رسول اللّه (ﷺ) قال: (يجمع اللّه تبارك وتعالى النّاس، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنّة، فيأتون آدم فيقولون: يا أبانا استفتح لنا الجنّة، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة إلّا خطيئة أبيكم)[١]. فيدلّ ذلك أنّ الجنّة التي أسكن فيها آدم وأخرج منها هي عين الجنّة التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة، وهي جنّة الخلد والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

ب. إنّ قوله تعالى: ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين﴾ يدلّ بوضوح أنّ آدم وحواء لم يكونا في الأرض قبل الهبوط، فيدلّ على أنّ تلك الجنّة كانت في السّماء.

ج. قوله تعالى: ﴿قلنا يا آدم إنّ هذا﴾. أي الشّيطان ﴿عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾ سورة طه الآية/ ١١٧، أي في تحصيل الرّزق والسّعي إليه، هذا القول يدلّ على أنّ آدم لم يكن في تلك الجنّة يشقى فيها ويتعب حول الرّزق وكسبه، ولا مكان كذلك إلّا جنّة الخلد، لأنّ أيّة جنّة في الأرض تحتاج إلى السّقي من صاحبها والتّعب في جني ثمارها على الأقل. قوله تعالى: ﴿إنّ لك ألّا تجوع فيها﴾، أي في تلك الجنّة (ولا تعرى وإنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ سورة طه الآية ١١٨-١١٩ ـ وهذه الصّفات كلّها من صفات جنّة الخلد، لأنّه لا يوجد مكان لا يجوع الإنسان فيه ولا يعرى ولا يجد حرارة ولا ظمأ فيه إلّا هي.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ١٨٦الحديث رقم ١٩٥.

والحاصل أنّ ظاهر الآيات والأحاديث تدلّ على أنّها كانت جنّة الخلد، فتأويل هذه الآيات والأحادث عن ظواهرها لأمور ظنّية ظنّها بعض النّاس غير سائغ، فالأولى تأويل أقوالهم لا أقوال اللّه تعالى والرّسول (ﷺ).

السّؤال الثّالث: فإذا كانت الجنّة التي سكن فيها آدم جنّة الخلد، فكيف دخلها إبليس؟ وقد طرد منها كما دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قال فاخرج منها فإنّك رجيم * وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدّين﴾ سورة ص الآية/ ٧٧-٧٨ ـ الجواب: قيل في جواب ذلك أقوال كثيرة، منها: أنّه دخلها بوسيلة، وهي أنّه دخل في بطن الحيّة، فأدخلته فيها، وهذا مردود، لأنّ الملائكة حرّاس الجنّة، كيف لم يعلموا به فيطردوه حينما خرج من بطن الحيّة.ومنها: أنّه كان دخول الجنة ممنوعاً منه علناً، وأمّا سرقة فلم يمنع منه، وهذا أيضاً مردود؛ لأنّه كيف يدخل الشّيطان الجنّة ويوسوس إلى آدم والملائكة غافلون عنه هذه المدّة المديدة.

ومنها: أنّه كان يوسوس إلى آدم وحواء في الأرض، ويردّ ذلك بأنّه اتّصل بهما وجالسهما وتكلّم معهما، وهذا لا يمكن وهو في الأرض وآدم في السّماء، قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ) ـ سورة الاعراف الآية/ ٢٠-٢١.

فالجواب الصّحيح: أنّ الضّمير في قوله تعالى (فاخرج منها) ليس عائداً إلى الجنّة، بل إلى حظيرة القدس. وهي مجمع الملائكة المقرّبين والملأ الأعلى، فلم يطرد الشّيطان من الجنّة أوّل الأمر حينما لم يسجد لآدم واعترض على اللّه تعالى، بل إنّما طرد منها بعد ما وسوس إلى آدم وأكل آدم من الشّجرة فطرد هو وآدم وحواء من الجنّة في ذلك الوقت، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا)، أي أنتم يا آدم وحواء ويا إبليس (منها)، أي من الجنّة، إذ لو كان الأمر لآدم وحواء فقط لقال: (اهبطا منها).

السّؤال الرّابع: قال تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾، فالأمر بالسّجود كان للملائكة، والشّيطان لم يكن من الملائكة، بل هو من الجنّ بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ سورة الكهف الآية/ ٥٠، فكيف يشمله الأمر بالسّجود فلعن بالامتناع عنه؟.أجيب عن هذا السّؤال بأجوبة كثيرة، كلّها لا يثلج البال، ولا يطمئن لها القلب، فالجواب الشّافي: أنّ إبليس كان مأموراً بالسّجود لآدم بدون شكّ، بدليل قوله تعالى في آية من سورة الكهف:

﴿ففسق عن أمر ربه﴾، ولقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٢ ـ وقد شمله الأمر، لأنّ قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) المراد به الملائكة سكّان الملأ الأعلى وحظيرة القدس وإبليس كان هناك، أو المراد (وإذ قلنا للملائكة) ومن معهم اسجدوا فحذف (ومن معهم) لقرينة السّياق. أو نقول أمر الملائكة بالسّجود لآدم أمر لغيرهم من الجنّ بالسّجود بالطّريق الأولى؛ فإنّ الملائكة خير من الجنّ. فإذا أمر الملك بالخضوع لأحد فمن دونه مأمور بذلك وبالطّريق الأولى وبدون شكّ وارتياب.

السّؤال الخامس: كيف عصى آدم وهو نبيّ، والأنبياء معصومون من الذّنوب والمعاصي؟

الجواب: أجيب عن ذلك بوجوه: **الأوّل**: إنّ ذلك كانت صغيرة، والأنبياء ليسوا معصومين عن الصّغائر سهواً بل وعمداً أيضاً، وهذا غير معقول، فالأنبياء بعثوا لأن يكونوا قادة الأمّة وأئمتهم إلى الخير، فلو صدر عنهم الذّنب ولو صغيراً لا تبقى ثقة النّاس بهم وتزلزل أمر قيادتهم.

الثّاني: إنّه كان قبل النّبوّة، وآدم في ذلك الوقت لم يكن نبياً، لأنّه لم تكن هناك أمّة، كما وإنّ الجنّة ليست دار تكليف يرسل فيها نبيّ للتّبليغ بتكاليف اللّه تعالى. وهذا أيضاً ضعيف، لأنّ آدم نفسه كان محتاجاً إلى تعاليم اللّه تعالى وكان معه زوجته، وإنّ الجنّة ليست دار تكليف يوم القيامة بعد الحياة الدّنيا لمن دخلها بعد الموت والحساب، لا لمن دخلها أوّل الأمر بدون عمل وحساب. كما وإنّ عدم العصمة للأنبياء قبل النّبوّة ليس متّفقاً عليها.

فأحسن الوجوه أن يقال: أنّ هذا الذّنب صدر عنه سهواً أو نسياناً بدليل قوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي﴾ ـ سورة طه الآية/ ١١٥ ـ إلّا أنّه عوقب، لأنّه لم يعزم الأمر لئلّا ينساه، كما قال تعالى في الآية نفسها: ﴿ولم نجد له عزماً﴾، والأنبياء يعاقبون على عدم العزم وإن لم يكن ذنباً ومعصيةً، وقوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربّه﴾ سورة طه الآية/ ١٢١ ـ أي فخالف آدم أمر ربّه نسياناً بقرينة الآية السّابقة، وقوله: (فغوى) ليس معناه فضلّ، بل معناه ففسد عليه عيشه، كما قال النّقاش، واختاره القشيري، ورجّح ذلك القرطبي (رحمه الله)[١].

---

(١) تفسير القرطبي ٧/ ٧٥ و ١١/ ٢٥٧.

السّؤال السّادس: ماهي حقيقة الملائكة؟

الجواب: عرّف أهل العلم الملائكة بأنّهم أجسام لطيفة، يتشكّلون بأشكال غيرهم ويقومون بأمور عظيمة لا يطيقها البشر، وينفّذون أوامر اللّه تعالى، وهم معصومون من المعاصي والذّنوب، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، وأنّهم لا يتناسلون، بل يوجدون بأمر كن فيكون، فهم من عالم الأمر لا من عالم الخلق، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1] سورة الأعراف الآية/ ٥٤ ـ ، أمّا كونهم أجساماً لطيفة، فلأنّه من المسلّم أنّهم لا يراهم أحد، ولذلك أنكر وجودهم المادّيون الذين ينكرون وجود ما لا يدرك بالحواسّ الظّاهرة، وقد ثبت أنّ الرّسول (ﷺ) رأى جبريل في صورته مرّتين، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ سورة النجم الآيات/ ٥-٩ ـ ، ثمّ قال تعالى: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ عند سدرة المنتهى﴾ سورة النجم الآيات/ ١٣-١٤.وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ سورة التكوير الآيات/ ١٩-٢٣ ـ ، فثبت بهذه الآيات أنّ الرّسول (ﷺ) رأى جبريل في صورته الأصلية مرّتين، فمرّة في ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى، كما في آية النّجم ﴿ذو مرّة فاستوى﴾ وهو بالأفق الأعلى﴾، ومرّة أخرى كما في آية التّكوير ﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾، وفي باقي الأوقات كان يراه في صورة الآدميين، وأمّا أنّهم يتشكّلون بأشكال الغير فدليله قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) ـ سورة مريم الآية/ ١٧-١٩. وقد ثبت أنّهم جاءوا إلى سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) في صورة أناس، فشوى

---

(١) هذا أحد الأقوال في تفسير هذه الآية، والقول المقبول هو أن المقصود هنا بالأمر الحكم وبالخلق إيجاد المخلوقات كلها، والملائكة ضمن المخلوق وإن كان بأمر كن، فالحاصل أن الله تعالى كما أن له الأمر التكويني فكذلك له الأمر التكليفي أيضا، لأنهما متلازمان، إذ لا يعقل أن يكون الله تعالى خالقاً ولايكون حاكماً. وأنا على علم بأن الشيخ المفسر كان يعتقد هذا المعنى في حياته وبدليل أنه فسر الأمر في هذه الآية في موقعها في الأعراف بالتكليف والتشريع فانظره، ولعله ذكر هذا المعنى هنا لمناسبته مقام الكلام هنا / أنظر هذا المعنى الذي ذكرناه في: تفسير البغوي ٢/ ٦٥، تفسير السعدي ٢/ ٢٩١،٥٠٢، تفسير السمرقندي ١/ ٥٣٧، روح المعاني ٨/ ١٣٨.

إبراهيم لهم عجلاً فلم يأكلوا، وقالوا: إنّا ملائكة لا نأكل! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ) ـ سورة هود الآية/ ٦٩-٧١ ـ وكان جبرائيل (عليه السلام) يأتي رسول الله (ﷺ) في صورة دحية الكلبي أكثر الأوقات، ودحية كان شاباً عربيّاً حسن الوجه والصّورة، أوكان يأتيه في صورة أخرى كما في حديث الإيمان والإسلام. وأمّا أنّ لهم قوّة يقومون بأعمال لا يطيقها البشر، فلما ثبت أنّ جبريل (عليه السلام) رفع قرية قوم لوط، ثمّ أسقطها على الأرض، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ سورة هود الآية/ ٨٢ ـ وأمّا أنّهم معصومون، فلأنّ الله تعالى قال: (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ سورة التحريم الآية/ ٦ ـ وقال ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٢٧ ـ ، وأمّا أنّهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فلأنّ الله تعالى لامَ الذين يصفون الملائكة بالأنوثة، فقال تعالى: ﴿أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾ سورة الصافات الآية/ ١٥٠، ـ وكلّ نوع لا تكون فيه الإناث لا يكون فيه الذكور أيضاً، فإذا لم يكن فيهم ذكور ولا إناث فلا يوجدون بالتّناسل والخلق، فثبت أنّهم يوجدون بأمر كن فيكون، فهم من عالم الأمر لا من عالم الخلق، هذا وقد حقّقنا حقيقة الجنّ في سورة الجنّ، وبهذا التّحقيق وذلك التّحقيق يتبيّن أنّ بين الملائكة والجنّ فرقاً شاسعاً في الحقيقة والعوارض والصّفات. والله تعالى أعلم.

* * *

يؤخذ من هذه القصّة الفوائد التّالية: **الأولى**: العلم بحكمة إيجاد آدم وذرّيّته وإسكانهم الأرض وهي أن يعمّر هذه الأرض ويبني ويخترع ويعمل ليظهر آثار قدرة الله تعالى المودعة في هذه الكوكبة الصّغيرة والتي تسمّى الأرض.

الثّانية: التّذكير بعداوة إبليس لبني آدم ليتحرّز منه في كلّ أمر، فلا يطيعه في شيء، لأنّه يأمر الإنسان بالشّرّ وما يضرّه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٦٩.

الثّالثة: العلم بكيفية الاحتراس من الشّيطان وعدم إطاعته، وذلك باتّباع منهج الله تعالى وشريعته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٨.

الرّابعة: أن يحترم الإنسان نفسه، ولا يدنّسها بالمعاصي، فإنّه خليفة اللّه تعالى في أرضه، وسجود الملائكة له إظهار لفضله.

الخامسة: عدم اليأس عند المعصية والحثّ على المبادرة بالتّوبة، فإنّها مجلبة للمغفرة، فإنّ أوّل انسان ابتلي بالخطيئة غفر اللّه له بالتّوبة، فلا تيأس أيّها الإنسان مهما كثرت خطاياك، بل تب إلى اللّه تنل العفو، فإن اللّه توّاب رحيم.

السّادسة: إنّ الفلاح كلّ الفلاح في اتّباع دين اللّه تعالى واتّباع منهجه وتطبيقه على النّفس وعلى من ترعاه، والخسارة كلّ الخسارة في إهمال شريعة اللّه تعالى والعمل بغير ما أنزل اللّه، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون) ـ سورة البقرة الآية/ ٣٨-٣٩ ـ فدين اللّه تعالى مسعد للأفراد والأمم في الدّنيا والآخرة.

السّابعة: إنّ القصّة معجزة من معجزات الرّسول (ﷺ)، فإنّ هذا الرّجل الأمّيّ الذي لم يدرس ولم يمارس مدّة عمره كتابةً ولا قراءةً ليخبر عمّا جرى في الملأ الأعلى، كما هو المقرّر في الكتب المنزّلة غير المحرّفة بعد بلوغه أربعين سنة، فإنّ هذا يدلّ على أنّ هذا العلم هو وحي من اللّه تعالى فيكون معجزة.

* * *

ثمّ بعد أن أمر اللّه تعالى النّاس كلّهم بالإيمان باللّه واتّباع ما جاء به محمّد (ﷺ) وأظهر البراهين والأدلّة على حقّيّة هذا المنهج، منهج الإسلام، وذكّرهم بما جرى على أبيهم الأوّل نتيجة مخالفته لأمر اللّه تعالى، وكانت المناقشة في المدينة مع بني إسرائيل الذين كانوا رؤساء اليهود وأحبارهم، وجّه اللّه تعالى إليهم الخطاب ودعاهم إلى اعتناق الإسلام، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

(يابني)، أصل (بني) (بنون)، فلمّا أضيف إلى إسرائيل صار (بنو)، لأنّ نون الجمع تسقط عند الإضافة، وإذا نودي يصير منصوباً، لأنّ المنادى المضاف ينصب ونصبه يكون بـ (الياء)، فصار (بَنيَّ)، و(إسرائيل) لقب سيدنا يعقوب (عليه السلام)، ويتكوّن من مقطعين، وهما(إيل) بمعنى **(اللّه)**، و(إسرا) إمّا بمعنى (العبد)، فيكون معناه (عبداللّه)، أو بمعنى (الصّفوة)، فيكون بمعنى (صفوة اللّه)، والخطاب لرؤساء اليهود

وأحبارهم، وهم كانوا أولاد يعقوب، فإنّ اليهود لا يقبلون رئيساً روحيّاً إلّا من بني إسرائيل، لأنّهم شعب اللّه المختار في عقيدتهم، فلا يمكن أن يترأّس عليهم غيرهم، وكان هذا أحد الأسباب في عدم إيمانهم بالرّسول (ﷺ)، لأنّه كان من أولاد إسماعيل لا من أولاد يعقوب، فالاعتزاز بالنّسب وجعله مدعاة للشّرف والكرامة وأساساً للتّقدير والافتخار به ديدنة يهودية، عاداها الإسلام بقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ سورة الحجرات الآية/ ١٣ ـ وقال الرّسول (ﷺ): (لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لأعجميّ على عربيّ ولا لأبيض على أسود ولا ... ولا... إلّا بالتّقوى)[١] وقال: (كلّكم من آدم وآدم من تراب)[٢]، فعلى هذا فكلّ مسلم تظاهر بالنّسب وافتخر به فقد اتّصف بصفة يهوديّة وانحرف عن الإسلام من هذه النّاحية. هذا وإنّ اللّه تعالى يخاطب اليهود كثيراً ويعظهم ويدعوهم إلى الحقّ بخصوصهم، أو في ضمن أهل الكتاب، فإذا قال تعالى: ﴿يا بني إسرائيل﴾، فالمراد بهم اليهود، وإذا قال يا أهل الكتاب، فالمراد بهم اليهود والنّصارى، والكتاب هو التّوراة والإنجيل، فالمراد هنا **(يا بني إسرائيل)** اليهود، وكان يسكن منهم في المدينه ثلاث قبائل: بنو قينقاع و بنو النّضير وبنو قريظة، فدعاهم اللّه تعالى إلى اعتناق الإسلام بقوله: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم) فاشكروها بإطاعتي وامتثال أمري، وتلك النّعمة هي أن جعل منهم أنبياء وملوكً، وأنقذهم من عذاب فرعون، وفجّر لهم في الحجر عيوناً، وأنزل عليهم المنّ والسّلوى، وغير ذلك من نعم اللّه تعالى، كما قال تعالى حكاية لقول موسى (عليه السلام): ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ

---

(١) الحديث هو ما رواه الإمام أحمد عن أبي نضرة:قال حدثني من سمع خطبة رسول الله (ﷺ) في وسط أيام التشريق فقال: يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى أبلغت؟ قالوا بلغ رسول الله (ﷺ).... / مسند الإمام أحمد ٥/ ٤١١ الحديث رقم ٢٣٥٣٦. قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح / مجمع الزوائد ٣/ ٢٦٦.

(٢) الحديث روي بألفاظ مختلفة ولم أجده بهذا اللفظ، ووجدته بأقرب لفظ إليه ضمن حديث طويل هو (كلكم لآدم وآدم من تراب) في مسند الربيع ١/ ١٧٠ الحديث رقم ٤١٩. أخرجه عن أبي عبيدة، وفي أخبار مكة للأزرقي ٢/ ١٢١.

فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٢٠ ـ ، أي في عصركم ﴿وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ نجّاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربّكم عظيم﴾ ـ سورة إبراهيم الآية/٦، فذكّرهم اللّه تعالى بهذه النّعم القديمة وبالنّعم الحاضرة، حيث كانوا أثرياء مترفين، ولهم مكانتهم في المدينة وفي غيرها من البلاد، ليتذكّروا هذه النّعم ويشكروا اللّه تعالى عليها بامتثال أمره واتّباع ما يدعوهم إليه، ثمّ ذكرالله تعالى ما يدعوهم إليه، فقال تعالى: **(وأوفوا بعهدي)** الذي عهدت إليكم وأخذت منكم الميثاق عليه، ولقد جاء وقت الإيفاء بذلك العهد فأوفوا به. ولقد وردت أقوال في تعيين ذلك العهد، ولكن حيث ذكر العهد مطلقاً ولم يعيّن يجب أن يحمل على كلّ العهود التي عهدت إليهم وإلى اتّباع اليهود سيّدنا موسى (عليه السلام) والمؤمنين بالتّوراة، وتلك العهود كلّها كانت في التّوراة، وذكرها اللّه تعالى في القرآن الكريم، فمنها ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وإذ أخذ اللّه ميثاق النبيّين لمّا آتيتكم من كتاب وحكمة ثمّ جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمننّ به ولتنصرنّه، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشّاهدين﴾ ـ سورة آل عمران الآية/ ٨١ ـ ، ومنها ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وإذ اخذ اللّه ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ ـ سورة آل عمران الآية/ ١٨٧ ـ ، ومنها ما ذكره تعالى بقوله: ﴿ولقد أخذ اللّه ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً، وقال الله إنّي معكم، لئن أقمتم الصّلاة وآتيتم الزّكاة وآمنتم برسلي وعزّرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لاكفّرنّ عنكم سيّئاتكم ولأدخلنّكم جنّات تجري من تحتها الأنهار، فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلّ سواء السّبيل﴾ ـ سورة المائدة الآية/ ٢١، فأمرهم الله تعالى بالوفاء بهذه العهود، ثمّ قال **(أوف بعهدي)**، أي إن توفوا أنتم بعهدكم أوف أنا **(بعهدي)** أيضاً، وعهده هو الذي ذكره تعالى بقوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ـ سورة المائدة الآية/ ٢١، وكان من عهده تعالى أيضاً أن يضع ويرفع عنهم ما كان عليهم من الآصار والأغلال التي فرضت عليهم بسبب ذنوبهم، قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٤٦ ـ وقال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) - سورة النّساء الآية/١٦، ثمّ إنّ بعضهم كانوا يخافون من فوات رئاستهم أو بعض مصالحهم في الدّنيا إن وفوا بالعهد وآمنوا بالإسلام، وبعضهم كانوا يخافون من رؤسائهم او أقاربهم وعشيرتهم، فقال تعالى: **(وإيّاي فارهبون)**، أي فخافوني أن أعذّبكم إن لم توفوا بعهدي ولا تخافوا غيري فإنّي أحفظكم ممّن تخافون منه وأعوّضكم ما تخافون ضياعه من المصالح.

ثمّ إنّ هذه الآيات التي ذكرناها والتّي ذكر فيها تلك العهود تدلّ على أن كلّ عهد من هذه العهود كان في ضمنه الإيمان بالرّسول (ﷺ)، وكان الإيمان به يفي بهذه العهود كلّها، فلذا صرّح تعالى بالأمر بذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

(وآمنوا بما أنزلت) على محمّد، وهو القرآن، وإنّه نزّل **(مصدقاً لما معكم)**، وهو التّوراة، فإنّ القرآن يصدّق التّوراة التّي لم تحرّف في أمور، فيصدّقها في العقيدة والتّوحيد، ويصدّقها في أحكام كثيرة، ويصدّقها فيما أخبرت به من مجئ الرّسول (ﷺ) ونزول القرآن له وذكر علاماته وأوصافه الشّريفة. **(ولا تكونوا أوّل)** فريق **(كافر به)** بالقرآن من أهل الكتاب في المدينة، كما كان أوّل فريق كفر به في مكّة المشركون، أي فلا تسبقوا إلى الكفر به وأنتم أهل علم بالكتاب وتعلمون حقّيّة هذا القرآن، والنّهي عن سبقتهم في الكفر لا يفيد جواز كفرهم بعد؛ لأنّ المعنى: بل كونوا أوّل مؤمن به، لأنّه يوجد عندكم العلم بأنّه من اللّه تعالى، حيث كانت آيات كثيرة توجد في التّوراة تصرّح بمجئ الرّسول (ﷺ) ونزول القرآن عليه بأوصافه، بحيث لا تدع مجالاً للشّكّ فيه، ولكنّهم حرّفوا هذه الآيات، أو أوّلوها مخافة أن يؤمن النّاس وتضيع مصالحهم ورئاستهم، فلذلك قال تعالى: **(ولا تشتروا بآياتي)**، أي ولا تأخذوا بدل اتّباع آياتي الموجودة في التّوراة والتّي تأمركم بالإيمان بما جاء به محمّد، أو المعنى ولا تأخذوا بتبديل تلك الآيات في التّوراة وتحريفها **(ثمناً قليلاً)** وهي المصالح التّي كانوا يستفيدونها من رئاستهم الدّينية، فكانوا يبدّلونها خوفاً من إيمان النّاس وإبقاءً لرئاستهم عليهم، وقال: **(ثمناً قليلاً)**، لأنّ منافع الدّنيا مهما كثرت فإنّها قليلة في الحقيقة والواقع لزوالها بالموت. أو فنائها بالمصائب والفوت، فلا تفيد الآية جواز شراء الثّمن الكثير بالآيات، **(وإيّاي فاتّقون)**، أي فاتّقوني، والمعنى: اتّقوا عذابي على عدم إيمانكم وتبديل

الآيات وتحريفها، وأصل (فارهبون) و(فاتقون) (فارهبوني) و(اتّقوني) حذفت الباء منهما لرعاية الفاصلة.

* * *

مسألة: استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أنّ تعليم القرآن أو الإمامة بالأجرة غير جائز، لأنّ ذلك يعتبر شراء المنفعة بآيات اللّه تعالى، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ٤١ ـ إلّا أنّ الاستدلال بهذه الآية لا يصحّ، لأنّ مورد الآية هو أنّ أحبار اليهود كانوا يحرّفون آيات اللّه تعالى في التّوراة، أو يخالفونها، فلا يمتثلون ما فيها من الإيمان بالرّسول (ﷺ) حفظاً على مصالحهم، والفرق بين ما كانوا يفعلون وأخذ الأجرة على التّعليم أو الإمامة واضح، فلا يقاس هذا بذلك، وقد أجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن الإمام مالك والشّافعي وأحمد وأبو ثور وأكثر العلماء محتجّين بحديث ابن عباس (رضي الله عنهما) في حديث الرّقية، حيث قال (ﷺ) (إنّ أحقّ ما أخذتم عليه أجراً كتاب اللّه)[1]. ولكن منع ذلك الزّهري والأحناف محتجّين بأحاديث، قال القرطبي: لا يصلح شيء منها، وكذلك أخذ الأجرة على الإمامة جوّزه مالك والشّافعي وأبو ثور، ومنعه الأوزاعي وأبو حنيفة وأصحابه. هذا.

* * *

وكان هؤلاء الأحبار يحرّفون أوصاف الرّسول (ﷺ) من التّوراة، ويكتبون مكانها غير ذلك، فقال تعالى:

﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(**ولا تلبسوا**)، أي ولا تخلطوا (**الحقّ**)، وهو ما نزل في التّوراة (**بالباطل**)، وهو ما تكتمونه أنتم فيها بدله يابني إسرائيل، (**وتكتموا الحقّ**) الذي في التّوارة من أوصاف الرّسول (ﷺ)، أو غير ذلك من الأحكام أو الأخبار، فإنّهم كتموا وحرّفوا كثيراً من ذلك (**وأنتم تعلمون**)، إنّ هذا تلبيس، أو المعنى: وأنتم أهل العلم فلا يليق بكم هذه الخيانة في العلم والحقيقة والواقع والدّين.

ثمّ بعد أن أمر اللّه تعالى بني إسرائيل بالإيمان وترك الإلباس وعدم كتم الحقّ

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢١٦٦ الحديث رقم ٥٤٠٥.

أمرهم بأداء شعائر الإسلام بعد ذلك، إشارة إلى أنّ الإيمان وحده لا يكفي ما لم يقترن بأداء الأعمال والعمل بما آمن به، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(وأقيموا الصّلاة) التّي يقيمها المسلمون **(وآتوا الزكاة)** مثل ما يؤتيها المسلمون إلى من خصّص الله تعالى إيتاءها إليهم، **(واركعوا)** أي وصلّوا، ذكر الرّكوع بدل الصّلاة تسمية للكلّ باسم الجزء؛ لأنّ اليهود كانوا لا يركعون في الصّلاة، فكأنّه قال تعالى: وصلّوا بركوع **(مع الرّاكعين)** من المسلمين. وقال جماعة من العلماء: إنّ هذا أمر بصلاة الجماعة، فقال بعضهم: إنّ صلاة الجماعة فرض عين، وقال بعضهم: فرض كفاية، وقال بعضهم: إنّها سنّة مؤكّدة، وهذا قول الجمهور، وهو الأصحّ.

﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(أتامرون النّاس بالبرّ) بالخير واتّباع التّوراة **(وتنسون أنفسكم)** فلا تعملون البرّ بأن توفوا بعهدي وتؤمنوا بمحمّد، ولا تتّبعون التّوراة أيضاً فيما تأمركم به من الإيمان به، **(وأنتم تتلون الكتاب)** وتجدون فيه هذا الأمر وهذا العهد، **(أفلا تعقلون)**، أي أفلا تمنعون أنفسكم من هذا العمل القبيح، وهو الوعظ دون الاتّعاظ وكتم الحقّ مع العلم به، والاستفهامان كلاهما للتّقريع والزّجر. قال القرطبي: روى حمّاد بن سلمة عن علي بن زيد عن أنس (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): ليلة أسري بي مررت على ناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: (هؤلاء الخطباء من أهل الدّنيا يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)[١]. وروى أبو إمامة، قال: قال رسول الله (ﷺ): (إنّ الذين يأمرون النّاس بالبرّ وينسون أنفسهم يجرّون قصبهم (أي أمعاءهم) في نار جهنّم، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن الذين كنّا نأمر النّاس بالخير وننسى أنفسنا)، قال القرطبي: إنّ هذا الحديث وإن كان فيه ضعف إلّا أنّه يتقوّى بما في صحيح مسلم بمعناه عن أسامة بن زيد، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (يؤتى بالرّجل يوم القيامة فيلقى في النّار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها، كما يدور الحمار بالرّحى، فيجتمع إليه أهل النّار، فيقولون يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟

(١) صحيح ابن حبان ١/ ٢٤٩ الحديثرقم٥٣.قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح / مجمع الزوائد ٧/ ٢٧٦.

فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه)[١].

ثمّ حيث إنّ هذه الأوامر كانت صعبةً جدّاً على نفوس بني إسرائيل الجموحة وقلوبهم الوسخة، لذلك ذكر اللّه تعالى لهم دواءً يعالجون به مرض نفوسهم ووساخة قلوبهم، ليسهل عليهم امتثال هذه الأوامر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(واستعينوا) على امتثال الأوامر وأداء الطّاعات وعلى تحمّل المكاره والمشقّات **(بالصّبر)**، بترويض النّفس على تحمّل ما تكره ويشقّ عليها، **(والصّلاة)** فإنّها تروّض النّفس وتنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولذلك كان الرّسول (ﷺ) (إذا حزنه أمر فزع إلى الصّلاة)[٢]، وإنّها، أي الصّلاة **(لكبيرة)** لشاقّةٌ جدّاً **(إلّا على الخاشعين)** ، وقد فسّر تعالى الخاشعين بقوله جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(الَّذينَ يَظُنُّونَ)، أي يؤمنون ويوقنون **(أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ)** يوم القيامة **(وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ)** إلى الله **(راجعون)** للحشر والحساب. وفي هذا تعريض بأنّ بني إسرائيل ما كانوا يؤمنون بالحشر والحساب، وإلّا فكيف يبدّلون كلام الله تعالى ويحرّفون كتابه. وهذا الخطاب وإن كان مع بني إسرائيل إلّا أنّ معناه عامّ، فيجب على كلّ مسلم أن يستعين على الحقّ وإطاعة الله تعالى وتحمّل المشاقّ وعدم الجزع عند البلاء بالصّبر والصّلاة.

ثمّ بعد أن أمر اللّه تعالى بني إسرائيل أن يذكروا نعمته فيشكروه بالإيمان واتّباع ما أنزل وفاء بالعهد وأملاً في وفاء الله تعالى بوعده، أمرهم تعالى بتذكّر النّعم والشّكر عليها خوفاً من يوم القيامة أيضاً، فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩٠ الحديث رقم ٢٩٨٩.

(٢) في سنن أبي داود عن حذيفة ورد بلفظ (كان النبي إذا حزبه أمر صلى) / سنن أبي داود٢/ ٣٥ الحديث رقم ١٣١٩. ولكن بعض العلماء حكوه في معرض الإستشهاد بلفظ (إذا حزبه فزع إلى الصلاة) ونسبوا روايته إلى أبي داود / أنظر تخريج الأحاديث والآثار في تفسير الكشاف للزيلعي ١/ ٦٠، ومرقاة المفاتيح لعلي القاري ٤/ ١٦، شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٣٦٢.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم)، فاشكروها واتّبعوا ما أنزل الله مصدّقاً لما معكم **(و)** اذكروا **(أنّي فضّلتكم على العالمين)**، أي فضّلت آباءكم **(على العالمين)** الموجودين في زمانهم كلّهم؛ وذلك بسبب إطاعتهم لأمر الله تعالى وتنفيذهم ما يأمرهم به، فنفّذوا أنتم ما تؤمرون به ليبقى لكم الفضل ويكون لكم أجران: أجر الإيمان بموسى(عليه السلام) والعمل بالتّوراة، وأجر الإيمان بمحمّد والعمل بالقرآن، وإلّا فلا يبقى لكم أيّ فضل لا في الدّنيا ولا في الدّين.

(واتّقوا) العذاب **(يوماً)**، هو يوم القيامه **(لا تجزي)**، أي لا تستطيع **(نفس)** أن تجزي **(عن نفس)** أخرى، **(ولا يقبل منها شفاعة)** لأحد، **(ولا يؤخذ منها عدل)** فدية وكفّارة عن المعاصي **(ولا هم)** الموجودون في ذلك اليوم **(ينصرون)** من قبل أحد فلا يستطيع أحد أن يدافع عنهم، فإن قيل إن هذه الآية تنفي وجود الشّفاعة وتوجد آيات وأحاديث تثبتها. فيقال: إن المراد بقوله: (عن نفس) النّفس الكافرة فتنفى الشّفاعة للكافر فقط، وهذا متّفق عليه. أو المراد بذلك اليوم مرحلة من مراحل الآخرة، فإن الشّفاعة لا تنفع إلّا بعد الحساب وحينما يساق أهل الجنّة إلى الجنّة وأهل النّار إليها.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر بعض النّعم التي أنعم بها على بني إسرائيل بخصوصها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٤٩﴾﴾

(وإذ)، أي واذكروا يا بني إسرائيل **(إذ نجّيناكم من آل)** أتباع ومرتزقة **(فرعون)، هو لقب ملوك مصر، فإنّه كان يلقب ملك الفرس ب ـ (كسرى) والرّوم ب ـ (قيصر) والحبشة ب ـ (النّجاشي) ومصر ب ـ (فرعون)، وكان اسم فرعون (الوليد بن مصعب بن الرّيان). وكان آل فرعون (يسومونكم)** يذيقونكم **(سوء العذاب)**، العذاب السّيء. ثمّ بيّن تعالى نوعيّة العذاب، فقال تعالى: **(يذبّحون أبناءكم)**، أي يقتلونهم ذبحاً، **(ويستحيون نساءكم)**، ويتركون

نساءكم، فلا يقتلونهنّ، **(وفي ذلكم)** الإنجاء من فرعون **(بلاء)، أي نعمة**[١] **(من ربّكم عظيم)**، على ذلك البلاء وتلك النعمة جدّاً اشكروا الله تعالى بإطاعته والوفاء بعهده والإيمان برسوله.

* * *

فائدتان: الأولى: ذكروا في سبب قتل فرعون لأبناء بني إسرائيل قولين: **الأوّل**: إنّ فرعون رأى رؤيا فعرضها على الكهنة، فقالوا: سيولد من بني إسرائيل ولد يكون على يده هلاكك وزوال ملكك وسلطانك. فجعل فرعون على كلّ امرأة حامل رقيباً، فإذا ولدت ذكراً قتله، وإن ولدت أنثى تركها.

الثانية: إنّه كان منافسة عنصرية بين بني إسرائيل والقبط، وكان بنو إسرائيل يتناسلون بكثرة؛ فخاف فرعون أن يزيد عددهم فيستولوا على مصر، ويأخذوا من القبط السّيادة والسّلطان، ويؤيّد هذا القول ما روي أنّه وقع الموت في مشيخة بني إسرائيل فدخل رؤساء القبط على فرعون، وقالوا: إنّ الموت قد وقع بين بني إسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم فيوشك أن يقع العمل علينا[٢]؛ فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة. فإنّه، لو كان كما في القول الأوّل لما ترك ذبحهم سنة، فإنّه ربّما يولد من يهلكه في تلك السّنة.

الثّانية: إنّ (الآل) أصله (أول)، من (آل يؤول) إذا رجع، ولا يضاف إلّا إلى أصحاب الخطر والشّرف والمكانة في الدّنيا، مثل (آل فرعون)، أو في الدّنيا وفي الدّين، وآل الشّخص أتباعه، فآل الرّسول أمّته وأتباعه جميعاً، سواءً كان نسيباً أو قريباً له، ومن لم يتبعه فليس من آله وإن كان نسيبه أو قريبه، فقول المصلّي: اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد، معناه: وأتباع محمّد، وليس المراد جماعة مخصوصة أو طائفة خاصّة.

---

(١) أي وفي إنجائكم نعمة عظيمة، أو في عذابكم من قبل فرعون محنة كبيرة، وأصل البلاء الإختبار والإمتحان ثم يستعمل في الخير والشر،لأن الإبتلاء والإمتحان قد يكون بالخير كما قد يكون بالشر؛ قال تعالى في الأعراف: (وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (١٦٨) كما قال تعالى في الأنبياء: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) (٣٥)./ أنظر تفسير الطبري ١/ ٢٧٥. وتفسير البيضاوي ٣/ ٥٦.

(٢) أي يوشك أن ينتهوا فلا يبقى أحد يقوم لنا بالأعمال التي سخر بها بنو إسرائيل من الخدمة والزراعة والصناعة، وقيل الأعمال الوضيعة كلفوا بها تعذيباً لهم وإهانة، أي يوشك أن ينتهوا فتبقى تلك الأعمال علينا نحن الأقباط أن نقوم بها. لذلك أمر أن يتركوا سنة كي تبقى له بعض الأيدي العاملة منهم.

وسيأتي تحقيق هذا الموضوع في سورة الأحزاب عند قوله تعالى: ﴿إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبيّ﴾ إن شاء الله.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة إنجائهم من آل فرعون، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(وإذ فرّقنا)، أي واذكروا إذ شققنا **(بكم)**، بدخولكم البحر، فأصبح البحر فرقتين، **(فأنجيناكم)** في شقّ البحر وبين الفرقتين، **(وأغرقنا آل فرعون)**، حيث دخلوا البحر وراءكم فانطبقت الفرقتان من البحر عليهم، فأغرقناهم كذلك، **(وأنتم تنظرون)** إليهم كيف يغرقون، والخطاب للجيل الحاضر، والمراد بهم أسلافهم فإنّ إنجاء الأسلاف إنجاء لهم، وقال: **(وأنتم تنظرون)**، لأنّه لا لذّة ألذّ من أن يرى المرء هلاك عدوّه بعينه. اللّهم أرنا ذلك[١] برحمتك يا ارحم الراحمين.

قصّة إنجاء الله بني إسرائيل وإغراقه فرعون: ذكر القرطبي عن الطّبري: أنّ موسى أوحي إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل؛ فأمرهم موسى أن يستعيروا الحلي والمتاع من القبط، وأحلّ الله تعالى ذلك لبني إسرائيل، فأسرى بهم موسى من أوّل اللّيل، فعلم فرعون بذلك، فقال: لا يتبعهم أحد حتّى يصيح الدّيك، فلم تصح ديكة في مصر تلك الليلة، وأمات الله تعالى تلك الليلة من القبط كثيراً، فاشتغلوا بدفنهم فتأخّروا، ثمّ خرجوا يتبعون موسى ومن ومعه، فانطلق موسى إلى البحر، وكان معه ما يزيد على ستمائة ألف، وكان مع فرعون ألف ألف، فقال موسى للبحر: افرق، فقال له البحر: لقد استكبرت يا موسى وهل فرقت لأحد من ولد آدم فأفرق لك، وكان مع موسى رجل على حصان له، فقال: أين أمرت يا نبيّ الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، فاقحم الرّجل فرسه في البحر فسبح فخرج، ثمّ قال: أين أمرت يا نبيّ الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، قال: والله ما كذبت ولا كذبت، ثمّ اقتحم الثّانية فسبح فيه ثمّ خرج، ثم قال: أين أمرت يا نبيّ الله؟ قال: ما أمرت إلا بهذا الوجه، فدخل فيه فسبح ثمّ خرج،

---

(١) يقصد به إهلاك أعداء الإسلام من غير المسلمين ومن المسلمين الذين تولوهم وينفذون أوامرهم في معاداة الإسلام والمسلمين.

وقال: والله ما كذبت ولا كذبت. ثمّ أوحى الله تعالى إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فصار كلّ فرق (كالطّود العظيم)، أي كالجبل العظيم، فخرج موسى وأتباعه بين الفرقين. ثمّ دخل فرعون وجنوده في طريقهم، فانطبق عليهم البحر، فأغرقهم، وسيأتي زيادة تفصيل في السّور الأخرى إن شاءالله تعالى.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى ان يذكّرهم بنعمة أخرى، وهي عفوه عنهم بعد ما صدر عنهم ذنب كبير جدّاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(وإذ واعدنا موسى)، وفي قراءة (وإذ وعدنا)، أي واذكروا **(إذ)** طلبتم من موسى أن يأتيكم بكتاب مبين، فيه الحلال والحرام والواجب والمباح، وفيه بيان الأحكام والأخلاق والعبادات، ليكون دستوراً لكم، فتعملوا به، فبعد طلبكم هذا **(واعدنا موسى)**، أي أمرنا موسى أن يأتي إلى الطّور، ويبقى هناك ويتعبّد مدّة، وكانت المدّة **(أربعين ليلة)** من أوّل ذي القعدة إلى يوم الأضحى المبارك، فجاء موسى إلى الطّور، **(ثمّ)** بعد أن جاء موسى إلى الطّور **(اتخذتم العجل)** إلهاً فعبدتموه، **(وأنتم ظالمون)**، متجاوزون لحدود الله باتّخاذ العجل وعبادته، **(ثمّ عفونا عنكم)**، عن هذا الذّنب العظيم، **(من بعد ذلك)** حين رجوع موسى وتوبتكم، وإنّما قبّلنا توبتكم **(لعلّكم)**، لكي **(تشكرون)** الله تعالى على هذا العفو وتستقيموا بعد ذلك، فلا تنحرفوا عن منهج الله تعالى.

ثمّ آتاكم الله تعالى الكتاب الّذي طلبتموه، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(وإذ آتينا موسى الكتاب) الذي أردتم، وهو التّوراة، **(والفرقان)** هو لقب التّوراة، لأنّها كانت تفرّق بين الحقّ والباطل والخير الشّرّ[1] وآتيناكم الكتاب هذا **(لعلّكم)** لكي

---

(١) وهولقب للقرآن أيضا كما في سورة الفرقان لأنهما من معين واحد ويؤديان رسالة واحدة هي رسالة الإسلام، إذ أن رسالة جميع الأنبياء كان إسلاماً لا غيره / أنظر كتابنا (دين الله واحد غير متعدد).

(تهتدون) تسترشدوا وتعملوا به. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة قبوله التّوبة منهم بعد عبادتهم العجل، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾

(وإذ)، أي واذكروا حين **(قال موسى لقومه يا قوم)** ـ أصل(يا قوم) (يا قومي)، حذفت ياء الإضافة للتّخفيف بدلالة الكسرة عليها ـ **(إنّكم ظلمتم أنفسكم)** حين عرضتموها على الكفر **(باتّخاذكم العجل)** إلهاً وعبادته، **(فتوبوا إلى بارئكم)**، أي خالقكم، ولا يقبل توبتكم إلّا بالجهاد فجاهدوا، **(فاقتلوا أنفسكم)**، أي فليقتل بعضكم الذي لم يعبد العجل البعض الذي عبده، إلى أن يتوبوا أو يموتوا بالقتل، ذلكم القتال والجهاد **(خير لكم)** من سكوتكم عن الكافرين، فامتثلتم الأمر وقاتلتم، **(فتاب)** الله عليكم **(إنّه هو التوّاب الرحيم)** يقبل توبة عباده برحمته، ومن هذه الآية ظهر أنّ قتل المرتدّ واجب، وأنّ جهاد الكافرين وقتالهم فريضة وشريعة قديمة من شرائع السّماء، ولولا الجهاد لفسدت الأرض، فيجب على الأمّة قتل المرتدّين وتأديب الفاسقين، وإلّا فينتشر الفسق ويستولي الفسقة على الأمور، فيهون أمر الدّين، قال رسول الله (ﷺ): (لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم)[١]، وما هان الإسلام وضعف أمره إلّا بالمسامحة وإهمال الحدود الشّرعية والتّعازير الإسلامية وعدم الالتزام التامّ بأحكام الله تعالى وتطبيق الإسلام، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ثمّ بعد ما تابوا وقبل الله توبتهم أساءوا سيّئة أخرى، فعاقبهم الله تعالى، ثمّ غفر لهم، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ

---

(١) في المعجم الأوسط للطبراني ٢/ ٩٩ الحديث رقم ١٣٧٩ بهذا اللفظ، وكذلك في مسند البزار ١/ ٢٩٣ الحديث رقم ١٨٨، ضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٢٦٦ وروي بألفاظ أخرى قال الترمذي عنه هذا حديث حسن / سنن الترمذي ٤/ ٤٦٨.

تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

فقالت طائفة في معنى هذه الآية أنّه بعدما تاب الله تعالى عليهم، وكان موسى(عليه السلام) قد جاءهم بالكتاب، فقال لهم موسى(عليه السلام): هذا كتاب الله تعالى فيه حكمكم وحرامكم وحلالكم، فقالوا: **(لن نؤمن لك)** بأنّ هذا الكتاب من الله تعالى **(حتّى نرى الله جهرة)** علانية، فيقول هذا كتابي، **(فأخذتكم الصّاعقة)** التي نزلت من السّماء وأماتتكم **(وأنتم تنظرون)**، فترون الصّاعقة تنزل عليكم. ثمّ بعدما دعا موسى كثيراً وتضرّع إلى الله تعالى **(بعثناكم)**، أحييناكم من موتكم هذا، أو من ما أغشى عليكم، فأصبحتم كالموتى. **(لعلّكم)**، لكي **(تشكرون)** الله تعالى على إحيائكم هذا، فتتّبعوا كتابه ولا تنحرفوا عنه. وقالت طائفة أنّه بعد ما تاب الله تعالى عليهم اختار موسى سبعين رجلاً منهم، فذهب بهم إلى الطّور للتّضرّع إلى الله تعالى والاعتذار عن اتّخاذ العجل، فهناك قالوا: يا موسى نحبّ أن نسمع كلام الله تعالى، فدعا موسى ذلك من الله تعالى، فسمعوا كلامه يتكلّم مع موسى، ويقول: افعل لا تفعل أو... أو إلخ، فقالوا: من يقول هذا كلام اللّه يتكلّم به معك؟ وليس كلام أحد غيره؟ فلن نؤمن لك أنّه كلام اللّه حتى نرى اللّه جهرة يتكلّم معك، فأخذتهم الصّاعقة، إلى آخر الآيتين. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّرهم بما أنعم عليهم من النّعم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

(و) أي واذكروا حينما كنتم في الصّحراء الحارّ، **(ظلّلنا)**، جعلنا **(عليكم)** يظلّكم **(الغمام)**، يسير بسيركم ويقف حين وقوفكم ليحفظكم من هذا الحرّ الشّديد، **(وأنزلنا)** من السّماء عليكم **(المنّ)**، وهو شيء حلو لذيذ ينزل على الأشجار، فيجمعه النّاس ويأكلونه، **(والسّلوى)**، وهو نوع من الطّير، وبذلك تمّ تأمين أكلهم دون تعب وزراعة وفلاحة ودوس وحصاد، فقلنا لهم: **(كلوا من طيّبات ما رزقناكم)**، إلّا إنّهم بعد إسداء هذه النّعم الجليلة عليهم عصوا ربّهم وبغوا وخرجوا عن الطّاعة، **(وما ظلمناهم)** حينما عاقبناهم على معاصيهم، **(ولكن كانوا)** هم **(أنفسهم)** لا غيرهم **(يظلمون)**، فيجعلونها مستحقّة للعذاب والعقاب، ويعرضونها للعذاب نتيجة ما يعملون من السّوء والمعاصي والفساد. ثمّ إنّ الحكمة من الأمر بخروج بني إسرائيل من مصر ـ مدينة فرعون ـ كانت لكي يذهبوا إلى

البيت المقدس ومدينته، فيجاهدوا العمالقة ويطردوهم منها، حيث عاثوا فيها الفساد والكفر والالحاد، إلّا أنّ بني إسرائيل بعدما نجوا من فرعون وأمروا بالذهاب إلى فلسطين-مدينة آبائهم وأجدادهم-أبوا وامتنعوا من ذلك جبناً وخوفاً من الحرب والجهاد، فوقعوا في التّيه في الصّحراء، ولم يهتدوا إلى أي مكان، فكلّما انطلقوا وذهبوا إلى جهة يرون أنفسهم بعد مدّة أنّهم راجعون إلى مكانهم، فبقوا مدّة أربعين سنة في التّيه.

ثمّ بعد ذلك تقوّوا وعزموا على الجهاد وانطلقوا إلى مدينة القدس، ففتحوها، إلّا أنّهم دخلوها على صورة غير ما أمر الله تعالى بهم، فذكّرهم الله تعالى بالمخالفتين في آية واحدة، وإن كان بينهما أمد بعيد، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(وإذ قلنا) لكم يا بني إسرائيل بعد عبوركم البحر اذهبوا **(وادخلوا هذه القرية)** ـ مدينة القدس ـ فافتحوها، **(وكلوا منها)**، أي من ثمارها وحبوبها، **(حيث)** كيف شئتم، أو أين شئتم، **(رغداً)** أكلاً واسعاً دون منع، **(وادخلوا الباب)**، أي باب المدينة حينما فتحتموها **(سجّداً)**، متواضعين غير متكبّرين، راحمين أهلها ومشفقين بهم؛ فإنّ الغرض من الفتوحات الدّينيّة هو تحرير المستضعفين من ظلم الطّغاة والمستعبدين للشّعب والمستغلّين لهم؛ ولذلك حينما فتح المسلمون مكّة المكرّمة دخلها رسول اللّه (ﷺ) واضعاً رأسه تواضعاً لله تعالى حينما رأى ما أمره به من فتح مكّة، حتى ان عثنونه[١] ليكاد يمسّ واسطة الرّحل، وبعد أن استقرّ فيها جمع النّاس، وقال لهم: ماذا ترون أنّي فاعل بكم؟ قالوا: أخ كريم وإبن أخ كريم، قال: فاذهبوا فأنتم الطّلقاء.

(وقولوا حطّة)، أي حطّة عن الذّنوب والخطايا، نريدها من اللّه تعالى من هذا الجهاد وهذا الفتح، أي فليكن قصدكم من فتح البلاد إرضاء اللّه تعالى، لا الاستيلاء على النّاس

(١) أي لحيته الشريفة من ناحية الذقن / ترتيب القاموس المحيط مادة عثن ١٥٦/٣.

واستعبادهم، بل تحريرهم امتثالا لأمر اللّه تعالى بالجهاد، لذلك فإن دخلتم هكذا وفتحتم البلاد كما أمر اللّه تعالى رحمة بالضّعفاء وتحريراً للمظلومين من استعباد الطّغاة الظّالمين، **(نغفر لكم)** بسبب هذا الجهاد بهذه النّيّة **(خطاياكم)** التي سبقت، وهو السّكوت عن الظّلم وعدم إنقاذ الضّعفاء، **(وسنزيد المحسنين)** زيادة على العفو بالإفضال عليهم بنعيم الجنّة وجنّة النّعيم، والمراد بالمحسنين المجاهدون كلّهم، إلّا أنّه ذكّرهم بهذا الاسم إشارةً إلي أنّ هذا الإفضال يزاد لهم بسبب الإحسان إلي النّاس وتحريرهم المظلومين من الطّغاة والمستعبدين لهم، ولكنّكم يا بني إسرائيل ما امتثلتم هذا الأمر، وقلتم: ﴿إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن ندخلها حتّى يخرجوا منها﴾ سورة المائدة الآية/ ٢٢ ـ . ثمّ بعد أن قوى اللّه تعالى عزائمكم وخفّف عنكم الجبن والخوف الذين تعودتموهما في مصر، والآن ذهبتم لفتح مدينة القدس فيسّر اللّه تعالى عليكم فتحها، لم تكونوا تدخلوها كما أمر اللّه تعالى، بل بخلاف ما أمر به تعالى: **(فَبَدل الَّذينَ ظلموا قَولا غَيْرَ الَّذي قيلَ لَهمْ)** وهو طلب المغفرة من اللّه تعالى وإخلاص النّيّة من الجهاد، وهو التّواضع، فاستكبروا ودخلوا المدينة رافعين رؤوسهم تكبّراً واستعلاءً. وكان نيّتكم الاستيلاء ومنافع الدّنيا، فقلتم بدل **(حطّة)** حنطة، أي نريد من هذا الفتح منافع الدّنيا والاستيلاء على النّاس، **(فأنْزَلْنا عَلى الّذينَ ظَلَمُوا)** بمخالفة أمر اللّه تعالى ودخول البلدة متكبّرين وإهانة النّاس السّاكنين فيها وإيذائهم بالظّلم والاستعباد، أنْزَلْنا عَلَيْهِم **(رِجْزاً)** عذاباً **(مِنَ السّماءِ)**، أي من اللّه تعالى، فإنّ حكمه يجري من السّماء فابتلّوا بالطّاعون والأمراض **(بما كانوا)**، (ما) مصدرية، يبدّل ما بعده مصدراً، فالتّقدير بكونهم **(يفسقون)** يخرجون عن حدود اللّه تعالى بالاستعلاء على النّاس وظلمهم في الأنفس أو الأموال أو الأعراض.

ثمّ أراد اللّه تعالى أن يذكّر بني إسرائيل بنعمة أخرى كبيرة، ولكنّهم لم يعتبروا بها، ولم يشكروها. فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(وإذ استسقى موسى لقومه)، حينما كانوا في هذه الصّحراء الحارّة التي لا ماء فيها، **(فقلنا)** لموسى **(اضرب بعصاك)** التي في يدك، والتّي تظهر بها المعجزات،

فاضرب بها **(الحجر)**، هذا الحجر المعيّن، فضربها، **(فانفجرت)** فسالت **(منه)**، **من الحجر** **(اثنتا عشرة عيناً)** بعدد الأسباط، **(قد علم)** اطلع **(كلّ أناس)**، كلّ سبط من الأسباط **(مشربهم)**، عينهم التي تختصّ بهم، أي قسّمت العيون بينهم بأمر اللّه تعالى، وقيل لهم: **(كلوا)** من المنّ والسّلوى، **(واشربوا)** من هذه العيون، وهذه كلّها **(من رزق اللّه)**، لا دخل لكم في تحصيله، **(ولا تعثوا)**، ولا تفسدوا **(في الأرض)** هذه، **(مفسدين)**، أي تعمّداً وقصداً، فإنّ السّهو والنّسيان والإكراه لا يؤاخذ العبد عليها.

ثمّ بعد أن بقوا مدّة في الصّحراء وهم يأكلون المنّ والسّلوى، سئموا من هذا الطّعام، فطلبوا من موسى (ﷺ) أن يدعو ربّه أن يطعمهم اللّه تعالى أنواعاً أخرى، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

(وإذ)، أي واذكروا، **(قلتم يا موسى)** وأنتم في الصّحراء: **(لن نصبر على طعام واحد)**، وهو المنّ والسّلوى، **(فادع لنا ربّك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من بقلها)**، **أي من الخضروات** **(وقثّائها وفومها)**، وهو (الثّوم)، وعند البعض هو (الحنطة)، ولا يبعد أن يراد منه كلاهما، حيث لا تنافي بينهما، بل كلاهما محبّبان، **(وعدسها وبصلها)**، وهما معروفان، **(قال)** لهم موسى (ﷺ) **(أتستبدلون)**، أتطلبون **(الذي هو أدنى)** أحقر، وهو البقل و الثّوم والقثّاء والعدس والبصل، أتطلبون هذا الطّعام الأدنى **(بالذي)** بدل الذي **(هو خير)** منه، وهو المنّ والسّلوى، كان المنّ والسّلوى خيراً ممّا طلبوه، لأنّه كان يأتيهم بدون تعب، وما طلبوه لا يحصل بدون تعب من الزّرع والحصاد، ولأنّه كان حلالاً لا شبهة فيه، حيث لم يكن فيه دخل من عمل العباد، أو لأنّ الدّوام على الطّعام الواحد أحفظ للصّحّة من الأطعمة المتنوّعة المختلفة في الطّعم والهضم والفائدة، **(اهبطوا مصراً)**، أي إن تريدوا هذه الأطعمة فجاهدوا وحرّروا بلدة من بلاد الظّلمة و الكفّار وادخلوها، **(إنّ لكم)** فيها **(ما سألتم)** من الأطعمة. فكان بنو إسرائيل يريدون أن

يعيشوا على المعجزات، وأن يحصل لهم كلّ شئ بدون كسب وتعب، حتى إنّهم كانوا يريدون أن يدخلوا مدينة القدس بالمعجزة، لا بالقتال، فقالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ سورة المائدة الآية/ ٢٤ ـ ، وكان اللّه تعالى ورسوله يريد منهم العمل والجهاد والحركة والسّعي، فإنّ الإنسان جاء الى هذه الأرض ليعمل ويعمّر، وإنّ الدّنيا دار كسب وعمل ومشقّة وتعب، لا دار راحة وكسل، فلا أمّة تترقّى ما لم تعمل، ولا إنسان يعيش بدون كسب، وهذه سرّ الحياة وحكمة اللّه تعالى فيها؛ فلذا أجابهم موسى بقوله: (**ادخلوا مصراً**)، أي اعملوا وكافحوا وناضلوا لتنالوا ما طلبتم. ثمّ بعد مدّة فتحوا مدينة القدس، ولكنّهم لم يراعوا حدود اللّه تعالى فيها، بل فسدوا وعصوا ربّهم، وخالفوا، فأذلّهم اللّه تعالى، كما قال جلّ وعلا: (**وضربت عليهم الذّلّة**)، كما تضرب الخيمة على النّاس، فالمعنى أحاطت بهم الذّلّة (**والمسكنة**) والضّعف، (**وباءوا**) وابتلوا (**بغضب من اللّه**) تعالى، وكلّ (**ذلك**) أصابهم (**ب**) بسبب (**أنّهم كانوا يكفرون بآيات اللّه**)، أي بأحكامه، فلا يطبّقونها، (**ويقتلون النبيّين بغير الحق**)، لأنّهم كانوا يريدون منهم الرّجوع إلى كتاب اللّه تعالى والحكم بشريعته، (**ذلك**) الطّغيان والفسوق حصل لهم (**بما عصوا**)، بعصيانهم لأمر اللّه تعالى وكتابه، (**وكانوا يعتدون**) يتجاوزون حدود اللّه تعالى، أو يعتدي بعضهم على بعض فيظلمه. في هذه الآية إشارة إلى أنّ كلّ أمّة انحرفت عن دين اللّه تعالى أصيبت بالذّلّ والهوان والضّعف والفقر، ولقد صدق فينا هذه الحكمة. فقد استولى علينا الاستعمار وأذلّنا بعد أن ابتعدنا عن دين اللّه وشريعته وعن القرآن والسّنّة والعمل بهما، فيا أيّها المسلمون اليقظة، وأيّها الغافلون تنبّهوا وارجعوا إلى دينكم الذي به سدتم وبه تسودون.

ثمّ بعد أن لام القرآن الكريم هذه الانحرافات والضّلالات يتوهّم القارىء الكريم أنّ اليهود كلّهم قديمهم وحديثهم صغيرهم وكبيرهم كانوا ملعونين ومغضوب عليهم من اللّه تعالى، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

وحاصل معنى الآية أنّ كلّ أمّة منهم الصّادقون المستقيمون على دينهم والمخلصون في عقيدتهم والمتمسّكون بشريعتهم؛ فهؤلاء مستثنون من هذه الملامات. ومنهم المنحرفون عن دينهم والكاذبون في إيمانهم والمبتعدون عن شريعتهم والرّاكضون

وراء الهوى والنّفس والشّيطان، فهؤلاء هم الملومون والملعونون والمعذبّون عند اللّه تعالى.معنى الآية: **(إنّ الّذين آمنوا)** اعتنقوا الإسلام، **(والّذين هادوا)** اعتنقوا اليهودية، **(والنّصارى)** الّذين اعتنقوا دين المسيح (ﷺ)، **(والصّابئين)** الّذين اعتنقوا دين الصّابئة، **(من آمن بالله واليوم الآخر)** بصدق وإخلاص دون نفاق ورياء، **(وعمل صالحاً)** حسب دينه، أي كان متمسّكاً بدينه ولم ينحرف عنه، فهؤلاء لا تلحقهم الملامة، بل إنّهم ممدوحون ومثابون عند اللّه تعالى، **(فلهم أجرهم عند ربّهم)** يوم القيامة، **(ولا خوف عليهم)** من العذاب، **(ولا هم يحزنون)** على فوات الدّنيا ونعيمها، لأنّهم وجدوا خيراً منها، وأمّا الملومون فيهم والملعونون منهم الّذين لم يخلصوا في إيمانهم ولم يستقيموا على شريعتهم وابتعدوا عن أحكام وأخلاق وتعاليم كتابهم وسنّة رسولهم، فهؤلاء ملعونون وملومون من أيّ ملّة كانوا ومن أيّ أمّة يكونون.

* * *

تنبيه: كثير من النّاس يعتقدون بأنّ هذه الآية سار مفعولها إلى يوم القيامة، ويقولون كلّ أمة من اليهود والنّصارى والصّابئة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصّالحات، فهم ناجون ومحقّون، ويدخلون الجنّة وإن لم يسلموا، ولكن هذا القول مخالف للإسلام وعقيدته وللقرآن ومفاهيمه ولإجماع الأمّة. لأنّ هذه الآية إنّما يراد بها الأوّلون والذين لم ينسخ دينهم ببعثة الرّسول (ﷺ)[1] فإنّه بعد بعثة الإسلام لا يقبل أيّ عمل، مالم يكن مقروناً بالإيمان بالإسلام وباسم الإسلام، وذلك بدلالة آيات كثيرة وردت في القرآن، بحيث لا يقبل تأويلاً ولا غموضاً في الدّلالة والتّعبير على ما نقول. فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩ ـ ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية ٨٥، ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ

---

(١) أي حين لم يكن النبي قد بعث بعد وكان دينهم لم ينسخ بعد.

إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٥٦-١٥٧، أي لا غيرهم. إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تصرّح بكفر من لم يؤمن بالإسلام ورسوله ولم يعتنق هذا الدّين، وبأنّه من أهل النّار. نعم هذا كلّه فيمن بلغته الدّعوة الصّحيحة، وإلّا فلا حساب بدون تبليغ، بدليل قوله تعالى: ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥، فالأمّة الإسلامية هي المسؤولة عن التبليغ والأئمة على القصور في ذلك، وإنّ حسابهم يوم القيمة لشديد، ﴿فلنسألنّ الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين﴾ سورة الأعراف الآية/ ٦ ومن أراد زيادة الاطّلاع على هذا الموضوع فليراجع تفسيرنا لقوله تعالى: ﴿إنّه كان لا يؤمن بالله العظيم﴾ سورة الحاقّة الآية/ ٣٣ حيث حقّقنا الموضوع هناك بالتفصيل. والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

خاتمة: جاء في تفسير المنار ج/ ١/ ص/ ٣٠٩ ما هذا نصّه: (قال الأستاذ الإمام نقلاً عن الجلال: خاطب اللّه تعالى اليهود الذين كانوا في زمن النّبيّ (ﷺ) بما كان لآبائهم، لأنّ الإنعام على أمّة بعنوان أنّها أمّة كذا، هو إنعام شامل للأمّة من أصابه الإنعام ومن لم يصبه، ويصحّ الامتنان به على اللاحقين والسّابقين، كما يصحّ الفخر به منهم أجمعين، كما إنّ الإنعام على شخص بشيء يختصّ بعضو من أعضائه، كلبوس يلبسه، أو لذيذ طعام يطعمه، إنعام على الشّخص كلّه، لا على لسانه أو رأسه أو يده أو رجله فقط. ولأنّ ما وصل إلى مجتمع بعنوان ذلك المجتمع يكون له أثر في مجموع الأفراد. لا سيّما إذا كان الواصل نقمة أو نعمة حاصلة بسبب عمل الأمّة، شراً أو خيراً، ويكون لذلك أثر في الأمّة يورثه السّلف الخلف ما بقيت الأمّة. وإنّ أنواع البلاء التي ذكر بها القرآن اليهود كانت لشعب إسرائيل، من حيث هو شعب إسرائيل، لأنّ ما كان سبباً لتلك البلاءات كان من مجموع الشّعب من حيث هو شعب إسرائيل) انتهى.

وأقول: إنّ هذه الصّفات التي لام بها القرآن اليهود، أو أنزل اللّه تعالى بها البلاء عليهم، كانت من فطرتهم، بل من عقيدتهم من الجيل الأوّل إلى الجيل الذي خوطبوا به، ولذلك لامهم القرآن وخاطبهم هذه الخطابات. ثمّ قال الشّيخ الأستاذ: (وإنّ هذا درس لنا، فإنّ اللّه تعالى قصّ علينا أخبار الأمم، لأن نعتبر ونتّعظ ونأخذ الدّرس ممّا

جرى عليهم، فإنّ اللّه تعالى أنعم علينا وعلى أمّة الإسلام التي لا تختصّ بجنس ولا شعب، وأنزل علينا هذا القرآن، فكان لنا به نعم لا تحصى، منها: إنّ النّاس قبل الإسلام كانوا أعداءً فألّف اللّه تعالى بالإسلام بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمة اللّه إخواناً، ومنها: إنّهم كانوا مستضعفين في الأرض فمكّن اللّه تعالى لهم في الأرض، وأورثهم اللّه تعالى أرض الشّعوب القويّة وديارهم وأعطاهم السّلطان عليهم، ومنها: إنّ اللّه تعالى جعلهم أمّةً وسطاً لا تفريط ولا إفراط. وجعلهم شهداء على النّاس. ثمّ لمّا كفرت أمتنا هذه بنعم اللّه تعالى وابتعدت عن شريعته أنزل اللّه تعالى عليهم ألواناً من البلاء والنّقم بعنوان الأمّة، فإنّ التّتار إنّما نكلوا بهذه الأمّة بعنوان الأمّة الإسلامية. ثمّ زحف على شرقنا الغربيون وجاسوا خلال الدّيار أيّام الحروب الصّليبية بعنوان الأمّة الإسلامية أيضاً لأنّنا مسلمون. ثمّ إنّ الفتن لا تزال بديارنا وسوط عذاب اللّه تعالى يصبّ علينا، لأنّنا أمّة الإسلام، ولأنّها انحرفت عن أمر الله تعالى. وقد مرّت علينا قرون، ونحن لا نعتبر بالماضي ولا نتربّى بالحاضر، بل جهلنا في الماضي فحيّرنا في الحاضر ولا نعرف السبب والمخرج) انتهى.وأقول: لو نزّل قرآن بعد هذا القرآن للامنا، كما لام اليهود وبني إسرائيل، لأنّنا ما تركنا فعلاً فعلوه إلّا فعلنا، وصدّق فينا قول الرّسول الكريم (ﷺ): (لتتبعنّ سنن من قبلكم حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه، قالوا: أو اليهود والنّصارى؟ قال: فمن؟)[1] فلابدّ من يقظة من هذا النّوم العميق والتنبّه من هذه الغفلة النكراء الشّنيعة، أقول قولي هذا وأستغفر اللّه لي ولكم ولسائر المسلمين آمين.

* * *

ثمّ إن بني إسرائيل بعد ما طلبوا من موسى (عليه السلام) أن يأتي لهم بكتاب يعملون به، فأُتى لهم بالتّوراة من عند اللّه تعالى، فلمّا رأوا ما فيها من أعمال وتكاليف شاقّة عليهم رفضوا أخذها والعمل بها، فأمر الله تعالى جبريل أن يرفع جبل الطّور على رؤوسهم، فإن لم يقبلوا التّوراة أسقط الجبل عليهم، فأعطوا الميثاق على أن يأخذوا التّوراة ويعملوا بها، وهذا معنى قوله جلّ وعلا:

---

(١) في صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٤ الحديث رقم٣٢٦٩ بلفظ (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يارسول الله! اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟).

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(وإذ أخذنا ميثاقكم) الذي وثقتم به العهد من أن تعملوا بالتّوراة، **(ورفعنا فوقكم الطّور)**، حينما أبيتم الأخذ بالتّوراة وقلنا لكم: **(خذوا ما آتيناكم)** وهو التّوراة **(بقوّة)** بعزم ويقين وجدّ، **(واذكروا ما فيه)**، أي ادرسوا ما في الكتاب واعملوا به، **(لعلّكم تتّقون)** لكي تتجنّبوا ما حرّم اللّه تعالى عليكم، وتتجنّبوا كلّ خبيث من القول والفعل والأكل والشّرب، وإن لم تأخذوا الكتاب أسقطنا عليكم الجبل فقبلتموه وأخذتموه وعاهدتم العمل به.

سؤال: ألا يعتبر هذا إكراهاً في الدّين، وقد قال تعالى لا إكراه في الدّين؟

جواب: قالوا: إنّ الإكراه كان جائزاً في ذلك الوقت ـ وهذا لا معنى له ـ وقالوا أجوبة أخرى كلّها لا تقنع. والحقّ أنّ معنى قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ٢٥٦، أي في العقيدة والإيمان، لأنّ ذلك شئ خفيّ لا يمكن الإكراه عليه، وأمّا بعد ما يؤمن المرء بدين اختياراً ويصدّقه، ويعتقد بشريعته، فيكره على العمل وفق ذلك الدّين. وما هذه الحدود في الإسلام والتّعازير والقصاصات والقود والدّيّات وقتل المرتدّ وتارك الصّلاة أو حبسه إلّا إكراهات في الدّين، لكن إكراه على العمل لا على العقيدة. وبنو إسرائيل كانوا مؤمنين بموسى(عليه السلام) إلّا أنّهم أبوا العمل بالتّوراة، فلذا أكرهوا على العمل بها، كما أكره أبوبكر الصّديق (رضي الله عنه) الأعراب بالقتال حينما امتنعوا عن أداء الزّكاة على أدائها، ولو طّبقت هذه الحدود وتلك العقوبات في الدّول الإسلامية على العصاة والفاسقين لما آل أمر الإسلام إلى ما نرى، وما دخل الفساد في بلاد المسلمين، على أنّ هذا **الإكراه** كان من اللّه تعالى، واللّه يفعل ما يشاء، ولكنّ بني إسرائيل رغم ما أعطوا هذا الميثاق لموسى أن يعملوا بالتّوراة لم يوفوا بعهدهم وميثاقهم هذا، بل أعرضوا عن التّوراة وتركوا العمل بكثير من أحكامها، كما قال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

(ثمّ) يا بني إسرائيل **(تولّيتم)** أنتم **(بعد ذلك)** الميثاق عن العمل بالتّوراة والوفاء بالعهد، **(فلولا فضل)** نعمة **(اللّه)** تعالى التّي أنعم بها عليكم **(ورحمته)** إحسانه إليكم **(لكنتم من الخاسرين)** في الدّنيا بإهلاككم كعاد وثمود.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر بني إسرائيل بسيّئةٍ أخرى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾

(ولقد علمتم) يا بني إسرائيل حال **(الذين اعتدوا منكم)**، الذين ظلموا وخرجوا عن أمر اللّه تعالى **(في)** يوم **(السّبت)**، فعاقبناهم عقاباً لا عقاب أكبر من ذلك، حيث **(فقلنا لهم)**، أي أمرناهم أمر تكوين، وهو **(كونوا)** فاصبحوا بعد ذلك **(قردة خاسئين)** أذلّاء لا عزّ لهم لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

* * *

ذكر قصّة هؤلاء القردة: كان جماعة من اليهود يسكنون قرية (أيلة) على ساحل البحر الأحمر، ويشتغلون بصيد الأسماك، فعرفت الحيتان بغريزتها أنّ هؤلاء لا يصيدون في يوم السّبت، فكانت تبدو الحيتان يوم السبت بكثرة، وفي باقي الأيام لا يوجد واحد منها، وكان العمل يوم السّبت حراماً على اليهود، فاحتال بعضهم للخروج عن أمرالله تعالى ومخالفته، فحفروا حياضاً حول البحر تدخل الحيتان فيها مع الماء، ثمّ بعد دخولها لا يستطعن الخروج منها، فإذا جاء يوم الأحد قاموا بصيدها، فمسخهم اللّه تعالى وجعلهم قردةً، وبقوا ثلاثة أيّام كذلك، ثم ماتوا كلّهم، ومن لم يقم بهذه الحيلة بقي سليماً، وفي هذا دليل على أن الحيلة للخروج من التّكاليف الشّرعية حرام يستوجب العقوبة. قال الشاعر:

ليس دين اللّه بالحيل فانتبه يا راقد المقل

وقيل لم يمسخوا مسخ الأجساد، بل مسخوا مسخ القلوب، أي صارت قلوبهم كالقردة في الخسّة والذّلّة والمهانة ـ وليس هذا القول بشيء ـ لأنّ كلّ فاسق وفاجر يمسخ هذا المسخ، فلا يكون في ذكر هؤلاء خاصّة معنى وعبرة خاصّة وزجر مخصوص ولم يناسب قوله جلّ وعلا:

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(فجعلناها)، أي تركنا تلك العقوبة **(نكالاً)** عقوبةً وعبرةً **(لما)** من الذّنوب والحيل على دين اللّه، سواء كانت تلك الحيل **(بين يديها)**[١] وقت تلك العقوبة **(وما خلفها)**،

(١) ما تقدمها من الذنوب.

أو وقعت بعد هؤلاء من غيرهم[١] في كلّ زمان، **(وموعظة للمتّقين)** فيتّعظون بها، فلا يرتكبون الحيل في دين اللّه ولا يغيّرون شريعة الله تعالى. فإنّ السّعيد من وعظ بغيره فاتّعظ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر بني إسرائيل بحادثة أخرى وقعت لهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

قبل الغوص في تفسير هذه الآيات نذكر القصّة الّتي تشير إليها هذه الآيات الكريمة لتكون تبصرةً وعوناً في زيادة فهمها .

* * *

القصّة: حدث أنّه كن في بني إسرائيل رجل هرم غنيّ لم يكن له إلّا ولد واحد، فقتل الولدَ ابنُ عمّه ضعماً في أن ينتقل الإرث إليه، فاتّهم أبو القتيل بعض القوم، فأنكر القوم قتلهم له، فتخاصموا إلى موسى (عليه السلام)، وكاد الشرّ أن يتفاقم بينهم، فقال موسى (عليه السلام): إنّ اللّه يأمركم أن تذبحوا بقرة ليتبيّن لهم البريء من المجرم، فتعجّب النّاس من هذا الأمر، حيث لم يعلموا المناسبة بين ذبح البقرة وبيان هذا الأمر، فقالوا: أتهزأ بنا يا موسى؟ فقال: معاذ اللّه أن اهزأ بكم، لأنّ العالم إذا سئل فأجاب السّائل بالهزء، فهو

(١) من الذنوب.

جاهل وأعوذ بالله أن أكون جاهلاً، ولو أنّ بني اسرائيل بعد هذا الأمر ذبحوا أيّ بقرة لانتهى الأمر، إلّا أنّ عنادهم حملهم على سؤال تلو سؤال عن هذه البقرة، فطلبوا من موسى (عليه السلام) أن يسأل ربّه: ما هي هذه البقرة، أفتيّة أم مسنّة؟ فأجابهم موسى(عليه السلام): بأنّ اللّه تعالى يقول: إنّها ليست فتيّة ولا مسنّة، بل متوسطة بين الحالتين. ثمّ لم يقتنعوا بذلك، فطلبوا من موسى أن يبيّن لونها؟ فأجابهم بأنّ اللّه تعالى يقول: إنّ لونها شديد الصّفرة، صافية اللّون، ليس فيها نقطة غير الصّفرة، وإنّ منظرها تسرّ النّاظرين لحسنها. ثمّ تمادوا في السّؤال، فقالوا: اطلب من ربّك أن يبيّن لنا هل هي بقرة تستعمل في الحرث أو في السّقي، أم هي سائمة في المرعى لا تستعمل؟ فأجابهم موسى: إنّها سائمة غير مستعملة في السّقي ولا في الحرث. فبعد ذلك اقتنعوا وبحثوا عن البقرة بهذه الصّفات، فوجدوها عند ولد بارّ بأمّه وأبيه فاشتروها بأغلى ثمن، فذبحوها، فأخذ موسى (عليه السلام)عضوا من أعضاء البقرة، فضرب بها القتيل، فأحياه اللّه تعالى حياة مؤقّتة، فسألوه من قتلك؟ فقال: فلان، وعاد ميّتاً فحُرِّم القاتل من ميراث عمّه.

* * *

ولنأت هنا على تفسير الآيات الكريمة، **(وإذ)** واذكروا يا بني إسرائيل تعنّتكم وعنادكم، **(إذ قال موسى لقومه)** حينما سألوه أن يعيّن لهم قاتل مقتول منهم، فقال لهم: **(إنّ اللّه)** تعالى **(يأمركم أن تذبحوا بقرة)** ليتبيّن بها القاتل، فتعجّبوا من هذا الجواب، ولذلك **(قالوا)** لموسى **(أتتّخذنا هزواً)**، أي تجعلنا محلاًّ للهزء والسّخرية فتهزأ بنا وتسخر منا، **(قال)** موسى **(معاذ اللّه)**، أي أعوذ بالله معاذاً، أي عوذاً **(أن أكون من الجاهلين)**، لأنّ المفتي في الدّين إذا استهزأ بالمستفتي فهو جاهل، أي فاسق؛ لأنّ المقام ليس مقام الهزل، بل مقام الجدّ في الأمر، فلمّا علم بنو إسرائيل أنّ الكلام جدّ **(قالوا)** لموسى، فإذن **(فادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي)** تلك البقرة، هل هي فتيّة ام مسنّة؟ **(قال)** موسى **(إنّه)** إنّ اللّه تعالى **(يقول إنّها)**، أي البقرة **(لا فارض)** لا مسنّة **(ولا بكر)** ولا فتيّة، **(عوان)** بل متوسّطة **(بين ذلك)** الحالين، فافعلوا ما تؤمرون به ولا تماطلوا، فلم يقتنعوا، بل **(قالوا ادع ربّك يبيّن لنا ما لونها قال إنّه)**، أي الله تعالى **(يقول إنّها بقرة صفراء فاقع لونها)** شديد الصّفرة، وهي حسناء في صورتها، بحيث **(تسرّ النّاظرين)** إليها لحسنها، ثمّ تمادوا في السّؤال كعادتهم في عدم الاقتناع إلّا بعد أسئلة كثيرة، ولذلك **(قالوا)** لموسى مرّة أخرى **(ادع لنا ربّك يبيّن لنا ما هي)** تلك البقرة، بحيث لا يبقى لنا أيّ مجال للشّكّ والتّردّد فيها، حيث **(إنّ البقر تشابه)** التبس علينا، فلا ندري أيّة بقرة

يراد ذبحها، **(وإنّا إن شاء الله لمهتدون)** إلى تلك البقرة النادرة فنذبحها، **(قال)** موسى لهم **(إنّه)** أي اللّه تعالى يقول: **(إنّها بقرة لا ذلول)** لم تذل في الحرث، **(تثير الأرض)** ولا في سقي الأرض، بل **(ولا تسقي الحرث)** أي الزّرع بجرّ الدّولاب **(مسلّمة)** من كلّ عيب، **(لا شية)** لا نقطة **(فيها)** في جسدها غير الصّفرة.، فبعدما قال لهم هذا، **(قالوا الآن)** يا موسى **(جئت)** أتيت **(بالحقّ)** في وصف البقرة، ففتّشوا عن مثل هذه البقرة فلم يجدوها إلّا عند فتى بارّ بالأمّ والأب، فاشتروها منه بثمن غال جدّاً، **(فذبحوها)** بعد ذلك **(وما كادوا يفعلون)** الذّبح لغلاء ثمنها أو لخوف الفضيحة بظهور القاتل هكذا قالوا. وعندي أنّ معناها: وما كادوا يفعلون الذّبح لولا وصفها بهذه الصّفات التّي جعلتها نادرة الوجود، وذلك لأنّ اليهود مادّيّون لا يؤمنون بغير ما يدركونه بالحسّ، كما قالوا لموسى: **(لن نؤمن لك حتّى نرى اللّه جهرة)**، ففي كلّ حكم يتماطلون ويسألون حتّى يدركوا فيها حكمة وسبباً مادّيّاً، شأنهم شأن بعض مثقّفينا في هذا الزّمان، لا يأخذون بالحكم الإلهي ولا يقنعون به إلّا بعد استخراج حكمة ومصلحة منه يوافق عقليّتهم وإدراكهم القاصر، فلذلك لم يقتنع اليهود إلّا بعد ذكر أوصاف جعلت البقرة نادرة الوجود، وظنّوا أنّه لعلّ في البقرة مادّة كيمياوية يحيا بمسّها الأموات فاقتنعوا، ولو أنّهم ذبحوا أوّل ما أُمروا أيّة بقرة كانت تكفيهم، لأنّ حكم اللّه تعالى ليس مربوطاً بعلل ولا موادّ ولا أغراض[1]، فيجب أن يتّبع المرء حكم اللّه، لأنّه من اللّه، لا لأنّ فيه فائدة أو مصلحة أو ملازمة مادّية تقتضي الامتثال وتفي بالمقصود[2]، فمن امتثل حكم اللّه لمصلحة أو فائدة فلا يقبل طاعته ولا تفيده؛ فمن صام للصّحّة لا يقبل صيامه، ومن صلّى للرياضة فصلاته مردودة، ومن حجّ لرؤية البلاد فحجّه مرفوض، إلى غير ذلك من مقاصد دنيويّة يريدها بعض المسلمين من عباداتهم وطاعاتهم. ويقال إنّ اللّه تعالى شدّد عليهم ليشتروا هذه البقرة بهذا الثّمن الكثير جزاء لبرّ صاحبها بالوالدين، ولا مانع من أن يكون من أمر اللّه تعالى بذلك حكمة ما.

ثمّ كأنّ قائلاً يقول، فلماذا أمروا بذبح البقرة؟ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

---

(١) أي في حق الله تعالى

(٢) أي من حيث نية القيام به،

(وإذ قتلتم نفساً) خفية ولم يعرف القاتل **(فادّارءتم)** فاختصمتم **(فيها)** في قاتل تلك النّفس، فكلّ قبيلة تقول قتلها غيري، **(واللّه مخرج)**، أي مظهر **(ما كنتم تكتمون)** من تعيين القاتل، فيظهره اللّه تعالى بذبح هذه البقرة، فيقال: كيف يظهر القاتل بهذه البقرة؟ فقال جلّ وعلا:

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(فقلنا اضربوه)، أي اضربوا المقتول **(ببعضها)** بعضو من أعضاء البقرة فيصير حيّاً ويخبركم بقاتله، ففعلوا ذلك فحييّ، فأخبرهم بقاتله، ثمّ عاد ميّتاً، **(كذلك)** مثل ما رأيتم من إحياء المقتول، **(يحيي اللّه الموتى)** يوم القيامة، فمعنى الآية: كما استطاع اللّه تعالى أن يحيي هذا المقتول، يستطيع أن يحيي الموتى يوم القيامة، **(ويريكم)** دائماً وباستمرار **(آياته)** الدّالّة على إحيائه الموتي، **(لعلّكم)** لكي **(تعقلون)** فتؤمنوا بالحياة بعد الموت.

والآيات على الإحياء بعد الموت كثيرة، فمنها إحياء نبات الأرض بعد موتها على بذرها،، وإحياء الأشجار على سيقانها، وغير ذلك ممّا ترون من عالم الحيوان والنّبات والمعادن والأمطار، فكلّ ما ترون فهو إزالة وإعادة وعود على بدء وتحويل من شيء إلى شيء، ثمّ رجوعه إلى ذلك الشّيء؛ فلا استحالة إذن في إحياء الموتى، فإنّه أيضاً إعادة بعد إزالة وعود على بدء.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

(ثمّ) بعد أن رأيتم هذه المعجزة، وهي إحياء الميّت وإخباره بقاتله قد **(قست)** غلظت واسودّت **(قلوبكم)** يابني إسرائيل **(من بعد ذلك)** الأمر العجيب، وهو إحياء الميّت بضرب جزء من حيوان مذبوح، **(فهي)**، فقلوبكم في القسوة أصبحت كالحجارة، **(أو)**، بل **(أشدّ)** من الحجارة **(قسوةً)** في القساوة واليبس والجمود، وذلك لأنّه **(ومن الحجارة لما)** لحجر يلين، بحيث **(يتفجّر)** بسيل **(منه الأنهار)** من الماء، **(وإنّ منها لما)** لحجر **(يشقّق فيخرج منه الماء)** الجاري والعيون الجاريات، **(وإن منها)** من الحجارة **(لما)** لحجر **(يهبط)** فينزل من الأعلى **(من خشية اللّه)** تعالى، وقلوبكم لا يوجد فيها شيء من ذلك، فلا يجري منها أنهار الأفضال والإحسان إلى النّاس، ولا ينبع منها عيون

تجري بالعلوم والمعارف، ولا تهبط من استعلائها إلى الإيمان بالحقّ خوفاً من اللّه تعالى، وإنّ حالكم هذا سيضرّكم، حيث **(وما اللّه بغافل عمّا تعملون)** بسبب هذه القساوة، فيعاقبكم على أعمالكم هذه كلّها في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما معاً.

* * *

تنبيه: خاطب اللّه تعالى بني إسرائيل الموجودين في زمن الرّسول (ﷺ) بهذه الأمور والوقائع من قوله: (يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي ... إلخ) لأمور:

الأوّل: أن يذكر هذا الجيل[1] ومن بعدهم بما فعل آباؤهم وأجدادهم لئلّا يبتلوا بما ابتلى به سلفهم من المصائب والبلايا وغضب اللّه تعالى.

الثاني: أن يكون درساً للمؤمنين وأن يعظهم بأن لا يتّصفوا بصفات بني إسرائيل، فيتمرّدوا على رسولهم أو كتابهم أو دينهم، كما فعل اليهود ذلك، فيبتلوا بما أصاب اليهود من غضب اللّه تعالى والذلّ والهوان.

الثّالث: أن يكون معجزة للرّسول (ﷺ)، فإنّ رجلاً أمّيّاً لم يدرس ولم يقرأ ولم يمارس القصص والأخبار كيف اطّلع على هذه الوقائع والحوادث الّتي حدثت في بني إسرائيل وعرف خفايا أمورهم وأسرار تأريخهم، فلو لم يكن ذلك بوحي من اللّه تعالى لما علم شيئاً من ذلك.

الرّابع: إنّ القرآن حينما يذكر الوقائع التّاريخية فإنّما يذكرها للعبرة والاتّعاظ، لا لرواية القصّة والتّاريخ كما هو، ولذلك يلتقط أموراً تكون جديرة بالعبرة والاتّعاظ دون أن يراعي ترتيبها في الوقوع، فربّما يذكر المتأخّر وقوعاً قبل المتقدّم أو بالعكس. قال في المنار: قال الأستاذ الإمام: إنّ كثيراً من أعداء القرآن يأخذون عليه عدم التّرتيب في القصص، ويقولون مثلاً: إنّ الاستسقاء بضرب الحجر كان قبل التّيه وقبل الدّخول في تلك القرية وذكر ما بعدها، والجواب عن هذه الشّبهة هو: أنّه لم يقصد القرآن بذكر هذه الأمور القصّة وذكر التّاريخ وسرد الوقائع حسب التّرتيب، وإنّما أراد القرآن بها العبرة والعظة ببيان النّعم متّصلة بأسبابها وذكر النّعم مع عللها ليتّعظ السّامعون ويعتبروا بها، وإذا كان الغرض من السّياق العبرة فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع في الذّكر على الذي يكون أبلغ في التّذكير وأوعى إلى التّأثير.

---

(١) اي الجيل الذين خوطبوا بهذه الآيات زمن النبي محمد حين كان ينزل القرآن عليه.

الخامس: الإخبار عن أمور خرقت نواميس الطّبيعة، كانفلاق البحر لموسى (ﷺ) وانطباقه على فرعون وآله، وكضرب الحجر بالعصا وانفجار اثنتي عشرة عيناً منه، وكإنزال المنّ والسّلوى لبني إسرائيل في الصّحراء، وتظليل الغمام وإحياء المقتول بضربه بعضو من بقرة مذبوحة، وإخباره بمن قتله، وكجعل بعض منهم قردة بسبب صدور ذنب منهم، فكلّ ذلك يفيد أنّ الأمر كلّه بيد اللّه تعالى، وإنّ الطّبيعة مطيعة لأمره لا بالعكس، وإنّ اللّه يستطيع أن يفعل ما يشاء وما يريد، وإنّه يبدّل الطّبيعة وما تقتضيها كما يشاء ويريد.

* * *

خاتمة: ذكر في المنار أنّه يوجد في التّوراة أنّه إذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب أن تذبح بقرة غير ذلول في واد دائم السّيلان، فيغسل جميع شيوخ المدينة أو القرية من المقتل أيديهم على العجلة التّي كسر عنقها في الوادي، ثم يقولون: إنّ أيدينا لم تسفك هذا الدّم اغفر لشعبك إسرائيل. ويتمّمون دعوات يبرأ بها من يدخل في هذا العمل من دم القتيل، ومن لم يفعل يتبيّن أنّه القاتل، ثمّ بعد هذا النقل يفسّر هذه القصّة على المنوال، فيقول: والظّاهر أنّ ذلك العمل كان وسيلة عندهم للغسل في الدّماء عند التّنازع في القاتل لقتيل لم يعرف قاتله، ليعرف الجاني من غيره، فمن غسل يده على الذّبيحة ما رسم لذلك في الشّريعة برأ من ذلك الدّم، ومن لم يفعل ثبت عليه الجناية. وفسّر الآية كذلك، وقال: أمرهم موسى(ﷺ) بذبح البقرة ليغسلوا أيديهم عليها ... إلخ، ومعنى (كذلك يحيى اللّه الموتى) على هذا التّفسير: كذلك حفظ اللّه الدّماء التّي كانت عرضة لأن تسفك لولا هذا الحكم من الغسل والذّبح، أي يحفظ اللّه بأحكامه النّاس من الموت. هذا وإنّ قول المنار هذا في نهاية البطلان، لأنّه لو كان كما قال، فلماذا تعجّب اليهود حينما قال موسى لهم اذبحوا البقرة؟ ولماذا تردّدوا في تشخيص البقرة وتعيينها بهذه الصّفات؟ وإنّ ما في التّوراة إن لم يكن محرّفاً فهو ما أصبح تشريعاً عندهم بسبب هذه الواقعة،، وإنّهم إذا حدث من مثل ذلك ذبحوا بقرة وغسلوا أيديهم عليها ويحلفون، ويظهرون بذلك الجاني واللّه تعالى أعلم. ومن هنا يجدر بالذّكر ما قاله علّامة العراق (محمد جلي زادة) عالم كويسنجاق[١] : لماذا هذا (الفاك والفيك)[٢] والتّبديل والتّحويل، فبعد ما صدّقنا أنّ موسى ضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا

---

(١) الواقعة في إقليم كردستان العراق والتابعة لمحافظة أربيل.

(٢) أسلوب تهكمي للتعبير عن القال والقيل إشارة عن عدم جدواهما.

عشرة عيناً ألا نصدّق أن يضرب بعضو من أعضاء البقرة المقتول فيصير حيّاً ويخبر بقاتله؟ بل إنّ اللّه تعالى على كلّ شيء قدير، وكلّ ما كان يفعل موسى إنّما كان يفعله بإذن اللّه وأمره الصّريح.

* * *

ثمّ بعد أن ذكرالله تعالى صفات اليهود الأقدمين أراد أن يذكر صفات اليهود الموجودين في زمن النّبيّ (ﷺ)، فقال جل وعلا:

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(**أفتطعمون**)، أي (**أف**) بعد أن علمتم أعمال اليهود وتمرّدهم على رسولهم وعلى كتابهم ونبيّهم، (**تطمعون**) وتأملون من هذا الجيل (**أن يؤمنوا**) وينقادوا لكم[1]، والاستفهام للإنكار، فالمعنى لا تطمعوا فيهم، فإنّهم ليسوا أقلّ من سلفهم تمرّداً وسوءاً في الأعمال والأخلاق، حيث (**وقد كان**) أصبح (**فريق**) جماعة منهم (**يسمعون كلام الله**) تعالى، وهو التّوراة التي تذكر صفات الرّسول وعلاماته والعهد الذي أخذ منهم من الإيمان له، (**ثم**) بعد ما سمعوه تمرّدوا، فلم يؤمنوا، ولم يكتفوا بذلك، بل (**يحرّفونه**)، يغيّرون ما في التّوراة ممّا يتعلّق بالرّسول مخافة أن يؤمن قومهم ورعاياهم بالإسلام ويدخلوا فيه، وحرّفوا أماكن أخرى، (**وهم يعلمون**) أنّ هذا تحريف وتغيير وتمرّد على كتابهم ودينهم، وزيادة عن ذلك أنّهم ينافقون، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾

(**وَإذا لَقُوا الّذينَ آمَنُوا قالوا آمَنّا**)، وذلك ليأمن ويثق بهم المسلمون فيخالطوهم، ليسمعوا أخبارهم ويطّلعوا على أحوالهم، ولذلك يذكرون لهم بعض ما في التّوراة من شهادتها للرّسول ومن بعض الأحكام، (**وإذا خلا بعضهم إلى بعض**) ولم يكن فيهم المسلمون، (**قالوا**) قال الذين سكتوا للذين ذكروا للمؤمنين بعض ما في التّوراة من

(١) الخطاب هنا للمسلمين.

وصف الرّسول وبعض الأحكام: **(أتحدّثونهم)** اتخبرونهم **(بما فتح اللّه)**، أي أظهره من الأسرار **(ليحاجّوكم)**، أي ليجادلوكم **(به)** بما ذكرتموه للمسلمين **(عند ربّكم)**، فيقولون يا ربّنا ذكروا كذا وخالفوه وكذا فخالفوه، **(أفلا تعقلون)** أنّ إظهار الأسرار للأعداء من المضرّات، فردّ اللّه تعالى عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

(أولا يعلمون) هؤلاء الذين يخالفون أحكام التّوراة، **(أنّ اللّه يعلم ما يسرّون)** ما يخفون من النّاس، **(وما يعلنون)** يظهرونه، فيعاقبهم على مخالفتهم لذلك، سواء أخبروا المسلمين، أو لم يخبروا، وجادلهم المؤمنون بذلك أم لا؟ فهذا حال علمائهم، وأمّا عوامّهم فكما قال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

(ومنهم)، ومن اليهود ناس **(أمّيّون)** عوامّ **(لا يعلمون الكتاب)**، أي من التّوراة ودينهم **(إلّا أمانيّ)**، إلّا أكاذيب يتلقّونها من علمائهم ويمنّونهم بها، **(وإن هم)** أي ليسوا هم على حال **(إلّا يظنّون)**، إلّا وهم يظنّون الأمور ولا يتيقّنونها، فهم مقلّدون يعملون كما يأمرهم الذين قلّدوهم.

ثمّ أنذر اللّه تعالى من يبدّل ويغيّر الدّين والحقّ، فقال جلّ وعلا:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

(فويل)، أي عذاب شديد وهلاك من عند اللّه تعالى، أعدّه تعالى **(للذين يكتبون الكتاب)**، أي التّوراة **(بأيديهم)** كيف ما شاءوا، **(ثمّ يقولون هذا من عند اللّه)** ويعلّمونه النّاس، **(ليشتروا به)**، ليأخذوا بذلك التّبديل **(ثمناً قليلاً)** من منافع الدّنيا التي كانوا يأخذونها بسبب دينهم والرّياسة الرّوحية التّي كانت في أيديهم، **(فويل لهم)** وناشىء ذلك الويل **(مما كتبت أيديهم)** وافتروا به على الله وعلى الدّين، **(وويل لهم ممّا يكسبون)** من المال بسبب هذه التّبديلات والتّحريفات. وهذا إنذار لعلمائنا أيضاً الذين يبدّلون الحقائق، أو يتكلّمون باسم الدّين أموراً بعيدة عنه ويغرون به النّاس لجلب منافع

دنيويّة أو مناصب لا تبقى ولا تدوم، هذا وممّا كتب اليهود بأيديهم وأدرجوه في التّوراة وقالوا هذا من عند اللّه تعالى ما حكى اللّه تعالى عنهم، بقوله جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

(**وقالوا**)، أي العلماء من اليهود لتبرير موقفهم ممّا يرتكبونه لإغراء النّاس: (**لن تمسّنا النّار**)، أي لا نعذّب بنار جهنّم مهما ارتكبنا من الخطايا (**إلّا أيّاماً معدودة**)، أي إلّا مدّة أيّام قليلة، وهي أربعون يوماً مدّة عبادة العجل، أو سبعة أيّام عند بعضهم، لأنّ عمر الدّنيا عندهم سبعة آلاف سنة، فيقولون نعذّب مقابل كلّ ألف سنة يوماً. ومثل هذا القول لا يمكن إلّا لمن اتّخذ عند اللّه عهداً أو لمن يفتري على اللّه الكذب، ولذلك ردّ اللّه تعالى عليهم. فقال (**قل**) يا أيّها المسلم لهم: (**أتّخذتم عند اللّه عهداً فلن يخلف اللّه عهده**) بأن لا يعذّبكم اكثر ممّا تقولون، والاستفهام للإنكار فالمعنى: ليس لكم عهد بذلك. (**أم**)، أي بل (**تقولون على اللّه ما لا تعلمون**)، لأنّه ليس موجوداً حتّى يعلم.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾

(**بلى**) إبطال لقولهم (**لن تمسّنا النّار**)، أي كذبوا، حيث (**من كسب سيّئة**)، أي من أصبحت السّيّئة كسبه وعمله وكان دؤوباً عليها إلى أن (**أحاطت به خطيئته**)، فأصبح منهمكاً فيها ولم يتب عنها، (**فأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون**) في النّار لخلودهم في الدّنيا في السّيّئة والخطايا، وهذا فيمن يذنب ولا يتوب ولا يرى[1] ذنباً فيستمرّ عليه، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(**والّذين آمنوا**) وميّزوا بين العمل الصّالح والفاسد، (**وعملوا الصّالحات**) بقدر ما استطاعوا، وإذا وقعوا في ذنب شعروا بالخطيئة فانقلعوا عنها بالتّوبة، (**أولئك أصحاب**

(١) أي لا يعتبر ما أذنبه ذنبا.

الجنّة هم فيها خالدون)، وكان حال اليهود أنّهم كانوا كلّ ما يعملونه من مخالفات الشّرع والتّوراة يحسبونه حسنة بتأويل، ولذلك أحاطت بهم الخطيئة ولم ينقلعوا عنها، وهذا حال أهل التّأويل في كلّ دين، وما أفسد الإسلام إلّا أهل التّأويل في الأحكام، فاجترؤوا على كثير من المخالفات، وأضلّوا بها النّاس.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر اليهود ببعض من السّيّئات التي قاموا بها، ووقعوا بها في الخطيئة والانحراف عن الدّين وترك أحكامه وعدّ العمل بها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(وإذ)، أي واذكر لهم **(إذ أخذنا ميثاق)** عهداً من **(بني أسرائيل)**، وذلك العهد هو **(لا تعبدون إلّا الله)** تعالى وحده، ولا تشركوا به شيئاً، وأن تحسنوا **(وبالوالدين إحساناً)**، كما أحسنا إليكم وربّياكم صغيراً، وتعبا في تربيتكم وإعالتكم ورعايتكم وضحّيا بكلّ ما يعزّ عليهما في سبيل راحتكم، **(وذي القربى)**، أي وأن تحسنوا بكلّ ذي قرابة، كلّ حسبما عيّن له من الإحسان، **(واليتامى)** الذين حرموا من عطف الوالدين وحنانهما فأحسنوا إليهم، **(والمساكين)** الذين حرّموا من المال قدر ما يكفيهم فأعطوهم ما يسدّ حاجاتهم، **(وقولوا للنّاس)** غير الأقرباء واليتامى والمساكين **(حسناً)**، أي جاملوهم واطلبوا لهم الخير وأحبّوا لهم ما تحبّون لأنفسكم، وبذلك تتمّ الصّلة بين أفراد الأمّة، ويزداد التّرابط، فيزداد بذلك قوّة وعزّة،، وإلّا فكلّ أمّة فشا فيها عدم الحبّ والتّرابط وعدم حبّ الخير بعضهم لبعض، فشت فيها التفرقة وسرى فيها ضعف التّرابط، فتهون وتذلّ، ويستولي عليها الأعداء؛ ولذا قال تعالى للمؤمنين ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ سورة الأنفال الآية/٤٦ ـ ، **(ثمّ تولّيتم)** أيّها اليهود عن ذلك الميثاق وما عملتم به ونقضتموه، **(إلّا قليلاً منكم)** بقوا عليه، **(وأنتم معرضون)** تاركون لكلّ بند من بنود الميثاق.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر ميثاقاً آخر نقضوه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ

أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾

(وإذ أخذنا ميثاقكم)، الميثاق العهد المؤكّد نهاية التّأكيد وسمّي ميثاقاً، لأنّ (الميثاق) أصله (مِوثاق) بكسر الميم وسكون الواو، قلبت الواو ياءً، فصار ميثاقاً، وهو اسم لما يوثق ويشدّ به الشّيء، سمّي ميثاقاً، لأنّه يؤكّد ويشدّ به الاتّفاقيات، فالمعنى: واذكروا إذ أخذنا منكم عهداً مؤكّداً، والعهد هو أن **(لا تسفكون دماءكم)**، أي لا يقتل بعضكم بعضاً، جيء بهذا التّعبير إشارة إلى أنّ من قتل نفساً من أفراد أمّته، فقد قتل نفسه، لأنّه بقتله تحصل التّفرقة، فتضعف الأمّة فتبوء بالذّلّ والهوان، فيذلّ هو نفسه، لأنّ عزّة الأفراد بعزّة الأمّة ولذلك. قال الشاعر:

قـومـي هـمـوا قـتـلـوا أمـيـم أخـي ... فـإن رمـيـتـهـم يـصـيـبـني سـهـمـي

(ولا تخرجون أنفسكم من دياركم)، أي ولا يُخرج بعضكم بعضاً من دياره، وجيء بهذا التّعبير لما مرّ في **(لا تسفكون دماءكم)**، فأشار إلى أن من أخرج فرداً من أفراد أمّته فقد أخرج نفسه، **(ثمّ أقررتم)** اعترفتم بهذا الميثاق وقبلتموه، **(وأنتم تشهدون)** بوجود هذا الميثاق وإنّه مكتوب في التّوراة، **(ثمّ أنتم)** رغم هذا الميثاق الذي أخذ منكم **(هؤلاء)** أنتم أناس معروفون لا تشتبهون على أحد ولا ينكر من أنّكم **(تقتلون أنفسكم)**، أي يقتل بعضكم بعضاً، **(وتخرجون فريقاً)** جماعة **(منكم من ديارهم تظاهرون)**، **أي يتعاون بعضكم بعضاً**، **(عليهم)** على إخراجهم أو تتعاونون مع غيركم على قتلهم وإخراجهم. وتعاونكم هذا تعاون **(بالإثم)** حيث يخالف دينكم وشريعتكم، **(والعدوان)** أي الظّلم والتّجاوز على الحقّ حيث فعلتم ذلك بدون حقّ، **(وإن يأتوكم)** الذين قاتلتموهم وأخرجتموهم ونهبتم أموالهم إثماً وعدواناً، وإن يأتوكم هؤلاء **(أسارى)** في الحرب الذي قاتلتموهم فيها **(تفادوهم)** لتنقذوهم من الأسر بالفداء بمال أو غيره، وذلك إنّه كان بالمدينة قبيلتان الأوس والخزرج، وكان بنو قريظة من اليهود حلفاء الأوس وبنو

النّضير حلفاء الخزرج، فإذا وقع القتال بين الأوس والخزرج عاون كلّ فريق من اليهود حليفه، ويقاتل معه، فيقتل عدوّ حليفه، واليهوديّ الذي يقاتل عدوّ حليفه يقاتل اليهوديّ المتحالف مع ذلك العدوّ، فينهبون أمواله ويخرجونه من الأوطان والدّيار، وإذا أسر أحد من الفريقين جمعوا مالاً وافتدوا به، فإذا سئلوا: لم تقتلونهم ثمّ تفادونهم؟ قالوا: نقاتلهم لنصرة حلفائنا خشية أن يستذلّوا، ونفديهم لأنّنا أمرنا في التّوراة بفداء الأسرى من اليهود، فعاتبهم اللّه تعالى بقوله: **(وهو محرّم عليكم إخراجهم)**، أي إنّه كما أمركم تعالى بفداء الأسرى في التّوراة فقد نهاكم عن قتل اليهود أيضاً: **(أفتؤمنون ببعض الكتاب)**، أي تطبّقون بعض ما في الكتاب من الأحكام وهو الفداء **(وتكفرون ببعض** من) أحكامه فلا تطبّقونه بأن تنتهوا عن قتل اليهود إخوانكم في الدّين، وسمّي هنا عدم تطبيق حكم الكتاب كفراً، إشارة إلى أنّ إهمال شريعة اللّه تعالى وعدم الحكم به كفر، **(فما)** فليس **(جزاء من يفعل ذلك)**، أي التّفريق بين أحكام اللّه تعالى بتطبيق بعضها وإهمال البعض، **(إلّا خزي)**، إلّا الذّلّة والهوان **(في الدّنيا)**، وحصل ذلك لهم، لأنّهم ذلّوا، وأخرجهم المسلمون من المدينة لخيانتهم وخبث طويّتهم، وهكذا كلّ أمّة حادت عن شريعة اللّه تعالى يذلّها اللّه تعالى في الدّنيا، كما أنّنا اليوم تحت نير الأجانب لانحرافنا عن حكم اللّه تعالى وشريعته وقتل بعضنا بعضاً، **(ويوم القيامة يردّون)** هؤلاء الذين تركوا العمل بشريعة اللّه **(إلى أشدّ العذاب)**، وهو عذاب جهنّم، **(وما اللّه بغافل عمّا تعملون)** من التّحريف في الدّين والابتعاد عن شريعة اللّه ـ ربّ العالمين ـ واختيار الدّنيا وتفضيلهاعلى الآخرة ليعاقبكم فيها وفق علمه بأعمالكم هذه، الّتي لا تخفى عليه شيء منها، كما قال جلّ وعلا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

(أولئك) المهملون لأحكام اللّه، وهم يفعلون ذلك لمنافع دنيويّة، فهم **(الّذين يشترون)** يأخذون **(الحياة الدّنيا)** (ب ـ) بدل **(الآخرة فلا يخفّف عنهم العذاب)** يوم القيامة، **(ولا هم ينصرون)** من قبل أحد، أي لا ينصرون من قبل أسيادهم الّذين يبدّلون لأجلهم أحكام اللّه تعالى، سواء من اليهود أو منّا نحن المسلمين، حيث تولّينا عن تطبيق الإسلام إرضاءً للأجانب، كما بدّل اليهود حكم كتابهم إرضاءً للحلفاء.

ثمّ بعد أن ذكراللّه تعالى تمرّدهم على شريعتهم أراد تعالى ان يذكر تمرّدهم على

الأنبياء والرّسل إلى أن بلغ بهم ذلك التّمرّد إلى إيذائهم وقتلهم الرّسل بدلاً من التّبعيّة والطّاعة والإيمان بهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

(وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسى الكِتابَ) فغيّروها ولم يطبقوا ما فيها، **(وقفّينا)** وجئنا **(من بعده)** من بعد موسى بالرّسل ليرجعوا بهم إلى الدّين الصّحيح وإلى تطبيق التّوراة، فخالفوا هؤلاء الرّسل وكذّبوهم وقتلوا بعضاً منهم، **(وآتينا)** من بعدهم **(عيسى بن مريم البيّنات)** المعجزات الدّالّة على رسالته، **(وأيّدناه بروح القدس)**، وهو (جبريل) ينفّذ له ما أراد من إظهار المعجزات وخوارق العادات، فخالفوه أيضاً وأرادوا قتله، فاستفهم اللّه تعالى استفهام توبيخ وتهديد، فقال: **(أفكلّما جاءكم رسول بما)** بحكم **(لا تهوى)** لا تحبّه **(أنفسكم)** الخبيثة، ولذلك **(استكبرتم)** عن قبوله، وبسبب ذلك **(ففريقاً)** من الرّسل **(كذّبتم)** كذّبتموهم، **(وفريقاً)** منهم **(تقتلون)**، أي قتلتموهم، عبّر عنه بالمضارع للإشعار بأنّ ذلك من طينتهم مدى الزّمان وباستمرار الدّهر؛ ففي كلّ وقت يقتلون الرّسل إن استطاعوا، وكانوا يريدون قتل الرّسول (ﷺ) إلّا أنّ اللّه تعالى عصمه منهم،هذا، وقد قتلوا من الرّسل زكريّا وابنه يحيا، وأرادوا قتل سيّدنا عيسى (ﷺ)، وقتلوا أنبياء كثيرين غيرهم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى موقفهم مع الرّسل وأنبيائهم، أراد أن يذكر موقفهم مع الرّسول محمّد (ﷺ)، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾

(ولمّا جاءهم كتاب من عند اللّه) تعالى وهو القرآن، **(مصدّق)** ذلك القرآن **(لما**

معهم) وهو التّوراة، فإنّ القرآن يوافق التّوراة في القصص الموجودة فيها والّتي لم يحرّفها الأحبار، ويوافقها في العقيدة من توحيد اللّه تعالى والإيمان بالكتب والرّسل والملائكة واليوم الآخر، ويصدّقها في بشارتها بمجيء الرّسول محمّد (ﷺ)، ويصدّقها في العلامات الموجودة فيها للرّسول ((، **(وكانوا من قبل)** من قبل مجيء القرآن والرّسول (ﷺ) **(يستفتحون)** يستنصرون بالرّسول ودينه وكتابه **(على الّذين كفروا)** من الأوس والخزرج، ويقولون: (اللّهم انصرنا على المشركين بحقّ نبيّك الّذي نرى نعته في التّوراة)، وفي قول آخر كانوا يقولون للأوس والخزرج: (إنّ نبيّاً سيبعث الآن نتّبعه وقد أطلّ زمانه نقتلكم معه قتل عاد وإرم)، وهذا القول أصحّ[1] **(فلمّا جاءهم ما عرفوا)**، وهو القرآن ومن أنزل عليه، وهو الرّسول **(كفروا به)** وكذّبوه، **(فلعنة اللّه على الكافرين)** بهذا القرآن والمنحرفين عن تعاليمه كفراً وعناداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب كفرهم بعد ما عرفوه، فقال جلّ وعلا:

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩٠)﴾

---

(١) ذكرت لهذه الآية تفاسير أخرى وهي: ١. أنّهم كانوا يقولون للعرب نحن نعين محمّدا عليكم حين يبعث فننتصر عليكم. وكانوا يعتقدون أنّه يبعث منهم. فلمّا بعث من العرب كفروا به. ٢. كانت العرب تمرّ باليهود فيؤذونهم وكانوا يجدون محمّداً في التّوراة فيسألون الله تعالى أن يبعثه فيقاتلوا معه العرب فيقولون (اللّهم ابعث لنا هذا النّبيّ يحكم بيننا وبين النّاس) يستفتحون أي يستنصرون به، فلما جاءهم من العرب كفروا به. ٣. أنّ العرب قد علوا على اليهود في الجاهليّة وهم أهل شرك واليهود أهل كتاب فكانوا يقولون للعرب: إنّ نبياً الآن مبعثه قد أطلّ زمانه يقتلكم قتل عاد وإرم، فلمّا بعث الله تعالى نبيّه من قريش واتّبعه المهاجرون والأنصار كفروا به حسدا. أنظر تفسير الطبري ١/ ٤١٠ فما بعدها. وتفسير ابن كثير ١/ ١٢٥ فما بعدها. أما تفسيره بـ (اللهم نستنصرك بحقّ النّبيّ الأمّيّ إلّا نصرتنا عليه فينصرون) فقد ذكره السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢١٦، وذكره الكشاف ١/ ١٩٠ بلفظ:(اللّهم انصرنا بالنّبيّ المبعوث في آخر الزمان) والكشاف ١/ ٣٥٩: (بنبيّ آخر الزّمان) وهما واحد، وهو مؤول أي بسببه، أي بسبب قيادته لهم حين يبعث على النّصر على العرب. ولعلّ هذا اللّفظ حوّر وجعل بحقّ النّبيّ بدل بالنّبيّ وهو خطأ دينا، لذلك رجّح الشّيخ المفسّر ما طابق الأقوال الأخرى، لأنّها هي الماثورة عن الصّحابة والتّابعين، والمذكورة عند المتقدّمين.

(بئس) ـ فعل ذمّ ـ أي ذميم جدّاً **(ما اشتروا)**، أي باعوا به أنفسهم، حيث وهبوا أنفسهم وعرّضوها للعذاب بسبب **(أن يكفروا بما أنزل اللّه)**، وهو الوحي والنّبوّة والرّسالة والقرآن ومحمّد)، وإنّما فعلوا ذلك **(بغياً)** حسداً وكراهيّة **(أن ينزّل اللّه من فضله على من يشاء من عباده)**، سواء كان محمّداً أو غيره، وأرادوا ألّا يتفضّل اللّه تعالى بالنّبوّة والرّسالة إلّا على بني إسرائيل، لأنّهم شعب الله المختار بحسب عقيدتهم الفاسدة، فأرادوا أن يحكموا على الله ولا يتركوه أن يرسل رسولاً من غيرهم، وأن يحتكروا نعمته تعالى فيهم، واللّه لا يحكم عليه أحد، وإنّه يفعل كما يشاء، رضى النّاس أم أبوا. **(فـ)** بسبب ذلك **(باءوا)**، أصيبوا بغضب من اللّه تعالى،حيث لم يؤمنوا بالقرآن والرّسول (ﷺ)، **(على غضب)**، أي بعد غضب آخر إذ لم يؤمنوا بعيسى(عليه السلام)، **(وللكافرين)** بالرّسل **(عذاب مهين)** مذلّ لهم. أو المعنى: بغضب تلو غضب لارتكابهم قبيح بعد قبيح، كعبادتهم للعجل، وقولهم (عزير ابن اللّه)، وكفرهم بالمسيح، وكفرهم بمحمّد. وقتلهم الأنبياء، وغير ذلك من القبائح، ولغرورهم واستمرارهم على ما هم عليه، وكذبهم، وعدم إيمانهم بشيء، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

(وإذا قيل لهم) من باب النّصيحة والإخلاص وحبّ الخير لهم : **(آمنوا بما أنزل اللّه)** تعالى على محمّد لم يؤمنوا، بل **(قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه)**، أي يكفرون بغير التّوراة وهو القرآن، **(وهو الحقّ)** وقد جاء مصدّقاً **(لما معهم)** ممّا وعد التّوراة به من مجيء هذا الكتاب، ومصدّقاً لما فيه من العقائد وأمّهات الأحكام والقصص والأخبار، سوى المحرّف من ذلك، **(قل)** إنّكم تكذّبون ولا تؤمنون بالتّوراة أيضاً، وإلّا فلو آمنتم بالتّوراة **(فلم)** كنتم **(تقتلون أنبياء اللّه من قبل إن كنتم مؤمنين)** بالتّوراة،، وكان هؤلاء الأنبياء كلّهم يدعون بدعوة التّوراة وينصحونكم العمل بها، وقال: (تقتلون)، ولم يقل: (قتلتم)، لأنّهم كانوا يعملون ذلك باستمرار الزّمان ولو استطاعوا لقتلوا المصطفى (ﷺ) أيضاً، إلّا أنّ اللّه تعالى عصمه منهم.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

(ولقد)، أي بعزّتي **(جاءكم موسى)** من قبل **(بالبيّنات)**، بالمعجزات الواضحة الدّالّة على رسالته وحقّيّة دعوته، وبالأحكام الواضحة في العدل والاتّزان، **(ثمّ اتّخذتم العجل)** إلهاً وعبدتموه **(من بعده)**، أي من بعد ما غاب عنكم أيّاماً، **(وأنتم ظالمون)** في ذلك العمل، فلو كنتم آمنتم بالتّوراة فكيف ارتكبتم هذا العمل الشّنيع، وهذا الكفر الذّريع؟.

ثمّ ذكر الله تعالى برهاناً آخر على عدم إيمانهم بالتّوراة وبموسى وبكلّ نبيّ وشريعة إلّا شريعة الهوى وعبادة المال وجمعه كيف ما كان، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

(وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّة)، أي بجدّ **(واسمعوا)** ما فيه وأطيعوه، وقد مرّ تفسير هذه القصّة، إلّا أنّه إن كان المراد نفس المذكورة في الآية السّابقة، فالمراد بقوله: **(قالوا سمعنا وعصينا)** القول بلسان الحال والأعمال، وإن وقع هذا الميثاق مرّةً أخرى، فالمراد بقالوا: القول بلسان المنطق والمقال، وكانت مخالفتهم هذه كلّها لأنّه **(وأشربوا)**، أي واختلطوا **(في قلوبهم العجل)** والإيمان به وعبادته بكفرهم، أي بسبب كفرهم، فما دام أنّ إيمانهم بالتّوراة الذي يدعونه هذا النّوع من الإيمان الذي يسوقهم إلى هذه المخالفات، **(قل)** لهم بئس إيمانكم هذا بالتّوراة، **(وبئسما يأمركم به إيمانكم)** هذا الإيمان الفاسد، **(إن كنتم مؤمنين)** بالتّوراة، فبئس هذا الإيمان، وإلّا فقد كذبتم في قولكم : (نؤمن بما أنزل علينا).

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أمراً آخر يدلّ على عدم إيمانهم بالتّوراة، وهو أنّهم أدخلوا في التّوراة ما ليس منها، واعتقدوا ما يخالف ما فيها، وهو أنّهم كتبوا في التّوراة واعتقدوا أنّ الجنّة لهم خاصّة، فقال جلّ وعلا ردّاً عليهم:

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾

(قل إن كانت لكم الدّار الآخرة)، وهي الجنّة **(عند الله خالصة من دون النّاس)** فلا يدخلها غيركم بزعمكم، **(فتمنّوا الموت)** لكم **(إن كنتم صادقين)** في قولكم هذا، لأنّ الجنّة أطيب ببلايين درجة من الدّنيا، فمن هيّئت له الجنّة فلمَ لا يحبّ الموت، ولمَ لا يتمنّاه، فمن بنى له قصر من زمرّد فيه كلّ النّعم، فكيف يحبّ البقاء في كوخة لا نعيم فيها وكلّها نقم، **(ولن يتمنّوه)**، أي هؤلاء الأحبار الذين أدخلوا هذه الفقرة في التّوراة لإغراء النّاس وجمعهم تحت عقيدتهم لكسب المال والمنافع منهم والتّرؤس عليهم، هؤلاء لا يتمنّون الموت **(أبداً)** إلى ما لا نهاية له من الزّمان، **(بما كسبت)** بسبب ما كسبته **(أيديهم)** من المعاصي وتحريف التّوراة، **(والله عليم بالظّالمين)**، أي بهم، وينتقم منهم على ظلمهم في العقيدة والدّين، ولذا قال: (بالظّالمين)، ولم يقل (بهم) ليعلم أنّ سبب الانتقام منهم هو الظّلم.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّهم بعكس ذلك، بل إنّهم بدل ما يحبّون الموت، فهم يحبّون الحياة أكثر من كلّ أحد، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

(ولتجدنّ) هؤلاء الّذين يدّعون أنّ الجنّة لهم خاصّة بدل أن يتمنّوا الموت ليصلوا إلى هذه الحياة السّعيدة ويخرجوا من هذه الحياة التّعسة، **(هم أحرص النّاس على حياة)** فيحبّونها أكثر من كلّ النّاس، ويسعون لها أكثر منهم وبكلّ الوسائل وبكلّ الحيل، **(ومن الّذين أشركوا)**، أي هم أحرص من الّذين أشركوا على الحياة أيضاً، خصّوا بالذّكر مع دخولهم في النّاس، لأنّهم لا يؤمنون بالآخرة، ومن لا يؤمن بالآخرة يكون حريصاً على الدّنيا أكثر من غيره بكثير؛ لأنّه لا يعتقد بحياة أخرى بعد الدّنيا، وإنّ هؤلاء الأحبار

لحرصهم على الدّنيا **(يودّ أحدهم لو يعمّر)** ، و يعطى له الحياة في الدّنيا **(ألف سنة)**، ولو عمّروا ألف سنة لا يفيدهم ذلك شيئاً، لأنّه **(وما هو)**، أي ليس الشّأن **(بمزحزحه)** بمزيله ومخرجه **(من العذاب أن يعمّر)** تعميره ألف سنة وحياته هذه المدّة؛لأنّها حينما انقضت فهو في العذاب، أي أنّ الشأن أنّه لا ينجّيه طول العمر مهما كان من العذاب، **(والله بصير بما)** بكلّ ما **(يعملون)**، فيعاقبهم عليه وإن عاشوا مليون سنة. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر برهاناً آخر على عدم إيمانهم بالتّوراة، وهو أنّهم يكرهون، جبريل وغيره من الملائكة والرّسل، قال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

جاء اليهود إلى النّبيّ (ﷺ) وسألوه أسئلة، فأجابهم، ثمّ سألوه: من الّذي ينزل عليك بالوحي؟ فقال لهم: جبريل، فقالوا: إنّ جبريل عدوّ لنا، ولو كان ميكائيل لآمنّا بك، فنزلت الآية، وكان اليهود يكرهون جبريل، لأنّه هو الّذي رفع عليهم الطّور، وكان هو الّذي يأتي بأسرار اليهود إلى الرّسول (ﷺ)، وهو الّذي أخبر بأنّ بيت المقدس سيخرّب، فحينما قالوا: إنّ جبريل عدوّنا قال تعالى: **(قل)** يا محمّد: **(من كان عدوّاً لجبريل)** فإنّه عدوّ لله وللوحي، **(فإنّه)**، أي جبريل **(نزّله)**، أي هذا القرآن **(على قلبك)**، ولم ينزّله باختياره ومن عنده، بل إنّما نزّله **(بإذن الله)** تعالى وأمره، فمن كان عدوّاً له، فهو عدوّ لله وللوحي ولجميع الأنبياء، فإنّ كلاًّ[1] كان هو يأتي إليهم بالوحي، وما نزّله جبريل الّذي هو القرآن على قلبك يا محمّد ليس مخالفاً للتّوراة ولا مناهضاً له، بل كان **(مصدّقاً لما بين يديه)**، وهو التّوراة والإنجيل في العقائد وأمّهات الأحكام، وفي أخبارهما وقصصهما، وفي بشارتهما بمجيء الرّسول وبيان علاماته، **(وهدىً)**، وكان هداية من الضّلال إلى الرّشد، ومن الباطل إلى الحقّ، ومن الشّرّ إلى الخير، ومن الفساد إلى الصّلاح، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة في كلّ فعل وعمل وخلق من الأخلاق، **(وبشرى)** بالجنّة يوم القيامة والنّصر والسّيادة في الدّنيا **(للمؤمنين)** الّذين يعملون به ويطبّقونه في شؤون حياتهم الفرديّة والاجتماعيّة. ثمّ إنّ عداوة جبريل تكون عداوة لله،

---

(١) من الأنبياء

لأنّه يأتي بأمره، وهو أمين وحيه ومقرّب إليه، وتكون عداوة للرّسل كلّهم، لأنّ كلّهم كانوا يتلقّون الوحي منه، وتكون عداوة للملائكة، لأنّه رئيسهم، و تكون عداوة لميكائيل أيضاً، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

(من كان عدوّاً لله) بسبب عداوة جبريل **(وملائكته)**، أي عدوّاً لملائكته **(ورسله وجبريل ومكائيل)** فهو كافر، وإنّ اللّه تعالى عدوّ له، **(فإنّ اللّه عدوّ للكافرين)** كلّهم، وهو[١] منهم، فاللّه عدوّ له. ثمّ ذكر الله تعالى أنّ هذا القرآن لا يحتاج في الإيمان به إلى دليل وبرهان من أنّه من اللّه تعالى، أو أنّه حقّ، فانّ نفسه شاهد على نفسه بأنّه حقّ، وأنّه من اللّه تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(ولقد أنزلنا إليكَ) يا محمّد **(آيات بيّنات)** واضحات في الدّلالة على أنّها من اللّه تعالى وأنّها الحقّ، **(وما يكفر بها)** بهذه الآيات **(إلّا)** القوم **(الفاسقون)**، أي الخارجون عن الحقّ والكارهون له، لأنّه يخالف شهواتهم ويضرب منافعهم، أو لغير ذلك من أسباب عدم الإيمان، فالقرآن نفسه ببلاغته التّي لم يستطع معارضته الفصحاء والبلغاء كلّهم، وإخباره عما مضى كما هو، وعمّا يستقبل كما يقع، وعن أسرار الكون كما هو، وعمّا في قلوب الكفرة والمنافقين، وغير ذلك ممّا فيه من الأحكام النّاصعة والأخلاق الرّفيعة، بالرّغم من أنّه جاء به أمّيّ لم يكن له أيّة صلة بالشّعر والخطابة والقراءة، فبهذه الأمور كلّها يدلّ القرآن على صفته وإنّه من عند اللّه تعالى.

هذا، وقد ذكرت أسباب عدم الإيمان بالقرآن وعدم اتّباع الرّسول (ﷺ) ودلائلها عند قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ سورة التّكويرالآية/ ٢٧ ـ وبتفصيل مفيد.

ثمّ إنّ اليهود كان عليهم عهود في التّوراة أن يومنوا بالرّسول (ﷺ) فنقضوها،

---

(١) الضمير راجع إلى من كان عدوا لله...األخ.

وحينما جاء الرّسول إلى المدينة عقد معهم عهوداً ومواثيق، فكانوا ينقضونها، ولذلك وجّه اللّه تعالى إليهم التّوبيخ والتّقريع، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

(أوكلّما عاهدوا عهداً) في التّوراة أو مع الرّسول **(نبذه)** تركه **(فريق)** كثير منهم ولم يوفوا بالعهد، **(بل أكثرهم لايؤمنون)** بتلك العهود، ولا بأنّ العهود يلزم الوفاء بها، ولا يؤمنون بما فيه تلك العهود وهو التّوراة، وهذه عادتهم وديدنهم وطينتهم التّي توغّلوا فيها، ولذا ذكر تعالى نبذهم للتّوراة أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

(ولمّا جاءهم رسول من عند اللّه) وهو محمّد(ﷺ) **(مصدّق لما معهم)** وهو التّوراة، أي يوافق مجيء الرّسول وعلاماته لما في التّوراة بدون تردّد وشكّ، **(نبذ)**، أي جعل جماعة **(من الذين أوتوا الكتاب)**، أي التّوراة، وهم أحبار اليهود الّذين جعلوا التّوراة **(كتاب اللّه وراء ظهورهم)**، فلم يعملوا بما فيها من الأمر باعتناق الإسلام والإيمان برسوله (ﷺ)، **(كأنّهم لايعلمون)** التّوراة وما فيها من الأمر بالإيمان بالرّسول واتّباعه (ﷺ)، فتركوا التّوراة والاشتغال بها والامتثال بأوامرها، بل توجّهوا إلى أمور أخرى واشتغلوا بها، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يتوقّف فهم هذه الآية الكريمة على قصّتين:

القصّة الأولى: إنّه كان في زمان سيّدنا سليمان يشتغل الشّياطين من الجنّ والإنس ـ وهم الكهنة ـ بالسّحر والكهانة والشّعوذة والقصص والرّوايات والخرافات، فعلّموا ودوّنوا، فعلم بذلك سيّدنا سليمان، فجمع كتبهم ودفنها تحت كرسيّه، ومنعهم من ذلك؛ لأنّ تلك الأمور تصرّف النّاس عن التّوجّه إلى فهم الحقائق والأديان والشّرائع، كما تسوقهم تلك الأمور إلى أكل أموال النّاس بالباطل ـ لذلك حرّمها الإسلام والشّرائع الإلهية ـ فلمّا توفّي سليمان استخرج اليهود تلك الكتب والعلوم، واشتغلوا بها، وقالوا: إنّ ملك سليمان كان من هذه العلوم، ولم يكن نبيّاً، بل كان ساحراً وكاهناً سحر بسحره وكهانته الإنس والجنّ. وحينما جاء القرآن نبذوا التّوراة والاشتغال بها والعمل على وفق مقتضاها من الإيمان بالقرآن وبمن انزل عليه، فقال تعالى: **(واتّبعوا ما)**، أي الشّيء الّذي **(يتلونه)** يفترونه **(على ملك سليمان)**، ويقولون: إنّ ملك سليمان كان من هذه العلوم، وهي علوم السّحر والكهانة، فردّ اللّه تعالى عليهم، فقال جلّ وعلا: **(وما كفر سليمان)**، أي لم يستعمل سليمان تلك الكتب، وما باشر الكفر ـ وهو السّحر والكهانة ـ ولم يكن ملكه من ذلك الأمور، بل ملكه معجزة من اللّه تعالى، **(ولكن)** الشّياطين **(كفروا)**، استعملوا السّحر والكهانة، وكانوا **(يعلّمون النّاس السّحر)** إلى أن منعهم سليمان (عليه السلام)، فالآية إلى هنا تتعلّق بالقصّة الأولى.

القصّة الثّانية: يروى أنّه في أحد الأزمنة انتشرت السّحرة في بابل، فكانوا يسحرون النّاس بسحرهم، ويأكلون أموالهم بالباطل، ويسيطرون عليهم روحيّاً، فكانوا يبثّون أنّهم أنبياء للّه تعالى وأولياؤه وأبعدوا النّاس بذلك عن الدّين وعبادة اللّه تعالى، فأنزل اللّه تعالى **(مَلَكين)** بفتح اللام، أي اثنين من الملائكة إلى الأرض، وأنزل عليهما السّحر ليعلّموه النّاس؛ ليعلّم النّاس السّحر، فلا يغترّوا بالسّحرة ولا يتّبعوهم، **(أو مَلِكين)** بكسر اللام، أي أنزل تعالى السّحر على أخوين كانا سلطانين في بابل، ليعلّما النّاس السّحر، لئلّا يغترّوا بالسّحرة ولا يتّبعوهم، فقال تعالى: **(وما أنزل)**، أي واتّبع اليهود ما أنزل اللّه من السّحر**(على الملكين ببابل)**، هي بلدة بالعراق، والملكان كانا **(هاروت وماروت)** ليعلّما النّاس السّحر، حتّى لا يتّبعون السّحرة ولا يغترّوا بهم، وكان من صفة الملكين أنّهما **(وما يعلّمان)** السّحر **(من أحد)**، أي لا يعلّمان أحداً من النّاس **(حتّى يقولا)** له إنّ هذا سحر، وليس وحياً ولا ديناً ولا معجزةً ولا كرامةً، **(إنما نحن**

فتنة) أي امتحان، جئنا لنمتحن النّاس ونعرف مَن الّذي يتعلّم السّحر ليكفر بسببه ـ بأن يعمله ويدّعي به أنّه مقرّب من اللّه تعالى وأنّ هذه معجزاته وكراماته، فيسحر بذلك النّاس، ويستولي عليهم، ويأكل أموالهم بالباطل كهولاء السّحرة، ومَن الذي لا يكفر، وإنّما يتعلّم ليعلم الحقّ من الباطل والخير من الشّرّ، فيجتنب الشرّ ولا يقع فيه، كما قال الإمام علي (كرم اللّه تعالى وجهه): علمت الشّرّ لا للشّرّ لكن لتوقّيه[1]. وبذلك يصون نفسه وغيره من الشّرّ أن يقع فيه، فنحن جئنا لهذا الامتحان من اتّباع السّحرة والاغترار بهم، **(فلا تكفر)** بما نعلّمك من السّحر، فأصبح النّاس يتعلّمون من الملكين أمراً من السّحر، يفعلون به أموراً حتّى أنّهم كانوا **(يفرّقون به)** بالسّحر **(بين المرء وزوجه)**، وهذا من أصعب الأمور. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ السّحر لا يؤثّر بنفسه، وإنّما هو شيء جعل اللّه تعالى من عادته أنّه إذا استعمله شخص وقع ما ربط اللّه تعالى به بإذنه تعالى وتقديره، فقال جلّ وعلا: **(وماهم بضارّين به)**، أي بالسّحر **(من أحد)** أحداً من النّاس **(إلّا بإذن اللّه)** تعالى وتقديره. ثمّ أراد تعالى أن ينبّه على أنّ السّحر وتعلّمه ليس شيئاً مفيداً، بل هو مضرّ، وإنّه حرام، إلّا إذا كان لإحقاق حقّ، أو لإبطال باطل، أو لمعارضة السّحرة وفضح أكاذيبهم، فقال جلّ وعلا: **(ويتعلّمون ما يضرّهم)**، وهو السّحر ولا ينفعهم؛ لأنّه ليس علماً منتجاً فائدة دينيّة ولا دنيويّة، بل له مضرّة، حيث يستغلّ علماؤه به النّاس ويدخلونهم في الأوهام والخيالات ويأثمون بذلك، وإلى هنا تتعلّق الآية بالقصّة الثّانية.وقال بعض المفسّرين: إنّ (ما) في قوله: (وما أنزل على الملكين ... إلخ) نافية وإنّ القرآن يردّ على هذه القصّة، وإنّها لم تقع إلّا أنّ اليهود اخترعوها واتّبعوها، ولكن هذا القول بعيد عن نظم الآية الكريمة وعن سياقها، واللّه تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن موقف أحبار اليهود من تركهم التّوراة واتّباعهم للسّحر والكهانة والقصص والرّوايات الخرافية وكلّ ما يستغلّ به النّاس، فقال جلّ وعلا: **(ولقد علموا)**، أي هؤلاء الأحبار **(لمن اشتراه)** ، أي أنّ من أخذ هذه الأمور من السّحر وغيره بدل التّوراة والعمل به **(ما له في الآخرة من خلاق)**، من نصيب، لأنّ ترك شريعة اللّه تعالى واتّباع ما لا فائدة فيه يوجب عقاب اللّه تعالى وعذابه يوم القيامة والحرمان من

---

(١) هو شعر تمامه: عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه.. ومن لم يعرف الشر من الناس وقع فيه. / ديوان أبي فراس الحمداني ١/ ٣٦٧. ولم أجد فيما اطلعت عليه من نسبه إلى الإمام علي (رضي الله عنه) والمشهور على ألسنة الناس أنه له (رضي الله عنه).

رحمته وجنّته، إلّا أنّهم فعلوا ذلك للدّنيا ومنافعها، **(ولبئس ماشروا)** صرفوا **(به)** فيه **(أنفسهم)** من السّحر والكهانة والعلوم السّخيفة، **(لو كانوا يعلمون)** نتيجة ذلك لما فعلوه، والمعنى: لو عملوا بعلمهم لما فعلوا ذلك، فعبّر عن (عدم العمل بالعلم) بـ (عدم العلم)، لأنّ العلم الّذي لا يعمل به هو وعدمه سواء، بل الجهل خير منه، لأنّ وزر العالم أشدّ وأتمّ. واللّه تعالى أعلم.

ثمّ قال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

(ولو أنّهم)، أي أحبار اليهود **(آمنوا)** بالقرآن، كما أمرهم التّوراة به، **(واتّقوا)** واجتنبوا الكفر ومخالفة التّوراة **(لمثوبة)** حاصلة لهم **(من عند اللّه)** ـ والمثوبة الجزاء الحسن **(خير)** تلك المثوبة ممّا يحصلونه من السّحر والكهانة، وغير ذلك من بقاء رياستهم الزّوجية على النّاس، **(لو كانوا يعلمون)** ذلك لما بدّلوا وما تبدّلوا، هنا أيضاً عبّر عن (عدم العمل بالعلم) بـ (عدم العلم)، أي لو أنّهم عملوا وفق علمهم الحاصل من التّوراة من وجوب الإيمان بالرّسول (ﷺ) لحصلوا على مثوبة ومنفعة من اللّه تعالى خير من منافعهم التي يستفيدون منها من بقائهم على ما هم عليه من الرّئاسة، لأنّ منافع ذلك مختصّة بالدّنيا، ولكن منفعة الإيمان بالرّسول (ﷺ) تشمل الدّنيا والآخرة.

وهنا مسائل:

الأولى: إنّ المعتزلة أنكروا وجود السّحر، وأنكروا أن يكون له حقيقة، وإنّما هو تمويه وتخييل، وربّما حكموا بكفر من اعتقد وجوده. وأمّا أهل السّنّة فقد جوّزوا أن يكون له حقيقة، وقالوا: لا مانع من أن يطير السّاحر في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً، وكلّ ذلك أنّ اللّه تعالى يخلق عندما يستعمل السّاحر سحره الشّيء المربوط به بتقدير اللّه تعالى، وأنّ المؤثّر والخالق هو اللّه تعالى لا السّحر ولا السّاحر، خلاف مايقوله الفلاسفة والمنجّمون والصّابئة من أنّ المؤثّر هو النّجم أو الفلك أو غير ذلك؛ ولذلك هم كفروا وأشركوا باللّه تعالى. ويدلّ على ما قاله أهل السّنة ما قاله تعالى في الآية السّابقة: **(وما هم بضارّين به من أحد إلّا باذن اللّه)**، فإنّ هذه الآية تدلّ على أنّ السّحر يضرّ ولا يضرّ ماليس موجوداً، وأنّ ضرّه هو بإذن اللّه وتقديره وخلقه لا بخلق السّحر أو السّاحر.

الثّانية: إنّ نفس العلم بالسّحر ليس بقبيح ولا حرام، واتّفق المحقّقون على ذلك،

لأنّ العلم لذاته شريف، لعموم قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ـ سورة الزمر الآية/ ٩ ـ ، لأنّ السّحر لو لم يتعلّم لما علم الفرق بينه وبين المعجزة؛ فلذا يجب أن يتعلّم طائفة من المؤمنين السّحر ليعلموا السّحر من الولاية والكرامة، وما يكون واجباً فليس بحرام. وإنّما أصبح الشّياطين كفرة، كما في قوله تعالى: ﴿ولكن الشّياطين كفروا﴾ لأمرين:

الأوّل: إنّهم أنكروا نبوّة سيّدنا سليمان واعتقدوه ساحراً.

الثّاني: إنّهم كانوا يعتقدون أنّ السّحر هو المؤثّر كالفلاسفة.

فكلّ ماورد في تكفير السّاحر من آية أو حديث فإنّما المراد به من يعتقد أنّ السّحر مؤثّر بذاته، وأمّا من يعتقد أنّ الخالق هو اللّه وأنّ السّحر سبب يخلق اللّه بعده ما ربط به كما يخلق المسبّب بعد السبب، فهو ليس بكافر. وهاتان المسألتان نقلهما ابن كثير عن الإمام الرّازي، وتكلّم ابن كثير في ردّ ذلك، وقد أجبت عنه في نقل العبارة وضمنها.

الثّالثة: ذكر ابن كثير أنّه قال أبو المظفّر يحيى بن محمّد بن هبيرة (رحمه الله): أجمعوا على أنّ السّحر له حقيقة موجودة إلّا أبا حنيفة (رحمه الله)، فإنّه قال لا حقيقة له، واختلفوا أيضاً فيمن يتعلّم السّحر ويستعمله. فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد (رحمهم اللّه تعالى): أنّه يكفر، ومن أصحاب أبي حنيفة هناك من قال: إنّ تعلّمه ليتّقيه أو يتجنّبه فلا يكفر، ومن تعلّمه معتقداً جوازه، أو أنّه ينفعه كفر، وكذا من اعتقد أنّ الشّياطين تفعل له ما يشاء كفر، وقال الشّافعي: إذا تعلّم السّحر قلنا له صف سحرك فإن كان فيه ما يوجب الكفر كفر، وإلّا فلا، وإن اعتقد إباحته كفر.

وأقول: والحقّ أنّ تعلّمه لا بأس به مطلقاً، كما قال الإمام الرّازي: بل هو فرض كفاية لدفع شرّ السّحرة عن المسلمين، وأمّا العمل به فإن كان لخير كإهلاك ظالم أو محاجّة ساحر ودفع شرّه فلا حرمة فيه، بل فاعله مأجور، وإن كلّ ما ورد في القرآن أو الحديث من ذمّ السّحر والسّاحر فإنّما هو فيمن يعتقد أنّ السّحر مؤثّر، فإنّ هذا كفر، وكذلك يكفر من يعمله للشّرّ أو لاستغلال النّاس وأكل أموالهم بالباطل. وهنا قول: بأنّ السّحر لا يتعلّم ولا يعمل به إلّا بالاختلاط مع الشّياطين واتّباعهم والعمل معهم وإطاعتهم، فيكون كفراً إن صحّ هذا القول.

الرّابعة: قال ابن هبيرة: يقتل السّاحر على فعله السّحر واستعماله عند مالك

والشّافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: لا يقتل حتّى يتكرّر منه ذلك، أو يقرّ بأنّه قتل شخصاً بذلك، وإذا قتل السّاحر بسحره يقتل حدّاً إلّا على قول الشّافعي، فإنه يقول: يقتل قصاصاً. هذا موجز ما تكلّم العلماء في السّحر، وإن أردت زيادة تفصيل فعليك بتفسير الإمام الرّازي وابن كثير.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفات اليهود وكفرهم، أراد أن ينبّه الرّسول على موقفهم تجاهه وسوء نيّاتهم معه ومع المسلمين جميعاً، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾

كان اليهود يقولون للرّسول (ﷺ) حين التكلّم معه: (راعنا)، أي أنظرنا، بمعنى: انتظرنا، ويقصدون بذلك (راعنا) مشتقّاً من الرعونة، أو منادى محذوُف الياء، أي يا راعينا، وهو راعي الغنم أو الإبل أو غيرهما، وكان المؤمنون يقولون ذلك للرّسول أيضاً، فقال تعالى: (**يا أيّها الذّين آمنوا لا تقولوا**) عند مخاطبة النّبيّ (ﷺ) (**راعنا**) كما يقول اليهود، فإنّ لهم بها نيّة سيّئة في ذلك، فبذلك تنبّه المسلمون، فتركوا ذلك وترك اليهود، حيث افتضح أمرهم، وفي هذه الآية معجزة، حيث أخبرت بما في قلوب اليهود من الغشّ، (**وقولوا**) بدل راعنا (**انظرنا واسمعوا**) قوله وأطيعوا، (**وللكافرين**) الذّين ينوون السّوء في كلامهم مع الرّسول (ﷺ) (**عذاب أليم**) مؤلم جدّاً.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى عن سوء أدبهم مع الرّسول (ﷺ)، أراد أن يخبر عن سوء نيّتهم مع الرّسول (ﷺ) والمؤمنين جميعاً، فقال جلّ وعلا:

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾

(**ما يودّ الذّين كفروا**) بالرّسول (ﷺ) (**من أهل الكتاب**)ـوهم اليهود والنّصارى جميعاًـ(**ولا المشركين**) ، فكلّهم ما يودّون، أي لا يحبّون (**أن ينزّل عليكم من خير من**

ربّكم) قليل أو كثير من الدّين أو من الدّنيا؛ ولذلك اغتاظوا، حيث أنزل اللّه تعالى هذه الشّريعة عليكم، وكانوا يريدون غير ذلك، ولكنّ اللّه تعالى لا يعمل وفق مشيئتهم، بل يعمل وفق إرادته ومشيئته، **(واللّه يختصّ برحمته)** من الدّين أو الدّنيا **(من يشاء)** هو، لا من يشاؤونه هم، فاختصّ المسلمين بهذه الشّريعة، واختصّ هذا الرّسول العظيم بهذه الرّسالة العظيمة فليموتوا غيظاً، **(واللّه ذو الفضل العظيم)**، فبهذا الفضل العظيم يتفضّل على من يشاء فتفضّل على رسوله بهذا الدّين وهذا القرآن العظيم، وجعل المسلمين خير أمّة أخرجت للنّاس، فلكراهة أهل الكتاب والمشركين للإسلام وانتشاره بين النّاس مخافة حصول قوّة الإسلام وأخذه بزمام الأمور وسلب السّلطة عنهم كانوا يشكّكون المؤمنين في دينهم، ويقولون لهم: فإن كان محمّد نبيّاً فأين معجزاته، فلم لا يحيي الموتى كعيسى، ولم لا يفجّر العيون من الحجارة كموسى، ولم لا يخرج حيواناً من الصّخرة كصالح، ولعلّ بعض المسلمين اغترّوا بقولهم، فطلبوا من الرّسول أن يظهر لهم مثل هذه الخوارق، فقال جلّ وعلا ردّاً عليهم:

﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾

(ما ننسخ)، ما نزيل ونبدّل من **(آية)** معجزة أعطيناها لرسول من الرّسل فنزيلها، ولا نهب تلك المعجزة لرسول آخر كعصا موسى (ﷺ) لم يؤت لعيسى (ﷺ)، وكإحياء الأموات لم يعط للرّسول (ﷺ)، (أو ننسها)، أو نجعل تلك المعجزة يغفل عنها النّاس ولا يتذكّرون صدورها من الأنبياء، نأت **(ب)** معجزة **(خير منها أو مثلها)**، أي مثل المعجزة التي أزيلت وتركت فلم يعط للرّسول (ﷺ) أو التّي نسيها النّاس، فللرّسول معجزات كثيرة لاتعدّ ولاتحصى خير من مثل تلك المعجزات، ولكلّ زمان نوع من المعجزات، ولكل نبيّ نوع منها، وإنّها لا تأتي على نسق واحد، فلم يعط لعيسى مثل ما أُعطي موسى، ولم يعط للرّسول مثلهما، بل كلّ أعطي من المعجزات ما يوافق عصره ويلائم زمانه، **(ألم تعلم)** أيّها المخاطب الطّالب للخوارق **(أنّ اللّه)** تعالى **(على كلّ شيء قدير)**، فيقتدر على أن يعطي الرّسول من نفس الخوارق إلّا أنّه لم يعطه ذلك، بل أعطاه خوارق أخرى، وذلك على وفق علمه وحكمته.

ثمّ أراد اللـه تعالى أن يستدلّ على قدرته على كلّ شيء وعلى تبديل المعجزات أيضاً وإعطاء كلّ رسول نوعاً منها، فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

(**أَلَمْ تعلم**)، ألم تؤمن وتعتقد أيّها المسلم المتشكّك في دينه (**أنّ اللّه له ملك السّموات**) كلّها، (**والأرض**) جميعها، فمن كان هذه قدرته وسلطانه لا يصعب عليه إعطاء أيّة خارقة للرّسول، إلّا أنّه يعطيه من الخوارق حسب حكمته، لا حسب اقتراح النّاس ورغبتهم، (**وما لكم من دون اللّه من وليّ**) يواليكم، (**ولا نصير**) ينصركم من عذاب اللّه تعالى إن اتّبعتم أهواء أهل الكتاب وتشكيكاتهم.

ثم نبّه الله تعالى إلى أن اقتراح الآيات والخوارق من الرّسول وطلب إثباته النّبوّة بها من عادة اليهود، فكانوا كلّ يوم يطلبون من موسى (عليه السلام) نوعا من الخوارق، وأن ذلك علامة على التّعنّت وعدم الإيمان بالرّسول، فلذا قال جلّ وعلا:

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

(**أم**)، أي هل (**تريدون**) أيّها المسلمون (**أن تسألوا رسولكم**) الخوارق الكونية والمعجزات الوقتية (**كما سئل موسى**) تلك المعجزات، فقد كان اليهود يسألونه كلّ يوم معجزة وكلّ وقت خارقة (**من قبل**)، أي من قبل مجيء الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، وبسبب ذلك كفر وارتدّ كثير من اليهود لتعنّتهم على موسى (عليه السلام) وكثرة السّؤال منه، (**ومن يتبدّل الكفر**)، أي يأخذه ويختاره (**بالإيمان**)، بدل الإيمان نتيجة التّعنّت على الرّسول وطلب الخوارق منه (**فقد ضلّ**) وانحرف عن (**سواء السّبيل**)، أي السّبيل المستوي والصّراط المستقيم. هذا ما قاله الشّيخ محمّد عبده (رحمة اللّه تعالى عليه) في تفسير هذه الآيات خلاف ما قاله المفسّرون، فإنّهم حملوا النّسخ في الآية على نسخ الآيات الحكمية وتبديلها، فقالوا: (ما ننسخ من آية)، أي من حكم أو ننسها فنزيلها من قلب الرّسول(صلى الله عليه وسلم) (نأت بخير)، أي بحكم خير منها، (أو مثلها) في الثّواب، ولكن ما قاله محمّد عبده هو الأصحّ لما يلي: **الأوّل:** إنّ اللّه تعالى جعل من عادته في القرآن الكريم أنّه بعد ما يذكر الآيات الكونية يصف نفسه بالعزّة والقدرة، وبعد ما يذكر الآيات الحكمية يصف ذاته بالعلم والحكمة. وهنا وصف نفسه بالقدرة، فقال في آخر الآية: (**ألم تعلم أنّ اللّه على كلّ شيء قدير**).

الثّاني: إنّ نسخ الحكم لا يلازمه الإتيان بحكم مثله أو خير منه، بل كثيراً ما ينسخ الحكم بدون بدل. ولكن تبديل المعجزات وإزالتها لابدّ وأن يكون لها بدل، فإنّه لا يخلو رسالة رسول من مصاحبة معجزات وخوارق عادات تصدر على يد الرّسول تأييداً له.

الثّالث: إنّ قوله تعالى: (**أم تريدون أن تسألوا رسولكم**) الخوارق والمعجزات الكونية، كما سئل موسى من قبل يدلّ بوضوح على أنّ الموضوع والبحث هنا هو عن الآيات الكونية لا الحكمية، وليس هذا إنكاراً للنّسخ، بل إنّما هو إنكار لأن يكون النّسخ ثابتاً بهذه الآية وإنّ المراد من النّسخ هنا نسخ الأحكام، بل النّسخ ثابت بآيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سورة النحل الآية/ ١٠١.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه المؤمنين على أنّ أهل الكتاب لم يقتصروا على كراهة الخير للمسلمين، بل قاموا يحاولون بشتّى الوسائل إلى تشكيك المسلمين في دينهم ورسولهم وإلى ردّهم إلى الكفر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

(**ودّ**)، أي أحبّ وحاول (**كثير من أهل الكتاب**) ـ وهم اليهود والنّصارى ـ فحاولوا (**لو يردّونكم**) يرجعونكم (**من بعد إيمانكم**) بالإسلام، ويجعلونكم (**كفّاراً**) به، وإنّما يفعلون ذلك (**حسداً من عند أنفسهم**)، لأنّهم يعلمون أن استمراركم على هذا الدّين وتطبيقكم له سيجعل لكم السّيّادة على النّاس ويهب لكم السّلطان في الأرض؛ فلذلك يحسدونكم (**حسداً من عند أنفسهم**)، ويفعلون هذه المحاولات للقضاء على الإسلام وصدّ النّاس عنه (**من بعد ما تبيّن**) ظهر واتّضح (**لهم الحقّ**)، حيث علموا بما في التّوراة والإنجيل من أوصاف الرّسول وعلاماته وتعاريف الإسلام والمسلمين أنّ هذا الرّسول هو الموعود به والمذكور في كتبهم، وأنّ هذا الدّين الذي أتى به هو الحقّ.

وإنّ إنكار الحقّ بعد معرفته من أشنع الصّفات، لذلك أراد بعض المؤمنين أن

يبطشوا بهولاء المجرمين الذين يصدّون بسطاء النّاس عن هذا الدّين أو يشكّكونهم في دينهم فهدأهم اللّه تعالى، فقال جلّ وعلا: **(فاعفوا)**، أعرضوا عنهم ولا تقابلوهم بالقوّة، **(واصفحوا)** وأعرضوا **(حتّى يأتي اللّه بأمره)** بذلك، فحينئذ خذوهم واقتلوهم **(إنّ اللّه على كلّ شيء قدير)**، فينصركم عليهم حينما أمركم بذلك، وقد جاء ذلك الأمر فطهّر اللّه تعالى جزيرة العرب من أهل الكفر جميعاً.

* * *

تنبيه: قوله تعالى: ﴿ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ تعبير عمّا في قلوب الّذين كفروا بالإسلام من أهل الكتاب والمشركين جميعاً، والخطاب للمؤمنين فيفيد أنّ أهل الكتاب من اليهود والنّصارى والمشركين كلّهم ما يحبّون من الخير للمسلمين، وفي التّعبير بـ (يودّ) صيغة المضارع دلالة على استمرارهم على هذا الكره والعداء إلى يوم القيامة، وفي قوله تعالى: ﴿ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم﴾ تصريح بأنّهم يحاولون دائماً وبكلّ الوسائل وباستمرار الزّمن لإبعاد المسلمين عن دينهم، فتفيد الآيتان الكريمتان تنبيه المسلمين على عداء أهل الكتاب لهم ومحاولتهم لتفريق كلمتهم وتشتيتهم وإبعادهم عن دينهم، وإنّه لابدّ للمسلمين أن يكونوا على حذر منهم دائماً، وأن لا يثقوا بهم أبداً، وقد أثبتت الأيّام مصدوق الآيتين الكريمتين من أنّ أهل الكتاب اليهود والنّصارى أعداء للإسلام، وإنّهم بكلّ الجهود يسعون ويعملون للقضاء عليه بالقوّة وبالمال وبأنواع من الدّسائس والحيل، ولذلك فتحوا منظّمات التّبشير والصّهيونية والماسونية، وشنّوا الحروب الصّليبية على الشّرق، ونصّروا مسلمي قرطبة والأندلس جبراً وقهراً، ولكنّ المسلمين ناموا نومتهم العميقة وباتوا في سباتهم الطّويل، فاستولى عليهم الجهل وحبّ الدّنيا، فتراهم يركضون وراء أفكارهم وأعمالهم وتقاليدهم وتنفيذ خططهم الجهنمية في كلّ بلد ومن كلّ قطر، فابتعدوا تماماً عن هدى اللّه تعالى وانحرفوا عن دين اللّه، فذلّوا وأصبحوا عبيداً يباعون ويتاجر بهم الأجنبي ويسوقهم سوق الأغنام إلى المذابح والمجازر، فهل للمسلمين من يقظة ومن توحيد الأمّة تحت راية الإسلام فيحقّقوا النّصر الموعود في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الرّوم الآية/ ٤٧.

* * *

ثمّ أمرهم تعالى بالاستقامة على الإسلام، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

(وأقيموا الصّلاة)، أي أثبتوا على قيامها وأديموا على أدائها، **(وآتوا الزّكاة)** واستقيموا على إعطائها إلى أهلها واعملوا الحسنات والصّالحات، حيث **(و)** كلّ **(ما تقدّموا)** تعملوه في الدّنيا وتقدّموه للآخرة، أو تقدّموه إلى الله تعالى **(لأنفسكم من خير)** ليكون ذخراً وسبباً لانتفاع أنفسكم بها يوم القيامة فإنّه لا يضيع، **(بل تجدوه)**، أي تجدوا ثوابه **(عند اللّه)**، ولا يخفى على اللّه شيء من ذلك، حيث **(إنّ اللّه بما تعملون)** من أيّ عمل كان كبيراً أو صغيراً كثيراً أو قليلاً، **(بصير)** لا يخفى عليه شيء فيثيبكم عليه. والمقصود من الآية هو التّوجّه إلى اللّه تعالى بالصّلاة والتّرابط مع المسلمين بالإحسان وإيصال الخير إليهم وعدم التّزحزح بقول المبطلين ودسائس الأعداء الكافرين، وفي ذلكم النّصر والفلاح في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض ما افترى أهل الكتاب من اليهود والنّصارى على الله وأدخلوه في التّوراة والإنجيل وحرفوهما به، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

(وقالوا)، أي وقالت اليهود: **(لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى)**، أي وقالت اليهود لن يدخل الجنّة إلّا من كان يهوديّاً، وقالت النّصارى: لن يدخل الجنّة إلّا من كان نصارى[١]، فذُكر القولان في قول واحد للقرينة الدّالّة على التّفصيل، وهذا إيجاز القرآن، وهو من البلاغة بمكان، **(تلك)** ـ أي هذه الأمور من عدم نزول الخير على المسلمين ومحبّة رجوعهم إلى الكفر وعدم دخول غيرهم في الجنّة ـ **(أمانيّهم)**

(١) فسرها هكذا لأن اليهود لا تقول في النصارى أنها تدخل الجنة، ولا النصارى في اليهود أنها تدخل الجنة، بدليل قوله تعالى الآتي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ..١١٣﴾ فلا يستقيم تفسير الآية إلا كما فسرها هنا الشيخ رحمه الله تعالى.

أكاذيبهم وتمنّياتهم الفاسدة، **(قل)** يا من يخاطبهم[١] أحضروا **(برهانكم)** حجّتكم ودليلكم على أنّكم مختصّون بدخول الجنّة ولا يدخلها غيركم، **(إن كنتم صادقين)** في قولكم هذا فأتوا بالدّليل والبرهان، وفي هذه الآية إشارتان:

الأولى: أنّهم كاذبون في دعواهم هذه، لقوله تعالى: ﴿إن كنتم صادقين﴾، فإنّ (إنْ) يستعمل للشّكّ في وجود الشّرط، وحين عدم وجوده فمعناه إنّكم كاذبون في هذه الدّعوى.

الثّانية: أنّه يجب على الإنسان أن لا يقلّد أحداً ولا يأخذ بقوله إلّا بعد إظهاره الدّليل[٢]، فإنّ في إعطاء الثّقة لأيّ أحد سوى اللّه تعالى ورسوله قد يوقع الإنسان في الخطأ والضّلالة، لأنّ غيرهما لا يكون معصوماً من الخطأ، فتكون في الآية ملامة على المتعصّبين في المذهب والذين يعتقدون غيره باطلاً دون حجّة وبرهان، بل لمجرّد أنّه قول فلان. فالتّقليد الأعمى حرام إلّا للعاجز عن التّفكير والتّتبع والاستدلال، والّذين هم عوام النّاس فيجوز لهم للضرورة.

وإنّ هذه الآية تكذيب لليهود والنّصارى في دعواهم دخول الجنّة، فيتوهّم متوهّم أنّهم كلّهم قديمهم وحديثهم ومن اعتنق الإسلام وغيرهم كلّهم محرومون من الجنّة، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(بلى)، أي يدخل الجنّة كلّ (من **أسلم**)، أي أخضع **(وجهه)** ذاته ونفسه **(لله)** للإيمان به وإطاعة شريعة الوقت والإيمان برسول الوقت، **(وهو محسن)** باتّباع الشّرع والعمل به، **(فله أجره)** ثوابه دون نقص بل بزيادة، **(ولا خوف عليهم)** يوم القيامة من العذاب، **(ولا هم يحزنون)** على فوات الدّنيا، لأنّهم يدخلون داراً أحسن منها. فتفيد الآية أنّ اليهود الذين كانوا في زمان موسى (عليه السلام) وبعده قبل نسخ دينهم من كان منهم متّبعاً لدينهم الصّحيح فهو ناج، وكذلك النّصارى في زمن عيسى (عليه السلام) وبعده إلى أن جاء الإسلام من كان منهم متّبعاً لدينهم الصّحيح فهو ناج، وبعد مجيء الإسلام من

---

(١) أي النبي (صلى الله عليه وسلم) وكل مسلم إلى قيام الساعة.

(٢) لأن قاعدة علماء الإسلام الذي أصبح شعار العلم:هي: (إذا ادعيت فالدليل وإذا نقلت فالصحة)

انقاد لله باتّباع الإسلام واعتناقه فهو ناج أيضاً، وأمّا غيرهم فهم أهل النّار إن بلغتهم الدّعوة الصّحيحة فلم يقبلوها ولم يؤمنوا بها، وإلّا فكلّ يحاسب حسب دينه وعمله وفق ما يعتقد من الشّرائع والأديان.

* * *

تنبيه: افراد الضّمير مفردا (من) في (فله) أجره، وجمعه في (ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون)، لأنّ (من) لفظه مفرد ومعناه عامّ ومجموع، فاعتبرت الحالتان للإشارة إلى أنّ إسلامهم يقبل ويعتبر إذا اعتنقوه أفراداً أو جماعات، واللّه تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ عداء أهل الكتاب ليس مع المؤمنين فقط، بل إنّهم أعداء فيما بينهم أيضاً، فاليهود أعداء النّصارى، والنّصارى أعداء لليهود أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

(وَقالَتِ الْيَهودُ لَيْسَتِ النَّصارى) ـ وهم أتباع الإنجيل وعيسى (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) ـ **(على شيء)** من الحقّ، بل إنّهم كفّار، لأنّهم اتّبعوا عيسى، وعيسى عندهم كذّاب وليس بنبيّ ولا رسول، ومن اتّبع مَن يدّعي الرّسالة كذباً فهو كافر ليس عنده من الحقّ شيء، **(وقالت النّصارى ليست اليهود)** الذين لم يتّبعوا عيسى بعد مجيئه **(على شيء)** من الحقّ، بل هم كفرة مجرمون، لأنّ عيسى كان رسولاً يجب عليهم اتّباعه والإيمان به، ولكنّهم كفروا به وأرادوا قتله، وقتلوه على زعمهم، ومن كفر برسول ثابت رسالته فهو كافر، فهم كفرة وليس عندهم شيء من الحقّ، **(وهم)** أي اليهود والنّصارى **(يتلون الكتاب)**، أي يتلو اليهود التّوراة، ويتلو النّصارى الإنجيل، إلّا أنّ كلا الفريقين لا يؤمنون بكتابهم ويخالفونه، لأنّ التّوراة تبشّر بمجيء عيسى(عليه السلام) ويأمر اليهود أن يؤمنوا به حينما جاء، فخالفوه ولم يؤمنوا به، وقالوا ليس هو وأتباعه على شيء، والنّصارى خالفوا الإنجيل أيضاً، لأنّ الإنجيل يقول: إنّ عيسى جاء مصدّقاً للتّوراة

ومتمّماً لدين موسى، فخالفوا الإنجيل إذ قالوا إنّ اليهود ليسوا على شيء مطلقاً، **(كذلك)**، أي مثل اليهود والنّصارى **(قال الّذين لا يعلمون الكتاب)** وهم جاهلون بكلّ الكتب، وهم المشركون، فقالوا: **(مثل قولهم)**، أي مثل قول اليهود والنّصارى، فقالوا: ليس غيرنا على شيء من الحقّ، فكلّ أمّة تكفّر الأخرى، وتعتقد أنّ غيرها على ضلال في العقيدة والدّين. **(فالله)** تعالى **(يحكم بينهم)** بين كلّ فريق منهم **(يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)**، من أنّه هو على الحقّ ومن سواه على الباطل، وذلك بأن يظهر اللّه الحقّ ويكشف الباطل. وقال علي (كرم اللّه وجهه): صدق الجميع فإنّ كلّهم ليسوا على شيء من الحقّ وخارجون على الصّراط المستقيم وهو الإسلام. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض صفات المشركين واليهود والنّصارى القبيحة وأخلاقهم الذّميمة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

(ومن أظلم) الاستفهام للإنكار، أي ليس أحد أظلم **(ممن منع مساجد اللّه)** من **(أن يذكر فيها اسمه)** ـ اسم اللّه بالعبادة والدّعوات والصّلوات وغيرها من شعائر اللّه تعالى ـ **(وسعى في خرابها)**، خراب المساجد بأن يسعى لهدمها أو لتعطيلها عن أداء الشّعائر فيها، وإنّ المشركين واليهود والنّصارى كلّهم يسعون إلى منع المساجد وخرابها، فهم أظلم النّاس بل وأظلم من كلّ خلق اللّه تعالى. هذا وإنّ منع هؤلاء الطّوائف المساجد من أن يذكر فيها اسم اللّه تعالى، هو أنّ النّصارى اتّفقوا وهجموا على المسجد الأقصى وهدموه وأهانوه وملؤوه زبلاً ونجاسات، ومنع قريش الرّسول عن زيارة البيت عام الحديبيّة، وإنّهم يمنعون دائماً المساجد من إظهار التّوحيد وذكر اسم اللّه تعالى وحده فيها، فالمشركون يأمرون بالشّرك وعبادة الأصنام. واليهود يدّعون أنّ عزيراً هو ابن اللّه ويعبدونه، والنّصارى يعبدون الصّليب والمسيح والعذراء في المساجد والمعابد، ولا يرضون بغير ذلك من التّوحيد وإخلاص الدّين لله تعالى؛ ولذلك منعهم اللّه تعالى من الدّخول في المسجد الحرام. **(أولئك)** الذين يسعون لخراب المساجد وتحويلها إلى غير ما بنيت له من التّوحيد، **(ما كان لهم أن يدخلوها)** المساجد **(إلّا خائفين)** من عذاب

اللّه تعالى على شركهم وعباداتهم الباطلة **(لهم في الدّنيا خزي)** أي عار، ولا عيب ولا عار أشنع من الشّرك بالله تعالى والضّلال عن الصّراط المستيقم **(ولهم في الآخرة)** بسبب أعمالهم **(عذاب عظيم)**، لا يدري عظمته إلّا اللّه تعالى.

تنبيه: إنّ في الآية الكريمة وعيداً شديداً بالخزي والعذاب العظيم لكلّ من يسعى لمنع المساجد من ذكر اللّه تعالى فيها، أو يسعى لخرابها وهدمها أو تعطيلها بأي وجه كان ذلك السّعي، وبأي وسيلة كان هذا، وحيث إنّ من شيمة اليهود والنّصارى السّعي إلى منع مساجد اللّه من الذّكر فيها، فقد أصدر قانون بعد احتلال الإنكليز للعراق بمنع فتح المساجد إلّا قبل الصّلاة بنصف ساعة وبغلقها بعد الصّلاة بنصف ساعة، وبذلك منع المساجد من ذكر اللّه فيها ومنع المسلمين من مراجعة من فيها من العلماء للاطّلاع على دينهم والتّفقّه في الإسلام، وبذلك عطّلت المساجد وأغلقت مدارسها وأبعد النّاس عن الثّقافة الإسلامية، ولا يزال هذا القانون سارياً، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

فسّروا هذه الآية تفسيرات كثيرة، فمنهم من قال: نزلت في صلاة الخوف وصلاة النّفل في السّفر، مبيّنةً أنّ التّوجّه إلى القبلة ليس شرطاً فيهما، بل يتوجّه فيهما المصلّي أمامه، وهذا المعنى ضعيف، لأنّه لا يلائم السّياق أوّلاً، وثانياً إنّ آيات صلاة الخوف تأتي فيما بعد. ومنهم من قال إنّ اليهود والنّصارى اعترضوا على تحويل القبلة فنزلت هذه الآية، وهذا ضعيف أيضاً، لأنّ آيات تحوّل القبلة تأتي بتفصيل في هذه السّورة، وقيل غير ذلك، والّذي يعتمد عليه معنيان:

الأوّل: هو أنّ المشركين وأهل الكتاب إنّما كانوا يسعون إلى تعطيل المساجد لتعطيل عبادة اللّه تعالى وحده،، فإنّه لا تصحّ العبادة عندهم إلّا في الأمكنة المعدّة لها، وهي المساجد، فقال تعالى: **(ولله المشرق والمغرب)**، والمراد بهما جميع بقاع الأرض، لأنّ نقطة من الأرض مشرق لنقطة أخرى تقابلها، ومغرب لنقطة أخرى أيضاً، فالمعنى ولله تعالى جميع بقاع الأرض فلا تعطلوا عبادتكم عند تعطيل المساجد، حيث **(فأينما)** أي في أي مكان **(تولّوا)** وجوهكم إلى اللّه تعالى بعبادته، **(فثمّ وجه)** ذات اللّه، أي علمه بعبادتكم وقبوله لها، **(إنّ اللّه واسع عليم)**، أي واسع علمه فلا يختصّ علمه بطاعة العباد في المساجد فقط ولا قبوله فيها فقط كما زعم أهل الكتاب.

الثّاني: هو أنّه لمّا قال تعالى ولهم في الآخرة عذاب عظيم، قال(**ولله المشرق والمغرب**)، أي جميع جهات الأرض، فلا يستطيعون الهروب من اللّه تعالى والتّخلّص من عذابه، حيث فأينما تولّوا وجوهكم هرباً من عذاب اللّه تعالى (**فثمّ وجه اللّه**) علمه بكم وجنوده هناك فلا تتفلتون من عذابه، (**إنّ اللّه واسع عليم**) يسع علمه كلّ شيء ولا يستطيع أحد أن يختفي منه أينما كان وكيفما كان.

ثمّ أراد اللّه تعالى أن يذكر صفة قبيحة أخرى اتّصف بها المشركون واليهود والنّصارى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾

(**وقالوا**) أي المشركون واليهود والنّصارى كلّهم (**اتخذ اللّه ولداً**)، وهو الملائكة عند المشركين، حيث يقولون: إنّهم بنات اللّه تعالى، وعزير عند اليهود فيقولون: عزير ابن اللّه، والمسيح عند النّصارى فيقولون: مسيح ابن اللّه، (**سبحان اللّه**)، أي تنزّه اللّه عن الولد وعن ما يفترون، فليس له ولد، (**بل له**) مُلكٌ ـ بضم الميم ـ ومِلكٌ بكسرها ـ كلّ (**ما في السّموات والأرض كلّ له**) للّه تعالى (**قانتون**) خاضعون، فبعضهم خضوع تكوين وتكليف، وبعضهم خضوع تكوين فقط، وفي الآية إشارتان:

الأولى: إنّ اللّه مالك ومَلِك كلّ ما في السّماوات والأرض، وبهذه الصّفة لا يحتاج إلى ولد، فلا ولد له.

الثّانية: إنّ كلّ ما في السّماوات والأرض مملوكه، فالملائكة وعزير وعيسى كلّهم مملوكه وعبيده، والعبيد لا يكونون أبناء للمالك لمنافاة الأبوة والبنوّة للملك.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

أي إنَّ اللّه تعالى (**بديع**)، أي مبدع (**السّماوات والأرض**)، أي موجدهما بدون وجود مثال سابق لهما، فكلّ شيء وجد ولم يكن له مثال سابق هو بدعة وايجاده ابداع، (**وإذا قضى**) اللّه تعالى (**أمراً**) أيّ شيء كان، (**فإنّما يقول له كن فيكون**) ذلك الشّيء بدون تأخّر إلّا مدّة وجود الأسباب وإيجادها إن كان من عالم الخلق، أو بدون مدّة إن كان من عالم الأمر، وقد يكون بدون مدّة وبدون سبب في عالم الخلق أيضاً كخلق عيسى بدون أب، وحواء بدون أم، وآدم بدونهما.

ثمّ أرادالله تعالى أن يذكر أنّهم يقولون مقالة أخرى سيّئة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

(وقال الّذين لا يعلمون) من المشركين واليهود والنّصارى **(لولا يكلّمنا اللّه)** فيقول لنا إنّ محمّداً رسول منّي، **(أو تأتينا آية)** خارقة كونيّة تشهد برسالته، **(كذلك)**، أيّ مثل هؤلاء **(قال الّذين من قبلهم)** من الأمم السّابقة لرسلهم، فقالوا **(مثل قولهم)** من طلب الخوارق، أو طلبوا أن يروا اللّه تعالى، أو يكلّمهم اللّه، أو تأتيهم خارقة، فقال جلّ وعلا: **(قد بيّنا الآيات)** الدّالّة على نبوّة محمّد (ﷺ)، وذلك من القرآن ومافيه من المعجزات ومعجزات أخرى، وهي كافية **(لقوم يوقنون)** يريدون الإيقان والتّصديق، وأمّا الّذين لا يريدون إلّا التّعنّت والاستكبار فلا تفيدهم كلّ الآيات ولايعبئون بها. وفي خضم هذه المناقشة الشّديدة وطلب المعاندين من الرّسول إظهار آيات كما يريدونه، حزن قلب الرّسول وأحبّ أن يلبّي اللّه طلبهم من إرادة الخوارق، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

(إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً) لتبشير النّاس بالجنّة والنّعيم إن آمنوا، **(ونذيراً)** لتنذرهم بالعذاب إن أصرّوا على الكفر فوظيفتك التّبشير والإنذار فقط،، وقد أدّيت ما أمرناك به وليس عليك أن يؤمن النّاس أو لا يؤمنوا، **(ولا تسئل)** من قبلنا **(عن أصحاب الجحيم)** بسبب كفرهم لم لم تهدهم أو تأت بهم إلى الإيمان، فإنّا ما آمرناك بذلك، بل هو موكول إلى اللّه وإلى اختيارهم، فإن اختاروا الهداية يسّرها اللّه لهم، وإن أرادوا وأصرّوا على الغواية خلقها اللّه لهم؛ فلا تذهب نفسك حسرات عليهم ولا تحزن على كفرهم فإنّه لا يضرّ إلّا انفسهم فقط.

ثمّ إنّ الرّسول(ﷺ) كان حريصاً على إرضاء اليهود والنّصارى وإقناعهم بكلّ ما أمكن ليعتنقوا الإسلام رحمة بهم وشفقة عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ

هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾

(**ولن ترضى عنك اليهود**) كلّهم (**ولا النّصارى**) جميعهم (**حتّى تتّبع ملّتهم**) دينهم، (**قل إنّ هدى اللّه**) الذي أتاني (**هو الهدى**) وحده، وما سواه ضلال من كلّ مبدأ وعقيدة ونظام وشريعة ومنهج، (**ولئن اتّبعت**) أيّها النّبيّ وأيّها المسلم (**أهواءهم**) من دينهم الذي حرّفوه وتقاليدهم وعاداتهم ومنهجهم (**بعد الذي جاءك من العلم**)، وهو الإسلام،(**مالك من**) عذاب (**اللّه**) تعالى (**من وليّ**) يدافع عنك (**ولا نصير**) ينقذك منه.

ثمّ بعد أن أعلم اللّه تعالى رسوله بأنّ كلّ اليهود والنّصارى لا يرضون منه إلّا باتّباعه لهم، بيّن الله تعالى أنّهم قسمان: قسم يتلون التّوراة والإنجيل حقّ التّلاوة، فهؤلاء يؤمنون به. وقسم آخر لا يتلونها تلاوة تدبّر وتفكّر وللعمل به، فهؤلاء لا يؤمنون، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

(**الّذين آتيناهم الكتاب**)، وهو التّوراة لليهود والإنجيل للنّصارى، فالذين (**يتلونه حقّ تلاوته**) ـ وهي التلاوة بتفكّر وتدبّر وللعمل به وامتثال أوامره ـ (**أولئك**) الذين يتلون هذه التّلاوة (**يؤمنون به**)، أي يهدى اللّه الذي آتاه الرّسول، لانّ كتابهم يأمرهم بذلك، (**ومن يكفر به**) بذلك الهدى حيث لا يتلو الكتاب للتدبّر والعمل به، (**فأولئك هم الخاسرون**) الذّين خسروا رحمة اللّه تعالى ونعيمه يوم القيامة، ولا خسارة أكبر من هذه الخسارة، حمانا اللّه تعالى منها آمين.

ثمّ بعد هذه المحاورة الكثيرة والمناقشة الطّويلة، والتّي لم تبق أيّ معذرة لأهل الكتاب في البقاء على ماهم عليه وعدم اتّباع الرّسول واعتناق دين الإسلام، ناداهم اللّه تعالى وأعاد الأمر بتذكّرهم ما أنعم اللّه تعالى به عليهم، وأن يشكروا هذه النّعم فيؤمنوا برسوله ويتّبعوا أمره وشريعته، وأن يخافوا اللّه تعالى من عذاب يوم القيامة إن لم يؤمنوا ولم يعتنقوا الإسلام، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

مرّت هاتان الآيتان الكريمتان وتفسيرهما في الآيتين (٤٧-٤٨) في السّورة نفسها، وأعيدتا هنا بعد هذه المحاورة الطّويلة والمناقشة الكثيرة مع بني إسرائيل، كالنّتيجة تذكر بعد المقدّمات وقبلها، وذلك مثلما يقال النّبيذ حرام، لأنّه مسكر، وكلّ مسكر حرام، فالنّبيذ حرام، وهناك قال تعالى لبني إسرائيل أوّلاً: (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التّي أنعمت عليكم وأنّي فضّلتكم على العالمين واتّقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون)، ثمّ ذكّرهم بنعمهم وأعمالهم، وناقشهم وحاورهم، إلى أن لم يبق لهم أيّ معذرة، فأعاد الأمر نفسه، فقال: **(يابني إسرائيل ...إلخ)** الآيتان، إلّا أنّه غيّر العبارة بعض التّغيير، فقدّم هنا عدم قبول العدل على عدم نفع الشّفاعة، وعكس هنالك، وذلك للتّفنّن في التّعبير، كما قال المفسّرون، و يمكن أن **نقول**: إنّهم كانوا قبل المناقشة طمعهم في الفدية والكفّارة أكثر من الشّفاعة، فأخّر نفيها ليكون التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى، ولكن بعد المناقشة أصبح طمعهم في الشّفاعة أكثر، فأخّر نفيها ليكون التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى أيضاً، أو **نقول**: إنّ الضّميرين في قوله: (لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل) للنّفس الأولى، فتفيد تلك الآية أنّ أيّة نفس لا تنفع أخرى بالشّفاعة ولا بالفدية عنها، وفي قوله هنا (ولا يقبل منها **عدل** ولا تنفعها شفاعة) راجعان إلى النّفس الثّانية، فتفيد أنّ أيّة نفس لا تنتفع بفدية غيرها ولا شفاعته، وعلى هذا التّقدير يختلف مفاد الآيتين، وهذا أولى من الحمل على التّفنّن، لأنّ التّفنّن بلا نكتة وفائدة بلاغية يجب أن ينزّه عنه القرآن، واللّه تعالى اعلم.

خاتمة: أجرى اللّه تعالى في القرآن الكريم هذه المحاورة الطّويلة مع اليهود وبني إسرائيل وذكر نيّاتهم الخبيثة وأعمالهم القبيحة ومثالبهم الكثيرة وعيوبهم الفظيعة وتعنّتهم على اللّه تعالى والدّين والرّسل لأمور:

الأوّل: أن يتنبّه اليهود ويستيقظ ضميرهم فيتركوا ماهم عليه وينحرفوا عن الباطل ويتّجهوا إلى الحق ويؤمنوا بالرّسول(ﷺ) ويتّبعوه ويعتنقوا الإسلام دين اللّه الخالص.

الثّاني: أن يتّعظ المسلمون فيتجنبّوا عن أن يقعوا فيما وقع فيها اليهود من قبائح الأعمال وفظائع العيوب والمثالب، مخافة أن يغضب اللّه تعالى عليهم، كما غضب على اليهود.

الثّالث: أن يكون معجزة للرّسول(ﷺ) فإنّ هذا الأمّيّ الذّي لم يدرس مدّة حياته كتابا ولا درساً وما اشتغل بعلم ولا قراءة يطّلع على تأريخهم السّحيق وعلى ما في كتابهم وخفايا أمورهم ونيّاتهم[1]، فإن دلّ هذا على شيء فإنّما يدلّ على أنّه أوحى إليه من اللّه تعالى وأنّه رسول منه هذا. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حياة إبراهيم (ﷺ) لإشارات تذكر إن شاء اللّه تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

(و)، أي واذكر يا أيّها النّبيّ لهم، **(إذ)** وقتما **(ابتلى)** امتحن **(إبراهيم)** مفعول مقدّم على فاعله، وهو **(ربّه)**، وقدّم للإهتمام، لأنّ المقام مقام ذكر إبراهيم (على نبينا وعليه الصّلاة والسّلام) ووصفه فامتحنه اللّه **(بكلمات)**، أي بأحكام وشرائع وأوامر ونواهي **(فأتمّهنّ)** فأداهنّ إبراهيم وافياً وكافياً، **(قال)** اللّه تعالى لإبراهيم **(إنّي)** جزاءً على هذا **(جاعلك للنّاس إماماً)** رسولاً يقتدى بك، **(قال)** إبراهيم على سبيل الدّعاء والتّضرّع **(ومن ذرّيّتي)** أي واجعل ربّي ذرّيّتي أئمة للنّاس أيضاً، فكلمة (مِن) هنا ليس للتّبعيض، لأنّه ليس من المعقول أن يدعو المرء لبعض ذرّيّته ويترك بعضهم، بل هي للتّجريد، مثل قولك: لقيت منّي عالماً، أي لقيتني عالماً، **(قال)** تعالى في جواب إبراهيم: **(لا ينال عهدي الظّالمين)**، والمعنى استجبت دعاءك، إلّا أنّ الظّالمين منهم لا ينالون عهدي وولايتي، وهذا دليل على أنّ الدّعاء كان عامّاً لهم، فليتطهّروا من الظّلم، أي من الكفر والفسوق ليصير منهم الأئمة، وإلّا فلا ينالهم ولايتي والإمامة للنّاس. فوصّى إبراهيم (ﷺ) بنيه بذلك، فلم يزل الإمامة في ذرّيّته الصّالحين، وأمّا الظّالمون فحرّموا من ذلك، وفي هذه الآية إشارتان: **الأولى**: تنبيه المسلمين أن لا يولوا أمورهم الكفرة والفسقة، فإنّ إمامتهم باطلة، فلا يجوز اتّباعهم ولا إطاعتهم.

---

(١) مع ذلك أخبر عن تلك الأمور...

الثّانية: تنبيه لبني إسرائيل وإعلامهم بسبب انتقال النّبوّة منهم إلى بني إسماعيل، فكأنّه تعالى يقول لهم: قد كانت النّبوّة فيكم حينما صلحتم، فبعدما فسدتم وأفسدتم انتقلت إلى بني إسماعيل، فإنّ عهدي لا ينال الظّالمين فلم تغتاظون أن جاء الرّسول من بني إسماعيل ؟.

* * *

سؤال: قال تعالى: ﴿وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه﴾، والمعنى اختبر وامتحن اللّه تعالى إبراهيم فنجح، والاختبار إنّما يكون من الجاهل بحال المختبَر، واللّه تعالى عالم بكلّ شئ فكيف قال: (وإذ ابتلى ... إلخ)؟ **الجواب** عن هذا بوجهين:

الوجه الأوّل: إنّ علم اللّه تعالى بالأشياء نوعان:

الأوّل: هو علمه تعالى بالشّئ في الأزل متى يحدث وكيف يحدث، وهو علم أزليّ قديم لا يتغيّر ولا يعتريه النّفي والزّوال، ويكون الشّيء كما علم.

الثّاني: تعلّق ذلك العلم بالشّيء حين وجوده في الخارج وعلمه به وهو موجود ومحقّق، وهذا العلم وهو التّعلّق حادث يحدث حين وجود الشّيء وتحقّقه، وهذا هو العلم الذي يثبت تارة وينفي أخرى، فالإثبات والنّفي يعتريان على تعلّق العلم الأزلي بالشّيء في الخارج وعدم تعلّقه به، فالإثبات كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ـ سورة آل عمران الآية/ ١٤٠ ـ والنّفي مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٢، فقوله: (وإذ ابتلى)، أي اختبر إبراهيم بكلمات، (فأتمّهنّ) ليوجد من إبراهيم (عليه السلام) الوفاء بالأوامر تماماً ليتعلّق علمه تعالى بذلك في الوجود الخارجي، كما تعلّق به في الوجود المعنوي، فإنّ اللّه تعالى علم أنّ إبراهيم يوجد ويكلّفه بأوامر، ويأتي بها تماماً، إلّا أنّ ذلك العلم لم يتعلّق بإبراهيم الموجود حقيقة إلّا بعد وجوده وتكليفه وإتيانه بما أمر به.

الوجه الثّاني: إنّا لا نسلّم أنّ الامتحان إنّما يكون للجاهل بحال المختبر، بل ربّما يختبره العالم به ليظهر حاله للنّاس، وليعلموا حاله فيعلموا سبب إكرامه أو إهانته لكي لا يبقى لهم اعتراض، فقوله تعالى: وإذ ابتلى ...إلخ، معناه امتحنه فنجح، ليعلم النّاس سبب إكرام اللّه له، واتّخاذه خليلاً ورسولاً وإماماً للنّاس، فاحفظ هذا الكلام، فإنّ بذلك تحلّ كثيراً من آيات خير الكلام. ثمّ أراد تعالى أن يشير إلى أنّ البيت بناه ابراهيم

(ﷺ) وكان قبلتهم، فلمَ إذاً يعترض أهل الكتاب والمشركون على توجّه الرّسول والمؤمنين إليه وجعلهم إياه قبلتهم بعد توجّههم إلى المسجد الأقصى، رغم أنّهم كلّهم يعتزّون بإبراهيم ويفتخرون به ويؤمنون به، وقد ثبت في كتبهم أنّ البيت كان قبلة لإبراهيم وسيصبح قبلة للمسلمين الذين يتّبعون النّبيّ المبشّر به في التّوراة والإنجيل، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

(وإذ جعلنا البيت) ـ وهو الكعبة بيت اللّه الحرام في مكّة المكرّمة ـ **(مثابةً)**، والمثابة إمّا مشتقّ من (الثّوب)، وهو الرّجوع، فمعناه: مرجعاً للنّاس في حجّهم وزياراتهم والتّوجّه إليه في الصّلوات و الدّعوات وغير ذلك، وإمّا مشتقّ من (الثّواب)، أي مكاناً لثواب النّاس وأجرهم بالزّيارة والحجّ والتّوجّه إليه في العبادات، **(وأمناً)** ، أي مكاناً يجب أن يأمن النّاس بعضهم بعضاً، فلا يؤذوا أحداً، ولا يقاتلوه فيه، **(واتّخذوا من مقام إبراهيم مصلًّى)**، أي وأمرناكم وقلنا (اتّخذوا من مقام ابراهيم مصلًّى) محلّاً للصّلاة فيه، فإنّ أجر الصّلاة فيه مضاعف، والمقام هو حجر كان يقوم عليه سيّدنا ابراهيم (ﷺ) حين بناء الكعبة، وقال البعض: المسجد الحرام كلّه مقام، وقال البعض: إنّ المسجد الحرام كلّه مقام، إلّا ذلك الحجر فقط. **(وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل)**، أي وأمرناهما **(أن طهّرا بيتي)** من الشّرك والكفر والأنجاس والأصنام **(للطّائفين)** للذين يطوفون به، **(والعاكفين)** أي المعتكفين فيه، **(والرّكّع)** جمع راكع و**(السّجود)** جمع ساجد، والمراد بهما المصلّون، هذا، وفي الآية إشارات: **الأولى**: يفهم من قوله تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت ... إلخ﴾، هنا وفي غير هذا الموضوع عند ذكر أحكامه يفهم أنّ أحكام اللّه تعالى كلّها جعلية ووضعية، وضعها وكلّف تعالى بها عباده باختياره دون التّعلّق بعلّة، ودون اقتضاء العقل لذلك، وإلّا لما وجد النّسخ، فإنّه لو كان الحكم متعلّقاً

باقتضاء العقل والحسن الذّاتي أو قبحه فلا يعتريه النّسخ؛ لأنّ الاقتضاء والحسن الذّاتي لا يرتفعان فينسخ الحكم، والنّسخ ثابت إجماعاً، فإنّ الإسلام نسخ كثيراً من الأحكام التي كانت موجودة في الأديان الأخرى المنزّلة من عند اللّه تعالى إجماعاً، وفي القرآن أحكام نسخت بآيات أخرى منه، أو بالسّنّة على تفصيل وخلاف بين العلماء في ذلك. فبناءً على ذلك لا يمكن أن يقال في حكم من أحكام الله تعالى لم صدر كذلك؟.

واعلم أنّ الأحكام نوعان؛ أحكام تكوينيّة، كجعل اللّه تعالى الماء سائلاً والحجر صلباً والشّمس مضيئةً والقمر مظلماً والسّماء فوق والأرض تحت، إلى غير ذلك من اختلاف في موجودات اللّه، ومثل أن جعل الأذن في جانب الرّأس وتسمع بها والعين في الوجه فتبصر بها والأنف بينهما فتشمّ بها، إلى غير ذلك من أعضاء الإنسان التّي اختصّ كلّ واحد منها بموضع وخاصّيّة، فكما أنّه من الحماقة دون خلاف أن يقال لَمَ جعل الأذن هناك وتسمع والعين هناك وتبصر ولم لم يعكس، أو لَمَ جعل الشّمس مضيئة والقمر مظلماً ولم يعكس، إلى غير ذلك من الأمور التّكوينيّة، فمن الحماقة أيضاً أن تقول: لَمَ حرّم اللّه تعالى ذلك؟ وأوجب هذا؟ وندب تلك؟ وأباح أولئك؟ فالحقّ أنّ أحكام اللّه تعالى التّكوينيّة والتّكليفيّة باختياره، ويجوز له أن يبدّل ويعكس، فيجعل الأذن باصرة والعين سامعة وأن يهب اختصاص شيء لآخر، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة يس الآية/ ٦٥، فانظر أنّه كيف منع الفم من الكلام وأعطى اختصاصه للأيدي والأرجل، وهكذا يجوز له أن يجعل الحرام واجباً والواجب حراماً والمندوب مكروهاً إلى غير ذلك؛ إذ كلّ ذلك بجعله ووضعه لا لخاصّيّة في الشّيء، ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلّا لِلّهِ﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٠ - يفعل ما يشاء، وهو على كلّ شيء قدير. والحقّ أنّه إذا اتّبعنا عقولنا وجعلنا الأحكام مربوطة بها وبالعلل والأسباب العقلية لبطلت الأحكام، فعلى سبيل المثال، نقول: لو قلنا: إنّ الزّنا حُرّم لمنع اختلاط الأنساب يلزم أن لا يُحرم مع المرأة التي لا تلد أو التّي هي عاقر. وإن قلنا لأجل لحوق العار بأهلها وثوران الفتنة بينهم وبين الزّاني يلزم أن لا يُحرم في المجتمع الذي لا يرون عاراً في ذلك ويقدّمون نساءهم إلى من يفعل بهنّ، وإن قلنا لضياع البذر يلزم أن لا يجوز للزّوج مجامعة زوجته الحامل، وإذا قلنا يورث أمراضاً تناسلية يلزم أن لا يُحرم حينما يوجد المعقمات التّي تمنع تلك الأمراض، وهكذا ففي كلّ علّة تحرّم بها الزّنا يلزم أن لا يُحرم عند فقدها! والحال إنّ الزّنا حرام في كلّ حال وفي كلّ صورة ومن كلّ شخص، وهكذا كلّ حكم، فتبيّن أنّ ربط أحكام

اللّه تعالى بالعلل يؤدّي إلى إبطال التّكاليف الشّرعية، فالحقّ أنّ مجرّد ورود الأمر والنّهي هو سبب الحكم وإرادة اللّه تعالى علّة له فقط.

الثّانية: التّعريض باليهود والنّصارى، وكأن اللّه تعالى يقول لهم: إنّ البيت بناه إبراهيم (عليه السلام) وجعله اللّه تعالى قبلة له وللمسلمين ومن على ملّة إبراهيم (عليه السلام)، وهذا مثبّت في كتبكم وكلّكم تعترفون بإبراهيم(عليه السلام) وتعتزّون به، فلمَ إذاً تعترضون على تحوّل المسلمين عن المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام.

الثّالثة: إنّ الصّلاة عند مقام إبراهيم، أي عند الحجر، أو في المسجد الحرام بعد الطّواف سنّة، وعند البعض واجبة، وهي ركعتان تسمّيان ركعتا الطّواف يقرأ في أولاهما الكافرون وفي الثّانية الإخلاص.

الرّابعة: إنّ البيت، بل والحرم كلّه جعله اللّه تعالى دار أمن، فمن التجأ إليه لا يجوز التّعرّض له، ولا يجوز إنشاء حرب أو قتال فيه إلّا دفاعاً.

الخامسة: إنّه لا يجوز أن يسمح للكافرين أن يدخلوا الحرم الشّريف، وهل يعمّ ذلك كلّ الكافرين، سواء منهم أهل الكتاب والمشركين، نذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ سورة التوبة الآية/٢٨. **(وإذ)**، أي واذكر وقتما **(قال إبراهيم)** حينما كان يبني البيت: **(ربّ)**، أصله(يا ربّي) حذف منه حرف النّداء(يا) للعلم به والاختصار، وحذف (يا) الإضافة للاختصار أيضا، **(اجعل هذا)** المحلّ المحيط بالبيت **(بلداً آمنا)** أهله من إغارة النّاس عليهم وقتالهم إيّاهم، **(وارزق أهله من الثّمرات)**، وهنا تذكّر إبراهيم أنّه دعا ربّه أن يجعل ذرّيّته كلّهم إماماً للنّاس، فقال تعالى له: **(لا ينال عهدي الظّالمين)**، فعلم إبراهيم (عليه السلام) أنّ الدّعاء لا يجوز لأحد إلّا بشرط إيمانه؛ ولذا خصّص دعاءه هنا، فقال: **(من آمن منهم)** ـ أي من أهل هذا البلد ـ **(بالله واليوم الآخر)**، قال اللّه تعالى استجبت دعاءك وزيادة عليه، **(ومن كفر)** منهم أيضاً نرزقهم **(فنمتّعه)** بالحياة والرّزق في الدّنيا **(قليلا)**، قال قليلاً وإن كان كثير من الكافرين رزقهم كثير جدّاً وحياتهم طويلة، لأنّ حياة الدّنيا مهما طالت، وأرزاقها مهما كثرت فإنّها قليلة جدّاً، لأنّها تزول بالموت ويبتلي صاحبها بالعذاب إن كان كافراً أو فاسقاً، ولكن حياة المؤمن وإن قصرت، وأرزاقه وإن قلّت فهي كثيرة، لأنّها تدوم ولا تزول بالموت، بل تتبدّل بحياة أبديّة لا تنقضي ورزق رغيد لا يفنى ولا يزول، **(ثمّ)** أي بعد الحياة الدّنيا **(أضطرّه)** أسوقه، **أي** الكافر مضطرّاً

ومكبولاً (**إلى عذاب النّار**) ، وهي جهنّم، (**وبئس**) فعل ذمّ، و(**المصير**) فاعله، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره (هي) راجعة إلى النّار، فالمعنى: بئس المصير النّار، أي إنّ النّار مصير سيّء جدّاً. ومن هذه الآية يفهم كما ذكرنا أنّ الدّعاء للكافر بأيّ خير لا يجوز إلّا بشرط الإيمان، كأن تقول: اللّهم طوّل عمره إن آمن، أو ارزقه كثيراً إن آمن، إلّا أنّه يجوز له الدّعاء بالهداية والإيمان، حيث قال (ﷺ) : (اللّهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون)[١].

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

(**وإذ**)، واذكر وقتما كان (**يرفع إبراهيم القواعد**)، أي الأسس (**من البيت وإسماعيل**) معه يرفع ويبني، فقالا: (**ربّنا تقبّل منّا**) هذا العمل (**إنّك انت السّميع**)، تسمع الدّعاء وحدك فقط. (**العليم**) بالدّعاء وحدك لا غيرك، وفي هذه الآية إشارتان:

الأولى: إنّ بناء بيوت اللّه تعالى من العبادات، بل هو من العبادات الكبيرة والمحبوبة إلى اللّه تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٨١ ـ . أخبر اللّه تعالى بناة المساجد بأنّهم مهتدون، لأنّ (عسى) في كلامه تعالى للتّحقيق، وقال (ﷺ): (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بني اللّه له بيتاً في الجنّة)[٢] والمراد هنا من عمل في بناء مسجد فبني منه ولو بمقدار مفحص قطاة بنى اللّه ... إلخ[٣]، لأنّ ما هو كمفحص قطاة لا يسع أن يكون مسجداً.

❊ ❊ ❊

حكاية: يحكى أنّ أحد المسلمين كان يبني مسجداً، فقدّر اللّه تعالى أنّ أحد العمال حينما كان يأتي للعمل في المسجد رأى حجراً جميلاً جدّاً في طريقه، فقال: واللّه إنّ

---

(١) شرح سنن ابن ماجة١/ ٢٩١.

(٢) صحيح ابن حبان ٤/ ٤٩٠ الحديث رقم ١٦١٠.

(٣) هذا المعنى موجود، وآخر أنه: لعله كناية عن أنه مهما كان صغيرا يثبت له الأجر، مبالغة في الصغر وهو نظير قوله () تصدّقن ولو بظّلف محرق /أنظر القرطبي ١٢/ ٨٣ و ٤/ ٢١٣.

هذا الحجر جميل جدّاً فآخذه وأضعه بزاوية الجدار، لأنّه في العادة أن توضع في الزّاوية الأحجار الجميلة، فأخذه ووضعه في زاوية من زوايا جدران المسجد، فرأى باني المسجد في المنام أنّه دخل الجنّة وأدخلوه قصراً وأعطوه المفاتيح، ففتح غرفة غرفة إلى أن انتهى، ووصل إلى غرفة لم يجد مفتاحها عنده، فطلب مفتاحه،، فقيل له: إنّ هذه الغرفة أعطيت للعامل الفلاني، لأنّه أتى بحجر ووضعه في زاوية من زوايا جدران المسجد! فلمّا انتبه ذهب إلى العامل، فقال له: هب لي الحجر الفلاني واسأل ماشئت من المال، فقال له: واللّه ما أبيعك بالدّنيا كلّها فإنّي رأيت مثل ما رأيت في المنام.

* * *

سؤال: إنّ النّاس يسمعون دعوات النّاس ويعلمون بها، فكيف قال في الآية: ﴿إنّك أنت السّميع العليم﴾، أي أنت سميع وعليم لا غيرك ؟

الجواب: إنّ السّمع سمعان، سمع استجابة، ومجرّد سمع، فسمع الاستجابة خاصّ بالله تعالى، حيث لا يستجيب الدّعوات إلّا هو، وكذلك العلم علمان، علم بالدّعوات، وعلم بما في قلوب الدّاعين من النيّة والإخلاص، فالعلم بالدّعوات يكون لغير اللّه تعالى أيضاً، و علم بما في قلب الدّاعي والعامل من النّيّة والإخلاص لا يعلمه إلّا الله تعالى.

ذكر لي أحد الأحباب أنّه قرأ في مجلّةٍ أنّ الإنسان يستطيع أن يتنبّأ بكلّ شأن وفي كلّ أمر، ولكن لا يستطيع أن يتنبّأ في نملة تمشي أنّها ماذا تريد وإلى ماذا تمشي، فقلت ولذلك يقول اللّه تعالى: ﴿إنّ اللّه عليم بذات الصدور﴾.

ونقول أيضاً: إنّ صفات اللّه تعالى من السّمع والبصر والقدرة والإرادة والكلام والحياة والعلم وغير ذلك، وإن اشترك فيها العباد إلّا أنّ صفات اللّه تعالى حقيقيّة قديمة دائمة وثابتة وذاتيّة لله تعالى وكاملة، ولكن صفات العباد عرضيّة حادثة زائلة وناقصة وليست حقيقيّة، فبهذا الاعتبار صحّ حصر إثبات هذه الصّفات لله تعالى وحده ونفيها عن غيره، وبهذا المعنى صحّ أن يقال لا موجود إلّا اللّه تعالى، أي لا موجود بوجود ذاتي إلّا اللّه تعالى، وما سواه موجود بوجودات عرضيّة أفيضت عليه من وجود اللّه تعالى، فلله درّ من قال:

اللّه قل وذر الوجود وما حوى — إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
من لا وجود لذاته من ذاته — فوجوده لولاه عين محال

الثّانية: أنّه ليس للإنسان أن يغترّ بعمله مهما كثر عمله الصّالح أو كبر، بل يجب أن يكون على خوف ورجاء من قبوله ويدعو اللّه تعالى قبوله، ألا يرى أنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) مع عظمة مقامهما وجلالة العمل الذي قاما به دعوا اللّه تعالى أن يتقبّل منهما عمل بناء البيت، فإنّ اللّه تعالى مختار في قبول عمل العبد وردّه.

* * *

تنبيه: إنّ هذه الآيه تنصّ على أنّ إبراهيم وإسماعيل هما بنيا البيت الشّريف، ولكن هل كان البيت موجوداً من قبل فاندرس فجدّدا بناءه؟ أو لم يكن موجوداً قبل بنائهما، وإن أوّل بناء هو ما بناه إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، نذكر ذلك إن شاء اللّه تعالى عند قوله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للّذي ببكّة مباركا وهدىً للعالمين﴾ سورة آل عمران الآية/ ٩٦ ـ .

* * *

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

وقال إبراهيم وإسماعيل حينما كانا يرفعان القواعد من البيت: **(ربّنا)**، أي ياربّنا **(واجعلنا مسلمين لك)**، أي اجعلنا متّصفين بالإسلام لك، والإسلام هو الانقياد لله تعالى وإطاعته وحده وعبادته دون غيره والاعتراف بنزاهته عن كلّ عيب ونقص وشريك وصاحبة وولد، وبثبوت جميع صفات الكمال له والإتيان بما أمر والاجتناب عمّا نهى، وهذا هو الإسلام، و هذا هو معناه أينما ورد في القرآن والسّنّة، وهذا هو دين اللّه الذي لا يقبل غيره، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٨.

* * *

سؤال: قد كان إبراهيم وإسماعيل(عليهما السلام) مسلمين، فكيف دعوا من اللّه تعالى أن يجعلهما مسلمين؟.

الجواب: عن هذا بوجهين:

الوجه الأوّل: إنّهما أرادا أن يثبّتهما الله تعالى على الإسلام، ولا يبعدهما عنه، وذلك كما تقول للقائم: قم، أي دم على قيامك.

الوجه الثّاني: إنّ الإسلام درجات، فأرادا أن يبلغهما ربهما الدّرجة العالية والأعلى في الإسلام، فيكون المعنى: اجعلنا مسلمين كاملين، وفي هذه الفقرة تعريض باليهود والنّصارى والمشركين، وكأن اللّه تعالى يقول لهم: إذا صدقتم في إعتزازكم بإبراهيم وفي الإيمان به فقد كان إبراهيم مسلماً، وكان يرجو من اللّه تعالى أن يثبّته عليه، فلماذا أنتم لا تعتنقون الإسلام ولا تتّبعون الرّسول الذي جاء به وهو محمّد (ﷺ)؟.

* * *

(ومن ذرّيّتنا)، أي واجعل ذرّيّتنا **(أمّةً مسلمةً)** متّصفة بالإسلام لك. و(مِن) في ذرّيّتنا ليس للتبعيض، بل هو مثل قولك: اللّهم اجعل من فلان عالماً عابداً، أي اجعله عالماً عابداً، ويسمّى هذا الأسلوب في البديع بالتّجريد، فالمراد واجعل ذرّيتنا كلّها أمّةً مسلمةً لك، حيث لا يتصوّر أن يدعو المرء لبعض ذرّيّته دون بعضها، **(وأرنا)**، أي وعلّمنا **(مناسكنا)**، أي كيفيّة أداء أعمال الحجّ وزيارة هذا البيت، فإنّ اللّه تعالى أمرهما أن يبنيا هذا البيت ليجعله محلاًّ للزّيارات ويحجّ إليه النّاس. **(وتب علينا)**، أي وارزقنا التّوبة من الذّنوب وتقبّلها منّا، **(إنّك أنت التّواب)**، أي أنت قابل التّوبة عن العباد ولا أحد سواك يستطيع ذلك، **(الرّحيم)** بالنّاس، فبرحمتك هذه تقبل التّوبة، لا لحاجة منك إلى النّاس ولا إلى توبتهم أو إلى شيء آخر، فإنّك غنيّ عن العالمين، فاقبل توبتنا بهذه الرّحمة يا ربّ يا أرحم الرّاحمين.

* * *

سؤال: إنّ إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) كانا رسولين، والرّسل معصومون عن الذّنوب، فكيف طلبا من اللّه قبول التّوبة منهما؟**الجواب**: عن هذا بوجهين: **الوجه الأوّل**: إنّ الرّسل والأنبياء مهما بلغا من الإطاعة والعبادة وإن كانوا معصومين إلّا أنّهم لمعرفتهم بعظمة ربّهم واستحقاقه لكمال العبودية من العباد، يرون أنفسهم دائماً مقصّرين تجاه اللّه تعالى، فيطلبون التّوبة أو العفو من هذا التّقصير، حتّى وإن لم يكن ذلك ذنباً.

الوجه الثّاني: إنّ المراد بالتّوبة عليهما وقبولها منهما هو إدامة عصمتهما وحفظهما من الذّنوب. وهناك أجوبة اخرى تركتها، لأنّ هذين أجودها.

* * *

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

وقال إبراهيم وإسماعيل (ﷺ) حين بناء البيت (**ربّنا**)، ياربنا، (**وابعث**) وارسل (**فيهم**) في ذرّيّتنا (**رسولاً**) من قبلك، ويكون ذلك الرّسول (**منهم**) من عشيرتهم (**يتلو**) الرّسول (**عليهم آياتك**) أحكامك في الدّين، (**ويعلّمهم الكتاب**) الذي فيه شريعتك وأحكامك، (**والحكمة**) أي يعلّمهم الإتيان بالأعمال باتّقان ووفق ما أمرت به، (**ويزّكيهم**) ويطهّرهم بحاله وأقواله من الشّرك والكفر والفسق والفجور وما يخالف دينك الذي ترضاه، (**إنّك**) يا ربّنا (**أنت العزيز**) ذو العزّة والقدرة، فتقدر أن ترسل لهم رسولاً كما طلبنا، (**الحكيم**) الذي لا تعمل عملاً إلّا وفق الحكمة. وهذه الآية أيضاً تعريض بأهل الكتاب اليهود والنّصارى وبالمشركين، وكأنّ اللّه تعالى يقول: إنّ محمّداً هو الرّسول الذي دعاه إبراهيم من ربّه، وجاء لتجديد دينه وتطهيره مما لصق به من الشّرك والخرافات والتّحريف والتّبديل والأباطيل، فإن صدقتم في الاعتزاز والافتخار والإيمان بإبراهيم فآمنوا بهذا الرّسول الكريم. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى أنّ هذا الرّسول هو من أولاد إبراهيم، وأنّه جاء بما كان عليه إبراهيم (ﷺ) - وهو الإسلام دين توحيد اللّه تعالى وتنزيهه عن النّقص والعيب والشّريك والولد والصّاحبة وإثبات جميع صفات الكمال لهــو مع ذلك أصرّ اليهود والنّصارى والمشركون على عدم الإيمان بالرّسول (ﷺ)، لذلك وصفهم اللّه تعالى بالسّفه وخفّة العقل والإدراك والشّعور والتّفكير، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

(**ومن يرغب**)، الاستفهام للإنكار، وإنكار المثبت نفيّ، فيكون المعنى وما يرغب وينحرف (**عن ملّة**) دين (**إبراهيم**)[1] **الذي جاء به محمّد** (ﷺ) (**إلّا من سفه**)، أي من حمل (**نفسه**) على السّفاهة وقلّة العقل والتّفكير، (**ولقد اصطفيناه**)، أي اخترنا ابراهيم

(١) أي دين الإسلام.

(ﷺ) **(في الدّنيا)** للرّسالة وإمامة النّاس، **(وإنّه في الآخرة لمن الصّالحين)** لدخول الجنّة ولقائنا بالإحترام والتّكريم، ومن هذا صفته فالرّاغب عن دينه سفيه جدّاً، ودينه هو ما جاء به محمّد (ﷺ)، فالرّغبة عن دينه سفه وقلّة في العقل.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

(إذ) ظرف بمعنى الوقت، والعامل فيه قوله: **(اصطفيناه)**، أي اصطفينا إبراهيم وقتما **(قال له ربّه أسلم)**، انقد لإطاعتنا واتّباع شريعتنا ـ شريعة التّوحيد والتّسبيح والتّحميد ـ **(قال)** إبراهيم بلسانه وحاله **(أسلمت)**، انقدت **(لربّ العالمين)**، فانقاد لذلك ولم ينحرف عن دين اللّه قيد شعرة.

* * *

تنبيه: كلمة (إذ) ظرف بمعنى (الوقت)، ولابدّ له من عامل يعمل فيه، وقد مرّت هذه الكلمة في آيات كثيرة، وقدّرنا في كلّها للعمل فيه كلمة: (واذكر) إلّا هنا، حيث جعلنا العامل فيه (اصطفينا) المذكور، فلذلك نذكر لك قاعدة تعرف بها العامل في (إذ) أينما وجدته في القرآن الكريم، فنقول: كلمة (إذ) أينما وقع في القرآن الكريم فهي ظرف زمان بمعنى الوقت، وتضاف إلى جملة وقع مضمونها في الماضي، ولها حالتان: لأنّ (إذ) قد يقترن بها الواو أو لا، فإذا كان معها الواو فيقدّر للعمل فيها كلمة (اذكر) دائماً، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ سورة الكهف الآية/ ٦٠، أي واذكر وقتما قال موسى لفتاه لا أزال أسير حتّى أبلغ مجمع البحرين إلى أن أسير حقباً، أي أزمنةً مديدةً، وأمثال هذه الآيات كثيرة. وقد تكون (إذ) بدون واو، فقد يكون عاملها مذكوراً صريحاً، كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ سورة غافر الآية/ ٧٠،٧١، أي فسوف يعلم الكفّار عاقبتهم وبطلان عقيدتهم وقت جعل الأغلال في أعناقهم والسّلاسل يسحبون بها إلى النّار وفي النّار، فالعامل في (إذ) هنا هو (يعلمون) المذكور في الآية صريحاً. وقد يكون العامل فيه مذكوراً ضمناً، كقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ﴾ سورة الحشر الآية/ ٦١، فالعامل في (إذ) لفظ (يشابه) حذف لدلالة لفظ (كمثل) عليه، فالمعنى: حالهم يشابه حال الشّيطان إذ قال...إلخ. وإن لم يذكر العامل لا لفظاً ولا ضمناً فيقدّر له كلمة: (اذكر) أيضاً، كمثل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ

إنّي آنَسْتُ نَارًا﴾ سورة النمل الآية/ ٦-٧. أي اذكر إذ قال موسى .... إلخ، فاحفظ هذه القاعدة فإنّها تفيدك جدّاً في تفسير الآيات الكريمة إن شاء اللّه تعالى، وادع لنا بالفلاح والفوز برضاء اللّه تعالى يا أخي القارئ.

* * *

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

(ووصّى بها) ، أي بهذه الكلمة، أي **(أسلمت لربّ العالمين)**، أو الضّمير راجع إلى الملّة في قوله: **(ومن يرغب عن ملّة إبراهيم)**، فالمعنى: وصّى إبراهيم بهذه الكلمة أو بملّته ودينه **(بنيه)**، جميع أبنائه ـ وهم إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة ومدين ومدائن ونهشان وزمران ونشيق وشيوخ من قنطورا بنت يقطن الكنعانية التي تزوّجها بعد وفاة سارة ـ وهذا تعريض باليهود والنّصارى بأنّ هذه وصيّة إبراهيم ويعقوب، فإن صدقتم في الإعتزاز والإيمان بهما فلمَ لا تنفّذون وصيّتهما فتؤمنوا وتعتنقوا الإسلام الذي جاء به محمّد (ﷺ)، وفي هذه الآية أيضاً إشارة إلى وجوب وصيّة الآباء أبناءهم بالدّين وتربيتهم عليه، **(ويعقوب)**، أي ووصّى يعقوب بنيه بهذه الوصيّة أيضا، فقال وصّى إبراهيم ويعقوب لأبنائهما: **(يا بنيّ)** ـ أصله (بنون) جمع (ابن) أضيف إلى الياء، فحذفت النّون، فصار (بنوي)، اجتمعت الواو والياء والسّابق منهما ساكن فأدغم الواو في الياء (وهذه قاعدة صرفية) فصار **(بنيّ)** بضم النون، ثمّ كسّر النّون لاقتضاء الياء كسر ما قبله، فصار **(بنيّ)** ـ ـ أي (يا بنيّ) **(إن اللّه اصطفى)** اختار **(لكم الدّين)** الصّافي من كلّ نقص وعيب ـ وهو دين الإسلام ـ فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون، أي فعيشوا على الإسلام وموتوا عليه. اللّهم أمتنا عليه يا أرحم الرّاحمين. وبعد أن ذكر الله تعالى أنّ يعقوب وصّى ذرّيّته بالإسلام أوّل الأمر ذكر تعالى أنّ يعقوب كرّر الوصيّة حين وفاته أيضاً للتّأكيد، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

(أم) للاستفهام بمعنى: (هل)، أي: هل؟ والاستفهام للإنكار، أي ما **(كنتم شهداء)** حاضرين **(إذ)** وقتما **(حضر يعقوب الموت)**، ظهر له علاماته وتيقّنه، **(إذ)** وقتما **(قال لبنيه)** الحاضرين والملتفّين حوله: **(ماذا تعبدون من بعدي)** أي بعد وفاتي،**(قالوا)** كلهم: **(نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له)** لهذا الإله **(مسلمون)** منقادون ومتّبعون دينه ـ دين الإسلام ـ فيا بني إسرائيل ويا أيّها اليهود والنّصارى هذه وصيّة يعقوب ووعد أبنائه، فإن صدقتم أنّكم تعتزّون بهم وتؤمنون بهم فأسلموا وآمنوا بالإسلام الذي جاء به محمّد (ﷺ). ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ اعتزازهم بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) لاتفيدهم شيئاً مالم يتديّنوا بدينهم ويتخلّقوا بأخلاقهم ويعملوا أعمالهم ويسيروا وفق سيرتهم، فقال جلّ وعلا:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

(تلك) هؤلاء ـ وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) ـ **(أمّة)** جماعة، **(قد خلت)** وماتوا كلّهم، **(لها ما كسبت)** من أعمال الخير فإنّها تنفعهم فقط، ولا تنفعكم شيئاً **(ولا تسئلون عما كانوا يعملون)**، أي ولا تضرّكم ذنوبهم لو وجدت إلّا أنّها لم توجد، لأنّهم أنبياء معصومون، وإنّما ذكر ذلك لتكون قاعدة لجميع الآباء والأبناء في أنّه لا ينتفع أحد بعمل أحد إن كان خيراً، ولا يتضرّر بعمله إن كان شرّاً، فكلّ يؤخذ ويثاب بعمله، وفي هذه الآية دليل على أنّ افتخار الأولاد والأحفاد بآبائهم وأجدادهم الصّالحين ضلالة وغواية ما لم يتخلّقوا بأخلاقهم، وما أكثر هذه الضّلالة اليوم. ثمّ بعد هذه المحاورة الطّويلة والمحاججة الكثيرة التي لم تبق لليهود والنّصارى أيّة حجّة وأيّة معذرة في عدم قبول الإسلام والدّخول فيه، بعد كلّ ذلك أصرّوا على ما هم عليه من الضّلالة والغواية، بل كانوا يدعون المسلمين إلى اعتناق ضلالتهم وغوايتهم وهذا، ما قاله جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

(وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا)، أي قال اليهود للمسلمين كونوا هوداً تهتدوا، وقال النّصارى كونوا نصارى تهتدوا، فعلّمَ اللّهُ تعالى المسلمَ جوابهم، فقال:

(فقل) أيّها المسلم **(بل)** نتّبع **(ملّة إبراهيم حنيفاً)** حائلاً عن الباطل والشّرك والتّحريف، **(وما كان)** إبراهيم **(من المشركين)**، كما أنتم تشركون بالله تعالى.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

(قولوا) أيّها المسلمون في جوابهم **(آمنّا بالله)** إيماناً صحيحاً، لا كإيمانكم الباطل، حيث تثبتون له الشّريك والوالد، **(و)** وآمنّا بـ **(ما أنزل إلينا)** من الإسلام **(وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط)** ـ (الأسباط) جمع (سبط) وهو الحفيد ـ أي ما أنزل على أحفاد يعقوب، فقد كان له اثنا عشر ابناً، فسمّي ذرّيّة كلّ ابن (سبطاً)، فصاروا اثنى عشر سبطاً، وآمنّا **(بما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربّهم)**، فإن كلّ ذلك جاء من اللّه تعالى، وكان ما أنزل إليهم جميعهم هو الإسلام، **(لا نفرّق بين أحد منهم)** من هؤلاء الرّسل والأنبياء في الإيمان بهم، لا في تفضيل بعضهم على بعض فإن ذلك موجود، **(ونحن له)** للرّبّ **(مسلمون)** مستقيمون على دين الإسلام، وفي هذه الآية تعريض بأنّ اليهود والنّصارى كلّهم انحرفوا عمّا كان عليه هؤلاء الرّسل والأنبياء والذّين كانوا يعتزّون بهم ويعتقدون أنّهم على دينهم كذباً وزوراً.

❊ ❊ ❊

سؤال: ألم تكن اليهوديّة دين موسى والنّصرانية دين عيسى ونازلان من عند اللّه تعالى؟**الجواب:** نعم كان كلّ من دين موسى وعيسى حقّاً ومن اللّه تعالى، وكان هو الإسلام، إلّا أنّ الأحبار والرّهبان غيّروه وحرّفوه وسمّوه اليهوديّة والنّصرانيّة، وفي هذه الآية دليل على أنّ دين اللّه تعالى الأزلي الخالد من آدم (عليه السلام) إلى محمّد (ﷺ) هو الإسلام، وجميع الأنبياء والرّسل جاؤوا بهذا الدّين من عقائده ومهمات أحكامه، وإن اختلف بعض الفروعات، كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ سورة الشّورى الآية/١٣، وهذا صريح فيما قلنا.

❊ ❊ ❊

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾

قولوا لهم ما قلنا، **(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به)**، من توحيد اللّه وتنزيهه عن الشّريك والصّاحبة والولد، ومن أحكام الأسلام، وبالنّبيّ الذي جاء به، **(فقد اهتدوا) إلى** الحقّ والرّشد والدّين الحقّ، **(وإن تولّوا)** فلم يؤمنوا **(فإنّما هم في شقاق)** ونزاع معكم، ولذلك لا يؤمنون لا لخفاء الحقّ عليهم **(فسيكفيكهم اللّه)** ويحفظك من عاقبة نزاعهم وعداوتهم، **(وهو السّميع)** لجميع أقوالهم فيعاقبهم عليها، **(العليم)** بجميع أعمالهم فينتقم منهم عليها، وفي ذلك تسلية للرّسول ووعد بالأمان والحفظ له، وقد وقع كما قال، ففي هذا الخبر معجزة الإخبار عن المستقبل كما وقع.

ثمّ وصف اللّه تعالى ملّة إبراهيم، أي دين إبراهيم بأنّها صبغة اللّه تعالى أحسن صبغة، فقال جلّ وعلا:

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

(صبغة اللّه)، أي اتّبع ملّة إبراهيم، وهي صبغة اللّه تعالى **(ومن أحسن من اللّه صبغة)** والاستفهام للإنكار، فمعناه: إنّ صبغته أحسن، فديننا أحسن من دينكم، لأنّه دين اللّه تعالى، ودينكم وإن كان من قبل دين اللّه إلّا أنّه حرّفه الأحبار والرّهبان فأصبح دين الأحبار والرّهبان لا دين اللّه تعالى، سمّى الدّين صبغة، لأنّ الدّين يعطي ميزة للمتديّن بين النّاس ووضاءة في الوجوه، قال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ سورة الفتح الآية/ ٩٢ ـ ، **(ونحن له)** لله لا لغيره **(عابدون)**، ولكنّكم تعبدون غيره كـ (عزير والمسيح والعذراء).

ثمّ إنّ اليهود والنّصارى كانوا يحاجّون المسلمين في شيئين:

الأوّل: في اللّه تعالى، فيقولون نحن أقرب إلى اللّه تعالى. إنّنا أبناء اللّه وأحبّاؤه، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها المسلم لليهود والنّصارى **(أتحاجّوننا في اللّه)** وتقولون

نحن أقرب إليه **(وهو ربّنا وربّكم)**، والرّبّ نسبته إلى كلّ المربوبين سواء، والمربوب مملوك للرّبّ، والمملوك لا يكون إبناً للمالك لمنافاة البنوّة للملك، فكيف تقولون: نحن ابناؤه؟ هذا وإنّما يتقرّب العبد من اللّه ويكون حبيبه بالأعمال الصّالحات، **(ولنا أعمالنا)** التي نعملها ونؤدّيها، **(ولكم أعمالكم)** التي تعملونها، إلّا أنّ أعمالنا أولى بأن تقرّبنا من اللّه وتجعلنا أحبّاؤه، حيث **(ونحن له)** لله تعالى **(مخلصون)**، حيث تنزّه عملنا عن كلّ شائبة من الشّرك والأباطيل، وأنتم تشركون باللّه في أعمالكم وأدخلتم فيه مالم يأمر به اللّه تعالى ولم ينزّل به الشّرع الشّريف، فنحن أحبّاؤه لا أنتم، لأنّ اللّه تعالى لا يقبل عملاً فيه شرك ولا عملاً لم يرد به الشّرع منه.

الثّاني: كانوا يحاجّونهم في إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط (على نبينا وعليهم الصلاة والسلام)، ويقولون: هؤلاء كانوا على ديننا، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾

(أم)، أي أم تحاجّوننا، وتقولون: **(إنّ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً)** حسب ادّعاء اليهود، **(أو نصارى)** حسب ادّعاء النّصارى، **(قل)** أيّها المسلم لهم **(أأنتم أعلم)** بحال هؤلاء **(أم اللّه)**، وقد أخبر اللّه تعالى في كتبكم بأنّهم كانوا مسلمين إلّا أنّكم حرّفتموه وغيّرتموه، **(ومن أظلم ممّن كتم شهادةً عنده)**، وهذه الشّهادة واردة من اللّه تعالى وهو أنّ هؤلاء كانوا مسلمين، **(وما اللّه بغافل عمّا تعملون)** من الكذب وكتم الشّهادة وتحريف كلام اللّه وتبديل دين ربّ العالمين فينتقم منكم على ذلك كلّه.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

قد مرّ تفسير هذه الآية، وأعيدت هنا، لأنّ الإشارة كانت قبل إلى إبراهيم وبنيه ويعقوب وبنيه فقط، وهنا الإشارة إلى هؤلاء مع زيادة إسماعيل والأسباط (عليهم السلام) فالمشار إليهم هنا أكثر من هناك، فلكلّ إنسان عمله، ولا تغترّ بالغير وعمله لإنتسابك

إليه، فإنّه كما لا يشبع المرء بأكل غيره لا يصلح بصلاح غيره، بل لكلّ صلاحه وفساده وجزاؤهما يوم الدّين. قال شاعر كردي ما ترجمته هكذا:

إذا بستاني لم يثمر فمالي بساتين الورى مَلأى ثماراً

إذا غيري لهم غرّ الخيول فمالي حيث لم أملك حماراً

وقال رسول اللّه (ﷺ): (يا فاطمة بنت رسول اللّه اعملي خيرا، فإنّي لا أغني عنك من اللّه شيئاً)[1] .

اللّهم ارزقنا حسن الأعمال واختم لنا بالخير الآجال، وأمتنا على الإسلام خير الأديان، وأحسن ختامنا بالجود والإفضال وأنت أرحم الراحمين.

تمّ الجزء الاوّل والحمد للّه في اليوم الخامس من ذي الحجّة الحرام سنة ١٤٢١ من هجرة خير الأنام (ﷺ) سبحان ربّك ربّ العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين وعلينا وعلى أممهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

(انتهى الجزء الأوّل، ويليه الجزء الثّاني إن شاء الله تعالى)

(١) مسند البزار (البحر الزخار) ٧/ ٣٢٠ الحديث رقم ٢٩١٩ بهذا اللفظ.

(الجزء الثّاني)

(يبدأ من الآية (١٤٢) إلى نهاية الآية (٢٥٢) من سورة البقرة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ثمّ دخل القرآن معركةً أخرى مع اليهودِ والنَّصارى والمنافقين، حيث نقدوا رسول اللّه (ﷺ) والمؤمنين ولاموهما على تحوّلِهما عن التّوجّه إلى المسجدِ الأقصى وبيت المقدّس إلى التّوجه إلى المسجد الحرام في الصّلاة، فقد وردَتْ أحاديث صحيحة أنَّ رسول اللّه ((كان يُصَلِّي في مكّة المكّرمة إلى بيت المقدّس ويجعل الكعبة بينه و بين بيت المقدّس فيجمع بينهما، فلمّا هاجر إلى المدينة لم يمكن الجمع، فكان يصلّي إلى بيت المقدّس ستة عشر شهراً أو أقلّ أو أكثر على اختلاف الرّوايات، فكان يحبّ أن يأمرهُ اللّه تعالى بالتّحوّل إلى الكعبة قبلة أبيه إبراهيم (ﷺ)، فأمره تعالى أن يتوجّه إلى الكعبة، وقبل أن يأمره بذلك أخبره بعواقب هذا التّحوّل من ملامة الكفّار والمنافقين له وصعوبة ذلك على بعض المؤمنين، لئلّا يكون الأمر مفاجأة، وليتهيّأ لمواجهة تلك العواقب قبل الوقوع، فقال جلّ وعلا:

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾

(سيقول) ذلك **(السّفهاء من النّاس)** بعد تحوّل القبلة على سبيل النّقد والملامة والدّعاية المغرضة : **(ما ولّاهم)**، أيّ شيء وأيّ سبب حوّلهم ـ أي الرّسول والمؤمنين ـ **(عن**

قبلتهم التّي كانوا عليها) ـ وهو بيت المقدّس ـ **(قل)** في جوابهم: **(للّه المشرق والمغرب)**، أي إنّ المشرق والمغرب والجهات كلّها ملك للّه تعالى، فلا جهة في ذاته أشرف وأعظم من جهة، ولا جهة تقتضي من حيث ذاته التّوجّه إليها، بل إنّ الأمر في ذلك كلّه مربوط بأمر اللّه تعالى وإرادته، فالمدار على الأمر لا على الجهة وشخصيّتها، **(يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)**، وهو اتّباع الأمر وعدم العدول عنه وعدم السّؤال عن العلل والأسباب حين ورود الأمر والنّهي، فالمعنى إنّ اللّه تعالى أمرني بذلك فاتّبعت أمره وامتثلت.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

(وكذلك)، أي ومثل ما هديناكم إلى صراط مستقيم **(جعلناكم أمّة وسطاً)**، أي أمّةً عدلاً وفضلى، **(لتكونوا شهداء على النّاس)** في يوم القيامة، وذلك أنّه ورد في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللّه (ﷺ): يُدعى نوح (عليه السلام) يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا ربّ، فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمّته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول تعالى لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمّد وأمّته، فيشهدون أنّه قد بلّغ. وزاد في الحديث ابن مبارك، فتقول الأمم: كيف يشهد علينا من لم يدركنا؟ فيقول لهم الرّبّ: كيف تشهدون على من لم تدركوا؟ فيقولون: ربّنا بَعَثْتَ إلينا رسولاً وأنْزَلْتَ الينا عهدك وكتابك وقَصَصْتَ علينا أنّهم قد بلّغوا، فشهدنا بما عهدتَ إلينا، فيقول الرّبّ: صدقوا. فهذه هي شهادة هذه الأمّة العادلة على النّاس. اللّهم اجعلنا منها وثبّتنا عليها يا أرحم الرّاحمين آمين. **(ويكون الرّسول عليكم)** وعلى أعمالكم **(شهيداً)** يوم القيامة، قدَّم **(عليكم)** على **(شهيداً)**، لئلّا يُتوهّم أوّل الأمر أنّ الرّسول شهيد على الأمم أيضاً، فإنّ الشّاهد على الأمم هي الأمّة الإسلامية لا رسولها. ففي سنن التّرمذي عن عبادة بن الصّامت قال: سمعت رسول اللّه (ﷺ) يقول: أُعطيت أمّتي ثلاثاً لم تُعط إلّا الأنبياء، كان اللّه إذا بعث نبيّاً، قال له: ادعني استجب لك، وقال لهذه الأمّة: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ غافر ٦٠، وكان اللّه إذا بعث نبيّاً قال

له: ما جعل عليك في الدّين من حرج، وقال لهذه الأمّة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ الحج ٧٨، وكان الله إذا بعث نبيّاً جعله شهيداً على قومه، وجعل هذه الأمّة شهداء على النّاس. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن الحكمة في تحويل القبلة، فقال جلّ وعلا: **(وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها)**، أي أصبحتَ عليها، عَبَّرْ عن ذلك بالماضي لتحقّق وقوعه **(إلّا لنعلم من يتّبع الرّسول)** ـ وهو محمّد (ﷺ) ـ ونميّزه **(ممّن ينقلب على عقبيه)** فلا يتّبعه، والمعنى جعلنا لك قبلة خاصّة، لنجعلها شعاراً للمسلمين يتميّزون به عن غيرهم، ويبقى هذا الشّعار إلى يوم القيامة يعرف المسلمون به ويتميّزون به عن سائر الملل، وقال: **(لنعلم)**، وإن كان اللّه تعالى عالماً بكلّ شيء، بشعار وبدون شعار، لأنّ معناه لأعلم أنا وغيري، ومعنى علمه تعالى أنّ علمه الأزلي المتعلّق بذلك الشّيء وهو معدوم يتعلّق به وهو موجود ومحقّق في الخارج، **(وإن)** ـ (إنْ) هذه مخفّفة من الثّقيلة تعمل في ضمير الشّأن المقدّر، فالتّقدير (وأنّه)، أي أنّ الشّأن **(كانت)** حادثة التّحوّل للقبلة **(لكبيرة)** لثقيلة، **(إلّا على الّذين هدى اللّه)**، أي هداهم هداية لا نفاق ولا تردّد فيها، وهم الذين يتّبعون الأوامر دون تردّد وسؤال عن الأسباب، (فإنْ) هنا يفيد معنى قد، فالمعنى قد كانت هذه الحادثة كبيرة ....إلخ.وحينما تحوّلت القبلة سأل المؤمنون عن الصّلوات التي صلّوها من قبل إلى المسجد الأقصى وصلاة من مات ولم يدرك هذه القبلة هل هي باطلة، فقال: **(وما كان اللّه ليضيع إيمانكم)**، أي صلواتكم التي صلّيتموها قبل إلى بيت المقدّس، بل هي مقبولة، لأنّ القاعدة أنّ القانون لا يسري فيما قبل. **(إنّ اللّه بالنّاس لرؤوف)** رافع لمكروههم **(رحيم)** ولرحمه هذا يفعل ذلك. وقد عبّر عن الصّلاة بالإيمان، لأنّها العمدة في الإسلام، فكان كالإيمان، وفي الحديث: (الصّلاة عمد الدّين فمن أقامها فقد أقام الدّين ومن تركها فقد هدم الدّين)[1]. ثمّ بعد هذا التّمهيد والمقدّمات وإخبار الرّسول بتحوّل القبلة عيّن اللّه تعالى القبلة **التي** يتوجّه إليها، فقال جلّ وعلا:

---

(١) لم أجد هذا حديثا بهذا اللفظ. وروي بألفاظ أخرى ك (الصلاة عماد الدين والجهاد سنام العمل) وفي بعضها بزيادة (والزكاة تثبت ذلك أو والزكاة بين ذلك) بأسانيد ضعيفة / أنظر التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي٢/ ١٠٨.. واشتهر على ألسنة الفقهاء بهذا اللفظ الذي ذكره الشيخ المفسر رحمه الله تعالى / أنظر كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس للشيخ اسماعيل العجلوني ٢/ ٤٠.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

(قد نرى تقلّب وجهك)، أي رفعه إلى السّماء داعياً من اللّه تعالى أن يأذن لك في التّوجه إلي المسجد الحرام قبلة أبيك إبراهيم فاستجبنا دعاءك، **(فلنولّينّك)** فلنحوّلنّك إلى **(قبلة ترضاها)** ـ وهي المسجد الحرام ـ **(فولّ وجهك)** فيما بعد إلى **(شطر المسجد الحرام)**، أي إلى نفس المسجد أو إلى جهته، **(وحيثما كنتم)**، أي وفي أيّ مكان كنتم **(فولّوا وجوهكم شطره)**، أي إلى نفسه إو إلى جهته، **(وإنّ الذين أوتوا الكتاب)** من اليهود والنّصارى **(ليعلمون أنّه)** ـ أي تولّي المسجد الحرام ـ **(الحقّ)** المأمور به **(من ربّهم)**، لأنّهم يجدون في كتبهم أنّ الكعبة كانت قبلة إبراهيم وتكون قبلة الرّسول الموعود به في التّوراة والإنجيل وقبلة أمّته المسلمين، إلّا أنّهم كتموا ذلك وحرّفوه وبدّلوه، **(وما اللّه بغافل عما يعملون)** من كتم الحقّ وتبديل ما في كتب اللّه تعالى وتحريفه فينتقم منهم انتقاماً شديداً.

* * *

تنبيه: لا خلاف في أنّ من لم يتوجّه إلى الكعبة في صلاته فصلاته باطلة، ولا خلاف فيمن كان في مكان يرى الكعبة فيه يجب عليه أن يتوجّه إلى نفس الكعبة، بحيث لو مرّ خط من صدره إلى جهة الكعبة لوقع فيها، وإن لم يتوجّه إلى نفسها فصلاته باطلة، وأمّا الغائب عنها فعند الشّافعي (رحمه اللّه تعالى) يجب أيضاً أن يتوجّه إلى نفس الكعبة، لأنه فسّر (شطره) بـ (نفسه)، وعند أبي حنيفة ومالك (رحمهما اللّه تعالى) لو صلّى إلى جهته صحّت صلاته وإن لم يُصب نفس الكعبة، لأنّ (الشّطر) عنده بمعنى الجهة، فلو صلّى من يقع في شمال مكّة أو في جنوبها، فالواجب أن يقف بحيث لو مرّ خط من صدره أن يقع ذلك الخط على جزء من الخط الذي يمرّ بالكعبة من الشّرق إلى الغرب، ومن صلّى في شرق مكّة أو غربها أن يقع الخط على جزء من الخط المارّ بالكعبة من الجنوب إلى الشّمال. والحاصل أنّه لو أصبح يمين المصلّي أو يساره إلى جهة مكّة فلا تصح صلاته، وإلّا فتصح، هذا وإنّ لكلّ من الشّافعي رأيي

حنيفة أدلّته، إلّا أنّ ما قاله الإمام الشّافعي (رحمه اللّه تعالى) تكليفٌ بما لا يحصل ولا يطاق واللّه تعالى أعلم.

* * *

ثمّ إنّ حادثة تحوّل القبلة أورثت مناقشة شديدة بين الرّسول (ﷺ) وأحبار اليهود وبين المسلمين وغيرهم، وسبّبَ ذلك تعباً وحزناً للرّسول (ﷺ)، فسلاه اللّه تعالى وخفّف من تعبه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

(ولئن)، أي وبعزّتي لئن **(أتيت الّذين أوتوا الكتاب)** ـ وهم اليهود والنّصارى ـ **(بكلّ آيةٍ)** دليلٍ مقنع على أنّ قبلتك حقّ وصدق **(ما تبعوا قبلتك)** أبداً لعنادهم واستكبارهم، **(وما أنت بتابعٍ قبلتهم)** حيث لست متّبعاً للباطل، **(وما بعضهم بتابعٍ قبلة بعض)**، لأنّ اليهود لا يتّبعون قبلة النّصارى ولا النّصارى يتّبعون قبلة اليهود، فأعرض عنهم، **(ولئن اتّبعت أهواءهم)**، أي أحكامهم المبنيّة على الهوى؛ لأنّهم حرّفوا دينهم الأصليَّ، وبطّلوا أحكامه، وبنوا أحكاماً أخرى حسب هواهم، وما بقي من دينهم صحيحاً فقد نسخ بالإسلام، فهم باقون عليه لهواهم، لأنّهم كانوا يعرفون نسخ دينهم حسبما أخبرهم الكتب السّماوية السّابقة، **(من بعدما جاءك من العلم)**، وهو الإسلام، وإنّ القبلة هي الكعبة **(إنّك إذاً)** ـ (إذاً) من الظّروف التي تضاف إلى الجملة بمعنى الوقت، والتّنوين عوض عن المضاف إليه، فالتّقدير إنّك إذ اتّبعت أهواءهم **(لمن الظّالمين)** المخالفين لأمر اللّه تعالى، والمراد بهذا الخطاب الأمّة لا الرّسول (ﷺ)، لأنّه معصوم لا يتصوّر منه الظّلم واتّباع أهواء أهل الكتاب، والوعيد عامّ في كلّ أمر، ففي كلّ أمر وشأن وحكم وعادة وتقليد اتّباع أهل الكتاب ظلم، أي كفر إن رأيته أحسن من الإسلام، وفسق إن كان لهوىً أو لمصلحة وتجرّ إلى الكفر أخيراً لقوله تعالى: ﴿كلّا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون﴾ سورة المطففين الآية/ ١٤ ـ ولمّا قيل: المعاصي بريد الكفر، أعاذنا اللّه تعالى منه آمين.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

(**الّذين آتيناهم الكتاب**)، وهم اليهود والنّصارى (**يعرفونه**) الضّمير إمّا راجع إلى الرّسول (ﷺ)، فيكون المعنى: يعرفونه أنّه رسول وأنّه لا يكذب في حقيّة تحوّل القبلة، أو راجع إلى تحوّل القبلة، فيكون المعنى، يعرفون أنّ تحوّل القبلة حقّ فيعرفون كلّ ذلك، (**كما يعرفون أبناءهم**)، ولا يشكّون في ذلك لما يجدونه في التّوراة والإنجيل،(**وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ**) وهو حقيّة رسالة الرّسول (ﷺ) وتحوّل القبلة، (**وهم يعلمون**) أنّ هذا كتم للحقّ وكفر ومعصية، إلّا أنّ العناد والكبرياء وأطماع الدّنيا تعمي وتصمّ وتسوق بالمرء إلى كلّ شرّ. فما أصدق من قال: حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

وهذا الخطاب أيضاً وجّه إلى الرّسول (ﷺ)، والمراد به المسلمين الضّعفاء، فالمعنى (**الحقّ من ربّك**) ظهر واتّضح بأنّ الكعبة هي القبلة التي أرادها اللّه تعالى لكم، (**فلا تكوننّ**) أيّها المسلم (**من الممترين**)، من المتردّدين في هذا الأمر والشّاكّين فيه، حيث لا يتصوّر الشّكّ والتّردّد من الرّسول (ﷺ) فيما أوصى اليه وأمر به من اللّه تعالى.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

(**ولكلّ**) واحد منكم ـ من اليهود والنّصارى ـ (**وجهة**)، بمعنى ما يواجه ويتوجّه إليه، أي لكلّ منكم قبلة غير قبلة الآخر، (**هو مولّيها**) يولي وجهه إليها لا إلى وجهة غيره، فأعرضوا عنهم ولاتجادلوهم واعملوا، (**فاستبقوا**)، فتوجّهوا إلى عمل (**الخيرات**)، ومن أفضلها الصّلوات، واللّه تعالى يحكم بينكم يوم القيامة ويظهر ما هو الحقّ منكم بثواب المحقّ وعقاب المبطل. وإنّكم (**أينما كنتم**) في البرّ أو البحر أو في جوف الحيوانات (**يأت بكم اللّه جميعاً**) بعد إحيائكم إلى الحشر والحساب، فينتقم من المبطلين ويثيب المحقّين، (**إنّ اللّه على كلّ شيء قدير**)، فلا يصعب عليه جمع الجميع

والإتيان بهم إلى الحساب، وهذا وعيد لأهل الكتاب الذين طعنوا في تحوّل الرّسول (ﷺ) بالعذاب ووعد للمؤمنين بالثّواب.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

(ومن حيث خَرَجْتَ) من بلدتك أيّها النّبيّ وأيّها المسلم **(فولّ)** وجّه **(وجهك)** في الصّلوات **(شطر)** إلى شطر أي جهة أو جزء من **(المسجد الحرام)** وهو البيت، و أعاد هذا الأمر بعدما ذكره بقوله قبل **(وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره)**، لأنّ الأوّل كان لبيان القبلة وللإخبار بأنّ أهل الكتاب يعلمون حقّيّة هذه القبلة، وأنّ الله تعالى ينتقم منهم على كتمهم ذلك وإنكارهم له، وهنا أعيد لبيان أنّك أيّها المسلم حيثما كنت تتوجّه إلى هذه القبلة، **(وأن هذا)** التّوجّه **(هو الحقّ من ربّك)** فقد أصبت ما هو القبلة عند اللّه تعالى وتُثاب على ذلك أيضاً، كما قال: **(وما اللّه بغافل عما تعملون)** إذ المعنى أنّه يثيبكم على هذا العمل ـ وهو التّوجّه إلى البيت ـ لأنّ المؤمنين كلّهم يعلمون أنّ اللّه تعالى ليس غافلاً عمّا يعملون، فلو لم يحمل الكلام على الوعد بالثّواب لكان الخبر غير مفيد، وهذا محال في كلام اللّه تعالى. ثمّ أعيد الأمر بالتّوجّه الى المسجد الحرام مرّةً أخرى في قوله جلّ وعلا:

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا﴾

ليرتّب عليه قوله جلّ وعلا:

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

فالمعنى ولّ وجهك شطر المسجد الحرام في السّفر وأينما كنت، لئلّا يكون، أي لئلّا يبقى للنّاس عليكم حجّة، أي اعتراض ونقد ولوم، وذلك لأنّه حينما كانوا يتوجّهون إلى المسجد الاقصى يقول المشركون: إنّ محمّداً يدّعي أنّه على ملّة إبراهيم ويتوجّه إلى غير قبلة إبراهيم، فإذاً هو مفترٍ، ويقول اليهود يتوجّه إلى قبلتنا ويخالف ديننا، وبعضهم

يقولون: ما كان يعرف قبلته لولا أن هديناه نحن، فبالتّوجّه إلى المسجد الحرام أبطل حجّة الطّرفين والنّاس كلّهم (**إلّا الذين ظلموا منهم**) من الناس، وهم الذين لا يقتنعون بشيء وإنّما يريدون الإنكار والتّمرّد، حتّى ولو ظهر لهم كلّ حجّة وبطل منهم كل دليل، فقد كان بعض المشركين يقولون رجع إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا ويظهر له الحقّ يوماً فيوماً، (**فلا تخشوهم**) فإنّهم لا يستطيعون شيئاً بعنادهم وتمرّدهم وأكاذيبهم من وهن عقيدة المسلمين أو صدّ النّاس عن دينكم، (**واخشوني**) فقط، فإنّ الأمر كلّه بيدي وسأهب لكم الغلبة والنّصر على كلّ المبطلين، (**ولأتمّ نعمتي عليكم**) بتعليمكم شعائر دينكم ورجوعكم إلى قبلتكم قبلة إبراهيم (عليه السلام)، (**ولعلّكم تهتدون**) تصلون إلى ما هو الحقّ من اللّه تعالى، وهو توجّهكم إلى المسجد الحرام، و(لعلّ) في كلام اللّه تعالى بمعنى: (كي)، أي لكي تهتدوا، لأنّ التّرجّي من اللّه تعالى محال.

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

والمعنى: أتممنا نعمتنا عليكم برجوعكم إلى قبلتكم الحقّ، (**كما**) أتممنا نعمتنا عليكم بأن (**أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا**) ومعجزاتنا الكونية والقولية وأحكامنا الشّرعية، (**ويزكّيكم**) ويطهّركم بمواعظه وإرشاداته وتعاليمه وحاله ومقاله من الشّرك والكفر وسفاسف الأمور وخبائثها، (**ويعلّمكم الكتاب**) ـ وهو القرآن ـ (**والحكمة**)، أي والإتقان في العمل بالقرآن، أو المراد بالحكمة السّنّة، (**ويعلّمكم مالم تكونوا تعلمون**) من أخبار الأمم الماضية وأخبار المستقبل وأسرار الكون وغير ذلك من العلوم التي يشتمل عليها القرآن وأحاديث الرّسول (ﷺ).

* * *

مسألة: استنبط الإمام مالك ومن وافقه (رضي اللّه عنهم) من قوله تعالى: ﴿فولّوا وجوهكم شطره﴾ أنّ المصلّي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده، بخلاف ما قاله الإمام الشّافعي وأحمد وأبو حنيفة (رضي اللّه تعالى عنهم) أنّه ينظر إلى موضع سجوده، وقال شريك القاضي: ينظر في القيام إلى موضع السّجود، وفي الرّكوع إلى موضع قدميه، وفي السّجود إلى موضع أنفه، وفي القعود إلى حجره، وقال بعضهم: ينظر في قيامه إلى صدره. قال القاضي ابن العربي ـ وهو من المالكية: إنّما ينظر أمامه، لأنّه لو حنى رأسه

ذهب بعض القيام المفترض عليه في الرّأس وهو أشرف الأعضاء، ولو أقام رأسه ونظر ببصره إلى الأرض فتلك مشقّة عليه وحرج، وما جعل علينا في الدّين من حرج، إلّا أنّ ذلك أفضل لمن قدر عليه.

* * *

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾

أي حيث أنعمت عليكم هذه النّعم وأتممتها عليكم **(فاذكروني)** ولا تنسوا عظمتي وإنعامي عليكم، فإن تذكروني **(أذكركم)** أعط وأهب لكم ثواباً جزيلاً وأجراً حسناً، **(واشكروا)** هذه النّعم **(لي ولا تكفرون)** نعمي عليكم، وأصل (تكفرون) تكفرونني حذفت إحدى النونين، وهو نون الجمع للجزم ب ـ (لا) النّاهية، وحذفت الياء للتّخفيف ولرعاية الفاصلة وللعلم به،هذا وإنّ النّعم نوعان: منها معنويّه كتعليم الشّعائر والعبادات والطّاعات وبيان الواجب والحرام والمندوب والمكروه والمباح والعقائد الصّحيحة من الباطلة، وشكر هذه النّعم العمل بمقتضاها والاستقامة عليها وعدم الانحراف عنها، وكفرانها هو تركها والابتعاد عنها. ومنها مادّيّة كالصّحة والمال وسلامة البنية، وشكرها استعمالها فيما أباحه اللّٰه تعالى، وكفرانها هو استعمالها فيما حرّم. فالمال الذي تحصله من حرام من كفران النّعم. وإن حصلته من حلال فهو شكرها، واستعمال المال في الحلال والواجب شكره واستعماله فيما حرّم كفرانه، والعين مثلاً إذا نظرت بها إلى المباح فقد شكرت النّعمة، وإذا نظرت بها إلى ما حرّمه الله تعالى فقد كفرتها، وعلى هذا فقس كلّ النّعم.

فالمعنى هنا: أتممت نعمتي عليكم بالإسلام، فاستقيموا عليه ولا يزحزحكم عنه أي شيء من الأشياء وأيّة داعية من الدّواعي، فإن فعلتم ذلك فقد كفرتم نعمة الإسلام **(ولا تكفرون)** هذا الكفران، فإنّه خسارة لا تعوّض وجريمة لا تغتفر، ثبّتنا اللّٰه تعالى عليه بمنّه وكرمه آمين.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ نعمة الإسلام على المسلمين تعطيهم ميزة خاصّة وشخصيّة مستقلّة، فبسبب ذلك أنّ غيرهم من الملل، كالمشركين وأهل الكتاب يحسدونهم على ذلك ويكيدون لهم المكايد ويعادونهم، ويحاولون إيذاءهم فينالون من جراء ذلك مشقّةً وصعوبات في الحياة، فأمرهم الله تعالى أن يتّقوا لمواجهة هذه الصّعوبات بالصّبر والصّلاة، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا استعينوا) في مقاومة تلك الصّعوبات الّتي تلاقونها بسبب تمسّككم بهذا الدّين **(بالصّبر)**، أي بتحمّل المشقّة **(والصّلاة)**، فإن الصّلاة تقوّي الرّوح وتجعلها تتحمّل المشقّة والأذى في سبيل الخير، **(إنّ اللّه مع الصّابرين)**، فإن صبرتم ينصركم الله تعالى ويزد في أجركم وثوابكم أيضاً.

* * *

تنبيه: الصّبر ثلاثة أقسام:

الأوّل: تحمّل المشقّة على أداء الواجبات.

الثّاني: تحمّلها على اجتناب المحرمات.

الثالث: عدم الفزع عند المصائب والمكروهات.

* * *

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ حسد الكفّار وعداءهم للمسلمين سيؤدّي إلى نشوب قتال بين الطّرفين، فحثّ اللّه تعالى المؤمنين على القتال إن وقع بما أعدّ للمجاهد منهم في سبيل نشر دين الله تعالى من الثّواب، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

(ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل) نشر دين **(اللّه)** ونصره وإعزازه ورفع رايته ولبثّ سلطانه في الأرض، لا تقولوا لهؤلاء هم **(أموات)** ، **(بل)** هم **(أحياء ولكن لا تشعرون)** بحياتهم وكيفيّتها، فالشّهداء في البرزخ، وهو مدّة مابين الموت والحشر، وهم أحياء عند ربّهم يرزقون. نقل ابن كثير عن صحيح مسلم (رضي اللّه عنهما): (كان أرواح الشّهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى قناديل معلّقة تحت العرش، فاطّلع عليهم ربّك إطلاعةً، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربّنا وأيّ شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك، ثمّ عاد عليهم بمثل هذا، فلما رأوا أنّهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن تردّنا إلى الدّنيا فنقاتل في سبيلك حتّى نقتل فيك مرّة أخرى، لما يرون من ثواب الشّهادة، فيقول الرّبّ (جلّ جلاله): إنّي كتبت: أنّهم

إليها لا يرجعون)[١]، ونقل أيضاً عن الإمام أحمد: أنّ رسول اللّه (ﷺ) قال: نسمة المؤمن في طائر تعلّق في شجر الجنّة حتّى يرجعه اللّه إلى جسده يوم يبعثه)[٢]، ففيه دلالة لعموم المؤمنين، وإن كان الشّهداء قد خصّصوا بالذّكر تشريفاً لهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يمدح الصّبر في كلّ أمر وفي كلّ ما نزل بالمسلم، ووعد على ذلك ثواباً جزيلاً وأجراً حسناً. فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

(ولنبلونّكم) أيّها المسلمون **(بشئ من الخوف)** من الأعداء الكافرين **(والجوع)** في أوقات الجهاد وغيرها، **(ونقص من الأموال)** بسبب الآفات **(والأنفس)** بسبب الموت أو القتال. **(والثّمرات)** بسبب الآفات السّماوية أو الأرضية أو غير ذلك، **(وبشر)** بالثّواب الجزيل والأجر الكثير **(الصّابرين)** على ذلك الابتلاء كلّه وعدم الجزع وعدم الاعتراض على اللّه تعالى والعتاب منه، ثمّ بيّن الله تعالى الصّابرين ومواجهتهم للبلايا والمصائب، فقال جلّ وعلا: **(الّذين إذا أصابتهم مصيبة)** في الأهل أو المال أو الأنفس لم يجزعوا ولم يفزعوا ولم يعاتبوا على اللّه تعالى، بل رضوا بقضاء اللّه تعالى وقدره، و**(قالوا)** معبّرين عن ذلك الرّضا: **(إنّا)** كلّنا ملك **(للّه)** يتصرّف فينا كيف يشاء ولا اعتراض عليه، **(وإنّا إليه)** تعالى **(راجعون)** يوم القيامة، فيجازينا على أعمالنا وأخلاقنا وعقائدنا إن خيراً فبخير وثواب وإن شرّاً فبشرّ وعذاب، **(أولئك)** الّذين صبروا هذا الصّبر وقالوا هذا القول عند المصائب بلسانهم واطمأنّوا عليه بقلوبهم. **(عليهم صلوات)** ثناءات **(من ربّهم ورحمة)** كثيرة، **(وأولئك هم المهتدون)** الواصلون إلى الحقّ والحقيقة والعلم والإيمان بذلك، فالصّبر عند المصيبة وقول هذا الذّكر عندها فضيلة كبيرة وكفى، فمن فضل ذلك قوله تعالى: ﴿أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾، فقد شهد اللّه تعالى لهم بالهداية ووعدهم بالرّحمة والثّواب والثّناء من اللّه تعالى. ونقل ابن كثير

---

(١) صحيح مسلم ٦/ ٣٨ الحديث رقم٤٩٩٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢٥/ ٥٥ الحديث رقم ١٥٧٧٦.

عن الإمام أحمد (رضي اللّه عنهما): أنّه قال: حدّثنا يحيى بن إسحاق حدّثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي فإنّي لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة الخولاني فأخرجني، وقال: ألّا أبشّرك؟ قلت: بلى، قال: حدّثني الضّحاك بن عبد الرحمن بن عازب عن أبي موسى، قال: قال رسول اللّه (ﷺ): (قال اللّه: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي، قبضت قرّة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال فماذا قال؟ قال: حمدك واسترجعك، أي قال، إنّا للّه ... إلخ، قال تعالى: ابنوا له بيتاً في الجنّة وسمّوه بيت الحمد)[١]. ثمّ بعد أن ردّ اللّه تعالى المسلمين إلى قبلتهم، أراد أن يردّهم إلى شعيرة أخرى من شعائر الإسلام، وهي السّعي بين الصّفا والمروة، حيث تركه المسلمون وعدّوه من أمور الجاهلية، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾

(إنّ الصّفا) كان جبلاً من الحجر، والآن عدّل فأصبح كتلٍّ صغير، أو كرصيفٍ عالٍ، **(والمروة)**، وهي مثل الصّفا كانت جبلاً فعدّل مثل الصّفا، وبينهما شارع مبلط بالمرمر[٢]، فالصّفا والمروة، اي السّعي بينهما بالذّهاب من الصّفا في الشّارع المبلط إلى المروة والرّجوع منها إلى الصّفا، إلى أن يتمّ قطع هذه المسافة بينهما سبع مرّات، **(من شعائر اللّه)**، أي إنّ الذّهاب والإياب بين الصّفا والمروة شعيرة **(من شعائر)** دين **(اللّه)**، **(فمن حجّ البيت)**، أي زار البيت للحجّ وبنيّته، **(أو اعتمر)**، أي زار البيت بنيّة العمرة، **(فلا جناح عليه)**، أي لا إثم عليه وقت **(أن يطّوّف بهما)** بالسّعي بينهما كما ذكرنا، فتفيد الآية أنّه وقت عدم طوافهما والسّعي بينهما يقع عليه الإثم، فتفيد أنّ السّعي بين الصّفا والمروة واجب من واجبات الحجّ والعمرة، وفي هذه المسألة خلاف بين الأئمة (رضي اللّه تعالي عنهم)، فعند الشّافعي وأحمد (رضي اللّه تعالى عنهما) أنّه ركن من أركان الحجّ، فمن تركه بطل حجّه أو عمرته، وعند أبي حنيفة ورواية عن مالك (رضي اللّه تعالى عنهما) أنّه سنّة لا يبطل بتركه الحجّ والعمرة، ولا يوجب تركه الدّم أيضاً.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣٢/٥٠١ الحديث رقم١٩٧٢٢٥.

(٢) هذا حسب ما رآه في آخر حجة حجها سنة١٩٨١م.

وفي المشهور عن مالك ورواية عن أحمد (رضي اللّه تعالى عنهما) أنّه واجب يجب بتركه الدّم، وهو ذبح شاة، ولا يبطل بتركه الحجّ أو العمرة. والحجّ والعمرة في هذا الخلاف سواء، **(ومن تطوّع)**، أي عمل خيراً من سائر العبادات، فإنّ اللّه تعالى **(شاكر)** يجزيه أكثر مما فعل **(عليم)** بعمله فلا ينساه ويثيبه عليه. ثمّ ذكر الله تعالى عذاب من كتم الحقّ وكتم ما علم به من أحبار أهل الكتاب من حقّيّة الإسلام ورسوله وقبلتهم وغير ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

(إنّ الّذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات) الدّلائل الواضحة على نبوّة محمّد (ﷺ) وحقّيّة ما يدعو إليه، **(والهدى)** والأحكام الموافقة لما جاء به، فيكتمون كلّ ذلك **(من بعدما بيّناه للنّاس في الكتاب)** ـ وهو التّوراة ـ **(أولئك)** الّذين يعملون هذا العمل ويكتمون الحقّ والعلم **(يلعنهم اللّه ويلعنهم اللّاعنون)** كلّهم، وهذا يشمل كلّ من كتم علماً، سواءً من أهل الكتاب أوغيرهم ومن المسلمين أيضاً، لأنّ الرّسول (ﷺ) يقول: (من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه اللّه تعالى يوم القيامة بلجام من النّار)[1]. فكتم العلم من الكبائر المهلكات.

ثمّ إنّ اللّه تعالى فتح باب الرّحمة لمن كتم الحقّ وتاب، فوعدهم بأنّ من تاب فان، اللّه تعالى يقبل توبته، فقال جلّ وعلا:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

(إلّا الذين تابوا) رجعوا عن ذنبهم هذا ـ وهو كتم الحقّ والعلم من بعد الكتم ـ فرجعوا وندموا من عملهم **(وأصلحوا)** أعمالهم **(وبيّنوا)** ماعندهم من العلم والحقّ **(فأولئك أتوب عليهم)**، أي أقبل توبتهم وأعفو عنهم، **(وأنا التّوّاب)** الذي يقبل توبة التّائبين لا غيري، **(الرّحيم)** ذو المرحمة؛ فلهذه المرحمة أقبل عنهم التّوبة لا لحاجتي

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ١٨٢ الحديث رقم ٣٤٥،وقال وجدنا الحديث بإسناد صحيح لا غبار عليه عن عبد الله بن عمرو..

إليهم ولا إلى توبتهم، وهؤلاء كأمثال عبد الله بن سلام وغيرهم ممّن أسلم واهتدى من اليهود وأهل الكتاب.

وبيّن الله تعالى أنّ الذين أصرّوا على هذا الكتم فإنّ اللّه تعالى لا يغفر لهم، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

(إنّ الذين كفروا)، أي ولكنّ الذين كفروا فلم يتوبوا **(وماتوا وهم كفّار)** ـ وهم باقون على كفرهم وكتمهم للحقّ ـ **(أولئك عليهم لعنة اللّه والملائكة والنّاس أجمعين)**، أي غضبهم، **(خالدين فيها)** في هذه اللعنة، **(لا يخفّف عنهم العذاب)** شيئاً، **(ولا هم ينظرون)** يمهلون ليخرجوا من العذاب ساعة ولا أكثر ولا أقل.

ثمّ وجه الله تعالى الملامة والمحاورة إلى المشركين، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

(وإلهكم)، أي معبودكم **(إله)** معبود **(واحد)** لا معبود سواه يستحقّ العبادة، بل كلّهم باطل وباطل عبادتهم سوى هذا المعبود الواحد، **(لا إله)** لا ذات يستحقّ العبادة **(إلّا هو)**، أي ذلك المعبود الواحد، وهو اللّه **(الرّحمن الرّحيم)**، مرّ تفسيرهما في سورة الفاتحة، وذكرا هنا للإعلام بأنّه لا يعجّل بعقوبته من يعبد غيره، لأنّه رحمن رحيم لا لأمر آخر من عجزه أو شفاعة الآلهة الباطلة أو غير ذلك.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على وجوده ووحدانيّته وقدرته العالية، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

(إنّ في خلق السّموات)، أي الأجرام العلوية من الشّمس والقمر والكواكب والنّجوم والسّماوات السّبع الطّباق وإيقاف كلّ جرم في مكانه في الفضاء وتخصيص كلّ واحد بعمل **(والأرض)** وما فيها من الجبال والوديان والعيون والأنهار والنّباتات والأشجار الّتي لا تعدّ ولا تحصى، وتخصيص كلّ شجر بثمر وكلّ نبات بخاصّيّة مع أنّ الكلّ من الّتراب وفي التّراب **(واختلاف اللّيل والنّهار)**، أي مجيء اللّيل خلف النّهار والنّهار خلف اللّيل دائماً ومستمرّاً دون فتور ووقوف، **(والفلك)** وخلق الفلك التي تجري **(في البحر)** ـ وهي السّفن ـ فتجري **(بما ينفع النّاس)** من الأسفار للسّياحة والتّجارة وتبادل البضائع ورؤية البلاد والعباد والسّفن، وإن كانت من صنع العبيد إلّا أنّها من خلق اللّه تعالى؛ لأنّ الموادّ التي يتركّب منها السّفن من خلق اللّه تعالى والفكر الذي يصنع السّفن من خلق اللّه، وليس من ذات العبد، وإلّا لكان كلّ النّاس يعرفون صنعها، والشّخص الذي يصنعها من خلق اللّه تعالى، سيّما وإنّ أوّل سفينة صنعت هي سفينة نوح ﷺ، وكانت بتعليم اللّه تعالى له، كما قال: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ سورة هود الآية/ ٧٣ ـ ، ثمّ تعلّم النّاس منها صنع السّفن، فكانت السّفن لما ذكرنا كلّها من خلق الله تعالى، **(وما أنزل اللّه من السّماء من ماء)** وهو المطر، فإن قيل إنّ المطر ينزل من السّحاب، والسّحاب يحصل من بخار البحر المتصاعد، فحينما صعد وبرد يتقطّر منه الماء وهو المطر، قلنا له: فمن الذي أوجد وخلق هذا المعمل ـ معمل الأمطار وخلق البحر وخلق الشّمس ـ وجعل للشمس أشعة تضرب البحر فيحمى ماءه فيصعد منه البخار فيصير سحاباً، ثمّ يبرد، فينزل منه الماء، وبهذا النّوع يوجد المطر، فمن الذي خلق هذا المعمل غير اللّه تعالى، فكان المطر من خلق الله تعالى[1] **(فأحيا به)** بالماء ـ وهو المطر ـ **(الأرض)**، أي حرّك قواها الإنباتيّة، فأنبتت **(بعد موتها)**، أي بعد يبسها ووقوفها عن الإنبات، **(وبثّ)** ونشر **(فيها)** في الأرض **(من كلّ دابّة)** تدبّ على الأرض

---

(١) أي أن النظام الذي وفقه تجري هذه الظواهر والحوادث هو من خلق الله تعالى أيضا، إذ الأصل وهو الكون والإنسان والحياة من خلق الله تعالى والنظام الذي خلق كل منها عليها تابع لها، فهو من خلق الله تعالى أيضا، لأن التابع يلحق المتبوع في الحكم، ولولا أن جعل الله تعالى للمادة قابلية التحول إلى الحالات الثلاث الصلبة والسائلة والغازية تحت مؤثرات معينة هو خلقها لما تكون المطر ولما استطاع البشر أن يصنع كل هذه الصناعات والإختراعات المعتمدة على تحول المادة إلى تلك الحالات وعلى الأسباب المؤثرة بخلق الله تعالى في حدوث كل ما يحدث.

من الإنسان والحيوانات التي لم يحص عددها والحشرات التي لا تحصى ولا تعدّ **(وتصريف الرّياح)**، أي وتبديلها من الشّرق إلى الغرب وبالعكس ومن الجنوب إلى الشّمال وبالعكس لسوق السّحاب من مكان إلى مكان لتوزيع الأمطار على البلاد والعباد، **(والسّحاب)** وفي خلق السّحاب **(المسخّر)** للعمل والأمطار **(بين السّماء والأرض)**، ففي هذا النّظام المتقن والصّنع البديع والخلق العجيب **(لآيات)** كثيرة تدلّ على وجود اللّه تعالى ووحدانيّته، إلّا أنّها آيات **(لقوم يعقلون)** يعملون بعقولهم فيتفكّرون في المخلوقات، فيستدلّون بها على خالقها وعلى أمور أخرى ويتعلّمون منها العلم والفنّ والتّطوير والاختراعات.

هذا وفي دلالة هذا الخلق والصّنع العجيب والخلق العظيم من حيث مجموعه هو أنّه لا يمكن أن يوجد بنفسه، لأنّه من البديهي أنّ الشّيء لا يوجد نفسه لاستحالة اتّحاد الفاعل والمفعول، فلابد أن يكون له موجد من خارج نفسه، وذلك الموجد يجب أن يكون له العلم والقدرة والإرادة والحياة، فإنّ الجاهل بالخلق لا يخلق والعاجز لا يستطيع الخلق، والمجبور المكبّل لا يستطيع أن يعمل؛ فيجب أن يكون موجد هذا الكون ذاتاً حيّاً عليماً قديراً مختاراً، ويعبّر عن ذلك الذّات عند العرب بـ (اللّه) وفي اللغات الأخرى بأسماء أخرى[١] ولا يمكن أن يوجد الطبيعة هذا النظام، لأنّ الطبيعة الصّمّاء التّي لا علم لها ولا قدرة ولا إرادة كيف تستطيع أن توجد شيئاً، وإن أردت بالطبيعة من اتّصف بهذه الصّفات فهو اللّه تعالى، وما اختلفنا إلّا في الاسم[٢].

ثمّ نقول: إنّ مَن صنع هذا الكون كما ذكرنا يجب أن يكون له علم شامل وقدرة شاملة، ومن له هذا العلم وهذه القدرة لا يحتاج إلى شريك، فإنّ الشّريك إنّما يحتاج إليه العاجز عن العمل أو الجاهل به، إذن فلا شريك للّه تعالى.

ونقول على سبيل التّفصيل: إنّ الأجرام العلوية كلّها من عنصر واحد ومادّة واحدة،

---

(١) ك (خودا) باللغة الكردية ومعناه الموجود بذاته، و(god) باللغة الإنجليزية وغيرها...

(٢) لو عبر الشيخ رحمه الله تعالى بغير هذا التعبير لكان أحسن وربما فاته التعبير، ولكنه يقصد هذا جدلا لا حقيقة، فهو يناقش هنا الملحدين بأنكم إذا أسندتم إلى الطبيعة ما نسنده نحن المسلمين إلى الله تعالى فقد جعلتم الطبيعة إلها بدل الله تعالى،أي أنكم اعترفتم بعدم إمكان وجود المخلوق بدون خالق، فيكون خلافكم معنا في تعيينه لا وجوده. وتعيينكم خطأ لأن الفاعل والمفعول لايكونان واحدا عقلا وواقعا.

فلا اختصاص لواحد منها بمكان ولا صفة ولا عمل، إذ لو كانت صفاتها وأعمالها ومواقفها من مقتضى ذواتها وذواتها متّحدة في الحقيقة والمادّة والعنصر، لوجب أن يكون كلّها في مكان واحد وعلى عمل واحد وصفة واحدة، فلابدّ لتخصيص كلّ واحد منها بموقف خاصّ وعمل خاصّ وصفة خاصّة من فاعل عليم ومدبّر قدير وهو اللّه تعالى.

ونقول أيضاً: إنّ الأشجار الموجودة على الأرض كلّها من التّراب وعلى التّراب ولا اقتضاء لذواتها إلى لون أو نوع أو هيئة أو صورة أو ثمرة، وإلّا لكان كلّها من نوع واحد وعلى صورة وهيئة واحدة وذات ثمر واحد لاتّحاد حقيقتها، فتخصيص كلّ شجر بصورة مستقلّة وبثمر دون آخر لا يكون إلّا بتخصيص صانع حكيم ومدبّر عليم ومتصرّف قدير وهو اللّه تعالى.

ونقول أيضاً: إنّ النّباتات كلّها من التّراب وعلى التّراب فتخصيص بعضها ببعض الحبوب دون أخرى ليس من ذواتها، وإلّا لكانت كلّها تخرج نوعاً واحداً من الحبوب لاتّحاد حقيقتها ومادّتها فتخصيص كلّ نبات بنوع من الهيئة والصّورة ونوع من الحبوب لا يكون إلّا من فاعل مختار وصانع حكيم وعليم وقدير وهو اللّه تعالى.

ونقول أيضاً: إنّ الأرض لها حقيقة واحدة، فاختلاف بقاعها واختصاص كلّ بقعة بنوع من الإنبات أو بعدم الإنبات وبشجر دون شجر وبثمر دون ثمر وكون بعضها رخوة وبعضها صلبة وبعضها مالحة وغير مالحة لا يمكن أن يكون من ذاتها، بل من فاعل مختار خصّص كلّ بقعة بخصوصية من الأوصاف والإنبات. والنّباتات والدّواب كلّها من التّراب، فتقسيمها إلى حيوان وإنسان وطيور وحشرات لا يكون إلّا من اللّه[١] ونقول: إنّ اختلاف اللّيل والنّهار ومجيء كلّ واحد تلو الآخر وإن كان بسبب دوران الأرض حول نفسها إلّا أنّه من الذي أوجد هذا العمل، معمل توليد النّهار واللّيل؟ ومن الذي أوقف الشّمس في الفضاء والأرض في السّفل وجعلها تدور حول نفسها وبذلك يحدث اللّيل والنّهار، وليس ذلك إلّا من صانع عليم وموجد قدير، فإنّ الطّبيعة الصّمّاء لا علم لها ولا قدرة فلا تستطيع أن تعمل شيئاً. هذا وإنّ معمل التّمطير من السّحاب المتكوّن

(١) وكذلك مافيها من مختلف كنوز المعادن المختلفة بجميع عناصرها التي تزود البشر بمختلف الحاجات والمستلزمات مع اختلاف صفاتها وحالاتها و فوائدها و أغراضها.

من بخار البحر الصّاعد إلى ما بين السّماء والأرض والرّياح التّي تتولّد من أمواج البحار فتسوق السّحاب إلى بلد من البلاد ليسقيها، إنّ هذا النّظام لا يمكن إلّا من عالم قدير وهو الله تعالى. وإنّ السّحاب نسبة إلى كلّ البلاد سواء، وكذلك الرّياح، فسوق السّحاب إلى بلد دون بلد وسقيه لمكان دون آخر لا يمكن إلّا بتوزيع حاكم مريد يوزّع كيف يشاء وهو اللّه تعالى.

ففي هذه التّصريفات والتغيّرات دلائل واضحة على وجود صانع حكيم وخالق قدير وعليم وهو الله تعالى، ومن هذه الموجودات ثبت أنّ موجدها ومدبّرها قادر قدرة شاملة، ومن له هذه القدرة لا يقبل شريكاً ولا يحتاج إليه، لأنّ الشّريك إنّما يكون لعاجز عن عمله وقصور في تمشية أموره وتعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً. نعم يذكر علماء الطّبيعة لهذه الأمور أسباباً، ويقولون: كان ذلك لهذا السّبب و هذا المعنى، ولكن حينما ذكر السّبب فقل: ولم هذا السّبب يعمل كذا؟ فيذكر سبباً آخر، فقل: وهذا لم يعمل كذا؟ إلى أن ينتهي به الأسباب ويعجز عن ذكر سبب آخر حيث تنتهي الأسباب فيعترف بمسبّب الأسباب كلّها وهو اللّه تعالى. هذا وإنّا لاننكر الأسباب وإنّما نقول: إنّ فوق كلّ الأسباب مسبّب الأسباب ومدبّرها، خلقها وجعلها أسباباً لمسبّباتها، ولكنّ الكلّ يرجع إلى خلقه وقدرته وربطه بين هذا وذاك وتلك و ذلك، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وإليه ترجع الامور﴾ فللّه درّ من قال:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه واحد

* * *

ثمّ أشار الله تعالى أنّه مع وجود هذه الآية الواضحة والبراهين القاطعة الدّالّة على أنّ اللّه تعالى واحد لا شريك له ترى بعض النّاس يجعلون له شريكاً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا

كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

(ومن النّاس)، أي وبعد ثبوت هذه الأدلّة القاطعة على أنّ اللّه تعالى لا شريك له تجد، **(ومن النّاس من)** جماعة **(يتّخذ)** ويعتقد **(من دون اللّه)** تعالى وغيره **(أنداداً)** أمثالاً[١] للّه تعالى فيعبدونها ويذبحون لها الذّبائح ويتقرّبون إليها ويطلبون منها دفع المكاره أو رفعها وجلب المنافع والمصالح، **(يحبّونهم)**، أي يحبّون هؤلاء النّاس وتلك الأنداد **(كحبّ اللّه)**، كحبّهم للّه تعالى ويعظّمونهم كتعظيمه، **(والذين)**، أي ولكنّ الذين **(آمنوا)** باللّه حقّ الإيمان ووحّدوه ولم يشركوا به شيئاً، فهم **(أشدّ حبّاً للّه)**، أي إنّ حبّهم للّه أشدّ من حبّ المشركين للأنداد أوللّه، فإنّهم لا يشركون به سواه من أحد أو من شيء، **(ولو يرى الذين ظلموا)** ... إلخ، في هذه الفقرة تقديم وتأخير في المعنى، فالتّقدير ولويرى الذين ظلموا، أي ولو علم الذين ظلموا بسبب اتّخاذهم للّه تعالى لو علموا **(أنّ القوّة للّه جميعاً)** فلا قوّة لأندادهم وشركائهم، بل كلّها للّه، **(إذ يرون العذاب)** حينما يرون العذاب يستقبلهم وأنّ الأنداد لا يستطيعون شيئاً من دفعه عنهم في ذلك الوقت، **(وإنّ اللّه)** تعالى **(شديد العذاب)** لمن أشرك به، لو علموا هذا الواقع وهذا المصير لما اتّخذوهم أنداداً ولما عبدوهم، فتفيد الآية أنّ عدم المحاولة للعلم بحقائق الدّين وعدم التّفكّر في العقائد للوصول إلى ما هو الحقّ ذنب كبير وأنّ التّفكير والتّعلّم لذلك أوّل واجب على العبد، كما قُرّر ذلك في كتب العقائد والأصول. كما وتُقيّد ملامة التّقليد الاعمى للغير دون برهان ودليل حيث ذكر تعالى حال المقلّدين لدعاة الباطل، فقال: **(إذ)**، أي يكون عذابهم شديداً وقتما **(تبرّأ الذين اتّبعوا)** وهم أئمة الباطل ودعاة الكفر والإشراك، فيتبرّأون **(من الذين اتّبعوا)** إيّاهم ويصبح بعضهم لبعض أعداء ويلعن بعضهم بعضاً، حيث ظهر ضلالهم **(ورأوا العذاب)** فتيقّنوه **(وتقطّعت)** انقطعت **(بهم الأسباب)**، الصّلات التي كانت بينهم من الحبّ والعهود والمواثيق والاتّفاق على ما يدعون إليه من الباطل، **(وقال الذين اتّبعوا)** هؤلاء الدّعاة المضلّون: **(لو أنّ)**، يا ليت

---

(١) أي الأصنام بعضها أمثال لبعض لا لله تعالى، أو جعلها المشركون أمثالا لله تعالى في تصورهم الخاطىء وظنهم الآثم، وقيل المقصود بالأنداد هم السادة الظلمة الذين اتبعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال بدليل قوله تعالى بعد ذلك (إذ تبرأ الذين اتبعوا.....الآية.) / انظر التفسير الكبير للرازي ٤/ ١٨٤.

(لنا كرّةً) رجوعاً إلى الدّنيا **(فنتبرّأ منهم)** هناك ونلعنهم **(كما تبرّأوا منّا)** هنا ولعنونا، **(كذلك)** مثل ما أخبرنا **(يريهم اللّه أعمالهم حسرات)** سبب حسرات وندامة تستولي **(عليهم وما هم بخارجين من النّار)** بسبب هذه الحسرة والنّدامة، فإنّ النّدامة إنّما تنفع قبل العذاب وفي الدّنيا، وأمّا بعد الموت أو حين تيقّنه فلا تنفع، فإنّ التّوبة حين اليأس لا تقبل، وهذا حال كلّ من اتّبع دعاة الباطل من الكفر أو الشّرك أو المبادىء الأخرى التّي ما أنزل اللّه بها من سلطان، وهي التّي تخالف الكتاب والسّنّة، أو هي التّي لا تقوم على أسس الكتاب والسّنّة وقواعدهما، أو هي التّي لم تقم على أساس الإيمان بهما وإن وافقهما في العدل والإنصاف، فإن العمل بدون الإيمان محبوط والخير كلّه مع الكفر غير مقبول. قال الله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥ ـ فكلّ عمل لم يكن مبنياً على الإيمان باللّه واليوم الآخر وعقيدة الإسلام لا ينفع يوم القيامة صاحبه شيئاً. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٣.

ثمّ بعد أن ألفتَ اللّه تعالى أنظار النّاس إلى خلق السّماوات والأرض للاستدلال بها على وجود اللّه تعالى ووحدته، وألفتَ نظر الإنسان إلى هذه الأرض وما فيها وعليها من حيوان وطيور وحشرات وزواحف ومن أشجار ذات أثمار مختلفة ونباتات متنوّعة في المنافع والحبوب وقف الإنسان حائراً، لأنّه رأى أنّ الثّمار كلّها تصلح للأكل وشرب عصيرها، والحيوانات كلّها تصلح لأكل لحومها وشحومها، والحبوب كلّها تصلح للأكل والانتفاع بها مباشرة أو بعد التّغيير والتّركيب والطّبخ، فكأنه يسأل الإنسان: فماذا يأكل ويشرب؟ وماذا يدع ويترك؟ فناداه اللّه تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

(يا أيّها النّاس كلوا ممّا في الأرض) ما جعلناه **(حلالاً)** و **(طيّباً)**، أي طيباً أكله، **(ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان)** فتأكلوا بأمره ووسوسته ما جعلناه حراماً خبيثاً، حيث **(إنّه)**، أي الشّيطان **(لكم)**، لجميع أبناء آدم **(عدوّ مبين)**، كلمة (مبين) في القرآن الكريم

أينما وردت فهي مشتقّة من (أبان) بمعنى أظهر، أو بمعنى (بان) أي ظهر، وهنا يحتمل الأمرين، فالمعنى: إنّ الشّيطان لكم عدوّ، أظهر عداوته لكم أوّل ما خلق اللّه أباكم آدم، أو المعنى: عدوّ ظاهر عداوته لا خفاء فيها، فلعداوة الشّيطان لكم هذه العداوة لا يأمركم بخير أبداً، **(إنّما يأمركم بالسّوء)** بالأعمال السّيّئة **(والفحشاء)**، أي الأعمال التّي بلغت النّهاية في السّوء والقبح، **(وأن تقولوا على اللّه)**، أي تفتروا على اللّه **(ما لا تعلمون)** حكمه، وذلك بأن تقولوا هذا حلال وهذا حرام دون الاطّلاع على كتاب اللّه تعالى وسنّة رسوله ومعرفة حكمهما في ذلك، بل بمجرّد هواكم تقولون وتحكمون:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

(وإذا قيل) للنّاس من المشركين وأهل الكتاب **(اتّبعوا ما أنزل اللّه)** على محمّد (ﷺ) من العقائد الصّحيحة والأحكام النّاصعة، **(قالوا)**: لا نتّبع ذلك **(بل نتّبع ما ألفينا)** وجدن **(عليه آباءنا)** من التّقاليد والعادات الفاسدة والعقائد الباطلة، **(أو لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئاً)** من العقائد الحقّة **(ولايهتدون)** الى الأحكام الصّحيحة، هل يتبّعونهم ولو كانوا ضالّين، والاستفهام للتّجهيل والتّضليل، فالمعنى إنّ هذا لضلال كبير، وفي ذلك أيضاً ملامة للتّقليد واتّباع الغير دون تحقيق وتدقيق وتدليل وحجّة وبرهان.

ثمّ بسبب هذه المحاورة الشّديدة حزن قلب رسول اللّه (ﷺ) وتعب، فسلاه اللّه تعالى وخفّف من تعبه بأن أخبره بأنّ المحاورة مع هؤلاء لا تجدي ولاتفيد، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

أي **(ومثل)** داعي **(الذين كفروا)**، أي أصرّوا على الكفر **(كمثل الّذي ينعق)** يصوّت **(بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً)** كالبهائم التّي لا تفهم عن التّصويت به إلّا النّداء ولا تفهم معناه ولا المراد منه، **(صمّ)**، أي هم كالأصمّ في عدم سماع الحقّ، **(بكم)** وكالأبكم في عدم الاعتراف بالحقّ، **(عمي)** في عدم رؤية الحقّ وسلوكه ، **(فهم لا**

يعقلون) الحقّ، لأنّ العقل إنّما يعمل بواسطة السّمع والبصر، فإذا فقدا فقد العقل[١]، ومعنى الآية إنّ التّقاليد والعادات والكبرياء والاستبداد وحبّ الرّياسة والدّنيا وغير ذلك من أسباب كفرهم جعلهم كالأصمّ الّذي لا يسمع والأبكم الّذي لا يتكلّم والمجنون الّذي لا يعقل.

ثمّ إنّه كان خلاف بين اليهود والمسلمين في بعض ما حُرّم من الحيوانات، فلذلك أخبر اللّه تعالى ما أبيح لهم من الحيوان وما حُرّم، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام والمعتنقون له ديناً **(كلوا من طيّبات ما)** من الأشياء التّي رزقناكم طيّباتها، كالضّأن والمعز والإبل والبقر مثلاً، لامن خبائثها كالبغل والحمير مثلاً[٢]، فكلوا ممّا طاب، وهي الأربعة الأولى مثلاً، فإنّها طيّبة، ولا تأكلوا من الآخرين فإنّهما خبيثان، والطيّب والخبيث بينهما اللّه في آيات أخرى، وبينّهما الرّسول (ﷺ) في أحاديثه، ويأتي بيانهما في سورة الأنعام إن شاء الله تعالى.**(واشكروا للّه إن كنتم إيّاه تعبدون)**، أي تعظّمونه وتؤمنون به، فاشكروه على هذه الطّيّبات التّي أنعم بها عليكم... ثمّ بيّن الله تعالى بعض الخبائث الّتي حرّمها، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

(إنّما حرّم)، قرىء بفتح الحاء والراء، فيكون فعل ماض معلوم وفاعله هو مستتر

---

(١) لأن العقل يعمل وفق ما ينقل إلى الدماغ عن طريق الحواس من الموجودات فيحكم عليها بما يملك من المعلومات المخزونة فيه، فتتكون العملية العقلية، ويسمى صاحبه عندئذ عاقلاً، فإذا فقد الحواس لم تحصل المعلومات فلا يستطيع الدماغ الحكم على الأشياء فلا يكون صاحبه عاقلاً.

والذين كفروا وإن كانت حواسهم سليمة من الناحية المادية إلا أنهم لم يعملوها الإعمال الصحيح للفهم فلم يفهموا فبذلك أصبحوا كما وصفهم الله تعالى (لا يعقلون)

(٢) بل كالخنزير والميتة والخمر وكل ما حرم....

فيه عائد إلى اللّٰه تعالى، وقرئ بضمّ الحاء وكسر الرّاء فعل ماض من بناء المجهول، فيكون المعنى ما حرّم في الإسلام **(عليكم)** أيّها المسلمون من الحيوانات إلّا **(الميتة)**، وهي ما مات بدون ذبح شرعي، وكلّ ما لا يؤكل من الحيوان، سواء ذبح أولا، **(والدّم)** الذي سال من الحيوان وانجمد، ويسمّى دماً مسفوحاً، **(ولحم الخنزير)** بجميع أنواعه، **(وما)** والحيوان الذي ذبح و**(أهلّ به)**، أي وذكر على ذبحه اسم **(لغير اللّٰه)** تعالى، *فكلّما يتبرّك حين ذبحه باسم غير اسم اللّٰه تعالى فهو كالميتة ويحرم أكله،* ***(فمن اضطرّ)*** إلى أكل الميتة أو الدّم أو لحم الخنزير بأن كان لا يجد شيئاً ولو لم يأكل مات أو أصيب بمرض، **(غير باغٍ)** أي بشرط أن يكون غير باغ، والباغي قال بعضهم: هو الذي يأكل فوق حاجته، فالمعنى: فوق الحاجة للمضطرّ حرام عند هذا القائل، والحاجة سدّ الرّمق. وقال البعض: هو من يأكله للذّة وشهوة، وقال بعضهم غير باغ على المسلمين فيحرم على البغاة أكلهم هذه الأشياء، **(ولا عاد)** وهو الذي يكون سفره معصيّة كمن سافر لقطع طريق أو قتل بريء. ومن هذه التّفسيرات وقع الخلاف في بعض حالات المضطرّ نذكره إن شاء اللّٰه تعالى، **(فلا إثم عليه)** على المضطرّ في أكل هذه الأشياء، **(إنّ اللّٰه غفور)** لعباده **(رحيم)** بهم، ولهذه الرّحمة يغفر لهم، ومن رحمته أنّه أباح لهم المحرّم وقت الحاجة.

* * *

مسائل: الأولى: إنّ ميتة كلّ حيوان أو طائر حرام بالإجماع، إلّا ميتة السّمك والجراد، فإنّهما حلالان، لقوله (ﷺ): (أحلّ لنا ميتتان، السّمك والجراد، ودمان، الكبد والطّحال)[1]. إلّا أنّهم اختلفوا في السّمك الذي مات في الماء بنفسه وطفا، أي ارتفع على الماء فإنّ ذلك أباحه مالك والشّافعي، وقال أبو حنيفة وأصحابه والحسن إنّه مكروه، وعن علي بن أبي طالب وابن عباس وجابر بن عبداللّٰه (رضي الله عنهم) أنّهم قالوا: ما طفا من صيد البحر لا نأكله. وعن أبي بكر الصّديق وأبي أيوب الأنصاري

---

(١) لم يرد بهذا اللفظ بل رواه ابن ماجة بلفظ (أحلت لكم ميتتان ودمان،فأما الميتتان فالحوت والجراد،وأما الدمان فالكبد والطحال) سنن ابن ماجة ٢/ ١١٠٢ الحديث رقم ٣٣١٤، ورواه الإمام أحمد بلفظ (أحلت لنا...الخ) مسند الإمام أحمد ٢/ ٩٧ الحديث رقم ٥٧٢٣. روي الحديث موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح / انظر تلخيص الحبير ١/ ٢٦ الحديث رقم ١١.

(رضي اللّه عنهما) أنّه مباح ويمكن الجمع بين قول أبي بكر وعلي (رضي اللّه عنهما) أنّ عليّاً قال: لا نأكله طبعاً لا شرعاً، وأمّا الجراد، فقال الشّافعي وأبو حنيفة (رضي اللّه عنهما): لا بأس بأكله ما أخذته حيّاً أو ميّتاً، وعن مالك: إنّ ما وجدته ميّتاً فلا يحلّ وما أخذته حيّاً يذكّى، ثمّ يؤكل فإن لم يذكّه فمات فلا يحلّ.

الثّانية: اتّفق العلماء على أنّ الدّماء كلّها حرام ونجس فلا يؤكل ولا ينتفع به الّا أنّ أبا حنيفة (رضي الله عنه) قال: دم السّمك ليس بحرام، واستثنى الرّسول (ﷺ) من الدّم شيئين (الكبد والطّحال) فإنّهما دمان متجمّدان، فهما حلالان بالاتّفاق. هذا وأمّا عدم جواز الانتفاع بالدّم في غير الأكل ففيه خلاف جواز الانتفاع بالنّجاسات وعدم جوازه، ويأتي إن شاء اللّه تعالى.

الثّالثة: لبن الميتة وبيضتها المتّصل بها نجس عند الشّافعي وغيره، وقال مالك في رواية عنه هو طاهر، إلّا أنّه تنجّس بالمجاورة، فما أمكن تطهيره فيؤكل، وما لا فلا. وعند أبي حنيفة طاهر وإن المجاورة للنّجس في موضع الخلقة لا أثر لها في التّنجيس، وحكم الأنفحة حكم اللّبن والبيضة.

الرّابعة: شعر الميتة وصوفها طاهر عند مالك وأبي حنيفة ونجس عند الشّافعي إلّا ما ارتفع عن الجلد قبل الموت.

الخامسة: إذا وجد المضطرّ طعام الغير بدون إذنه فلا يجوز له أكل الميّتة، بل يأكل طعام الغير إلّا أن يصيبه أذىً من ذلك، وإذا أكل مال الغير في هذه الحالة هل يضمن أو لا ؟ فيه قولان، الأصحّ أنّه لا يضمن لما روي عن بن شرحبيل، قال: أصابتنا عاماً مجاعة فأتيت المدينة فأتيت حائطاً فأخذت سنبلاً ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول اللّه (ﷺ) فأخبرته، فقال للرّجل: ما أطعمته إذ كان جائعاً ولا علمته إذ كان جاهلاً، فأمره فردّ إليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق)[1] السّادسة: إذا دبغ جلد الميتة طهرت ويجوز الانتفاع به إلّا عند مالك، قال: يجوز الانتفاع به إلّا أنّه نجس، وفي رواية عنه أنّه يطهر أيضاً، وإذا طهر فيطهر شعره أيضاً على خلاف في ذلك.

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١٤٨/٤ الحديث رقم ٧١٨٢ وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. أي البخاري ومسلم ..

السّابعة: اختلف العلماء في جواز الانتفاع بالميتة في غير الأكل وبسائر النّجاسات فمن مجوّز لذلك ومن محرّم واللّه تعالى أعلم[١].

الثامنة: لا خلاف في أنّ الخنزير يحرم لحمه و شحمه وكلّ شيء فيه إلّا الشّعر فإنّه يجوز الخرازة به، حيث روي أنّ رجلاً سأل رسول اللّه (ﷺ) عن الخرازة بشعر الخنزير فقال: (لابأس به).

التّاسعة: لا خلاف في تحريم خنزير البرّ، وأمّا خنزير البحر وهو ما لا يعيش في البرّ ففيه خلاف، أباحه البعض، لأنّه يعتبر سمكاً، وحرّمه البعض، لأنّه يسمّى خنزيراً. واختلفوا في نجاسة الخنزير أيضاً، فعند الجمهور إنّه نجس، وقال مالك: إنّه طاهر، لأنّ علّة الطّهارة عنده هي الحياة، فكلّ حيوان عنده طاهر. وللشّافعي في ولوغ الخنزير الإناء قولان: الجديد إنّه كالكلب يغسل سبع مرات إحداهن بالتّراب، والقديم تكفي غسلة واحدة.

العاشرة: (وما أهلّ به لغير الله)، قال في الخازن: من النّاس من زعم أنّ المراد بذلك ذبائح عبّاد الأصنام والأوثان الّذين كانوا يذبحونها لأصنامهم ويذكرون اسمها عليه، فأجازوا ذبيحة النّصراني الذي يذكر اسم المسيح عليها، وهذا مذهب عطاء ومكحول والحسن والشّعبي وسعيد بن المسيب، واستدلّوا بعموم قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ سورة المائدة الآية/ ٥ ـ ، وعند مالك والشّافعي وأبي حنيفة (رضي الله عنهم) لا يجوز أكل ذلك، لعموم قوله تعالى: ﴿وَما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾، وروي عن عليٍّ (رضي الله عنه) أنّه قال: إذا سمعتم اليهود والنّصارى يهلّون لغير اللّه فلا تأكلوا، وإذا لم تسمعوا فكلوا، فإنّ اللّه تعالى قد أحلّ ذبائحهم.وسيأتي تفصيل حكم ذبائح غير المسلمين عند قوله تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ سورة الانعام الآية/ ١٢١ ـ . وفي سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ إن شاء اللّه تعالى.

الحادية عشرة: أكل المضطرّ من هذه الأشياء واجب، فمن اضطرّ إلى أكلها فلم يأكل حتّى مات دخل النّار.

---

(١) انظر الخلاف في سبل السلام ٣/ ٦.

والمضطرّ ثلاثة أقسام: لأنّه مضطرّ إما بإكراه، فيأكل قدر ما أكره عليه، أو مضطرّ بجوع في مخمصة أو فقر، فالجوع إن كان دائماً فلا خلاف في جواز الشّبع منها، وإن كان نادراً فللشّافعي فيه قولان: أحدهما أنّه يشبع، والثّاني لا يجوز أكثر من سدّ الرّمق، وعلى ذلك أبو حنيفة، وعلى الأوّل مالك (رضي اللّه تعالى عنهم).

الثّانية عشرة: إذا كان المضطرّ اضطر في سفر عصى بذلك السّفر ـ كأن خرج الزّوج بدون إذن زوجها، أو العبد بدون سيّده، أو سافر لقطع طريق أو لقتل بريء أو لمعصية، أو كان مديناً موسراً فسافر بدون إذن الدّائن ـ فهو باغ، ولا يجوز له أكل شيء من هذه الأشياء عند الشّافعي، كما ولا يجوز له أيّ رخصة، كقصر الصّلاة وجمعها وفطر الصّوم، وقال أبو حنيفة له ذلك وكلّ الرّخص، لأنّ الرّخص مربوطة بالإيمان، وغير باغ عنده، أي غير آكل أكثر من سدّ الرّمق.

* * *

ثمّ إنّ أهل الكتاب كانوا يكتمون كثيراً من الأحكام الواردة في التّوراة الموافقة للإسلام وينكرونها كأحكام اللحوم وغيرها، كما كانوا يكتمون الأخبار برسالة الرّسول (ﷺ) ويكتمون علاماته المذكورة هناك كلّ ذلك لأجل مصالح دنيويّة ومنافع يحصلون عليها من وراء ذلك، فقال فيهم جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾

(**إنّ الّذين يكتمون ما أنزل اللّه**) من الأحكام وأخبار الرّسول(**من الكتاب**) في التّوراة، (**ويشترون به ثمناً قليلاً**). سمّاه قليلاً، لأنّ منافع الدّنيا وإن كانت كثيرة فإنّها في الحقيقة قليلة بالنّسبة إلى منافع أخرويّة، ولأنّها تفنى وتزول، (**أولئك**) الذين يكتمون ذلك لمنفعة ماليّة، وأولئك (**ما يأكلون في بطونهم**) مما يحصلون عليه بالكتم من المنافع (**إلّا

النّار)، لأنّ ذلك المال ينقلب ناراً يوم القيامة، **(ولا يكلّمهم اللّه)** يوم القيامة، وهذا كناية عن غضبه عليهم **(ولا يزكّيهم)** ولا يطهّرهم بالمغفرة عن الذّنوب، **(ولهم عذاب أليم)** مؤلم جدّاً، **(أولئك)** الذين يكتمون الحقّ، هم **(الذين اشتروا الضّلالة)** فأخذوها ورضوا بها (ب ـ) بدل **(الهدى)** الهداية **(والعذاب)** ورضوا بالعذاب (بـ) بدل **(المغفرة)** ، **(فما أصبرهم على النّار)**، وهذا الكلام للتّعجّب، والتعجّب من اللّه تعالى محال، فيفسّر بأنّهم على هذا الحال يليقون بأن يتعجّب منهم، وقياس **(ذلك)**، أي ذلك العذاب يصيبهم **(بأنّ اللّه)** بسبب أنّ اللّه **(أنزل الكتاب)**، أي القرآن **(بالحقّ)** فلا يدانيه باطل، **(وإنّ الذين اختلفوا في الكتاب)**، أي القرآن بأن لم يؤمنوا به **(لفي شقاق)**، أي لفي عداوة للإسلام والمسلمين، **(بعيد)** ذلك العداء أي شديد لعداوتهم وحسدهم لا يؤمنون لا لخفاء الحقّ عليهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر شيئاً ممّا كتمه أهل الكتاب بعد علمهم به ونازعوا فيه الرّسول والمسلمين، وهو كون الكعبة قبلة إبراهيم (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) وقبلة النّبيّ (ﷺ) المبشّر به في التّوراة والإنجيل، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

(ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق)، أي مشرق المسجد الأقصى، كما يقول اليهود، **(والمغرب)**، أي مغرب الأقصى كما يقول النّصارى، والمعنى: إنّ المشرق والمغرب وأيّ جهة من الجهات ليس فيها مزيّة واختصاص يقتضي أن يكون التّوجّه إليه برّاً، وإنّما البرّ مربوط بأمر اللّه تعالى وإطاعته، فأينما أمر التّوجّه إليه فالتّوجّه إليه هو البرّ، كما قال: **(ولكن البرّ من آمن باللّه)** واتّبع أمره واجتنب نهيه، وهذا أحد أصول الإيمان، وهو الإيمان باللّه، ولا يقبل إلّا إذا كان إيماناً صحيحاً، وذلك بأن نؤمن بوجود اللّه تعالى وأنّه هو المؤثّر والموجد ولا مؤثّر سواه، وأنّه هو المشرّع لا حقّ لأحد في

التّشريع، وأن نعترف بنزاهته من كلّ عيب ونقص وشريك وصاحبة وولد، وأن نعترف بثبوت جميع صفات الكمال له، ويرمز إلى هذين الأمرين كلمتان، هما سبحان اللّه والحمد اللّه، فإنّ معنى سبحان اللّه: اعترف بنزاهة اللّه تعالى عن كلّ عيب ونقص وشريك وصاحبة وولد، ومعنى الحمد: اأعترف بثبوت جميع صفات الكمال للّه تعالى، ولذلك قال الرّسول اللّه (ﷺ): (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرّحمن: (سُبحانَ اللّهِ وَبحمدهِ سُبحانَ اللّهِ العَظيم))[1]، وحيث أنّ أهل الكتاب ما كانوا يؤمنون باللّه هذا الإيمان، لأنّهم يثبتون له الولد، فاليهود يقولون: عزير ابن اللّه، والنّصارى يقولون: المسيح ابن اللّه، ويقول اليهود: إنّ اللّه فقير ونحن أغنياء، فلذلك عرّض تعالى بهم أنّهم ليس عندهم البرّ، وهو الإيمان الصّحيح باللّه تعالى. **(واليوم الآخر)**، أي وآمن باليوم الآخر، وهو يوم القيامة، وهذا يجب أيضاً أن يكون الإيمان به صحيحاً أيضاً، وإيمان اليهود والنّصارى باليوم الآخر ليس صحيحاً، لأنّهم لا يعتقدون بالحشر الجسماني وإنّما الحشر عندهم روحاني فقط، وعند النّصارى إنّ المسيح والعذراء والبابا يعفون ويغفرون لهم، وإنّ اليهود والنّصارى يقولون: (لن تمسّنا النّار إلّا أيّاماً معدودات) فلا يؤمنون إيماناً يردعهم عن المناهي والمعاصي والمحرّمات، فلذلك عرّض تعالى بهم أنّهم ليسوا على البرّ، وهو الإيمان الكامل الصّحيح باليوم الآخر، **(والملائكة)**، أي ومن آمن بالملائكة إيماناً صحيحاً، وعرّض بأهل الكتاب، حيث لايؤمنون بالملائكة إيماناً صحيحاً، **(والكتاب)** اسم جنس، فيشمل كلّ الكتب المنزّلة من عند اللّه تعالى على المرسلين، وهي كثيرة، إلّا أنّ التّي ذكرها القرآن لنا ويجب الإيمان بها على التّعيين أربعة، وهي التّوراة والإنجيل والزّبور والقرآن، و حيث إنّ أهل الكتاب لا يؤمنون بكلّ الكتب ـ لأنّ النّصارى لا يؤمنون بالقرآن، واليهود لا يؤمنون بالإنجيل والقرآن ـ عرّض بهم اللّه أنّهم ليسوا أهل البرّ، أي الإيمان الصّحيح، **(والنّبيّين)** جمع (نبيّ)، أصله إمّا (نبيو) مشتقّ من النّبوّة بمعنى الرّفعة، اجتمع الواو والياء، فأدغم الواو في الياء فصار (نبيّاً)، سمّى به النّبيّ لرفعة شأنه عند اللّه تعالى وعند النّاس، وإمّا أصله (نبيء) مشتقّ من (النّبأ) بمعنى الخبر، قلب الهمزة ياء، فأدغم فيه، فصار (نبيّاً) سمّي به النّبيّ، لكونه مخبراً عن اللّه تعالى واحكامه، وهذا أصحّ، لأنه يقال تنبأ فلان بتنبّأ بمعنى:

(١) متفق عليه / صحيح البخاري ٥/ ٢٤٥٩ الحديث رقم ٦٦٣٠٤. صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٢ الحديث رقم ٢٦٩٤.

ادّعى النّبوّة، ولا يقال تنبو فلان يتنبو في هذا المعنى. والأنبياء كثيرون، منهم من هو رسول أيضاً، ومنهم من هو نبيّ فقط وليس برسول، والفرق بين النّبيّ والرّسول، هو أنّ الرّسول من أوحي إليه أن يعمل بشرع ويكون له كتاب أو نسخ لبعض ما سبقه، والنّبيّ من أوحي اليه بالعمل بشرع ولم يكن له كتاب ولا نسخ، فكلّ رسول نبيّ، وليس كلّ نبيّ رسولاً، فبينهما عموم وخصوص مطلق، وهذا تعريض بأهل الكتاب، لأنّهم لم يؤمنوا بجميع النّبيّين، حيث لم يؤمن النّصاري بمحمّد (ﷺ) واليهود لم يؤمنوا بكثير من الأنبياء، بل كانوا يقتلونهم، فأهل الكتاب ليسوا أصحاب برّ وإيمان لهذا السّبب، فهذه أصول الإيمان الستة، وهو الإيمان باللّه واليوم الآخر والملائكة والكتب والرّسل وبالقدر، إلّا أنّه لم يذكر القدر هنا صريحاً، لأنّ الإيمان بالكتب يستلزمه، لأنّها ناطقة به.

ولمّا ذكر تعالى القسم الأوّل والأساس من البرّ وهو الإيمان أراد أن يذكر القسم الثّاني من البرّ وهو الإسلام، فقال تعالى: **(وآتى)**، أي وأعطى **(المال)**، (المال) جنس يشمل كلّ أصناف المال، **(على حبّه)** في حين حبّه للمال، فأعطاه **(ذوي القربى)** أهل القرابة كلّ حسب قرابته واستحقاقه، وهم أولى بالإحسان إليهم لما ثبت في الحديث: (الصّدقة على المسكين صدقة، وعلى ذوي الرّحم اثنتان: صدقة وصلة)[١].

فهم أولى النّاس ببرّك وعطائك، **(واليتامى)** ـ ـ وهم الّذين مات أبوهم ولا كاسب لهم ولا قدرة لهم على الكسب ـ فالمراد بهم اليتامى الفقراء، **(والمساكين)** ـ ، وهم الّذين لا يفي دخلهم بحاجاتهم ـ فيعطون بقدر ما يسدّ حاجاتهم ـ **(وابن السّبيل)**، وهم المسافرون الّذين نفذ مالهم ـ فيعطون ما يصلون به إلى بلادهم وذويهم ـ **(والسّائلين)**، وهم الّذين يتعرّضون للنّاس ويطلبون الأموال، ولكن إن علمت أنّهم ليسوا محتاجين فحرام عليك إعطاءهم، لأنّ ذلك إعانة على المعصية، لأنّ السّؤال للغنيّ حرام، **(وفي الرّقاب)**، وهم العبيد الّذين علّق عتقهم ببعض من المال ـ فيعطون قدر ما علّق به العتق ـ ثمّ يدخلون في المساكين، فيعطون قدر ما يحتاجون لتأمين العمل والكسب والحاجات ـ **(وأقام الصّلاة)** صحيحة مستوفية لشروطها وأركانها وواجباتها، **(وآتى الزّكاة)** مستحقّيها.

* * *

---

(١) سنن النسائي ٥/ ٩٢الحديث رقم ٢٥٨٢.

تنبيه: من هذه الآية استنبط العلماء أنّ الواجب في المال ليس الزّكاة فقط لعطف الزّكاة هنا على قوله (وآتى المال ... الخ)، فيجب على الأغنياء أن ينفقوا على المحتاجين زيادة على الزّكاة إن لم تفي الزّكاة بسدّ حاجاتهم، وللدّولة أخذ المال من الأغنياء قهراً لسدّ حاجات المحتاجين المذكورين إن لم يف بذلك بيت المال، فالإسلام لا يسمح بوجود محتاج في مجتمعه، فمن أين لك مثل هذا النّظام؟ وإذا وُجدتَ محتاجاً في المجتمع الإسلامي فلقصور المجتمع وعدم تطبيقهم للإسلام لا لقصور الإسلام، ومن هنا هلك الجاهلون بالإسلام، حيث ينسبون قصور المسلمين إلى الإسلام فيقولون: الإسلام لا يخدم المجتمع، فليس بصالح لهم.

* * *

(والموفون بعهدهم إذا عاهدوا)، فلا ينقضونه ولا يخونونه، **(والصّابرين في البأساء)**، (البأساء) هو الفقر، فلا يرتكبون بسببه الحرام، **(والضّراء)**، وهو المرض، فلا يجزعون ولا يفزعون ولا يعترضون على اللّه تعالى، **(وحين البأس)**، أي القتال فلا ينهزمون، فهذا الذي ذكر هو البرّ، وهو الايمان الصّحيح والاسلام التّامّ، فمن تمسّك بهما فقد وجد البرّ فيه واتّصف به والّا فلا، وهذا تعريض أيضاً بأهل الكتاب، حيث لا يتّصفون بهذا الإيمان وهذا الإسلام، ولذا قال تعالى: **(أولئك الّذين صدقوا)** في عقيدتهم وبرّهم، **(وأولئك هم المتّقون)**، فهم يتّقون سفاسف الأمور وأباطيلها لا غيرهم، وكانت هذه الصّفات كلّها موجودة في المسلمين الأوائل، وبذلك سادوا في الدّنيا والآخرة وسعدوا فيهما، فهل للمسلمين اليوم من الرّجوع إلى هذا المبدأ العظيم ليسودوا كما سادوا به سابقاً، وليسعدوا به في الدّنيا والآخرة، اللّهم افعل، آمين إنّك أرحم الرّاحمين.

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الإيمان والإسلام أراد أن يبيّن بعض أحكام الإسلام المهمّة، كالقصاص والوصيّة والصّيام والجهاد والحجّ وغير ذلك من أحكام أخرى في هذه السّورة الكريمة، فقال تعالى مقدّماً القصاص، لأنّه يقي كيان المجتمع، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا)، خاطب اللّه تعالى المؤمنين خاصّة، لأنّ الكافرين لا يكلّفون

بالأحكام الفرعية، بل يكلّفون بالإيمان، فإن آمنوا لزمتهم الأحكام الفرعية وإلّا فلا، لأنّه من شرط الأحكام الفرعية الإيمان، وأمّا إلزام الذمّيين بالجنايات الماليّة والنفسيّة لأنّهم سكنوا في ظلّ الإسلام ورضوا بذلك، ولا يعقل أن يؤذن للذمّيّ أن يسكن بلاد المسلمين ولا تجري عليه الأحكام الجنائيّة في المال والنّفس، فيعمل كما يشاء من الفساد في المال والأنفس هذا من حيث الدّنيا[1]، وأمّا في الآخرة هل يعذبّون على عدم الإيمان وترك الأعمال الاسلامية كلّها أم لا؟ فهذا أمر عائد إلى اللّه تعالى، والحقّ أنّ عدم الإيمان كاف للعقاب، لأنّه سبب الخلود في النّار وأشدّ العذاب، فماذا بعد هذا من العذاب، **(كتب عليكم القصاص)**، أي فرض عليكم أن تقتصّوا من القاتل **(في القتلى)** مقابل القتلى: (القتلى) جمع (قتيل)، وهو أن يُقتل القاتل كما قَتل هو القتيل، **(الحرّ بالحرّ)** لا يعتبر هنا مفهوم المخالفة، فيقال لايُقتل الحرّ بالعبد، لأنّه لو اعتبرنا مفهوم المخالفة هنا، فيجب أن نعتبره ايضاً في قوله: **(والعبد بالعبد)**، فنقول لا يُقتل العبد بالحرّ، وكذا في قوله: **(والأنثى بالأنثى)**، فنقول: لا تُقتل الأنثى بالذّكر. وهذان بعيدان، فكلّ قاتل يُقتل مقابل قتيله من أي صنف كان قتيله، وإنّما اقتصرت الآية على ما ذكر، لأنّها نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيّين طول على الآخر في الكثرة والشّرف، فكانوا ينكحون نساءهم بدون مهر، وأقسموا ليقتلنّ بالعبد منّا الحرّ وإن كان القاتل عبداً، وبالمرأة منّا الرجل وإن كانت المرأة قاتلة، وبالرجل رجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعف جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النّبيّ (ﷺ)، فأنزل اللّه هذه الآية، وأمرهم بالمساواة، فرضوا وأسلموا، وقيل نزلت، لأنّ العرب كانوا إذا وقع القتل على شريف قتلوا به عدداً، ويأخذون ديّة الشّريف أضعاف ديّة غيره، فلمّا بعث اللهَّ تعالى النّبيّ ساوى بين عباده كلّهم في القصاص والدّيّة، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، فالآية تنفي العادة الموجودة في العرب أو الموجودة في الأوس والخزرج، وتقول القاتل يقتل بقتيله فقط ومن أي صنف كان قتيله، فالرّجل بالمرأة والحرّ بالعبد والعبد بالحرّ والذّكر

---

(١) هناك نوعان من الأحكام: النوع الأول: الأحكام الدينية كأحكام العقائد والعبادات والحلال والحرام والجهاد، فهذا لا يخضع له غير المسلمين، والنوع الثاني الأحكام العامة التي تنظم أمور المجتمع من الأحكام المدنية والجنائية والقضائية، وهذا النوع يخضع لها جميع الناس من المسلمين وغيرهم الذين يعيشون تحت سلطان الإسلام لأنه بدونه يصبح الأمر فوضى. وهذا الأمر موجود لدى جميع الأنظمة والقوانين.

بالأنثى وبالعكس في الكلّ. إلّا أنّ هنا بعض الخلاف بين الائمة، فعند مالك: لا يقتل مؤمن بكافر ولا حرّ بعبد ولا والد بولده، ويقتل الذمّيّ بالمسلم والعبد بالحرّ والولد بالوالد، ووافقه الشّافعي وأحمد في ذلك، وعند الحنفية: إنّ المسلم يُقتل بالذمّيّ والحرّ بالعبد لعموم قوله تعالى: ﴿إنّ النّفس بالنّفس﴾ ـ سورة المائدة الآية/ ٥٤ ـ ، **(فمن عفى له من أخيه)**، وهو وليّ المقتول **(شيء)** مما فرض عليه وهو القصاص فرضي الولي بالدّيّة **(فاتّباع بالمعروف)** من مقدار الدّيّة الشّرعية، فواجب على وليّ القتيل أن لا يطلب الزّائد على ذلك المقدار، **(و)** يجب على القاتل **(أداء)** الدّيّة المقدّرة عليه بدون نقص ومماطلة، هذا وحيث لم يكن العفو عن القصاص وقبول للدّيّة حكماً موجوداً في التّوراة، بل كان القصاص حتماً في اليهود، وكان الحكم عند النّصارى أخذ الدّيّة حتماً دون القصاص، خيّر اللّه تعالى المسلمين بين أحد الأمرين: القصاص أو الدّية، وقال تعالى: **(ذلك)** التّخيير **(تخفيف)** للحكم (من **ربّكم ورحمة**) بكم، **(فمن اعتدى)**، أي قتل القاتل **(بعد ذلك)**، أي بعد قبول الدّيّة وأخذها **(فله عذاب أليم)** موجع من اللّه تعالى في الآخرة وفي الدّنيا، حيث لا يقبل منه إلّا القصاص فلا يعفى عنه ولا تقبل منه الدّيّة بحال.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر المصلحة في حكم القصاص، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

(ولكم) أيّها المسلمون **(في القصاص)**، أي في تشريعه وتطبيقه **(حياة)** حياة كثيرة، لأنّه به يرتدع النّاس عن القتل، فلا يَقتل بعضهم بعضاً، لأنّ المرء إذا علم أنّه يُقتل إن قتل، فلا يَقتل أحداً إن كان له عقل، ولذلك قال تعالى: **(يا أولي الألباب)**، أي يا أصحاب العقول، **(لعلّكم تتّقون)**، (لعلّ) هنا بمعنى (كي)، فالمعنى: فرض القصاص لكي تتّقوا من القتل خوف القصاص، فالمراد بالحياة الموجودة في القصاص حياة المجتمع، لا حياة القاتل ولا القتيل. وههنا مسائل كثيرة متعلّقة بالقصاص والدّيّة تركتها خوف الإطالة، ولأنّ موضعها كتب الفروع، وتجد تلك المسائل في القرطبيّ وابن كثير في تفسيرهما لهذه الآية، فمن أراد فليرجع إليهما (رضي اللّه تعالى عنهما وعنا) آمين.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ

عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾﴾

(كتب)، أي فرض اللّه تعالى **(عليكم)** أيّها المؤمنون أنّه **(إذا حضر)**، أي قرب من أحدكم الموت وظهر علاماته، فيجب عليه **(الوصيّة)** بالمال **(للوالدين)**، الوالد والوالدة **(والأقربين)** من الأقارب، كابن الابن وابن الأخ مثلاً، **(بالمعروف)**، أي بدون إفراط وتفريط، وحقّ هذه الوصية يكون **(حقاً)** ثابتاً على **(المتّقين)** من المعصية تركها، هذا وقد اختلف العلماء في حكم هذه الآية، فذهب بعضهم إلى أنّ الوصيّة للوالدين والأقربين منسوخة بآية المواريث، وبقوله (ﷺ): (إنّ اللّه قد أعطى كلّ ذي حقّ حقّه فلا وصيّة لوارث)[1]. وذهب البعض الآخر إلى أنّ حكم الآية باق، حيث لا يعارض الحديث، لأنّ الآية تفيد وجوب الوصية للوالدين اللذين لا يرثان، كأن كانا كافرين أو لسبب آخر، وللأقربين الذين لا يرثون، كابن الابن عند وجود الابن وابن الأخ عند وجود الأخ، فيجب على من مات عن ابن وأبناء ابن أن يوصي لهم بقدر حصّة أبيهم لو كان حيّاً، وعلى هذا كثير من الأصحاب والتّابعين، حتى قال بعضهم إنّه إذا لم يوص يعطى ذلك لمن يستحقّ الوصية له، لأنّ هذه الوصيّة إجبارية فتنفّذ وصّى أو لم يوص بها[2]، وحكم بذلك سيّدنا عثمان بن عفان (رضي اللّه عنه) في خلافته، وقد صدرت على وفق ذلك في الآونة الأخيرة القوانين في الدّول العربية، وأصبحت معمولاً بها، **(فمن بدّله)**، أي فمن غيّر هذه الوصيّة فلم ينفّذها، أو نقص منها، أو زاد عليها، أو كتم الشّهادة بها، أو بدّل كتابتها **(بعد ما سمعه)**، أي الوصيّة، وتذكير الضّمير في (سمعه)، لأن (الوصية) مصدر يجوز فيه التّذكير والتّأنيث[3] (فإنّما إثمه)، أي ليس إثم التّبديل إلّا **(على الذين يبدّلونه)**، لا على الميّت، لأنّه بعدما وصّى فقد أدّى واجبه، **(إنّ اللّه سميع)** بأقوالكم **(عليم)** بأفعالكم من التّنفيذ للوصيّة كما هي أو تبديلها، فيجازيكم حسب تلك الأقوال والأعمال، فلا تلوموا إلّا أنفسكم حينما أصابكم العذاب، فالتّبديل للوصيّة غير

---

(١) سنن النسائي ٤/١٠٧.

(٢) وتسمى مثل هذه الوصية بالوصية الواجبة، فتعطى لهم قضاء وإن لم يوص اختيارا، وهو المقصود بقوله فتنفذ وصى أو لم يوص.

(٣) أي في معنى الإيصاء، أو لوجود الفاصل بين الفعل والوصية، كما يقال: حضر القاضيَ امرأةٌ.

جائز إلّا إذا كان في الوصيّة ظلم، بأن يوصى للوالدين أو الأقربين أكثر مما يستحقّونه، أو أقلّ، فحينئذ يجوز التّبديل، كما قال تعالى: **(فمن خاف)**، أي رأى **(من موصٍ)** ـ وهو الميت ـ **(جنفاً)**، ميلاً عن الحقّ، خطأً **(أو إثماً)**، أي ميلاً عن الحقّ تعمّداً، **(فأصلح بينهم)** بين الورثة والموصى لهم فرجع بكلّ إلى حقّه **(فلا إثم عليه)** في هذا التّبديل، **(إنّ الله غفور رحيم)** يغفر عن عباده لرحمته بهم، وهذه هي الوصيّة الواجبة للوالدين والأقربين.

وأمّا الوصيّة لغير الوارثين، كالفقراء أو المحتاجين أو وجوه البرّ والخير أو المصالح العامة ففيها أبحاث:

البحث الأوّل: إنّه لا خلاف في أنّ من كان عنده ودائع للنّاس، أو كان عليه ديون وحقوق لهم يجب عليه أن يوصي بها وبردّها ودفعها إلى أصحابها، وبذلك يخرج الحقّ عن ذمّة الميّت ويقع في ذمّة الورثة إنّ ترك لهم مالاً وإلّا فلا. والميّت إن كان مقصّراً عفي[١]، وإلّا كأن كان معسراً فاللّه تعالى يعفو عنه ويؤدّي عنه حقّه، ويندب للورثة أداء فروض الميّت إن لم يترك لهم شيئاً، وإن ترك فيجب عليهم الأداء بقدر ما يفي أصحاب الدّيون على نسبة ديونهم، فمن لا يفي ماله إلّا بأداء نصف ما عليه من الدّيون، مثلاً فمن له ديناران يأخذ ديناراً، ومن له دينار يأخذ نصفه فقط، وهكذا وحسب النّسب، ويسمّى هذا تقسيم الغرماء.

البحث الثّاني: اختلف العلماء في وجوب الوصيّة على من ترك مالاً بعد إجماعهم على وجوبها بأداء الودائع وحقوق النّاس: فذهب الجمهور إلى عدم وجوبها عليه سواء كان موسراً أو فقيراً، وقال قوم بوجوبها عليه سواءً كان غنياً أو فقيراً لظاهر الآية، ولقوله (ﷺ): (ما حقّ امريء مسلم له شيء يريد أن يوصي فيه يبيت ليلتين إلّا ووصيّته مكتوبة عنده)[٢] وفي رواية ثلاث ليال[٣]، وقال: من لم يوجبها لو كانت واجبة يجعلها الرّسول (ﷺ) إلى إرادة الموصي بقوله يريد أن يوصي فيه، لأنّ الواجب محتّم لا اختيار فيه.

البحث الثّالث: ذهب الجمهور إلى أنّه لا يجوز أن يوصي أحد بأكثر من ثلث ماله،

---

(١) أي إذا كان مقصرا في الأداء حال حياته وله تركة ووصى بأداء تلك الديون والودائع يعفى وإن لم يوص يكون مسؤولا.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٢٤٩ الحديث رقم ١٦٢٧.

(٣) صحيح مسلم ٣/ ١٢٥٠ الحديث رقم ١٦٢٧.

سواء كان له ورثة أو لا. وقال أبو حنيفة إذا لم يكن له ورثة جاز له أن يوصي بماله كلّه، وإذا أجاز الورثة فله الوصيّة بما زاد على الثّلث بقدر ما أجازوا عند كافة العلماء، إلّا أهل الظّاهر، فإنّهم منعوا ذلك لظاهر الحديث، وكذلك الوصيّة للوارث بإذن باقي الورثة جائزة بلا خلاف.

البحث الرّابع: يجوز للموصي الرّجوع عن الوصيّة أو تغييرها وتبديلها، ولا خلاف في ذلك إلّا في (المدبّر)، وهو العبد المعلّق عتقه بما بعد الموت.

البحث الخامس: اختار جماعة أنّ من له مال قليل وورثة إنّ ترك الوصيّة أحسن، حيث قال ابن أبي شيبة من حديث ابن أبي مليكة عن عائشة (رضي الله عنها) أنّه قال لها: أريد أن أوصي، قالت: وكم مالك؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: فكم عيالك؟ قال: أربعة، قالت: إنّ اللّه تعالى يقول: (إن ترك خيراً)، وهذا شيء يسير فدعه لعيالك، فإنّه أفضل لك)[1] **البحث** السّادس: قال في القرطبي: من أوصى لبنت ابنه أو لابن بنته أو لزوج بنته أو لابن زوجته أو لبنتها، فذلك يعتبر جنفاً وميلاً عن الحقّ، لأنّه يريد بذلك أن يرجع المال إلى بنته أو ابنه أو زوجته، وكذلك لو أوصى للبعيد وترك القريب فبادروا إلى السعي في الإصلاح بينهم، وهذا عملاً بقوله تعالى: ﴿فمن خاف من موص جنفاً...﴾ إلخ.

* * *

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا)، خصّ المؤمنين بالخطاب لما مرّ في آية القصاص، **(كتب)** فرض **(عليكم الصّيام)**، (الصّيام) مصدر (صام)، يقال صام يصوم صوماً وصياماً، مثل

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٢٢٩ الحديث رقم ٣٠٩٤٦.

قام يقوم قوماً وقياماً. و(الصّوم) لغة: الإمساك والامتناع. وشرعاً. عبارة عن الامتناع عن الأكل والشّرب والجماع من الفجر الصّادق إلى غروب الشّمس مقروناً ذلك بنيّة العبادة وإطاعة اللّه تعالى، **(كما كتب)** ، كما فرض الصّوم **(على الذين من قبلكم)** من الأمم السّابقة، والمعنى أنّ الصّوم ليس عبادة جديدة، بل هو عبادة قديمة، وكان فرضاً على جميع الملل وأهل الأديان المؤمنين باللّه تعالى، **(أيّاماً معدودات)** ، أي قليلة، فالعدد كناية عن القلّة، لأنّ العرب كانوا يزنون الكثير ويعدّون القليل، وفيه إشارة إلى أنّ أيّام الصّوم قليلة، فإنّ نسبتها إلى أيّام السّنة كنسبة واحد إلى اثني عشر، **(لعلّكم)**، (لعلّ) في كلام اللّه تعالى بمعنى (كي)، **(تتّقون)**، أي لكي تتكوّن لكم قوّة التّقوى والاجتناب عن المحرّمات؛ فإنّ الصّوم يعطي قوّة العزيمة والصّبر على تحمّل المشاقّ والمكاره والتّجنّب عن المحرّمات، وهذه الأيّام معلومة، وهي أيّام شهر رمضان المبارك، ولذا قال تعالى **(فمن كان منكم مريضاً)** في هذه الأيّام كلّها أو بعضها، **(أو على سفر)**، أي في سفر في تلك الأيّام، **(فعدّة من أيّام أخر)** يصومها بعدد الأيّام التّي أفطر فيها للمرض أو السّفر.

* * *

وههنا نذكر مسائل تتعلّق بالمرض والسّفر المبيحان للفطر في رمضان:

المسألة الاولى: إنّ المريض إذا كان لا يقدر على الصّوم بحال فالفطر عليه واجب، وإن قدر عليه بضرر فكذلك، وإن كان لا يصيبه ضرر إلّا أنّه يجد فيه مشقّة فيستحبّ له الصّوم، وإلّا فهو مخيّر بين الصّوم والفطر ثمّ القضاء، قال ابن سيرين: متى حصل للإنسان ما يستحقّ به اسم المريض صحّ له الفطر، وعند الشّافعي: أنّه لا يصحّ له الفطر إلّا إذا دعته ضرورة المرض ومشقّته إلى الفطر. وعند مالك روايتان: الأولى: خوف التّلف بالصّوم، والثّانية: زيادة المرض أو شدّته أو المشقّة الشّديدة، قال القرطبي: وقول ابن سيرين عدل.

المسألة الثّانية: ذهب جماعة إلى وجوب الإفطار في السّفر[1]، والصّحيح قول الجمهور من أنّ المسافر مخيّر بين الصّوم والإفطار، حيث أنّ الرّسول (ﷺ) كان معه الأصحاب في السّفر، فمنهم مفطر، ومنهم صائم، فلم ينكر على أحد، فدلّ ذلك على

(١) أي مطلقا، وهم الظاهرية. انظر المحلى ٦/٢٤٣.

أنّ الإفطار ليس بواجب، وإلّا لكان ينهي الصّائمين عن الصّوم. والصّوم أفضل عند الشّافعي والإفطار أفضل عند طائفة من العلماء.

المسألة الثّالثة: لا يجوز لمن أراد السّفر أن يفطر قبل أن يدخل في السّفر، فمن أراد السّفر غداً يتسحرّ وينوي ويصوم، فإذا جاوز سور البلدة أفطر.

المسألة الرّابعة: لا خلاف في أنّ سفر الطّاعات كالحج والجهاد وطلب العلم وصلة الرّحم وللكسب الضروري يجوز فيه الفطر والقصر، وأمّا سفر التّجارات والأسفار المباحة الأخرى فاختلفوا في الجواز فيها، والقول بالجواز أرجح، قاله القرطبي، وأمّا السّفر الذي يعصي به المسافر، كمن سافر لزنا أو قتل بريء أو قطع طريق أو تجارة مسكرات أو كلّ ما يحرم تداوله، فالقول بمنع الفطر والقصر فيه أرجح من القول بجوازه، قاله القرطبي أيضاً.

المسألة الخامسة: مسافة السّفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر مختلف فيها، فعند مالك ثمانية وأربعون ميلاً، وفي رواية ستة وثلاثون ميلاً، وفي رواية مسيرة يوم وليلة، وعند الشّافعي ستة عشر فرسخاً، وعند الأحناف ثلاثة مراحل، فما عند الشّافعي هو ٧٥ كيلومتراً، وعند الأحناف ٨٥ كيلومتراً بتقديرات اليوم. وقال البعض[١] : ما أطلق عليه اسم السّفر وإن قلّ، حيث لم يرد تحديد المسافة لا من الكتاب ولا من السّنّة فكلّ ما يطلق عليه اسم السّفر قليلاً كان أو كثيراً يجوز فيه الفطر والقصر، كما أنّ كلّ مرض يجوز الإفطار به والله تعالى أعلم.

المسألة السّادسة: هل يجب التّتابع في قضاء ما فات بالمرض أو السّفر أم لا؟ فيه قولان: الأصحّ لا يجب، بل هو مخيّر بين التّتابع وعدمه وكيف ما شاء.

المسألة السّابعة: من أخّر قضاء ما فاته في رمضان لمرض أو سفر الى أن أتى عليه رمضان آخر فهل يلزمه كفّارة لهذا التّأخير؟ قال الشّافعي وأحمد ومالك رحمهم الله تعالى: نعم ويتكرّر بتكرّر رمضان عليه، وقال أبو حنيفة والنّخعي والحسن البصري: لا يلزمه، وإلى هذا ذهب البخاري (رضي الله عنه) لقوله تعالى: **(فعدّة من أيّام أخر)** مطلقاً ولم يقيّده بوقت دون وقت ولا ذكر كفّارة للتّأخير.

المسألة الثّامنة: من مات وعليه قضاء رمضان ففيه قولان: الأوّل: أنّه يصام عنه، الثّاني: يطعم عنه لكلّ يوم مدّاً.

---

(١) هم الظاهرية أيضا، أنظر المحلى ٦/ ٢٤٦.

(وعلى الذين يطيقونه)، أي وعلى الّذين يطيقون الصّوم، أي يصعب عليهم لهرم أو مرض لا يرجى برؤه يجب عليهم بدل الصّوم **(فدية)** قدرها **(طعام مسكين)**، وهو عند الشّافعي يدفع عن كلّ يوم مدّاً من طعام بمدّ النّبيّ (ﷺ)، وهو كيل مخصوص، وعند الحنفيّة كفّارة كلّ يوم صاع تمر أو نصف صاع برّ.

واعتقد: أنّه يجب عليه أن يعطي ما يكفي المسكين عن كلّ يوم طعام يوم وكفايته، ويختلف ذلك باختلاف الزّمان والمكان.

المسألة التّاسعة: الحائض والنّفساء يحرم عليهما الصّيام، فتفطران ثمّ تقضيان.

المسألة العاشرة: الحبلى والمرضع يجوز لهما الفطر، وعليها القضاء فقط عند الأحناف، وعند أحمد والشّافعي أنّهما إن خافتا على أولادهما فقط أفطرتا، وعليهما القضاء والفدية، وإن خافتا على أنفسهما فقط أو على أولادهما وأنفسهما معاً فالقضاء لا غيره. وروي عن ابن عمر وابن عباس أنّهما عليهما الفدية فقط في كلّ حال.

المسألة الحادية عشرة: إنّ أصحاب الأعمال الشّاقّة الّذين يشقّ عليهم الصّوم لهم حالتان:

الأولى: إن كانت أعمالهم هذه مؤقّتة وليست دائميّة، هؤلاء يصومون، فإذا ضاق عليهم أفطروا وقضوا.

الثّانية: وإن كانت أعمالهم دائميّة، فهم كالذين يطيقونه، فعليهم الفدية.

* * *

(فمن)، فكلّ واحد ممّن عليه الفدية إذا **(تطوّع)** اعطى عن طيب نفسه **(خيراً)** زيادة على ما قدّره الشّرع، **(فهو)**، فهذا التّطوّع **(خير)** أحسن **(له)** لزيادة الأجر بزيادة معونة المساكين، **(وأن تصوموا)** أيّها المعذرون والذين أبيح لكم الفطر مقابل فدية أو قضاء أو أحدهما فقط، فالصّوم **(خير لكم)** من الإفطار والقضاء معاً، أو القضاء فقط، أو الفدية فقط، إن لم تتضرّروا بالصّوم وإلّا فلا يجوز الصّوم، **(إن كنتم تعلمون)** فضيلة الصّوم فإنّكم لا تفطرون إلّا عند الضّرورة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وجوب الصّوم في أيّام معدودة،، أراد أن يعيّن تلك الأيّام، فقال جلّ وعلا:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

(**شهر رمضان**)، أي هذه الأيّام التّي يجب فيها الصّوم، هي: (**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن**)، وصف الشّهر بهذا الوصف، وهو نزول القرآن فيه للإشارة الى أنّه فُرض الصّوم فيه أداءً لشكر نعمة القرآن، لأنّ القرآن ومنهجه وتعليمه لهذه الأمّة من أكبر النّعم، وللإشارة إلي عظمة هذا الشّهر، فلعظمته يجب الصّوم وعبادة اللّه تعالى بالصّوم فيه. ثمّ بيّن تعالى ما هو سبب لعظمة القرآن وأنّه نعمة عظمية، فقال: (**هدىً للنّاس**)، أي هو هادي النّاس إلى المنهج المستقيم المعتمد عليه للفرد والجماعات وفي كلّ نواحي حياتهم الشّخصيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة، وذكر (هدى) بلفظ المصدر للمبالغة، مثل رجل عدل، (**وبيّنات**) أي القرآن آيات بيّنات واضحات الدّلالة، (**من الهدى**) من الهداية إلى الحقّ (والفرقان)، أي الفرق بين الحقّ والباطل والخير والشّرّ والحسن والقبيح والصّحيح والفاسد، والمعنى أنّ الآيات الموجودة في القرآن الدّالة على الأحكام العقائديّة والاحكام العملية والأخلاق واضحة، إنّ ما فيها حقّ وهداية، وما سواها باطل وضوحاً لا يخفى على أصحاب العقول السّليمة والقلوب الطيّبة، (**فمن**) فكلّ من (**شهد**) أي حضر (**الشّهر**) ودخل فيه (**فليصمه**)، ولا يجوز أن يفطر فيه إلّا من استثناه الله تعالى بقوله: (**ومن كان مريضاً أو على سفر فعدّة من أيّام أخر**)، كما ذكر حكمهما سابقاً، وأعيد هذا الحكم هنا لئلّا يتوهّم تبدّل الحكم بتعيين الوقت، وأمّا الذين يطيقونه والحبلى والمرضع وباقي الأعذار المبيحة للفطر فيشمله قوله تعالى: (**يريد اللّه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**)، أي فكلّما عسر عليكم الصّوم فافطروا حسبما قدّر، وحسب الشّروط وكيفيّة الأعذار، واقضوا أو افدوا عن الصّوم أو افعلوا القضاء والفدية معاً، كما مرّ هذا التّفصيل سابقاً، وفُهم هذا التّيسير من الأحاديث الصّحيحة وأعمال الصّحابة (رضوان اللّه تعالى عليهم وعلينا) وأقوالهم المرويّة لنا. (**ولتكملوا العدّة**)، أي (**و**) بيّن اللّه تعالى لكم أيّام الصّوم بتعيين الشّهر، (**لتكملوا**) العدّة، أي عدّة أيّام الصّوم بالصّوم فيها، وذلك بالدّخول في الصّوم حينما دخل الشّهر، والإفطار حينما خرج وانقضى. أو المعنى: وصوموا عمّا أفطرتم في رمضان لأجل المرض والسّفر، أو أيّ

عذر آخر بعددما أفطرتم **(لتكملوا العدّة)**، أي عدّة ما فرض عليكم، وهو ثلاثون يوماً إن كان الشّهر تامّاً، أو تسعة وعشرون يوماً إن كان الشّهر ناقصاً، ولكنّ المعنى الأوّل أوفق بقوله تعالى: **(ولتكبّروا اللّه على ما هداكم)** إليه من صوم هذا الشّهر المبارك، والذي لا شهر يكون الصّوم أفضل فيه منه، **(ولعلّكم)**، ولكي **(تشكرون)** اللّه تعالى بأداء صومكم وأداء شعائر دينه تعالى، ومن هذا أصبح سنّة أن يكبّر المسلم بعد غروب شمس يوم عرفة آخر يوم رمضان، إلى أن يدخل الإمام في الخطبة.

وهنا مسائل: المسألة الاولى: لا يثبت هلال شهر رمضان بشهادة رجل واحد، وعند الشّافعية والحنفية يثبت، إلّا أنّ الحنفيّة فرّقوا بين يوم الغيم ويوم الصّحو، فقالوا: ليس من المعقول أن يكون الجو صحواً وأن يرى الهلال رجل واحد فقط دون غيره فلا يثبت بشهادته يوم الصّحو.

المسألة الثّانية: إذا ثبت رؤية الهلال في بلد وجب على جميع البلاد اتّباعه في الصّوم ـ إذا كان هلال صوم، وفي الفطر إن كان هلال شوال ـ سواء كان بلد الرّؤية شرقيّاً أو غربيّاً أو جنوبيّاً أو شماليّاً، قريباً أو بعيداً، متّحداً مطلعه مع بلدك أولا، لعموم قول الرّسول (ﷺ): (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) في الأمكنة والأشخاص، وهذا مذهب الجمهور، فلا تأثير عندهم لاختلاف المطالع، إلّا أنّ بعض علماء الشّافعية قالوا: إن كان بلد الرّؤية شرقيّاً يجب على جميع البلاد الغربيّة اتّباعه، لأنّه إذا رُؤي الهلال في الشّرق فيرى في الغرب بالطريق الأولى، وإن كان غربيّاً أو شماليّاً أو جنوبيّاً وجب على البلاد المتّفقة معه في المطلع لا المختلفة، لأنّه ربّما يهلّ الهلال في البلد الغربيّ ولا يهلّ في الشّرقيّ منه. والأصحّ مذهب الجمهور، وقد حقّقت هذه المسألة في رسالتي: (القول الجادّ في وجوب توحيد الصّوم والأعياد).

المسألة الثّالثة: ورد في فضل الصّوم وفضيلة رمضان أحاديث كثيرة فنتبرّك بذكر بعض منها:

فضيلة رمضان: ١- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ)، قال: (أتاكم رمضان شهر مبارك، فرض اللّه عزّ وجل عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السّماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه مردة الشّياطين، للّه فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرّم خيرها فقد حرّم)[١].

(١) سنن النسائي ٢/٦٦ الحديث رقم ٢٤١٦.

٢- عن النّضر بن شيبان (رضي الله عنه) قال: قلت لأبي سلمة بن عبدالرّحمن حدّثني بحديث سمعته من أبيك سمعه أبوك من رسول الله (ﷺ) ليس بين أبيك وبين رسول الله (ﷺ) أحد في شهر رمضان، قال: نعم حدّثني أبي قال: قال رسول الله (ﷺ): (إنّ اللّه تبارك تعالى فرض صيام رمضان عليكم وسننت لكم قيامه، فمن صامه وقامه إيماناً وإحتساباً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[١].

فضيلة الصوم: ١- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) يقول: (قال اللّه تعالى كلّ عمل ابن آدم له إلّا الصّيام، فإنّه لي وأنا أجزي به، والصّيام جُنّة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إنّي امرؤ صائم، والذي نفس محمّد بيده لخلوف فم الصّائم أطيب عند اللّه من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح، وإذا لقي ربّه فرح بصومه)، رواه الخمسة، كما قال في التّاج[٢].

٢- وفي رواية: (كلّ عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة، قال اللّه: إلّا الصّوم فإنّه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه لأجلي)[٣].

٣- عن سهل (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ)، قال: (إنّ في الجنّة باباً يقال له الرّيان يدخل منه الصّائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أغلق، فلم يدخل منه أحد)، رواه الشّيخان[٤] .

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدّاً، نكتفي بهذا القدر إذ فيه الكفاية.

خصائص الصوم:

هذا وإنّ من خصائص الصّوم إنّ دعاء الصّائم مستجاب، ولذلك بعد ما ذكر اللّه تعالى الصّوم ووجوبه وأيّامه وأعذاره، قال جلّ وعلا:

---

(١) سنن النسائي ٢/ ٨٩ الحديث رقم ٢٥٢٠.

(٢) التاج الجامع للأصول للشيخ منصور علي ناصف باب رفضائل الصوم ٢/ ٤٦.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٠٧ الحديث رقم ١١٥١.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٦٧١ الحديث رقم ١٧٩٧. صحيح مسلم ٢/ ٨٠٨ الحديث رقم ١١٥٢.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

قال ابن كثير (رحمه الله تعالى) في تفسير هذه الآية: ففي هذه الآية إرشاد إلى الاجتهاد في الدّعاء عند إكمال العدّة، بل وعند كلّ إفطار، كما روى الإمام أبو داود والطيالسي في مسنده وقال: حدّثنا أبو محمد المليكي عن عمرو ـ هو ابن شعيب بن محمد بن عبدالله بن عمرو ـ عن أبيه عن جدّه عن رسول الله (ﷺ)، قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (للصّائم دعوة مستجابة). وفي مسند الإمام أحمد وسنن التّرمذي والنّسائي وابن ماجه عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (ﷺ): (ثلاثة لا تردّ دعوتهم: الإمام العادل، والصّائم حتى يفطر، و دعوة المظلوم يرفعها الله تعالى دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السّماء، ويقول: بعزّتي لأنصرنّك ولو بعد حين)، هذا وفي سبب نزول الآية أقوال: أصحّها: قالوا للرّسول (ﷺ): أربُّنا قريب نناجيه، أو بعيد نناديه، فنزلت: **(وإذا سألك عبادي عنّي)** ـ هل هو قريب أو بعيد ـ **(فإنّي قريب)** علماً وقدرةً وسمعاً وإجابةً، وفي هذه الفقرة إشارتان:

الأولى: إنّ الأحسن والصّواب أن يكون الدّعاء سرّاً لا جهراً، كما قال تعالى: **﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾** سورة الأعراف الآية/ ٥٥.

الثّانية: يقول الرّازي: في كلّ آية يذكر تعالى السّؤال عن الرّسول فيها، يقول له: **(قل)**، مثل قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ٢١٩ ـ ، وقوله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٩ ـ وهكذا في كلّ آية فيه السّؤال عن الرّسول (ﷺ) إلّا في هذه الآية، فأشار تعالى فيها إلى مقام الدّعاء وأنّه لا وسيلة بين العبد وبين الرّبّ في الدّعوات ولا واسطة، بل يدعو العبد بدون توسّل وتوسّط بأحد، **(أجيب دعوة الدّاعي إذا دعاني)** دعاءً بصدق، ومستوفياً لشروط الدّعاء، فحيث لا يستجيب دعاءهم إلّا أنا، **(فليستجيبوا)** هم أي العباد **(لي)** بإطاعة الأوامر والنّواهي. **(وليؤمنوا بي)** وحدي ولا يشركوا بي لا في الدّعاء ولا في العبادة، **(لعلّهم يرشدون)** ويهتدون إلى طريقة الدّعاء وشروطه وإلى عبادتي وحدي واستجابة أمري.

* * *

سؤال: وههنا سؤال، وهو أنّه تعالى يقول: (أجيب دعوة الدّاعي إذا دعاني)، والنّاس يدعون فلا يستجاب لهم؟

الجواب: ذكروا في الجواب عن هذا السّؤال أقوالاً ووجوهاً، أولاها: إنّ الدّعاء عبادة كالصّلاة والصّوم وغير ذلك، وكلّ عبادة لها شروطها وأركانها، فإذا لم تستوف الشّروط لا تقبل، وللدّعاء أيضاً شروط، فإذا لم يستوفها لا يستجاب، والشّروط للدعاء كثيرة، جمعها اللّه تعالى كلّها في قوله: (فليستجيبوا لي) أستجيب دعواتهم، وليؤمنوا بي وحدي، ولايشركوا بي لذلك أيضاً.وجواب آخر لطيف أيضاً وهو: أنّ استجابة الدّعاء ليس عبارة عن تحصيل ما طلبه الدّاعي في الدّعاء فقط، بل إنّ الاستجابة تكون إمّا بتحصيل ما طلب، وإما بكتابة الأجر والثّواب له؛ فإنّ الدّعاء عبادة، والعبادة لا تخلو عن أجر وثواب يناله المسلم يوم القيامة.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الصّوم وواجباته أراد أن يذكر مبطلاته، فقال جلّ وعلا:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

كان أوّل ما فرض صوم رمضان حرّم على المسلم التّقرب إلى النّساء في اللّيل والنّهار، فشقّ ذلك على المسلمين ووقع بعضهم في المحظور، فشكوا ذلك إلى رسول اللّه (ﷺ)، فخفّف اللّه تعالى عنهم، وأنزل الآية، فقال: **(أحلّ لكم ليلة الصّيام)، أي في اللّيلة الّتي تصومون نهارها أحلّ لكم (الرّفث)** ـ (الرّفث) كناية عن الجماع ـ **(إلى نسائكم هن)** أي النّساء **(لباس لكم)**، لأنّهن يلاصقنكم ملاصقة اللّباس، أو لأنّهن يمنعنكم من الوقوع في الحرام، كما يقي اللّباس عن الحرّ والبرد، **(وأنتم لباس لهن)**،

كما ذكر في النّساء من اللّصوق والوقاية، (**علم اللّه أنّكم كنتم تختانون**)، تظلمون (**أنفسكم**) حيث تقعون في المحظور، (**فتاب عليكم**) ما وقع منكم فيما مضى، (**وعفا عنكم**)، أي عفا عن تحريم الجماع في اللّيل عنكم وأزال هذا الأمر تخفيفاً عنكم، (**فالآن باشروهن**) باللّيل، (**وابتغوا**)، واطلبوا بالمباشرة، أي فليكن قصدكم من المباشرة حصول (**ما كتب اللّه لكم**) من الأولاد، لاقضاء الشّهوة، وبذلك تكون المباشرة عبادة، وكذلك كلّ عمل مباح يكون عبادة بنيّة صالحة، فمن أكل ـ لئلّا يعجز عن الطّاعة والعبادة وما فرض اللّه تعالى عليه ـ من الكسب الحلال فأكله عبادة. هذا ثمّ كان الأمر أيضاً أوّل ما فرض الصّيام، أنّ المرء إذا نام باللّيل لا يجوز له الأكل إلى غروب الشّمس في اليوم التّالي، فشقّ ذلك أيضاً على المسلمين، حتّى أنّ أحد الأصحاب رجع حين الإفطار فقبل أن يحضر أهله الإفطار له غلب عليه النّوم فنام، فقعد فلم يتنبّه أن يأكل لحرمة ذلك فبقي صائماً، وفي اليوم الآتي وقع مغشياً عليه، فرفع اللّه تعالى عنهم هذا الأمر أيضاً، فقال جلّ وعلا: (**وكلوا واشربوا**) في اللّيل، سواء نمتم أولا (**حتى يتبيّن لكم الخيط الابيض**) ـ وهو الخط الأبيض الذي يمتدّ على الأفق في جانب الشّرق من السّماء ـ (**من الخيط الأسود**)، وهو الخط الأسود الذي يمتدّ فوق الأفق، (**من الفجر**) وقت الفجر ـ وذلك أنّه قبل الفجر يظهر بياض في وسط السّماء من الجانب الشّرقي، وهذا هو الفجر الكاذب، ثم ينزل هذا البياض شيئاً فشيئاً إلى أن يمتدّ فوق الأفق وفوقه أسود، وهذا هو الفجر الصّادق ـ أي كلوا وأشربوا حتّى ظهور الفجر الصّادق، ثمّ بعد ظهور الفجر الصّادق (**أتمّوا الصّيام**)، أي أمسكوا (**إلى اللّيل**)، وهو عند غروب الشّمس، (**ولا تباشروهن**)، أي النّساء (**وأنتم عاكفون**)، أي في حين أنّكم معتكفون في المساجد ـ والاعتكاف عبادة خاصّة، وهو عبارة عن المكث في المسجد مدّة معيّنة، ففي تلك المدّة لا يجوز الجماع ويبطل به الاعتكاف ـ فلا يجوز الجماع وقت الاعتكاف، سواء كنت صائماً أو مفطراً لا باللّيل ولا بالنّهار ـ الاعتكاف سنة لا يكون واجباً إلا بالنّذر؛ فمن نذر الاعتكاف مدّة، كثلاثة أيّام، أو أكثر أو أقلّ وجب عليه الاعتكاف هذه المدّة، سواء كان صائماً أو لا ـ وكان الأصحاب يعتكفون في رمضان، فلذا نزل هذا الحكم، (**تلك**) الأحكام المذكورة (**حدود اللّه**) الذي حدّها (**فلا تقربوها**) ، (**كذلك**)، مثل ما رأيت (**يبيّن اللّه آياته**) أحكامه (**للنّاس لعلّهم**)، لكي (**يتّقون**)، أي ليتّقوا من المخالفة لأحكامه والوقوع فيما حرّم أو الخروج عمّا وجب.

* * *

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: أجمعت الأمّة على أنّ الجماع والأكل والشّرب وكذا الاستمناء ـ (ولكنّ الإجماع فيه غير مسلّم، حيث يقول ابن حزم لم يرد في الاستمناء شيء كما قيل) ـ مفطرات للصّوم، وأمّا غير هذه الأمور ففيها خلاف بين الفقهاء.

المسألة الثّانية: يجوز للصّائم السّبح والانغماس في الماء، فلا يفطر إلّا إذا كان دخول الماء في جوفه بتعمّد منه.

المسألة الثّالثة: لا ضرر للصّوم أن يصبح الصّائم جنباً ويغتسل بعد ذلك، بأن يجامع في اللّيل ولا يغتسل إلّا بعد الفجر.

المسألة الرّابعة: لا ضرر في الاكتحال والقطرة في العين، وإن وُجد طعمه في الحلق، ولا بأس بالقبلة والملاعبة لمن يقدر على نفسه، وإلّا فهما مكروهان مخافة أن يقع في المحظور.

المسألة الخامسة: لا بأس باستعمال الإبر جميعها، حتّى لو كانت للتّغذية، ولا بالحجامة، ولا بالمضمضة والاستنشاق، إلّا أنّه يكره المبالغة فيهما.

المسألة السّادسة: لا بأس بالحقنة عند مالك وبعض العلماء الآخرين[١] (رحمهم اللّه تعالى)، وعند بعض الآخرين تفطر[٢]

المسألة السّابعة: إذا أكل أو شرب أو جامع ظانّاً غروب الشّمس أوعدم طلوع الفجر فظهر خلافه، فعليه القضاء فقط عند الجمهور، وقال كثير من العلماء ـ منهم الحسن البصري وعطاء وعروة ومجاهد وإسحاق وداود الظّاهري وابن حزم ـ (رضي الله تعالى عنهم): أنّه ليس عليه قضاء ولا كفّارة، وصومه صحيح.

المسألة الثّامنة: من أكل أو شرب أو جامع أو استعمل أي مفطر، ناسياً أو مخطئاً أو مكرهاً فلا شيء عليه، ولا يبطل صومه به[٣].

المسألة التّاسعة: من جامع عمداً في نهار رمضان وهو صائم، فعليه القضاء والكفّارة

---

(١) كالقاضي من الشافعية.

(٢) وهم الجمهور كالحنفية الشافعية والحنبلية وقول للمالكية.

(٣) لما ورد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: إذا نسي فأكل أو شرب فليتم صومه فإنما أطعمه الله وسقاه. / صحيح البخاري ٢/ ٦٨٢ الحديث رقم ١٨٣١.

بالإجماع، والكفّارة عتق رقبة، فإن لم يمكن له فصوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً[١]، وإذا جامع مرّة في النهار في يوم، ثمّ جامع مرّة أخرى في نفس اليوم، أوفي يوم آخر، فإن وقع الجماع الثّاني مثلاً بعد أداء الكفّارة، فعليه كفّارة أخرى بدون خلاف، وإن وقع قبل أداء الكفّارة، فكفّارة واحدة عند الأحناف ورواية عن أحمد، وأمّا عند مالك والشّافعي ورواية عن أحمد، عليه لكلّ جماع كفّارة إن كان التّكرار في يومين مثلاً، وكفّارة واحدة لما وقع في يوم واحد مهما كثر، والإنزال بدون مباشرة لا يوجب شيئاً، و بالمباشرة يوجب الفطر والقضاء فقط.

المسألة العاشرة: من ذرعه القيء وغلبه، لا يبطل صومه، وأمّا من تقيّأ عمداً فيبطل صومه عند الجمهور[٢]، وعند البعض ذلك إجماع، إلّا أنّي رأيت الخلاف في ذلك في كتاب المجموع للنّووي (رحمه اللّه تعالى).

المسألة الحادية عشرة: يجوز الاعتكاف بدون صوم عند الشّافعيّة، وعند الحنفيّة لا يصحّ بدون صوم، ولذلك جعل الحنفيّة أقلّ مدّة الاعتكاف يوماً واحداً من قبل الفجر إلى غروب الشّمس، ولا يصحّ أقلّ من ذلك، وعند الشّافعيّة يصحّ الاعتكاف ولو ساعة.

المسألة الثانية عشرة: يبطل الاعتكاف بالجماع كما مرّ، ولا يبطل بالقبلة والمباشرة، فالجماع على المعتكف حرام. وعند مالك يبطل بالقبلة أيضاً، وقيل إن أنزل يبطل وإلّا فلا.

* * *

(١) لما ورد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رجلا جاء إلى النبي (ﷺ) فقال: هلكت يارسول الله!قال: وما ذاك؟ قال واقعت أهلي في رمضان،فقال النبي (ﷺ): أتجد رقبة؟ قال: لا، قال: أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟قال لا يارسول الله، قال فأطعم ستين مسكينا قال لا أجد يا رسول الله،، قال فأتي النبي (ﷺ) بعرق، والعرق المكتل فيه تمر،قال إذهب فتصدق بها،فقال: على أفقر مني؟والذي بعثك بالحق مابين لابيتيها أهل بيت أحوج إليه منا،فضحك رسول الله (ﷺ) فقال إذهب به إلى أهلك./ مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٨١ الحديث رقم ٧٧٧٢.

(٢) لما روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) قال من ذرعه القيء فليس عليه قضاء ومن استقاء عمدا فليقض./ سنن الترمذي ٣/ ٩٨ الحديث رقم ٧٢٠ وقال عنه حسن غريب والعمل عليه عند أهل العلم.

هذا وإنّ الصّوم الواجب قسمان:

الأوّل: هو الإمساك عن المباح والحلال، وهو صوم رمضان، أو الأيام التّي يقضي فيها ما فات في رمضان.

الثّاني: صوم واجب أبداً مدّة الحياة وهو الإمساك عن الحرام في كلّ وقت وحين، ولذلك بعد أن ذكر اللّه تعالى صوم رمضان أراد أن يذكر القسم الثّاني من الصّوم الواجب دائماً، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

(ولاتأكلوا أموالكم)، أي ولا يأخذ بعضكم أموال بعض **(بالباطل)** بدون وجه شرعي صحيح، **(وتدلوا بها)**، أي ولا تدلوا، أي وَلا تفيضوا بأمر الأموال إلى **(الحكاّم)** لتأكلوا **(فريقاً)** بعضاً **(من أموال النّاس بالإثم)**، بالباطل، وبدون وجه شرعي **(وأنتم تعلمون)** أنّه ليس لكم حقّ في ذلك المال شرعاً، فأكل أموال النّاس بالباطل يشمل أخذ المال بالتّعدّي والنّهب والغصب، وبطريق اللّهو والقمار والرّشوة، وأجرة الغناء المحرّم وثمن كلّ ما حرّم الانتفاع به، وأجرة شهادة الزّور، والأخذ بالخيانة، أو بالقانون الذي يعطي هذا الحقّ على خلاف الشّرع وأحكام اللّه تعالى. وهذه الآية دليل على أنّ حكم الحاكم لا يحلّ حراماً، ولا يحرّم حلالاً، ولمّا ذكر تعالى شهر رمضان ناسب أن يذكر سؤال النّاس عن الهلال، لماذا يدقّ أوّل الشّهر، ويمتلأ في وسطه ويدقّ في آخره مّرة آخرى؟ فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُواْ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

(يسألونك) أيّها النّبيّ **(عن الأهلّة)**، فيقولون ما هو السّبب في أنّ الهلال يبدو صغيراً مقوّساً، ثمّ يكبر شيئاً فشيئاً إلى أن يمتلئ نوراً، ثمّ يضعف شيئاً فشيئاً إلى أن يصير مثل أوّله صغيراً، ثمّ يختفي، ثمّ يظهر، **(قل)**: **(هي مواقيت للنّاس والحجّ)**، أي جعل اللّه تعالى الهلال كذلك ليعلموا به أوّل الشّهور وآخره وأوساطه، وبذلك يقسّمون

الزّمان على سنة وشهور؛ ويعلمون بذلك المواقيت التّي يوقّتون بها معاملاتهم، ومواقيتهم للحجّ أيضاً، ولولا اختلاف الهلال لما عرفوا الأوقات، لهذا سألوا عن سبب اختلاف الهلال، فأجيبوا ببيان الفائدة تنبيهاً على خطئهم في السّؤال، فإنّ من حقّ الإنسان أن يسأل عن فائدة الأشياء لا عن حقيقتها، فإنّ حقيقة الأشياء لا يعلمها ولا يفهمها إلّا بعض المختصّين، لذلك وإنّما الفائدة هي الأهمّ لكلّ أحد، فإنّ المرء حينما يدخل صيدليّة فإنّما يسأل عن فائدة الأدوية الموجودة فيها، فيقول: هذا الدّواء لأيّ مرض؟ وهذا لأيّ وجع؟ ولا يسأل عن تحاليلها وتراكيبها، فلا يقول: ممّ استخرج هذا؟ وكيف حلّل هذا وذاك؟ فإنّ ذلك غير معقول، ولمّا ذكر الله تعالى الحجّ نبّههم على أنّ لهم خطأً في الحجّ لما لهم خطأ في الأسئلة عن الأمور، وهو أنّهم كانوا حينما يحرمون بالحجّ لا يدخلون البيوت من أبوابها، بل يدخلونها من ظهورها، فيتسلّقون على الجدران، وينقبون الجدار الورائي ومنها يدخلون، وجعلوا ذلك برّاً وشعيرةً من شعائر الحجّ، فقال تعالى: **(وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها)**، إنّ ذلك ليس من واجبات الحجّ، ولا من سننه، ولا من البرّ في شيء، **(ولكنّ البرّ من اتّقى)**، أي اتّبعوا أوامر اللّه تعالى وأدّوا الشّعائر كما أمروا، إذن اتركوا ما ابتدعتموه **(وأتوا البيوت من أبوابها واتّقوا اللّه)**، فلا تبتدعوا في العبادات ولا في كيفياتها ما لم يأمر به اللّه تعالى، **(لعلّكم تفلحون)**، أي لكي تفلحوا، فإنّ الفلاح مربوط بتقوى اللّه تعالى وعبادته كما أمر، لا بما يخترعه النّاس ويبتدعون، بل (فكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النّار)، أي صاحبها ومتّبعها في النّار. ومن العجيب أنّ بعض النّاس يقسّمون البدعة على واجب ومسنون ومباح ومكروه وحرام، ولا يشعرون أنّ ذلك تكذيب للرّسول (ﷺ)، فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (وكلّ بدعة ضلالة)[1] على العموم بدون تقسيم وتفصيل[2]، فليس

---

(١) صحيح مسلم٢/٥٩٢ عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله (ﷺ) إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول: أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة ثم يقول أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلأهله ومن ترك دينا أو ضياعا فإلي وعليّ.

(٢) هذا رد على الذين يقسمون البدعة إلى حسنة وسيئة، لان رأي الشيخ رحمه الله تعالى أن أي عمل كان بدعة لا يكون حسنا بل سيئا لقوله (ﷺ) (كل بدعة ضلالة) وكل من ألفاظ العموم فيشمل جميع البدع على أنها ضلالة، فينتفي وجود بدعة تسمى حسنة. ويقترح على الذين يرون عملا داخلا ضمن القواعد

علاج هؤلاء أن يجعلوا ما يحبّونه بدعة ويجعلوه بدعة حسنة تكذيباً للرّسول (ﷺ) معاذ اللّه تعالى، بل علاجهم أن يقولوا: إنّ ما نعمل هو من السّنّة وليست ببدعة، فانّ البدعة هي ما لم تدخل تحت أمر خاصّ ولا أمرعام أيضاً، وكلّ ما نفعله يدخل تحت أمر عام، فيكون سنة لا بدعة، وبهذا يتخلّصون من تكذيب الرّسول (ﷺ). وفي هذه الآية دليل على أنّ كلّ عمل لا يكون خيراً وبرّاً ما لم يجعله اللّه تعالى برّاً وما لم يرد فيه أمر في الكتاب أو في السّنّة، بل يكون تشريعاً من المبتدع، والتّشريع من غير اللّه تعالى والرّسول كفر. بعدما ذكر اللّه تعالى وجوب الصّوم، والصّوم عبارة عن الإقدام على ترك المحرّمات ناسب ذكر القتال، فإنّ القتال فيه الإقدام على أداء الواجبات، والمسلم لا يكمل إسلامه إلّا بالاتّصاف بالإقدام، فلهذه المناسبة قال جلّ وعلا:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾

(وقاتلوا في سبيل اللّه)، أي قاتلوا في سبيل الدّفاع عن دين اللّه تعالى، وفي سبيل عزّه وإعلاء كلمته **(الذين يقاتلونكم)** فعلاً، **(ولا تعتدوا)** فتقاتلوا مَن لا يقاتلكم، حيث إنّ في ذلك اعتداءً وظلماً، **(إنّ اللّه لا يحبّ المعتدين)** الظّالمين الذين يعتدون على النّاس المسالمين.

* * *

مسألة: ظاهر هذه الآية كما فسّره بعض المفسّرين أنّ الحرب يجب أن يكون دفاعيّاً لا هجوميّاً، فالدّفاع واجب والهجوم وإنشاء القتال مع من لا يريد القتال حرام، وقالوا: إنّ هذه الآية منسوخة والهجوم جائز، لأنّ الكفر مرض يجب أن يقلع، هذا حيث إنّه من القاعدة الأصولية أنّ الآية لا ينسخها إلّا آية أخرى تعارضها ونزلت بعدها، ولا يمكن الجمع بينهما بحال: ولذلك يجب أن نستعرض الآيات التي ذكر فيها القتال كلّها، لنثبت الآية المعارضة لهذه الآية، ونثبت التّي يمكن الجمع بينهما إن وجدت، فنقول وردت في القتال سبع آيات: ١- هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

العامة الإسلامية أن لايسمونها بدعة حسنة بل يقولوا ينكروا بدعيته ويعدوه عملا صحيحا إن كان لهم دليل، وإلا فإن سموه بدعة لا تكون حسنة وفق دلالة عموم الحديث الشريف.

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٩٣ ـ وهذه الآية لا تعارض مع آيتنا هذه[١]، لأنّ الضّمير في وقاتلوهم راجع إلى الّذين يقاتلونكم، وليس راجعاً إلى مطلق الكافرين المقاتلين والمسالمين جميعاً.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء الآية/ ٧٤ ـ وهذه أيضاً لا تعارض الآية المذكورة، بدليل أنّه يأتي بعدها آية فيها يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ سورة النساء الآية/ ٧٦ ـ ، فالآية أيضاً واردة في قتال من قاتل من الكافرين.

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ سورة التوبة الآية١٢ ـ وهذه أيضاً لا تعارض آيتنا، لأنّ ظاهرها أنّها وردت في قوم نكثوا الأيمان والعهود وأرادوا أن يقاتلوا المؤمنين، بدليل ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ سورة التوبة الآية/ ٢١ ـ ، وهم أهل مكّة الذين نقضوا الأيمان وعهد الحديبيّة وأرادوا القتال، بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ سورة التوبة الآية/ ٣١ ـ .٥- قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٧ ـ هذه أيضاً وردت في حقّ المشركين المقاتلين بقرينة قوله: (كَما يُقاتِلُونَكُمْ)، ثمّ إنّها خاصّة بالمشركين، ولا يشمل كلّ الكافرين جميعهم.

٦ ـ قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ـ سورة التوبة الآية/ ٩٢ ـ ، هذه الآية تعارض آيتنا إلّا أنّه يمكن الجمع بينهما، بأنّ هذه الآية عند بعض نزلت في بني قريظة، وهم الذين خانوا ونقضوا العهد وأرادو قتال المسلمين في أضيق وقت، فلم يكونوا مسالمين، وعند بعض أنّها نزلت في الرّوم، وثبت أنّ الرّسول (ﷺ) أتاه الخبر بأنّ الرّوم يريدون الهجوم، فذهب

---

(١) يقصد مع الآية التي نحن بصدد تفسيرها الآن.

مع أصحابه إلى أن وصل إلى تبوك، فلمّا رأى أن لا حركة من الرّوم رجع، فيدلّ على أنّ المسالم لا يقاتَل.

٧ ـ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ نفس السورة الآية/١٢٣ ـ وهذه الآية إن كانت في جميع الكفّار عامّة فتتعارض مع آيتنا، إلّا أنّها مخصّصة بقوله: (يلونكم)، أي القريبين منكم، وهم كانوا المشركين وأهل الكتاب، وكلّهم كانوا في ذلك الوقت يريدون الكيد بالإسلام ويتربّصون بهم الدّوائر ويستعدّون لقتالهم واستئصالهم، وبذلك ينتفي التّعارض بين الآيتين. فتبيّن أنّه لا يوجد آية تتعارض مع آيتنا هذه تعارضاً لا يمكن الجمع بينهما، إلّا أنّ الذي ظهر من وقائع التّاريخ أنّ قتال المسلمين كان عامّاً، وذلك لأنّ الإسلام والكفر مبدآن متضادّان ولا يمكن التّصادق ولا التّسالم بين أهلهما، ولابدّ أن يحدث الاصطدام بين أهل العقيدتين، لأنّ كلّ صاحب مبدأ أو عقيدة يريد أن يكون لها السّيادة في الأرض، ولذلك كان المسلمون يرون قتال الكفّار جميعاً، كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿قاتلوا الذين يقاتلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة﴾، وفسّره المفسّرون بقولهم الأقرب فالأقرب، فإنّهم كانوا كلّما دنوا من قبيلة أو عشيرة أو قوّة معادية ومقاتلة واستولوا عليهم تتشكّل قوّة أخرى تعاديهم وتتهيّأ لقتالهم. فقتال الإسلام كان عامّاً إمّا لدفع العدوان الذي يحدثه اختلاف العقيدتين أو تحرير الشّعوب المظلومة من استبداد الطّبقة الكافرة الظّالمة وتخليصهم من نظام الكفر الجائر، ثمّ بث نظام اللّه العادل في الإرض، كما أفاد ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ سورة الانفال الآية/٩٣ ـ أي حتّى لا يكون للكافرين قوّة فيضلّون النّاس عن دين اللّه بالقوّة، وليكون الحكم والنّظام للّه تعالى في الأرض، فلا يُحكم بنظام غير نظام اللّه. وظهر أيضاً من الآيات أنّ الإسلام لا يقاتل لأجل إخلاء الدّنيا عن الكفر، وإلّا لما أجاز بقاء الكافرين على دينهم مقابل الجزية، وقد أقرّ القرآن على ذلك كما مرّ، وانعقد عليه الإجماع، فلا إكراه في الدّين والعقيدة، بل يقاتل نظام الكفر لأنّه مضرّ بالإنسان والإنسانيّة ومخالف لنظام اللّه تعالى. كما ظهر أنّ الإسلام لا يقاتل الأفراد الكافرين جميعاً، بل يقاتل الكيان والسّلطان فقط، فقوله تعالى في آيتنا: (ولا تعتدوا)، أي ولا تعتدوا أثناء القتال، فتقتلوا من لم يحمل السّلاح، كالعجزة والنّساء والأطفال والشّيوخ العجز والرّهبان، بل اقتلوا من حمل السّلاح فقط، ولا تتعرّضوا للعزّل والقاعدين، فإنّ ذلك اعتداء، واللّه لا يحبّ المعتدين، لأنّ الإسلام يحارب لدفع العدوان أو لتحرير الشّعوب من الظّلم، أو ليكون شريعة اللّه

وحكمه هو السّائد في الأرض، وللقضاء على كيان الكفر لا الكافر، فإنّ الكافر والذّمّيّ الذي يعيش في ظلّ الإسلام وكيانه لا يُطلب الإيمان منه واعتناق الإسلام جبراً، فلا حاجة إلى نسخ آية، بل كلّها محكمة، فإن قيل لو كان شعب له كيانه ونظامه ورضي بنظامه وكيانه، فلماذا يُقاتَل لهدم الكيان وإزالة نظامه؟ قلنا: لأنّ اللّه تعالى أحكم الحاكمين، وهو الذي خلق الكون والخلق والمخلوق والإنسان، فيجب أن يكون نظامه هو السّائد في الأرض والمعمول به، ولا يرضى الإله بغير ذلك ولا يقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ سورة آل عمران الآية/٥٨، وقال تعالى: ﴿وقاتلوهم حتّى لاتكون فتنة﴾ سورة الأنفال الآية/ ٩٣ ـ ، أي إضلال عن منهج اللّه[١]، ﴿ويكون الدّين﴾ أي نظام الحكم والعمل ﴿كلّه﴾ في كلّ الأرض ﴿لله﴾، ﴿فإنّ انتهوا﴾، أي عن نظام الأرض واعتنقوا نظام اللّه تعالى ﴿فإنّ اللّه بما يعملون بصير﴾ فيثيبهم على ما يوافق الإسلام ويعاقبهم على ما يخالفه. ثانياً: إنّ كلّ نظام غير نظام اللّه تعالى فاسد، والفاسد يجب أن يزال، لأنّه يضرّ المجتمع الإنساني جميعاً، والقاعدة المتّبعة أنّه (الضرّر يزال)، هذا ما فهمنا في هذا المقام والمقال، واللّه أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾

(١) بل المعنى وقاتلوهم حتى لا يسيطر الكفار على المسلمين فيفتنوهم عن دينهم بزرع التفرقة وإيجاد الحروب بينهم ويكون الدين أي أمر الطاعة والخضوع لسلطان الإسلام، لانه إذا غلب الكفار وأصبح السلطان بيدهم زرعوا الفتنة بين المسلمين واستحوذوا عليهم بحيث لا تقوم لهم قائمة، كما هو اليوم متحقق مما حصل من سيطرة المعسكر الإستعماري على العالم الإسلامي اليوم؛ فقاموا بنشر الفتن بين المسلمين من الحروب والتفرقة على أسس من القومية والحزبية والإقليمية وغيرها، وجعلوا المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض بدون معرفة سبب حقيقي، فضلاً عن أنهم نشروا فيهم الفساد الأخلاقي والعقيدي وقلبوا المسلمين عن عقيدتهم و ردّوهم عن دينهم وقيمهم بشتى الطرق مختلف الأساليب، تارة باسم الدين وأخرى باسم العلماني والإلحاد، أو تحت ستار أكذوبة حقوق الإنسان وحريته وأساطير ما يسمى بالديموقراطية وغيرها، فافتتن المسلمون عن دينهم على أشد ما يكون، فإنا لله وإنا إليه راجعون..

(واقتلوهم) ، أي الذين يقاتلونكم، **(حيث)**، أي في أي مكان **(ثقفتموهم)**، أي وجدتموهم ظافرين، **(وأخرجوهم)** أي قاتلوا حتّى تغلبوا عليهم، فإذا غلبتم أخرجوهم **(من حيث)** من المكان الذي **(أخرجوكم)** منه، وهو مكّة، فقاتل الرّسول (ﷺ) حتّى ظفر بهم وغلب عليهم وأخرج من لم يؤمن من مكّة، **(والفتنة)** الامتحان، سمّيت به لما به الامتحان من خوف وقلق، وهو ايذاء الكافرين للمسلمين وتعذيبهم ليرتدّوا عن دينهم، وسمّي ذلك التّعذيب امتحاناً وفتنةً، لأنّه به يظهر قويّ الإيمان، فيصبر على التّعذيب دون الخروج عن الدّين، وضعيف الإيمان الذي لايتحمّل فيرتدّ، والمعنى ما فعل بكم الكافرون من الفتنة ل ـ **(أشدّ من القتل)**، لأنّه بالقتل تضيع الحياة الدّنيا الفانية وبالارتداد تضيع الحياة الأبديّة التّي لا تفنى ولا تزول، فالمعنى قاتلوهم جزاء هذه الفتنة، ثمّ بعد أن أخبر اللّه تعالى بقتلهم حيث وجدوا، استثنى الحرم الشّريف، فقال: **(ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام)** ـ المراد به الحرم كلّه ـ **(حتّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم كذلك)**، مثل ما أمرنا، وهذا **(جزاء الكافرين)** الذي وضعه اللّه وأباحه لكم، **(فإن انتهوا)** قيل عن القتال، **(فإنّ اللّه غفور رحيم)**، وهذا بعيد، لأنّ المعنى فإن انتهوا عن القتال فانتهوا عنهم، فإنّ اللّه غفور يغفر لهم، **(رحيم)** برحمته يغفر، وهذا لا يكون، لأنّ المغفرة للكافر لا يكون إلّا أن يراد فإن انتهوا عن القتال فانتهوا عنهم، فإن اللّه غفور لكم يغفرلكم ترك قتالهم، رحيم، وهذا مناسب، لأنّ المغفرة دائماً تأتي في مكان العقاب وترك قتلهم حين انتهائهم من القتال بأمر اللّه يورث ثواباً لا عقاباً، فالأصحّ ما قيل، أي عن الشّرك، فالمعنى: (فإن انتهوا) عن الشّرك وآمنوا فانتهوا عن قتالهم (فإن اللّه غفور) يغفر لهم ما مضى بسبب الإيمان وترك الشّرك. (رحيم) بهم لذلك يغفر لهم.

* * *

توضيح: وفي هاتين الآيتين بيّن الله تعالى ثلاثة أسباب من أسباب إباحة قتال الكافرين:

الأوّل: قتالهم للمؤمنين.

الثّاني: إخراجهم أيّاهم من ديارهم، وذلك ظلم.

الثّالث: منعهم النّاس عن الإسلام وتعذيبهم، فالقتال أصبح مشروعاً لدفع الظّلم واسترداد الحقّ ولإزالة الفتنة، وذكر سبباً آخر، وهو تثبيت دين اللّه وحكمه وجعله مبدءاً موجوداً يعمل به.

* * *

قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

(وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة)، أي حتّى يترك الكفّار تعذيب المؤمنين على إيمانهم واعترافهم بوجود الإسلام والمسلمين كمبدأ وكيان معترف به، وفي الاصطلاح الجديد يقال له: اعتراف الدّول به، كما قال: **(ويكون)** يترسخ بسبب القتال **(الدّين للّه)** تعالى في الأرض ويعمل به المؤمنون، **(فإن انتهوا)** عن الفتنة واعترفوا بالإسلام ككيان موجود لم يقاتلوا ولم يفتنوا المسلمين ولم يمنعوا النّاس عن الدّخول فيه فانتهوا من قتالهم، لأنّ القتال في ذلك الوقت يكون عدواناً، **(فلا عدوان إلّا على الظّالمين)**، وهم الذين يمنعون وجود دعوة الإسلام ونشره، فأصبح أسباب القتال أربعة: الدّفاع، حينما يقاتلك العدوّ، وإزالة الظّلم، وإيقاف من يمنع الدّعوة عند حدّه، وتثبيت دين اللّه في الأرض، وقال ربّنا: (ويكون الدّين للّه) وفي سورة الأنفال: ﴿ويكون الدّين كلّه للّه﴾، لأنّه حينما جاءت هذه الآية لم يكن النّاس معترفين بأنّ الأسلام منهج ونظام وكيان ودولة، فأريد ثبوته ورسوخه فقط. وفي سورة الانفال أصبح الإسلام قويّاً ومعترفاً به، فأريد نشره في سائر البلاد وتحكيمه فيها.

* * *

فائدة: تنقسم السّنة الإسلامية إلى اثني عشر شهراً قمرية، كلّ شهر يبدأ برؤية الهلال في جانب المغرب فوق الأفق، وينتهي باختفائه ورؤيته على الأفق مرّة ثانية، وهذه الشّهور، هي: (محرّم، صفر، ربيع الأول، ربيع الثّاني، جمادى الأول، جمادى الثّاني، رجب، شعبان، رمضان، شوّال، ذوالقعدة، ذو الحجّة). وأربعة من هذه الشّهور تسمّى بالأشهر الحرم، وهي: (رجب، ذوالقعدة، ذو الحجّة، ومحرّم)، فكانت هذه الشّهور حرماً، أي محترمة يعظّمها النّاس في الجاهلية فلا يقاتلون فيها، و حينما جاء الإسلام قرّر هذا التّعظيم، لأنّه كان آية من بقايا دين الإسلام - دين سيدنا إبراهيم (عليه السلام) - وأراد الرّسول (ﷺ) أن يبدأ قتالاً مع قريش في ذي القعدة حينما بلغه وهو في الحديبيّة أنّ عثمان بن عفان (رضي اللّه عنه) وقد بعثه سفيراً إلى قريش قتل، ثمّ بلغه أنّ عثمان لم يقتل فترك الأمر، فاعترضوا على الرّسول (ﷺ) بأنّه كيف يقاتل وهو في الشّهر الحرام، فنزلت قوله جلّ وعلا:

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

(**الشّهر الحرام بالشّهر الحرام**)، أي فمن قاتلكم في الشّهر الحرام فقاتلوه فيه، (**والحرمات قصاص**) ، فمن انتهك حرمة فانتهكوا حرمته، (**فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم**)، فإن كان في شهر حلال ففي شهر حلال، وإن كان في شهر حرام ففي شهر حرام، (**واتّقوا اللّه**)، فلا تبدأوا أنتم بالقتال في الشّهر الحرام (**واعلموا أنّ اللّه مع المتّقين**). ثمّ إنّه ممّا لا شكّ فيه أنّ الجهاد والقتال لا يمكن إلّا بالأنفس والمال معاً، ولذا لمّا أمر اللّه تعالى المؤمنين بالقتال والجهاد بالنّفس أمرهم بالجهاد بالمال، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

(**وأنفقوا**) أموالكم واصرفوها (**في سبيل اللّه**) لأمور الجهاد وتسليح المجاهدين وتغذيتهم، (**ولا تلقوا بأيديكم**) أي ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم (**إلى التّهلكة**)، ذلك بأن تتركوا الجهاد بالمال وبالأنفس، فيبطل أمر الجهاد، فيستولي عليكم العدوّ فيهلككم، (**وأحسنوا**) في الانفاق، فلا تنفقوا كلّ ما لكم للجهاد وتحرموا منه أنفسكم وعيالكم أو تضيّقوا عليهم، ولا تبخلوا، فلا تنفقوا شيئاً من ما لكم أو تنفقوا شيئاً قليلاً لا يليق بحالكم، (**إنّ اللّه يحبّ المحسنين**) المعتدلين في كلّ الأمور والواقفين بين طرفي الإفراط والتّفريط.

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الصّوم ـ وهو عبادة **بدنيّة** محضة ـ وذكر الإقدام على الاجتناب عن الحرام، وفرض الجهاد، وهو الإقدام على أداء الواجبات، أراد أن يذكر ما فيه الإقدام على الاجتناب عن المحرّم والإقدام على أداء الأوامر أيضاً، وهو الحجّ، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

(وأتمّوا الحجّ والعمرة)، أي أدّوهما تماماً **(للّه)** إطاعة للّه تعالى، ويكون قصدكم منهما رضاءه فقط، لا غرضا آخر من أغراض الدّنيا، **(فإن أحصرتم)** أي منعتم بعد الإحرام والدّخول في الحجّ أو العمرة من الإتمام بسبب عدوّ أو مرض **(فـ)** أرسلوا إلى الحرم **(ما استيسر)** ما سهل عليكم **(من الهدي)**، وهو شاة من ضأن أو معز ليذبح في الحرم ويوزّع لحمه على الفقراء هناك، **(ولا تحلقوا رؤوسكم حتّى يبلغ الهدي محلّه فمن كان منكم مريضاً أو به أذى)** مرض **(من رأسه)**، في رأسه واحتاج إلى الحلق فليحلق. وإذا حلق بعذر من الأعذار **(فـ)** يجب عليه **(فدية)** يفديها ويتصدّق بها، وذلك حسب اختياره فيفدي بأحد الأمور الثّلاثة **(من صيام)** ثلاثة أيّام، **(أو صدقة)**، وهي ثلاثة آصع[1] من الطّعام إلى ستة مساكين، لكل مسكين نصف مدّ، **(أو نسك)**، وهو ذبيحة يهديها للحرم، وهذا الحكم عامّ للمحصر وغيره، فمن كان في الإحرام وحلق لعذر أو لغير عذر عمداً دون سهو أو نسيان أو لبس أو ألم يفدي بأحد الأمور الثّلاثة حسب اختياره، إلّا أنّ المعذور لا يأثم وغير المعذور يأثم، **(فإذا أمنتم)**، أي وإن لم تحصروا واستطعتم إكمال الحجّ والعمرة وإتمام أعمالهما، **(فمن تمتّع)**، أي تلذّذ واستراح **(بالعمرة)** بسبب أنّه قدّم العمرة على الحجّ، **(فـ)** يجب عليه **(ما استيسر من الهدي)**، وهو ذبح شاة، **(فمن لم يجد)** بأن لم يكن له مال، أو كان له واحتاج إليه لحوائجه أو ديونه، أو لم يجد حيواناً يشتريه، أو وجده إلّا أنّه يباع بأكثر من ثمن مثله، **(فـ)** عليكم بدل ذلك **(صيام ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعة)** أيّام أخر **(إذا رجعتم)** من الحجّ، **(تلك)** الأيّام الثّلاثة والسّبعة **(عشرة كاملة)** لا زيادة عليها ولا نقص منها، وزاد هذه الفقرة وإن كان كلّ أحد يعلم انّ الثّلاثة مع السّبعة عشرة لئلّا يتوهّم أنّ الواو في **(وسبعة إذا رجعتم)** بمعنى (أو)، فيكون الأمر بالتّخيير بين ثلاثة أيّام في الحج أو سبعة بعد الحجّ،

---

(١) جمع صاع وهو كيل يكال به يسع أربعة أمداد كل مد رطل وثلث، ويجمع على أصوع وأصؤع وأصواع وصوع وصيعان أيضا. / انظر ترتيب القاموس المحيط مادة صوع ٢/٨٦٨.

(ذلك) الحكم **(لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام)**، وهم أهل مكّة ومن بينه وبينها أقلّ من مرحلتين، فإنّ هؤلاء ليس لهم أن يقدّموا العمرة على الحجّ ولا أن يقارنوا بينهما عند الأحناف، وعند الشّافعية لهم ذلك، إلّا أنّه ليس عليهم هذه الفدية، **(واتّقوا اللّه)** فلا تخالفوا أحكامه، **(واعلموا أنّ اللّه شديد العقاب)** لمن خالف أمره أو ارتكب ما نهى عنه سيّما في الحجّ والعمرة فإنّ المعصيّة فيهما أشدّ.

* * *

مسألة: اشترط عند الإحرام التّحلّل عند الإحصار أو المرض، بأن يقول أحرمت ولي التّحلّل لإحصار أو مرض، فلا يجب عليه الفدية إذا تحلّل لإحصار أو مرض، وهذا عند كثير من الأئمة، وعند البعض لا يتخلّص بذلك من الفدية.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر وقت أداء الحجّ الذي يصحّ الإحرام فيه، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾

(الحجّ)، أي وقت الحج والإحرام به **(أشهر معلومات)**، وهي شوّال وذو القعدة وذو الحجّة كلّه عند بعض، فما وقع من أعمال الحجّ آخر ذي الحجة كطواف الإفاضة لا بأس به، وعند بعض آخر هي: شوّال وذو القعدة وعشرة أيام من أوّل ذي الحجّة؛ فمن أخّر بعض أعمال الحجّ عن هذه الأيّام وجب عليه الدّم للتّأخير عندهم، **(فمن فرض فيهن الحجّ)**، أي فمن أحرم بالحجّ (فيهن) ، في هذه الأشهر، وعبّر عن ذلك بقوله (فرض)، لأنّ الحجّ يصير واجباً بالدّخول فيه، أي واجب الإتمام وإن لم يكن واجباً قبل الإحرام على المحرم، وكذلك العمرة تجب بالدّخول فيها، **(فلا رفث)**، أي لا يجوز التّقرّب إلى النّساء أو ذكر الأمور الجنسية مدّة الإحرام، **(ولا فسوق)**، أي ولا معاصي، **(ولا جدال في الحجّ)**، فالرّفث الحلال يصير حراماً وقت الإحرام بالحجّ أو العمرة، والجدال المباح أيضاً يصير حراماً في تلك المدّة، وأمّا الفسوق فتزداد إثمها

وعقوبتها في الحج وّالعمرة، **(وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه)**، أي يثيب عليه الفاعل أكثر مما يثيب عليه في غير الحجّ، فالأعمال الصّالحة تزداد ثواباً في الحجّ، كما تزداد المعاصي عقوبة فيه. وكان أهل اليمن يأتون إلى الحجّ بدون زاد ونفقة، ويصيرون كلّاً على النّاس، فنهى اللّه تعالى عن ذلك، فقال جلّ وعلا: **(وتزوّدوا فإنّ خير الزّاد التّقوى)** والتّجنب من الاستطعام من الغير والتّطفّل على النّاس، **(واتّقون)** ـ أصله (واتقوني) حذفت الياء للاختصار ـ أي واتّقوا عذابي بترك كلّ المعاصي وبترك التّطفّل على الغير **(يا أولي الألباب)**، يا أصحاب العقول.

ثمّ إنّ النّاس قد زعموا أنّه لايجوز أيّ عمل في طريق الحجّ، فأهل التّجارات والمكّاريّون والحمّالون من الحجّاج يحرم عليهم ذلك الكسب، وإمّا لا حجّ لهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَاذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾﴾

(ليس عليكم)، أيّها الحجّاج **(جناح)**، أي إثم، **(أن تبتغوا فضلاً)** رزقاً **(من ربّكم)** بالكسب في طريق الحجّ وإيّابه وبلاده، حتّى من وقف في عرفات ويعرض متاعه الذي معه على النّاس مع الوقوف ليشتروه، أو حمل في الطّواف عاجزاً وطاف طوافه وطاف به بأجرة فلا بأس، وهكذا فقس، فكلّ كسب حلال سوى ما يمنعك عن أداء المناسك جائز وحلال، **(فإذا أفضتم)**، أي رجعتم **(من عرفات)** إلى منى **(فاذكروا اللّه عند المشعر الحرام)** ـ وهو مزدلفة كلّها، وعند البعض هو عند المسجد الموجود بمزدلفة ـ **(واذكروه)**، أي اللّه تعالى **(كما هداكم)** ذكراً علّمكم اللّه، وفي هذا دليل على أنّ كلّ ما لم يرد من اللّه تعالى بطريق الكتاب أو السّنّة فهو مردود غير مقبول، **(وإن كنتم)** ـ (إنْ) مخففة من الثقيلة، تعمل في ضمير الشّأن المقدّر، فيكون موفياً معنى قد ـ أي وقد كنتم **(من قبله)** من قبل هدى اللّه تعالى **(لمن الضّالين)** المنحرفين عن الطّريق القويم والمنهج المستقيم، وقيل: (إنْ) بمعنى (ليس)، واللام في (لَمِن الضالين) بمعنى: إلّا، فالمعنى: ما كنتم من قبل ذلك إلّا ضالّين.

ثم، إنّ قريشاً كانوا لا يقفون بعرفات، وإنّما يقفون بمزدلفة لأنها حرم، ويقولون نحن أهل الحرم فلا نقف إلّا بالحرم، وأرادوا بذلك التّعالي على النّاس فأدّبهم اللّه تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

(ثمّ أفيضوا من حيث أفاض النّاس)، أي من المكان الذي يفيض منه النّاس ولا يمكن الإفاضة من ذلك المكان إلّا بعد الوقوف فيه، فالمعنى: قفوا فيه وأفيضوا منه كالنّاس فلا تعالي في الإسلام، **(واستغفروا اللّه)** من هذا التّعالي **(إنّ اللّه غفور)** لمن يستغفره، **(رحيم)** ولرحمته يغفر لا لأمر أحد، وفي هذه الآية زجر شديد لمن افتخر بالآباء والأجداد والعنصر، لأنّ النّاس كلّهم من آدم وآدم من تراب لا فضل لأحد على أحد إلّا بالتّقوى.

ثمّ إنّه كان من عادة العرب أنّهم بعدما أكملوا الحجّ يجتمعون عند جمرة العقبة، فيمدحون آباءهم ويذكرون صفاتهم، ولأنّ هذا التّفاخر يؤدّي إلى انشقاق في الأمّة نهى اللّه تعالى عنه، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾

(فإذا قضيتم)، أي أدّيتم **(مناسككم)** أعمال حجّكم **(فاذكروا اللّه)** عظّموه واحمدوه واطلبوا منه العفو والمغفرة **(كذكركم آباءكم)**، كما تمدحون آباءكم، **(أو)** أي بل اذكروا اللّه تعالى **(أشدّ)** أكثر وأعظم **(ذكراً)** من ذكر آبائكم، والمراد ترك ذكر الآباء والاشتغال بذكر اللّه تعالى فقط[1]، إلّا أنّه ذكر بهذه العبارة تلطيفاً وإشارة إلى أنّ اللّه تعالى أليق

(١) إذ كان العرب في الجاهلية بعد المناسك يجلسون فيذكرون مآثر آبائهم، فلما جاء الإسلام وأبطل ذلك أمرهم اللّه تعالى أن يذكروه بعد قضاء المناسك جهرا وافتخارا ومبالغة في الذكر كما كان حالهم في ذكر آبائهم، أو إخلاصا وشدة كما أن أحدهم كان يغضب لذكر أبيه بسوء، فكذلك يجب أن يفتخر بذكر اللّه=

بالذّكر من الآباء، فإنّه بيده كلّ أموركم، وليس في أيدي آبائكم شيء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يقسّم النّاس الذين يحجّون أو النّاس مطلقاً على أربعة أصناف، وذكرهم هنا، لأنّ نيّات النّاس تظهر بالحجّ، حيث هناك منبع الدّعوات، ففيها يظهر المخلص والمفلس، فقال تعالى: **(فمن النّاس)** من لا يخطر بباله إلّا الدّنيا، ولا يهمّه شيء سواها، حتّى أنّه حينما يدعو فإنّما يدعو للدّنيا ولا يدعو للآخرة، فيقول: **(ربّنا آتنا في الدّنيا)** حسنة، ولا يذكر ولا يدعو شيئاً للآخرة وهذا القسم كافر، **(وما له في الآخرة من خلاق)** من حظّ ونصيب، ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر القسم الثّاني، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

(ومنهم)، أي ومن النّاس **(من)** يريد الدّنيا والآخرة معاً، ولا يترك واحدة للأخرى، حتّى أنّه إذا دعا يدعو ويطلب الاثنين لا إحداهما، ولذا **(يقول)** حينما يدعو **(ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار)**، هؤلاء هم المؤمنون، ولهم أجرهم وثوابهم في الدّارين عند اللّه تعالى، كما قال جلّ وعلا: **(أولئك)** الذين يعملون للدّنيا والآخرة **(لهم نصيب)** الحظّ من عند اللّه تعالى في الدّنيا والآخرة **(مما)** بسبب ما **(كسبوا واللّه سريع الحساب)** لا يخفى عليه شيء.

ثمّ فصل الله تعالى بين ذكر القسم الثّاني والقسم الثّالث بذكر واجب من واجبات الحجّ وهو المبيت بمنى ثلاث ليال والرّجم في كلّ يوم من يوم العيد، وحكمة الفصل أنّ الدّعاء تكثر عند رمي الجمرات وفي تلك الآيّام، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

تعالى ويغضب له دون خوف ولا مراعاة لومة لائم / انظر تفسير الطبري ٢/ ٢٩٥ فما بعدها، التفسير الكبير للرازي ١/ ١٦٧ فما بعدها.

(واذكروا اللّه) بالدّعوات وبالرّجم **(في أيّام معدودات)**، وهي أيّام التّشريق الثّلاثة بعد العيد، فيجب المبيت بمنى ثلاث ليال والرّجم ثلاثة أيّام، إلّا أنّ اللّه تعالى رخّص للنّاس ترك الرّجم في اليوم الأخير، فقال جلّ وعلا: **(فمن تعجّل)**، أي أراد العجلة، فأراد أن يعمل الرّجم في يومين فقط **(فلا إثم عليه ومن تأخّر)** وأراد أن يكمل رجم ثلاثة أيّام **(فلا إثم عليه لمن اتّقى)** أراد زيادة الأجر، **(واتّقوا اللّه)** في الأعمال جميعاً واجتنبوا عمّا يبطلها أو يقلّل ثوابها، **(واعلموا أنّكم إليه)**، إلى اللّه تعالى لا إلى غيره **(تحشرون)** يوم القيامة فيجازيكم على أعمالكم الصّالحة بالثّواب وعلى الأعمال الطّالحة بالعذاب، إن يرحم فيغفر واللّه غفور رحيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر القسم الثّالث، وهم المنافقون، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾

(ومن النّاس من يعجبك قوله) كلامه وحلاوة منطقه وإظهار محبّته لك في الحياة الدّنيا، **(ويشهد اللّه على ما في قلبه)** بأنّه موافق لما يقول، **(وهو ألدّ)** أشدّ **(الخصام)** الأعداء لك يا محمّد وللإسلام، وهم المنافقون، **(وإذا تولّى)** من عندك **(سعى في الأرض)** ليفسد فيها يحثّ النّاس على عداء الإسلام وقتاله، **(ويهلك الحرث)** الزّرع بالإحراق **(والنّسل)** بالقتل، **(واللّه لا يحبّ الفساد)** وإيقاع العدواة بين النّاس، **(وإذا قيل له)** على سبيل النّصيحة والوعظ **(اتّق اللّه)** ولا تعمل هذه الأعمال واترك الفساد والنّفاق **(أخذته)** حملته **(العزّة)** والكبرياء، **(بالإثم)**، على الإثم والذّنب ومواصلة النّفاق والفساد، **(فحسبه)**، فيكفيه عقاباً **(جهنّم)**، إلقاؤه في جهنّم، **(ولبئس المهاد)** المكان أو الفراش، أي جهنّم، ثمّ ذكر الله تعالى القسم الرّابع من النّاس، وهم المتفانون في حبّ اللّه تعالى والمتمسّكون بنكران الذّات في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾

(ومن النّاس من يشري)، يبيع **(نفسه)** ويفديها **(ابتغاء)** ـ مفعول لأجله ـ أي يبيع نفسه لابتغاء، أي طلب **(مرضاة)**، أي رضاء **(اللّه)** تعالى، **(واللّه رؤوف)** شديد الرّحمة والحبّ **(بالعباد)** الذين يخلصون له العبادة والعمل.

* * *

فائدة في بيان كيفيّة أداء الحجّ والعمرة وإتمامهما: الحجّ فرض على كلّ مسلم ومسلمة يستطيع استطاعة ماليّة وبدنيّة على الأداء له وذلك بالإجماع. أمّا العمرة فهي فرض عند الشّافعية وسنّة عند الأحناف، ولكون أعمال العمرة أقلّ من أعمال الحجّ نقدّم بيانها.

العمرة: للعمرة أركان وواجبات وسنن، فأركانها أربعة:

١- الإحرام: وهو نيّة الدّخول في العمرة.

٢ ـ الطّواف بالبيت.

٣- السّعي بين الصّفا والمروة.

٤ ـ الحلق أو التّقصير.

والواجبات:

١- أن يكون الاحرام من الميقات.

٢ ـ نزع الثّياب والتّلفّف بلفّافتين إحداهما من الكتفين إلى الرّكبتين والأخرى من السّرّة إلى ما تحت الرّكبتين.

٣- عدم تغطية الرّأس والقدمين بشيء.

٤ ـ الاجتناب عن محظورات الاحرام .

وسننها ثلاثة:

١- التّلبية عند الإحرام.

٢ ـ الغسل قبل الإحرام.

٣- صلاة ركعتين قبل الإحرام وبعد الغسل، وصيغة التّلبية (لبّيك اللّهم لبّيك.

لبّيك لا شريك لك لبّيك. إنّ الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك).

الميقات للعمرة: الميقات: هو المكان الّذي يجب على النّاسك أن يحرم فيه لأداء حجّ أو عمرة، فميقات العمرة للآفاقي - وهو الذي يأتي من الأقطار إلى مكّة للعمرة - فميقاتهم نفس ميقات الحجّ وسيأتي ذكره إن شاء اللّه تعالى، ولمن كان في مكّة ولو ضيفاً ومسافراً هو الحلّ، فيجب لمن أراد أن يحرم بالعمرة أن يخرج من الحرم، وفي الحلّ ينزع ثيابه ويغتسل ويلتفّ بلفّافتين ويصلّي ركعتي الإحرام وينوي العمرة ويلبّي، ويرجع إلى مكّة ويطوف بالبيت ويصلّي ركعتي الطّواف، ثمّ يسعى بين الصّفا والمروة، ثمّ يحلق رأسه أو يقصّر بعض أشعاره، ويتحلّل بذلك وتتمّ عمرته، والحلق أفضل إلّا للنّساء، فإنّهنّ لا حلق لهنّ، بل يقصصن بعضاً من أشعارهنّ بحيث لا يشوّه. وأمّا من كان بين المواقيت ومكّة، فميقات إحرامه عند بيته، وأمّا من يأتي من الآفاق، فإذا وصل الميقات المعيّن له ينزع ثيابه ويغتسل ويلتفّ بلفّافتين، ثمّ يصلّي ركعتي الإحرام، ثمّ يحرم، ويقول نويت الدّخول في العمرة ويلبّي، ثمّ يأتي مكّة ويطوف ويصلّي ركعتي الطّواف، ثمّ يسعى ثمّ يحلق ويقصّر، وهذه أعمال العمرة تماماً.

الحجّ يؤدّى بثلاثة أنواع: أيّها الحاجّ الكريم إذا وصلت الميقات فلا يجوز لك أن تتجاوزه بدون إحرام، وإن جاوزته بدون إحرام تأثم وعليك الفدية ذبح شاة، إلّا أن ترجع إليه وتجدّد الإحرام منه، وذلك قبل الإتيان بعمل من أعمال الحجّ، وإلّا فبعد الإتيان بأيّ عمل لا يفيد الرّجوع إسقاط الفدية، فإذا كان الأمر كذلك فلا تتجاوز الميقات بدون إحرام، ولك أن تحرم من الميقات بثلاثة أنواع:

الأوّل: أن تحرم بالحجّ فقط، ويسمّى هذا الحجّ إفراداً والحاجّ مفرداً.

الثّاني: أن تحرم بالعمرة فقط، ويسمّى هذا الحجّ تمتّعاً والحاجّ متمتّعاً.

الثّالث: أن تحرم بالحجّ والعمرة معاً، ويسمّى هذا الحجّ قراناً والحاجّ قارناً.

والأفضل عند الحنفيّة القران، ثمّ التّمتّع ثمّ الإفراد، وعند المالكيّة الإفراد ثمّ القران ثمّ التّمتّع، وعند الشّافعية ورواية عن أبي حنيفة الإفراد ثمّ التّمتّع ثمّ القران. وعند الحنابلة: التّمتّع ثمّ الإفراد ثمّ القران، وعند ابن حزم وبعض المحدثين لا يجوز الإفراد بتاتاً. بل من وصل الميقات وليس معه هدي أحرم متّمتّعاً، أي بعمرة فقط، ولا يجوز له غير ذلك، ومن معه هدي أحرم بحجّ وعمرة، أي قارناً، ولا يجوز له غير ذلك.

هذا وسنشرح لك كيفيّة أداء الحجّ بالأنواع الثّلاثة حسب السّير والعمل في ثلاثة فروع إن شاء اللّه تعالى .

(الفرع الأوّل)
بيان كيفيّة أداء الحجّ بالإفراد

أيّها الأخ إذا وصلت الميقات وأردت أن تحرم بالحجّ فقط فتنظّف بتقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط وإزالة ما جاز إزالته من الشّعر، ثمّ اغتسل غسلاً جيّداً يزيل الوسخ عن جسدك كلّه، ثمّ تطيّب برائحة طيّبة، ثمّ اتّزر برداء وارتد برداء آخر[١]، والأفضل أن يكونا أبيضين، والبس نعلين، ولكن المرأة تلبس لباسها الشّرعي، والأفضل لها أيضاً أن يكون أبيض وتستر جميع بدنها إلّا الوجه والكفّين، ثمّ بعد ذلك تصلّي ركعتين بنيّة سنّة الإحرام، ثمّ احرم بالحجّ قائلاً: نويت الدّخول في الحجّ فقط، اللّهم فتقبّله منّي، ثمّ تقول مباشرة بدون فصل: لبّيك اللّهم لبّيك لبّيك لا شريك لك لبّيك إنّ الحمد والنّعمة لك والملك لا شريك لك. ثمّ تذهب إلى مكّة المكرّمة، وحينما وصلتها وأحطت الرّحال واسترحت تذهب إلى المسجد الحرام وتطوف بالبيت سبعة أشواط، ويسمّى هذا الطّواف طواف القدوم، ثمّ بعد الطّواف تصلّي ركعتين بنيّة ركعتي الطّواف، والأفضل أن تكون عند مقام سيّدنا ابراهيم (عليه السلام)، ويسنّ أن تقرأ في الأولى (سورة الكافرون) وفي الثّانية (سورة الإخلاص). ثمّ تذهب إلى الصّفا وتسعى بينها وبين المروة سبعة أشواط، فالذّهاب من الصّفا إلى المروة شوط والرّجوع من المروة إلى الصّفا شوط آخر، فالابتداء يكون من الصّفا والانتهاء من المروة، وتبقى محرماً لا يجوز التّحلّل إلى انتهاء أركان الحجّ، وتمكث محرماً وفي بقائك هذه المدّة في مكّة المكرّمة فأكثر من الصّلاة في المسجد الحرام والطّواف بالبيت، فإنّ صلاةً واحدةً في المسجد الحرام تعدل مائة ألف صلاة في غيره بنصّ الحديث الصّحيح[٢]، واجتنب الوقوع في محظورات الإحرام في هذه المدّة. وفي يوم التّروية تذهب إلى منى وتبيت فيها، وفي صباح يوم عرفة تذهب إلى عرفة وتؤدّي الوقوف، أي المكث فيها، وتبقى في عرفات إلى غروب الشّمس، وتكثر هناك من الدّعوات والأذكار، فإنّ الدّعاء

---

(١) الإتزار يكون بلف الثوب حول الجهة السفلى من السرة إلى أسفل الركبتين، والإرتداء يكون بلف الثوب حول الكتفين إلى ما تحت السرة.

(٢) ورد موقوفا على عمر و عبدالله ابن الزبير رضي الله عنهم (صلاة في المسجد الحرام خير من مئة الف صلاة فيما سواه) قال ابن عبد البر ولا مخالف له من الصحابة / التمهيد ٦/ ١٩. وروي مرفوعا عن عائشة وابن الزبير وغيرهما بلفظ (خير من الف صلاة) وبلفظ (خير من مئة صلاة) بأسانيد ضعيفة / أنظر مجمع الزوائد ٤/ ٦.

مستجاب هناك وقد نظم صاحب البحر الأمكنة التي يستجاب فيها الدّعاء فقال:

دُعاء البرايا مُستجاب بكعبةَ ومُلتزَم والموقفين كذا الحِجرُ
طوافٌ وسعيٌ مَروتين وزَمزَمٌ مَقامٌ وميزابٌ جِمارُك تُعتبرُ

وتصلّي العصر مع الظّهر جمع تقديم، وبعد غروب الشّمس تفيض إلى مزدلفة وتبيت فيها، وتصلّي المغرب والعشاء فيها جمع تأخير، وتذكر اللّه تعالى هناك كثيراً، قال اللّه تعالى: ﴿فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ فاذْكُرُوا اللّه عِنْدَ المَشْعَرِ الحَرامِ واذْكُرُوه كَمَا هداكُمْ وإنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالين﴾ سورة البقرة الآية/١٩٨. ثمّ ترجع إلى منى وترمي سبع حصيّات إلى العقبة الكبرى، ثمّ تذبح إن كان عليك ذبح وإلّا فلا، ثمّ تحلق أو تقصّر، والحلق أفضل للرّجال، وللنّساء التّقصير فقط، وبحيث لا يشوهن. ثمّ تذهب إلى مكّة وتطوف بالبيت سبعة أشواط، ويسمّى هذا الطّواف، طواف إفاضة وطواف ركن وطواف الزّيارة وطواف النّساء أيضاً، ثمّ ترجع يوم العيد إلى منى وتبيت فيها ثلاث ليال ـ أيام التّشريق ـ وفي كلّ يوم من أيّام التّشريق ترمي إحدى وعشرين حصاة إلى العقبات الثّلاث لكلّ عقبة سبع حصيّات، تبدأ من الصّغرى وتنتهي بالكبرى، هذا وإذا نفرت في اليوم الثّاني من أيّام التّشريق أي ثالث أيّام العيد قبل غروب الشّمس ـ فلا بأس عليك، ويسقط عنك مبيت اللّيلة الثّالثة ورمى اليوم الثّالث أيضاً. قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ في يَوْمين فَلا إثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تأخّرَ فلا إثْم عَلَيهِ لـمَنْ اتَّقى واتَّقُوا اللَّهَ واعْلَمُوا أنَّكُمْ اليهِ تُحْشَرُون﴾، فإذا نفرت من منى فقد تمّت أعمال حجّك، ولا يبقى إلّا طواف الوداع، فابدأ بالعمرة، كما يلي: اغتسل في منزلك من مكّة، والبس ثياب الإحرام، واذهب إلى الحلّ، وصلّ هناك ركعتي الإحرام، ثمّ احرم بالعمرة قائلاً نويت الدّخول في العمرة اللّهم فتقبّلها منّى لبّيك اللّهم لبّيك.... الخ، ثمّ ترجع إلى مكّة وتطوف بالبيت سبعة أشواط، وتصلّي ركعتي الطّواف، ثمّ تذهب إلى الصّفا وتسعى بينها وبين المروة سبعة أشواط، ثمّ تحلق أو تقصّر. وبهذه الأعمال تمّت عمرتك أيضاً. ثمّ حينما أردت الخروج من مكّة مسافراً إلى بلدتك فاذهب إلى المسجد الحرام وطف بالبيت سبعة أشواط، ويسمّى هذا طواف الوداع، وبعد هذا الطّواف لا يجوز أن تتأخّر إلّا بقدر شدّ الرّحال، فإن تأخّرت بدون عذر يجب أن تجدّد طواف الوداع، فهذه صورة الحجّ بالإفراد، وليس عليك في هذه الصّورة فدية ولا ذبح ولا كفّارة، اللّهم إلّا إذا كنت تاركاً لواجب أو آتياً بمحرّم فيجب عليك حينئذ فدية ترك الواجب أو ارتكاب المحرّم فقط.

(الفرع الثاني)
كيفيّة أداء الحجّ بالقران

أيّها الآخ الكريم إذا وصلت الميقات، وأردت أن تحرم بالحجّ والعمرة معاً، فتنظّف واغتسل وتطيّب والتحف برداء وإزار، ثمّ صلّ ركعتي الإحرام، ثمّ أحرم بالحجّ والعمرة معاً، قائلاً: نويت الدّخول في الحجّ والعمرة معاً، الّلهم فتقبّلها منّى، لبّيك الّلهم لبّيك...الخ. ويستحبّ تقديم كلمة العمرة على الحجّ في النّيّة عند الأحناف، ويجب عند المالكيّة. وعند غيرهما لا بأس أيّهما قدّمت، ثمّ تعمل بعد ذلك كما عملت في صورة الإفراد، فلا فرق بين القران والإفراد في الأعمال إلّا في النّيّة، ففي الإفراد تنوي الحجّ فقط، وفي القران تنوي الحجّ والعمرة معاً.ويقوم الحجّ بهذا النّوع مقام الحجّ والعمرة، فلا حاجة إلى أن تعتمر بعد الحجّ كما في صورة الإفراد، ولا حاجة إلى طوافين أحدهما للحجّ والآخر للعمرة، ولا إلى سعيين كذلك، وهذا عند الجمهور من العلماء، إلّا أنّ الأحناف يقولون: إذا وصل القارن مكّة يطوف للعمرة ويسعى لها، فإذا نهض يوم التّروية للذّهاب إلى عرفات يطوف طواف القدوم للحجّ، ثمّ إذا رجع من عرفة يطوف طواف الحجّ ويسعى سعيه، وإن لم يفعل ذلك فبعد الرّجوع من عرفات يطوف طوافين، أحدهما للعمرة والآخر للحجّ ويسعى سعيين، إلّا أنّه يأثم في هذه الصّورة عندهم، فهذه صورة أداء الحجّ بالقران، وفي هذه الصّورة يجب على الحاجّ ذبح شاة، لأنّه أدّى نسكين بإحرام واحد، فإن لم يجد، أو لم يستطع الذّبح يصوم ثلاثة أيّام في الحجّ وسبعة إذا رجع.

(الفرع الثّالث)
(كيفيّة أداء الحجّ بالتّمتّع)

أيّها الأخ: إذا وصلت الميقات وأردت أن تحرم بالعمرة فقط قبل الحجّ تنظّف واغتسل وتطيّب والتحف برداء وإزار وصلّ ركعتي الإحرام، ثمّ احرم بالعمرة فقط، قائلاً: نويت الدّخول في العمرة وحدها، اللّهم فتقبّلها منّي لبّيك اللّهم لبّيك... إلخ. ثمّ بعد الدّخول إلى مكّة تذهب وتطوف بالبيت سبعة أشواط، وهذا الطّواف يكفي عن طواف القدوم وطواف العمرة، ثمّ تصلّي ركعتي الطّواف، ثمّ تذهب إلى الصّفاء وتسعى بينها وبين المروة سبعة أشواط، ثمّ تحلق أو تقصّر، فبهذه الأعمال تتمّ عمرتك وتتحلّل ويحلّ لك كلّ ما حرّم بالإحرام وتبقى في مكّة إلى يوم التّروية، وفي يوم التّروية وهو

اليوم الثّامن من ذي الحجّة تتنظّف وتغتسل وتتطيّب وتلبس ثياب الإحرام وتصلّي ركعتي الإحرام، ثمّ تحرم بالحجّ قائلاً: نويت الدّخول في الحجّ اللّهم فتقبّله منّي، لبّيك اللّهم لبّيك.. إلخ، ثمّ تذهب إلى منى وتبيت فيها، ثم في صباح يوم عرفة تذهب إلى عرفات وتبقى فيها إلى غروب الشّمس جامعاً الظّهر مع العصر جمع تقديم، وبعد الغروب تذهب إلى مزدلفة وتجمع المغرب مع العشاء جمع تأخير وتبيت بمزدلفة، ثمّ بعد منتصف اللّيل أو بعد الفجر تذهب إلى منى وترمي إلى العقبة الكبرى سبع حصيّات، ثمّ تذبح فدية التّمتّع ـ وهي شاة من ضأن أو معز ـ ثمّ تحلق وتتحلّل، ثمّ تذهب إلى مكّة وتطوف طواف الإفاضة، ثمّ تسعى بين الصّفا والمروة، ثمّ ترجع إلى منى وتبيت بها ليلتين أو ثلاثاً، وترمي الثّلاثة أيّام ويومين كلّ يوم إحدى وعشرين حصاة إلى العقبات الثّلاث، لكلّ عقبة سبع حصيّات تبدأ بالصّغرى وتنتهي بالكبرى، ثمّ بعدما أردت الرّجوع إلى بلدك تطوف طواف الوداع، وبهذه الأعمال تتمّ أعمال حجّك، وفي هذه الصّورة تجب عليك الفدية ذبح شاة، لأنّك لم تحرم بالحجّ من ميقاتك.

تنبيهان:

الأوّل: في بيان المواقيت للحجّ: إنّ الميقات لأهل مكّة ولمن أهله بين مكّة وبين المواقيت هو بيته ومنزله وللآفاقي، وهو من كان أهله قبل المواقيت حينما يأتي إلى مكّة فكما يلي: ففي طريق المدينة المنوّرة (ذو الحليفة)، ويسمّى الأن بـ (آبار علي) وتبعد عن مكّة (٤٣٤ كليومتراً)، وفي طريق الشّام (الجحفة)، وتسمّى الآن بـ (رابغ)، وتبعد عن مكّة (٢٤٠ كيلومتراً)، وفي طريق نجد (قرن المنازل) وعيّنوا له (وادي المحرم) داخل حدود طائف من جهة مكّة، وتبعد عن مكة(٤٩ كيلومتراً)، وفي طريق اليمن (يلملم)، وبينها وبين مكّة(٤٥ كيلومتراً)، وفي العراق (ذات عرق)، وتبعد عن مكّة (٩٤ كيلومتراً)، فكلّ من مرّ بواحد من هذه المواقيت يجب عليه أن يحرم منه ولا يتجاوز عنه بدون إحرام، ومن لم يمرّ بواحد من هذه المواقيت فميقاته حيث شاء عند ابن حزم، وعند الأئمة يحرم في مكان يحاذي أحد المواقيت، فإن لم يحاذ أو لم يعلم بالمحاذاة فيحرم من مرحلتين عن مكّة، ومن حاذى ميقاتين فمن محاذاة ما هو أبعد من مكّة، وإن استويا فمن أقربهما إليك، والإحرام قبل الوصول إلى الميقات مستحبّ عند أبي حنيفة وينعقد مكروهاً عند الحنابلة والمالكيّة، وعند الشّافعيّة لا كراهة فيه، إلّا أنّ الأفضل الميقات، وعند ابن حزم إنّ الإحرام قبل الميقات باطل كالصّلاة قبل الوقت.

الثّاني: إنّ الأعمال التّي يقوم بها الحاجّ هي ثلاثة وعشرون عملاً:

١- التّنظّف بتقليم الأظافر وإزالة ماجاز إزالته من الأشعار.

٢ ـ الغسل.

٣- التّطيّب بالرّوائح.

٤ ـ الإتّزار بثوب والإرتداء بآخر.

٥ ـ ركعتا الإحرام.

٦- الإحرام.

٧ ـ كون الإحرام من الميقات.

٨ ـ التّلبية عند الإحرام.

٩- طواف القدوم.

١٠- ركعتا الطّواف.

١١- السّعي بين الصّفا والمروة.

١٢- المبيت بمنى ليلة عرفة.

١٣- الوقوف بعرفة.

١٤- الجمع بين الظّهر والعصر جمع تقديم بعرفه.

١٥- المبيت بمزدلفة.

١٦- الجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة جمع تأخير.

١٧- الرّمي إلى العقبة الكبرى.

١٨- الذّبح.

١٩- الحلق أو التّقصير.

٢٠- طواف الإفاضة.

٢١- المبيت بمنى ثلاث ليال أيّام التّشريق أو ليلتين منها.

٢٢- الرّمي إلى العقبات الثّلاث في أيّام التّشريق. ٢٣- طواف الوداع.

هذا وإنّ هذه الأعمال ليست كلّها ركنا أو واجباً، بل بعض منها ركن، ومعنى الرّكن أنّه يبطل الحجّ بتركه، وبعض منها واجب، ومعنى الواجب إن تركه لا يبطل الحجّ، بل يوجب دماً، أي ذبح شاة، وبعضها سنّة لا يوجب تركها لا إبطالاً ولا دماً، وإنّما يورث حرمان ثواب فعلها فقط. وسنبيّن لك ما هو الفرض من هذه الأعمال وما هو الواجب وما هو السّنّة حسب المذاهب في هذه الخاتمة إن شاء اللّه.

خاتمة:

١- **التّنظيف**: بتقليم الأظافر وإزالة ماجاز إزالته من الشّعر سنّة عند الجميع، أمر به الشّارع، لأنّ الحاجّ بعدما دخل في الإحرام يحرم هذه الأشياء عليه، فطلب منه أن يأتي بها قبل الإحرام، لكي لا يتأذّى بها أثناء الإحرام، وليسلم من الدّخول في المحذور.

٢ ـ **الاغتسال**: سنّة بالاتّفاق لكلّ حاجّ، حتّى الحائض والنّفساء، فإن لم يجد الماء أو وجد مشقّة في استعماله تيمّم عند الشّافعية والقاضي من الحنابلة، وأمّا عند الحنفيّة والمالكيّة وغير القاضي من الحنابلة لا يتيمّم، لأنّ الغسل مطلوب للنّظافة ولا نظافة في التّيمّم، ولو توضّأ بدل الغسل كفى في أداء أصل السّنّة ولكن، الغسل أفضل عند الكلّ. وعند ابن حزم: إنّ الغسل فرض على الحائض والنّفساء.

٣ ـ **التّطيّب**: سنّة عند الثّلاثة[1]، وعند المالكيّة يكره بما يبقى أثره. هذا إذا كان التّطيّب في البدن، وإذا طيّب ثوبه فله استدامته عند الثّلاثة، ولكن إذا نزعه لا يجوز له إعادته عند الثّلاثة حتّى يغسله، فالأحسن ترك تطييب الثّوب مخافة الوقوع في المحذور، فإنّه لو نزعه ثمّ لبسه و به أثر الطّيّب وجبت عليه الفدية عند الثّلاثة وعند ابن حزم لا بأس بلبسه بعد نزعه وإن بقي به الطّيّب.

٤ ـ الارتداء بثوب من الكتف إلى السّرّة والاتّزار بآخر من السّرّة إلى أسفل الرّكبتين، وكونهما أبيضين ولبس نعلين سنّة، وإنّما الواجب هو ستر العورة بما يلفّ لا بما يلبس فإنّ اللبس حرام، فلو ستر عورته بلفّ ثوب واحد أو اثنين ومن أي لون كان جاز. ويجب أيضاً أن تكون الكعبان من الرّجلين مع أصابع الرّجلين مكشوفة غير مستورة، وذلك يحصل بالنّعل فلذلك أمر به. وكذلك يجب أن يكون الرّأس مكشوفاً، وأمّا المرأة فتلبس لباسها الشّرعي ويجب ستر جميع بدنها إلّا الوجه والكفّين فإنّها يجب كشفهما عليها، ويسنّ أن يكون لباسها أبيض.

٥ ـ **ركعتا الإحرام**: سنّة عند الجميع، فإنْ وقع الإحرام بعد أداء الفريضة كفى عند الكلّ ويقرأ في ركعتي الإحرام الكافرون في الأولى والإخلاص في الثّانية ندباً.

٦ ـ **الإحرام**: هو ركن عند الثّلاثة وعند الأحناف شرط والمآل واحد، لأنّ الجميع

---

(١) أي الحنفية والشافعية والحنابلة

متّفقون على أنّه لا حجّ ولا عمرة بدون إحرام، أي بدون نيّة الدّخول فيهما، ويحرم بالإحرام ما نظّمه أحد العلماء، فقال:

يحرّمُ الإحرام لمن يدري إزالةَ الشّعر وقصّ الظّفر

والوطأ واللّبس كذا الدّواعي والطّيب والدّهن وصيد البرّ

٧- **التّلبية**: هي واجبة عند المالكيّة مرّة واحدة عند الإحرام وبدون طول الفصل بينهما، فإن تركها او أطال الفصل بينها وبين الإحرام فعليه دم عندهم، وأمّا قرنها بالإحرام فسنّة. وعند الأحناف قرن الإحرام بذكر يراد به تعظيم اللّه تعالى واجب أي شرط لصحّة الإحرام - وأمّا خصوص التّلبية فسنّة. وعند الحنابلة والشّافعيّة هي سنّة. وعن ابن حزم هي فرض ولو مرّة، فمن لم يلبّ ولا مرّة واحدة في نسكه بُطِلَ نسكه.

٨ - كون الإحرام من الميقات واجب عند الأئمة الاربعة فيجبر بدم. وعند ابن حزم فرض يبطل بتركه النّسك ولا يجبر بدم.

٩ - **طواف القدوم**: سنّة عند الثّلاثة، وواجب عند المالكية إلّا لمردف وهو من أدخل الحجّ على العمرة.

١٠- **ركعتا الطّواف**: واجبتان عند الحنفيّة، وتردّد المالكيّة فيها، وَرَجَّحَ بعضهم أنّه واجب بعد الطّواف الواجب وسنّة بعد الطواف المندوب. وفي الأصحّ من الشّافعيّة سنتان، وعند الحنابلة سنتان. ويدخل وقتهما بالطّواف ويبقى إلى الموت.

١١- **السّعي بين الصّفا والمروة**: واجب عند الأحناف ركن عند المالكيّة والشّافعيّة وابن حزم. وأمّا الحنابلة فلهم ثلاثة أقوال: الأوّل: إنّه ركن، الثّاني: واجب، الثّالث: سنة، والأوّل عندهم أرجح.

١٢- **المبيت بمنى ليلة عرفة**: سنّة عند الجميع.

١٣- **الوقوف بعرفة**: ركن عند الجميع، بل من أهم الأركان، قال (ﷺ): (الحجّ عرفة)[١] والوقوف هو الوجود بعرفة في وقته قائماً أو قاعداً أو مستلقياً نائماً أو مستيقظاً، ناوياً الوقوف أو لا عالماً بأنّها عرفة أو لا، طاهراً أو محدثاً أو جنباً أو حائضاً أو نفساء. وعرفة كلّها موقف إلا وادي عرفة.

(١) سنن الترمذي ٢/ ٢٣٧ الحديث رقم٨٨٩.

١٤- **الجمع بين الظّهر والعصر تقديماً**: سنّة عند الثّلاثة، وعند أبي حنيفة له شروط لا توجد اليوم، وعند صاحبيه لا تشترط هذه الشّروط، فمختلف في جوازه عندهم.

١٥- **الجمع بين المغرب والعشاء تأخيراً**: في مزدلفة واجب مطلقاً عند الأحناف، وعند الثّلاثة سنّة.

١٦- **المبيت بمزدلفة**: عند الحنفية سنّة. ويجب عندهم الوقوف ولو ساعة بعد طلوع الفجر عند المشعر الحرام ـ وهو المسجد الذي بني قرب جبل قزح ـ وعند المالكيّة النزول بها بقدر حطّ الرّحال واجب، وأمّا المبيت والوقوف كلاهما سنّتان عندهم، وعند الشّافعيّة والحنابلة المبيت واجب والوقوف سنّة.

١٧- **الرّمي إلى العقبة الكبرى**: واجب بالاتّفاق.

١٨- **الذّبح**: واجب على المتمتّع والقارن، وسنّة لغيرهما. إلّا إن ترك واجباً أو ارتكب محرّماً، فيجب لذلك أيضاً لا للنّسك.

١٩- **الحلق أو التّقصير**: ركن على الأصحّ عند الشّافعيّة، وعند غيرهم الأصح واجب، وعند المالكيّة واجب يجبر بدم، وكذا عند الأحناف واجب.

٢٠- **طواف الإفاضة**: ركن عند الثّلاثة سبعة أشواط، وعند الأحناف الرّكن أربعة أشواط والثّلاثة المتمّمة للسّبع واجبة.

٢١- **المبيت بمنى ليالي أيّام التّشريق**: سنّة عند الحنفيّة، وواجب عند المالكيّة، وللشّافعيّة قولان: الأظهر: الوجوب، الثّاني: السّنّة. وعند الحنابلة روايتان عن أحمد الأولى: إنّه سنّة وهو الأصحّ عندهم، والثّانية: إنّه واجب.

٢٢- **رمي الجمرات يومين أو ثلاثة أيّام**: واجب عند الجميع.

٢٣- **طواف الوداع**: عند الحنفيّة واجب، وعند المالكيّة سنّة، وعند الشّافعيّة قولان: الوجوب والنّدب والأوّل أصحّ. ولا يجب على الحائض والنّفساء وعند الحنابلة واجب.

فهذه أعمال الحجّ على حسب المذاهب عرضناها باختصار ليستفيد منه المسلمون، غفر اللّه تعالى لي ولهم ولوالدينا أجمعين، آمين والحمد للّه ربّ العالمين، وصلّى اللّه على سيّدنا محمّد وآله أجمعين.

* * *

ثمّ بعد أن فرض اللّه تعالى على المؤمنين أحكامه من الصّلاة والزّكاة والصّوم والجهاد والحجّ والعمرة استثقل ذلك على ضعفاء الإيمان، فأرادوا الإتيان ببعض دون بعض حسب رغبتهم، وإنّ بعضاً من أهل الكتاب الذين آمنوا أرادوا البقاء على بعض شعائرهم فأنزل اللّه تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام واعتنقوه **(ادخلوا في السّلم)** في الإسلام كافة وأْتوا بأعماله كلّها ولا تخلطوا به شيئاً آخر من دين غيره، **(ولا تتّبعوا خطوات الشّيطان)** بأن تتركوا بعض أعمال الإسلام أو تتّبعوا أعمالاً ليس منه، فإن ترك أي عمل من أعمال الإسلام فهو خطوة من خطوات الشّيطان، وكذلك اتّباع أي عمل وعادة وحكم غير ما في الإسلام فهو من خطوات الشّيطان فلا تعملوا ذلك، حيث **(إنّه)**، أي الشّيطان **(لكم)** أيّها المسلمون ويا أبناء آدم **(عدوّ مبين)** ظاهر العداوة أوّل ما خلق أبوكم الأوّل آدم (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) فلا يأمركم إلّا بشرّ، ومن هذه الآية تبيّن أنّ العمل بأيّ قانون ونظام غير الإسلام فهو من خطوات الشّيطان ويجب العدول عنه وترك العمل به، ثمّ أنذر اللّه تعالى الذين ينحرفون عن الإسلام إلى مبادئ وأنظمة أخرى، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾﴾

(فإن زللتم)، أي عدلتم وانحرفتم عن الإسلام وأيّ عمل من الأعمال أو أي خلق من الأخلاق أو أيّ حكم **(من بعد ما جاءتكم)** الأحكام الواضحات والدّلائل الظّاهرات على حقّيّة الإسلام، **(فاعلموا)** أيّها المنحرفون **(إنّ اللّه عزيز)** غالب على أمره قويّ لا ينفلت من انتقامه أحد ولا مهرب له منه، **(حكيم)** في انتقامه، فينتقم من الكلّ حسب حكمته وتقديره.

ثمّ أراد اللّه تعالى أن يؤكّد الإنذار ووعيده للمنحرفين عن الإسلام، فقال جلّ وعلا:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾

(هل) للاستفهام الإنكاري، فيفيد معنى (ما)، فالمعنى: ما **(ينظرون)**، أي ما ينتظرون هؤلاء المنحرفون عن الإسلام **(إلّا أن يأتيهم)** عذاب **(الله في ظلل)** ـ جمع ظلة ـ وهي قطع **(من الغمام)** التي تظلّل في السّماء، أي ماينتظرون إلّا أن يأتيهم عذاب الله في قطع من الغمام المظلّلة، والمراد بهذا العذاب الصّواعق التي تهلك وتدمّر، كما أهلك أقواماً بالصّواعق نزلت بهم فأهلكتهم، **(والملائكة)** ـ الواو بمعنى: (أو) ـ فالمعنى: أو تأتيهم الملائكة فتهلكهم، كما أهلكت قوم (لوط) وقلّبت قريتهم عليهم، والحاصل أنّهم ينتظرون أحد الأمرين. ويصيبهم أحدهما إمّا الصّواعق والملائكة أو أمر آخر غير هذين الأمرين. **(وقضي الأمر)** بالعذاب حينذاك فلا منجى لهم، **(وإلى الله ترجع الأمور)**، أي أمور العذاب. فيعذّب كلّ قوم بنوع خاصّ وفي وقت خاصّ حسب إرادته ومشيئته، والله تعالى أعلم. ثمّ أراد الله تعالى أن يلفت أنظار المسلمين إلى بني إسرائيل وما جرى عليهم من المصائب نتيجة انحرافهم عن دينهم ليعتبروا بهم فلا ينحرفوا مخافة أن يبتلوا بما ابتلي به بنو إسرائيل، فقال جلّ وعلا:

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية)، أي كثيراً آتيناهم من معجزات واضحة دالّة على رسالة موسى (عليه السلام) وحقّيّة ما جاء به، إلّا أنّهم مع كلّ ذلك غيّروا وبدّلوا وانحرفوا، فعاقبهم الله تعالى على ذلك بأنواع من العذاب، حيث إنّ سنّة الله تعالى جرت على أنّه **(ومن يبدّل نعمة الله)** أي شريعته **(من بعد ماجاءته فإنّ الله شديد العقاب)** له. فإن انحرفتم عن دينكم أيّها المسلمون فإنّ الله تعالى يعاقبكم عقاباً شديداً، كما عاقب الأمم قبلكم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن سبب انحراف النّاس عن الدّين، فقال جلّ وعلا:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

(زُيّن للذين كفروا) وانحرفوا عن الدّين، زَيّن لهم النّفس والهوى والشّيطان (الحياة الدّنيا) وشهواتها، ولذلك ينحرفون، (ويسخرون) ـ يضحكون ـ (من الذين آمنوا) واستمرّوا على الدّين ومنعوا أنفسهم من المحرّمات والشّهوات والأباطيل، إلّا أنّ العاقبة للمؤمنين، حيث (والذين اتّقوا) فلم ينحرفوا عن الدّين يكونون (فوقهم يوم القيامة)، لأنّهم في الجنّة ويشرفون على الكافرين وهم في النّار، (واللّه يرزق من يشاء بغير حساب)، تشير هذه الآية إلى أنّ الرّزق وكلّ شيء بيد اللّه تعالى، فلا داعي للمسلم أن ينحرف لأجل متاع أو منصب أو طمع دنيويّ[1] .

ثمّ إنّ الله تعالى أراد أن يذكر سبب كثرة الرّسل ومجيء الشّرائع، فقال جلّ وعلا:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

(كان النّاس) كلّهم (أمّةً واحدةً) تدين بدين اللّه تعالى وتعمل بشريعته من آدم إلى نوح (عليه السلام)، فاختلفوا بعد ذلك وغيّروا دين اللّه تعالى وأدخلوا فيه أموراً وأحكاماً حسب هواهم، و لذلك (فبعث اللّه النبيّين) ليرجعوا بالنّاس إلى دينهم الحقّ وشريعتهم الصّحيحة، وكان النبيّون كلّهم (مبشّرين) يبشّرون النّاس بسعادة الدّارين إن استقاموا على دين اللّه والعمل بشريعته، (ومنذرين) يخوّفون النّاس بعذاب اللّه في الدّنيا والآخرة إن لم يطبّقوا شريعة اللّه ولم يعملوا بها ولم ينتهجوا المنهج الذي أرسله الله إليهم، (وانزل معهم)، مع النبيّين (الكتاب) ـ (الكتاب) جنس ـ أي الكتب (بالحقّ)، تلك الكتب تختصّ ببيان الحقّ من الأمور فتفرّق الباطل منها، (ليحكم) ذلك الكتاب أو الرّسول

---

(١) يحتمل أن يراد به ما يعطي الله من الثواب للمتقين بغير حساب أي رزقا واسعا كثيرا لا فناء له و لا انقطاع كما في قوله تعالى في سورة غافر (فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب.... ٤٠)، ويحتمل أن يراد به ما يعطي الناس مؤمنهم وكافرهم في الدنيا بغير حساب أو حق لهم على الله تعالى، او يعطيهم الكثير بغير حصر. / انظر التفسير الكبير للرازي ٦/ ٩.

حسب ذلك الكتاب **(بين النّاس فيما اختلفوا فيه)**، فيميّز المحقّ من المبطل والخير من الشّرّ والحسن من القبيح، **(وما اختلف فيه)** ـ أي في الحق ـ **(إلّا الذين أوتوه)**، أي الحقّ وبلّغوا إنّ هذا هو الحقّ، و **(من بعد ماجاءتهم البيّنات)** الدّلائل الواضحة على أنّ هذا هو الحقّ والآيات النّاطقات به، وإنّما اختلفوا **(بغياً)**، أي حسداً وظلماً **(بينهم)**، فكلّ يريد أن يكون الحقّ بجانبه وحسب هواه ومصلحته، فجاء الرّسل لبيان الحقّ لهم، **(فهدى اللّه الذين آمنوا)** بالرّسل **(لما اختلفوا فيه من الحقّ)** ـ بيان (لما) في (لِما اختلفوا فيه) ـ أي للحقّ الذي اختلفوا فيه، فمنهم من ينكره، ومنهم من يتقبّله **(بإذنه)**، أي هداهم إلى الحقّ بإذنه وإرادته وثبّتهم عليه، **(واللّه يهدي من يشاء إلى صراطَ مستقيم)**، وهم الذين يحبّون الحقّ ويحاولون الوصول إليه، وأمّا التّابعون لهواهم، والذين لا يريدون الحقّ وإنّما يريدون مصالحهم ومنافعهم لأنّها أهمّ لهم، فالله تعالى لا يهديهم جبراً بل يجعل حبلهم على غاربهم ليرتعوا في مراعي الهوى والضّلال إلى ان يلاقوا العذاب والنّكال في الدّنيا والآخرة. اللّهم اجعلنا من المهتدين برحمتك يا أرحم الرّاحمين آمين.

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى أنّه بعد مجئ الأنبياء والرّسل إنّ الهداية تكون لمن يشاء اللّه، لا لكلّ أحد، اعلم أنّه لا تخلو الدّنيا عن الحقّ والباطل، وإنّ الصّراع بين الحقّ والباطل يستمرّ حتماً، فعلى المؤمنين ان يتحمّلوا الأذى والمشقّة في سبيل مصارعة الباطل والجهاد لإذلاله وإحباط مكايده ومقاتلة أهل الضّلال والكفر والباطل، وبذلك ينالون الأجر من الله تعالى ودخول الجنّة يوم القيامة، فلذلك قال جلّ وعلا:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾

(أم) ـ بمعنى الهمزة الاستفهام، والاستفهام للإنكار التّوبيخي ـ فالمعنى هل **(حسبتم ان تدخلوا الجنّة)** دون تعب ومشقّة، كلّا لا تحسبوا ولا تظنّوا ذلك، بل لا تدخلونها **(ولما يأتكم)** قبل أن يأتيكم ـ أي يصيبكم ـ **(مثل)** حال المؤمنين **(الذين خلوا من قبلكم)** من الأمم، وحالهم هو أنّهم **(مسّتهم البأساء)** ـ البؤس من الجوع والشّدّة والمسكنة ـ **(والضّرّاء)** من الخوف والشّقاء، **(وزلزلوا)** وازعجوا **(حتّى)** إلى أن انتهى

الإزعاج من الأعداء ووصل إلى حدّ أن **(يقول الرّسول)** ـ رسول الوقت ـ **(والذين آمنوا معه متى نصرالله)** الذي وعدنا به، فقيل لهم من قبل الله **(ألا إنّ نصر الله قريب)** لمن صبر، فإن الفرج مع الصّبر، وإنّ مع العسر يسراً، وفي هذه الآية حثّ للمؤمنين على الصّبر وتحمّل الأذى والمشقّة والجهاد في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، ووعد لهم بانّ النّصر حليفهم بعد ذلك في الدّنيا وأنّ لهم الجنّة في الآخرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى البأساء والضّرّاء ـ وإنّ من جملة الباساء والضّرّاء الجوع والفقر والحاجة، وذلك يدعو الى الإنفاق ـ فسأل المؤمنون الأغنياء ماذا ينفقون على من أصابه الفقر والفاقة، فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾

(يسألونك)، أي يسألك أيّها النّبيّ المؤمنون **(ماذا ينفقون)** على المحتاجين، **(قل)** يا أيّها النّبيّ ويا أيّها المسلم في جوابهم لا حاجة إلى السّؤال عمّا ينفقونه فإنّه معلوم وهو الخير، أي المال، حيث لا انفاق إلّا من المال، بل كان الأجدر بهم أن يسألوا عن الذين يجب الإنفاق عليهم، ولذلك نجيبكم عن هذا السّؤال الأجدر، فنقول: **(ما أنفقتم من خير)** من مال **(فـ)** أنفقوا **(للوالدين)** وإن عليا[1] إذا كانا محتاجين فهما أول من يجب الانفاق عليهم، **(والأقربين)** أي الأخوة وأبنائهم والأعمام وأبنائهم الأقرب فالأقرب، **(واليتامى)** الذين تركهم آباؤهم دون ثروة تكفيهم، **(والمساكين)** جمع مسكين، وهو من لا يفي دخله حوائجه يعطون إلى أن تسدّ حاجاتهم، **(وابن السبيل)** والمسافر الذي نفد ماله فيعطى قدر ما يصل به إلى أهله وماله، **(وما تفعلوا من خير)**، سواء كان انفاقاً أو غيره **(فإنّ الله)** تعالى **(به)** بذلك العمل **(عليم)**، وليس المراد الإخبار عن علم بذلك، بل المراد نتيجة العلم به وهو الثّواب على عمل العبد حسب ما علمَ منه من مقداره وإخلاصه في النيّة والإرادة.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى أنّه يصيب المسلمين البأساء والضّرّاء وأنّهم لا يدخلون

---

(١) أي والدي الوالدين ووالدي الوالدين أي الأجداد والجدات مهما وجدوا...

الجنّة ما لم يصبروا على ذلك، ومن جملة المصائب أنّ الكافرين يريدون قتالهم أخبرهم تعالى بأنّه فرض اللّه تعالى عليهم القتال مع الكفّار إذا دعت الحاجة إليه، فقال جلّ وعلا:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

(كتب) أي فرض **(عليكم)** القتال حين ما دعت الحاجة إليه، **(وهو)** أي القتال **(كره)** ـ مكروه ـ **(لكم)**، لأنّ فيه ضياع الأنفس والأموال والمشقّة، **(وعسى أن تكرهوا شيئاً)** كالقتال، **(وهو خير لكم)** من عدمه؛ لأنّ به العزّة والسّيادة في الدّنيا ودخول الجنّة في الآخرة، **(وعسى أن تحبّوا شيئاً)** مثل عدم القتال، **(وهو شرّ لكم)**، لأنّه يورث الذّل في الدّنيا وسيطرة العدوّ والعذاب في الآخرة بترك أمر اللّه تعالى، **(واللّه يعلم)** عاقبة الأمور ونتائجها، **(وأنتم لا تعلمون)** ذلك، فلذلك تكرهون بعض الأشياء وهو خير، وتحبّون بعضها وهو شرّ، فلله درّ من قال:

ربّ أمر تتّقيه جرّ أمراً ترتضيه
خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه[1]

فالجهاد فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين، وإلّا أثمت الأمّة كلّهم، ثمّ بعد أن أمر اللّه تعالى المسلمين بالقتال و فرضه عليهم، بدأ رسول اللّه (ﷺ) بإرسال السّرايا لمجابهة كفّار قريش في طريق تجارتهم إلى الشّام لأخذ الثأر منهم

(١) أبيات أرسلها العلامة الشيخ محمد أبو الخير زين العابدين رحمه الله تعالى من مدينة حلب في سورية إلى الشيخ الوالد المفسر في رسالة جوابيّة حين كان في كبيسة وكان مهموما فشكى إليه في رسالة بعثها إليه، وهو أحد أبناء عمومتنا الذين هاجر جدهم الشيخ أحمد بن الشيخ عيسى من باليسان إلى أنطاكية وهو والد الشيخ محمد زين العابدين وهو والد كل من الشيخ عبدالله زين العابدين والشيخ محمد أبو الخير زين العابدين والشيخ عبدالرحمن زين العابدين، ثم لما ألحقت أنطاكية بتركيا فضلوا العيش في بلاد العرب فنزحوا إلى حلب. والشيخ عيسى هو والد الشيخ علي وهو والد الشيخ طه وهو والد الشيخ محمد الذي بين يدينا الآن تفسيره للقرآن الكريم، أي أنهما يلتقيان في الجد الثاني / د. أحمد الباليساني عن طريق المعايشة والسماع من والدي الشيخ المفسر.

واستعادة حقّ المظلومين منهم، ولأن يزلزل كيان الكفر والإشراك باللّه، فمن جملة ما بعث رسول(ﷺ) من السّرايا كما ذكره الخازن وابن هشام سريّة عبد اللّه بن جحش ابن عمته، فقد بعثه في سريّة، وجعله أميراً عليهم، وكان ذلك في جمادى الآخرة قبل قتال بدر لشهرين، وكتب له كتاباً، وقال له سر على اسم اللّه، ولا تنظر في الكتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت فافتح الكتاب، فاقرأه على أصحابك، ثمّ امض لما أمرتك به ولا تستكرهنّ أحداً منهم على المسير معك، فسار عبداللّه يومين، ثمّ نزل وفتح الكتاب فاذا فيه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أمّا بعد فسر على بركة اللّه تعالى بمن معك من أصحابك حتّى تنزل بطن نخلة فأرصد بها عيراً لقريش لعلّك تأتينا منها بخير، فقال: سمعاً وطاعة، ثمّ قال لأصحابه ذلك، وقال: (نهاني النّبيّ أن استكره أحداً منكم، فمن كان يريد الشّهادة فلينطلق، ومن كان يكره فليرجع).

ثمّ مضى، ومضى أصحابه معه، وكانوا ثمانية رُهط، ولم يتخلّف عنه أحد حتّى إذا كان بمعدن فوق الفرع بموضع من الحجاز يقال له: (بخيران) أضلّ سعد بن أبي وقاص وعقبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقّبانه فتخلّفا في طلبه، ومضى عبداللّه ببقيّة أصحابه حتّى نزل في بطن نخلة بين مكّة والطّائف. فبينما هم كذلك إذ مرّت بهم عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة الطّائف، وفي العير عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان بن عبداللّه بن المغيرة ونوفل بن عبداللّه المخزوميان، فلمّا رأوا أصحاب رسول الله (ﷺ) هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فقال عبداللّه بن جحش: إنّ القوم قد ذعروا منكم فاحلقوا رأس واحد منكم وليتعرض لهم فإذا رأوه محلوقاً أمنوا، فحلقوا رأس عكاشة بن محصن، ثمّ أشرف عليهم، فلما رأوه أمنوا، وقالوا: عمار فلا بأس علينا، وكان ذلك في آخر جمادى الآخرة، وكانوا يرون أنّه من رجب، فتشاور القوم فيهم، وقالوا: إن تركتموهم هذه اللّيلة ليدخلن الشّهر الحرام وليمتنعنّ منكم، فأجمعوا أمرهم في مواقعة القوم، فرمى واقد بن عبداللّه السّهمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، فكان أول قتيل من المشركين، وأسر الحكم بن كيسان وعثمان، وكانا أوّل أسيرين عند المسلمين، وأفلت نوفل فأعجزهم واستاق المسلمون العير والأسيرين حتّى قدموا

على رسول اللّه (ﷺ)، فقالت قريش: قد استحل محمّد الشّهر الحرام وسفك الدّماء وأخذ الحرائب يعني المال، وعيّر أهل مكّة من كان بمكّة من المسلمين، وقالوا لهم: يا معشر الصّباة استحللتم الشّهر الحرام وقاتلتم فيه، فبلغ ذلك رسول اللّه (ﷺ)، فقال لعبداللّه بن جحش وأصحابه: ما أمرتكم بالقتال في الشّهر الحرام ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ شيئاً من ذلك وعنّف المسلمون أصحاب السّرية على ذلك، فعظم ذلك على أصحاب السّرية وظنّوا أنّهم قد هلكوا، وقالوا: يا رسول اللّه إنّا قتلنا ابن الحضرمي ثمّ أمسينا فنظرنا هلال رجب فلا ندري أفي رجب أصبناه أم في جمادى الآخرة، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾

فلما نزلت الآية عزل الرّسول (ﷺ) (الخُمس) عن العير وقسّم الباقي على المقاتلين، وهذه أوّل غنيمة كانت في الإسلام، وبعث أهل مكّة فداء أسيريهم، فقال (ﷺ): بل نبقيهما حتّى يقدم سعد وعقبة وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فاداهما، فأمّا الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول اللّه (ﷺ) بالمدينه فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمّا عثمان بن عبد اللّه فرجع إلى مكّة ومات بها كافراً، وأمّا نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق فوقع فيه فتحطّما، أمّا معنى الآية فهو كما يلي: **(يسألونك)**، أي ويسألك يا محمّد هؤلاء المشركون على وجه الاعتراض واللّوم **(عن الشّهر الحرام)**، أي عن حرمة الشّهر الحرام **(قتال فيه)** عن حكم القتال فيه، **(قل)** لهم **(قتال فيه كبير)** ، أي ذنب كبير، ولكنكم حينما تعيروننا بالقتال فيه فعندكم أمور كثيرة كلّ واحد منها أكبر ذنباً وأكثر إثماً من القتال في الشّهر الحرام، حيث **(وصدّ)** أي ومنع النّاس **(عن)** الدّخول في **(سبيل اللّه)** وهو الإسلام أكبر من القتال في الشّهر الحرام وأنتم تفعلون ذلك، **(وكفر به)** أي بدين اللّه تعالى وهو الإسلام أكبر وأنتم مصرّون عليه

(والمسجد الحرام)، أي ومنع النّاس عن زيارة المسجد الحرام أيضاً أكبر من القتال في الشّهر الحرام وأنتم تفعلونه، **(وإخراج أهله)**، أي أهل المسجد الحرام وهو مكّة ـ وهم المسلمون ـ **(منه)** من المسجد الحرام أكبر من القتال في الشّهر الحرام. وقد فعلتم ذلك وتستمرّون عليه، **(والفتنة)**، أي تعذيب المؤمنين ليرتدّوا عن الإسلام **(أكبر من القتل)** في الشّهر الحرام وأنتم تعملون ذلك، فكلّ هذه الأعمال أكبر من القتال في الشّهر الحرام وأنتم متلبّسون به فلم لا تعيرون أنفسكم على هذه الخصال القبيحة وتعيروننا بخصله واحدة وهو القتال في الشّهر الحرام ولم يصدر ذلك منّا، حيث كان ذلك القتال في آخر جمادى الآخرة لا في رجب، ثمّ أخبر الله تعالى على أنّهم مستمرّون على الفتنة وتعذيب المؤمنين ليرتدّوا عن دينهم، فقال جلّ وعلا: **(ولا يزالون)** على استمرار الزّمان وإلى يوم القيامة **(يقاتلونكم)** الكفّار مهما كان نوعهم **(حتّى يردّوكم)**، أي يرجعوكم **(عن دينكم)** إلى دينهم **(إن استطاعوا)** ذلك، وإنّ هذا الخبر أصدق الأخبار، فإنّ الكافرين من اليهود والصّليبيّين والملحدين لازالوا يقاتلون المسلمين ليرجعوا بهم عن دينهم الحقّ إلى دينهم الباطل وما أمر أفغان وفلسطين وفليبين وغير ذلك من محاربة الكافرين للمسلمين بمخفي على النّاس، بل وفي كلّ مكان لهم حروب سياسيّة أو فعليّة مع المسلمين على إسلامهم. ثمّ خوّف تعالى المسلمين وحذّرهم عن الارتداد، فقال جلّ وعلا: **(ومن يرتدد منكم)** أيّها المسلمون **(عن دينه)** إلى دين آخر **(فيمت)** أي فيستمرّ على ذلك الارتداد (فيمت) وهو كافر ولم يتب عن الارتداد إلى الإسلام **(فأولئك حبطت)**، أي هلكت وفسدت أعمالهم الّتي عملوها وقت الإسلام فلا يحسب لهم شيء منها **(في الدّنيا والآخرة وأولئك أصحاب النّار)**، أي أهلها **(هم فيها خالدون)** لا يخرجون منها أبداً.

* * *

وههنا مسائل: المسألة الأولى: ذهب بعض العلماء إلى أنّ حرمة القتال في الشّهر الحرام المفهومة من هذه الآية منسوخة واستدلّوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافّة﴾، حيث لم يقيّد بزمان فيعمّ كلّ زمان حتّى الأشهر الحرم، وهذا القول ضعيف جدّاً لأنّ هذه الآية فقرة من آية جاءت لتثبيت حرمة القتال في الشّهر الحرام، والآية هذه: ﴿إنّ عدّة الشّهور عنداللّه اثنا عشر شهراً في كتاب اللّه يوم خلق السّموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدّين القيّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة واعلموا أنّ اللّه مع المتّقين﴾ سورة التوبة الآية/ ٣٦ ـ . وليس بمعقول أن ينسخ أوّل الآية بآخرها. واستدلّوا أيضاً بغزوات قام بها رسول اللّه (ﷺ)

في الأشهر الحرم، ويجاب عن ذلك بأنّ تلك الغزوات كلّها كانت دفاعاً عن هجوم، والدّفاع واجب في كلّ وقت في الأشهر الحرم وغيرها، فالآية محكمة والقتال في الأشهر الحرم حرام إلّا دفاعاً.

المسألة الثّانية: إنّ المرتدّ يقتل وتبين منه زوجته ولا يرث من مورثه ولا ينصر إنْ استنصر، ولا يمدح ولا يثنى عليه، ويكون ماله فيئاً للمسلمين، وهذا معنى إحباط عمله في الدّنيا ولا يثاب يوم القيامة على ما عمل قبلُ من أعمال الإسلام شيئاً، وهذا معنى حبط عمله في الآخرة.

المسألة الثّالثة: هل يستتاب المرتدّ أو يقتل فوراً دون الاستتابة؟ ذهب الحنفيّة والمالكيّة إلى أنّه يقتل دون استتابة، وللشّافعي في ذلك قولان، وأمّا الزنديق فكالمرتدّ عند الحنفيّة، وعند المالكيّة لا يستتاب الزنديق، هذا حكم من ارتدّ عن الإسلام، وأمّا حكم من خرج[1] من دين آخر إلى دين غير الإسلام فعند مالك وجمهور الفقهاء لا يتعرّض له، وعند الشّافعي يخرج من الذمّة إلى أرض الحرب ويستحلّ أمواله كأموال الحربيّين، وأمّا المرتدّة فتقتل أيضاً لعموم حديث (من بدّل دينه فاقتلوه)[2] فإنّه يشمل الذّكر والأنثى. وعن أبي حنيفة وأصحابه إنّها لا تقتل، لأنّ الرّسول نهى عن قتل النّساء، ويردّ ذلك بأنّ هذا النّهي إنّما هو في القتال فلا يشمل المرتدّة.

المسألة الرّابعة: هل ترجع إليه زوجته إذا رجع وتاب إلى الإسلام أم لا؟ فعند الشّافعيّة ترجع إليه بنفس التّوبة إذا رجع في العدّة وبنكاح جديد إذا رجع بعد العدّة، وعند الحنفيّة لا ترجع إلّا بنكاح جديد، سواءً رجع إلى الإسلام في العدّة أو بعدها.

المسألة الخامسة: إنّ المرتدّ تحبط أعماله بنفس الرّدّة عند المالكيّة والأحناف، وعند الشّافعية لا تحبط إلّا بالموت على الرّدّة، والآية ظاهرة في قول الشّافعي (رحمة الله عليه) فالمرتدّ إذا كان آتياً بالحجّ قبل الارتداد، ثمّ رجع إلى الإسلام لا يجب عليه إعادة الحجّ عند الشّافعي، وعند غيره عليه الإعادة، لأنّ الأوّل حبط بالرّدّة وعلى ذلك فقس باقي الاعمال.

---

(١) من غير المسلمين.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٢٥٣٧الحديث رقم ٦٥٢٣. عن ابن عباس (رضي الله عنه).

المسألة السّادسة: ميراث المرتدّ لورثته من المسلمين، وهو قول علي بن أبي طالب (رضي اللّه عنه) والحسن البصرى والشّعبي والحكم، وبذلك قال أبو حنيفة، وعند مالك والشّافعي ميراثه لبيت المال إن انتظم، وأجمعوا على أنّه لا يرثه الورثة الكافرون. هذا وفرّق أبوحنيفة بين ما اكتسبه المرتدّ في الإسلام وما اكتسبه حال الرّدّة، فقال: ما اكتسبه في حال الرّدّة فهو فيء، وما اكتسبه في الإسلام فلورثته المسلمين.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الكافرين لا يزالون يقاتلون المسلمين حتّى يردّوهم عن الإسلام أراد أن يحثّ المسلمين على الجهاد ومقاتلة الكفّار، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

(**إنّ الّذين آمنوا**) بالإسلام واستمرّوا عليه (**والّذين هاجروا**) منهم حفاظاً على دينهم (**وجاهدوا في سبيل اللّه**)ـ أي في سبيل نشر دين اللّه وبسط سلطانه ـ (**أولئك يرجون**)، ـ رجاء الشّيء المحقّق، فيرجون (**رحمة اللّه واللّه غفور**) يغفر لهم، (**رحيم**) يرحم بهم، وأمّا المرتدّون فلا غفران ولا رحمة لهم. وبهاتين الآيتين ذهب عن عبداللّه بن جحش وصحبه اللّوم والحزن، واستولى على وجوههم النّضارة من السّرور، اللّهم نضّر وجوهنا بالنّصر على الكافرين وبالمغفرة يوم الدّين آمين. ثمّ بعد أن أجاب اللّه تعالى عن السّؤال عن القتال في الشّهر الحرام أراد أن يجيب عن أسئلة أخرى طرحت أمام رسول اللّه (ﷺ)، فقال جلّ وعلا:

﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

(يسألونك) يا أيّها النّبيّ **(عن الخمر)** ـ هو مِن (خمر يخمر)، أي ستر يستر، سمّي المسكر خمراً، لأنّه يستر العقل ـ **(والميسر)** مشتقّ من اليسر والسّهولة، سمّي القمار ميسراً، لأنّه يحصل منه المال بسهولة، فيسألونك عنهما **(قل فيهما إثم كبير)**، أي ضرر كبير، فضرر الخمر هو زوال العقل والكلام الفحش وقول الزّور والغفلة عن الصّلوات وغير ذلك، وهو كثير، ولذا سمّيت أمّ الخبائث[1]، لأنّ السّكران لا عقل له، فيرتكب كلّ قبيح، فهذه أضرار الخمر، وأمّا منافعها فهي الأرباح الحاصلة من تجارتها وبعض منافع بدنيّة، ومنافع الميسر هي حصول الغالب على المال بسهولة، ومضارّه ضياع المال بدون عوض وقتل الوقت فيما لا نفع فيه وإيجاد الحقد والبغضاء بين المتقامرين، **(وإثمهما)** ـ أي الإثم والضرر الحاصل من الخمر والميسر ـ **(أكبر)** أكثر **(من نفعهما)** الحاصل منهما، سمّي الضّرر إثماً إشارة إلى أنّ كلّ ما فيه ضرر فهو إثم. ولهذا ترك بعض الأصحاب الخمرة بعد نزول هذه الآية وإن لم تحرّم بعد صراحةً وجزماً. وستأتي مسائل تتعلّق بالخمر والميسر في سورة المائدة على الآية/ ٣٩، إن شاء الله تعالى.

(ويسألونك ماذا)، أيْ أيّ مقدار من المال **(ينفقون)** على المحتاجين، **(قل)** أي قل لهم: فلينفقوا **(العفو)**، أي الزّائد على ما يحتاجون إليه أنفسهم وأهلهم، فالزّائد على الحاجة يجب أن يصرف في سبيل اللّه، وما تحتاجه لنفسك أو لأهلك لا يجوز

(١) سماه الرسول (ﷺ) بذلك إذ روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال قال رسول الله (ﷺ) الخمر أم الخبائث / سنن الدارقطني ٤/ ٢٤٧. وسبب تسميتها مذكور فيما روي عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) قال وهو يخطب سمعت النبي (ﷺ) يقول إجتنبوا أم الخبائث فإنه كان رجل ممن قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما فقالت: إنا ندعوك لشهادة،فدخل فطفقت كلما يدخل باب أغلقته دونه،حتى أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة. وعنده غلام وباطية فيها خمر،فقالت إنا لم ندعك لشهادة،ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام أو تقع عليّ أو تشرب كأسا من هذا الخمر، فإن أبيت صحت بك وفضحتك،قال: فلما رأى أنه لابد له من ذلك قال: اسقيني كأسا من هذا الخمر،فسقته كأسا من الخمر قال: زيديني،فلم يزل حتى وقع عليها وقتل النفس،فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبدا، ليوشكن أحدهما يخرج صاحبه./ صحيح ابن حبان ١٢/ ٦٩ الحديث رقم ٥٣٤٨، سنن النسائي ٣/ ٢٢٨ الحديث رقم٥١٧٦. فالسكران ليس عنده مانع أن يرتكب جميع الجرائم و ما حرم وخبث لذلك سمي الخمر أم الخبائث.

صرفه للغير فإنّ التّضييق عليهم حرام، فالمال في مبدأ الإسلام كلّه ملك للّه تعالى وأنت الوكيل عليه، فما تحتاجه فأنت أحقّ به، وما زاد على الحاجة يصرف في سبيل اللّه تعالى، فالإدخار والكنز حرام، و﴿الذين يكنزون الذّهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل اللّه فبشّرهم بعذاب اليم﴾ التوبة/ ٣٤. فهذا هو الإسلام، فلو عمل النّاس بهذا المبدأ العظيم لم يوجد مسكين على وجه الأرض، فأيّ مبدأ أحسن من هذا... كلّا. والدّليل على أنّ الزّائد كلّه يصرف أنّه ما قال: (من العفو)، بل قال(العفو) والألف واللام إذا لم يوجد للعهد يحمل على الاستغراق[١] وعلى هذا كثير من الأصحاب، **(كذلك)** مثل ما علمت **(يبيّن اللّه لكم الآيات)**، أي أحكامه **(لعلّكم تتفكّرون)**، أي لكي تتفكّروا **(في الدّنيا)** فتمسّكوا من المال ما تحتاجون إليه فيها، وتنفقون الزّائد على ذلك لأجل رضاء اللّه وثوابه في يوم المعاد **(والآخرة)**، وهو يوم القيامة، والآخرة صفة موصوفها محذوف، أي الحياة الآخرة، فإنّ للإنسان حياتين، الحياة الدّنيا أي القربى والأولى، والحياة الآخرة يوم القيامة، والأولى مؤقّته وتزول، والثّانية دائمة مؤبّدة لا تزول، فيجب الاهتمام بها والعمل لها أكثر وأكثر، **(ويسألونك عن اليتامى)**، وهم الذين مات أبوهم وهم لم يبلغوا الحلم، **(قل إصلاح لهم)** بتربيّتهم ولمالهم برعايته وإنمائه وصرفه عليهم حسب الحاجة **(خير)**، والتّنوين دليل التكثير - أي خير كثير - **(وإن تخالطوهم)** في المال والأكل بأن تخلطوا أكلكم بأكلهم فتطبخون معاً وتشربون معاً وفي إناء واحد وتأخذون منهم بقدر ما يعود إليهم فلا بأس في ذلك، **(فـ)** إنّهم **(إخوانكم)**، فخالطوهم بالعدل **(واللّه يعلم المفسد)** - في مخالطتهم، وهم الذين يجورون في مالهم فينتقم منهم - **(من المصلح)** وهو الذي يخالطهم بالعدل، **(ولو شاء اللّه لأعنتكم)** لأحرجكم فمنعكم من الاختلاط مطلقاً **(إنّ اللّه عزيز)** غالب على أمره، فلو أحرجكم لم يكن أحد ليمنعه، إلّا لأنّه **(حكيم)** يعمل بحكمة، فلحكمته لم يحرجكم، وفيه وعيد للمفسد بالانتقام ووعد للمصلح بالثّواب حسب حكمته وعلمه في الأمور هذا، فالتّصرّف في أموال اليتامى بالمصلحة خير وفيه الأجر والثّواب، و بالأكل بالباطل دون مقابل وبما هو ضرر وشرّ فيه الوزر والعقاب، ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلّا بالتّي هي أحسن﴾ الأنعام/ ١٥٢.

---

(١) اي ينفق جميع الزائد.

وهنا سؤال آخر لم يذكر لفظاً إلّا أنّ مورد النّزول يدلّ عليه، وهو أنّ (مرثد) أحد الصحابة سأل النّبيّ (ﷺ) عن أن يتزوّج (عناق)، وكانت مشركة، فنزلت الآية[1]، فكأن اللّه تعالى يقول: ويسألونك عن نكاح المشركات، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾

(ولا تنكحوا) ـ أي ولا تتزوّجوا من النّساء ـ **(المشركات حتى يؤمنَّ)** ويتركن الشّرك ويصبحن مسلمات موحّدات فلا تتزوّجوهنّ وإن كنّ حرائر، فإن لم تجدوا حرّة غيرهنّ فتزوّجوا من الجاريات المؤمنات، حيث **(ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم)** المشركة بمالها وجمالها وحسبها ونسبها، فحرمة زواج الأمّة عند وجود الحرّة مشروطة بعدم كون الحرّة مشركة، **(ولا تنكحوا)** ـ أي ولا تزوّجوا نساءكم الرّجال ـ **(المشركين حتّى يؤمنوا)**، فإن لم تجدوا لنسائكم غير المشركين فزوّجوهنّ العبيد المسلمين، حيث **(ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم)** المشرك بماله وجماله ومنصبه وحسبه ونسبه، ثمّ علّل عدم جواز النّكاح بين المشركة والمؤمن الموّحد أو المشرك والمسلمة بقوله: **(أولئك)**، أي لأنّ المشركين **(يدعون إلى النّار)**، أي إلى ما يوجب النّار ودخولها وهو الشّرك، **(واللّه يدعو إلى الجنّة)** إلى ما يوجب دخول الجنّة

---

(١) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي كان يحمل الأسارى بمكة،وكان بمكة بغي يقال لها عناق،وكانت صديقته،قال: جئت إلى النبي (ﷺ) فقلت يارسول الله أنكح عناق؟ قال: فسكت عني، فنزلت (والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك) فدعاني وقرأها عليّ وقال لاتنكحها / أنظر سنن أبي داوود ٢/ ٢٢٠ الحديث رقم ٢٠٥١. وقال السيوطي في تفسيره: أخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر عن مقاتل بن حبان قال نزلت هذه الآية في أبي مرثد الغنوي،استأذن النبي (ﷺ) في عناق أن يتزوجها،وكانت ذا حظ من جمال وهي مشركة،وأبو مرثد يومئذ مسلم فقال يا رسول الله إنها تعجبني فأنزل الله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن...الخ) / الدر المنثور ١/ ٦١٤. ولكن الأول صحيح لصحة اسناده في الصحاح / أنظر المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٨٠..

(والمغفرة) وإلى ما يورث حصول المغفرة وهو الإيمان والتّوحيد **(بإذنه)**، إشارة إلى أنّ كلّ عمل صالح من الإيمان وغيره لا يوجب المغفرة ودخول الجنّة إلّا بإذنه، أي بإرادته واختياره، فما يقول المعتزلة من وجوب ثواب المطيع وعقاب العاصي على الله تعالى قول باطل وتحكّم على اللّه ـ تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً ـ **(ويبيّن)** اللّه تعالى **(آياته)** أحكامه **(للنّاس)** كلّهم **(لعلّهم يتذكّرون)**، أي لكي يتذكّروا، أي يتّعظوا فيعملوا بها ولا ينحرفوا عنها.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾

جاء في صحيح مسلم (رضي اللّه عنه) عن أنس أنّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوها، أي لم يجتمعوا معها في البيوت ـ أي في الغرفة التي تنام فيها ـ فسأل الأصحاب رسول اللّه (ﷺ)، فأنزل اللّه تعالى: ويسألونك عن المحيض... إلخ، فقال (ﷺ): اصنعوا كلّ شيء إلّا النّكاح، أي إلّا الجماع، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يريد هذا الرّجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلّا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير وعبّاد ابن بشر فقالا: يا رسول اللّه إنّ اليهود تقول كذا وكذا، أفلا نجامعهنّ؟ فتغيّر وجه رسول اللّه (ﷺ) حتّى ظنّنا أنّه قد وجد عليهما ـ الوجد أي الغضب ـ فخرجا، فاستقبلتهما هديّة من لبن إلى رسول اللّه (ﷺ) فأرسل إلى آثارهما فسقاهما، فعرفنا أنّه لم يجد عليهما[١]، ومعنى الآية كما يلي: **(ويسألونك)**، أي يسألك المسلمون أيّها النّبيّ **(عن المحيض)**، أي عن حكم قربان النّساء في وقت الحيض، **(قل)**: لهم **(هو)** ـ أي الحيض ـ **(أذى)**، أي قذر **(فاعتزلوا النّساء في المحيض)**، أي في وقت الحيض، **(ولا تقربوهنّ)**، أي ولا تجامعوهن **(حتّى يطهرن)**، أي ينقطع دمّهنّ، **(فإذا)** طهرن و**(تطهّرن)** اغتسلن **(فأتوهن من حيث)**، أي من المكان الذي **(أمركم اللّه)**، بإتيانهنّ فيه، وهو القبل فقط **(إنّ اللّه يحبّ التّوابين)** الرّاجعين إلى أمر اللّه تعالى **(ويحبّ المتطهّرين)**، أي المجتنبين عمّا هو مستقذر ونجس. ومحبّة اللّه تعالى معناها الإنعام بالعفو والمغفرة.

* * *

(١) صحيح مسلم ١/٢٤٦ الحديث رقم ٣٠٢.

وههنا مسائل: المسألة الأولى: أجمعت الأمّة على أنّ وطء الحائض حرام ومن استحلّه كافر، ومن فعله وهو عالم بالتّحريم عزّره الإمام، وكفّارته عند أبي حنيفة والشّافعي في قوله الجديد أن يستغفر اللّه تعالى ويتوب إليه وليس عليه غير ذلك، وعند أحمد والقول القديم للشّافعي عليه كفّارة، وهي التّصدّق بدينار ـ وهو مثقال من الذهب ـ وفي رواية إن كان في وقت حمرة الدّم فدينار وفي وقت صفرته فنصف دينار، هذا وحيث ما ذكر الدّينار في الشّرع فالمراد به مثقال من الذّهب أو قيمته.

المسألة الثّانية: أجمعت الأمّة على جواز الاستمتاع بالمرأة الحائض بما فوق السّرة والرّكبة، وبشرط أن يملك المرء نفسه عن الوقوع في المحذور وهو الجماع وإلّا فلا.

المسألة الثّالثة: يحرم على الحائض الصّلاة والصّوم ودخول المسجد وقراءة القرآن حفظاً وفي المصحف بالأولى، لأنّ مسّ المصحف وحمله حرام عليها، ويحرم عليها الطّواف بالبيت أيضاً، وعليها قضاء الصّوم دون الصّلوات فإنّها لا تقضيها، وفي قول يجوز لها قراءة القرآن[1].

المسألة الرّابعة: إذا مضت مدّة أكثر الحيض، وهي عشرة أيّام وانقطع الدّم جاز جماعها قبل أن تغتسل، وإن انقطع الدّم في أقلّ مِنْ ذلك فلا يجوز إلّا بعد الغسل، وهذا مذهب الأحناف، وعند غيره لا يجوز في كلّ حال التّقرّب إلّا بعد الغسل أو التّيمّم إن لم يوجد الماء أو تعذّر استعمال الماء عليها.

المسألة الخامسة: يخرج من قبل المرأة ثلاثة دماء، دم الحيض ودم الاستحاضة ودم النّفاس، ولكلّ من هذه الدّماء تعريفه وأحكامه.

المسألة السّادسة: الحيض دم أسود خاثر تعلوه حمرة، له رائحة خاصّة تعرفه النّساء ولا خلاف في ذلك. وقد يخرج متّصلاً، وقد يكون منقطعاً، فإن اتّصل فالحكم واضح وإن انقطع بأن رأت الدّم يوماً والطّهر يوماً، أو رأت الدّم يومين والطّهر يومين أو يوماً واحداً فإنّها تترك الصّلاة والصّوم في أيّام الدّم وتغتسل عند انقطاعه وتصلّي وتصوم، ثمّ تجمع أيّام الدّم وتلغي أيّام الطّهر المتخلّلة فلا تحتسب طهراً بالنّسبة للعدّة أو الاستبراء كذا في القرطبي، والظّاهر أنّ ما فعلته في مدّة الطّهر يحسب لها من الصّوم فلا قضاء عليها على مذهبه، وهو مذهب مالك (رحمة اللّه عليه) ويسمّى هذا تلفيقاً.

---

(١) وهم المالكية والظّاهرية و هو قول في مذهب أحمد وري ذلك عن ابن عباس وابن المسيب / ، المجموع للنووي ٢/ ١٧٩، كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية ٢١/ ٤٦٠ المحلى لابن حزم ١/ ٧٧.

المسألة السّابعة: اختلف العلماء في أقلّ مدّة الحيض وأكثرها:

فعند مالك: أكثر مدّة الحيض خمسة عشر يوماً فما رأته المرأة زائداً على خمسة عشر يوماً فالزّائد استحاضة لا حيض، ورويّ عنه أيضاً أنّه لا تحديد لأقلّ مدّة الحيض ولا لأكثرها، بل العبرة بعادة المرأة.

وعند الشّافعي: أقلّ مدّة الحيض يوم وليلة، فما نقص من هذا القدر استحاضة، وأكثرها خمسة عشر يوماً، فما زاد فاستحاضة، وقد روي عنه أيضاً أنّه لا حدّ لأقلّ مدّته ولا لأكثرها، بل العبرة بعادة النّساء.

وعند أبي حنيفة: أقلّ مدّته ثلاثة أيّام، وأكثرها عشرة أيّام، فما زاد على الأكثر أو نقص عن الأقل فاستحاضة.وفي هذه الخلافات يقول السّيّد سابق في (فقه السّنّة): لا يتقدّر أقلّ مدّة الحيض ولا أكثرها ولم يأت في تقديرها ما تقوم به الحجّة، ثمّ إن كانت لها عادة متقدّرة تعمل بها وإن لم تكن عادة متقدّرة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدّم، وإنّ دم الحيض معروف عند النّساء.

المسألة الثّامنة: إذا رأت المرأة دم الحيض، فالأسود والأحمر والأصفر والكدر كلّه حيض إلى أن يتطهّر وينقطع ويصير ما يخرج من قبلها أبيض، وبعد أن رأت الأبيض واغتسلت فما تراها من الصّفرة والكدرة ليس بحيض مطلقاً، وإن لم يمض أكثر مدّة الحيض.

المسألة التّاسعة: اتّفق العلماء على أنّه لاحدّ لأكثر مدّة الطّهر المتخلّل بين الحيضتين ولكن اختلفوا في أقلّ مدّته، فقال بعضهم هي خمسة عشر يوماً، وقال بعضهم ثلاثة عشر، قال السّيّد سابق: والحقّ أنّه لم يرد في تقدير ذلك شيء يحتجّ به أيضاً.

المسألة العاشرة: دم النّفاس هو الدّم الخارج من قبل المرأة بعد الولادة، ولا حدّ لأقلّ مدّته فقد تكون لحظة، وأكثرها أربعون يوماً، وعند الشّافعية أكثرها ستون يوماً، والغالب أربعون يوماً، ويحرم به ما يحرم بالحيض.

المسألة الحادية عشرة: دم الاستحاضة دم يجري وينزل في غير أوانه مستمرّاً دون انقطاع، هذا وللمستحاضة أحوال نذكرها إن شاء اللّه تعالى: **الحالة الأولى:** أن تكون مدّة الحيض معروفه لها قبل الاستحاضة، بأن كانت عادتها أنّها تحيض في الشّهر خمسة أيّام

مثلاً، أو أقلّ أو أكثر، وفي هذه الحالة تعتبر المدّة التّي كانت عادتها في الشّهر حيضاً، فتمسك عمّا يحرم بالحيض، والباقي يحسب استحاضة.

الحالة الثّانية: أن يستمرّ بها الدّم ولم يكن لها عادّة معروفة، لأنّها إمّا نسيت عادتها، أو بلغت مستحاضة ولا تستطيع أن تميّز بين دم الحيض ودم الاستحاضة وفي هذه الحالة حيضها كلّ شهر ستّة أيّام أو سبعة على غالب عادة النّساء والباقي يحسب استحاضة.

الحالة الثّالثة: أن لا تكون لها عادة معروفة إلّا أنّها تميّز بين دم الحيض ودم الاستحاضة، وفي هذه الحالة فما عرفت أنّه حيض فحيض، وما هو استحاضة فاستحاضة، هذا وللمستحاضة خمسة أحكام: ١- إنّه لا يجب عليها الغسل لا للصّلاة ولا لشئ آخر إلّا الغسلة التي تأتي بها حين انقطاع مدّة الحيض بعد مرور الأيّام التّي تعتبرها أيّام حيضها.

٢ ـ يجب عليها الوضوء لكلّ صلاة، وعند مالك يستحبّ لها الوضوء لكلّ صلاة إنّما يجب تجديد وضوئها إذا حصل لها حدث آخر غير الدّم، أن تغسل فرجها قبل الوضوء وتحشوه بخرقة أو قطنة دفعاً للنّجاسة أو تقليلاً لها.

٣ ـ أن لا تتوضأ إلّا عند دخول وقت الصّلاة، وهذا عند غير مالك[1] (رضي اللّه تعالى عنه) وعنده يجوز لها ذلك.

٤ ـ يجوز لزوجها أن يطأ ولو في حالة جريان الدّم عدا الأيّام التي تعتبر أيّام حيضها، لها حكم الطّاهرات تصلّي وتصوم وتقرأ القرآن وتمسّ المصحف وتحمله وتفعل كلّ العبادات، وهذا كلّه في غير الأيّام التي تعتبر أيّام الحيض لها.

خاتمة في الحيض والنّفاس والاستحاضة:

في ذكر الأحاديث التي وردت فيما يتعلّق بالحيض والنّفاس والاستحاضة والتّي استنبط العلماء أقوالهم منها:

١- في هل يجوز مباشره الحائض بغير الجماع؟ عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: (كنت أغتسل أنا والنّبيّ (ﷺ) في إناء واحد، وكلانا جُنب، وكان يأمرني فأتّزر فيباشرني، بغير

---

(١) أي المذاهب الثلاثة الأخرى.

الجماع وأنا حائض، وكان يخرج رأسه إليّ ـ أي (من المسجد) ـ وهو معتكف فأغسله وأنا حائض)[١] رواه الخمسة، كما في التّاج.

٢ ـ في الموضوع نفسه: قالت ميمونة: (كان رسول اللّه (ﷺ) يباشر نساءه فوق الإزار وهنّ حيّض)[٢] رواه الثّلاثة، كما في التّاج.

٣ ـ في الموضوع نفسه: عن ميمونة أيضاً: (كان رسول اللّه (ﷺ) يضطجع معي وأنا حائض وبيني وبينه ثوب)[٣] رواه الشّيخان والنّسائي، كما في التّاج.

٤ ـ في الحكم نفسه: قالت عائشة: كنت أنا ورسول اللّه (ﷺ) نبيت في الشّعار الواحد وأنا حائض طامث، فإن أصابه منّي شيء ـ أي من دم الحيض ـ غسل مكانه ولم يعده، ثمّ صلى فيه)[٤] رواه أبو داود والنّسائي، كما في التّاج.

٥ ـ فيما يعتبر حيضاً من ألوان الدّم: عن أمّ عطيّة وكانت بايعت النّبيّ (ﷺ) قالت: (كنّا لا نعدّ الصّفرة والكدرة بعد الطّهر شيئاً)[٥]، أي بعد النّقاء، ولو في أيّام الحيض وأمّا قبل النّقاء فيعتبر حيضاً في أيّامه، رواه أبو داود والبخاري والنّسائي، كما ورد في التّاج. وروى البخاري: (وبعث نساء إلى عائشة رضي الله عنها بالدرجة فيها الكرسف فيه الصّفرة والكدرة، فقالت: لا تعجلنّ حتّى ترين القصّة البيضاء)[٦].

٦- في كفّارة الوقاع في الحيض: عن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النّبيّ (ﷺ) في الذي يأتي امرأته وهي حائض، قال: (يتصدّق بدينار أو بنصف دينار)[٧] رواه أصحاب السّنن، كما في التّاج. ولأبي داود: (إذا أصابها في أوّل الدّم فدينار وإذا أصابها في انقطاع الدّم فنصف دينار)[٨] وأوّل الدّم وقت احمراره، وانقطاعه وقت الاصفرار، كما قال التّرمذي/ التّاج.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١١٥ الحديث رقم ٢٩٥.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٢٤٣ الحديث رقم ٢٩٤.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٢٤٣ الحديث رقم ٢٩٥.

(٤) سنن النسائي الكبرى ١/ ١٢٥ الحديث رقم ٢٧٦.

(٥) سنن النسائي الكبرى ١/ ٣٣٧ الحديث رقم ١٤٩٢.

(٦) صحيح البخاري ١/ ١٢١ الحديث رقم

(٧) المستدرك على الصحيحين ١/ ٢٧٨ الحديث رقم ٦١٢.

(٨) سنن أبي داود ٢/ ٢٥١ الحديث رقم ٢١٦٨.

٧ ـ في كيفيّة تطهّرهنّ من الحيض: عن عائشة (رضي الله عنها) أنّ أسماء الأنصاريّة سألت النّبيّ (ﷺ) عن غسل المحيض، فقال: تأخذ إحداكنّ ماءها وسدرتها، هو نبت يساعد على التّنظيف كالصّابون، فالآن تأخذ الصّابون فتطهّر فتحسن الطّهور، أي الاستنجاء، ثمّ تصبّ على رأسها الماء فتدلكه دلكاً شديداً حتّى يبلغ شؤون رأسها، أي أصول الشّعر وجميع جوانب الرّأس، ثمّ تصبّ عليها الماء، أي على جميع جسمها، ثمّ تأخذ فرصة، أي قطنة أو غيرها ممسّكة، أي مطيّبة برائحة المسك أو غيره، فتطهّر بها، فقالت أسماء وكيف تطهّر بها. فقال: سبحان اللّه تطهرين بها، فقالت عائشة تتّبعين أثر الدّم، أي تدخلين في الفرج، فاستحى النّبيّ (ﷺ) فأعرض بوجهه، فقالت عائشة: نعم النّساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهنّ الحياء أن يتفقّهن في الدّين)[1] رواه الخمسة إلّا التّرمذي/ التّاج.

٨ ـ في قضاء الحائض الصّوم دون الصّلاة : عن معاذة قالت: (سألت عائشة (رضي الله عنها) فقلت: ما بال الحائض تقضي الصّوم ولا تقضي الصّلاة، فقالت: أحروريّة أنت؟ ـ ـ ، قلت: لست بحروريّة ولكنّي أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصّوم ولا نؤمر بقضاء الصّلاة)[2] رواه الخمسة/ التّاج. والحرورية نسبة إلى حروراء بلد بقرب الكوفة اجتمع فيها الخوارج، وهم قائلون بوجوب قضاء الصّلاة على الحائض أيضاً.

٩- في مدّة النّفاس: عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: (كانت النّفساء تجلس على عهد رسول اللّه (ﷺ) أربعين يوماً فكنا نطلي، أي ندهن، وجوهنا بالورس)[3] رواه أبو داود والتّرمذي/ التّاج. نبت ـ من الكلف حبوب تظهر في الوجه من عدم النّظافة.

١٠- في نفس المعنى وعدم قضاء الصّلاة: عن أم سلمة أيضاً: كانت المرأة من نساء النّبيّ ـ أي بناته وأقاربه، تقعد في النّفاس أربعين ليلةً لا يأمرها النّبيّ (ﷺ) بقضاء صلاة النّفاس. أي مدّته)[4] رواه أبو داود/ التّاج.

١١- فيما يحرم على الحائض: عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن النّبيّ (ﷺ) قال: (لا تقرأ الحائض ولا الجنب شيئاً من القرآن)[5] رواه التّرمذي/التّاج.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٦١ الحديث رقم ٣٣٢.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٢٦٥ الحديث رقم ٣٣٥.

(٣) سنن ابن ماجة ١/ ٢١٣ الحديث رقم ٦٤٨.

(٤) سنن أبي داود ١/ ٨٣ الحديث رقم ٣١٢.

(٥) سنن البيهقي ١/ ٣٠٩ الحديث رقم ١٣٧٥، وضعفه.

١٢- في عدم دخول الحائض المسجد: عن عائشة (رضي الله عنها) عن النبيّ (ﷺ) قال: (وجّهوا هذه البيوت عن المسجد فإنّي لا أحلّ المسجد لحائض ولا جنب)[١] رواه أبوداود/ التّاج.

١٣- في حكم المستحاضة عن عائشة (رضي الله عنها) أنّ فاطمة بنت أبي حبيش سألت النّبيّ (ﷺ): فقالت إنّي أستحاض فلا أطهر أفأدع الصّلاة؟ فقال: لا إنّ ذلك عرق وليس بالحيضة ولكن دعي الصّلاة قدر الأيّام التّي كنت تحيضين فيها، ثمّ اغتسلي وصلّي. وفي رواية: إذا أقبلت الحيضة، أي أيّامها المعتادة قبل، فدعي الصّلاة، وإذا أدبرت فاغسلي عنك الدّم وصلّي)[٢] رواه الخمسة وزاد التّرمذي (وتوضّئي لكلّ صلاة حتّى يجيء ذلك الوقت)[٣] ولأبي داود (تنتظر عدّة الأيّام واللّيالي التّي كانت تحيضهن من الشّهر قبل أن يصيبها الذي أصابها، وتترك الصّلاة قدر ذلك من الشّهر فإذا خلفت ذلك فلتغتسل ثمّ لتستنفر بثوب ثمّ لتصلّي)[٤] .

عن فاطمة بنت أبي حبيش أنّها قالت: يا رسول اللّه إنّي أستحاض، فقال لها: (إذا كان دم الحيض فإنّه دم أسود يعرف، فإذا كان ذلك فأمسكي عن الصّلاة، فإذا كان الآخر فتوضّئي وصلّي فإنّما هو عرق)[٥] رواه أبو داود والنّسائي.

١٤- في نفس الموضوع: عن حمنة بنت جحش قالت: أتيت رسول اللّه (ﷺ)، فقلت: يا رسول اللّه إنّي امرأة أستحاض حيضةً كثيرةً شديدةً، فما ترى فيها قد منعتني الصّلاة والصّوم؟ قال: أنعت لك الكرسف فإنّه يذهب الدّم قالت: هو أكثر من ذلك، قال: فاتّخذي ثوباً، أي فشدّي به، قالت: هو أكثر من ذلك إنّما أثجّ ثجّاً، قال: سآمرك بأمرين أيّهما فعلت أجزأ عنك من الآخر، فإن قويت عليها فأنت أعلم، إنّما هذه ركضة من ركضات الشّيطان فتحيضي ستّة أيّام أو سبعة أيّام في علم اللّه عزّ وجلّ، ثمّ اغتسلي حتّى إذا رأيت أنّك قد طهّرت واستنقأت فصلّي ثلاثاً وعشرين ليلة أو أربعاً وعشرين ليلة وأيّامها وصومي فإنّ ذلك يجزئك، وكذلك فإن قوّيت على أن تؤخّري الظّهر

---

(١) سنن أبي داود ١/ ١٦٠ الحديث رقم ٢٣٢.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١١٧ الحديث رقم ٣٠٠،صحيح مسلم ١/ ٢٦٢ الحديث رقم ٣٣٣.

(٣) سنن الترمذي ١/ ٢١٨ الحديث رقم ١٢٥.

(٤) السنن المأثورة ١/ ٢٠٥ الحديث رقم ١٣٩.

(٥) سنن أبي داود ١/ ٧٥ الحديث رقم ٢٨٦، سنن النسائي الكبرى ١/ ١١٣ الحديث رقم ٢٢٠.

وتعجّلي العصر فتغتسلين وتجمعين بين الصّلاتين الظّهر والعصر وتؤخّرين المغرب وتعجّلين العشاء، ثمّ تغتسلين وتجمعين بين الصّلاتين فافعلي وتغتسلين مع الفجر فافعلي وصومي إن قدرت على ذلك، قال رسول اللّه (ﷺ) وهذا أعجب الأمرين إليّ)[١] رواه أصحاب السّنن/ التّاج.

١٥- في جواز اعتكاف المستحاضة: عن عائشة قالت: اعتكفت مع النّبيّ (ﷺ) امرأة من أزواجه فكانت ترى الدّم وربّما وضعنا الطشت تحتها وهي تصلّي)[٢] رواه البخاري وأبو داود والنّسائي/ التّاج.

١٦- في جواز جماع المستحاضة: عن عكرمة قال: (كانت أم حبيبة، زوج عبدالرّحمن بن عوف، تستحاض فكان زوجها يغشاها)[٣]. وعنه: (أنّ حمنة بنت جحش كانت مستحاضة وكان زوجها طلحة بن عبيداللّه يجامعها)[٤] رواهما أبو داود/ التّاج.

هذا ومن نظر إلى هذه الأحاديث الشّريفة يعلم بأنّ المسائل التّي ذكرناها مستفادة ومستقاة من هذه الأحاديث، واللّه تعالى اعلم.

* * *

قال القرطبي: روى الأئمة واللفظ لمسلم عن جابر بن عبداللّه: (أنّ اليهود كانت تقول: إذا أتى الرّجل امرأته من دبرها في قبلها كان الولد أحول، فنزلت: نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم ..)[٥]، أي من ورائها، بأن تركع فيأتيها الرّجل من الوراء أي من قُبلها كان الولد أحول. فنزلت هذه الآية، فقال جلّ وعلا:

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾

(١) سنن أبي داود ١/ ٧٦،الحديث رقم ٢٨٧، سنن البيهقي ١/ ٣٣٨ الحديث رقم ١٤٩٩ .سنن الدارقطني ١/ ٢١٤ الحديث رقم٤٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧١٦ الحديث رقم ١٩٣٢، سنن أبي داود ٢/ ٣٣٤،سنن النسائي الكبرى ٢/ ٢٦٠الحديث رقم ٣٣٤٦.

(٣) سنن أبي داود ١/ ٨٣ الحديث رقم ٣٠٩،

(٤) سنن أبي داود ١/ ٨٣ الحديث رقم ٣١٠.

(٥) صحيح مسلم ٢/ ١٠٥٨، الحديث رقم ١٤٣٥.

(**نساؤكم حرث**)، أي محلّ حرث الأولاد (**لكم**) أيّها الرّجال (**فأتوا**)، فجامعوا حرثكم، أي محلّ حرثكم وهو النّساء (**أنّى شئتم**)، أي كيف شئتم، سواء كانت هي قائمة أو قاعدة مستلقية مستدبرة، فأتوهنّ بشرط الاجتناب عن الدّبر والحيض، (**وقدّموا**) على الجماع نيّة رزق الولد الصّالح أو العفّة من الحرام (**لأنفسكم**)، أي لتكن نيّتكم ما ذكرنا لا قضاء الشّهوة فقط، وبذلك يكون الجماع عبادة[1] (واتّقوا اللّه) من الإتيان في الدّبر أو وقت الحيض، (**واعلموا أنّكم ملاقوه**) يوم القيامة فيجازيكم حسب أعمالكم (**وبشّر المؤمنين**) بالثّواب والجنّة على تقواهم وطاعتهم، وفي هذه الآية دليل على أنّ الثّواب موقوف على الإيمان، فالكافر لا ثواب له وإن حسنت أعماله، واللّه تعالى أعلم.
ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الأحكام الإسلامية من الصّلاة والزّكاة والبرّ والحجّ والصّوم والانفاق، وكان من عادة النّاس أنّهم يحلفون على ترك بعض الأعمال الحسنة من البرّ والانفاق، فكانوا حينما يقال لهم افعلوا ذلك، يقولون، لا نحنث في إيماننا، فأنزل اللّه قوله جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

(**ولا تجعلوا اللّه**) ـ أي الحلف باللّه تعالى ـ (**عرضة**) مانعاً (**لأيمانكم**) للإتيان بمتعلّق إيمانكم، وهو ما حلفتم على تركه ممّا هو برّ وتقوى، فلا تجعلوا الأيمان مانعة من (**أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا بين النّاس**)، بل إذا حلفتم على ترك خير فكفّروا عن يمينكم وافعلوا ما حلفتم على تركه، (**والله سميع**) بأيمانكم (**عليم**) بنيّاتكم، ثمّ إنّ بعض الأيمان لا إثم في عدم البرّ بها، وهو الأيمان اللاغية، فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

---

(١) إشارة إلى قوله (ﷺ) وفي بضع أحدكم صدقة،قالوا يارسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا!./ صحيح مسلم ٢/٦٩٧ الحديث رقم ١٠٠٦.

(لا يؤاخذكم)، أي لا يعاقبكم **(اللّه باللّغو)** بما تلغون **(في أيمانكم)** فتؤتون بها لغواً دون قصد ونيّة، بل تجري على لسانكم لغواً، **(ولكن يؤاخذكم بما كسبت)**، أي بما كسبته وقصدته وعزمت عليه قلوبكم من الأيمان، **(واللّه غفور)** يغفر عن لغو الأيمان **(حليم)**، ولحلمه يغفر ويرحم. وسيأتي الكلام على اليمين وتقسيمه على اللغو والجد، وتعريف كلّ منهما وأحكام اليمين وكفّارته في سورة المائدة الآية/ ٩٢ إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى اليمين أراد أن يذكر يميناً خاصّاً يتعلّق بالنّساء، ويقال لها الإيلاء، فقال جلّ وعلا:

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

(لِلَّذين) ـ أي يحقّ ويجوز للذين ـ **(يؤلون)** يحلفون على الامتناع **(من)** مجامعة **(نسائهم)** أبداً، أو أكثر من أربعة أشهر يجوز لهم **(تربّص)**(١) الامتناع من الجماع **(أربعة أشهر)** ، وعند تمام الأربعة أشهر **(فإن فاؤوا)**، فإن رجعوا إلى مجامعتهنّ **(فإنّ اللّه غفور)** يغفر عن معصيّتهم هذه، وهو الحلف على عدم التّقرّب إلى الأزواج فإنّ إعفافهن واجب، **(رحيم)** ويغفر لهم لرحمته بهم، **(وإن عزموا الطّلاق)**، أي وإن لم يقرّبوهنّ بعد الأربعة أشهر، بل أرادوا طلاقهنّ، **(فإنّ اللّه سميع)** بطلاقهم **(عليم)** بسبب طلاقهم وإعراضهم عنهنّ.

* * *

هذا وهنا مسائل: المسألة الأولى: لو حلف أن لا يجامعها أربعة أشهر، فلا يكون مولياً ولا يجري عليه أحكام الإيلاء بعد مضي المدّة عند الشّافعي، لأنّ بقاء المدّة شرط للتّربّص والمطالبة بالفيء أو الطّلاق، وعند أبي حنيفة يكون مولياً ويقع الطّلاق بمضي المدّة.

المسألة الثّانية: لو حلف أنّه لا يقرب زوجته أبداً، أو أكثر من أربعة أشهر، فهو مولٍ بالاتّفاق، فإذا مضت أربعة أشهر يؤمر بالفيء، أي الرجوع إلى التّقرّب أو الطّلاق،

(١) التربص هو الإنتظار أي ينتظر ممتنعاً عن الجماع.

فإن لم يفعل شيئاً من ذلك طلّق عليه القاضي طلقة بائنة، وذلك بشرط مطالبة الزّوجة، فإن لم تطالب الزّوجة فلا يحكم عليه بشيء، وهذا مذهب مالك والشّافعي وأحمد، وقال بذلك بضعة عشر من أصحاب النّبيّ (ﷺ)، منهم عمر وعثمان (رضي الله عنهما)، وعند الحنفيّة إذا مضت أربعة اشهر يقع عليه طلقة بائنة بدون طلب، وهو قول ابن عباس وابن مسعود (رضي الله عنهما).

المسألة الثّالثة: لو حلف على عدم التّقرّب أقلّ من أربعة أشهر فليس بمولٍ، وإن جامعها في المدّة عليه كفّارة اليمين.

المسألة الرّابعة: إذا مضت أربعة أشهر من الإيلاء وجامعها خرج من الإيلاء، وعليه كفّارة يمين عند أكثر العلماء، وعند بعض لا كفّاره عليه، لقوله تعالى: ﴿فإن فاؤوا فإنّ اللّه غفور رحيم﴾، وردّ بأنّه (غفور رحيم) عن المعصية لا عن الكفّارة.

المسألة الخامسة: لو امتنع الرّجل عن التّقرّب لإمرأته بدون إيلاء، أي بدون حلف يؤمر بوطئها، فإن أبى وأقام على امتناعه مضرّاً بها دون عذر فرّق بينه وبينها بدون ضرب أجل، وقيل يضرب له أجل الإيلاء أربعة أشهر، وهذا قول أكثر العلماء، وقيل: ليس عليه شيء، وإنّما يوعظ ويؤمر بتقوى اللّه في ألّا يمسكها ضراراً، والأوّل هو الحقّ، واللّه تعالى أعلم.

المسألة السّادسة: لو آلى بدون قصد الإضرار بالمرأة، بل قصد بذلك مصلحة الولد الرّضيع وأن لا تحمل المرأة مدّة رضاعها لا يطالب بشيء عند مالك والشّافعي (رحمهما اللّه تعالى) وعند أبي حنيفة وقول للشّافعي أنّه يكون مولياً ولا اعتبار برضاع الولد.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الطّلاق أراد أن يذكر ما يجب على المرأة بعد الطّلاق، فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

(والمطلّقات) من النّساء **(يتربّصن بأنفسهن)** ينتظرن بأنفسهن فلا يتزوّجن إلى أن يرين بعد الطّلاق **(ثلاثة قروء)** ـ جمع (قرء) ـ و(القرء) جاء بمعنى الطّهر وبمعنى الحيض، فعدّة المطلّقة، أي المدّة التّي لا يجوز أن تتزوّج فيها ثلاثة قروء، أي ثلاثة أطهار عند الشّافعي ومالك ورواية عن أحمد، فإذا رأت بعد الطّلاق ثلاثة أطهار فلها التّزوّج بعدها وثلاث حيضات عند الحنفيّة، فإذا رأت بعد الطّلاق ثلاث حيضات فلها التّزوّج، والفرق بين المذهبين: أنّ المعتدّة إذا طلّقت في الطّهر يحسب لها الطّهر الذي وقع الطّلاق فيه فتنتهي عدّتها بالدّخول في الحيضة الثّالثة، وعند الحنفيّة لا تتزوّج حتّى تنتهي الحيضة الثّالثة، فمدّة العدّة أقلّ عند الشّافعي، وإن طلّقت في الحيض فلا تنتهي عدّتها حتّى تتطهّر من الحيضة الرّابعة عند الأحناف، حيث لا تعتبر الحيضة التّي وقع فيها الطّلاق، وعند الشّافعية تنتهي عدّتها في آخر الطّهر الثّالث وأوّل الحيض الرّابع، فتكون العدّة أقلّ عند الشّافعي أيضاً.

* * *

فائدة: العدّة: هي مدّة وضعها الشّارع على المرأة، لا يجوز لها أن تتزوّج حتّى تنقضي هذه المدّة بعد فراقها من زوجها، وهذه المدّة للحامل تنتهي بوضع الحمل إذا كانت حاملاً ولو بعد لحظة من الفراق أو أكثر، وسواء كان الفراق بالموت أو بالطّلاق، وإن لم تكن حاملاً فعدّتها لموت الزّوج أربعة أشهر وعشراً، أي أربعة أشهر وعشرة أيّام، وعدّتها للطّلاق ثلاثة قروء، أي ثلاث حيضات عند الأحناف، أو ثلاثة أطهار عند غيرهم، وإذا كانت المرأة لا تحيض لكبرها أو لصغرها فعدّتها ثلاثة أشهر، هذا كلّه في المدخول بها، وأمّا غير المدخول بها فلا عدّة عليها في الطّلاق، وللموت أربعة أشهر وعشرة أيّام، واللّه تعالى أعلم.

* * *

(ولا يحلّ لهنّ) للمطلّقات **(أن يكتمن ما خلق اللّه في أرحامهن)** من الحمل أو الحيض، والمعنى لا يحلّ لهنّ ادّعاء انتهاء العدّة أو عدم انتهائها كذباً وزوراً **(إن كنّ يؤمنّ باللّه واليوم الآخر)** فلا يكتمن ذلك، ولا يكذبن في بقاء العدّة أو انقضائها، **(وبعولتهن)** ـ البعل في الأصل السيّد والمالك ـ والمراد به هنا الزّوج، لأنّه سيّد الزّوجة، ولأنّه قوّام عليها، فالمعنى **(وأزواجهن أحقّ بردّهن)**، أي بإرجاعهن إلى نكاحهم

بقولهم: راجعت زوجتي، وإن أبت الزّوجة فالحقّ للزّوج **(في ذلك)**، أي في وقت العدّة إن كانت العدّة عدّة رجعية لا بائنة، فللزوج مراجعتها **(إن أرادوا)** ، أي إن أراد الأزواج بإرجاعهن **(إصلاحاً)** بالمرأة وحسن معاشرتها لا الإضرار بها، فإنّ في ذلك معصيّة، **(ولهنّ)** من جانب الرّجال من حسن المعاشرة **(مثل الذي عليهنّ)** من حسن المعاشرة والانقياد لهم، **(وللرّجال عليهنّ درجة)** زيادة في الحقّ لقيامهم بأمرها، **(واللّه عزيز)** غالب على أمره فينتقم من الزّوج إذا ظلم الزّوجة ومن الزّوجة إذا جارت وعدلت، **(حكيم)** له حكمة بالغة، وحسب حكمته جعل لكلّ من الزّوج والزّوجة حقوقاً وواجبات وأعمالاً، عليهما مراعاتهما والقيام بها، فالمطلّقة الرّجعية ترجع إلى زوجها بمجرّد أن يقول الزّوج: راجعت زوجتي إن لم تنتهي عدّتها، وإن انتهت فترجع إليه بنكاح جديد. عن عروة بن الزّبير رضي الله عنه، قال: كان الرّجل إذا طلّق زوجته ارتجعها قبل أن تنقضي عدّتها، وكان له ذلك حتّى وإن طلّقها ألف مرة، فعمد رجل الى امرأته فطلّقها حتّى إذا شارفت انقضاء عدّتها ارتجعها، ثمّ قال: واللّه لا آويك إليّ ولا تحلّين أبداً[1]، فأنزل اللّه تعالى:

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾

(الطّلاق) الذي يجوز فيه الرّجعة **(مرّتان)**، فبعد المرّتين ـ بأن طلّقها مرّة ثمّ راجعها ثمّ طلّق مرّة أخرى فراجعها ـ **(فإمساك)** إمّا يمسكها **(بمعروف)** وحسن معاشرة فلا يطلّقها، **(أو)** إذا لم يستطع حسن معاشرتها **(تسريح)** وتطليق لها **(بإحسان)**، بأن يعطيها حقّها من مهرها ومتعتها، ولا يجوز في هذه المرّة مراجعتها إلّا بعد التّحليل والمحلّل، **(ولا يحلّ لكم)** أيّها الأزواج **(أن تأخذوا)** من النّساء مقابل الطّلاق **(ممّا)** ـ من المال الذي ـ **(آتيتموهن)** وهو الصّداق **(شيئاً)** ولو قليلاً، **(إلّا أن يخافا)** الزّوج والزّوجة **(أن لا يقيما)**، أي أن يخافا ألّا يستطيعا أن يقيما **(حدود اللّه)**، أي أحكام الله من حسن المعاشرة وحسن الصّحبة، فطلبت الزّوجة الفراق والتّخلّص من الزّوج، **(فإن**

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٧/ ٣٣٣ الحديث رقم ١٤٧٢٨.

خفتم) ـ أي ظننتم ـ **(أن لا يقيما حدود الله)** ولا يسهل الاجتماع بينهما **(فلا جناح)**، لا إثم **(عليهما)** على الزّوج في أخذ عوض عن الطّلاق ولا على الزّوجة **(فيما افتدت به)** نفسها وخلعتها من هذه المعاشرة السّيّئة، **(تلك)** الأحكام المذكورة **(حدود الله)** تعالى حدّها للنّاس **(فلا تعتدوها)**، فلا تتجاوزوا تلك الحدود بأن تخالفوها، **(ومن)**، أي وكل من **(يتعدّ)** يتجاوز **(حدود الله)** ـ أي أحكامه بأن لا يعمل بها ـ **(فأولئك هم الظّالمون)**، أي المتجاوزون الحقّ والعادلون عنه، فإن كان التّجاوز عن حكم الله تعالى للازدراء به، أو لأنّه يعتقد أن خلاف حكمه أحسن منه فهو ظالم بمعنى كافر، وهذا مفاد قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المائدة/ ٤٤، وإذا كان التجاوز لشهوة أو أمر سلطة لم يبلغ حد الإكراه فذلك فسق ومعصية وهو مفاد قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾، وإذا كان التّجاوز لأمر سلطة بلغت حدّ الإكراه فلا يكون كفراً ولا فسقاً، لأنّ الرسول(ﷺ) قال: (رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1] ،أي رفع المؤاخذة عليها في هذه الحالات.

❊ ❊ ❊

ثمّ إنّ هذه المعاملة معاملة فداء المرأة وبذلها مهرها للزّوج أو مالاً غيره في سبيل الطّلاق والتخلّص من معاشرة الزّوج يسمّى خلعاً، وللخلع أحكام كثيرة، نذكر بعضاً منها في مسائل:

المسألة الأولى: إنّ الخلع سواء كانت بلفظ الطّلاق أو بلفظ الخلع تبين به المرأة، فلا ترجع إلى زوجها إلّا بنكاح جديد ومهر جديد وبرضاً منها.

المسألة الثّانية: إنّ الخلع إذا كان بلفظ الطّلاق فهو طلاق ينقّص العدد، وأمّا إذا كان بلفظ الخلع فهو فسخ ولا ينقص عدد الطّلاق على القول القديم للشّافعي، وهو قول أحمد وابن عباس وطاوس وعكرمة وإسحاق وأبي ثور رحمهم الله، وعلى القول الجديد

(١) كنز العمال ٤/ ٩٨ الحديث رقم ١٠٣٠٧. وروي بلفظ (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه) / صحيح ابن حبان ١٦/ ٢٠٢ الحديث رقم ١٢١٩، و المستدرك على الصحيحين ٢/ ٢١٦ الحديث رقم ٢٨٠١، وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين. وبلفظ (إن الله وضع...الخ) / سنن ابن ماجة ١/ ٦٥٩ الحديث رقم ٢٠٤٣.

للشّافعي أنّه طلاق فينقّص العدد، وهو قول عثمان وعلي وابن مسعود والحسن والشّعبي والنّخعي وعطاء وابن المسيب ومجاهد ومكحول والزّهري (رحمهم الله) ، وبذلك قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثّوري (رحمهم الله).

المسألة الثالثة: يجوز أن يأخذ الزّوج أكثر مما أعطاها من المهر، لأنّ ذلك معاوضة، فلا يقيد بمقدار معيّن، وهذا مذهب أكثر العلماء، وقال بعضهم لا يجوز أخذ ما زاد على ما أعطاها، وقال البعض بل يأخذ أقلّ ممّا أعطاها، وقول الأكثر أصحّ، لأنّ اللّه تعالى قال: (فيما افتدت به) مطلقاً ولم يقيّده بمقدار معيّن.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى أنّ للرّجل أن يطلّق زوجته مرّتين ويراجعها، أراد أن يذكر حكم من طلّق المرّة الثّالثة، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

(فإن طلّقها) للمرّة الثّالثة **(فلا تحلّ له)** لا بالرّجعة ولا بنكاح جديد **(من بعد)**، أي من بعد هذه الطلقة **(حتّى تنكح زوجاً غيره)** غير الزّوج الأوّل بنكاح صحيح ودخل بها، **(فإن طلقها)** الزّوج الثّاني بطبيعته وانقضت عدّتها منه **(فلا جناح عليهما)**، أي على المرأة والزّوج الأوّل أن يتراجعا بنكاح جديد **(إن ظنّا أن يقيما)** بعد ذلك **(حدود الله)** من حسن المعاشرة والقيام بواجبات الزّواج، **(وتلك)** الأحكام التي ذُكرت **(حدود اللّه يبيّنها لقوم يعلمون)**، أي يستعدّون للعلم ويحبّون أن **يعلموا** ويعملوا بها، وإلّا فغيرهم كالبهائم والأنعام، بل هم أضلّ سبيلا.

* * *

تنبيه: قد تبيّن من الآيات السّابقة أنّ الرّجل يجوز له أن يطلّق امرأته مرّتين، وإنّه يجوز له أن يراجعها في المرّة الأولى في عدّتها وأن يجدّد نكاحها بعد انقضاء العدّة، وكذلك في المرّة الثّانية له الرّجوع في العدّة وتجديد النّكاح بعدها، وأنّه إذا طلّقها مرّة

ثالثة فلا يجوز له الرّجوع إليها إلّا بعد أن تتزّوج زوجاً آخر وتُطلّق منه، وتنقضي عدّتها من الزوج الثاني، فالحاصل إنّ للرجل ثلاث طلقات مفرّقة على ثلاث مرّات، فلو أراد أن يجمع هذه الطلقات الثّلاث في مرّة واحدة بأن يقول طلقتها ثلاثاً فهل تقع الثّلاث وتكون بائنة كبرى لا ترجع إلّا بعد التحليل أولا؟ فعند المذاهب الأربعة الحنفي والمالكي والشّافعي والحنبلي (ﷺ) له ذلك، ويقع طلاقها الثّلاث ولا ترجع إلّا بالتحليل. وعند الإمامية وجماعة من المحدثين وابن القيم وابن تيميّة وأربعة من صحابة رسول الله (ﷺ) أنّه لا تقع الثّلاث، بل تقع واحدة فقط فله الرّجعة عليها، وقال بعض العلماء لا يقع به شيء، لأنه أوقع الطّلاق مخالفاً للشّرع، وما خالف الشّرع فهو فاسد والفاسد لا يعتدّ به فلا يقع عليه شيء، وفي هذه المسألة خلاف كبير، ولكلّ جانب أدلّته النّقلية والعقلية تجدها في كتب الفقه المقارن، ولكلّ وجهة هو مولّيها، والله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

تنبيه ثان: التحليل هو أنّ تطلّق المرأة من رجل فتتزوج بطبيعتها من رجل آخر، ثمّ بطبيعة الحال طلّقت منه وانقضت عدّتها، وخطبها الزّوج الأوّل، فتزوّجها مرّة ثانية، وأمّا التحليل الذي تعوّده النّاس: وهو أنّهم يزوّجون المرأة من آخر ليطلّقها بعد الدّخول بها لتحلّ للزّوج الأوّل، وهذا فيه خلاف، فعند الشّافعي لا بأس به، ويصحّ النّكاح وتحلّ للأوّل ما لم يُذكر شرط التحليل والطّلاق في العقد، وحمل الأحاديث الواردة في ذمّه على هذه الصّورة، وعند أبي حنيفة وزفر العقد صحيح وإن اشترط في ذلك العقد، إلّا أنّه يلغي الشّرط، وعند أبي يوسف العقد فاسد، وعند محمّد العقد صحيح إلّا أنّه لا تحلّ للأوّل. وعند أحمد ومالك العقد باطل، سواء ذُكر الشّرط في العقد أو لا، لأن المنوي والمتفق عليه خارج العقد كالمذكور فيه.

* * *

فائــدة: لا تحلّ المرأة للزّوج الأوّل إلّا بعد نكاح صحيح من آخر ووطئه لها، وعند من يحرّم التحليل المعتاد يشترط أن يكون النّكاح لرغبة لا للتّحليل، وعند الباقي لا يشترط ذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

كان رجل من الأنصار يقال له(ثابت بن يسار) طلّق امرأته فقبل أن تنتهي عدّتها بقليل راجعها، ثم طلّقها وأراد بذلك ضراراً بها بتطويل العدّة عليها، فنزلت الآية **(وإذا طلّقتم النّساء)** طلقة رجعية **(فبلغن أجلهنّ)**، أي قرب انتهاء أجل عدّتهنّ **(فأمسكوهن)** ـ راجعوهن ـ **(بمعروف)** بقصد الزوجيّة والمعاشرة الحسنة، **(أو سرّحوهنّ بمعروف)** بأن لا تراجعوهن فتتركوهنّ إلى أن تنقضي عدّتهنّ فتتزّوجن من شئن، **(ولا تمسكوهنّ)** ـ ولا تراجعوهن ـ **(ضراراً)** لمجرّد قصد الإضرار بهنّ بتطليقهنّ بعد ذلك وتطويل العدّة عليهنّ، كما قال: **(لتعتدوا)**، أي لتظلموهنّ بتطويل العدّة عليهنّ بهذه الطريقة، **(ومن يفعل ذلك)** في حقّ النّساء **(فقد ظلم نفسه)**، لأنّه حملها على المعصيّة واستحقاق العذاب يوم القيامة، **(ولا تتّخذوا)** ـ أي ولا تجعلوا ـ **(آيات اللّه)**، أي أحكامه **(هزواً)** لعباً تلعبون بها، أي ولا تقدّموا على حكم من أحكام اللّه إلّا بنيّة صحيحة وقصد سليم، فالرّجعة حكم من أحكام اللّه تعالى فلا تفعلوها إلّا بقصد الرّجوع إلى المعاشرة الحسنة لا بقصد الإضرار بالزّوجة، **(واذكروا)**، أي واشكروا **(نعمة اللّه عليكم)**، وهو الإيمان والإسلام **(وما أنزل)** ، **أي** واشكروا **(ما أنزل عليكم من الكتاب)** وهو القرآن بالعمل به وتطبيقه، **(والحكمة)** وهي السّنة النّبويّة باتّباعها، وقد أنزل اللّه الكتاب لأنّه **(يعظكم به)** بالكتاب، **(واتّقوا اللّه)** فلا تخالفوا أمره، **(واعلموا أنّ اللّه بكلّ شيء عليم)**، فيعاقبكم على ما تعملونه بقصد السّوء والإضرار ويثيبكم على ما تفعلونه بالنّيّة الحسنة وإرادة الخير بالنّاس، فهذه الآية كانت نصيحة للأزواج ألّا يقصدوا الإضرار بالزّوجات، والآية الآتية نصيحة لأولياء النّساء ألّا يقصدوا الضّرر بمولياتهم إن أردن الرّجوع إلى أزواجهنّ، حيث ورد أن (معقل بن يسار) كانت أخته تحت (ابن البداح) فطلّقها وتركها حتّى انقضت عدّتها، ثمّ خطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوّجها، وقال لها: وجهي من وجهك حرام إن تزوّجته، فنزلت الآية، فدعا رسول اللّه (ﷺ) معقلاً، وقال له : إن كنت تؤمن باللّه واليوم الآخر فلا تمنع أختك من أبي البداح، فقال: آمنت فتزوّجها والآية هي:

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

(**وإذا طلّقتم النّساء فبلغن أجلهنّ**)، أي فانقضت عدّتهن بقرينة قوله: (**فلا تعضلوهنّ**) ـ فلا تمنعوهن ـ (**أن ينكحن**) من كانوا (**أزواجهنّ**) قبل، فإنّ النّكاح لا يحتاج إليه إلّا بعد انقضاء العدّة (**إذا تراضوا بينهم**)، أي الأزواج والزّوجات بتجديد النّكاح (**بالمعروف**)، أي رضاءً موافقاً للشّرع، (**ذلك**) الحكم (**يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر**)، لأنّ الإيمان يدفع بالمرء إلى الامتثال، (**ذلكم**) أي عدم المنع من تجديد النّكاح بينهم (**أزكى**)ـ خير ـ (**لكم وأطهر**) وأطيب، (**واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون**) ممّا بينهما من الوشيجة وحبّ الاتفاق. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى الطّلاق وقد يكون للمطلّقات أطفال رضع، أراد تعالى أن يذكر حكم الطفل من حيث الرّضاع وما يتعلّق به، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

(**والوالدات**) اللاتي طُلّقن ولهنّ ولد من المطلّق، ويقال إنّ الحكم عام لكلّ الوالدات وإن ذكر هنا (**يرضعن أولادهن**)، أي فليرضعن أولادهن، والأمر للنّدب، فالأمّ أولى برضاع ولدها إذا لم توجد مرضعة أو وجدت ولم يقبل الولد ثديها، فحينئذٍ يجب على الأمّ مقابل أجرة، فإن أرادت مبلغاً طائلاً تجبر على أجرة المثل، إن أبى الوالد إعطاء ما أرادت، أو أراد الأب مبلغاً قليلاً أجبر على أجرة المثل أيضاً، فترضع الأمّ أو المرضعة الولد (**حولين كاملين**)، أي سنتين تامّتين قمريّتين (**لمن أراد أن يتمّ الرّضاعة**)، أي أن يتمّ مدّة الرّضاع، ومن لم يرد الإتمام اقتصر على ما أراد إلّا أن يتضرّر به الولد

فيجب الإتمام أو مقداراً لا يتضرّر به، **(وعلى المولود له)** وهو الأب، وذكر بهذه العبارة للدّلالة على علّة وجوب الرّزق والكسوة عليه، فكأنه قال: عليه، لأنّها ولدت الولد له، فعليه مدّة الرّضاعة **(رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف)** أي بحسب ما تعارف النّاس على مقداره، وحسب يسار الأب وإعساره **(لا تكلّف نفس إلّا وسعها)**، إلّا ما تستطيعها، **(لا تضارّ والدة)**، أي لا يلحق الضّرر بها **(بولدها)** بسبب ولدها، فلا تجبر على رضاعة دون أجرة ولا بدون أجرة المثل، **(ولا مولود له بولده)** بأن يجبر على ما يشقّ عليه من أجرة الرّضاع أو نفقة الأمّ المرضعة، **(وعلى الوارث)**، أي على وليّ الطّفل إن لم يبق أبوه **(مثل ذلك)** أجرة الرّضاع ونفقة المرضعة من مال الطّفل إن كان له مال، وإلّا فتؤخذ النّفقة ممّن كان يرث الابن لو كان عنده مال ومات فيجبرون على ذلك عند أحمد (رحمه الله)، وعند أبي حنيفة: هي على كلّ ذي رحم محرم، وقال بعضهم: إن لم يكن للطّفل مال فعلى الأمّ إرضاعه بدون أجرة ونفقة ولا يجبر على ذلك سوى الأبوين، وبذلك قال مالك والشّافعي (رحمهما الله). **(فإن أرادا)** أي الأب والأمّ **(فصالاً)** للولد عن الرّضاع قبل تمام الحولين **(عن تراض منهما)** من الجانبين، وبشرط **(تشاور)** لأهل العلم وثبوت أنّ الفطام لا يضرّ الولد، فحينئذ **(فلا جناح)** ـ فلا إثم ـ **(عليهما)** في الفطام والفصال، **(وإن أردتم)** أيّها الآباء أو الأوصياء **(أن تسترضعوا أولادكم)**، أي تستأجروا لأولادكم مرضعات غير الأمّهات **(فلا جناح عليكم)** بشروط: **الأوّل**: ألّا يتضرّر الولد بلبن غير أمّه، فإنّ لبنها أصلح له.

الثاني: ألّا تقبل الأمّ بنفس الأجرة التي تعطي لغيرها، وإلّا فهي أولى.

الثالث: هو ما قال تعالى: **(إذا سلّمتم)** إلى الأمّهات **(ما آتيتم)**، ما أنفقتم عليه من أجرة الرّضاع الذي أرضعته قبل الاسترضاع، **(واتّقوا اللّه)** في عدم مخالفة هذه الأحكام، **(واعلموا انّ اللّه بما تعملون بصير)**، فيجازيكم عليه بالثّواب إن كان خيراً وبالعذاب إن كان شرّاً. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحكام المطلّقات أراد أن يذكر أحكام المتوفّى عنها زوجها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

(والذين يتوفّون) يموتون **(منكم)** أيّها الرّجال **(ويذرون أزواجاً)** لهم **(يتربّصن)**، يجب على تلك الأزواج أن يتربّصن وينتظرن **(بأنفسهن)**، فيمنعنها من الزّواج مدّة تكون **(أربعة أشهر)** قمرية **(وعشراً)** من الأيام، **(فإذا بلغن)** ـ أكملن وأتممن ـ **(أجلهن)** الذي فُرض عليهن وهو أربعة أشهر وعشرة أيّام **(فلا جناح عليكم)**، فلا إثم عليكم **(فيما فعلن)** تلك الأزواج **(في أنفسهن)** من التّزيّن والتطيّب والتّزوج **(بالمعروف)**، أي بما حلّ لهنّ دون الحرام، وفي قوله: (فلا جناح... إلخ) دليل على أنّ الشّعب مكلّف بمنع الأفراد من مخالفة الشّريعة وارتكاب المحرّمات[١] **(واللّه بما تعملون خبير)** فيجازيكم عليه.

* * *

وهنا مسائل: المسألة الأولى: عدّة المتوفّى عنها زوجها أربعة أشهر وعشرة أيّام، كما في الآية إذا لم تكن حاملاً، وإلّا فعدّتها تنقضي بوضع حملها ولو بعد ساعة من وفاة الزّوج أو أقلّ أو أكثر.

المسألة الثانية: إنّ ابتداء العدّة تعتبر من الوفاة لا من العلم بالوفاة، فلو مات ولم تعلم بالوفاة زوجته إلّا بعد أربعة أشهر وعشرة أيّام فقد انقضت عدّتها، وقيل تبدأ من العلم بالوفاة لا من الوفاة، والأوّل أصحّ وهو قول الجمهور.

المسألة الثالثة: يجب على المتوفّى عنها زوجها الإحداد مدّة العدّة، والإحداد هو ترك كلّ زينة وطيب وخروج من البيت إلّا لضرورة، فإن خرجت لضرورة رجعت إلى بيتها فوراً، ولا يجوز الإحداد على أحد أكثر من ثلاث إلّا للزّوج على زوجها. عن عائشة (رضي الله عنها): أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (لا يحلّ لامرأة تؤمن باللّه واليوم الآخر أن تحدّ على ميّت فوق ثلاث ليال إلّا على زوج أربعة أشهر وعشراً)[٢].

---

(١) وجه الدلالة أن الخطاب بصيغة الجمع (فلا جناح عليكم) موجه للمجتمع حولها، ولم يقل فلا جناح عليها، ما يدل على عدم منعها من قبل المجتمع فيما فعلت في نفسها للتهيؤ للزواج مرة أخرى، مفهومه المخالف أنها إذا فعلت ما يخالف الشرع فالجناح على المجتمع كله فيجب أن يمنعوها، ما يدل على أن الواجب على المجتمع مراقبة الإلتزام بالأحكام الشرعية فيما بينهم وهو مايسمى بالرقابة الشعبية في العصر الحديث، لذلك قال الشيخ رحمه الله تعالى: على الشعب...الخ.

(٢) صحيح البخاري ٥/٢٠٤٣ الحديث رقم ٥٠٢٤.

المسألة الرابعة: يحرم خطبة المعتدّة عن طلاق رجعي، فلا يجوز خطبتها لا صراحة ولا كناية ولا تعريضاً، لأنّها في حكم الزوجة لزوجها، وكذلك يحرم خطبة المعتدّة عن طلاق بائن بينونة صغرى، وهي التي يجوز للزوج أن يتزوّجها مجدّداً دون تحليل، لأنّ زوجها أحقّ بها، إلّا إذا حصل اليأس من الزّوج.

❊ ❊ ❊

وأمّا المتوفّى عنها زوجها فتحرم خطبتها في العدّة صراحة لا تعريضاً أو كناية، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

(ولا جناح) ـ ولا إثم ـ **(عليكم)** أيّها الرّجال **(فيما)** في الكلام الذي **(عرضتم)**، أي أشرتم **(به)** إلى ما قصدتم **(من خطبة النّساء)** المعتدّة عن الوفاة، بأن تقولوا لهنّ كلاماً يشير إلى رغبتكم في زواجهنّ. **(علم اللّه أنّكم ستذكرونهن)** في العدّة فاذكروهنّ **(ولكن لا تواعدوهن سرّاً)**. أي لا تذكروهنّ بما يصرح بالخطبة أو السرّ وهو الجماع، فلا يجوز لكم أن تذكروا شيئاً **(إلّا أن تقولوا قولاً معروفاً)**، كأن تقولوا إنّك صالحة أو مثلك يرغب فيها الرّجال، أو إنّي راغب في زواج، **(ولا تعزموا عقدة النّكاح حتّى يبلغ الكتاب)**، أي ما كتب عليها من العدّة **(أجله)** المحدّد له، وهو أربعة أشهر وعشرة أيّام، أو وضع الحمل، فالنّكاح في العدّة أيّ عدّة كانت، عدّة رجعية أو بائنة من الطّلاق أو من الوفاة باطل بدون خلاف، **(واعلموا أنّ اللّه يعلم ما في أنفسكم)** من إرادتهنّ والرغبة في نكاحهن **(فاحذروه)** فخافوا عذابه عند التّصريح، **(واعلموا أنّ اللّه غفور حليم)**، فلحلمه ومغفرته لا يعجل بالعقوبة على ما تظهرون من خطبة المعتدّات صراحة، اعلم أنّ المرأة إذا نكحت بدون مهر وطلّقت قبل أن يدخل بها الزّوج فليس لها شيء من الصّداق على الزّوج، بل لها المتعة عليه فقط. وإن طلّقت بعد الدّخول بها وجب لها مهر المثل، وإن نكحت وعيّن لها مهر وطلّقت قبل الدّخول بها فلها نصف المهر المسمّى أي المعيّن، وأشار تعالى الى ذلك في الآيتين، فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

(**لا جناح**)، أي لا مهر ولا صداق عليكم (**إن طلّقتم النّساء ما لم تمسّوهنّ**)، أي ما لم تدخلوا بهنّ، (**أو**) بمعنى الواو، أي و(**تفرضوا**)، أي ودون أن تعيّنوا لهنّ (**فريضة**) صداقاً، (**ومتّعوهنّ**) ، أي ولكن (متّعوهن)، أي أعطوهن شيئاً من المال، (**على الموسع**) أي الغنيّ (**قدره**) ما يليق به، (**وعلى المقتر**)، أي المقلّ (**قدره**) ما يليق به (**متاعاً**)، أي متّعوهنّ متاعاً (**بالمعروف**)، أي حسب العرف، وكان هذا المتاع (**حقّاً على المحسنين**) فعليهم أداؤه. وقال تعالى (**ما لم تمسّوهن**) لأنّه لومسّها، أي دخل بها الزّوج فلها مهر المثل إن لم يكن عيّن لها الصّداق وإن عيّن فيجب كلّ الصّداق بالدخول، ونصفه قبل الدّخول، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾

(**وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن**)، أي قبل الدّخول بهنّ، (**وقد فرضتم**) وقد عيّنتم لهنّ فريضة صداقاً (**فنصف ما فرضتم**) يجب عليكم أداؤه إليهنّ، (**إلّا أن يعفون**) أي الزّوجات فلا يأخذن شيئاً ممّا عيّن لهن، (**أو يعفو الذي بيده عقدة النّكاح**) وهو الزّوج، فيعطي كلّ ما عيّن لها، وهذا المعنى لابن عباس، وأخذ به الشّافعي في قوله القديم ومالك (ﷺ)، أو المراد (إلّا أن يعفون) أي الزّوجات إن كن بالغات، (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وهو وليّهنّ إذا كنّ صغيرات، وهذا تفسير **علي** وابن عباس في رواية أخرى عنه، وبه أخذ أبو حنيفة وأحمد والشّافعي في قوله الجديد وجمهور الفقهاء، فلوليّ الزّوجة أن يعفو عن صداقها إذا كانت صغيرة عند هؤلاء، (**وأن تعفوا**)، أي وأنّ عفوكم بعضكم عن بعض ـ الزّوج عن الزّوجة أو بالعكس ـ (**أقرب للتّقوى ولا تنسوا الفضل**)، أي الكرم والسّماح بينكم، (**إنّ اللّه بما تعملون بصير**) فيجازيكم عليه، هذا ما قاله المفسّرون، وعندي أنّ الأحوال ثلاثة، فإنّه إمّا أن تكون الزّوجة كبيرة، فقال تعالى في هذه الصورة: (**إلا أن يعفون**) أي الزوجات أو تكون المرأة صغيرة فذكر تعالى

لهذه الصورة قوله: (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح)، وهو وليّ الزّوجة الصغيرة، والصّورة الثّالثة أن يعفو الزّوج، فيعطى المهر كلّه ولا ينصفه، فذكر تعالى لهذه الصّورة قوله (وأن تعفوا)، أي وأنّ عفوكم أيّها الأزواج عن النّصف الآخر بإعطاء كلّ المهر أقرب للتّقوى، **(ولا تنسوا الفضل بينكم إنّ الله بما تعملون بصير)** وبدون هذا المعنى تكون إحدى الصّور الثلاث غير مذكورة، وهي موجودة بين النّاس واللّه تعالى أعلم.

وقال هنا أيضاً: **(من قبل أن تمسّوهن)**، لأنه بالمسّ يجب المهر المعيّن كلّه، وهذا كلّه في المطلّقة، وأمّا المتوفّى عنها زوجها أو التّي توفّيت عن الزّوج فيجب في الصّورتين كلّ المهر المسمّى، سواء مسّها أو لا، وإن لم يسمّ لها المهر فلها مهر مثلها عند أحمد، وعند مالك لا مهر لها، وعند أبي حنيفة لها مهر المثل إن كانت مسلمة، وإن كانت ذميّة فلا مهر لها، وفي رواية لأحمد لها نصف مهر المثل وللشّافعي قولان، لها كلّ مهر المثل أو نصفه.

* * *

هذا وهنا مسائل تتعلّق بالمتعة: المسألة الأولى: المرأة المطلّقة التي لم يدخل بها الزّوج ولم يعيّن لها صداق لها المتعة فقط،، والمتعة واجبة عند أبي حنيفة والشّافعي وأحمد (رحمهم الله)، وعند المالكية هي سنّة، وحمل ما في الآية على النّدب والاستحباب.

المسألة الثانية: لا متعة للمطلّقة غير المدخول بها التي عيّن لها المهر، بل لها نصف ما عيّن من المهر فقط.

المسألة الثالثة: المطلّقة المدخول بها لا تستحقّ المتعة في القول القديم للشّافعي، لأنها تستلم المهر المسمّى أو مهر المثل، وبذلك قال أبو حنيفة وهو إحدى الروايتين عن أحمد، وفي رواية عنه أنّها تستحقّ المتعة وهو القول الجديد للشّافعي.

المسألة الرابعة: إنّ مقدار ما يعطى في المتعة فيه أقوال: الأصحّ أنّه يقدّر حسب العادة والعرف والزّمان والمكان وسعة الزّوج وإقتاره، ويكون مربوطاً باجتهاد الحاكم أو أهل الخبرة.

المسألة الخامسة: إنّ من تزوّج امرأة بالغة برضاها بدون مهر صحّ النّكاح، ولها مطالبته بأن يفرض لها مهراً، فإن دخل بها قبل الفرض، فلها عليه مهر مثلها، وإن طلّقها قبل الفرض والدخول فلا مهر لها، بل لها المتعة واللّه تعالى أعلم.

* * *

اعلم أنّ الآيات السّابقة والتّي تأتي بعد آية الصّلاة كلّها تتعلّق بحقوق النّاس وحسن الصّلة معهم، وفي وسط هذه الآيات تأتي آية الصّلاة إشارة إلى أنّه لا ينبغي أن تكون حسن الصّلة مع النّاس سبباً وباعثاً على الغفلة عن حسن الصّلة مع اللّه تعالى، فقال جلّ وعلا:

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

(حافظوا على الصّلوات) كلّها بأدائها وعدم تفويتها وباستيفاء أركانها وشروطها، **(و)** حافظوا خاصّة على **(الصّلاة الوسطى)**، أي الصّلاة الأفضل، وقد ورد في تعيين الصّلاة الوسطى عشرة أقوال:

١- إنّها الظّهر.

٢ ـ إنّها العصر.

٣ ـ إنّها المغرب.

٤ ـ إنّها العشاء.

٥- إنّها الصّبح.

٦ ـ إنّها صلاة الجمعة.

٧ ـ الصّبح والعصر معاً.

٨- العتمة والصّبح معاً.

٩ ـ إنّها الصّلوات الخمس كلّها.

١٠- إنّها غير معيّنة، أخفاها اللّه تعالى حتّى يحافظ المسلم على كلّ الصّلوات لتدخل فيها، كما أخفى ليلة القدر ليحي المرء ليالي العشر الأخيرة من رمضان كلّها، وأخفى ساعة الإجابة يوم الجمعة ليشتغل المسلم كلّ ساعات يوم الجمعة بالعبادة والدّعوات.

* * *

(وقوموا) واعبدوا وصلّوا **(للّه)** لا لأمر آخر غير رضائه **(قانتين)** خاشعين، وقال

بعض الفضلاء هذا بيان للصّلاة الوسطى، فالمعنى وحافظوا على أن تكون صلاتكم وسطى أي فضلى، وذلك يكون بالخشوع، فاخشعوا (**وقوموا للّه قانتين**) أي خاشعين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

(**فإن خفتم**) من هجوم عدوّ أو سبع فلم تستطيعوا أن تصلّوا كما هي الصّلاة (**فـ**) صلّوا (**رجالاً**) وأنتم تمشون (**أو ركباناً**) وأنتم راكبون، وكيف أمكن لكم أن تصلّوا فصلّوا كذلك، (**فإذا أمنتم فاذكروا اللّه كما علّمكم**) من كيفية الصّلاة وأركانها وآدابها وواجباتها (**ما لم تكونوا تعلمون**) إياها قبل مجيء الرسول (ﷺ) فالضمير في (كما) علّمكم إمّا راجع إلى اللّه تعالى، أي علّمكم بواسطة الرّسول (ﷺ)، وتسمّى هذه الصّلاة صلاة الخوف تصلّيها كيفما أمكنت الصّلاة، وكذلك يصلّى كيفما أمكن المسافر بالطائرات أو القطارات، فيصلي قائماً أو قاعداً متّجهاً إلى القبلة أولاً وحسب الطاقة والوسع. ثمّ بعد أن ذكّر اللّه تعالى عباده بذاته وحسن الصّلة معه أعاد الكلام إلى ما يتعلّق بحقوق النّاس وحسن الصّلة بهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

(**والذين يتوفّون**) يموتون (**منكم**) أيّها الرّجال (**ويذرون أزواجاً**) زوجات يوصيكم اللّه تعالى (**وصيّة لأزواجهم**) أن تمتّعوهنّ، أي تنفقوا عليهنّ (**متاعاً**) إنفاقاً (**إلى الحول**)، أي إلى تمام السّنة من وفاة الزّوج (**غير إخراج**) لهنّ من مسكنهنّ إلى نهاية الحول، فإن خرجنَ بطيب أنفسهن بدون ضغط منكم (**فلا جناح عليكم**) يا أهل الميّت (**فيما فعلن في أنفسهن من معروف**) من التّزيّن والتطيّب وطلب الزّواج بعد انقضاء العدّة، ويقال إنّ هذه الآية تدلّ على أنّ هذه كانت عدّة المتوفّى عنها زوجها، وكان واجباً نفقتها وسكناها إلى الحول، فنسخ كون الحول عدّة بأربعة أشهر وعشرة أيّام، ونسخت النّفقة والسّكنى بالإرث، وعند بعض إنّها ليست منسوخة لأنّها لا تدلّ على أنّ حول عدّتها، وإنّ بقاءها في المسكن واجب عليها، بل تدلّ على أنّها مختارة بين البقاء في المسكن

والخروج منها بعد العدّة، فإن بقيت فلا يجوز إخراجها منه إلى الحول، فلا تعارض بين آية العدّة وهذه الآية لتنسخ هذه بتلك، واللّه تعالى أعلم، وتسقط النّفقة والسّكن بخروجها وتبقى ببقائها إلى الحول، واللّه تعالى أعلم، **(واللّه عزيز حكيم)** قد مرّ معناه مراراً.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

قد مرّ حكم المتعة وأعيد هنا ليعمّ كلّ مطلّقة، أو لأنّ الأوّل كان مربوطاً بالإحسان فظنّ بعض النّاس أنّها ليست واجبة، فقال إن أحسنت متّعت وإن لم أحسن لم أمتّع، وهنا ربط بالتقوى ليكون نصّاً في وجوبها، **(كذلك)** مثل ما بيّن الله تعالى لكم هذه الآيات التّي تدلّ على أحكامه تعالى يبيّن لكم آياته التّي تدلّ على معجزاته وخوارق عاداته[1] **(لعلّكم تعقلون)** تلك الآيات فتؤمنوا بعظمته وقدرته، فلا تخالفوا أمره، فذكر تعالى قصّة فيها معجزة عظيمة، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾

(ألم تر)، أي ألم تنظر نظر تفكّر واعتبار فتعتبر، والخطاب عامّ، فمعناه: ألم تنظر أيّها الرّائي، والاستفهام للتنبيه والأمر بالنظر **(إلى الذين خرجوا من ديارهم)** من بلدتهم **(وهم ألوف)** من الأشخاص، وخرجوا **(حذر الموت)** أي تجنّباً من الموت ومخافة منه، ولئلا يموتوا حيث وقع في بلدتهم الوباء، فخرجوا تحفّظاً من ذلك، فلمّا وصلوا إلى مكانٍ لم يكن به وباء أراد اللّه تعالى موتهم، **(فقال لهم اللّه موتوا)** كلّكم، فماتوا

(١) أي لتحملهم الآيات الإعجازية التي فيها عبرة وبيان قدرة على امتثال الأحكام التي كلفهم بها فلا يخالفونها.وإشارة إلى أنه كما بيده الحكم التكويني الخلقي فكذلك له الحكم التكليفي الأمري كما في قوله تعالى: (ألا له الخلق والأمر) الأعراف/ ٥٤.

جميعاً، (**ثمّ**) بعد مدّة (**أحياهم إنّ اللّه لذو فضل**) أي لذو نعمة (**على النّاس**) فيبيّن لهم آياته الحكمية ليقيموا بها حياتهم، وآياته الكونية ليعتبروا، **ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون**) فلا يطبّقون آياته الحكمية ولا يعتبرون بالآيات الكونية أيضاً. ثمّ بعد أن ذكر اللّه تعالى قصّة هذا القوم وأعلمهم بأنّ الحياة والموت بإرادة اللّه تعالى، فلا يموت أحد دون إرادته، وإذا أراد به الموت فلا فرار له منه، أمرهم بالجهاد وعدم الخوف من الموت، فكأنّ الله تعالى قال فلا تخافوا إذاً، فقال:

(**وقاتلوا في سبيل**) نشر دين (**اللّه**) في الأرض (**واعلموا أنّ اللّه سميع**) بأقوالكم (**عليم**) بأعمالكم فيجازيكم عليها. ثمّ بعد أن أمرهم اللّه تعالى بالجهاد بالنّفس وهو القتال، أراد أن يأمرهم بالجهاد بالمال، فقال جلّ وعلا:

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

(**من ذا الّذي يقرض اللّه**)، بأن ينفق في سبيل الجهاد أو غيره من الخيرات (**قرضاً حسناً**) لا يريد به إلّا ابتغاء وجه اللّه تعالى (**فيضاعفه**) الله له (**أضعافاً كثيرةً**) ـ الواحد بعشرة إلى سبعمائة ضعف أو أكثر ـ (**واللّه يقبض**) يضيق الرّزق على من يشاء (**ويبسط**)، ويوسّع الرّزق لمن يشاء، وليس هو بحاجة إلى إنفاقكم إلّا أنّه فرض عليكم ذلك امتحاناً لكم (**وإليه ترجعون**) يوم القيامة، فيثيب من نجح في هذا الامتحان بالأجر الكثير، ويعاقب من رسب بالعذاب الوفير.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال قوم من بني إسرائيل في قتالٍ وقع منهم ليعتبر بهم المؤمنون فيقتدوا بالثّابتين منهم ولا يقتدوا بالمنهزمين، فقال جلَّ وعلا:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰٓ إِذۡ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبۡعَثۡ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنۡهُمۡ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

(**ألم تر**)، أي ألم تنظر أيّها المسلم نظر اعتبار (**إلى الملأ**) القوم (**من بني إسرائيل من بعد**) وفاة (**موسى**) (عليه السلام) وبعدما استولى على ديارهم العدوّ، أي أنظر حالهم (**إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا**) اختر لنا (**ملكاً**) يسوسنا ويقودنا، فإن كان لنا ملك (**نقاتل في سبيل اللّه**) العدوّ الذي استولى على ديارنا ومقدّساتنا، (**قال**) نبيّهم (**هل**)، أي قد (**عسيتم إن كتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا**)، ومعناه إنّي أتوقّع منكم ذلك، وأنّكم لا تقاتلون، (**قالوا ما لنا**)، أي: أيُّ عذر لنا في (**ألّا نقاتل في سبيل اللّه**) والحال يدعوننا إلى القتال، حيث (**وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا**) ـ حيث أسر جالوت كثيراً من أبنائهم بعدما أخرجهم من فلسطين ـ (**فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلّا قليلاً منهم**) وصدق ظنّ نبيّهم فيهم، (**واللّه عليم بالظّالمين**)، وهم الذين تولّوا عن القتال فيعذّبهم على ذلك التولّي. وقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

(**وقال لهم نبيّهم**) بعد أن طلبوا اختيار ملك لهم: (**إنّ اللّهَ قد بعث**) اختار (**لكم**) رجلاً كان يسمّى (**طالوت ملكاً**) عليكم وقائداً لكم، (**قالوا أنّى**) كيف (**يكون له الملك**) السّيطرة والسّلطان علينا (**ونحن أحقّ بالملك منه**)، لأنّنا من أبناء الملوك، وطالوت (**ولم يؤت سعة**) كثرة (**من المال**) فيستحقّ بذلك القيادة والسّيادة، فقد كان اليهود لا يؤمنون إلّا بالنّسب أو المال، وإنّ صاحب النّسب هو الأحقّ بالملك والسّيادة عندهم أو صاحب المال، وهذه عقيدة يهودية، فمن كان عليها فهو على عقيدة اليهود فليحذر، (**قال**) لهم نبيّهم إنّه ليس من شرط القيادة النّسب أو الغنى، بل من شرط القيادة اختيار اللّه وإرادته إيتاءها للشخص واستعداده البدنيّ والعمليّ للسّيادة والقيادة والكلّ موجود في طالوت، حيث (**إنّ اللّه اصطفاه**) اختاره (**عليكم**) للقيادة والسّيادة (**وزاده بسطة في العلم**) بالقيادة والسّياسة (**والجسم**)، بحيث يصلح جسمه للعمل بنشاط وجدّ، وليس من مقوّمات القائد إلّا ذلك، وهو صحّة الجسم والعلم

بالقيادة واختيار اللّه تعالى له[١]، وليس لأحد أن يحكم على اللّه بإيتاء الملك لفلان أو غيره، بل هو مختار **(واللّه يؤتي ملكه من يشاء)** من النّاس، **(واللّه واسع عليم)**، أي واسع علمه فيعلم من يصلح للسّياسة والقيادة، ثمّ إنّه كان من طبيعة اليهود أنّهم لا يصدّقون أنبياءهم ولا ينقادون لأوامرهم إلّا بعد أن يظهروا لهم خارق عادة، فطلبوا من النّبيّ أن يظهر لهم خارقة تدلّ على صدقه في أنّ اللّه تعالى اختار طالوت ملكاً، فذكر تعالى ذلك، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

(وقال لهم نبيّهم إنّ آية) علامة صدق **(ملكه)** ـ أي طالوت ـ **(أن يأتيكم التّابوت)**، أي الصندوق الذي كان عند موسى (ﷺ) فيجعله في الجيش، وبسببه تنزل عليكم السكينة، فيأتيكم هذا التّابوت **(فيه سكينة من ربكم)** لكم حين الحرب، **(و)** فيه **(بقيّة ممّا ترك)** من الآثار التي تركها **(آل موسى وآل هارون)** (ﷺ)، وإنّ التّابوت **(تحمله الملائكة)** فتأتي به إليكم، **(إنّ في ذلك)** وهو مجيء التّابوت وحمل الملائكة له **(لآية)** عظيمة **(لكم إن كنتم مؤمنين)** تصدّقون قولي في أنّ اللّه تعالى اختار لكم طالوت ملكاً، فجاء التّابوت وأطمأنّوا وانقادوا لقيادة طالوت.

ثمّ جمع طالوت الجنود وأراد أن يمتحن تحمّلهم وصبرهم وامتثالهم للأوامر ليطهّر الجيش من ضعاف القلوب والإيمان، لأنّ وجود مثل هؤلاء يضرّ في الحرب، لأنّهم ينهزمون عند الشّدة، فيصيرون سبباً لانهزام الجيش كلّه وضعف عزيمتهم كلّهم فامتحنهم، كما قال جلّ وعلا:

---

(١) تعيينا لطالوت هنا، وتقديرا على العموم وفق أسبابه التي جعلها الله تعالى من سنته أن تعمل وتوجد النتائج بعدها، فلا يعني هذا إلغاء الأسباب بل هو إشارة إلى أن القوة والعلم هما ركنا الحكم والسيادة، وهو أمر للمسلمين بدليل الإشارة إلى إيجاد القوة والعلوم التي بها تحصل السيادة، لا بالشعارات والهتافات والدعوات والعواطف.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾

(فلما فصل)، أي خَرَجَ **(طالوت بالجنود)**، بالجيش من البلد متّجهاً إلى العمالقة لمحاربتهم، وكان جيشه كثيراً جداً، حيث أنّهم حينما رأوا التّابوت ذهب عنهم الخوف، فلحق به الصغير والكبير والشيخ والشّاب، فامتحنهم بأن **(قال إنّ اللّه مبتليكم)**، أي يختبركم **(بنهر)** ـ قيل هذا النهر موجود بين الأردن وفلسطين، ولكن لم يعيّن بلد طالوت ولا النّهر ـ لأنّ القصة تؤتى بها في القرآن للعبرة، ولاحاجة إلى تعيين الأمكنة، **(فمن شرب منه)** كثيراً **(فليس)** هو **(منّي)** ـ من اتباعي ـ فليرجع، **(ومن لم يطعمه)** كثيراً **(فإنّه منّي)**ـمن اتباعي وجنودي ـ فليبق **(إلّا من اغترف غرفة)** قليلة **(بيده)** وبقدر الحاجة فلا بأس به، فلمّا وصلوا النّهر وكان الوقت صيفاً وهم عطاش فلم يتحمّل ضعفاء النّفوس، **(فشربوا)** أي الجنود **(منه)** من النّهر شرباً كثيراً **(إلّا قليلاً منهم)** لم يشربوا إلّا بقدر ما أجاز لهم القائد، **(فلما جاوزه هو)** طالوت **(والذين آمنوا معه)** النّهر، **(قالوا)** أي الذين شربوا من النّهر كثيراً **(لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده)** فرجعوا[1] و**(قال الذين يظنّون)** يؤمنون **(أنّهم ملاقو اللّه)** أنّهم يستشهدون في المعركة لا نرجع، بل نقاتل ونأمل النّصر، حيث **(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه)**، أي بإرادته وتأييده ونصره، **(واللّه مع الصّابرين)** فينصرهم، نصبر ليكون اللّه معنا ويتوّجنا بالنصر المبين فذهبوا.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾

---

(١) أي الذين شربوا منه كثيرا لم يستطيعوا مجاوزة النهر، فجاوزه طالوت والذين آمنوا معه ممن لم يشربوا منه.

(ولمّا برزوا)، أي ولمّا ظهروا **(لجالوت وجنوده)** ووقفوا مقابلهم وجهاً بوجه توجّهوا إلى اللّه تعالى و**(قالوا ربّنا افرغ)** أنزل علينا **(صبراً)** وصمَوداً مقابل العدوّ**(وثبّت أقدامنا)** في أماكننا لئلّا ننهزم **(وانصرنا على القوم الكافرين)** وهم أتباع جالوت، فآتاهم اللّه تعالى النّصر.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

(فهزموهم)، أي فاستجاب اللّه تعالى دعاء المؤمنين المقاتلين، فهزموا جنود جالوت، أي فكسروهم **(بإذن اللّه)**، بإرادته تعالى ونصره، **(وقتل داود جالوت وآتاه)**، أي داود آتاه **(اللّه الملك)** فصار ملكاً **(والحكمة)** والنبوّة فصار نبيّاً، ثم بيَّن تعالى حكمته في إرادة إقامة الحروب بين النّاس، فقال جلّ وعلا: **(ولولا دفع اللّه النّاس بعضهم ببعض)** وإذلالهم **(لفسدت الأرض)** بفساد النّاس، فيدفع اللّه تعالى بالصّالحين المفسدين لتبقى الأرض سالمة من الفساد، **(ولكن اللّه ذو فضل على العالمين)** فبفضله هذا تبقى الأرض صالحة للسّكنى بنصرة الحقّ على الباطل والخير على الشّرّ ونصرة الصالحين على الفاسدين، كما قال تعالى: ﴿ولقد كتبنا في الزّبور من بعد الذّكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٥ ـ أي إن عملوا وجاهدوا بصدق وإيمان.

* * *

سؤال: لماذا لا ينتصر المسلمون اليوم؟ **الجواب:** إنّ هذا الجواب يظهر ممّا نذكر من أنّه يستفاد من هذه الآيات أمور: **الأوّل:** إنّ الأمّة إن أرادت أن تستعيد كرامتها ومجدها والتّحرر من سيطرة الأجنبي فلا بدّ لها أن تنظّم أفرادها تنظيماً قويّاً وتسوقها إلى العمل الموحّد وتتّخذ لها قائداً محنكاً صالحاً أميناً ذو صحّة في الجسم والعقل والعلم، واستفيد ذلك من قولهم: (ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل اللّه)[١].

---

(١) لذلك أجمع العلماء على عدم جواز الجهاد العسكري إلا بوجود إمام، أي رئيس دولة إسلامية عادل كفوء، لأن بدون ذلك يصبح فوضى ويقتل المسلمون بعضهم بعضا بدل جهاد الكفار فلا يحقق أغراض الجهاد ولا نتائجه.

الثاني: إنّ الحقيق بالقيادة ليست بالإرث والنّسب أو المال، بل الحقيق بها من يكون صحيح الجسم يستطيع القيام باعباء القيادة وأن يكون له العلم بالقيادة وكيفيّة سياسة الأمور وإدارتها وقوّة العزم على ذلك ونيّة الخير والصلاح للأمّة جميعها، وذلك مستفاد من قولهم: (أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) ومن ردّ نبيّهم عليهم بقوله: (إنّ اللّه اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم).

الثالث: إنّ الاعتماد على الخوارق الكونية من طبيعة اليهود أهل التّمرد على أنبيائهم، حيث لم يقنعوا ولم يصدّقوا نبيّهم بأنّ اللّه تعالى اختار لهم طالوت ملكاً، وما انقادوا له حتّى أتاهم التّابوت، ولعمري قد اتصف المسلمون اليوم بهذه الصّفة اليهودية، فتراهم تتلو عليهم آيات اللّه تعالى، وتروي لهم أحاديث رسول اللّه (ﷺ) فلا ينقادون، في حين أنّهم حينما رأوا واحداً ساحراً أو مشعوذاً أو مستدرجاً به من اللّه تعالى يظهر لهم خارقة اتّبعوه وانقادوا له، وإن لم يكن عنده شيء من العلم بالدّين ولا صالح من الأعمال. هذا وإنّ الإيمان الذي يعتمد على الخوارق لا قيمة له، لأنّه دائماً في تزلزل وتبدّل، فإنّه حينما قال لك شخص شيئاً وصدّقته بسبب إظهاره خارقة فستكفر بذلك الشيء إن أنكره آخر وأظهر لك خارقة أكبر من الخارقة الأولى، ولذلك لم يأت رسول الإسلام بالخوارق إلّا نادراً، بل جاء بالمنطق والعقل والمفاهيم الصحيحة، فالإسلام يعتمد على العلم والعقل، فإن ما ثبت في العقل بسبب العلم فإنّه لا يزول، وكان الرّسول (ﷺ) حينما يطلب منه إظهار الخوارق يأمره اللّه تعالى بأن يقول: ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٩٣.

الرّابع: يجب للقائد أن يمتحن جيشه ويختبرهم، فيميّز بين ضعفاء النّفوس والعقيدة وأقوياء العزائم والإيمان، فيصفّي جيشه من الضّعفاء وإلّا فيكون عاقبتهم الهزيمة والخسران.

الخامس: أن يكون الاعتماد على اللّه تعالى ونصره لا على قلّة العدد وكثرته، لأنّ العبرة بقوّة الإيمان وتأييد اللّه تعالى فحسب، كما قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه والله مع الصّابرين﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٤٩.

السادس: إذا وقعت المعركة فليتوكّل الجيش على اللّه تعالى وليتضرّع إليه ويطلب منه الصّبر والثّبات حتّى النّصر، ويقول: (ربّنا افرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٠.

السابع: أن يكون الحرب لنصرة الدّين وإذلال الكفر لا للاستيلاء وبسط السّلطان على

النّاس، كما قالوا: (وانصرنا على القوم الكافرين)، أي إنّ قصدنا هو إذلال الكفر وسيادة الإيمان لا الاستيلاء على النّاس وبسط السّلطان. فإذا اجتمعت هذه الأمور كلّها ينصر اللّه تعالى الأمّة، ويُهزم أعداءهم، كما قال: (فهزموهم) بعد هذه الأمور (وقتل داود جالوت... إلخ)، فنرجو من اللّه تعالى النّصر والتّوفيق، وأن يعيد للأمّة الإسلامية مجدها وكرامتها، وما ذلك على اللّه بعزيز، واللّه على كلّ شيء قدير، وهو أرحم الرّاحمين آمين.

* * *

وفي الختام نريد أن نذكر القصّة التي أشارت إليها الآيات الكريمة ملخّصة من قصص الأنبياء لعبد الوهاب النّجار رحمه اللّه تعالى.

(القصّة)

لمّا دخل بنو إسرائيل فلسطين مع يوشع بن نون (عليه السلام) وقسّم لهم الأرضين، قام يوشع بأمرهم إلى وفاته، وبقوا بعده يقوم بأمرهم قضاة منهم، ولم يكن لهم ملك، فبقوا كذلك ثلاثمائة وستاً وخمسين سنة بعد موسى ويوشع (عليهما السلام)، وكانوا في تلك الأيّام عرضة لغزوات الأمم القريبة منهم، كالعمالقة من العرب والميديايين الأكراد والفلسطينيّين والآراميّين الرّوم وغيرهم، فكانوا مرّة يغلبون، وتارة يغلب عليهم العدوّ، وكان الأنبياء عندهم مرشدين للقضاة وواسطة بينهم وبين اللّه تعالى، ويكون النّبيّ بعض الأحيان قاضياً أيضاً، فوقع في أواسط المائة الرابعة في أيّام عالي الكاهن بين بني اسرائيل والفلسطينيّين حرب بالقرب من (غزة) وأخذ بنو إسرائيل معهم تابوت العهد وهو التّابوت الذي فيه التّوراة ليستنصروا به، فغلبهم الفلسطينيّون وأخذوا التّابوت ووضعوه في بيت داجون ـ أي بيت إلههم، أي صنمهم، وهو رأس إنسان على جسم سمكة ـ وكانت هزيمة بني إسرائيل هذه عظيمة وذلهم كان شديداً، فاجتمع بنو إسرائيل عند نبيّ لهم اسمه (صمويل)، وكان قاضياً فيهم يسكن بلدة الرّامة، وألحّوا عليه أن يقيم عليهم ملكاً منهم يأتمرون بأمره ويقودهم إلى قتال أعدائهم وإلى دفاع من يريد الإغارة عليهم، وكان (صمويل) عالماً بعقلية بني إسرائيل وما انطوت عليه أنفسهم، فقال لهم: (هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا)، فقالوا: (وما لنا ألّا نقاتل في سبيل اللّه وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا)، فما زالوا يلحّون على(صمويل) إلى أن قال لهم: (إنّ اللّه قد بعث لكم طالوت ملكاً)، وإنّ اسم طالوت في(سفر صمويل) هو(شاول بن قيس بن أبيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح) من بيت بنيامين، وكان من قصّة شاول (طالوت)

أنّه ضلّت أتن لأبيه، فقال له: خذ معك واحداً من الغلمان وفتّش عن الأتن، فأصبح طالوت يفتّش عن الأتن إلى أن وصل إلى بلدة (صمويل)، فأشار الغلام عليه أن يقصد النّبيّ (صمويل) ليدلّه على أتنه، فذهب إليه فالتقى به في وسط المدينة، فسأله فأكرمه (صمويل) وطمأنه واحترمه احتراماً كثيراً، وكان طالوت شابّاً جميلاً لم يكن في بني إسرائيل أحسن منه. وفي اليوم الثّاني صبّ (صمويل) الدّهن على رأس طالوت ومسحه وقبّله وأخبره بما سيصير إليه أمره، وأنه سيصير ملكاً، ثمّ أعلن (صمويل) بين الشّعب أنّ اللّه قد اختار لهم طالوت ملكاً عليهم فتذمّروا، و(قالوا أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سعة من المال)، فقال لهم (صمويل): (إنّ اللّه اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم واللّه يؤتي ملكه من يشاء). ثمّ أخبرهم: أنّه من علامة ملك طالوت وأنّه يليق بأنّ يكون ملكاً أنّه يستعيد لكم التّابوت الذي أخذ منكم وتحمله الملائكة وتأتي به إليكم، فلمّا جاءهم التّابوت استسلموا وانقادوا لأمر طالوت، فجمع طالوت الجنود لقتال الفلسطينيّين العمالقة وكان بطلهم ورئيسهم رجل يقال له: جالوت، وقد هابه النّاس وتحاموا حربه لشجاعته وقوّته، فاتّجه طالوت بجنوده إلى جيش جالوت وأراد أن يمتحن إطاعة جنوده وصبرهم على تحمّل الأذى والمشقّات، فقال لهم: (إنّ اللّه مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلّا من اغترف غرفة بيده)، وكان الوقت حارّاً وأصابهم ظمأ شديد، فلم يملكوا أنفسهم فشربوا منه، إلّا أنّ قليلاً من الجند صبروا وامتنعوا عن الشّرب وآثروا الطّاعة وتحمّلوا الأذى، فلمّا جاوزوا النّهر قال الذين شربوا من النّهر: (لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) فرجعوا عنه، وقال الذين لم يشربوا: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن اللّه واللّه مع الصّابرين)، فلم يرجعوا ولم ينقص من عزيمتهم كثرة جيش جالوت وقوّته وشجاعته وقلّة عددهم، وكان في الجيش (داود بن يس)، وكان صغيراً يرعى الغنم ولا فضل له في الحرب، ولكن أباه أرسله إلى أخوته الثّلاثة الذين كانوا مع طالوت ليأتي إليه بخبرهم، فرأى داود جالوت وهو يطلب المبارزة والنّاس يتحامون مبارزته من هيبته، وكانوا يعتقدون أنّ كلّ من بارزه فهو هالك، فسأل داود عن الجائزة الّتي تعطى لمن يقتل جالوت؟ فقالوا: بأنّ الملك طالوت يعطيه مالاً كثيراً ويزوّجه ابنته ويجعل بيت أبيه حرّاً في بني إسرائيل، فذهب داود إلى طالوت، وطلب منه الإذن بمبارزته لجالوت، فحذّره طالوت منه، وقال: إنّك لست ممّن يستطيع مقاومته، فقال داود: إنّي قتلت أسداً أخذ شاة من غنم أبي، وكان مع الأسد دبّ فقتلته أيضاً، فاقتنع طالوت وألبسه لامة

الحرب، فلم يعرف داود أن يمشي فيها فخلعها، وتقدّم بعصاه وخمسة أحجار كانت في مزوده ومعه مقلاعه، وبعد كلام طويل مع جالوت رماه بحجر بمقلاعه، فثبت الحجر في جبهته، فأخذ منه السّيف وقطع به رأسه عن بدنه وانهزم الفلسطينيّون، فزوّج طالوت ابنته ل ـ (داود) وجعله رئيساً للجند، فعظمت منزلة (داود) بين الشّعب وانعقدت أواصر الصّداقة بينه وبين (بوتاثان) ابن الملك طالوت، فلمّا رأى طالوت تعلّق الشّعب بـ (داود) ومنزلته بينهم خاف أن تمتدّ عينه إلى الملك فتغيّر قلبه عليه وأصبح يسعى لإهلاكه، وكان (بوتاثان) يعمل لتحسين مركز (داود) عند أبيه ويمدح إخلاص (داود) له، إلّا أنّ كلّ ذلك لم ينفع، فاعتزم طالوت على هلاك (داود)، فأصبح يرسله إلى كلّ حرب تقع وإلى كلّ المواقع الخطرة ليهلك بيد أعدائه فيستريح منه، إلّا أنّ (داود) كان مظفّراً في كلّ حروبه وفي كلّ مواقعه، فاعتزم طالوت أن يقتله بجنوده، فأرسل إليه من يقتلونه، فأخبرته زوجته (ميكال) بنت طالوت، فهرب (داود) وجاء الجنود وأوهمتهم زوجته أنّ (داود) نائم على سريره، وانتهى (داود) في هربه إلى (أخشيش) ملك (جت)، وهم أعداء طالوت، وكان ل ـ (داود) أسوأ النّكايات بهم، فلمّا رأوه لزموه وجاءوا به إلى الملك وحرّضوه على قتله، إلا أنّ (داود) جعل نفسه مجنوناً، فلام الملك جنوده على إدخال هذا المجنون عليه، وأمر باطلاق سراحه ففعلوا. فذهب (داود) إلى مغارة تسمّى (عدلام)، فجاء إليه جميع إخوته وجميع أهل بيته وكلّ رجل متضايق أو مدين، فأصبح عنده جيش، فانتقل إلى مصفاة (موآب)، وأرسل أمّه وأباه الى ملك (موآب) ليكونا في كفالته إلى أن يعلم مصيره، ثم انتقل بمن معه إلى أرض يهوذا، سمع طالوت بـ (داود) ومن اجتمع عليه من الرّجال فلام رجاله على عدم إخباره بأمر (داود) مع إبنه (يوناثان) وتعاهدهما على الصداقة والوفاء، فأغراه أحد الرّجال بأخي مالك بن خيطوب الكاهن وأخبره أنّه أعطى (داود) طعاماً وسلّحه بسيف جالوت وأنّ الكاهن دعا له بالنّجاح، فأتى طالوت بالكاهن ولامه في أمر (داود) فأثنى الكاهن على (داود) وقال: إنّه مخلص في خدمة الملك، وقد شاع أمره واشتهر وأنّ الملك لا ينبغي أن يكافيء (داود) عن الإحسان شرّاً، فأمر الملك بقتله وقتل الكهنة، فقتل منهم خمسة وثمانين، ولم ينج منهم سوى طفل يقال له: (أبياثار بن خيطوب) وهرب إلى (داود) وأخبره بكلّ ما فعل طالوت، فرحب (داود) بـ (أبياثار) وأقامه عنده، لأنّ أهل بيته قتلوا بسببه. أقام (داود) بالبرّيّة وطالوت يطلب الفرصة لإهلاكه، وعلم (داود) بكلّ ما يدبّر طالوت عليه، وقد جمع طالوت ثلاثة آلاف جندي للتفتيش عن (داود) والإيقاع به، واختبأ (داود) ومعه

بعض رجاله في كهف، فجاء طالوت ونام في الكهف وداود ورجاله في داخله، ولاحت الفرصة لـ (داود) لقتله، وأراد رجاله قتله فوبّخهم ولم يفعل واقتصر على قطع طرف جبّة طالوت، ولمّا استيقظ طالوت وخرج من الكهف تبعه (داود) وأخبره بأنّه قد كانت له الفرصة في قتله فلم يمدّ يده إليه وإنّ علامة ذلك أنّه قطع طرف جبّته وعاد عن إلحاق الأذى به، فندم طالوت، وقال له: أنت أبرّ منّي، لم يلبث طالوت أن عاد إليه الخوف على ملكه من داود فألحّ في طلبه وخرج مع رؤساء جنده لإهلاك داود، فصبر داود حتّى نزلوا منزلاً ناموا فيه وقد ركّز طالوت رمحه عند رأسه ونام، فجاء داود وتخطّى الجنود ورؤساءهم وأخذ الرمح وكوز ماء كان عند رأس طالوت وذهب فوقف على رأس ربوة ونادى رؤساء الجنود موبخاً لهم على تقصيرهم في حراسة الملك طالوت فاستيقظوا، ودعا داود أحداً منهم ليأخذ رمح الملك وكوز الماء وأعلم الملك بأنّ الفرصة قد سنحت له في قتله غير أنّه لم يقتله، فأظهر طالوت النّدم وعاد إلى بيته، وأقام داود في حصن اتّخذه له ولرجاله. ثمّ لمّا يئس داود في صلاح الحال بينه وبين طالوت ذهب إلى فلسطين فطلب من ملك الفلسطينيّين أن ينزله في أحدى القرى ليقيم فيها هو ورجاله، فأحبّ ملك فلسطين ذلك، ورأى أنّ ذلك خير من بقائه على العداء مع داود هذا البطل العظيم، فأنزله قرية وبعد مدّة قليلة من نزول داود بالقرية نشب حرب بين طالوت والفلسطينيّين، فخرج داود برجاله مع الفلسطينيّين لمحاربة طالوت، إلّا أنّ رجال ملك فلسطين تخوّفوا منه وأغروا الملك بردّه، فردّه بعد مسيرة ثلاثة أيام، فلمّا عاد إلى مكانه وجد أن الفلسطينيّين هجموا على نساء داود ونساء رجاله بالقرية فأحرقوا القرية وسبَوا النّساء ونهبوا الأموال كلّها، فجدّ داود وراء المغيرين وأخلص النّساء من أيديهم وأعاد الأموال وأفحش في قتلهم وغنم منهم غنائم كثيرة، أمّا طالوت فانهزم جيشه وقتل هو وثلاثة من بنيه وانهزم رجاله وأخرج الفلسطينيّين العبرانيين من قراهم وسكنوا هم فيها، وبعد ذلك صعد داود إلى حبرون وهو يسمّى مدينة الخليل الآن، فجاء رجال يهوذا وجعلوا داود ملكاً على بيت يهوذا، وبقيّة بنى إسرائيل بقوا تحت طاعة الملك (إيش يوشت) بن طالوت، ووقعت حروب بين رجال داود ورجال أشبوتشث إلى أن هلك إيش يوشت بعد سنتين من ملكه، فجاء بقية رؤساء بني إسرائيل وملّكوا داود عليهم فانتقل إلى صهيون، وهو حصن سمّاه مدينة داود، وكان المقيمون في جبل موريا من اليبوسين. فأقام داود بجانبهم إلى أن صارت جميعها لبني إسرائيل واتّسع ملك داود من أيلة خليج العقبة إلى الفرات، وأخذ عاصمة الآراميّين دمشق، وكانت مدّة ملكه أربعين سنة، منها سبعة أعوام في حبرون ملكاً

لسبط يهوذا وحدهم، وثلاثاً وثلاثون سنة في صهيون ملكاً لجميع اليهود، ثمّ جعل إبنه سليمان وليّ عهده قبل أن يموت، ومات وهو شيخ كبير، فعليه صلوات الله تعالى وسلامه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين سيّما خاتم أفضل المرسلين محمّد وعلى آلهم وأصحابهم ومن اهتدى بهديهم وعلينا أجمعين إلى يوم الدّين آمين.

* * *

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾

(تلك)، أصلها (تي) اسم الإشارة ليشار بها للمؤنث القريبة فألحق بها (اللام) لتكون إشارة للبعيدة، و ألحق بها (كاف) الخطاب لذلك أيضاً، فصارت **(تلك)** بعد حذف الياء لإلتقاء السّاكنين، فيشار بها إلى المفردة، مثل: (تلك الجنّة التي نورثها من عبادنا من كان تقيّاً)، ويشار بها إلى الجمع، سواء كان جمع مذكر أو جمع مؤنث، لأنّ الجمع مطلقاً ـ باعتبار أنّه جماعة ـ يعتبر مفرداً مؤنثاً، فالجمع المؤنث كما هنا **(تلك آيات الله)**، والجمع المذكر مثل ما يأتي بعد هذه الآية: (تلك الرّسل).**(تلك)**، أي هذه الأحكام التي سبقت والأخبار التي ذكرت **(آيات)**، **(آيات)** جمع آية، والآية جاءت لمعان كثيرة ذكرتها في تفسير سورة يوسف (ﷺ)، والمراد بها هنا جمل من كلام الله تعالى مفصول عن قراءتها بشكل مدور، فالمعنى تلك الأحكام والأخبار من آيات كلام الله تعالى **(نتلوها)**، نقرؤها **(عليك)** أيها النّبيّ **(بالحقّ)** موافقاً للواقع ونفس الأمر، **(وإنّك)** يا محمّد **(لمن المرسلين)** من عندنا إلى النّاس لتبليغ هذه الأحكام والعبر والعظات، ولذلك نزّلنا إليك هذه الآيات، وسمّيت الأحكام والأخبار آيات، لأنّ كلّها معجزات تدلّ على نبوّة محمّد (ﷺ)، لأنّ هذا الأمّيّ الذي لم يمارس شيئاً من العلم والدّراسة إلى أربعين سنة وأتى بهذه الأخبار الغامضة وهذه الأحكام المتقنة فيدلّ حاله السابق وعلمه هذا اللاحق على أنّه رسول أوحي إليه بهذه الأمور، وإلّا فلا سبيل له إلى العلم بذلك والله أعلم.

﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

(تلك)، أي هؤلاء الذين ذكروا في هذه السورة هم **(الرّسل)** الذين أرسلناهم إلى النّاس **(فضّلنا بعضهم على بعض)** بمزايا ومعجزات، **(منهم من كلّم الله)** تعالى - وهو موسي (عليه السلام) - **(ورفع بعضهم درجات)**، وهو نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) كما لايخفى، بدليل حديث مسلم (رضي الله عنه) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (فُضّلت على سائر الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرّعب، وأحلّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجداً، وأرسلت إلى الخلائق كافّة، وختم بي النبوّة)[1] (وآتينا عيسا بن مريم) المعجزات **(البيّنات)** الواضحات في الدلالة على رسالته، كإحياء الموتى بإذن الله وإبراء الأكمه والأبرص بإذنه وغير ذلك، **(وأيّدناه بروح القدس)**، أي بجبريل (عليه السلام) فينفّذ له ما أراد من المعجزات بأمرنا، **(ولو شاء الله)** أن يجبر النّاس على ألّا يقتتلوا **(ما اقتتل الذين من بعدهم)** - أي من بعد الرسل - **(من بعدما جاءتهم البيّنات)**، أي الشّرائع الواضحة، والتي لا تدع الخلاف بين النّاس، إلّا أنّ الله تعالى لم يجعل من عادته الجبر للنّاس على الخير أو الشّرّ، بل جعل الاختيار بأيديهم، فمن أراد الخير يسّره له ومن أراد الشّرّ أصابه امتحاناً لهم، وإنّ النّاس لم يريدوا الاتّفاق على شيء، ولكن اختلفوا فيما بينهم وفي الدّين، **(فمنهم من آمن ومنهم من كفر)** فأدّى ذلك إلى نشوب القتال بينهم، وفي هذا إشارة إلى أنّ الاختلاف في العقيدة سيؤدي إلى العداء والقتال حتماً، فإنّ الكفر والإيمان عدوان فأصحابهما أعداء بطبيعته، **(ولو شاء الله)** جبراً عدم اقتتالهم، وإن اختلفوا **(ما اقتتلوا)**، ولكنّ الله لا يجبر أحداً على شيء بل **(يفعل ما يريد)**، وهو جعل الاختيار بيد الناس، فمن أراد خيراً خلقه له ومن أراد شرّا أصابه؛ وذلك امتحاناً للنّاس، وليُظهر المخلص والمفلس وطيّب النّفوس من خبثها، ﴿ولتجزى كلّ نفس بما تسعى﴾ طه/ الآية ١٥. وهذا سرّ القدر، سأل رجل عليّاً ابن أبي طالب (رضي الله عنه) عن القدر، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر؟ فقال: طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السّؤال، فقال: بحر عميق فلا تلجه، فأعاد السّؤال، فقال: سرّ الله قد خفي عليك فلا تفشيه، هذا ولله في خلقه شؤون والله عليم حكيم.

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى إلى أنّ الاختلاف مستمرّ، وأنّ الصّراع بين الكفر والإيمان دائم، وأنّ ذلك يؤدّي إلى القتال حتماً، وأنّ القتال أو ترويج الحقّ ونشر

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٧١ الحديث رقم ٥٢٣.

شريعة الله تعالى يحتاج إلى الإنفاق والتّضحية بالأموال والأنفس، فأمر الله تعالى المؤمنين، فقال جّل وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَـٰعَةٞۗ وَٱلۡكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) واعتنقوا الإسلام ودخلوا فيه **(أنفقوا ممّا رزقناكم)** من المال والقوّة والأنفس في الخير وإعلاء كلمة الله ونشر دينه والتّرحم على عباده **(من قبل أن يأتيكم يوم)** ـ وهو يوم القيامة ـ وهو يوم **(لا بيع فيه)** فتشترى العفو أو المغفرة أو الجنّة، فيه **(ولا خلة)** ولا محبّة ومحاباةً فيهب لك الأخلاء ذلك، **(ولا شفاعة)** فيشفع لك أحد فتعفى ويغفر لك ويهب لك الخير بشفاعته، وهذه المرحلة مرحلة الحساب وما قبله من أيّام الحشر، فلا شفاعة هناك وإنّما الشّفاعة تبدأ بعد الحساب وبعد سوق أهل الجنّة إليها وأهل النّار إلى جهنّم، والشّفاعة في ذلك الوقت لا يكون إلّا بإذن الله ولمن أذن له، **(والكافرون هم الظّالمون)** فلذلك يجب الكفاح بالمال والنّفس لإزالة الظّلم، والظلم هو وضع الحقائق والحقّ في غير موضعها أو خلاف أمر الله تعالى، فلا يستحقّون هؤلاء الظّالمين الشّفاعة في ذلك اليوم، لأنّهم هم ظلموا أنفسهم بتفويت ما يورث الشّفاعة وهو الأمن على أنفسهم. وأشار تعالى بقوله: ﴿ممّا رزقناكم) إلى أنّ كلّ ما يملكونه فهو من الله وملكه، فإذا أمر بإنفاقه فلا منّة لهم في ذلك فإنّهم ينفقون ملك الله فيما أمر به لا ملكهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن الحقّ الذي انحرف عنه الكافرون واختلفوا فيه مع المؤمنين، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾

(الله) اسم للذّات المتجمّع لجميع صفات الحسن والكمال والمنزّه عن جميع

صفات النّقص والزّوال (لا إله إلّا هو) الإله، (الإله) بمعنى: المعبود، والمعبود بمعنى: المطاع، والإطاعة نوعان:

النوع الأوّل: إطاعة تكوين، وهو مفهوم من قوله: ﴿إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ سورة يس الآية/ ٦٢، فمعنى (لا إله) من هذا الوجه: فلا يكون شيء إلّا بتكوين الله تعالى له.

النوع الثاني: إطاعة تكليف، وهو الامتثال، فالمعنى: لا امتثال إلّا لله تعالى، فالمعنى **(لا إله إلّا هو)**، لا يستحقّ الإطاعة والامتثال لأمره إلّا هو، فكلّ إطاعة لغيره إذا لم يكن بأمره فهو باطل وشرك، وحاصل المعنى: لا تكوين ولا تشريع إلّا لله تعالى، فكلّ من اعتقد أنّ غيره يستطيع أن يكوّن شيئاً ويوجده فهو مشرك، وكلّ من اعتقد أنّ لغيره حقّ التّشريع والتقنين فهو مشرك أيضاً، وقد ورد التّصريح بذلك في قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ سورة يوسف الآية/ ٦٧ ـ أي ليس التّقدير ولا التّكوين إلّا لله تعالى، وقال في نفس السّورة: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٠، إن (الحكم)، أي ليس العبادة والطاعة والتّشريع (إلّا لله) تعالى وحده. فإذن المعنى: **(لا إله إلّا هو)** لا حاكمية تكويناً ولا حاكمية تشريعاً إلّا هو، وهو **(الحيّ)** الذي لا يعتريه الموت والفناء **(القيوم)** القائم بتصرّف وتدبير أمور الخلق كلّه، **(لا تأخذه سنة ولا نوم)**، السّنة النّعاس والنّوم، معلوم **(له)** مالكية وملكية كلّ **(ما في السّماوات وما في الأرض)**. فكلّ شيء ملكه وتحت سيطرته، ومُلك كلّ مالك، ومُلك كلّ ملك وسيطرته مجازية وغير حقيقية ومؤقّتة غير دائمة، فكلّ مالك يزول عنه ملكه وكلّ ملك تسقط سيطرته إلّا مَلك الملوك ومالك كلّ شيء وهو الله تعالى، **(من ذا الذي يشفع عنده)** إذا أراد العذاب بأحد، لأحد يشفع **(إلّا بإذنه يعلم ما بين أيديهم)** أي حالهم ومستقبلهم **(وما خلفهم)** أي وماضيهم، **(ولا يحيطون)**، أي الخلائق من الجنّ والإنس والملك. فلا يحيطون **(بشيء من علمه)** من معلوماته **(إلّا بما شاء)** أن يعلمه، فلا يعلمون إلّا بقدر مشيئته لهم أن يعلموا، **(وسع كرسيه)** وهو سماء بكرسيّه يحيط بـ **(السّماوات والأرض)** أو المراد وسع حكمه أو علمه معانٍ، قال بكلٍ قائلٌ، والأوّل أصحّ، **(ولا يؤوده)**، أي ولا يصعب عليه **(حفظهما)**، أي حفظ السّماوات والأرض، **(وهو العليّ)** رفيع الدّرجات والمقام **(العظيم)** عظيم القدر وله الكبرياء فقط، وهذه الأوصاف من قوله: الحيّ القيوم، إلى قوله: العليّ العظيم، جيء بها للاستدلال على أنّه

هو المكوّن والمطاع، فالمعنى: أنّ من كان بهذه الصّفات يجب أن يطاع هو لا غيره، وأن يطبّق نظامه لا نظام غيره، وأن يكون له الخضوع والامتثال، فكلّ خضوع وامتثال لغيره إذا كان داخلاً في شرعه تعالى وبأمره، كإطاعة الوالدين مثلاً، فهو إطاعة وعبادة لله، وإذا لم يكن داخلاً في أمره أو لم يكن وفق شريعته فهو شرك وباطل، حيث لا طاعة لمخلوق في معصيّة الخالق، وهذه الآية تسمّى آية الكرسي، ولاشتمالها على هذه المعاني السّاميّة ورد في فضلها أحاديث صحيحة نذكرها إن شاء الله تعالى.

* * *

فضل آية الكرسي:

١- عن أبيّ بن كعب (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله و رسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أيّ آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال قلت: (الله لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم)، قال: فضرب في صدري وقال: والله ليهنك العلم يا أبا المنذر، رواه مسلم وأبو داود (في التّاج).

٢- عن أبي أيوب الأنصاري (رضي الله عنه) أنّه كانت له سهوة ـ بيت صغير ـ فيها تمر، فكانت تجيء الغول فتأخذ منه، فشكى ذلك إلى النّبيّ (ﷺ) قال: (فاذهب فإذا رأيتها فقل: بسم الله أجيبي رسول الله (ﷺ)، قال: فأخذها فحلفت ألّا تعود، فأرسلها فجاء إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت ألّا تعود، قال (ﷺ): كذبت وهي معاودة للكذب، قال: فأخذها مرّة أخرى فحلفت ألّا تعود فأرسلها، فجاء إلى النّبيّ (ﷺ)، فقال (ﷺ): ما فعل أسيرك؟ قال: حلفت ألّا تعود، فقال (ﷺ): كذبت وهي معاودة للكذب، فأخذها فقال: ما أنا بتاركك حتى أذهب بك إلى النّبيّ (ﷺ) فقالت: إنّي ذاكر لك شيئاً آية الكرسي إقرأها في بيتك فلا يقربك الشّيطان ولا غيره، فجاء إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: ما فعل أسيرك؟ فأخبره بما قالت، قال: صدقت وهي كذوب)، رواه التّرمذي والبخاري[١] (في التّاج).

ففضيلة آية الكرسي كثيرة جدّاً، كيف وهي تشتمل وتبيّن حقيقة الإيمان بالله تعالى

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٨١٢ الحديث رقم٢١٨٧،سنن الترمذي ٥/ ١٥٨ الحديث رقم ٢٨٨٠ وقال هذا حديث حسن غريب واللفظ له.

وكيف يجب أن يكون الإيمان به، وتصحيح الإيمان أساس كلّ سعادة حيث لا عمل مقبول بدون الإيمان الصحيح كما تفيد آية الكرسي، ولهذا أصبحت سيّدة آي القرآن الكريم. اللّهم صحّح إيماننا بك وأحسن أعمالنا وأخلصها لك واجعلنا من المخلصين آمين.

***

وبعد ما بيّن الله تعالى حقيقة الإيمان والعقيدة التّي عليه الإسلام والمسلمون أراد أن يبيّن أنّ العقيدة أمر مستور داخل في القلب، وما كان مستوراً في القلب لا يمكن السّيطرة عليه، فلذلك قال جلّ وعلا:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾

(لا إكراه في الدّين)، أي فهذه عقيدة الإسلام والمسلمين، ولا يمكن إكراه أحد (في الدّين)، أي في العقيدة، لأنّها مستورة في القلب، فيمكن أن ينقاد أحد لجميع أعمال الإسلام ويأتي بها وهو كافر به، وإنما يفعل ذلك خوفاً أو طمعاً، **(قد تبيّن الرّشد)، أي اتّضح وتميّز الرّشد ـ وهو الحقّ والهداية ـ (من الغيّ)**، وهو الضّلال والباطل، وذلك بنزول القرآن وما فيه من الحجج الواضحة الدّالّة على حقّيّة الإسلام واستقامة منهجه، فإذاً فلا حاجة إلى الإكراه، بل يترك النّاس على اختيارهم **(فمن)** يريد الإسلام ويؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً لا شرك فيه **(ويكفر بالطّاغوت)** ـ فاعول من الطّغيان للمبالغة، فالمعنى: يكفر بكلّ مبدأ طاغ، أي متجاوز الحقّ مخالف لمبدأ الإسلام ونظام الله تعالى فقد أفاد نفسه، حيث **(فقد استمسك بالعروة)**، (العروة) ما يُتمسّك به للوصول إلى المطالب العالية والمقاصد السّامية، فالمعنى: فقد استمسك (بالعروة الوثقى)، أي الأشدّ والأقوى، بحيث **(لا انفصام لها)**، فلا ينقطع ولا ينفصم ويوصل من تمسّك بها إلى الأعلى من الأماني والأحسن من المطالب ـ وهي السّعادة في الدّنيا والآخرة ـ **(والله سميع)** بكلّ ما يقول فيجزيه عليه، **(عليم)** بكلّ ما يفعل فيجزيه به، و يعلم المخلص من غيره والصّادقين من الكاذبين ممّن تمسّكوا بهذه العروة الوثقى ولا يخفى عليه شيء.

***

تنبيه: يقال أنّ هذه الآية منسوخة بآيات القتال، ولكن النّسخ إنّما يصار إليه ويحكم به

عند تعارض الآيات تعارضاً لا يمكن الجمع بينها، ولا يوجد ذلك بين آيتنا هذه وآيات القتال، حيث إنّ القتال لم يؤمر به للسّيطرة على العقيدة وجعل النّاس مسلمين جبراً وإزالة الكفر من الأرض، فإنّه لو كان الأمر كذلك لما قبل من الكافر أن يبقى كافراً وعلى دينه وهو في ذمّةِ الإسلام[1] وتحت حكمه وسلطانه، بل إنّ القتال أمر به لإزالة كيان الكفر ونظامه ونشر نظام الله في الأرض ووضعه موضع أنظمة الكفر للعمل به و إدارة الناس على وفقه. لا لإزالة الكفر، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ سورة الأنفال الآية/ ٣٩، أي وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين، أي السّلطان كلّه لله، أي لنظامه وشريعته في الأرض، وذلك لأنّ نظام الكفر لا يدع أن يعبد الله أحد في الأرض كما هو ظاهر من قوله: (حتّى لا تكون فتنة)، أي تعذيب الكافرين للمؤمنين بالله إلى أن يرتدّوا ويرجعوا عن الإيمان، فالقتال في الإسلام إمّا لتثبيت نظام الله في الأرض وإزالة غيره من الأنظمة، أو لدفع تعذيب الكافرين المؤمنين على الإيمان بالله، أو لدفاع الأعداء المهاجمين على المسلمين، أو لتحرير الشّعوب من استعباد الطّغاة لهم ومصّ أموالهم ودمائهم ومسّ أعراضهم وشرفهم، وكلّ ذلك لا يخالف مفاد هذه الآية الكريمة، فهي محكمة غير منسوخة وموافقة للواقع، ونفس الأمر وهو أنّه لا يمكن السّيطرة على الأفكار والعقائد وما تكنّه القلوب والأفئدة، وإنّما يمكن السّيطرة على الظّواهر وأعمال الجوارح فقط، والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) لمّا رأى إصرار اليهود والنّصارى على كفرهم بالإسلام وعدائهم له مع وضوح الحجّة لديهم وتصريح كتبهم بحقّيّة الإسلام وأمرها به، ولمّا رأى ذلك أصابه حزن وأثّر في قلبه الشّريف هذا الوضع المزري، فأراد الله تعالى أن يخفّف من حزنه ويقلّل من ألمه، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

(١) يقصد أهل الذمة.

(الله وليّ) ـ ناصر ـ **(الذين آمنوا)**، أي الذين يحبّون الحقّ والصّدق واعتناق الحقّ بعد ظهوره فالله ناصرهم ويحبّهم، و**(يخرجهم من الظّلمات)** ـ وهو الكفر والمعاصي ـ **(إلى النّور)**، وهو الإيمان والطّاعة، فيهديهم لذلك ويشرح صدورهم للإيمان، **(والّذين كفروا)**، أي أصرّوا على الكفر وعزموا البقاء على الباطل مهما اتضح لهم الحقّ وظهر حفظاً على سيادتهم أومنافعهم أوعاداتهم وتقاليدهم، فهؤلاء **(أولياؤهم الطّاغوت)**، وهم الدّعاة إلى الباطل، وإلى كلّ مبدأ يخالف الإسلام ليخرجونهم من النّور الذي ظهر لهم واتّضح، ولا يدعونهم ليعتنقوا ذلك الحقّ، بل يدعونهم **(إلى الظّلمات)**، وهو الكفر والمعاصي والمبادىء الضّالّة المضلّة والتّي تخالف مبدأ الله ونظامه وهو الإسلام فلا تحزن يا محمّد ويا أيّها المسلم، حيث **(أولئك أصحاب)** أهل **(النّار هم فيها خالدون)** ولا يخرجون منها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أمثلة للّذين يصرّون على الكفر بعد وضوح الحقّ والذين يزيدون إيماناً كلّما ظهرت لهم آية أو اتضحت لهم حجّة أو يؤمنون بعد ظهور الحقّ، فذكر أوّلاً المثال للذي أصرّ وبقي على كفره بعد وضوح الحقّ له وإلزامه الحجّة، فقال جل وّعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

(ألم تر)، أي ألم تنظر **(إلى)** نمرود الذي حاجّ ـ جادل ـ **(إبراهيم)** (عليه السلام) **(في ربّه)** حيث كان يدّعي الألوهية والربوبيّة بسبب **(أن آتاه الملك)** السّيطرة والسّلطان، فبدلاً عن أن يشكر ربّه ويعبده ويوحّده طغى وأصبح يكفر بالله ويدّعي الألوهية لنفسه فجادل إبراهيم (عليه السلام)، **(إذ قال إبراهيم ربّي)** هو الذي **(يحيي)** الحيّ **(ويميت)** من يموت، فجاء نمرود المجادل لإبراهيم (عليه السلام) برجلين متّهمين، فعفى عن أحدهما، وقتل الآخر، وتوجّه **إلى إبراهيم** (عليه السلام) **(قال)** له **(أنا أحيي)** الموتى كما أحييت هذا بالعفو عنه **(وأميت)** الحيّ كما قتلت هذا، فأنا الإله، **(قال إبراهيم)** فإن كنت إلهاً **(فإنّ الله يأتي بالشّمس من**

المشرق فأت) فأرجع **(بها من المغرب فبهت)**، فبهت فتحيّر واندهش وسكت **(الذي كفر)** ـ وهو نمرود ـ حيث اتّضح له الحجّة ولم يبق له برهان إلّا أنّه أصرّ على كفره تمرّداً، **(والله لا يهدي)** جبراً **(القوم الظّالمين)** الذين لا يحبّون الهداية ولا يختارونها لأنفسهم؛ فإنّ الله تعالى لم يجعل الجبر على الخير أو الشّرّ من عادته، بل جعل الاختيار بيد العبد، فإن أراد الخير سهّله له وإن أراد الشّرّ أصابه.

ثمّ أراد أن يذكر مثالين لمن يؤمن أو ليزداد إيماناً حين ظهور الحجج والبراهين، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)﴾

(أو كالّذي) ـ عطف على قوله إلى الذي حاجّ إبراهيم (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) ـ فالمعنى أو لم تنظر إلى **(كالذي)** مثل الذي **(مرّ على قرية)**ـوهو عزير (عليه السلام) ـ فمرّ على قرية، وهي قرية القدس، **(وهي)** والحال أنّ القرية **(خاوية)** ساقطة ووقعت حيطانها **(على عروشها)**، على سقوفها، حيث غزاها بخت النّصر، فقتل من قتل وأسّر من أسّر وأبقى من أبقى ودمّر القرية، **(قال)** عزير(عليه السلام) أنّى يحيي هذه **(القرية)** الله **(بعد موتها)**، أي موت القرية وتدميرها هذا التدمير، **(فأماته الله مائة عام ثمّ بعثه)**، أي ثمّ أحياه بعد مائة عام، **(قال)** تعالى له بعد الإحياء **(كم لبثت)** وأنت ميّت هنا؟ **(قال لبثت يوماً أو بعض يوم)**، لأنّه مات وقت الظّهر قبلاً، وبعث بعد الظّهر بشيء، ففكّر في نفسه وظنّ أنّه إنّما مات من الظّهر إلى هذا الوقت، فيكون يوماً واحداً، أو من الظّهر إلى هذا الوقت، فيكون بعضاً من اليوم، **(قال)** تعالى له **(بل لبثت)** هنا **(مائة عام فانظر إلى طعامك)** الذي كان معك وهو التين وإلي **(شرابك)** الذي كان معك وهو الحليب، فإنّه **(لم يتسنّه)** لم يتغير واحد منهما، بل هما على حالهما، وانظر إلى حمارك كيف بلى

وتفرّقت عظامه، **(و)** بعثناك **(لنجعلك آية للنّاس)** على الإحياء بعد الموت ومجيء يوم القيامة، **(وانظر إلى العظام)** عظام حمارك **(كيف ننشزها)** نجمعها ونضمّ بعضها إلى بعض. **(ثمّ نكسوها لحماً)** **(فلمّا)** نظر إلى هذا المظهر المدهش و**(تبيّن له)** هذه الصنعة العجيبة **(قال أعلم)** وأوقن وأومن **(أنّ الله على كلّ شيء)** من الأشياء من الأحياء والإماتة والتدمير والتعمير **(قدير)** لا يعجز عن شيء أراده.

* * *

سؤال: إنّ هذا الرّجل كان عزيراً، وعزير من أحد أنبياء بني إسرائيل، فكيف قال: أنّى يحيي هذه الله بعد موتها؟ ورأى أنّ ذلك يصعب على الله تعالى؟

الجواب: إنّه ورد في بعض الرّوايات أنّه كان غير (عزير)، بل كان رجلاً كافراً فآمن بسبب ذلك الحادث وبعد ظهور الحجّة له، وقال: (أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير) على عكس (نمرود) حيث أصّر على الكفر بعد وضوح الحجّة وظهور البرهان له. وإن كان عزيراً فقوله: أنّى بمعنى: كيف؟ فسؤاله كان على كيفية إحياء الله القرية، أو بمعنى: متى؟ أي في أي وقت يحييها الله؟ أو استبعد إحياءها لا لصعوبة الإحياء على الله تعالى، بل لشدّة عقوبة الله على القوم، فإنّهم أفسدوا كثيراً فاستبعد أن يحيي الله هذه القرية التي أفسد النّاس فيها فساداً كثيراً وأنّ الله تعالى غضب عليها فلا يحييها أبداً.

* * *

وبعد أن ذكر هذا المثال للذي يؤمن حينما رأى الحجّة أو يزيد إيمانه، أراد أن يذكر مثلاً آخر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

(و) أي واذكر **(إذ)** حينما **(قال إبراهيم ربّي أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن)** بأنّنا نحييهم ونقدر على ذلك **(قال بلى)** آمنت، **(ولكن)** أريد أن أرى كيفيّة

الإحياء ليطمئنّ قلبي ويصير يقيني حقّ اليقين، أي يقيناً حاصلاً عن الدّليل والمشاهدة، فإنّ، اليقين له ثلاث درجات، علم اليقين وهو ما حصل عن حجّة وبرهان، وعين اليقين وهو ما ثبت عن مشاهدة وعيان، وحقّ اليقين وهو ما ثبت عن دليل ومشاهدة، وبذلك يطمئنّ القلب ولا يبقى للوسوسة مدخل فيه، **(قال فخذ أربعة من الطّير)** كلّ واحد من نوع **(فصرهنّ)**، أي فضمهنّ إليك فاذبحهنّ وقطّعهنّ قطعاً، **(ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً)**، أي اجعل كلّ جزء من كلّ واحد على جبل، **(ثمّ ادعهنّ)**، أي نادهنّ **(يأتينك)** - وهن يسعين أي يسرعن في مجيئهنّ - **(سعياً)** إسراعاً، **(واعلم)** أي وزد إيماناً **(إنّ الله عزيز)** غالب على أمره، ومراده لا يعجزه شيء عمّا أراد، **(حكيم)** ذو حكمة لا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة. ففصّل إبراهيم (عليه السلام) ذلك ورأى أنّ كلّ جزء من أجزاء الطّيور يطير ويرجع وينضمّ إلى أمثالها إلى أن أصبحت كلّ الطّيور حيّة، ثمّ ناداها إبراهيم (عليه السلام) فأتين إليه، فقال إبراهيم (عليه السلام) إنّ الله على كلّ شيء قدير وازداد إيماناً واطمأنّ قلبه.

ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالإنفاق في سبيل الخير ونشر العقيدة وذكر بعدها العقيدة التي يجب نشرها والإنفاق في سبيل سلطانها في الأرض، أراد تعالى أن يذكر ثواب الإنفاق وجزاءه عند الله تعالى. فقال جلّ وعلا:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

(مثل الّذين ينفقون أموالهم في سبيل)، أي في سبيل نشر دين الله، وفي سبيل امتثال أمر الله تعالى من كلّ نوع من وجوه البرّ والخيرات، فمثلهم في الرّبح وزيادة الأجور **(كمثل)** زارع زرع **(حبّة أنبتت)** تلك الحبّة **(سبعة سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة)** فصارت الواحدة سبعمائة، فكذلك الذي ينفق في سبيل الله يجزيه الله تعالى مقابل واحد سبعمائة، **(والله يضاعف لمن يشاء)** الأجر أكثر من سبعمائة، **(والله واسع عليم)**، أي واسع علمه، فيعلم مقدار انفاق النّاس ومقدار إخلاصهم وظروف المنفقين ومكانهم، فيجزيهم حسب علمه بذلك وحسب استحقاق المنفق وحسب مشيئته، أي أنّ ثواب المنفق ليس واجباً عليه وحتماً، بل إنّما يجزيه تفضّلاً عليه، لأنّ المنفق لا ينفق إلّا من ملك الله وممّا رزقه إياه وبتوفيقه وهدايته وخلقه ذلك الإنفاق له، فمن صرف من مال

الله وبأمر الله وبتقديره له فمن أين يستحقّ الأجر إن لم يتفضّل الله تعالى عليه بالأجر والثواب.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّ الانفاق يجب أن يكون لله فقط ولابتغاء مرضاته لا لشيء آخر ولا يكون له منّة في ذلك على أحد، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

(**الّذين ينفقون**) يصرفون (**أموالهم في سبيل الله**) كالتّصدّق به على الفقراء أو المحتاجين أو في المصالح العامة، كبناء مسجد أو قناة ماء أو تبليط طريق أو بناء مستشفى، أو للمجهود الحربي للمقاتلين في سبيل نشر دين الله تعالى وقتال من يصدّ النّاس عن الدّخول فيه. فكلّ ذلك وما يشبهه فهو في سبيل الله، فالذين ينفقون (**ولا يتبعون ما أنفقوا منّاً**) به على النّاس (**ولا أذىً**) لهم، فهؤلاء (**لهم أجرهم**) ثوابهم (**عند ربّهم**) يوم القيامة، (**ولا خوف عليهم**) من العذاب، (**ولا هم يحزنون**) من الموت وفوات الدّنيا، لأنّهم ينتقلون إلى مكان خير من الدّنيا بكثير وكثير. فمن خرج من كوخ إلى قصر كيف يحزن.

ثمّ قال الله جلّ وعلا:

﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

(**قول معروف**)، أي ردّ جميل لمن يطلب منك الإنفاق في جهة الخير، (**ومغفرة**) لمن أساء في طلب الإنفاق وأذى المطلوب منه (**خير من صدقة يتبعها أذى**) للنّاس بسببه، (**والله غني**) وليس محتاجاً إلى صدقاتكم، وإنّما فرضها عليكم ليمتحنكم ويثيبكم عليها، (**حليم**) ذو حلم، ولحلمه هذا لا يعجّلكم بالعقوبة على البخل بالصدقات أو المنّ والأذى بسببها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ المنّ والأذى والمراءات في الصّدقات يبطل بها الصّدقات، فلا يقبل بها ولا يؤتى عليها الثّواب، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم**) فتجعلوها بحيث لا يقبل بها فلا يثاب عليها، وذلك (بـ) بسبب (**المنّ والأذى**) من ورائها، (**كالذي**) يبطل أعماله وصدقاته لأنّه (**ينفق ماله رئاء النّاس**) ولإظهار السّخاء وثناء النّاس عليه والتّفاخر به في الدّنيا، (**ولا يؤمن بالله**) فيطلب الثّواب منه، (و) لا بـ (**اليوم الآخر**) فيرجو الثّواب فيه، (**فمثله**)، أي مثل هذا الكافر والذي ينفق لأجل الرّياء والسّمعة، أو الذي يلحق المنّ والأذى بالصدقة، مثل هؤلاء في عدم حصولهم على الفائدة والثّواب (**كمثل صفوان**) ـ أي حجر أملس ـ (**عليه تراب فأصابه وابل**)، أي مطر شديد، (**فتركه**) أي فجعل الحجر صلداً أملس لا تراب عليه فلم ينبت من ذلك شيء، فهؤلاء (**لا يقدرون**) لا يحصلون (**على شيء**) من ما كسبوا من نفع وثواب من صدقاتهم كما لا ينبت شيء على هذا الحجر الأملس، (**والله لا يهدي**) أي لا يوصل (**القوم الكافرين**) إلى حصول الثّواب والأجر عند الله تعالى.

ثمّ لمّا ذكر مثالاً للمانّين والمؤذين والمرائين بالصّدقات في عدم الاستفادة منها أراد أن يذكر مثالاً للمؤمنين المخلصين في الصّدقات في استفادة الأجر والثّواب منها، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾

(**ومثل الّذين ينفقون أموالهم**) ويبتغون بذلك (**ابتغاء مرضات الله**) رضاء الله تعالى، (**وتثبيتاً**) أي ولأجل يقين وأمان ناشئ (**من أنفسهم**) بأنّ يوماً يأتي وهو يوم القيامة يجزون فيها على هذه الإنفاقات، (**كمثل جنّة**) بستان نابت (**بربوة**) بمكان مرتفع ـ

لأن المكان المرتفع أطيب هواءً وتراباً ـ (**أصابها وابل**) مطر شديد فسقاها (**فآتت أكلها ضعفين**)، أي ضعف البساتين الأخرى، فإن لم يصبها وابل (**فطلّ**) فمطر خفيف،(**والله بما تعملون بصير**) فيجازيكم عليه ولا يضيع شيئاً منه. ذكر الوابل والطلّ،لأنه كما أنّ البستان يثمر بالوابل والطلّ فكذلك الصّدقة تثاب بنيّة خالصة أو أخلص.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حسرة الكافرين والمانّين والمرائين على منّهم وأذاهم وريائهم في الصّدقات يوم القيامة، فذكر ذلك في مثال، فقال جلّ وعلا:

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

(**أيودّ أحدكم**) أيحبّ أحدكم أيها النّاس ـ والاستفهام للإنكار، وإنكار المثبت نفي ـ أي لا يحبّ أحدكم (**أن تكون له جنّةٌ**) كبيرةٌ (**من نخيل**) كثيرةٍ (**وأعنابٍ**) وفيرةٍ (**تجري من تحتها**) ـ من تحت أشجارها ـ (**الأنهار**)، السّواقي لسقيها، (**له فيها من كلّ الثّمرات وأصابه الكبر**) والضعف والشيب (**وله ذرّيّة ضعفاء**) لا يستطيعون شيئاً من العمل والكسب، وهو في هذه الحالة يكون أحوج ما يكون إلى هذا البستان لضعفه وكثرة ذرّيّته وضعفهم عن العمل، (**فأصابها**) أي الجنّة (**إعصار**) ريح شديد (**فيه نار**) شديدة (**فاحترقت**) البستان ولم يبق منها شيء، أي فكما لا يحبّ أحدكم هذا الوضع فلا تُراؤوا في صدقاتكم ولا تمُنّوا بها ولا تؤذوا بسببها أحداً، فإنّ صدقاتكم كمثل هذا البستان ويوم القيامة أنتم كمثل هذا الشائب في حاجة إلى صدقاتكم، وهذه الأمور كالإعصار المحرقة لها والمعطّلة لها عن الثّواب والأجر والفائدة وإلّا فتتحسّروا هذا التّحسّر الشديد، (**كذلك**) مثل ما علمت (**يبيّن الله لكم الآيات**) ـ أي الأمثال ـ (**لعلّكم تتفكّرون**) فيها فتتّعظوا، لأنّ بالأمثال يتوضّح الأمور أكثر فأكثر، والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الأموال التي يجب الإنفاق منها، فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) خاطب المؤمنين، لأنّ الكافر لا يكلّف بالفروع **(أنفقوا من طيّبات ما كسبتم)**، أي من الأموال الطّيّبة ممّا كسبتم بالعمل أو الصّناعة أو التّجارة أو بالميراث، لأنّ الميراث من كسب المورث، **(وممّا أخرجنا لكم من الأرض)** من النّباتات والحبوب والمعادن والأشجار، **(ولا تيمّموا الخبيث)**، أي ولا تقصد الرّديء **(منه تنفقون)** للإنفاق منه، بل أنفق ممّا هو جيد، **(ولستم بآخذيه)**، أي وإن كنتم أنتم الآخذون لا تأخذونه **(إلّا أن تغمضوا)**، إلّا بأن تتسامحوا فيه، وهذا بيان الخبيث فالمعنى: الخبيث الرّديء، وهو ما لا ترضون به أنتم لو كنتم أنتم الآخذون، **(واعلموا أنّ الله غنيّ)** عن إنفاقاتكم، وإنّما فرضها عليكم امتحاناً لأن يثيبكم عليها، **(حميد)** أي حسن في ذاته وأفعاله وصفاته، فلا يقبل إلّا حسناً من الإنفاق لا رديئاً.

* * *

مسألة: احتجّ أبو حنيفة بقوله تعالى: ﴿وممّا أخرجنا لكم من الأرض﴾ على حكمين:

الأوّل: أنّه تجب الزّكاة في كلّ ما نبت من الأرض لعموم الآية للنّباتات والخضروات والثّمار والفواكه. وخالفه جمهور العلماء، فقالوا لا تجب إلّا في العنب والتّمر وفي الحبوب الّتي يدخّر ويتقوّت بها، وزاد الزّهري ومالك والأوزاعي الزّيتون.

الثّاني: أنّه لا نصاب لزكاة ما ينبت من الأرض، بل يجب العشر في قليله وكثيره لكون الآية مطلقة وعامة، وخالفه الجمهور أيضاً، فقالوا: لا تجب الزّكاة في ما دون خمسة أوسق[١].

* * *

(١) لقوله (ﷺ) ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة. / صحيح البخاري ٢/ ٥٢٤ الحديث رقم ١٣٧٨.

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾﴾

(**الشّيطان يعدكم الفقر**)، يخوّفكم بالفقر إن أنفقتم (**ويأمركم بالفحشاء**) بالبخل مخافة الفقر، (**والله يعدكم مغفرةً منه**) من المعاصي إن أنفقتم، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ هود . ١١٤ ويعدكم (**فضلاً**) سعةً في الرّزق على الإنفاق، حيث قال: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٧٦، (**والله واسع عليم**) واسع علمه بأحوالكم وأعمالكم، فيجازيكم على وفقها.

﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

(**يؤتي**) الله (**الحكمة**) ـ وهي اتّقان العلم والعمل ـ (**من يشاء**) إيتاءها له، (**ومن يؤتى الحكمة**) فاتقن علمه واتقن عمله وثّق علمه (**فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكّر**) وما يتّعظ ويتبع مواعظ القرآن فيعمل بها (**إلّا أولوا الألباب**)، أي أصحاب العقول السّليمة، وفي هذا تعريف بأنّ من انحرف عن القرآن وأحكامه لا عقل له وإن بلغ من الثّقافة ما بلغ.

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

(**وما أنفقتم**)، وما صرفتم من نفقة واجبة من الله تعالى عليكم (**أو نذرتم**)، أي أوجبتم على أنفسكم بالنّذر (**من نذر**) ممّا نذرتم على أنفسكم فإنّ الله تعالى يعلمه، (**وما للظّالمين**) الذين لا يؤدون ما وجب عليهم من الإنفاقات، أو لا يفون بما نذروا على أنفسهم، فهؤلاء ما لهم (**من أنصار**) ينصرهم و ينجيهم من عذاب الله تعالى على ذلك.

مسألة: النّذر هو أن يوجب المرء على نفسه شيئاً، كأن يقول: نذرت على نفسي

أو لله عليّ أن أفعل كذا أو لا أفعل، وهو أقسام بيّنه الرّسول (ﷺ) في حديثه الشّريف، ففي البخاري عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه[1]. وعن ابن عباس (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (من نذر نذراً لم يسمِّه)، أي لم يعيّنه، كأن يقول: لله علي نذر، ولم يعيّن المنذور(فكفّارته كفّارة يمين)، (ومن نذر نذراً في معصيّة) كأن يقول نذر عليّ أن أشرب الخمر مثلاً، فلا يجوز له الإيفاء في النّذر، بل عليه كفّارة (فكفّارته كفّارة يمين)، (ومن نذر نذراً لا يطيقه فكفّارته كفّارة يمين، ومن نذر نذراً أطاقه فليف به)، أخرجه أبوداود[2]. وعن عمران بن حصين (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (لا نذر في معصيّة الله ولا في ما لا يملك ابن آدم). أخرجه النّسائي[3].

ثم، أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ إظهار الصّدقة أفضل أم لا، فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

(**إن تبدوا الصّدقات**)، أي تظهروها وتؤدّوها علناً (**فنعمّا**)، أي فنعم شيء (**هي**)، أي الصّدقات الظّاهرة والمعلنة إن سلمت من الرّياء، لأنّ في إظهارها حث النّاس عليها، (**وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء**) فهو خير لكم لسلامتها من الرّياء، (**ويكفّر**) أي يغفر الله تعالى بها (**عنكم من سيئاتكم**) بقدر ما تتصدّقون به، وفي قراءة (ونكفر) بالنون، (**والله بما تعملون خبير**)، سواء أخفيتم أو أعلنتم، فيجازيكم عليه. والكلّ مقبول عند صدق النّيّة والإخلاص.

* * *

مسألة: اتّفق العلماء على أن كتمان صدقة التّطوع أفضل من إظهارها، لبعدها عن الرّياء ولأن الآخذ ينكسر ولا يخجل عند أخذها، بخلاف العلن، ويدلّ على أنّ الصّدقة

(١) صحيح البخاري ٦/٢٤٦٣ الحديث رقم ٦٣١٨.

(٢) سنن أبي داود ٣/٢٤١ الحديث رقم ٣٣٢٢. ما بين الأقواس حديث والباقي توضيح.

(٣) سنن النسائي المجتبى ٧/١٩ الحديث رقم ٣٨١٢.

سرّاً أفضل، لما روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلّا ظلّه: إمام عادل، وشابّ نشأ في طاعة الله تعالى، ورجل قلبه متعلّق بالمسجد إذا خرج منه حتّى يعود إليه، ورجلان تحابّا في الله تعالى اجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله تعالى خالياً ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال، فقال: إنّي أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه). أخرجاه في الصّحيحين[١]. وأمّا الصّدقة الواجبة، كالزّكاة فإظهارها أفضل، كما أنّ صلاة الجماعة أفضل في الفرض، وصلاة البيت أفضل في المندوبات، وأمّا من أمن على نفسه من الرّياء وأظهر صدقة التّطوع ليُقتدي به ويعمل النّاس مثله يكون الإظهار له أفضل أيضاً.

* * *

ثمّ بعد ما نزلت هذه الآيات في الإنفاق، وهذه التّبشيرات للمؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى ورأى رسول الله (ﷺ) تكسّل بعض النّاس عن الصّدقات وتماطلهم فيها حزن قلب الرّسول الكريم وأنكرها لهم هذه، فسلاه الله تعالى وخفّف من تعبه وتحسّره على النّاس، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

(**ليس عليك**)، أي لم نفرض عليك أيّها النّبيّ ولم نجب عليك (**هداهم**) أن تأتي بهم إلى امتثال الأوامر وفعل الخير والإنفاق. وإنّما ذلك يرجع إلى اختيارهم وخلق الله تعالى، كما قال: (**ولكنّ الله يهدي**) يوصل إلى الخير (**من يشاء**) ـ وهم الذين يحبّون ذلك ـ وإنّما واجبك إلّا تبليغ وبيان الخيرات والصّدقات وفضلها وبيان الشّرور وقبحها، ثمّ إنّ ما يفعلونه من الصّدقات ينفع أنفسهم، كما قال: (**وما تنفقوا من خير فلأنفسكم**) حيث تجدون ثوابه أضعافاً عند الله تعالى، (**وما تنفقون إلّا ابتغاء**) ـ أي إلّا ابتغاء أي

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٣٣٤ الحديث رقم ٦٢٩، صحيح مسلم ٢/ ٧١٥ الحديث رقم ١٠٣١.

طلب ـ (**وجه الله**)، أي رضاءه (، **وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم**)، أي يعاد إليكم ثوابه (**وأنتم لا تظلمون**) شيئاً، فكلّ ذلك مكتوب وستجدون عوضه خيراً منه بكثير وكثير في الدّنيا والآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن من يكون إعطاء الصّدقة له أحسن وأفضل، فقال جلّ وعلا:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

(**للفقراء**)، أي أصرفوا الصّدقات وأعطوها (**للفقراء الذين أحصروا**) ـ حبسوا عن الكسب لأجل أداء عمل ـ (**في سبيل الله**)، والعمل في سبيل الله الذي يمنع المرء عن الكسب، وهو كلّ عمل يقوم به المرء من فروض الكفايات، كأفراد الجيش الذين يعملون في الجهاد، وكالمدرّس والإمام والمؤذّن والحاكم والمعلّمين والموظّفين والمخترعين، فكلّ من اشتغل بأمر عامّ يمنعه ذلك العمل عن الكسب، كما قال جلّ وعلا: (**لا يستطيعون ضرباً**)، أي حركةً (**في الأرض**) للعمل وتحصيل الرّزق منه (**يحسبهم الجاهل**) بحالهم (**أغنياء من التّعفف**)، أي بسبب تحفّظهم عن إظهار فقرهم وفاقتهم، (**لا يسألون النّاس**) المال والتّصدّق عليهم (**إلحافاً**)[1]، (إلحافا) كناية عن أنّهم لا يسألون، (**تعرفهم بسيماهم**) الذي يدلّ على الحاجة، (**وما تنفقوا من خير فإنّ الله به عليم**) فيجازيكم عليه بأحسن ممّا أنفقتم والله عزيز حكيم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يمدح المنفقين، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾

---

(١) أي إلحاحا ولجاجاً كغيرهم ممن يفعل ذلك أي لا يسألون أصلاً/ انظر تفسير البغوي ٢٥٩.

(**الّذين ينفقون**)، يصرفون (**أموالهم**) في سبيل الخير والبرّ (**باللّيل والنّهار**)، أي في الأزمنة كلّها (**سرّاً وعلانيةً**)، أي في جميع الأحوال، (**فلهم**) مقابل ذلك (**أجرهم**) الذي لا يعرف مقداره لكثرته إلّا الله، (**عند ربهم**) في الدّنيا لدفع البلايا عنهم وفي الآخرة بإيتاء الثّواب لهم، (**ولا خوف عليهم**) يوم القيامة من العذاب (**ولا هم يحزنون**) على فوات الدّنيا حيث وجدوا خيراً منها بكثير.

مسألة: لا يجوز إعطاء الصّدقات الواجبة لغير المسلمين، وعند أبي حنيفة يجوز إعطاؤهم صدقة الفطر منها فقط، وأمّا الصّدقات المندوبة فيجوز إعطاؤها للكافرين ويؤجّر المتصدّق بها على ذلك بدون خلاف، واتّفق العلماء على ذلك.

* * *

ثم بعد أن ذكر الله تعالى حسن الصدقات وأجرها أراد أن يذكر قبح الربا ووزرها فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾﴾

(**الّذين يأكلون**) يتعاملون بالرّبا ويأخذون (**الربا**) ـ وهو الزيادة على ما أقرضوا ـ (**لا يقومون**) يوم القيامة من قبورهم (**إلّا كما يقوم الذي يتخبّطه**) يصرعه (**الشّيطان**) ويجعله مصروعاً (**من المسّ**)، من مسّه له، (**ذلك**) العذاب واقع بهم (**بأنّهم**) بسبب (**أنهم قالوا إنّما البيع مثل الرّبا**) وإنّ البيع حلال فالرّبا حلال أيضاً[1]، ويكذبون في ذلك

(١) كما يقوله الجاهليون العصريون اليوم فيصورونه كما أن السلعة التي تشتريها اليوم فتبيعها بعد مدة فتربح فيها فتلك المدة هي سبب ربحك، فكذلك القرض إلى مدة بزيادة، تكون تلك الزيادة بسبب تلك المدة؛ فهما سواء.فالله تعالى لم يناقشهم كما ناقشهم في كثير من آيات العقيدة التي يجب أن تكون عن قناعة قلبية وإيمان عقلي، لأن مجرد مناقشتهم يعد اعترافا بحق التشريع للبشر كما لهم حق بيان ما ينبني عليه التصديق، وليس كذلك، بل حق التشريع لله تعالى فقط؛ لذلك لم يناقشهم فقال تعالى: (وأحل الله البيع=

فإن الحلّ والحرمة ليس حسب عقولهم، بل الحكم في ذلك مربوط بأمر الله تعالى، **(وأحلّ الله البيع وحرّم الرّبا)** فيجب الوقوف عند أمره وحكمه وعدم التّجاوز عنه، وهذا وعيد لكلّ من ينحرف عن النّص ولا يعمل به لدليل عقلي يراد هو أو غيره، **(فمن جاءه)** ـ أي بلغه ـ **(موعظة)** في منع الرّبا **(من ربّه فانتهى)** عن الرّبا بدون تردّد **(فله ما سلف)**، أي ما سبق من الرّبا، فلا يستردّ منه هذا بالنّسبة إلى الدّنيا، **(وأمره إلى الله)** بالنّسبة للآخرة، فلا يعذّبه، حيث لا عذاب دون تبليغ، **(ومن عاد)** إلى الرّبا بعد علمه بالحرمة **(فأولئك أصحاب النّار)**، أي أهل النّار، **(هم فيها)** في النّار **(خالدون)** مؤبّدون، وذلك إن اعتقد أنّ الرّبا حلال فإنه يكفر حين ذاك، لأنّ مستحلّ الحرام كافر وإلّا بأن ارتكب الرّبا واعتقد أنّه حرام فهو عاصٍ بارتكابه فلا يخلّد في النّار لأنّه لا خلود فيها لغير الكافرين.

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾

(يمحق الله الرّبا)، أي يهلكه في الدّنيا بأن يفلس المرابي ولا يبقى ماله، وفي الآخرة حيث يناله العذاب، **(ويربّي)** وينمي الله تعالى الصّدقات، فيزيد بها مال المتصدّق في الدّنيا، وفي الآخرة يضاعف له الأجر، وهذا عقاب المرابي، لا يعاقبه الله تعالى في الدّنيا بزوال حاله فقط، بل يزيده استدراجاً وغضباً عليه ليكثر عذابه يوم القيامة، **(والله لا يحبّ كلّ كفّار)** لنعمة الله، وهو المال، وذلك بصدقة أو التّعامل به على خلاف أمر الله تعالى، **(أثيم)** ذلك الكفّار لمخالفته أمر الله تعالى ودينه.

* * *

مسألة: الرّبا ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: **ربا الفضل**: وهو أن يبيع متماثلاً بمثله، كأن يبيع ذهباً بذهبٍ أو فضّةٍ

= وحرم الربا) ليعلم أن التشريع بمعنى التحليل والتحريم هو لله فقط لا للبشر وعلى البشر الإلتزام فحسب. مع أن كلام الجاهليين الجدد كذب محض لأن المدة في البيع قد تكون سببا للخسارة، فالاحتمالان موجودان، لكن الربا ليس فيها احتمال الخسارة، فضلا عن أن البيع سبب للرفاه الإقتصادي والربا سبب للضيق الأقتصادي، والبيع تيسير وتقديم خدمة والربا تعسير واستغلال؛ والبيع تنشيط للحركة الإقتصادية وتشغيل للأيدي العاملة،والربا تجميد للحركة الإقتصادية وتعطيل للناس. والبيع يورث الغنى للناس والربا يورث الفقر لهم . والله تعالى أعلم .

بفضّةٍ أو حنطةً بحنطةٍ، ويكون أحدهما زائداً على الآخر وزناً في الموزون أو كيلاً في المكيل، فإن المتماثلين إذا بيع أحدهما بالآخر فيجب أن يكونا حاضرين ومتساويين في الوزن أو الكيل، فإن زاد أحدهما أو كان أحدهما غير حاضر فهو ربا.

القسم الثّاني: ربا النّسيئة: وهو بيع شيء ربويّ بشيء ربويّ من غير مثله، كالذّهب بالفضّةِ أو الحنطةِ بالشّعير، فهذا يجوز التّفاضل فيه، كبيع مثقال ذهب بعشرين مثقالا من الفضّة وبيع مائة كيلو حنطة بثلاثمئة كيلو شعير، فذلك جائز إن كان كلاهما حاضرين، فإن كان أحدهما غير حاضر فهو ربا النّسيئة، أي ربا حصل بسبب تسويف أحد العوضين وعدم قبضه مع الآخر، قال (ﷺ): (الذّهب بالذّهب والفضّة بالفضّة والبرّ بالبرّ والشّعير بالشّعير والتّمر بالتّمر والملح بالملح مِثلاً بمثل يداً بيد، فاذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد)، فهذه الأشياء ربويّة بالنّص[١]، فعند المالكية والشّافعية علّة كونها ربويّة في الفضّة والذّهب النقديّة، وفي الباقي كونها مطعوما، فحصروا علّة الرّبا فيهما فقط، وعند الأحناف العلّة هو الوزن والكيل، فأثبتوا الرّبا في كلّ ما يوزن كالحديد والنّحاس والقطن وغيرها، وفي كلّ ما يكال حتّى الجصّ والتّراب. وعند البعض علّة الرّبا هو النّفع، فأثبتوا الرّبا في كلّ ما يُنتفع به[٢].

القسم الثّالث: ربا القرض: وهو أن تأخذ زائداً على ما أقرضته، وهذا هو الفاشي الآن، وكان فاشياً قبل نزول آية تحريم الرّبا، وكان هذا القسم سبباً لورود الآية الكريمة، وأن الحديث السّابق ألحق هذه الأشياء بالرّبا إلحاقاً صوناً من دخول الزّيادة في المتماثلين وفي النّسيئة ولما نزل قوله تعالى: ﴿فأمره الى الله﴾ وقوله تعالى: ﴿والله لا يحبّ كلّ كفّار أثيم﴾.

* * *

قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾

---

(١) أجمع الفقهاء على كون اتحاد الجنس علة لربا الفضل والنسيئة كليهما. وإنما الخلاف في العلة الأخرى / أنظر بداية المجتهد لابن رشد الحفيد طبعة ٢٠٠٩ م ص٤٦١.

(٢) أي المالية لأن كل ما ينتفع به مال، وهو قول بعض المالكية / بداية المجتهد ص٤٦٣.

(إنّ الذين آمنوا وعملوا الصّالحات) ومنها ترك الرّبا **(وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة لهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم)** ممّا قاموا به من قبل ولا هم يحزنون ممّا فعلوا من قبل، وإنّما قال هذه الآية، لأنّ الكفّار الذين يعملون بالرّبا حينما يتلون آية الرّبا وأن المرابي كافر وأثيم قد يمنعهم ذلك من الدّخول في الإسلام لجريمتهم هذه، فبشّرهم الله تعالى بأنّهم إن يؤمنوا فإنّ الله يغفر لهم فإنّ الإسلام يجبُّ ما قبله.

ثمّ بعد أن حرم الله الرّبا تحيّر الأصحاب الذين قد عقدوا معاملة الرّبا قبل ولم يستلموا بعد لا القرض ولا الزّيادة فلم يعلموا ماذا يعملون؟ هل يأخذون القرض والزّيادة، لأنّ العقد وقع قبل التّحريم أو يتركون الكلّ؟ أو يتركون الزّيادة فقط؟ فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾

(يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وذروا) ـ اتركوا ـ **(ما بقي من الرّبا)** عند النّاس **(إن كنتم مؤمنين)**، لأن الإيمان يدعو إلى الامتثال.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

(فإن لم تفعلوا)، بل أصررتم على أخذ الزّيادة **(فأذنوا بحرب من)**، أي فاعلموا بأنّ **(الله)** يحاربكم **(ورسوله)**. فحرب الله تعالى هو غضبه عليهم وحرب الرّسول هو أن يقاتلهم حتّى يتركوا الرّبا، وهذا واجب ولاّة أمور المسلمين في كلّ زمان أن يقاتلوا المرابين حتّى يتركوا هذه المعاملة الخبيثة، **(وإن تبتم)** عن أخذ الزّيادة **(فلكم رؤوس)** أصول أموالكم، أي قروضكم **(لا تظلمون)** المديونين بأخذ الزّيادة **(ولا تظلمون)** من قبل المديونين بأداء القرض ناقصاً.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

(وان كان)، أي وان وجد من المديونين من معاملة الرّبا أو غيره وهو **(ذو عسرة)** ضيق في المال لا يستطيع أداء القرض **(ف)** يجب عليكم **(نظرة)** إمهاله إذاً طلب ذلك

(**إلى ميسرة**)، أي إلى أن يجد مالاً يسهل عليه الأداء منه، (**وأن تصدّقوا**) عليه بالعفو عنه فهو (**خير لكم**) من الانتظار (**إن كنتم تعلمون**) أجر وثواب هذا التّصرف لا تتركونه أبداً.

ثمّ بعد أن حرّم الله الرّبا قال جلّ وعلا:

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾

(**واتّقوا**) بالنّفقات وترك الرّبا والعفو عن المعسر (**يوماً**) عذاب يوم (**ترجعون فيه إلى الله**) للحساب، وهو يوم القيامة، (**ثم**) بعد الرّجوع إلى الله (**توفّى**) تعطي (**كلّ نفس**) جزاء (**ما كسبت**) من خير أو شرّ، (**وهم لا يظلمون**) بأن يُكتم من خبرهم شيء أو يُحمل عليهم شرّ لم يعملوه. وهذه آخر آية نزلت على رسول الله (ﷺ)، ثمّ توفّي بعدها بأيّام.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إذا تداينتم)، أي إذا تعاملتم بالقرض **(إلى أجل)**، إلى وقت **(مسمّى)** معلوم ومحلّ لأداء الدّين **(فاكتبوه)**، أي فاكتبوا مقدار الدّين وأجله، **(وليكتب بينكم كاتب بالعدل)** متعلّق بـ (وليكتب) أي ليكتب بالعدل تماماً دون نقصان، أو متعلّق **(بكاتب)** أي كاتب في الشّريعة، فالكاتب الفاسق على المعنى الثّاني لا تجوز كتابته **(ولا يأبى)** ولا يمتنع **(كاتب)** من **(أن يكتب كما علّمه الله فليكتب)**، وبهذا أصبحت الكتابة على الكاتب فرض عين إن تعيّن وكفاية إن لم يتعيّن **(وليملل)**، أي ليذكر **(الذي عليه الحقّ)** فليذكر ذلك الحقّ للكاتب ليكتب، **(وليتّق الله ربّه ولا يبخس)** ولا ينقص **(منه)** ممّا عليه **(شيئاً)** لا كثيراً ولا قليلاً، **(فإن كان الذي عليه الحقّ سفيهاً)** قليل العقل **(أو ضعيفاً)** لمرض أوهرم، **(أو لا يستطيع أن يملّ هو)** بخرس أو عيّ في لسانه **(فليملل وليّه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا)**، أي لم يجد رجلين **(فرجل وامرأتان)** يكفي للإشهاد **(ممّن ترضون من الشّهداء)** من أصحاب العدالة والصّدق، ثم علّل الله تعالى قيام امرأتين مقام رجل واحد بأنّ النّساء كثيرة النّسيان عادةً، فقال: **(أن)** أي مخافة أن **(تضلّ)** وتنسى **(إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى)** ما نسيت، **(ولا يأبَ)** ولا يمتنع **(الشّهداء)** أي من يصلح لتحمّل الشّهادة فلا يمتنع من تحمّلها **(إذا ما دعوا)** لتحمّلها، وبهذا أصبح تحمّل الشّهادة فرضاً عيناً على من تعيّن وكفايةً على من لم يتعيّن. أو المعنى ولا يأب الشّهداء إذا ما دعوا إلى أدائها، وكلا المعنيين مقصودان، لأنّه يتوقّف معاملات النّاس وأمور معاشهم على تلك الشّهادة. **(ولا تسأموا)** ولا تضجروا **(من أن تكتبوه)**، أي تكتبوا الدّين **(صغيراً)** كان الحقّ **(أو كبيراً إلى أجله)** المحدّد، **(ذلكم)** الكتابة **(أقسط)** أعدل **(عند الله)** تعالى **(وأقوم)**، وأعون على أداء الشّهادة وإقامتها، لأنّ الشّهداء بها يتذكرون ما استشهدوا عليه، **(وأدنى)** وأقرب الى **(أن لا ترتابوا)** في الحقوق عددها ومددها، **(إلّا أن تكون)** المعاملة **(تجارةً حاضرة)** لا ديناً **(تديرونها بينكم فليس عليكم جناح)** وإثم فيه **(أن لا تكتبوها واشهدوا إذا تبايعتم)** في ما بينكم صوناً من الإنكار **(ولا يضارّ كاتب ولا شهيد)** ـ قوله (ولا يضارّ) إمّا أصله يضارِر بكسر الرّاء الأولى لبناء الفاعل فأدغم الرّاء في الرّاء، فالمعنى: ولا يضارّ كاتب من **يكتب** له أو عليه ولا يضرّ شهيد من يشهد له بالكتم أو من يشهد عليه، أو الرّاء الأولى كانت مفتوحة لبناء المجهول، فالمعنى: ولا يضرّ أحد الكتاب حيث كتب عليهم الحقوق ولا شهيد حيث شهدوا عليهم وكلا المعنيين مقصودان في الشّرع، **(وإن تفعلوا)** المضارّة بأن تضرّوا الكاتب أو الشهيد فتأذوهم، أولا يضرّ الكاتب في كتابته والشّهيد

بشهادته فيشهدوا زوراً، (**فإنّه**) أي إنّ هذا الفعل من المضارّة (**فسوق بكم**) ومعاص تلحق بكم، أو المعنى ولا يلحق الضرر بالكاتب والشّهيد بأن لا يعطى لهما أجورهما، وهذا المعنى مقصود أيضاً، (**واتّقوا الله**) بالمحافظة على هذه الأوامر والأحكام، (**ويعلّمكم الله ولله بكلّ شيء عليم**) من محافظتكم على آدابه وأحكامه أو إهمالكم لها فيجازيكم على ذلك. وإنّ الكتابة والإشهاد المأمور بهما في هذه الآية واجبان أو مندوبان، الجمهور على أنّهما سنّتان، وغيرهم قالوا بوجوبهما، وهذا هو الأصحّ إلّا عند التّعذر، وذلك لقوله تعالى: ﴿فليس عليكم جناح﴾، أي إثم، فيفيد أنّه في البيع يجد الأثم على عدم الكتابة والإشهاد، والإثم يكون على المعصية، فيكون عدم الكتابة معصيّة، فالكتابة واجب ولله تعالى أعلم.

﴿۞وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

(**وإن كنتم على سفر**) في سفر ولم تجدوا كاتباً يكتب لكم الدّيون (**فرهان**) - وفي قراءةٍ (فرهن) - أي فرهن حاجة (**مقبوضةٍ**) من قبل الدّائن بطلب منكم بدل الكتابة للتّوثيق، فإن (**أمن بعضكم بعضاً**) - قيل: هذا نسخ لما سبق، إذ المعنى: إن أمن بعضكم بعضاً فلا حاجة إلى الكتابة ولا إلى الإشهاد ولا إلى الرّهن، وقيل: هذا يرجع إلى الرّهن فقط، أي إن أمن بعضكم بعضاً فلا حاجة للرّهن، فهو نسخ لوجوب الرّهن فقط.

وعندي: أنّه لا نسخ ولا إبطال، بل إنّ هذا حكم مستقلّ ذكر بعد الدّين وكتابته، أو الرّهن وهو حكم الأمانات - فالمعنى: إذا أمن بعضكم بعضاً ووضع عنده أمانة[١] **فليؤدّ الذي أؤتمن**) ويردّ له (**أمانته وليتّق الله ربّه**) فلا يخن في الأمانة بإنكارها أو باستعمالها بدون إذن صاحبها أو ردّ الناقص منها، فهذا حكم مستقلّ، فكما الله تعالى ذكر الدّين والأمانة فإن الدّين والأمانة متشابهان، لأنّ كليهما وضعُ مال عند الغير، إلا أنّ الأمين يجب عليه أن يردّ نفس المال والمديون يردّ مثله لا عينه.

ونقول: حتّى ولو كان الكلام راجعاً إلى الدّين والرّهن فلا يكون نسخاً، بل يكون

(١) ولم يتب ولم يطلب الرهن ثقة أو نسيانا أو إهمالا...

تخصيصاً، إذ يكون المعنى: إنّ الكتاب والأشهاد والرّهن إنّما يطلب كلّ ذلك عند ضعف الثّقة، فإذا صارت الثّقة وأمن بعضكم بعضاً من الإنكار والجحود فلا حاجة إلى ذلك، بل فليؤدّ الذي أؤتمن أمانته وهو الدّين كاملاً، ولكن يضعف هذا المعنى أنّ الكتابة والإشهاد لم يشرّع لدفع الإنكار فقط، بل لدفع الشّكّ والنّسيان أيضاً بدليل قوله: **(وأدنى أن لا ترتابوا)**، فالحقّ أنّ المراد بهذه الفقرة الأمر بأداء الأمانة، ومن الأمانات الشّهادة، فقال **(ولا تكتموا الشّهادة)** بالمنع عن أدائها، **(ومن يكتمها فإنّه آثم قلبه)** لتضيعه حقّ النّاس، **(والله بما تعملون)** من كتم الشّهادات **(عليم)** فيعاقبكم عليه، وفي هذا وعيد شديد لمن كتم الشّهادات، لأن الإثم في القلب يدلّ على أنّه يخبث القلب ويؤثّر في الأمان وصفاء القلب.

* * *

وهنا مسائل:

الأولى: إنّ الرّهن ليس مختصّاً بالسّفر ولا بعدم الكاتب، بل يكون في الحضر أيضاً، لأنّ رسول الله (ﷺ) رهن درعه عند أبي شحم اليهودي على طعام أخذه إلى أجل ولم يكن في سفر ولا حين عدم الكاتب، وإنما ذكر هنا في حال السّفر وعدم الكاتب، لأنّ السّفر مظنّ بعدم وجود الكاتب والشّهود.

الثانية: أنّ الرّهن عبارة عن وضع شيء عند الدّائن توثيقاً لدينه، فإذا جاء الأجل ولم يوفّ المديون الدّين يبيع الدّائن المرهون ويستوفي منه دينه ويردّ الزّائد إلى مالكه.

الثالثة: الاستفادة من المرهون من قبل صاحب الدّين حرام، ويعتبر رباً، لأنّ كلّ قرض جرّ نفعاً فهو ربا.

* * *

﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

(لله) تعالى كلّ **(ما في السّماوات وما في الأرض)** مُلكاً ومِلكاً، فهو مالك الكلّ ومَلك الكلّ، **(وإن تبدوا ما في أنفسكم)** ممّا لا يجوز إبداؤه **(أو تخفوه)** ممّا يجب

إبداؤه، كالشّهادات والإقرارات (**يحاسبكم**)، أي يعاقبكم (**به**) بسبب ما تبدون ممّا لا يجوز إبداؤه أو تخفون ممّا لا يجوز إخفاؤه، كالشهادات والإقرارات، وبهذا التّفسير لم تشمل الآية الوساوس وحديث النّفس بالمعاصي فإنّها معفو، لقوله (ﷺ): إنّ الله تجاوز عن أمّتي ما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلّم به[1]. فحديث النّفس لا يعاقب المرء عليه بالاتّفاق. وأمّا إذا وصل إلى العزم إلّا أنّه منع منه مانع فالجمهورعلى أنه مؤاخذ به، وقال غيرهم: لا يؤاخذ به، وهذا أوفق برحمة الله تعالى وبقوله (ﷺ): ما لم تعمل أو تتكلّم به، فهذا نصّ في عدم المؤاخذة إلّا بالعمل أو القول، فظهر من هذا الكلام أنّه لا حاجة إلى القول بأنّ الآية عامّة بحديث النّفس أيضا إلّا أنّها نسخت بحقّ حديث النّفس بأخيرها من قوله: (لا يكلّف الله نفسا إلّا وسعها)، لأنّ الآية إخبار والنّسخ لا يعتري الإخبار وإنّما هو للأوامر والنّواهي، ولأنّه من العجيب أن ينسخ أول الآية بآخرها والبعيد من القبول[2].

ثمّ أراد الله تعالى أن يختم بما بدأ به، وهو ذكر الأمان، فأتى بالآية الآتية كالشّرح والبيان لقوله في أول السورة (الذين يؤمنون بالغيب)، فبيّن فيها الغيب الذي يجب الأيمان به، فقال جلّ وعلا:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾

(**آمن الرّسول**) ـ محمّد (ﷺ) ـ (**بما**) بكلّ ما (**أنزل اليه**) من الله تعالى ومن القرآن الكريم والأحاديث القدسية التي لفظها ومعناها من الله تعالى والأحاديث النّبويّة التي معناها يأتي من الله تعالى واللفظ والتّعبير عنه يكون من النّبيّ (ﷺ) (**والمؤمنون**)، أي وآمن المؤمنون بما أنزل إلى الرّسول (ﷺ)، ثمّ أراد أن يذكر ما يجب الإيمان به، فقال: (**كلّ**) أي كلّ من الرّسول والمؤمنين (آمن **بالله**) وهو غيب عنّا، (**وملائكته**) وهم غيب في صورهم أيضاً، (**وكتبه**) وآمنوا بأنّ كتباً جيء بها من عند الله تعالى إلى الرّسل

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٢٠ الحديث رقم ٤٩٦٨.

(٢) الشيخ المفسر رحمه الله تعالى يميل دائما إلى عدم النسخ ما أمكن ذلك.

ليبلّغ النّاس بما فيها ويأمرهم بالعمل بها، والكتب وإن كانت ظاهرة إلّا أنّ حجّتها عند الله تعالى غيب، **(ورسله)** والرّسل وإن كانوا مشاهدين إلّا أنّ وجود الرّسالة بين الله تعالى وعباده غيب لا يعلم إلّا بالأدلّة العقلية، وكذا كون الرّسل رسلا من الله تعالى غيب لا يعرف إلّا بالمعجزات والدّلائل، **(وقالوا)**، أي قال الرّسول والمؤمنون **(سمعنا)** أوامرك يا ألله **(وأطعنا)** فيها، فنطلب **(غفرانك)** يا **(ربّنا و إليك)** وحدك لا إلى أحد سواك **(المصير)** المرجع للحساب يوم القيامة. وفي هذا إيمان باليوم الآخر أيضاً، فاشتملت هذه الآية على أصول الإيمان الخمسة، وهو الإيمان بالله والملائكة والكتب والرّسل واليوم الآخر، وكلّ ذلك غيب فيكون بياناً لقوله في أوّل السّورة: (الذين يؤمنون بالغيب)، وبقي الإيمان بالقدر، وهو مفهوم من الإيمان بالكتب، لأنّها تنطق به، وقوله سمعنا وأطعنا متضمّن لقوله في أوّل السّورة (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)، فكان من ختم الكلام والسّورة بما بدأ به، ويسمّى هذا بالعود على البدء، وهو صنعة بديعية يورث الكلام رونقاً وجمالاً.

ثمّ بيّنوا درجة سمعهم وطاعتهم لله تعالى، فإن السّمع والطّاعة لله حقّ، ولكنّ المرء لا يستطيع ممارسة السّمع والطّاعة إلّا بمشيئة الله تعالى، فقالوا:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

(لا يكلّف)، أي سمعنا وأطعنا بقدر وسعنا، والحال أنّه **(لا يكلّف الله نفساً إلّا وسعها)** إلّا ما تستطيعه **(لها)** أي لنفع النفس، **(ما كسبت)** من خير حيث تجد ثوابه أضعافاً، **(وعليها)** أي ويضرّها **(ما اكتسبت)** من شرّ حيث تلاقي عقابه، وفي التّعبير في جانب الخير بما كسبت بشارةً، وهو أن كسب الخير ينفع وإن لم يكن فيه القصد، وفي جانب الشّرّ بما اكتسبت دلالة على أنّ الشّرّ لا يضرّ إلّا مع القصد، كما يفيد بناء الافتعال ذلك، وهذا من لطف الله تعالى بعباده، **(ربّنا)** أي وقالوا: **(ربّنا لا تؤاخذنا)** لا تعاقبنا **(إن نسينا)** فتركنا واجباً أو ارتكبنا ذنباً سهواً ونسياناً، **(أو أخطأنا)** في الأعمال،

(**ربّنا ولا تحمل علينا إصراً**)، أي لاتحمل علينا تكاليف صعبةً، (**كما حملته على**) الأمم (**الذين**) كانوا (**من قبلنا**)، فقد كان مكتوباً عليهم أن يقتل الشّخص نفسه وأن يقطع موضع النّجاسة من الثّوب والجلد أو غير ذلك، (**ربّنا ولا تحمّلنا**) من المصائب والبلايا (**ما لا طاقة لنا به واعف عنّا**) امح عنّا الكبائر (**واغفر لنا**) الصغائر، (**وارحمنا**) في استجابة هذه الأمور، فإنّا لا نستحقّ شيئاً إلّا برحمتك يا الله (**أنت مولانا**) ناصرنا وبيدك كلّ أمورنا (**فانصرنا على القوم الكافرين**) آمين.

* * *

سؤال: إنّ الخطأ والنّسيان مرفوعان عن الأمّة لقوله (ﷺ): (رفع عن أمّتي الخطأ والنّسيان وما استكرهوا عليه)، أي رفع المؤاخذة عليها، فإذاً ما الفائدة في الدّعاء: (ربّنا لا تؤاخذنا... إلخ)، أليس هذا طلب لتحصيل الحاصل؟

الجواب بوجوه:

الأوّل: أنّه يحتمل أنّه رفع الخطأ والنّسيان عن الأمّة بهذا الدّعاء (دعاء الرّسول والمؤمنين الأوّلين) وورد الحديث بعد ذلك.

الثاني: أنّ المراد بقولهم (لا تؤاخذنا)، أي أدم علينا عدم المؤاخذة بالخطأ والنّسيان، كما نقول: (إهدنا الصّراط المستقيم)، أي ثبّتنا على الهداية.

الثالث: أنّ الخطأ والنّسيان نوعان: الأوّل: ما لا دخل لك فيهما ولا تسبب في وقوعه، فهذا هو المدفوع عن الأمّة. والثّاني: يحدث بسبب إهمالك وعدم مبالاتك بالأمر، وهذا غير مرفوع، والدّعاء ورد على هذا النّوع، والله تعالى أعلم.

(**ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين** من **قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا فانصرنا على القوم الكافرين**) آمين يارب العلمين.

قد تشرّفت أنامل الفقير بإتمام ما وفقها الله تعالى من كتابة هذا القسم من التّفسير من أوّل الجزء الثّاني من كلام الله العلي إلى آخر هذه السّورة، وذلك في يوم السّبت بعد الظّهر ٢٣ شهر محرم الحرام سنة ١٤٠٧ في داري الواقعة في بغداد الأعظمية في سبع أبكار قرب سوق السّمكة وأنا محمد ابن الشّيخ طه الباليساني نسبةً إلى باليسان

مسقط رأسي ومحل ولادتي ونشأتي، وهي قرية من قرى خوشناو تابعة لقضاء شقلاوة التّابعة لمحافظة أربيل، وإنّها قرية حسن المنظر والهواء وطيب الفواكه والماء، وسمعت ممّن أثق به أنّ أجدادنا نزحوا إليها وسكنوا فيها قبل(٧٠٠) سنة، وكانوا بيت علم ودين، ولم يمض زمان لم يكن فيهم عالم مشهور أو أكثر إلى يومنا هذا، وفي هذه الأيام أكبر عالم هذه العائلة أخي وشقيقي وأستاذي الشّيخ عمر الملقب بزين العابدين، أدام الله نعمة بقائه علينا آمين.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين وعليه التّكلان لأن يوفّقني لإتمام تفسير جميع القرآن، وهو حسبي ونعم الوكيل.

٢٣ محرم الحرام ١٤٠٧ بغداد - الأعظمية - سبع أبكار.

سورة آل عمران

مدنيّة، ومائتا آية، وسمّيت بهذا الإسم لأنّه جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله (ﷺ) فجادلوه في أمر عيسى(عليه السلام)، فمنهم من يقول هو إله ومنهم من يقول هو إبن إله، وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فنزلت الآيات من أوّل هذه السّورة إلى الآية ثمانين، لتفنّد رأيهم وتبيّن كيفيّة ولادة عيسى من مريم بنت عمران (عليه السلام) فالمعنى: السّورة الّتي يذكر فيها حال آل عمران وكيفيّة ولادة عيسى من مريم بنت عمران وأنّه عبدالله ورسوله وليس بإله ولا إبن إله، فالمراد بآل عمران هو سيّدنا عيسى وأمّه مريم (عليهما السلام).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١﴾
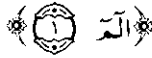
مرّ الكلام على هذه الحروف المقطّعة الّتي جاءت في أوائل بعض السّور بتفصيل في أوّل سورة البقرة، وصدرت بها في هذه السّورة لأمرين:

الأمرُ الأوّل: ليفتح الوفد آذانهم وقلوبهم فتقع فيها هذه الآيات وقوعاً لا يفوتهم بشيءٍ منها؛ وذلك لأنّ المرء حينما يسمع شيئاً غريباً وعجيباً يفتح كلّ أذنيه وقلبه لما يأتي بعده.

الأمر الثّاني: هو أنّ يعلم الوفد أنّ هذه الآيات الّتي تخبر عن مريم وإبنها وحالهما هي آيات نزلت من الله تعالى وليست من محمّد وكلامه وذلك بوجهين:

الوجه الأوّل: هو أنّهم كانوا يعلمون أنّ محمّداً أميٌّ ونشأ في أمّةٍ أمّيةٍ ولم يكن له أيّ علاقةٍ بالقراءة والكتابة، وأنّ التعبير عن أسماء الحروف لا يعرفه إلّا القارئ أو

الكاتب فعلموا بذلك أنّ محمّداً (ﷺ) لم يعرف هذا التّعبير إلّا بالوحي إليه من الله تعالى.

الوجه الثّاني: أنّه كان في الوفد أناس من أهل البلاغة والفصاحة، فحينما سمعوا القرآن من محمّد (ﷺ) ورأوا أنّ هذا الكلام بالغٌ الحدّ الأعلى ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله، وأنّه مؤلّف من هذه الحروف الّتي يركّب النّاس منها خطبهم وأشعارهم، وليس من حروف غريبة، وعلموا أن محمّداً (ﷺ) أمّي لم يمارس الشّعر والخطابة قطّ، علموا بذلك أنّه تعلّم ذلك بالوحي إليه من الله تعالى وعلموا أنّه رسول.

ويمكن أن يكون هناك وجه ثالث وهو: أنّهم رأوا في كتبهم أنّ من علامة الرّسول (ﷺ) الموعود به أنّ الكتاب المنزل عليه يصدّر بعض سوره بالحروف المقطعة من حروف الهجاء والله تعالى أعلم، ولذلك كلّه بعدما تلا الرّسول (ﷺ) عليهم هذه الآيات، وفي الختام طلب المباهلة لكنّهم لم يباهلوا لأنّهم علموا أنّه رسول (ﷺ) وأنّ من باهل الرّسول فإنّه يهلك كما يأتي ذلك في آية المباهلة إن شاء الله تعالى.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾

في هذه الآية ردّ على قول الوفد أنّ عيسى إله أو إبن إله، فإنّ المعنى: (**اللّهُ لا إلَهَ**) أي لا معبود (**إلّا هُوَ**) لا عيسى ولا غيره، وذلك لأنّ الله هو (**الْحَيُّ**) الّذي يحيا حياة من ذاته لا يعتريها الموت والعدم والفناء، وعيسى ليس حيّاً هذه الحياة بل كان معدوماً، فوجد ثمّ فنى ومات، فكيف يكون إلهاً؟ وإنّ الله هو (**الْقَيُّومُ**) أي القائم بتدبير شؤون الكون والعالم والعباد كلّه، ومن كان له هذه القدرة لا يحتاج إلى ولد فليس عيسى بإبن له.

هذا وحيث إنّ قيّوميّة الله تعالى نوعان: قيّوميّة تكوين وإيجاد، وتكوين تربية وتعليم وتكليف وتشريع؛ فينشأ من قيّوميّته وتدبيره النّاس تربية وتكليفاً وتشريعاً أن ينزّل الكتب والشّرائع كلّما انحرف النّاس عن منهجه وشريعته، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾

(**نَزَّلَ**) أي الله (**عَلَيْكَ**) يا محمّد (**الْكِتَابَ**) وهو القرآن (**مُصَدِّقاً لِّمَا**) للكتب الّتي نزلت (**بَيْنَ يَدَيْهِ**) أي قبله من التّوراة والإنجيل وغيرهما وتقديمه لها بنوعين:

الأوّل: إنّ هذه الكتب كلّها أخبرت وبشّرت ببعثة محّمد (ﷺ) ونزول القرآن عليه فصدّق القرآن هذه البشارة ونزل على محمّد (ﷺ).

الثّاني: هو أنّ القرآن يوافقها في التّوحيد والعقائد وأمّهات الأحكام العمليّة وأصولها.

(وَأَنزَلَ) الله تعالى **(التَّوْرَاةَ)** على موسى **(وَالإِنجِيلَ)** على عيسى (عليه السلام) (مِن قَبْلُ) من قبل إنزال القرآن وأنزلت تلك الكتب كلّها **(هُدًى لِّلنَّاسِ)** لأجل الهداية وإرشاد النّاس إلى حكم الله تعالى وتشريعه الأحكام للعباد **(وَأَنزَلَ)** الله تعالى **(الْفُرْقَانَ)** قيل: هو التّوراة، وقيل: هو الإنجيل، وقيل: هو القرآن، وعلى كلّ قول من هذه الأقوال يكون تكرار في الآية لا داعي إليه، **فالّذي أراه**: أنّ المعنى **(وَأَنزَلَ)** الله تعالى بإنزال هذه الكتب **(الْفُرْقَانَ)** الفرق بين الحقّ والباطل والحسن والقبيح، حيث بيّن فيها ما هو الحقّ المقبول عند الله تعالى من الأعمال وما هو الباطل المردود منها، وتفيد الآية بأنّ الحقّ والباطل راجعان إلى جعل الله تعالى، فما جعله حقّاً وحسناً فهو حقّ وحسن، وما جعله باطلاً وقبيحاً فهو باطل، وليس ذلك راجعاً إلى الشّئ ذاته كما يقول المتعقلون[1]، لأنّه لو كان كذلك لما جاز تغيير الأحكام لأنّ مقتضى الشّئ لا يتغيّر، وقد تغيّرت الأحكام؛ فكثير ممّا كان حراماً في التوراة أحلّ في الإنجيل، قال تعالى حكاية عن قول عيسى (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) في هذه السّورة (وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) أي في التّوراة. وقد أبطل كثير من أحكام التّوراة والإنجيل بالقرآن وهذا أمر لا خلاف فيه. فالله تعالى مختارٌ في تشريعه كما هو مختار في تكوينه وليس مجبراً من قبل الأسباب في التكوين كما يدّعيه المتفلسفون ولا مجبراً في التّشريع من العلل كما يدّعيه المتعقّلون، بل الحكم إمتحان وإختبار حسب ما يشاء الله تعالى، وهذا ما ذهب إليه أهل السّنة والجماعة. ثمّ لمّا ذكر أن الله تعالى أنزل الفرقان في هذه الكتب للفرق بين الحقّ والباطل من العقائد والأحكام قال جلّ وعلا:

---

(١) فيه إشارة إلى أنهم ليسوا عقالا ولكن يدعونه، ويقصد به من أهل هذا الزمان الذين يدعون فهم كل شيء بالعقل، فيقولون بأنه ينبغي عرض كل حكم أو خبر جاء به الإسلام على العقل ليقبله أو يرفضه، وليتهم يقصدون العقل الصحيح السليم، لكنهم يقصدون العقل العلماني أو الإشتراكي أو الفوضوي الذي لا يعترف بالثوابت ولا القيم و ولا الأخلاق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ**) أي بأحكامه الّتي أنزلها (**لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ**) ذو عزّة لا يغلب عليه أحدٌ ولا يتخلّص منه أحد (**ذُو انتِقَامٍ**) لمن كفر به بأحكامه. والكفر بأحكامه نوعان:

الأوّل: أن لا يؤمن بها فهو في عذاب شديد وهو الخلود في النّار.

الثّاني: أن يؤمن بها ولا يطبّقها ولا يعمل بها فعذابه الشّديد هو الدّخول في النّار إلى أن يتطهّر من المخالفات فيما اقترف وعمل. فالأوّل: سمّي كفر عقيدة وإيمان، والثّاني: سمّي كفر أعمال وإسلام. حفظنا الله تعالى منهما جميعاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من صفات الألوهيّة ما لا يوجد في عيسى (عليه السلام) ولا في غيره سوى الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾

(**إِنَّ اللّهَ لاَ يَخْفَىَ عَلَيْهِ شَيْءٌ**) من المحسوسات والمعقولات ومن الأمور الصّغيرة والكبيرة والظّاهرة والباطنة من كلّ ما (**فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء**) وعيسى لم يكن ليعلم كلّ شئ فكيف يكون إلهاً؟ ثمّ ذكر صفة أخرى لا يوجد في عيسى (عليه السلام) فقال جلّ من قائل:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

(**هُوَ**) أي الله (**الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ**) أي أرحام أمهاتهم (**كَيْفَ يَشَاء**) فيخلق من يشاء ذكراً أو أنثى حسناً أو غير حسن طويلاً أو قصيراً ضعيفاً أو قويّاً سخيّاً أو بخيلاً ذكيّاً أو غبيّاً إلى آخره ممّا يتّصف به الإنسان، وعيسى لا يستطيع ذلك بل هو كان مصوّراً في رحم أمّه كيفما شاء الله تعالى؛ فكيف يكون إلهاً أو إبن إله (**لاَ إِلَهَ**) موجود (**إِلاَّ هُوَ**) أي الله (**الْعَزِيزُ**) ذو العزّة الدّائمة (**الْحَكِيمُ**) ذو الحكمة المتقنة.

روي أنّ الرّسول (صلى الله عليه وسلم) قال لوفد نجران: (ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولد إلّا هو يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألم تعلموا أنّ الله تعالى حيّ لا يموت وعيسى يموت؟ وإنّ ربّنا قيّم على العباد يحفظهم ويرزقهم وعيسى لا يقدر على ذلك؟ وأنّه لا يخفى عليه

شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، وعيسى لا يعلم إلّا ما عُلّم؟ (أي علّمه الله تعالى) وإنّه صوّر عيسى في الرّحم كيف يشاء فحملته ووضعته وأرضعته وكان يأكل ويُحدث، أي يعتري عليه الحدث ونقض الوضوء وربّنا منزّهٌ عن ذلك كلّه فانقطعوا عن هذا.

ثم قالوا للرّسول: ألست تزعم أنّ عيسى كلمة الله وروح منه؟ قال: بلى، قالوا: فحسبنا ذلك، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

(**هُوَ الّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ**) يا محمّد (**الْكِتَابَ**) وهو القرآن (**مِنْهُ**) أي بعض منه (**آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ**) واضحة الدّلالة مفهوم معناها لا خفاء فيها (**هُنَّ**) أي هذه الآيات المحكمات (**أُمُّ الْكِتَابِ**) أصل الكتاب وأسّسه ويجب أن يردّ إلى معانيها ومفاهيمها.

والآيات المتشابهات الّتي ذكرها بقوله: (**وَأُخَرُ**) أي وآيات أخرى في القرآن (**مُتَشَابِهَاتٌ**) تحتمل معاني مختلفة فتشتبه على القارئ معناها فيجب أن تردّ إلى المحكمات فتفسّر بحيث توافق المفاهيم والأسس المبيّنة في الآيات المحكمات، فمثلاً قال تعالى في حقّ عيسى (ﷺ): ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ سورة النساء الآية/ ١٧١، فقوله: وروح منه، متشابه فسّره النصارى بأنّه إبنه لأنّ الإبن روح ينشأ من الأب، وفسّره المسلمون بأنّه روح خلق من قبله بدون أب، فمعنى المسلمين هو الصّحيح لأنّه يوافق مفهموم الآية المحكمة الواردة في قوله تعالى: ﴿اللّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ سورة الإخلاص الآيتان/ ٢،٣، حيث تفيد هذه الآية المحكمة نفي الإبن عن الله تعالى نفياً لا يحتمل التّأويل[1]، ومعنى النّصارى وتفسيرهم خطأ لأنّه يخالف ما نصت عليه الآيات المحكمة. ومثل قوله تعالى:

---

(١) وكذلك قوله تعالى (هو الذي يصوركم في الأرحام...) يشمل عيسى عليه السلام الذي لا يستطيع أحد أن ينكر أنه صوره الله تعالى في رحم مريم عليها السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ سورة الزمر الآية/ ٥٣، فإنّه متشابه حيث يحتمل أنه يغفر للمشرك والملحد والكافر والمؤمن تاب أو لم يتب؛ فيجب ردّه إلى المحكم الوارد في ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ سورة طه الآية/ ٨٢، وإلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ سورة النساء الآية/ ١١٦، وهكذا يجب أن يعرض التشابه على المحكم ويفسّر على وفقه ومقتضاه فإنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً (**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ**) أي ميل عن الحق فلا يردّون المتشابه إلى المحكم بل يتمردّون (**فَيَتَّبِعُونَ**) أي يتمسّكون بـ (**مَا تَشَابَهَ مِنْهُ**) من آيات القرآن الكريم (**إبْتِغَاء**) ويبتغون على خلاف مقتضى المحكمات وأسسها ويبتغون بذلك أي يبتغون (**الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ**) أن يفتنوا النّاس عن أصل دينهم وقواعده ويضلّونهم عمّا اتّضح لهم من الآيات المحكمات في كتاب الله الكريم. (**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ**) الّذي هو مراد الله تعالى والّذي لا مناص منه (**إِلَّا اللّهُ**) تعالى (**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**) فيه قراءتان:

القراءة الأولى: الوقف على لفظ الله (جلّ جلاله) فيفيد أنّه لا يعلم تأويل المتشابه إلّا الله (**وَ**) أما (**الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**) يقفون عليها ولا يؤولونها بل (**يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ**) ولا نفسره والله تعالى أعلم به (**كُلٌّ**) من الآيات محكمها ومتشابهها حقّ نزل (**عِندِ رَبِّنَا**) تعالى على رسوله (**وَمَا يَذَّكَّرُ**) وما يتذكّر ويتعظ بالآيات (**إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ**) أصحاب العقول، فيفيد أن من لا يتذكّر بالقرآن فليس بعاقل وإن بلغ ما بلغ من العلم والمعرفة والثّقافة.

القراءة الثّانية: الوقف على لفظ في العلم في قوله: (**وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**) فيفيد أنّه يعلم تأويل المتشابه (**اللّهُ**) والرّاسخون في العلم أيضاً إلّا أنّه فرّق بين العلمين؛ فعلم الله يقين لا يحتمل النّقيض والتّخلّق، وعلم الرّاسخين هو ظنّ غالب يحتمل التّخلّق؛ ولذلك (يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الألْبَابِ).

وهنا تنبيهات:

التّنبيه الأوّل: إن المذمّة والملامة لا تقع إلّا على الّذين يتمسّكون بالمتشابهات ويطلبون تأويلها على ما يخالف ما ثبت في محكمات الآيات والأسس الّتي بيّنت فيها؛ ليضلّوا النّاس ويصدّوهم عن قواعد الشّرع الشّريف والعقائد الصّحيحة المثبتة في الآيات المحكمات، وأمّا الذين يريدون تأويله بحيث لا يخالف منطوق المحكمات ومفاهيمها

والأسس الثّابتة بها فلا يستحقّ الذّم والملامة، وهذا ما أفادته الآية الكريمة بوضوح دون خفاء.

التّنبيه الثّاني: إنّ مذهب النّاس في تفسير القرآن الكريم خمسة مذاهب:

المذهب الأوّل: مذهب الباطنيّة فهم يؤوّلون كلّ آيات القرآن الكريم إلى غير ظاهرها، وهؤلاء كفرة لأنّهم يريدون بذلك إبطال أحكام الدّين كلها فأجمعت الأمّة على تكفيرهم.

المذهب الثّاني: يأخذون كلّ الآيات بظواهرها ولا يؤوّلون شيئاً منها، وعلى ذلك أهل الظاهر. وهذا خطأ لأنّه لا يمكن الأخذ بالظّاهر في كلّ الآيات كما يأتي في التّنبيه الآخر.

المذهب الثّالث: الأخذ بالظّاهر في المحكمات وتفويض العلم في المتشابه إلى الله تعالى وعدم الخوض في معناه، وهذا مذهب السّلف وهذا أسلم.

المذهب الرّابع: مذهب أهل التّصوّف الصّادقون: وهو الأخذ بالظّاهر في الأحكام وإستنباط إشارات من الآيات بعد الأخذ بالظّاهر والتمسّك به، وهذا لا بأس به إلّا أنّ عدمه خير من وجوده مخافة أن ينجرّ إلى مذهب الباطنيّة الكفرة فيترك ظاهر القرآن وأحكامه.

المذهب الخامس: وهو مذهب الخلف وهو أنّه يؤخذ بالظّاهر في آيات القرآن الكريم ولا يحمل على معان أخرى غيرها إلّا أن يتناقض ظاهر الآية مع دليل قطعي من نص أو عقل؛ فحينئذٍ لا محيص من التّأويل لئلّا يتوهّم ضعفاء الإيمان وجود الكذب أو التّناقض في كلام الله تعالى؛ فتؤول الآية بحيث لا يصطدم مع ما ثبت في محكم الآيات وهذا مذهب الخلف وهو أحزم.

التّنبيه الثّالث: إنّ التّأويل ضروريّ في بعض الآيات الّتي لو لم تؤوّل تتناقض مع الحقّ والحقيقة ونفس الأمر ونذكر لك أمثلة من ذلك:

١- قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ أي إلى الّذي يموت ﴿مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ سورة الواقعة الآيتان/ ٨٣، ٨٥، أي لا تبصروننا، فلو أريد بمعنى: (نحن) ذات الله تعالى، أو هو مع الملائكة، وفي السّاعة يموت ما لا يحصى من النّاس يلزم أن يتعدّد الله تعالى إلى ما لا يحصى وهذا

كفر وباطل، فيجب أن يراد بـ (نحن) أي ملائكتنا فقط، كما يقال جاءت الحكومة إلى مكان كذا أي جيشه أو جنوده وهذا شائع، فملائكة الله تحضر عند الّذي يموت لقبض روحه والذهاب بها إلى ما تستحقّه وهم أقرب إلى الميّت من أهله إلّا أنّهم لا يبصرونهم للطافتهم وعدم كثافة أجسامهم.

٢- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ سورة الحديد ـ الآية/ ٤ ـ ، فإن أريد أنّ ذات الله تعالى معكم كما هو الظّاهر لزم أن يكون مع كلّ أمر ذات الله تعالى؛ فتتعدّد ذاته تعدّداً لا يحصى وهو باطل، فيجب أن يقال هو معكم بعلمه وقدرته لا بذاته تعالى.

٣- قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١١٥ ـ فإن أريد بقوله: (فثمّ وجه الله) ذاته والنّاس يتولّون إلى جهات شتّى يلزم التّعدد في وجهه وذاته. فيجب أن يؤوّل الوجه بالعلم ويدل على ذلك قوله بعده: (إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) أي واسع علمه فيعلم كلّ أمر في كلّ مكان كيف عمل وكيف تحرك أو سكن؟ والأمثلة في هذا النّوع كثيرة جدّاً، إلّا أنّه لا يجوز التّأويل في آيات الله تعالى إلّا لضّرورة ملجئة إلى ذلك.

* * *

ثمّ يضيف الله تعالى بقيّة أقوال الرّاسخين في العلم فيقول جلّ وعلا:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

أي الرّاسخون في العلم يقولون: (**رَبَّنَا لَا تُزِغْ**) لا تمل (**قُلُوبَنَا**) عن الحقّ بأن نؤوّل ما تشابه إلى ما يخالف المفاهيم المثبتة في المحكمات لتأييد بدعة أو لتقوية ضلال (**بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا**) إلى معرفة المحكمات والتّمسك بمفاهيمها ومقتضاها (**وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً**) نعمة وهو الثّبات على الحقّ والعمل به (**إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**) كثير الهبة وذلك لكثرة من يهب لهم وإلّا فالمصدر لا توصف بالكثرة والقلّة في حدّ ذاتها.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾

(رَبَّنَا) أي والرّاسخون يقولون أيضاً يا رَبَّنَا (**إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ**) كلّهم (**لِيَوْمٍ**) في يوم للحساب والجزاء وهو يوم القيامة (**لَّا رَيْبَ فِيهِ**) لا شكّ في مجيء ذلك اليوم لأنّ الله

تعالى وعد بمجيئه و **(إِنَّ اللّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ)** لا يخلف ما وعد به من مجيء ذلك اليوم وثواب المؤمنين والصّالحين وعقاب العصاة والكافرين فيه.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر من كفر بالإسلام ورسوله من وفد نجران وغيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا) بالتّوراة والإنجيل حيث لم يمتثلوها بالإيمان بمحمّد وإعتناق الإسلام وقد أخذ منهم العهد بذلك فيهما، وكفروا بالإسلام ورسوله حيث لم يتّبعوه فأولئك **(لَن تُغْنِيَ)** لن تدفع **(عَنْهُمْ أموالهم ولا أولادهم)** من عذاب **(اللّهِ)** تعالى **(شَيْئًا)** ولو قليلاً جداً **(وَأُولَئِكَ)** بسبب كفرهم هذا **(هُمْ وَقُودُ النَّارِ)** توقد وتشعل بهم النّار كما توقد بالحطب، إلّا إنّ الحطب يفنى بعدما صار وقوداً، ولكنّهم لا يفنون بل كلّما نضجت جلودهم جدّدت ليذوقوا العذاب. وذكر الأموال والأولاد لأنّ المرء إنّما يعصي لأجل تحصيل الأموال أو لرعاية الأولاد، فينبه تعالى عبده على أن هذه الأموال وهؤلاء الأولاد الّتي يعصي لأجلها لا تفيده شيئاً ولا تدفع عنه العذاب، فمن الجهالة أن تجعل نفسك مستحقّاً للعذاب لأجلها، وقدّم الأموال على الأولاد ليكون التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى لأنّ الأمل في الأولاد أكثر.

ثمّ بعدما أنذرهم بعذاب الآخرة أراد أن ينذرهم بعذاب الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

(كَدَأْبِ) الدّأب: بمعنى الحال[1]، فالمعنى: حال هؤلاء كحال **(آلِ)** أتباع **(فِرْعَوْنَ**

---

(١) ومن معاني الدأب الشأن والعادة والأمر والصنيع كما في التفسير الكبير للرازي ٧/ ١٦١. وربما الحال يشملها كلها، وقد فسر بالحال أيضا كما في تفسير أبي السعود ٢/ ١٠، و فسر ايضا بالسنة والفعل كما في الدر المنثور للسيوطي ٢/ ١٥٨، والدأب يحتملها كلها، وهو من إعجاز القرآن الذي يحمل وجوها.

وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) من قبل قوم فرعون كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط **(كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ)** فعاقبهم **(اللّهُ)** وأهلكهم **(بِذُنُوبِهِمْ)** بسبب ذنوبهم **(وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ)** لكلّ من انحرف عن دينه ولم يؤمن برسوله.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذرهم بعذاب الدّنيا والآخرة معاً فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

(قُل) يا أيّها النّبيّ **(لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ)** من وفد نجران وغيرهم من اليهود والنّصارى ومشركي العرب كلّهم... قل لهم: **(سَتُغْلَبُونَ)** بإنتصار المسلمين عليكم وهزيمتكم وهذا عذابكم في الدّنيا **(وَتُحْشَرُونَ)** يوم القيامة **(إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)** بئس فعل ذمّ، والمهاد بمعنى: الفراش، فاعل بئس، أي قبح المهاد، والمخصوص بالذّم محذوف تقديره: هي، راجع إلى جهنّم فالمعنى: قبح جهنّم فراشاً ومرجعاً ومصيراً. وفي هذه الآية معجزة لأنّها أخبرت أنّ المسلمين سينتصرون على الكافرين كلّهم، وقد وقع الأمر كما أخبر به القرآن، فما أعظم هذا القرآن.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر لهم علامة على إنتصار المسلمين وهزيمة الكافرين أمامهم فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾

(قَدْ كَانَ لَكُمْ) أيّها الكفرة **(آيَةٌ)** علامة على إنتصار المسلمين وهزيمة أعدائهم **(فِي فِئَتَيْنِ)** أي في جماعتين **(الْتَقَتَا)** في ميدان القتال **(فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللّهِ)** نشروا إعلان دين **(اللّهِ)** تعالى **(وَ)** فئة **(أُخْرَى كَافِرَةٌ)** بدين الله ورسوله **(يَرَوْنَهُم)** إذا قرئ بالتّاء أي ترون الكفار أيّها المخاطبون لو نظرتم إليهم **(مِّثْلَيْهِمْ)** أي مثلي المسلمين عدداً وعدّة **(رَأْيَ الْعَيْنِ)** أي رؤية حقيقية لا خيالاً ووهماً فهم كانوا بقدرهم مرّتين مع ذلك إنتصر المسلمون وانهزم الكافرون شرّ هزيمة وذلك في معركة بدر **(وَاللّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء)** وهم الّذين يقاتلون لله بإخلاص وصدق **(إِنَّ فِي ذَلِكَ)** الإنتصار **(لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ)**

يعتبرون بها ويعلمون أن النّصر بيد الله يؤتيه لمن نصر دينه وأعزّ رسوله وآمن بشريعته كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ـ سورة الروم الآية/ ٤٧ ـ .

وأمّا إذا قُريء (يَرَوْنَهُم) بالياء فله معنيان:

الأول: (يَرَوْنَهم) يرى المؤمنون الكافرين ((مِّثْلَيْهِمْ) فقط (رَأْيَ الْعَيْنِ) وقد كانوا ثلاثة أمثالهم في الحقيقة إلّا أنّ الله قلّلهم في عيونهم ليجرؤوا على مجابهتهم.

الثّاني: (يَرَوْنَهم) أي يرى الكافرون المسلمين (مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) وذلك لأنّ الله تعالى كثّر المسلمين في عيون الكافرين ليرعبوا وينهزموا، وقلّل الكافرين في عيون المسلمين ليجرأوا ولا يخافوا وذلك لا يخالف ما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾ سورة الأنفال الآية/ ٤٥، إذ المعنى أنّ كلّا يرى الآخر قليلاً لأنّ ذلك كان قبل وقوع القتال، فكل رأى الآخر قليلاً فبدؤوا بالقتال، فلمّا بدؤوا رأى المشركون المسلمين كثيراً؛ فخافوا وانهزموا ورأى المسلمون المشركين قليلاً فاجترؤوا وانتصروا.

ثم بيّن الله سبب كفر الكافرين ومعصية العصاة فقال جلّ وعلا:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾﴾

(زُيِّنَ)[1] **أدخل في القلوب (لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ)** اللّذائذ الدنيويّة؛ فلذلك يكفرون

(١) (زُيِّنَ) جاء بصيغة المبني للمجهول. لذلك اختلف العلماء في من الذي زين لهم؟ الأكثرون قالوا بأن الله تعالى زين لهم لأنّه خالق كلّ شيء ومنها الأفعال والشّهوات منها، وآخرون قالوا الشّيطان زيّن لهم حتى لا ينسب القبيح وهو ارتكاب الشّهوة المحرّمة إلى الله تعالى، وفرّق آخرون فقالوا بأن الله تعالى زيّن لهم ما يحل من الشّهوات والشّيطان زيّن لهم ما يحرم، ولكن الملاحظ أنّ الله تعالى خلق محال الشّهوات وفيها طابع اللذة والإستمتاع لحكم أرادها منها الإنتفاع بها ومنها التناسل ومنها قضاء حاجات معينة وفق ما أمرهم بها في شرعه، فبين منها الحلال والحرام أو متى تكون حلالا ومتى تكون حراما، لكن البشر قد يباشر الحرام ويعصي بأي سبب كان كسبب الكفر أو ضعف الإيمان أو بدافع النفس والهوى وغير ذلك،

ويفسقون للتّلذّذ بها أو لتحصيلها أو خوفاً على ضياعها، ثمّ بيّن الله تعالى الشّهوات فقال: (**مِنَ النِّسَاء**) والتمتّع بهن (**وَالْبَنِينَ**) أي رعايتهم والسّعي لتكثيرهم وترفيههم (**وَالْقَنَاطِيرِ**) جمع قنطار وهو وزن يسع مائة ألف مثقال (**الْمُقَنطَرَةِ**) المصفّفة (**مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**) أي المعلّمة بعلامة (**وَالأَنْعَامِ**) وهو الإبل والبقر والضّأن والمعز لا يشمل المزروعات كلّها من النّباتات والأشجار (**والحرث**) يشمل المزروعات كلّها من النّباتات والأشجار(**ذَلِكَ**) المذكور من هذه الأشياء الّتي يحبّها النّاس (**مَتَاعُ**) يتمتّع به النّاس في (**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**) أي مرجع حسن **أحسن** من الدّنيا؛ فليصلوا له ولا يغفلوا عنه بسبب متاع الدّنيا الزّائلة فإنّه يوجد خيرٌ منه كما قال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)﴾

فالشهوات ليست قبيحة لذاتها بل تكون قبيحة بكيفية أو طريقة استعمالها، كما خلق النّار وفيه صفة الإحراق والحرارة للإنتفاع بها، فالبشر الأسوياء يستعملون النّار في إحراق خشب للتدفؤ أو لطهي طعام ليأكلوه وهو حلال، إلا أن المجرمين يستعملونه لإحراق البشر أو بيوتهم بدافع الإجرام وهو حرام، وكذلك شهوة النّساء خلقها الله تعالى لبقاء النوع البشري عن طريق التناسل الشرعي وهو الزواج، لكن البعض يضعونها في الحرام لا للتناسل لكن لمجرد اللّذة و قضاء الشهوة؛ فيخالفون الحكمة التي أوجدت لها هذه الشّهوة، فيكون الأمر أن الشّهوات بما لها من صفات خلقها الله تعالى لما خلقها لها أو فيها من المنفعة وقضاء الحاجة مجردة عن الإستعمال، وبكيفية الإستعمال يتبين حلالها من حرامها، إذ بين الله تعالى كيفية التعامل معها إيجابا وسلبا وفق الشرع فيكون بها المخالف عاصيا، والشّيطان عمله أن يوسوس للإنسان ويزيّن لهم تزيين إغراء ليحملهم على الخطيئة، فالله تعالى زيّن لهم خلقا وإيجادا، والشيطان يزيّن لهم إغراء وإغواء وتضليلا وغير ذلك مما له من أساليب حمل الإنسان على الذنب. وليس الشيطان فحسب بل حتى الإنسان يزين بعضهم لبعض مباشرة الشهوات على سبيل المخالفة والحرام وما أكثر ما يحمل الإنسان أخاه على الخطيئة بتزيينها له، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾ . والله تعالى أعلم _

(قُلْ) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها الدّاعية إلى الله للنّاس كلّهم **(أَؤُنَبِّئُكُم)** الإستفهام للتّقرير فالمعنى: أنبئكم **(بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ)** المذكورات من أمتعة الدّنيا وهو أنّه أعدّ **(لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)** للّذين تجنّبوا الكفر والمعاصي **(عِندَ رَبِّهِمْ)** يوم القيامة جزاء على هذه التّقوى **(جَنَّاتٌ)** بساتين عظيمة وحسنة وجميلة **(تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)** لا يخرجون منها بأنفسهم ولا يخرجهم أحد منها فيبقون فيها أبداً **(وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ)** من الحيض والإستحاضة والحمل والوضع والنّفاس وسائر الأقذار والأجناس[1] **(وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ)** أكبر نعمة وأكبر من كلّ هذه الأمور **(وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)** فلا يخفى عليه شيءٌ من تقواهم فيجزيهم عليها.

تنبيه: ليس المراد من هاتين الآيتين ذمّ شهوات الدّنيا ونعيمها مطلقاً بل إنما المراد ذمّ الدّنيا الّتي تسوق الإنسان إلى الكفر والمعاصي والشّهوات المحرّمة وإلّا فالدّنيا الحلال الّتي تحصل من حلال وتوضع في حلال كلّها عبادة، يقول الرسول: (في لقمة أحدكم يضعها في فم إمرأته صدقة وفي بضع أحدكم يضع في رحم إمرأته صدقة)[2] فالإسلام لم يأت ليمنع المسلم من التّمتع بالدّنيا وإنّما جاء لينّظم كيفية التّمتع بها بأن يتمتّع بالحلال لا الحرام، وأن يحصل التّمتع أو المتاع بالطّرق المشروعة ولا يحمله حبّ المتاع والشّهوات إلى إرتكاب الكفر والمعاصي والفسق والفجور.

***

ثمّ أراد الله تعالى سبحانه وتعالى أن يصف العباد الّذين هم تحت أنظاره ورعايته فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

(١) أي الأنجاس المادية مما ذكر والمعنوية كسوء الخلق وسوءالعشرة وغيرهما..

(٢) أما في اللقمة فقد ورد عن سعد (رضي الله عنه) قال كان النبي (ﷺ) يعودني وأنا مريض بمكة، فقلت: لي مال أوصي بمالي كله؟ قال: لا، قلت: فالشطر؟ قال: لا، قلت: فالثلث؟ قال: الثلث والثلث كثير، أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم، ومهما أنفقت فهو لك صدقة، حتى اللقمة ترفعها في فيّ امرأتك، ولعل الله يرفعك، ينتفع بك ناس ويضر بك آخرون. / صحيح البخاري ٥/ ٢٠٤٧ الحديث رقم ٥٠٣٩.

(الصَّابِرِينَ) أي الّذين يصبرون فيحملون أنفسهم على المشقّة لأداء ما وجب عليهم واجتناب ما حرّم عليهم، و يصبرون على ما يصيبهم فلا يجزعون ولا يفزعون بل يقولون: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ - سورة البقرة الآية/ ١٥٦ - **(وَالصَّادِقِينَ)** في الأقوال والأعمال والعهود والمعاملة مع الله ومع النّاس **(وَالْقَانِتِينَ)** العابدين لله تعالى بخشوع **(وَالْمُنفِقِينَ)** أموالهم في الحلال وفيما أباح الله الإنفاق فيه وفي سبيل الله وعلى المحتاجين والمعدمين **(وَالْمُسْتَغْفِرِينَ)** والمصلّين **(بِالأَسْحَارِ)** فيصلّون ويستغفرون ربّهم، فالإستغفار مأمور به قال(ﷺ): (استغفروا الله فإنّه يغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرّة)(١) وفي رواية مائة مرّة. فالإستغفار مفيد لأمور الّدنيا والآخرة. جاء رجل إلى عالم يشكو فقره فقال: إستغفر، وجاء آخر يشكو العقم فقال له: إستغفر، وهكذا كل من جاء يشكو أمراً يقول له: إستغفر، فقيل له: كل من جاءك يشكو أمراً تقول له: إستغفر، فقال: نعم، لأنه دواء كلّ شيء بدليل قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ هذا بالنّسبة للآخرة وبالنّسبة للدّنيا ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم﴾ أي المطر عليكم يرسله ﴿مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ

وأما في البضع فقد ورد عن أبي ذر (رضي الله عنه) أن ناسا من اصحاب النبي (ﷺ) قالوا للنبي (ﷺ) يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلّون كما نصلّي ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم،قال أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون؟ إن بكلّ تسبيحة صدقة وكلّ تكبيرة صدقة وكلّ تحميدة صدقة وكلّ تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا يارسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان له فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجرا. / صحيح مسلم ٢/ ٦٩٧ الحديث رقم ١٠٠٦.

فأصل ما ذكره الشيخ الوالد رحمه الله تعالى موجود في الصحيحين دمجهما وذكرهما بالمعنى من حفظه اعتمادا على جواز الرواية بالمعنى.

(١) ذكره الرازي في التفسير الكبير قريبا من هذا اللفظ ٥/ ١٥٦، وفي صحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٥ الحديث رقم ٢٧٠٢،و صحيح ابن حبان ٣/ ٢١١ الحديث رقم ٩٣١ بلفظ (قال رسول الله (ﷺ): إنه ليغان على قلبي وإني لاستغفر الله كل يوم مئة مرة). وقال في بيان معنى يغان: قال أبو حاتم (رضي الله عنه) قوله (ﷺ) إنه ليغان على قلبي يريد به يرد عليه الكرب من ضيق الصدر مما كان يتفكر فيه (ﷺ) بأمر اشتغاله كان بطاعة عن طاعة أو اهتمامه بما لم يعلم من الأحكام قبل نزولها، كأنه كان يعد (ﷺ) عدم علمه بمكة بما في سورة البقرة من الأحكام قبل إنزال الله إياها بالمدينة ذنبا، فكان يغان على قلبه لذلك، حتى كان يستغفر الله كل يوم مئة مرة، لا أنه كان يغان على قلبه من ذنب يذنبه كأمته (ﷺ).

جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ سورة نوح الآيات/ ١٠،١١،١٢، هذا الإستغفار نوعان:

الأوّل: فعلي، وهو الإجتناب عن المعاصي والمحرّمات وهذا أفضل.

الثّاني: قولي، وصيغته أستغفر الله، وله صيغ كثيرة أخرى من أفضلها كما في الحديث الشريف أن تقول: (أللّهم أنت ربّي لا إله إلّا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما إستطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذنوب إلّا أنت)[١]. هذا وخصّ الإستغفار بالأسحار بالذّكر لأنّ كلّ عمل وقت السّحر أقرب للإجابة، قال تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ سورة الإسراء الآية - وإلّا فالإستغفار مطلوب ومندوب في كلّ وقت وفي كلّ مكان إلّا وقت الجماع وفي المراحيض، فأستغفر الله العظيم لي ولوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات إنّه كان غفاراً وهو أرحم الرّاحمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على النّصارى بأنّه لا إله إلّا هو وأنّ عيسى ليس بإله ولا بإبن إله فقال جلّ وعلا:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ) فهؤلاء كلّهم يشهدون بأنّه لا إله إلّا الله، وقال: أولو العلم إشارة إلى أنّ كلّ من لم يشهد هذه الشّهادة فهو من أهل الجهل مهما بلغ من الثّقافة والمعارف. وشهادة الملائكة وأولي العلم واضح معناها، وأمّا معنى شهادة الله تعالى بذلك ففيه أقوال، فقيل: معناها أخبر، وقيل: حكم، وقيل: أعلم[٢]، وإنّ معنى شهادة الله تعالى على أنّه لا إله إلّا هو دلالة معنى الإله على ذلك،

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٢٣ الحديث رقم ٥٩٤٧ عن أبي هريرة (ﷺ) عن رسول الله (ﷺ).

(٢) أو شهد الله تعالى بنصب الدلائل الدالة من عجيب خلقه ومحكم تدبيره على وحدانيته كما شهد بإنزال الآيات الناطقة بوحدانيته عن طريق الوحي، و شهد الملائكة بيقين علمهم بذلك، وأولوا العلم بما يصلون إليه من العلم الدال على وحدانيته في ألوهيته وربوبيته، وفي ذكر أولي العلم بعد الله تعالى مع الملائكة إشارة إلى شرف اهل العلم وعلو منزلتهم،وإشارة إلى وصولهم إلى اليقين في ذلك بعلمهم لأن الشهادة لا يكون إلا من المتيقن.

فإنّ الإله معناه من يحتاج إليه كلّ شيء ولا يحتاج هو إلى شيء، وهذا المعنى لا يكون إلّا إذا كان الإله واحداً (**قَآئِمَاً**) حال من هو في (إِلَّا هُوَ) وهو راجع إلى الله أي أنّه القائم بأمور الكون وتدبيره (**بِالْقِسْطِ**) وفي هذه إشارة إلى أنّ التّدبير لا يكون إلّا بالعدل، فالعدل أساس الملك والحكم (**لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**).

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾

(**إِنَّ الدِّينَ**) وتقرأ(**أَنَّ الدِّينَ**) بفتح الهمزة فيكون كالعطف على (أنّه لا إله إلا هو). فيكون التّقدير شهد الله والملائكة وأولو العلم (**أَنَّ الدِّينَ**) أي النّظام والمنهج المقبول (**عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ**) فلا نظام مقبولاً غيره كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وتقرأ: (**إِنَّ الدِّينَ**) بكسر الهمزة أيضاً على أنّ الجملة مربوطة بما قبلها، إلا أنّ شهد تتضمن معنى أعلم أو قال؛ فلذا كسرت الهمزة لأنها تكسر في مقول القول وبعد العلم، فالإسلام هو الدّين الحق أولاً وآخراً وكان عليه النبيون كلّهم (**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ**) وهم اليهود والنّصارى وما انحرفوا عن الإسلام الدّين الصحيح وغيّروا ما جاء به موسى وعيسى (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسلام) ولم يؤمنوا برسول الإسلام (**إلّا من بعد ما جاءهم العلم**) إلّا من بعد ما جاءتهم الحجج والدّلائل الّتي لو نظروا فيها لحصل لهم العلم بحقيّة الإسلام ولكن لم يفعلوا[1] (**بَغْيًا**) لأجل البغي أي الحسد المنتشر (**بَيْنَهُمْ**) فكل يريد جرّ النّفع والسيادة لنفسه ويغيّر الدّين حسب مصالحه ولا يتبع الرّسول إبقاء لسيادته الرّوحيّة وسلطته الدّينية. (**وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ**) وهم اليهود والنّصارى فإنّهم كفروا بآيات التّوراة والإنجيل الّتي تأمرهم بالإيمان بالرّسول (ﷺ) والدّخول في الإسلام وكفروا بآيات القرآن فلم يؤمنوا بها، فيتوعّدهم الله لعدم إيمانهم بقوله: (**فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ**) أي الإنتقام منهم، وفي ذكر شهادة أولي العلم إشارة إلى أنّ العلم يشهد بوحدانيّة الله تعالى

(١) ما تحته خط من إضافتي لأنها كانت منسية من قبل الشيخ الوالد رحمه الله تعالى في المخطوطة فأضفتها سدا للنقص.

وحقيّة الإسلام، فمن تتبّع العلم وقارن بينه وبين الإسلام تظهر له حقيّة الإسلام ويؤمن به، وقد أسلم كثير من فلاسفة الغرب وغيرهم نتيجة البحث والتّحقيق عن حقيقة الأديان حسب العلم والواقع إلّا من أعماه التّقليد.

حكى لي أحد مسلمي الهند أنّه تكلّم مع نهرو[1] في الأديان فوصف نهرو الإسلام بما يستحقّه، فقال له: فإذا كانت عقيدتك حول الإسلام هكذا فلماذا لا تسلم؟ فأجاب: إنّي أرى الدّين كالولد فكما لو كان عندك ولد أقرع أعرج لا تبدّل بولد الغير وإن كان في حسن يوسف؛ فلذلك لا يروق للمرء أن يغيّر دينه بدين غيره. وهذا خطأ منشؤه العاطفة والتّقليد، أو أنّ نهرو لم يسلم وإن ظهرت له حقيقة الإسلام خوفاً من فوات رئاسته على الهنود والله تعالى أعلم. والمراد بالإسلام هو الإسلام الحقيقي لا الّذي يتمسّك به جيلنا، هذا، والّذي مَلؤوه بالخرافات والأباطيل وحرّفوه عن جوهره وحقيقته سيّما في الإقتصاديّات والإجتماعيّات وبعض العقائد. فإنّ هذا الإسلام[2] لا يقبله العقل ولا العلم، فيجزي الله تعالى من يعرض الإسلام هذا العرض بما يستحقه من العذاب وهدان الله تعالى إلى حقيقة الإسلام والإسلام الحقيقيّ آمين.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

(**فَإِنْ حَآجُّوكَ**) أي فإن جادلوك وفد نجران وغيرهم من أهل الكتاب أو المشركين في وحدة الله تعالى وحقيقة الإسلام جدال المنكر العنود لا جدال المحبّ لظهور الحق واتباعه فلا تتعب نفسك في جدالهم بل (**فَقُلْ أَسْلَمْتُ**) أي أخضعت أنا (**وَجْهِيَ**) أي ذاتي (**لِلَّهِ**) ولعبادته وحده واتبعت دينه الإسلام (**وَمَنِ اتَّبَعَنِ**) أصله ومن إتبعني حذفت

(١) هو جواهر لال نهرو من الهند، تولى رئاسة وزراء الهند من سنة ١٩٧٤ حتى وفاته سنة ١٩٦٤م.وهو أحد مؤسسي حركة عدم الإنحياز، وتبنى الديموقراطية البرلمانية في بلده مع ذلك لم يكن له منافس في منصبه خلال فترته الطويلة. خطط لتقديم بلده صناعيا عن طريق وضع خطة خمسية تمكن خلالها إنشاء الصناعات الثقيلة ومنها الفولاذ تحت سيطرة الدولة./ انظر الموسوعة العربية العالمية ٢٥/ ٥٤٥.

(٢) يقصد به الصورة المشوهة التي يقدمها المبتدعون والخرافيون.

الياء للتّخفيف أي ومن إتبعني كلّهم إنقادوا لله على شريعة الإسلام (**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ**) وهم اليهود والنّصارى (**وَالأُمِّيِّينَ**) وهم المشركون سموا أميّين لأنّه لا كتاب لهم فلا علم لهم بالكتاب والدّين قل للجميع (**أَأَسْلَمْتُمْ**) واعتنقتم الإسلام دين الله الّذي جئت به (**فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ**) أي وصلوا الحق واعتنقوه (**وإِن تَوَلَّوْاْ**) أي أعرضوا فلم يسلموا (**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ**) وليس عليك إجبارهم على الإسلام (**وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**) فمن أحبّ الهداية هداه الله تعالى وأثابه عليها ومن طغى وتكبر أعماه الله تعالى وأبقاه في الغواية وعاقبه عليها.

تنبيه: في هذه الآية إشارتان:

الأولى: إنّ الإسلام دين دعوة ولا يكره أحداً عليه ولا يقاتل من كفر به إلا إذا أراد الإعتداء على المسلمين أو وقف ضدّ الدعوة وصدّ النّاس عنه، أو لإزالة الطّغاة وتحرير الشعوب من طغيانهم أو بثّ سلطان الله تعالى في الأرض. ولا يقاتل لإزالة الكفر حيث لا إكراه في الدّين، وقد مرّ تفسير هذا الموضوع في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

الثّانية: إنّ دعوة الإسلام عامّة وليست خاصة بقوم دون قوم بل جاء الرّسول للنّاس كافّة ورحمة للعالمين؛ ولذلك بدأ الرّسول يكتب المكاتب إلى رؤساء وملوك العالم كلّهم يدعوهم إلى الإسلام وإعتناقه.

❊ ❊ ❊

ثمّ أراد تعالى أن يشير إلى قبح أعمال أهل الكتاب وجزاؤهم على ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**) الّتي في التّوراة والإنجيل ممّا يتعلّق بأوصاف الرّسول والأمر بالإيمان به، وغير ذلك من كثير من الآيات الّتي تتعلّق بأحكام لا توافق

هواهم (**وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ**) الّذين يريدون منهم الرّجوع إلى الدّين الخالص (**بِغَيْرِ حَقٍّ**) ولمجرد أنّهم ينهونهم عن المنكر الّذي ابتدعوه ويأمرونهم بالمعروف الّذي تركوه ونسوه (**وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ**) بالعدل (**مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**) أي مؤلم جدّاً (**أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ**) بطلت (**أَعْمَالُهُمْ**) الّتي يقومون بها من الصّالحات، لأنّ كلّ عمل لا يقبل إلّا مع الإيمان الصّحيح، وهم أفسدوا إيمانهم بكفرهم بهذه الآيات وبكفرهم بالإسلام ورسوله (**فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**) أي لا يعتدّ بأعمالهم لعدم وجود شرط الإعتداد وهو الإيمان (**وَمَا لَهُم مِن نَّاصِرِينَ**) ينصرونهم فينقذونهم من عذاب الله تعالى.

فائدة: إنّ كلّ دين يأتي به الرّسل هو من الله تعالى، ويبقى ذلك الدّين ناصعاً خالصاً طالما اتفقت الأمّة وتوحدت كلمتها ولا مجال للأباطيل أن تدخل فيه، ولكنّ بعد أن تختلف الأمّة وتتفرّق يتكدّر ذلك الدّين وتدخل فيه الأباطيل وما لم ينزل الله به من سلطان، حتّى لا يبقى من الدّين إلّا إسمه ولا من شرع الله تعالى إلّا رسمه؛ لأنّ كلّ طائفة تريد أن تفسّر الدّين حيث تهواه وحيث يتّفق مع مصالحها وأطماعها، فتدعو حاجة النّاس وحالتهم إلى أن يرسل الله تعالى رسولاً أو نبيّاً يرجع بالنّاس إلى الدّين الصحيح ويطهره مما ألصق به من الخرافات والأكاذيب والأباطيل. وهذا ما أشار الله تعالى إليه بقوله: (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) أي فاختلفوا فيما بينهم ﴿فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٣ ـ وقد مرّ تفسيرها في مكانها، فجاءت الرّسل تترى إلى أن وصل الدّور إلى سيّدنا موسى (عليه السلام) فجاء بالدّين الصّحيح ورجع بالنّاس إلى حقيقة الدّين، ثمّ بعد وفاته إختلف قومه فبدّلوا دينهم وغيّروه ولعبوا بالتّوراة حسب هواهم؛ فأرسل تعالى فيهم أنبياء لتصليح دينهم والرّجوع بهم إلى ما جاءت التّوراة لأجله فأصبحوا يقتلونهم، حتّى جاء دور عيسى(عليه السلام) فأرادوا قتله إلّا أن الله تعالى طهّره منهم، وبعد عيسى غيّر قومه الإنجيل وما جاء به عيسى من حقيقة الدّين فأشركوا بدل التّوحيد وحرّموا ما أحلّ لهم وأباحوا ما حرّم عليهم وكانوا يقتلون كلّ من يأمرهم بالقسط والعدل والمعروف وينهاهم عن الجور والباطل والمنكر من النّاس؛ فجاء محمّد (صلى الله عليه وسلم) وأظهر الدّين الصّحيح وهدى النّاس إلى الصّراط المستقيم، وأصبح الإسلام نزيهاً إلى أن اختلفت الأمّة وتفرّقت كلمتهم ففشت البدع والخرافات، واستغل الدّين لمصالح شخصيّة أو طائفيّة، وتركت كثير من بنود الدّين وأدخلوا فيه ما الإسلام جاء لإبطاله،

فجعلوه من صميم الدّين، وأنكروا قواعد من الدّين هي من لبّه إلى أن أصبحنا في اليوم الّذي نحن فيه الآن، وأنّه لم يبق من الإسلام إلّا إسمه ولا من الشّرع إلّا رسمه وبحيث لو أنّه نشر بعض المخلصين حقيقة الإسلام من إعتقاداته وإجتماعياته وإقتصاده وسياسته لاتّهم بالإلحاد وأهل الفساد، ولقتل باسم الإسلام ونصرة للدّين، فما أحوج النّاس اليوم لو لم تختم النبوّة والرّسالة إلى أن يأتي رسول أو نبيّ فيرجع بالناس إلى ما هو الإسلام بكلّ أجزائه؛ إلّا أنّه ختمت الرّسالة والنبوّة بالرّسول الأعظم محمّد(ﷺ) فلا يأتي بعده نبيّ ولا رسول إلّا أنّه أخبر الرّسول(ﷺ) بأنّ الله تعالى يبعث على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد أمر هذا الدّين، فما أحوجنا إلى مجدّد عظيم. ألّلهم فابعث حيث فعلنا ما فعل من قبلنا من تحريف الدّين وشريعة الله وصدق فينا قول رسولنا (ﷺ): (لتتّبعنّ سنن من قبلكم حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه، قالوا: أو اليهود والنّصارى؟ قال: فمن؟)[١] ففعلنا كلّ ما فعلوا إلا أنّهم حرّفوا كتابهم السّماوي وغيّروا التّوراة والإنجيل، وما إستطعنا نحن أن نحرف قرآننا لأنّ الله تعالى تكفل بحفظه فقال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)، ولو استطعنا لفعلنا ذلك حيث حرّفنا معناه ومقتضاه وأحكامه حينما عجزنا عن تحريف لفظه وآياته الكريمة والحمد لله، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين.

* * *

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٢٧٤ الحديث رقم ٣٢٦٩ بلفظ (لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضبي لسلكتموه قلنا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟). هذا ولم يحتج الأمة إلى إرسال رسول بعد النبي محمّد لأن الأنبياء السابقين كانوا يعيدونهم إلى الصحيح مما حرف من كلام الله تعالى أو نسب إليه تعالى كذبا وبهتانا فيأتون بما أوحي إليهم من كتاب جديد فيه الصحيح الصادق من الله تعالى، وهذا الدور لم يبق للأنبياء بعد مجيء القرآن الكريم لأن الله تعالى تكفل بحفظه فاستحال على البشر تغييره أو تحريفه، لذلك كان النبي محمّد خاتم النبيين لأنه لم تبق حاجة إلى رسول يأتي لهم بالصحيح من الله تعالى إذ الصحيح الحق موجود دائما وهو القرآن الكريم الخالد، فبقي القرآن دائم الوجود لهداية الناس إلى الدين الحق أو لتصحيح عمل المحرفين ودعاوى المبتدعين، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء كان عليهم القيام بدور النبي محمّد في الدعوة والتصحيح والإرشاد وحمل الناس على الإسلام الصحيح الوارد في القرآن، وهو ما جاء في الحديث الشريف المذكور من بعث المجددين على رأس كل مئة سنة ـ والله تعالى أعلم ـ.

ثم أراد الله تعالى أن يثبت أن أهل الكتاب لا يؤمنون بكتبهم وبما فيها من آيات الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(**أَلَمْ تَرَ**) أي ألم تنظر (**إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا من الكتاب**) أي التّوراة والإنجيل، والإستفهام هنا للأمر والتّنبيه، فالمعنى: انظر إليهم لتطّلع على كفرهم لأنّهم (**يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ**) فيما يتعلق بأوصاف الرّسول والأمر بالإيمان به، وفي مسائل أخرى يحكم بها الرّسول موافقاً لما في التّوراة فينكرونها (**ثُمَّ**) بعدما يدعون إلى حكم التوراة (**يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ**) من التوراة وحكمها والإنجيل أيضاً.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(**ذَلِكَ**) التولّي والإعراض عن التّوراة كان (**بِأَنَّهُمْ**) بسبب أنّهم (**قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ**) مهما عصينا وكفرنا (**إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ**) لا تتجاوز ستّة أيام (**وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم**) متعلق بقوله: (يَفْتَرُونَ) في (**مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**) أي يكذبون في دينهم على الله تعالى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحبّاؤه فلا يعذّبنا إلا مدّة يسيرة.

تنبيه: وهذا المرض والكفر سار في المسلمين أيضاً حيث إنّهم شاعت فيهم محرّمات كثيرة وأحكام باطلة يحسبونها حقاً، وإذا قيل لهم تعالوا إلى القرآن ولنجعله حكماً فيما خضتم فيه أعرضوا ومنهم من يقول: هذا كان في ذاك الزّمان، فهو كافر ملعون. ومنهم من يقول: إنّ الله تعالى غفور رحيم أو الله كريم ولا يتذكّر أنّ الله تعالى قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[1] .

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(١) لقمان . ٣٣ .

(فَكَيْفَ) حالهم؟ والإستفهام للتعجّب، فالمعنى: أنّ حالهم عجيب وفظيع جداً (**إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ**) في يوم (**لَّا رَيْبَ فِيهِ**) لا شكّ في مجيئه وهو يوم القيامة (**وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ**) من خير وشر (**وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ**) فلا يحمل عليه ما لم يعمل من شر ولا ينقص مما عمل من خير شيئاً إذا كان مؤمناً، وإلا فالكافر لا يحسب له عمل الخير ولا يقبل منه لعدم وجود شرطه وهو الإيمان[١].

ثمّ إنّ أهل الكتاب إمتنعوا عن إتّباع الرّسول محمّد (ﷺ) وإعتناق الإسلام حفاظاً على عزّتهم وسيادتهم وملكهم ومنافعهم الّتي كانوا يحصلون عليها بسبب سلطتهم الرّوحية ودينهم الباطل فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

(**قُلِ**) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**اللَّهُمَّ**) أصله يا ألله حذف حرف النّداء وعوّض الميم المشدّدة عنه في آخره (**مَالِكَ الْمُلْكِ**) كلّه أي مسيطر عليه (**تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشاء وَتُعِزُّ مَن تَشاء وَتُذِلُّ مَن تَشاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ**) وحدك وليس بيد أحد شيء من الخير (**إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) لا تعجز عن شيء.

تنبيه:

إن الخير والشرّ كلّه بيد الله تعالى إلّا أنّه لم يذكر الشّر لأنّ كلّ ما يعمله الله تعالى هو خير وليس شراً، لأنّه لا يعمل من شيء إلّا لمصلحة وحكمة يكون ذلك العمل خيراً لأجل تلك المصلحة والحكمة، وإنْ كان بالنّسبة لمن يتعلّق به شرّاً، فإذلاله لمن يشاء خير، كالإعزاز حيث فيه المصلحة والحكمة وإنْ كان بالنّسبة لمن يتعلق به شرّاً وهكذا فقس.

❊ ❊ ❊

---

(١) لقوله تعالى في الفرقان: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (٢٣)﴾

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ) أي تدخله فيه (وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ) قيل: معناه أنّ اللّيل يصير قصيراً فيدخل ما قصر منه في النّهار، وكذلك النّهار يقصر فيدخل ما يقصر منه في اللّيل، وهذا المعنى غير صحيح لأنّ هذا لا يوجد تحت[1] خط الإستواء وتحت القطبين،لأنّ اللّيل والنّهار في هذه الأمكنة متساويان دائماً والقرآن عام، فالمعنى الصّحيح: أنّ اللّيل يأتي ويستر بظلامه ضوء النّهار فكأنّ النّهار دخل فيه وكذلك النّهار يأتي فيستر بضوئه ظلام اللّيل فكأن اللّيل دخل فيه، أي المعنى يدخل مكان اللّيل في النّهار وبالعكس، فإن اللّيل حينما جاء ذهب النّهار فيستر بظلامه المكان الذي أضاءه النّهار وكذلك النّهار حينما جاء يذهب الليل فيستولي على مكانه فيضيئُه؛ وبهذا دخل مكان اللّيل في ضوء النّهار ومكان النّهار في ظلام اللّيل والله تعالى أعلم.

(وَتُخْرِجُ الْحَيَّ) وهو الإنسان والحيوان والشّجر والنّباتات (مِنَ الْمَيِّتِ) وهو النّطفة والحبّ والنّواة (وَتُخْرِجُ المَيِّتَ) وهو النّطفة والحبّ والنّواة (مِنَ الْحَيِّ) وهو الحيوان والشّجر والنّباتات مرّة أخرى وهكذا دواليك، فالحيّ من الميّت والميّت من الحيّ على إستمرار الزّمان وفي الزّمان المستمر (وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ) فإذا كان إيتاء الملك وإنتزاعه والعزّ والإذلال واللّيل والنّهار والحياة والموت كلّ ذلك بيده تعالى وتقديره وليس بيد أحد آخر؛ فلا يليق بالعاقل أنْ يكفر أو يفسق لأجل الملك أو المال أو العزّ أو الحياة أو الرّزق، بل على العكس يجب عليه أن يطيع الله تعالى ليعطيه الملك ولا ينتزعه منه، وأنْ يعزّه ولا يذلّه وأنْ يرزقه بغير حساب؛ فإنّ الله تعالى يشكر من شكره قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2] وفي هاتين الآيتين ردّ على النّصارى في إدعائهم ألوهيّة المسيح لأنّ هذه الصّفات والأعمال لا يستطيعها المسيح ولا يقدر عليها.

ثمّ بعد أنْ ذكر تعالى قبح أعمال أهل الكتاب وكفرهم وتمرّدهم على الإسلام وحقدهم على هذا الدّين ومن تمسك به نهى المسلمين عن اتّخاذهم أولياء لأمورهم وعن مصادقتهم وموالاتهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

(١) يقصد عند.

(٢) إبراهيم . ٧ ..

(**لَّا**) للنّهي أي (**لا يَتَّخِذِ**) ولا يجعل (**الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ**) من أي صنف كانوا (**أَوْلِيَاء**) جمع ولي والوليّ جاء بمعنى النّاصر والصّديق ووليّ الأمر، وحيث ذكر مطلقاً، فالمعنى يحرم على المؤمنين أن يجعلوا الكافرين أصدقاء لهم أو يستنصروا بهم أو أولياء لأمورهم (**مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ**) وهذا القيد ذكر لبيان الحال حيث كان بعض النّاس يوالون الكافرين من دون المؤمنين، وإلّا فاتّخاذهم مع المؤمنين وبدون المؤمنين لا يجوز، وقد حذّرنا الله تعالى من ذلك فقال جلّ وعلا: (**وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ**) من اتّخاذ الكافرين أولياء (**فَلَيْسَ مِنَ**) اتّباع (**اللّهِ فِي شَيْءٍ**) والمعنى أنّ الله تعالى بريء منهم (**إِلَّا أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً**) أي إلّا أن تتحفّظوا من شرّهم تحفّظاً بحيث استولوا عليكم فلم يكن بدّ من موالاتهم؛ فحينئذٍ يجوز مداراتهم ظاهراً مع كرههم باطناً (**وَيُحَذِّرُكُمُ**) ويخوفكم (**اللّهُ**) من (**نَفْسَهُ**) أي عذابه وغضبه (**وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ**) أي مصير كلّ أحد فينتقم ممن يوالي الكفّار بدون إضطرار وعمل وسعى لجلبهم إلى البلاد وإستعمارهم بلاد المسلمين، أو يسعى لبقاء سيطرتهم بأيّ نوع كان العمل والسعيّ ومن جميع أنواع العمالة لهم.

ثمّ إنّ كثيراً من النّاس يعمل للأجنبيّ الغادر والمستعمر الكافر ويظهر نفسه أمام النّاس أنّه عدوّهم اللّدود وضدّهم الحقود فلذلك قال تعالى في حقّ هؤلاء المنافقين فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

(**قُلْ**) يا أيّها النّبي ويا أيّها الداعي والمسلم لكل من يعمل للكافر (**إِن تُخْفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمْ**) من عمالة للكافرين (**أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللّهُ**) ولا يخفى عليه شيءٌ من ذلك فينتقم منكم (**وَيَعْلَمُ**) الله تعالى كلّ (**مَا فِي السَّمَاوَاتِ**) من موجودات (**وَ**) كلّ (**مَا فِي الأرْضِ**) فكيف لا يعلم أعمالكم هذه (**وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**) وبهذه القدرة ينتقم منكم وبدون رحمة.

ثمّ ذكّرهم الله تعالى بعذاب الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

(**يَوْمَ**) منصوب بينتقم المفهوم من قوله تعالى: (**يَعْلَمْهُ اللّهُ**) فالمعنى يعلمه فينتقم منكم عليه (**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا**) فتفرح به (**وَ**) تجد (**مَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ**) محضراً بقرينة ما قبله فتحزن و(**تَوَدُّ**) وتحبّ وتتمنّى (**لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا**) أي النّفس (**وَبَيْنَهُ**) أي العمل السّوء الّذي عملته في الدّنيا (**أَمَدًا بَعِيدًا**) لم تصل إليه (**وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ**) عذابه في ذلك اليوم (**وَاللّهُ رَؤُوفٌ**) أي رحيم (**بِالْعِبَادِ**) قيل معناه: ولرأفته هذه لم يعجل بالعقوبة، وقيل: لرأفته هذه بلغكم بذلك اليوم وحذّركم منه، **وأقول** معناه: والله رؤوف بالعباد، أي الصّالحين في ذلك اليوم وهذا أولى لتكون الآية جامعة للوعيد والوعد معاً، كما هو دأب القرآن الكريم والله تعالى أعلم.

ثمّ إنّ اليهود والنّصارى يدّعون أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه كما أخبر تعالى بذلك بقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ سورة المائدة الآية/ ١٨ ـ فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

(**قُلْ**) يا أيّها النّبي لليهود والنّصارى (**إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ**) كما تدّعون بأنّكم أحبّاؤه (**فَاتَّبِعُونِي**) فإنّ المحبّة عبارة عن الإمتثال والأعمال لا عن التّظاهر والأقوال الكاذبة، وقد أمركم الله تعالى باتّباعي ومن خالف الأمر فقد كذب في إدعاء المحبّة له، قال الشّاعر:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا محال وفي القياس بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ... إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

فإن صدقتم في محبّة الله فأطيعوا أمره باتّباعي فاتّبعوني فإنّه إن تتّبعوني (**يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**) فإنّه يحبّ المطيع له لا المتظاهر بالحبّ كذباً وإفتراءً (**وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**) الّتي مضت فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله (**وَاللّهُ غَفُورٌ**) لمن تاب وآمن (**رَّحِيمٌ**) ولرحمته يغفر.

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

(**قُلْ**) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها المسلم (**أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ**) عن إطاعة الله تعالى ورسوله (**فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**) أي لا يحبّهم إلّا أنّه وضع (**الْكَافِرِينَ**) موضع، هم، للإشارة إلى أنّهم كفّار ولكفرهم لا يحبّهم الله تعالى لا لذواتهم.

تنبيه: إنّ التّولي والإعراض عن إطاعة الله تعالى ورسوله إن كان في الإيمان فهو كفر بلا خلاف، وإن كان في ترك الواجبات أو إرتكاب المحرّمات، فإن كان لعدم الإيمان بها فهو كفر أيضاً بلا خلاف، وأمّا إن كان يؤمن بها إلّا أنّه تولّى عنها لإكراه فليس عليه شيء لأنّ الإكراه يدفع الإثم. وإن كان لداعي شهوة أو طمع فهو معصية وليس كفراً، هذا عند أهل السّنة والجماعة. وعند الخوارج يكون كفراً لأنّ إرتكاب الكبيرة عندهم كفر. وعند المعتزلة يخرج المرء عن الإيمان ولا يدخل الكفر. واعلم أنّ الإطاعة لله تعالى وحده إلّا أنّه لا يعلم كيفيّة إطاعة الله تعالى إلّا من قبل الرّسول؛ فلذا قال تعالى: **(أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ)** فإطاعة الرّسول إطاعة الله ومخالفته مخالفته لأنّه هو المبلغ عنه.

* * *

ثمّ بعد ما ذكر تعالى هذه المقدمات أراد أن يذكر المقصد الأصلي من السّورة وهو حال عيسى وكيفيّة ولادته من مريم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

(إِنَّ اللّه اصْطَفَى) إختار (آدَمَ) فخلقه وأسجد له الملائكة **(وَنُوحًا)** فجعله رسولاً من أولي العزم، وأهلك أعداءه الكافرين **(وَآلَ إِبْرَاهِيمَ)** هو إبراهيم وأولاده (عليهم السلام) جعل منهم رسلاً وأنبياء كثيرين **(وَآلَ عِمْرَانَ)** قيل: هو موسى وهارون (عليهما السلام) وقيل: مريم وإبنها عيسى (عليه السلام) وهذا هو الأصحّ لأنّه الكلام بعد ذلك يدور حولها، فاختار تعالى هؤلاء **(عَلَى الْعَالَمِينَ)** أي على غيرهم في زمانهم لا في كلّ الأزمنة.

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

(ذُرِّيَّةً) حال من قوله تعالى: آل إبراهيم وآل عمران **(بَعْضُهَا)** فاعل ذريّة فالمعنى ذرأ وإنتسل هؤلاء بعضهم من بعض **(وَاللّهُ سَمِيعٌ)** بأقوال النّاس كلّهم **(عَلِيمٌ)** بحالهم وأفعالهم ونيّاتهم، فبعلمه هذا يختار من يشاء لما يشاء.

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

(إِذْ) أي اذكر للنّاس **(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ)** هو غير أبي موسى وهارون، بل بينهما زمان بعيد وإسم امرأته (حنّة) فقالت وهي حامل: **(رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ)** أي جعلت نذراً **(لَكَ مَا فِي بَطْنِي)** ليكون **(مُحَرَّرًا)** أي فارغاً من كلّ شغل إلّا خدمة بيت المقدس، وكان هذا النّذر شائعاً فيهم، والمحرّر هو المتفرغ لخدمة بيت المقدّس **(فَتَقَبَّلْ مِنِّي)** هذا النّذر أو هذا المنذور **(إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ)** لأقوالنا **(الْعَلِيمُ)** بأفعالنا.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

(فَلَمَّا وَضَعَتْ) حنّة (**هَا**) ما في بطنها **(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى)** وكانت حنّة تعلم أنّ الله يعلم أنّها وضعت أنثى إلّا أنّها قالت هذا القول تحسّراً وحزناً لا إخباراً، لأن الله تعالى لا يخبر بشيء، لعلمه بكلّ شيء دون إخبار كما قال: **(وَاللَّهُ أَعْلَمُ)** منها **(بِمَا وَضَعَتْ)** لأنّه كان يعلم ذلك قبل وضعها أيضاً **(وَلَيْسَ الذَّكَرُ)** لخدمة بيت المقدس **(كَالأُنثَى)** لأن الذّكر أقوى من المرأة **(وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)** أي عابدة **(وإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)** أن يوسوس إليها الشّرّار يسوقها إلى المعاصي.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(فَتَقَبَّلَهَا) أي تقبل مريم **(رَبُّهَا)** لخدمة بيت المقدس **(بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا)** أنشأها **(نَبَاتًا)** نشأةً **(حَسَنًا)** فكانت عابدة تقيّة نقيّة صالحة **(وَكَفَّلَهَا)** بتشديد اللّام وتخفيفها أي جعل الله كفيلاً لمريم **(زَكَرِيَّا)**[1] يعلّمها ويربّيها تربية العلم والتّقوى والصّلاح فأصبحت مريم **(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ)** أي غرفة عبادتها **(وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً)** على غير العادة، حيث كان يرى فاكهة الصّيف في الشّتاء وبالعكس **(قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى)** من أين

(١) وزكريا عليه السلام قيل كان زوج خالتها وقيل كان زوج أختها/ تفسير ابن كثير ١/ ٦٣١، ولعله كان محرما لها حسب ما تدل عليه سياق الآية.

(**لَكِ هَذَا**) الرزق (**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ**) تعالى يهب لي (**إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ**) أي من حيث لا يظن ولا ينتظر.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

(**هُنَالِكَ**) أي من أجل ذلك التّكريم الّذي كرّم الله به مريم وأحبّ أن يكون له ولد صالح مثلها (**دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**) أو المعنى أنّه لما رأى هذا التكريم[١] استعجل بالدّعاء ولم يجاوز ذلك المكان بل (**هُنَالِكَ**) وفي نفس المكان (**دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ**) ودعاؤه هو أنّه (**رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً**) صالحةً (**إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء**) أي مستجيب للدّعوات كلّها لا مستجيب غيرك يا ربّ وقال: (**مِن لَّدُنْكَ**) لأنّ العلم اللّدني ما حصل بدون كسب وتعلّم، والرزق اللّدني ما وجد بدون سعي وسبب، وزكريّا كان في حالة من الهرم وإمرأته في حالة من العقر والشّيب لا يتصوّر منهما أن يلدا حسب العادة وتأثير الأسباب، فلذا قال من لدنك أي بمحض قدرتك.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

(**فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ**) أي نادت الملائكة زكريّا (**وَهُوَ قَائِمٌ**) من القيام أو من العبادة (**يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ**) في غرفة عبادته وقالت له الملائكة: (**أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى**) أي يولد إسمه يحيى (**مُصَدِّقًا**) مؤمناً يؤمن ذلك الولد وهو يحيى (**بِكَلِمَةٍ**) بكتاب من (**اللّهِ**) تعالى وهو الشّريعة الموجودة في التّوراة أو (**بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ**) أي بعيسى سمّي كلمة الله لأنّه وجد بأمره وكلمته (**كُن**) بدون والد كما هو العادة[٢] (**وَسَيِّدًا**) في قومه (**وَحَصُورًا**)

---

(١) الظاهر أن زكريا كان مأيوس من أن يولد له لكبر سن زوجته وشيخوخته، فلما رأى ما رزق الله تعالى مريم عليها السلام مما هو خارق للعادة تذكر جواز حصول مثل ذلك له، فطمع في خارق للعادة من الله تعالى يجرى له وهو أن يرزق بولد على كبرهما والله قادر على ذلك، فهنالك أي عند ذلك وعلى تلك الحالة الإيمانية من اليقين والرغبة والأمل في استجابة الدعاء دعا ربه أن يرزقه الولد فاستجاب الله تعالى له.

(٢) أي كماهو العادة أن يولد بسبب الوالد لأمره أن يولد بدون ذلك بقول كن.

ومانعاً نفسه من شهوات الدّنيا ولذائذها (**وَنَبِيًّا**) ناشئاً (**مِنَ**) الآباء (**الصَّالِحِينَ**) وهم الأنبياء، فقد كان آباؤه أنبياء.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

(**قَالَ**) زكريّا (**رَبِّ أَنَّى**) أي كيف (**يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ**) أي أصابني الشّيب (**وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ**) لا تلد (**قَالَ**) الله أو الملك له (**كَذَلِكَ**) أي الأمر مثل ما تقول من أنّ امرأتك عاقر أو من أنّه يولد لك غلام (**اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء**) وسؤال زكريّا بـ (أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ) لم يكن لإستبعاده ذلك بالنّسبة لقدرة الله تعالى، بل بالنّسبة للعادة، حيث ليس من العادة أن تلد امرأة بلغت أكثر من ثمانين سنة.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

(**قَالَ**) زكريّا يا (**رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً**) علامة على هبتك لي ولداً (**قَالَ**) تعالى (**آيَتُكَ**) أن ينحبس لسانك عن الكلام فلا تستطيع (**أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا**) إلا أشارة إلّا أنّه كان يستطيع الذّكر والقراءة؛ ولذا قال له (**وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ**) أي وصلّ (**بِالْعَشِيِّ**) صلاة العصر (**وَالإِبْكَارِ**) صلاة الصّبح، ويأتي الكلام بصورة أتمّ على هذا في أوّل سورة مريم إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

(و) أي واذكر (**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ**) لمريم (**يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ**) إختارك لخدمة البيت المقدّس دون النّساء (**وَطَهَّرَكِ**) من الذّنوب والأنجاس (**وَاصْطَفَاكِ**) وفضلّك (**عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ**) كلّهن لإظهار معجزة منك.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

(**يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي**) إخشعي لربّك واعبديه (**وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**) أي صلّي

مع المصلين، وقدّم السّجود على الركوع لأنّ قوله: **(وَاسْجُدِي)** أي صلّي، وقوله: **(وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ)** أي وصلّي مع المصلّين في جماعة، وكنّى عن الصّلاة أولاً بالسّجود وثانياً بالرّكوع، لأنّ من أدرك الركوع مع الإمام فقد أدرك ركعة والله أعلم، وقال الرّاكعين دون الراكعات تغليباً للذّكور على الإناث.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

(ذَلِكَ) المذكور من أخبار مريم وأمّها وزكريّا **(مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ)** أي من الأنباء الّتي غابت وخفيت عليك وعلى قومك؛ لأنّها من إختصاص الأحبار والرّهبان وما كنت لتعلم بها، إلّا أنّها **(نُوحِيهِ إِلَيكَ)** ليكون معجزة لك، وتذكير ضمير نوحيه وإن كانت راجعاً إلى الأنباء بإعتبار **الغيب**، أي نوحي هذا **الغيب** إليك **(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ)** أي وما كنت مع سدنة البيت المقدس **(إِذْ يُلْقُون أَقْلاَمَهُمْ)** فيقترعون ليعلموا **(أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ)** ويربيها حيث تنافسوا على تربيتها وكفالتها، فخرجت القرعة لزكريّا فكفلها زكريا (عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام) **(وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ)** على كفالة مريم (عليها السّلام).

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(إِذْ) أي واذكر **(إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ)** ولم يذكر واو العطف على **(إِذْ)** لأنه بدل أو بيان لقوله: وإذ قالت الملائكة إنّ الله اصطفاك ... إلخ، وقوله: (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ...إلخ) معترضة بينهما للتنبيه على المعجزة في هذه الأخبار السّابقة واللّاحقة **(إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ)** أي يولد منك بدون والد بل **(بـ)** مجرّد **(كَلِمَةٍ مِنْهُ)** **من الله** تعالى وهو قوله: (كُن فَيَكُونُ). **(اسْمُهُ الْمَسِيحُ)** لقباً **(عِيسَى)** علماً **(ابْنُ مَرْيَمَ)** كنية، وفي معنى المسيح أقوال: أظهرها المبارك **(وَجِيهًا)** عظيماً **(فِي الدُّنْيَا)** لأنّه نبيّ مرسل **(وَ)** في **(الآخِرَةِ)** لأنّه شفيع تقبل شفاعته **(وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ)** إلى الله تعالى.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ) أي ومن وجاهته ومعجزاته أن يكلّم النّاس **(فِي الْمَهْدِ)** وهو رضيع

(وَكَهْلاً) وهذه بشارة ببقائه إلى الكهولة وهو ما بين الشّباب والشّيخوخة[١] **(و)** هو **(مِنَ الصَّالِحِينَ)** أي المرسلين، والكلام على أنّ عيسى كم عاش، وهل كان نبيّاً في حالة الصّبا أم لا؟ ذكرته في سورة يوسف (على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام) عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾... إلخ.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

(قَالَتْ) مريم **(رَبِّ أَنّى)** كيف **(يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)** كناية عن الجماع **(قَالَ)** تعالى لها على لسان الملك الآمر **(كَذَلِكِ)** مثل ما تقولين ولم يمسسك بشر إلّا أنّ الله تعالى أراد ذلك و**(اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء)** وكيف يشاء **(إِذَا قَضَى)** أراد **(أَمْرًا)** أن يكون **(فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)** ذلك الشّيء بدون سبب أو بعد تمام الأسباب.

فائدة: إنّ الحكمة في إيجاد عيسى بدون أب هي أنّ الله تعالى خلق آدم بدون جانب الذكورة والأنوثة وخلق حواء من ذكر بدون جانب الأنوثة فخلق عيسى من أنثى بدون جانب الذكورة ليعلم النّاس أن وجود الإنسان من ذكر وأنثى هي عادة أجراها الله تعالى كذلك وإن الله ليس بحاجة إلى هذه العادة بل يستطيع أن يخلق بدون ذكر وأنثى أو بدون ذكر أو بدون أنثى وإنما خصت وجود عيسى بذلك الزّمان لأنّ الفلسفة اليونانيّة طغت على النّاس فكانوا يعتقدون أنّ الله تعالى خلق الطبيّعة ورتب فيها الأسباب وربط بينها وبين المسبّبات ثمّ أصبح تعالى لا يستطيع أن يخلق المسبّب بدون سبب أو أن يوجد السّبب ولا يوجد المسبّب بعده فالله تعالى فاعل بالإيجاب عندهم لا إختيار له فخلق الله تعالى عيسى بدون أب وآتاه معجزات كبيرة ليخرق به نواميس الطّبيعة وليعلم النّاس أنّ الله تعالى حاكم على الطّبيعة وليس للطّبيعة أن يجبر على الله تعالى كما زعم الفلاسفة.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

(وَيُعَلِّمُهُ) أي ويعلم الله تعالى عيسى (عليه السلام) **(الْكِتَابَ)** جنس يشمل الكتب

(١) كما هو إشارة إلى عدم بقائه إلى مرحلة الشيخوخة بينهم.

الموجودة في ذلك الزّمان فكان يعلمها (**وَالْحِكْمَةَ**) وهي الشّريعة الإلهيّة، وقيل المواد بالكتاب الكتابة فكان خطّه أحسن خطّ في زمانه، والحكمة هي حسن التّقرير فالمراد أنّه يحسن التّعبير بالتّحرير والتّقدير.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(**وَرَسُولاً**) عطف على وجيهاً فيكون حالاً آخر عن قوله: بكلمة منه (**إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ**) وهم ذرية يعقوب (عليه السلام) فإسرائيل لقب يعقوب وحيث إنّ رسولاً يتضمّن معنى التّبليغ قال: (**أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ**) أي أبلّغكم أنّي قد جئتكم بآية، المراد بها الجنس ليشمل الكثير، لأنّ آيات عيسى كثيرة كما قال: (**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم**) أي أصوّركم (**مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ**) أي مثل هيئة أي صورة (**الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ**) أي في المثل، ولذا ذكر الضمير في (**فِيهِ**) وفي (**فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللّهِ**) أي بإرادته وخلقه (**وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ**) وهو المولود الأعمى (**والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ**) تعالى، هذه كانت معجزات في التّبديل والتّصرف في المواد. ثمّ أراد أن يذكر أن له معجزات في الأخبار عن المخفيّات والعلم بها فقال: (**وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**) راجع إلى الأمرين أي تأكلون في بيوتكم وتدّخرون فيها (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) المذكور (**لآيَةً**) لمعجزة (**لَّكُمْ**) تدل على صدقي في الرّسالة (**إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**) بالله ورسالاته تكفيكم آياتي هذه للإيمان بي.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

(**وَمُصَدِّقًا**) عطف على وجيهاً حال أيضاً ممّا قبل (**مَا بَيْنَ يَدَيَّ**) أي للكتاب الّذي جاء من قبلي وهو (**التَّوْرَاةِ**) في عقائدها وأحكامها الأساسّية بقرينة قوله: (**وَ**) أي وجئت (**لأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**) في التّوراة كالشّحم وذي الظّفر والإبل (**وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ**) بمعجزات (**مِّن رَّبِّكُمْ**) أعادها هنا لأنّ الأوّل كان وعداً وهذا كان فعلاً (**فَاتَّقُواْ اللّهَ**

وَأَطِيعُونِ) أصله أطيعوني حذفت الياء للتّحقيق، وتفيد الآية أنّ تقوى الله لا تكون إلّا بإطاعة رسول الوقت؛ لأنّه هو العارف بكيفيّة تقوى الله والمبلّغ بها، فكلّ تقوى لم يأمر بها الرّسول فهي ضلالة، ومن جملة ما دعا عيسى إليه من الأحكام أنّه قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

(إِنَّ اللّهَ رَبِّي) لا ربَّ لنا غيره **(فَاعْبُدُوهُ)** وحده ولا تعبدوا غيره **(هَذَا)** أي ترك عبادة كلّ شيءٍ غير الله وتوحيده بالعبادة والطّاعة هو**(صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ)** لا عوج فيه ولا ضلال، ويؤدّي بسالكه إلى الجنّة والفوز والفلاح والسّعادة في الدّنيا والآخرة. فالأنبياء والرّسل كلّهم جاؤوا لدعوة النّاس إلى عبادة الله وترك عبادة من سواه، والمراد بعبادة الله تعالى هو العمل بشريعته ونظامه وترك ما سوى ذلك من كلّ الأنظمة والقوانين.

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(فَلَمَّا) استمرّ عيسى(عليه السلام) في الدّعوة والتّبليغ و **(أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ)** من بني إسرائيل **(الْكُفْرَ)** والتمرّد عليه وعداءهم السّافر له **(قَالَ مَنْ أَنصَارِي)** من الّذين ينصرونني ويؤيّدنني **(إِلَى)** نشر دين **(اللّهِ)**، **(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ)** من حار يحور أي بيض، كان هؤلاء بيّاضين يقصرون الثّياب **(نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ)** جمع ناصر، أي نحن ننصر دين الله تعالى لأنّنا **(آمَنَّا بِاللّهِ)** وبك **(وَاشْهَدْ)** يا عيسى **(بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)** منقادون لأمر الله واتّباع شريعته. ثمّ توجّه الحواريّون إلى الله تعالى بالتّضرع والدّعاء فقالوا:

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

(رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ) على عيسى(عليه السلام) **(وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ)** وهو عيسى **(فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)** للحقّ ومتّبعيه.

﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

المكر عبارة عن اتّخاذ الحيل والتّدابير للحصول على شيء، فالمعنى: واتّخذوا أي أعداء عيسى(عليه السلام) الحيل والتّدابير لقتل عيسى(عليه السلام)، وحيث لا يصلح إطلاق هذا

المعنى على الله تعالى فمعنى قوله: (**وَمَكَرَ اللّهُ**) أي وقدّر الله تعالى لإنجاء عيسى من مؤامرة القوم، إلّا أنّه عبّر عنه بالمكر لوقوعه مقابل قوله: (**وَمَكَرُواْ**) فعبّر عنه بلفظه، ويسمّى هذا بالمشاكلة وهي التّعبير عن معنى بلفظ ما يقابله من المعاني لوقوعه في مقابلته، وهذه الصّنعة من الصّناعات البديعيّة الّتي تورث الكلام حسناً وجمالاً، وهو في القرآن كثير مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ· اللّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ﴾ ـ الآيتان١٤-١٥ ـ أي يجزيهم ويعاقبهم على الإستهزاء بالمؤمنين، وقوله تعالى في سورة الطارق: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا · وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ الآيتان ١٥-١٦ ـ أي يعاقبهم على ذلك الكيد، فعبّر عن جزاء الإستهزاء بالإستهزاء وعن جزاء الكيد بالكيد للمشاكلة، والمشاكلة موجودة في كلام الشّعراء أيضاً كما قال الشّاعر:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبّة وقميصاً

والجبّة والقميص لا يطبخان بل يخيّطان إلّا أنّه عبّر عن خيطهما بالطّبخ لوقوعه في جواب قولهم: نجد لك طبخة فذكر بلفظه مشاكلة (**وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**) أي خير المقدّرين.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

(**إِذْ**) ظرف بمعنى الوقت، والعامل فيه هنا قوله تعالى: (**وَمَكَرَ اللّهُ**) فالمعنى وقدّر الله تعالى إنجاء عيسى: (**إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) في تفسير هذه الفقرات من هذه الآية ثلاثة آراء:

الأول: (**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**) أي أخذك في النّوم أو اليقظة (**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**) أي ورافعك حيّاً روحاً وجسداً إليّ أي إلى السّماء (**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) من أن يقتلوك، فعلى هذا الرأي إنّ عيسى رُفع إلى السّماء وهو حيّ.

الثّاني: (**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**) أي مميتك (**وَرَافِعُكَ إِلَيَّ**) أي رافع روحك إليّ (**وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) من أن يقتلوك، فعلى هذا الرّأي: إنّ عيسى مات ودفن، ورفعت روحه فقط.

الثّالث: (**إِنِّي مُتَوَفِّيكَ**) أي مميتك (**وَرَافِعُكَ**) بعد إحيائك (**إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) من أن يمثّلوا بجثّتك أو من أن يقتلوك، فعلى هذا إنّ عيسى مات ثمّ أحيي ورفع بروحه وجسده إلى السّماء.

وحيث إنّ الآية تحتمل كلّ الوجوه ولا نصّ قطعيّ الدّلالة على أحد الآراء، فالكلّ محتمل، إلّا أنّ الآية ظاهرة في إفادة الموت وحمل اللّفظ على غير ظاهره بدون مقتضى لذلك غير سائغ، وعلى كلّ التّقادير هل يرجع في آخر الزّمان ويقتل الدّجال أم لا ؟ ففيه خلاف، وقد قال بعض العلماء بورود أحاديث متواترة[1] على ذلك ولكنّ القول برجوعه مشكل جدّاً، لأنّه إن رجع على دينه فباطل لأنّ كلّ دين نسخ بالإسلام، فهو خاتمة الأديان ولا دين يأتي بعده. وإن رجع على دين الإسلام فإمّا أن يرجع رسولاً وذلك باطل؛ لأنّ الرّسول لا بد وأن يكون له كتاب جديد أو نسخ لبعض ما قبله وكلاهما باطلان، حيث لا رسالة بعد النّبيّ محمّد (ﷺ) ولا نسخ لدينه ولا كتاب ينزل بعد القرآن. وإن رجع لواحد من أفراد أمّة محمّد (ﷺ) فيلزم إعفاءه عن الرّسالة والنّبوّة، وهل يوجد نسخ لنبوّة نبيّ أو رسالة رسول فالأمر مشكل جدّاً[2]. ولهذه الإشكالات

---

(١) ليست متواترة اللفظ بل متواترة المعنى.

(٢) الذي نراه أن دين الله تعالى من الأزل إلى الأبد واحد ثابت لا يتغير وهو الإسلام، بدليل قوله تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسلام) المعبر عنه بالجملة الإسمية للدلالة على الثبوت والإستقرار منذ الأزل، فدين الأنبياء جميعا واحد وهو الإسلام بدليل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)**﴾ فهي تدل على أن دين جميع الأنبياء كان هو الإسلام لكنّ الناس غيّروا وبدّلوا فنشأت تلك الأسماء والمسمّيات لتلك الأديان المحرفة، وإلّا فلا اختلاف بين الإسلام الذي جاء به جميع الأنبياء إلا في بعض الأحكام كما قال تعالى على لسان عيسى (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) وفق ما أراده الله تعالى لكل نبيّ أو أمّة. فعيسى حين ينزل بعد الدجال لا يأتي بدين جديد بل بالإسلام نفسه الذي هو دينه ودين محمد (ﷺ)، فهو يأتي كمجدد للدين، لذلك لا إشكال في الموضوع.والآيات والأدلة على هذا كثيرة كما ذكرناه في كتابنا(دين الله واحد غير متعدد) حيث فيه الموضوع مفصلاً. والذي حمل الشيخ الوالد على هذا الاجتهاد هو زيادة اعتزازه بالإسلام وبنبيّه محمد (ﷺ) بصورة لا يريد معه إلى نسبة الفضل إلى غيرهما، وإلا فهو رحمه الله تعالى قد سجل نفس ماقلته هنا في تفسيره للآية (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا) كما سيأتي.

نفى بعض العلماء نزوله ورجوعه، وأولوا الأحاديث الواردة في ذلك بأنّ معناها أنّه يتقوّى جانب الرّوح في آخر الزمان فيقضي على طغيان المادّة فإنّ عيسى مثال للرّوح والرّوحيّة؛ فيكون نزوله ورجوعه كناية عن قوّة الرّوح وقضائه على قوّة المادة. والله تعالى أعلم.

(**وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**) المراد بالّذين كفروا اليهود لأنّهم هم الّذين يكفرون بعيسى. وأمّا المراد بـ (**الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ**) إن كان النّصارى الموجودين في زمنه فقط فذاك صحيح؛ لأنّ أتباعه غلبوا على اليهود ولكنّه يخالف قوله تعالى: (**إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**)، وإن كان المراد بهم النّصارى إلى يوم القيامة فمخالف لقوله: (**إتَّبَعُوكَ**) لأنّ النّصارى بعده غيّروا وبدّلوا ولم يبقوا على تبعيّته، وإن كان المراد بهم الّذين كانوا في زمانه ومن بعدهم إلى أن غيّروا ثمّ المسلمين، فإنّ المسلمين هم أتباعه اليوم حقّاً، فيشكل بأنّ اليهود طردوا المسلمين من فلسطين واستولوا على ديارهم وأموالهم، فلا خروج من هذه الإشكالات إلّا بأن نقول المراد بهم النّصارى الّذين بقوا على دينه إلى أن غيّروا، ثمّ المسلمون بعدهم، وإنّ الذين استولوا على المسلمين ليسوا اليهود فإنّ حكومة إسرائيل هي ركيزة النّصارى المستعمرين وقاعدة من قواعدهم، فهم الّذين غلبوا على المسلمين لا اليهود، أو نقول إنّ المسلمين الّذين غلبهم اليهود لم يتّبعوا المسيح في نضاله وكفاحه وجهده والتّفاني في سبيل الجهاد وإلّا لم يكن ليغلب عليهم اليهود؛ فلم يكونوا من الّذين اتّبعوه والله أعلم (**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**) في الدّنيا والآخرة (**فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فيما كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**).

ثمّ أراد تعالى أن يبيّن نتيجة حكمه فيما بينهم فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(**فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ**) بالمسيح وهم اليهود (**فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا**) بأن أسلّط عليهم الذّل والمسكنة كما قال: (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) ـ نفس السّورة الآية/ ١١٢ ـ (**وَالآخِرَةِ**) أي فأعذّبهم عذاباً شديداً في الآخرة أيضاً بعذاب جهنّم (**وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**) ينصرونهم وينقذونهم من عذاب الله الّذي أراد بهم.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

(**وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا**) بعيسى وامتثلوا أمره بالإيمان بمحمّد حينما جاء وبعث (**وَعَمِلُواْ**) الأعمال (**الصَّالِحَاتِ**) وهي الّتي توافق شرع الله تعالى وحكمه (**فَيُوَفِّيهِمْ**) بالياء، فاعله ضمير مستتر تقديره هو راجع إلى الله تعالى للعلم به حسب السّياق، وبالنّون (فنوفّيهم) فهو من كلام الله يخبر به عن نفسه جلّ وعلا بأنّه يوفّيهم (**أُجُورَهُمْ**) أي ثواب أعمالهم (**وَاللّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**) أراد بهم الّذين ينحرفون عن صالح الأعمال إلى طالحها وعن تعاليم الله ومناهجه إلى تعاليم ومناهج أخرى ما أنزل الله بها من سلطان، فالله تعالى لا يحبّهم بل يكرههم وينتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً والله على كلّ شيء قدير.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأَيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

(**ذَلِكَ**) المذكور من أخبار عيسى (عليه السلام) وأمّه وكيفيّة ولادته (**نَتْلُوهُ عَلَيْكَ**) أيّها النّبيّ (**مِنَ الآيَاتِ**) الدّالة على نبوّتك لأنّه من إختصاص الرّهبان والأحبار، فلا يمكن لأحد أمّي مثلك أن يعلم ذلك إلّا بالوحي (**وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ**) أي المحكم الّذي لا يدخله الخلط والخطأ.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾

(**إِنَّ مَثَلَ**) خلق (**عِيسَى عِندَ اللّهِ**) من أمّ بدون أب (**كَمَثَلِ**) خلق (**آدَمَ خَلَقَهُ**) أي صوّر آدم (**مِن تُرَابٍ**) بدون أب وأمّ (**ثُمَّ قَالَ لَهُ**) أي للمصوّر (**كُن**) آدم وأن يقول له كن (**فَيَكُونُ**) فكان المصوّر آدم، وكذلك صوّر الله تعالى عيسى في بطن مريم ثم قال له كن فكان، وفي هذا المثل تشبيه العجيب بالأعجب ورد على النّصارى في قولهم: كيف يكون ولد بدون أب وأم؟ فكأنّه قال: فكيف أنّ أدم كان بدون أب وأم؟ فكذلك يكون عيسى بدون أب، لأنّ هذا[١] أسهل بالنّظر إلى عقولنا، وإلّا فبالنّسبة إلى قدرة الله تعالى لا أسهل ولا أصعب، بل كلّ شيء سهل وسواء لديه.

(١) أي ذكر الله تعالى ذلك المثل لأن.....الخ.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

(**الْحَقُّ**) في قضيّة عيسى نزل (**مِن رَّبِّكَ**) أيّها السّامع كما ذكر في هذه الآيات (**فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**) المشكّكين في أمره وكيفيّة خلقه وفي كونه عبداً لله ورسولاً منه إلهاً ولا إبن إله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

(**فَمَنْ حَآجَّكَ**) فمن جادلك يا أيّها النّبيّ (**فِيهِ**) في أمر عيسى (**مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ**) بحالة وبكيفيّة ولادته ونبوّته وادّعى أنّه إله أو إبنه (**فَقُلْ**) لهم (**تَعَالَوْاْ**) وأتوا فاجتمعوا فإن اجتمعتم (**نَدْعُ**) نناد ونجمع (**أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ**) بعد ذلك الإجتماع (**نَبْتَهِلْ**) أي ندع باللّعنة على الكاذب (**فَنَجْعَل**) في دعائنا (**لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**) منّا ومنكم فنقول: أللّهم العن الكاذب في هذا الأمر، فلمّا طلب الرّسول(ﷺ) من وفد نجران الإجتماع للمباهلة، قالوا يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا، فاجتمعوا فيما بينهم فقال أسقفهم الكبير: قد علمتم أنّ محمّداً رسول وما لاعن قوم نبيّاً إلّا هلكوا أولهم وآخرهم، فأتوا رسول الله (ﷺ) فصالحوه، فلم يلاعنوا ورجعوا، وإنّما لم يؤمنوا حفظاً على رئاستهم ولكذبهم وغرورهم بقولهم.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

(**إِنَّ هَذَا**) الّذي ذكر لك (**هُوَ الْقَصَصُ**) والبيان (**الْحَقُّ**) من قصّة عيسى (**وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللّهُ**) فليس عيسى إلهاً وإنّ الله هو (**الْعَزِيزُ**) الغالب على كلّ أمر فلا يحتاج إلى ولد، فليس عيسى إبناً له أيضاً (**الْحَكِيمُ**) ولحكمته خلق عيسى هكذا بدون أب وقد ذكرنا الحكمة سابقاً والله أعلم.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

(**فَإِن تَوَلَّوْاْ**) واعرضوا ولم يؤمنوا (**فَإِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**) وبفسادهم فينتقم منهم.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

(**قُلْ**) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داعية لأهل الكتاب (**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**) من وفد نجران وغيرهم من اليهود والنّصارى (**تَعَالَوْاْ**) نتّفق وندع (**إِلَى كَلَمَةٍ**) قول (**سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**) لم يختلف فيه التوراة والإنجيل والقرآن، وإنّ هذه هي العقيدة الّتي تثبتها كلّ الكتب السّماويّة، والكلمة والعقيدة هي (**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللّهَ**) أي لا نطيع في الأحكام إلّا أحكام الله تعالى، ولا نذلّ لأحد غيره (**وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ**) بالله تعالى (**شَيْئًا**) بأن نرى منه النّفع والضّرر بسلطته الغيبيّة وبتأثيره الذّاتي (**وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِن دُونِ اللّهِ**) فنعتقد أنّ لهم حقّ التّشريع. وحينما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم وقد كان نصرانيّاً قبل: (ما كنّا نعبدهم أي رؤساءنا يا رسول الله، قال: أليس كانوا يحلّون لكم ويحرّمون؟ قال: نعم، قال: فذاك)[1] أي فالإطاعة في ذاك هي عبادتهم واتّخاذهم أرباباً (**فَإِن تَوَلَّوْاْ**) واعرضوا عن هذه العقيدة عقيدة: أنّ الحكم لله وحده وأنّ التّأثير لله وحده فقط (**فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا**) نحن فقط لا أنتم (**مُسْلِمُونَ**) منقادون لله، لا نعبد غيره ولا نطيع سواه، إلّا من أمر هو بإطاعته وفيما أمر به، وفي حدود ما أحلّ وأباح لنا إطاعته، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق جلّ وعلا[2]، فالإسلام جاء لتحرير الإنسان من عبادة الإنسان وغير الله تعالى وطاعته لما سواه، فالسّيادة كلّ السّيادة لنظام الله تعالى وشريعته

---

(١) الحديث هو ما روي عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) قال: أتيت النبي (ﷺ) وفي عنقي صليب!قال فسمعته يقول: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون االله) قال قلت يارسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم، قال: أجل، ولكن يحلون لهم ماحرم الله فيستحلونه، ويحرمون عليهم ما أحل الله فيحرمونه، فتلك عبادتهم لهم./ سنن البيهقي ١٠/ ١١٦ الحديث رقم ٢٠١٣٨.

(٢) هو حديث في مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٥٤٥ الحديث رقم٣٣٧١٧ وغيره بهذا اللفظ. ولفظ البخاري عن علي (رضي الله عنه) أن النبي (ﷺ) بعث جيشا وأمر عليهم رجلا فأوقد نارا،وقال: ادخلوها، فأرادوا أن يدخلوها،وقال آخرون: إنما فررنا منها، فذكروا للنبي (ﷺ) فقال للذين أرادوا أن يدخلوها لو دخلوها لم يزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين لا طاعة في المعصية إنما الطاعة في المعروف./ صحيح البخاري ٦/ ٢٦٤٩ الحديث رقم ٦٨٣٠.

ومنهجه ونظامه، ولا سيادة لأحد إلّا في حدود ما حدّده النّظام الإلهي (أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم)[١] قاعدة إسلاميّة أعلنها الصّديق (رضي الله عنه). كما قال (رضي الله عنه) (إذا رأيتم فيّ إعوجاجاً فقوّموني)[٢] هذا هو تحرير الإنسان وإنطلاقه تحت نظام الله تعالى أحكم الحاكمين.

ثم إنّ اليهود والنّصارى كانوا يتنازعون في إبراهيم (عليه السلام) فكلّ طائفة تدّعي أنّ إبراهيم (عليه السلام) منهم، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

(**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**) أي يا أيّها اليهود والنّصارى (**لِمَ تُحَاجُّونَ**) وتجادلون (**فِي إِبْرَاهِيمَ**) فكلّ طائفة منكم تدّعي أنّ إبراهيم (عليه السلام) منهم (**وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ**) فكان إبراهيم (عليه السلام) قبل وجود اليهوديّة والنّصرانيّة (**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**) أن من كان قبل وجود شيء فدخوله فيه واتّصافه به مستحيل (**هَا أَنتُمْ**) أيّها اليهود والنّصارى (**هَؤُلاء**) الحاضرون، والمعنى أنتم أيّها الحاضرون لا بأس عليكم حينما (**حَاجَجْتُمْ فِيمَا بِهِ**) بسبب ما اطّلعتم عليه في التّوراة والإنجيل (**فَلِمَ**) فلأيّ سبب (**تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**) حيث لا وجود له في التّوراة والإنجيل (**وَاللّهُ يَعْلَمُ**) أنّ إبراهيم (عليه السلام) ماذا كان (**وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**) ذلك.

ثمّ أخبر الله تعالى عن إبراهيم (عليه السلام) أنّه كان مسلماً فقال جلّ وعلا: (**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً**) أي مائلاً في الأديان كلّها إلّا الإسلام؛ فكان (**مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**) بالله شيئاً.

---

(١) مصنف عبد الرزاق ١١/ ٣٣٦ الحديث رقم ٢٠٧٠٢.

(٢) هكذا المشهور على ألسنة الخطباء ولكن الصحيح هو: (فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني)/ مصنف عبد الرزاق ١١/ ٣٣٦ الحديث رقم ٢٠٧٠١ وغيره.

سؤال: إنّ اليهود أتباع موسى والنّصارى أتباع عيسى (عليه السلام) وموسى وعيسى وكلّ الأنبياء(عليهم السلام) جاؤوا بالإسلام، وكان الإسلام دينهم كلّهم كما قال تعالى في سورة الشّورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الآية/ ١١.

* * *

سؤال: فإذا كان دين كلّ الأنبياء الإسلام صحّ أن يقال أنّ إبراهيم مسلم أو يهوديّ أو نصرانيّ فلماذا نفى الله عن إبراهيم اليهوديّة والنّصرانيّة؟

الجواب: إنّ الإسلام دين الأنبياء كلّهم، وجاء موسى وعيسى بالإسلام وكان دينهما الإسلام، إلّا أنّ اليهود غيّروا أصل دين موسى وحرّفوه وأدخلوا فيه الشّرك والأباطيل وغيّروا الأحكام التي جاء بها موسى (عليه السلام) وسمّوها باليهوديّة. وسمّوها بالنّصرانيّة، فإبراهيم وموسى وعيسى (عليهم السلام) كلّهم كانوا مسلمين ولم يكونوا من اليهود ولا النّصارى، فلذلك كذبوا حينما قالوا: إنّ إبراهيم كان يهوديّاً أو نصرانيّاً. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ سورة آل عمران/ ١٩.

والآيات الدّالة على أنّ دين الله هو الإسلام وأنّ أهل الكتاب غيّروا دينهم كثيرة في القرآن الكريم.

* * *

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

(**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ**) كلّهم (**بِإِبْرَاهِيمَ**) (عليه السلام)هم (**لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ**) في زمانه وآمنوا به (**وَهَذَا النَّبِيُّ**) محمّد(صلى الله عليه وسلم) في غير زمانه (**وَالَّذِينَ آمَنُواْ**) به (صلى الله عليه وسلم) (**وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**) فيحبّهم وينصرهم إن اجتهدوا واستقاموا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن للرّسول (صلى الله عليه وسلم) خبث نيّة أهل الكتاب ومؤامراتهم ضدّه وضدّ المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

(**وَدَّت**) أحبّت (**طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**) وحبّهم هو (**لَوْ يُضِلُّونَكُمْ**) عن الإسلام حيث كانوا يدعون المسلمين إلى اليهوديّة أو النّصرانيّة (**وَمَا يُضِلُّونَ**) أحداً من المسلمين لأنّ الإسلام إذا دخل في قلب لا يخرج منه، فما يضّلون بذلك العمل (**إِلَّا أَنفُسَهُمْ**) حيث يصرّون على الكفر ويريدون إدخال النّاس في كفرهم (**وَمَا يَشْعُرُونَ**) أنّهم ضالّون، ويضلّون أنفسهم بالإصرار على الكفر والطّمع في إدخال غيرهم فيه وقال: (**وَمَا يَشْعُرُونَ**) وإن كانوا يعلمون ذلك بقرينة ما يأتي من قوله تعالى: ﴿لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون﴾ لأنّ الشّعور بالشّيء إنّما يعتبر شعوراً إذا عمل الشّاعر وفقه، وإلّا فيعتبر لا شعوراً، بل عدم الشّعور خير منه، لصحّة كونه معذرة، والتّعبير عن العلم الّذي لا يعمل العالم على وفقه بعدم العلم كثير في القرآن كالتّعبير هنا عن الشّعور غير المفيد بعدم الشّعور، أو قال: (وهم لا يشعرون) لأنّهم كانوا يعتبرون عملهم هذا رشداً لا ضلالاً، حيث كانوا يريدون بذلك تقوية دينهم وإن كان ضلالاً؛ لبقاء سيادتهم ومنافعهم والحفاظ على المصالح والمنافع الدنيويّة، وكانوا يزعمون أنّهم بالنّسبة للآخرة لا يعذبون على ذلك إلّا أياماً قلائل، كما قال تعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٢٤، فاختيارهم العذاب القليل حفاظاً على السّيادة والمنافع كان رشداً حسب مقدماتهم الفاسدة ومزاعمهم الباطلة والله أعلم.

وكان من مؤامرتهم على الإسلام أنّهم كانوا يكفرون بالآيات الّتي نزلت في التّوراة والإنجيل في بيان علامات النّبيّ (ﷺ) والأمر بالإيمان به فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**) اليهود والنّصارى (**لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ**) الموجودة في التّوراة والإنجيل الآمرة بالإيمان والمبيّنة لأوصاف النّبيّ (ﷺ) (**وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ**) وتعلمون وجودها في كتابكم هذا. ثم كان أيضاً يحرّفون التّوراة والإنجيل فيحرّفون الآيات المتعلقّة بالرّسول ويدخلون فيها غيرها ويغيّرون أيضاً بعض الأحكام الّتي توافق حكم الرّسول فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

(**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ**) التّوراة والإنجيل (**لِمَ تَلْبِسُونَ**) تخلطون (**الْحَقَّ**) الموجود في كتابكم (**بِالْبَاطِلِ**) الّذي تدخلون فيه (**وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ**) فتحذفونه (**وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**) أي وأنتم تعلمون أنّ هذا ضلال وكفر وخيانة في الحقّ والدّين، وكانت لهم مؤمرات أخرى غير هذه كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

(**وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**) لأتباعهم وتلاميذهم (**آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ**) محمّد(ﷺ) (**وَجْهَ النَّهَارِ**) أوله (**وَاكْفُرُواْ**) به وارجعوا عنه (**آخِرَهُ**) آخر النّهار (**لَعَلَّهُمْ**) أي لعل البسطاء ينخدعون بهذه المكيدة (**يَرْجِعُونَ**) يرتدّون عن الإسلام؛ فإنّهم يقولون هؤلاء أهل علم وكتاب ولولا أن علموا أنّ الإسلام باطل لما خرجوا منه بعد دخولهم فيه.

وقالوا لهم أيضاً:

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾

(**وَلَا تُؤْمِنُواْ**) أي وقالت تلك الطّائفة لأتْباعهم لا تؤمنوا ولا تتّبعوا (**إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ**) أبداً (**قُلْ**) لهم يا محمّد(**إنّ الهدى هدى الله**) أي إنّ الدّين دين الله كما يريده لا كما حرّفتم[١] وقد جئتكم به (**أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم**)[٢].

(١) فيه تعريض أن الدين دين الله كما يريده الله تعالى لا دينكم المحرف على هواكم كما تريدون، فالدين ينسب إلى الله لا إلى البشر، والإسلام هو دين الله وحيا ولا ينسب إلى محمد (ﷺ) إلا على وجه أنه المرسل به والمتصف به، فحين نقول دين محمّد أي الدّين الذي أتى به محمّد (ﷺ) من الله تعالى واتّصف به، ولا ينسب الدّين إلى غيره من البشر إلا على وجه الإتّصاف والتّدين به، فحين نقول دين زيد أي الدّين الذي اتصف وتديّن به زيد وهكذا بالنّسبة لكل مسلم.

(٢) لتفسير هذه الآية أقوال نذكر أبرزها لزيادة التوضيح لأنّها مشكلة جدّا: =

(قل) أي قل لهم أيّها النّبيّ (**إِنَّ الْفَضْلَ**) أي الوحي والنّبوّة كلّه (**بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء**) هو لا أنتم، فليس الوحي والرّسالة حصراً على طائفة مخصوصة كما تريدون أن تكون الرّسالة في بني إسرائيل فقط. ولذلك كرهتم (**أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ**) من النّبوّة والرّسالة (**أَوْ يُحَآجُّوكُمْ**) أي يغلبوكم (**عِندَ رَبِّكُمْ**) بشهادتهم على إنحرافكم، وعدم وفائكم بالعهد الّذي أخذ منكم من الإيمان بالإسلام ورسوله محمّد(ﷺ) (**وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**) أي واسع علمه فعلم إنحرافكم وخيانتكم وعدم صلاحيّتكم للنّبوّة بعد، وعلم صلاحيّة محمّد (ﷺ) لذلك فاختاره للرّسالة الخالدة وختم النّبوّة والرّسالة به والشّريعة الّتي لا تنسخ إلي يوم الدّين.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

(**يَخْتَصُّ**) الله تعالى (**بِرَحْمَتِهِ**) برسالته ونبوّته وشريعته (**مَن يَشَاء**) لا من تشاءون أنتم (**وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**) فبضله هذا أختارني للرّسالة والنّبوّة ورسالة الإسلام الخالدة رضيتم أو أبيتم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ أهل الكتاب منهم الأمناء ومنهم الخائنون ليكون

= **الأول**: قيل هو من قول اليهود أيضا أي قالوا: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من التوراة والآيات، فهي معطوفة على(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) (**أو يحاجوكم عند ربكم**) ولا تصدّقوا أن يحاجّوكم به أي بالإسلام عند ربّكم يوم القيامة. فعلى هذا يكون(قل إن الهدى هدى الله) جملة اعتراضية توسط كلام اليهود .

الثاني: أن المعنى لما كان الهدى هدى الله عزّ وجلّ فلا تنكروا أن يؤتى أحد من الوحي مثل ما أوتيتم منه أو يحاجّوكم، يعني المسلمين بذلك عند ربّكم.

الثالث: قيل إن اليهود كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أنّ محمّدا (ﷺ) نبيّ وأنّ الإسلام حقّ لكنهم أضمروا ذلك وأنكروه حسدا وطغيانا، فمعنى الآية على هذا: أنّ كبار اليهود قالوا لعوامهم: لا تُظهروا إيمانكم بكون أن يؤتى أحد أي محمّد (ﷺ) مثل ما أوتيتم حقا، ولا تُفشوا هذا السّر إلّا لأهل دينكم، حتى لا يعلم المسلمون ذلك منكم فيزدادوا ثباتا وإيمانا ولا المشركون فيؤمنون، ولا تصدّقوا لغير أتباعكم أنّ المسلمين يحاجّونكم يوم القيامة بالحق ويغلبونكم عند الله تعالى للسّبب نفسه، وهو نظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ** (٧٦)﴾.

المؤمنون على حذر منهم في المعاملات والودائع فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

(و) وبعض (من أَهْلِ الْكِتَابِ من) يتّصف بالأمانة في الأموال بحيث (إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ) يعيده (إِلَيْكَ) تماماً بدون نقص (وَ) بعض (مِنْهُم مَنْ) خُلُقه الخيانة(إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ) لا يعيده (إِلَيْكَ إِلَّا مَا) حينما (دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا) ملازماً له، (ذَلِكَ) التّصرف من الخيانة صارت خُلقهم (بِأَنَّهُمْ) بسبب أنّهم (قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ)[١] وأموالهم (سَبِيلٌ)[٢] أي طريق المطالبة يوم القيامة، كناية من عدم الإثم لأنّهم ليسوا على دينن؛ خدمهم وأموالهم حلال لنا (وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) في هذا القول وفي غيره، حيث أدخلوه في التّوراة ونسبوها إلى الله تعالى.

ثمّ ردّ الله تعالى على زعمهم هذا فقال جلّ وعلا:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾

(بَلَى) أي ليس الأمر كما يقولون؛ فعليهم الإثم في الأمّيّين وهم غير أهل الكتاب في اصطلاحهم. ثمّ حينما ذكر تعالى أنّ بعضهم يؤدّون الأمانات الماليّة وبعضهم لا يؤدّونها، أشار الله تعالى إلى أنّهم في الأمانات الدّينيّة كذلك، فبعضهم يعترفون بالأمانة والعهد الّذي كان عندهم من الإيمان برسول الله (ﷺ) فيسلمون كعبد الله بن سلام وأمثاله، وبعضهم يكتمونه ويكفرون بالرسول ويعادونه فقال جلّ وعلا: (مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) الّذي كان عندهم في التّوراة والإنجيل وآمن (وَاتَّقَى) الكفر والخيانة في الدّين فإنّ الله

(١) أي غير اليهود، وكانوا يسمون غيرهم بالأميين استصغارا لغيرهم، وينطبق هذا على كل من يسمي غير طائفته من المسلمين المتبعين للكتاب والسنة باسم فيه استصغار لشأنهم.

(٢) روي في تفسير هذه الآية عن النبي (ﷺ) أنه قال: كذب أعداء الله، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر./ تفسير الطبري ٣/٣١٨، الدر المنثور ٢/ ٢٤٤.

يحبّه ويكرمه (**فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**) والعكس موجود، وهو أنّ من لم يف بعهده وخان ولم يؤمن، فإنّ الله يبغضه، فإنّ الله لا يحبّ الخائنين.

ثمّ أراد تعالى أن يذكر جزاء من أنكر اليمين والعهد الّذي أخذ منهم في التّوراة والإنجيل بأن يؤمنوا بالرّسول (ﷺ) وأن يعتنقوا الإسلام فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ**) الّذي أخذ منهم في التّوراة والإنجيل بأن يؤمنوا بمحمّد (ﷺ) حينما بعث (**وَأَيْمَانِهِمْ**) الّتي عقدوها على ذلك (**ثَمَنًا قَلِيلاً**) وهي الرّئاسة الدّينية، وأموال يأخذونها ممّن يطلب منهم ذلك، ويسمّى الثمن قليلاً وإن كان كثيراً لأنّ ما في الدّنيا مهما كثر فإنّه قليل بالنّسبة إلى ما في الآخرة الّتي ضيّعوها بإبطال هذه العهود والأيمان وهدم الوفاء بها (**أُوْلَئِكَ**) الّذين يفعلون ذلك (**لاَ خَلاَقَ**) لا حظ (**لَهُمْ فِي الآخِرَةِ**) أي في الحياة الآخرة من النّعيم (**وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ**) لأنّه غاضب عليهم (**يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ**) ولا يطهرهم من هذه الذّنوب بالعفو عنهم (**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**) مؤلم جدّاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ منهم من يحرّف التّوراة والإنجيل فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(**وَإِنَّ**) بعضاً (**مِنْهُمْ**) من أهل الكتاب (**لَفَرِيقًا**) لجماعة (**يَلْوُونَ**) يغيّرون (**أَلْسِنَتَهُم**) أي قراءتهم (**بِالْكِتَابِ**) التّوراة والانجيل فيقرؤونه على غير حقيقته (**لِتَحْسَبُوهُ**) أي لتحسبوا ما قرؤوه (**مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ**) بل هو منهم أدخلوه فيه من أحكام يخالفون بها الإسلام، وصفات يخالفون بها صفات الرّسول الأصليّة الموجودة في

الكتاب (**وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ**) بل هو من عندهم (**وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ**) بنسبة ذلك إليه تعالى (**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**) أنّه كذب ويعلمون ذلك عمداً وتقصّداً وكرهاً لله ورسوله.

ثم أشار الله تعالى إلى ما افتروا على الله تعالى وهو أن وفد نجران وغيرهم من النّصارى قالوا: إنّ عيسى أمرنا أن نعبده ونتّخذه ربّاً فردّ تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

(**مَا كَانَ**) أي لقد كذبتم على عيسى في أنّه أمركم أن تعبدوه فإنّه (**مَا كَانَ**) وما يمكن (**لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ**) الشّريعة (**وَالْحُكْمَ**) بين النّاس حسب شريعته (**وَالنُّبُوَّةَ**) والرّسالة عن الله تعالى (**ثُمَّ**) بعد ذلك (**يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لي مِن دُونِ اللّهِ**) أي اعبدوني ولا تعبدوا الله؛ فإنّ من عبد غير الله لم يعبد الله وإن عبده معه، فلا يمكن لرسول وما كان لنبيّ قطّ أن يقول ذلك (**وَلَكِن**) كلّ الرّسل والأنبياء يقولون لقومهم (**كُونُواْ**) أيّها النّاس (**رَبَّانِيِّينَ**) أي متفانين في عبادة الرّب وإطاعته ومتمسّكين (**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ**) النّاس (**الْكِتَابَ**) وهذا للأحبار والرّهبان (**وَبِمَا كُنتُمْ**) أي ومتمسّكون بما كنتم(**تَدْرُسُون**) من الكتاب، وهذا للطّلبة وغيرهم من العوام (**وَلَا يَأْمُرَكُمْ**) أي ولا كان ولم يكن لنبيّ أن يأمركم (**أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا**) كما تدّعون (**أَيَأْمُرُكُم**) النّبيّ والرّسول (**بِالْكُفْرِ**) وهو عبادة الملائكة والنّبيّين (**بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**) لله منقادون لحكمه متوجّهون إليه بالعبادات والدّعوات لا إلى غيره؛ فأنتم تفترون الكذب على عيسى من أنّه أمركم بعبادته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر العهد الّذي اخذ منهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨١﴾

(و) أي واذكر لهم **(إِذْ)** وقتما **(أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ)** كلّهم والميثاق هو أنّه قال لهم **(لَمَا)** للّذي **(آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)** وشريعة وخبره هو ما يجيء وهو قوله: **(لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)** لأنّ هذه الجملة خبر لهذا الكلام، ولقوله تعالى: **(ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ)** من العقائد والأحكام الأساسيّة وبيان علامات الرّسول (ﷺ) **(لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)** على من كفر به وعاداه، فقوله: لتؤمننّ به ولتنصرنّه خبر للكلام الأوّل وللثّاني أيضاً، حذف من الأوّل بقرينة الثّاني وهو الإيمان بما أوتوا ونصرته والإيمان بالرّسول (ﷺ) ونصرته هو الميثاق الّذي أخذ منهم **(قَالَ)** تعالى لهم **(أَأَقْرَرْتُمْ)** أقبلتم بهذا الميثاق **(وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ)** الميثاق **(إِصْرِي)** أي عهدي **(قَالُواْ أَقْرَرْنَا)** قبلنا هذا العهد **(قَالَ فَاشْهَدُواْ)** وبيّنوه للنّاس **(وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ)** لذلك العهد.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(فَمَن تَوَلَّى) أعرض عن هذا الميثاق **(بَعْدَ ذَلِكَ)** بعد أخذه منهم **(فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)** الخارجون عن سبيل الله وإطاعته والوفاء بعهده.

وهنا تنبيهان وسؤال واحد:

الأوّل: أنّه تعالى قال: (وجاءكم رسول مصدق لما معكم) دون (ويجيء) لأنّ ما يتحقّق وقوعه يعبر عنه بالماضي لأنّه لتحققه كأنّه كان ومضى، وهذا التّعبير في القرآن كثير.

الثّاني: قال تعالى هنا: (وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ)، وفي الآية/١٨٧ من هذه السّورة قال: (وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ...إلخ) لأنّ ميثاق النّبيّ ميثاق أمّته أيضاً، لأنّها تابعة له.

أما**السّؤال:** فهو هل أخذ الله هذا العهد من كلّ رسول سابق وأمّته للرّسول اللّاحق والآتي بعده؟ أم إنّ هذا الميثاق أخذ للرّسول محمّد (ﷺ) من كلّ الأنبياء خاصّة دون غيره؟

الجواب: ذكر في الخازن قولين:

الأوّل: أنّ الله تعالى أخذ العهد على كلّ نبيّ أنّ يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء وينصره إن أدركه، وإن لم يدركه أن يأمر قومه بنصرته إن أدركوه، فأخذ الميثاق من

موسى أن يؤمن بعيسى ومن عيسى أن يؤمن بمحمّد (ﷺ)، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن البصري وطاوس.

الثّاني: أنّه إنّما أخذ الميثاق من النّبيّين في أمر محمّد (ﷺ) خاصّة، وهو قول عليّ وابن عبّاس (رضي الله عنهم) وقتادة والسّدي والله تعالى أعلم. والأوّل أعتقد أنّه أصحّ.

* * *

ثمّ استفهم الله تعالى إستفهام تقريع للّذين لا يؤمنون بالإسلام ورسوله ولا يتّبعون ما جاء به الرّسول (ﷺ) من دين الله ونظامه فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(**أَفَـ**) بعد هذا الميثاق (**غَيْرَ دِينِ اللّهِ**) ونظامه ومنهجه (**يَبْغُونَ**) يطلبون ويعملون به من أنظمة وضعها النّاس حسب عقولهم وهواهم (**وَلَهُ**) أي ولأمر الله التّكويني (**أَسْلَمَ**) إنقاد وخضع كلّ (**مَن فِي السَّمَاوَاتِ**) من الملائكة (**وَالأَرْضِ**) من الجنّ والإنس، فكلّهم خاضعون ومنقادون لتكوين الله تعالى، خلقهم وأوجدهم ويخلق ما يعتري عليهم (**طَوْعًا**) ممّا يطيعونه فيه ويحبّونه حبّاً كالصّحة والغنى مثلاً (**وَ**) ما يكرهونه (**كَرْهًا**) كالمرض والفقر مثلاً؛ فلا يستطيعون التّفلت ممّا يقدّر الله لهم أو عليهم (**وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ**) للحشر والحساب، فمعنى الآية: أنّ من بيده تكوين النّاس وخلقهم ومقاديرهم في الدّنيا وحسابهم في الآخرة هو الحقيق بوضع النّظام لهم وأنّ نظامه هو الواجب إتباعه؛ لأنّ التّكليف يجب أن يكون من المكوّن، وإنّ إتباع أيّ نظام ومنهج سوى نظامه كفر وضلال، وأهله في النّار يوم القيامة ـ والله تعالى أعلم ـ.

ثمّ أمر الله تعالى رسوله وكلّ المؤمنين أن يقولوا لأهل الكتاب إلهنا الّذي آمنّا به هو الله عزّ وجل، وديننا الّذي آمنّا به هو الإسلام، وأنّه دين الرّسل كلّهم؛ فلذلك آمنّا نحن بكل الرّسل وبما جاء إليهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

(قُلْ) يا أيّها النّبيّ ويا أيّها المسلم لأهل الكتاب **(آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ)** من الله تعالى **(عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ)** والأسباط هم أبناء أولاد يعقوب وهم إثني عشر سبطاً، فذريّة كلّ إبن من أبنائه الإثنى عشر سمّي سبطاً **(وَمَا أُوتِيَ مُوسَى)** وهو التّوراة وما أوتي **(عِيسَى)** وهو الإنجيل، وما أوتي **(النَّبِيُّونَ)** كلّهم **(مِن رَّبِّهِمْ)** من العقائد وأمّهات الأحكام **(لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ)** بين أحد منهم في الإيمان بهم كما يفعل أهل الكتاب يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعض، بل ويقتلونهم، وأمّا في التّفضيل فنفرّق بينهم حيث قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٣ ـ **(وَنَحْنُ لَهُ)** لله ودينه **(مُسْلِمُونَ)** منقادون ومتّبعون.

فالآية تشير إلى أنّ أصل الأديان كلّها واحد وكلّ الرّسل جاؤوا بدين واحد هو عبادة الله وحده، واتّباع شريعته، وتطبيق أحكامه، واتّخاذها منهجاً للحياة بالنّسبة للفرد والأمّة، وفي جميع نواحي الحياة الشّخصيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة والسّياسيّة، فالشّرائع كلّها متّحدة في العقيدة وأسس الأحكام، ومهمّاتها وإن اختلفت في بعض فروعها حسب حكمة الله في ذلك، وتشير الآية أيضاً وتعرّض بأهل الكتاب بأنّهم ليسوا مسلمين لدين الله ولا منقادين له، بل حرّفوا دينه وغيّروه، فدينهم دين الأحبار والرّهبان لا دين الله تعالى. ولذلك حكم الله تعالى بأنّ دينهم باطل وغير مقبول فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(وَمَن يَبْتَغِ) وكلّ من يطلب **(غَيْرَ)** نظام **(الإِسْلَامِ دِينًا)** منهجاً ونظاماً ودستوراً يعملون به ويطبّقونه على أنفسهم وعلى الفرد والأمّة، كأهل الكتاب حيث غيّروا دين الله واتّبعوا أوامر الرّهبان والأحبار، وجعلوا ما وضعوا لهم ديناً ونظاماً يعملون به، وكغيرهم إتّخذوا قوانين وضعيّة يحكمون بها، وتركوا نظام الله وأحكامه، واتّخذوا عادات وتقاليد مخالفة للإسلام ودين الله تعالى **(فَـ)** كلّ واحد من هؤلاء **(لَن يُقْبَلَ مِنْهُ)** هذا الدّين والنّظام الّذي يعمل به **(وَهُوَ)** العامل بغير دين الله **(فِي الآخِرَةِ)** يوم القيامة **(مِنَ الْخَاسِرِينَ)** الّذين خسروا الجنّة ونعيمها ورضوان الله تعالى ولقاءه، أعاذنا الله تعالى من تلك الخسارة آمين وهو أرحم الرّاحمين.

❊ ❊ ❊

تمهيد:

إنّ أهل الكتاب كلّهم كانوا يؤمنون بالرّسول (ﷺ) قبل مجيئه لما يجدون في التّوراة والإنجيل من البشارة به وذكر أوصافه وعلاماته، فلمّا جاء الرّسول (ﷺ) كفروا به حسداً وكراهة أن تنتقل النّبوّة من بني إسرائيل ذريّة إسحاق إلى بني إسماعيل، وأن تفوتهم الرّئاسة الدّينيّة والمصالح الّتي كانوا يستفيدونها من تلك الرّئاسة، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ • بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَا أنَزَلَ اللّهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ فَبَآؤُواْ بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٨٩،٩٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة أيضاً الآية/ ١٠١.

فكان أهل الكتاب كلّهم يؤمنون بالرّسول قبل مجيئه، فلما جاء كفروا به فكان ذلك إرتداداً منهم، ولذلك ذكر الله تعالى بعد ذكر كفرهم بالرّسول وخبث نيّاتهم ومؤمراتهم ضدّ الرّسول والمؤمنين ذكر حكم المرتدّين فقال جلّ وعلا:

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

(**كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ**) جبراً (**قَوْمًا كَفَرُواْ**) بالرّسول (**بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**) به كأهل الكتاب آمنوا به قبل مجيئه، ثمّ كفروا به بعد ما جاء، كجماعة مسيلمة إرتّدوا أو لحقوا بالمشركين (**وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ**) فعلاً كالجماعة المرتّدة بعدما آمنوا بالرّسول (ﷺ)، وكأهل الكتاب كانوا يشهدون أنّ الرّسول حقّ وأنّه يأتي على ما وصفت التّوراة والإنجيل (**وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ**) الدّلائل الواضحة على حقيّة رسالة محمّد (ﷺ) (**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي**) جبراً

(**الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**) الّذين ظلموا أنفسهم بالكفر بعد الإيمان، وهم أهل الكتاب وجماعة المرتدّين، وذكرهم بالظّالمين ليشمل الحكم كلّ من ظلم ظلمهم هذا. ثمّ بيّن تعالى جزاء أمثال هؤلاء فقال: (**أُوْلَئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللّهِ**) غضبه وطرده إيّاهم من رحمته (**وَالْمَلآئِكَةِ**) فلا يستغفرون لهم (**وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**) فلا يدعون لهم ولا يرحمون بهم إن ظفروا بهم، بل يقتلونهم فوراً أو إن لم يتوبوا بعد الإستتابة (**خَالِدِينَ فِيهَا**) في تلك اللّعنة (**لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ**) يوم القيامة (**وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ**) يُمهلون لحظة أو يوقف عنهم العذاب أو يخرجوا منه (**إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ**) فأولئك يغفر الله لهم (**فَإِنَّ الله غَفُورٌ**) لمن تاب وآمن (**رَّحِيمٌ**) بآخرين، ويروى أنّ الجماعة المرتّدة ندموا بعد ردتّهم؛ فبعثوا إلى الرّسول هل لّهم من توبة؟ فنزلت الآية فبعث الرّسول بها إليهم فتابوا ورجعوا وأصلحوا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّ التّوبة لا تقبل حين اليأس ومعاناة الموت، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا**) إلى أن أسرفوا على الموت وعاينوه، أولئك (**لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ**) حينئذ (**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ**) طريق النّجاة والمغفرة من الله تعالى.

هذا وإنّما قيّدنا عدم قبول توبتهم بوقت معاينة الموت وحين اليأس لقوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ**) واستمرّوا على كفرهم (**وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ**) وهذا دليل على أنّ التّوبة قبل معاينه الموت مقبولة وبعد ذلك لا تقبل لأنّ قوله: (**وَمَاتُواْ**) أي وحضرهم الموت (**وَهُمْ كُفَّارٌ**) أولئك الّذين اتّصفوا بهذه الحالة من الدّوام على الكفر إلى وقت الموت (**فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ**) ليخلص نفسه من

العذاب. وقد فسّرنا قوله: **(وَمَاتُواْ)** أي وأشرفوا على الموت بقرينة هذه الجملة لأنّه لو فسّرناه بالموت فعلاً، فبعد الموت لا يمكنهم الإفتداء، لأنّه لا مال هناك ليفتدوا به ولكنّ قبل الموت وحين معاينته يستطيعون الفداء لوجود المال **(وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ)** ينصرونهم لإنقاذهم من هذا العذاب الأليم.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه لا ينفع الكافر شيء من الإنفاق أو الفداء، أراد الله تعالى أن يذكّر للمسلمين ما الّذي ينفعهم النّفع الأكمل والأحسن من الإنفاق فقال جلّ وعلا:

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

(لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ) أي إكمال البرّ **(حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ)** من الأموال، وأما غير ما تحبّونه فلا يوصل المرء إلى كمال البرّ إلّا أنّه يكتب له ويثاب عليه بقدر ما يستحقّه كما قال: **(وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ)** أي وإن قلّ **(فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ)** أي يجازي به وإن لم يصل إلى حدّ كمال البرّ. ثمّ لما تلا الرّسول (ﷺ) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى....إلخ﴾ أصبح أهل الكتاب يواجهون إعتراضات إلى الرّسول (ﷺ)، فمن جملة إعتراضاتهم أنّهم قالوا فمن أين تصديقك لموسى وقد حلّلت ما حرّم في كتابه وهو التّوراة، وهو لحوم الإبل وألبانها، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

(كلّ الطّعام) جنس معرف بلام الإستغراق، فالمعنى: كلّ الأطعمة الّتي أحلّها الإسلام **(كان حلاً لبني إسرائيل)** في أصل دينهم **(إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه)** خصّة ولسبب خاصّ تعلق به، وهو كما يروى أنّه مرض مرضاً شديداً فنذر لله لئن عافاه ليمتنعَنّ عن أكل لحوم الإبل وألبانها، وكانت أحبّ الأشياء إليه، فقبل الله تعالى نذره، فجرت سنّة بني إسرائيل على اتّباع أبيهم في تحريم ما حرّم، وإلّا لم يكن

محرّماً، وكان ذلك **(من قبل أن تنزل التّوراة)** لأنّ إسرائيل هو يعقوب(ﷺ) وهو الجدّ الأعلى لبني إسرائيل الّذين يُنْسَبون إليه، فكان قبل موسى ونزول التّوراة عليه بأزمنة كثيرة. ثمّ بعد ما أنزلت التّوراة أبيحت لهم كلّ الأطعمة في أصل دينهم، إلّا أنّه حرّم الله تعالى عليهم بعض الأشياء عقوبة على معاصٍ ارتكبوها وذلك كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٤٦ فتحريم هذه الأشياء كانت خاصّة لبني إسرائيل ولأسباب خاصّة ولم تكن محرّمة في أصل الدّين. فإذا أباحها الإسلام فقد حلّل ما كان حلالاً في أصل دينهم وإنّ سبب التّحريم قد إرتفع ولم يوجد من المسلمين، وهذا الواقع معلوم في التّوراة **(قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)** في أنّ هذه الأشياء كانت محرّمة في أصل دينهم أو إنّ تحريمها موجود في التّوراة قال الزجّاج: وهذا من أكبر الأدلّة على نبوّة محمّد (ﷺ) لأنّه طلب منهم أن يأتوا بالتّوراة فلم يأتوا بها لأنّهم عرفوا أنّ محمّداً (ﷺ) عرف ذلك بالوحي فلو أتوا بالتّوراة لافتضحوا وظهر كذبهم حيث لم يوجد ذلك في التّوراة، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

(فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك) البيان وإظهار الحجّة وإلزامهم بالدّليل فيقول هذه الأشياء كانت حراماً في دين موسى وإبراهيم ونوح **(فأولئك)** الذين يفترون هذا الإفتراء **(هم الظالمون)** أنفسهم بكفرهم وعرضها للعذاب الأليم.

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

(قل صدق الله) وأنتم الكاذبون وإنّ هذه الأشياء لم تكن محرّمة في أصل دين موسى وإبراهيم **(فاتّبعوا ملّة إبراهيم)** وقد كان **(حنيفاً)** مائلاً عن الباطل إلى الحقّ **(وما كان من المشركين)** فلا تشركوا بالله أحداً من المسيح أو الأحبار والرّهبان حيث اتخذتموهم أرباباً يحللون ويحرّمون وأنتم تطيعونهم، وهذا هو الإشراك بالله تعالى، حيث لا تشريع إلّا لله فقط، هذا ومن جملة إعتراضاتهم أيضاً أنّهم قالوا: إن كان محمّد مصدّقاً لما معنا ومؤمناً بما أوتي موسى وعيسى (ﷺ) فلماذا تحوّل عن قبلتنا إلى البيت الحرام؟ فرد عليهم الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

(إنّ أوّل بيت وضع) لأن يتوجّه إليه ويكون قبلة **(للنّاس للّذي)** للبيت الّذي **(ببكّة)** قيل: هي مرادفة لمكّة، كما يقال: حسن بسن، ويقال: مكّة وبكّة، وقيل: بكّة إسم للمكان الّذي فيه البيت الشّريف، ومكّة إسم لكلّ الحرم، وسمّيت بكّة لقلّة مائها، يقال: بكَت البئر إذا قلّ ماؤها **(مباركاً)** حال من نائب الفاعل الّذي تعلق به باء **(ببكّة)** فالتّقدير للبيت الّذي وضع هو ببكّة مباركاً **(وهدىً)** حال أيضاً أي سبباً للهداية، حيث تجد فيها فيوضات فتسبّب فتح القلوب وإنشراح الصّدور وحبّ التّوجه إلى الله تعالى **(للعالمين)** فكانت الكعبة أوّل قبلة لإبراهيم (عليه السلام) وأوّل قبلة وضعت للنّاس ولمن كان على ملّة إبراهيم (عليه السلام) فتحوّل الرّسول إليها، تحوّل إلى ما هو الأصل والأوّلي، فلماذا يعترضون وهم يعلمون ذلك ويعلمون أنّ قبلة النّبيّ المبشّر به في كتبهم هي البيت الحرام.

تنبيه: إختلف المفسّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿إنّ أوّل بيت وضع﴾ وفي هذا أقوال:

القول الأوّل: قال بعضهم معناه: إنّ أوّل بيت بني للنّاس مطلقاً للعبادة وغيرها (للّذي ببكّة مباركاً ...إلخ) وهذا القول لابّد وأن يكون مفرّعاً على القول بأنّ الكعبة بنتها الملائكة لآدم أو بناها آدم لنفسه، فلم يكن أي بيت موجوداً في الدّنيا قبلها، وإنّ بناء إبراهيم لها كان تجديداً بعد زوالها بالآفات ومرور الزّمان.

القول الثّاني: إنّ معنى: (إنّ أوّل بيت وضع) للعبادة (للنّاس للّذي ببكّة...إلخ) وأيّدوا قولهم بما في صحيح مسلم عن أبي ذر (رضي الله عنه) قال: سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أوّل مسجد وضع في الأرض؟ قال المسجد الحرام. قلت: ثم أيّ؟ قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال: أربعون عاماً ثم جعلت الأرض لك مسجداً فحيثما أدركت الصلاة فصلِ[1]. كذلك إحتجوا بقول علي (رضي الله عنه) : كان قبل البيت بيوت كثيرة فالمعنى: أوّل بيت وضع للعبادة.

ولكنّ الحديث كما أعتقد فيه إشكال؛ لأنّ باني المسجد الحرام إبراهيم (عليه السلام) وباني المسجد الأقصى داود وسليمان إبنه (عليه السلام) وبينهما وبين سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) أكثر من أربعين سنة بكثير من الأزمنة، ودفعوا الإشكال بأن المسجد الأقصى بناه إبراهيم

(١) صحيح مسلم ١/ ٢٧٠ الحديث رقم الحديث رقم ٥٢٠.

أيضاً بعد أربعين سنة من بنائه المسجد الحرام، وكان بناء داود وسليمان تجديداً وتعميراً له كما عُمّرَ المسجد الحرام مراراً بعد بناء إبراهيم (عليه السلام) وبهذا يندفع هذا الإشكال. ولكنّ ينشأ إشكال آخر وهو أنّه هل من لدن سيّدنا آدم ونوح إلى سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) لم يكن مسجد ولا بيت للعبادة وقد كانت الدّيانة والعبادة لله تعالى مستمرة والأنبياء كثيرون ولا يندفع هذا الإشكال إلّا بأنّ نقول معنى الآية هو: (إنّ أوّل بيت وضع) أي جعل لأن يكون قبلة للنّاس (للّذي ببكّة مباركاً) ويكون سؤال أبي ذر (رضي الله عنه) في الحديث بأنّ أولّ مسجد وضع لأن يكون قبلة، وجواب الرّسول(صلى الله عليه وسلم) عنه أيضاً، وكلام عليّ (رضي الله عنه) فالمعنى أوّل بيت وضع للعبادة أي للتوجّه إليه في العبادة، فيكون المآل إنّ أوّل قبلة هو المسجد الحرام منذ بناه إبراهيم (عليه السلام) فكان هو موجوداً وحده إلى أربعين سنة ثمّ اتّخذ المسجد الأقصى قبلةً بعد ذلك، وبعد بناء ابراهيم (عليه السلام) له فتكون الآية باحثة عن أوّل بيت اتّخذ قبلة للعبادات، لا عن أوّل بيت بني للعبادة، لأنّ الكلام في ذلك، فلا ينافي الآية أن يكون قبله بيوت كثيرة للعبادات، وأن يكون توجّههم إلى أشياء أخرى غير البيوت والمساجد كجبلٍ مثلاً، ولا تنافي أيضاً أن يكون البيت مبنياً في زمان آدم أو في زمان إبراهيم (عليه السلام) لأنّه يمكن أنّه كان البيت موجوداً في زمن آدم (عليه السلام) إلّا أنّه لم يتّخذ قبلةً إلّا في زمن إبراهيم (عليه السلام) وتجديده له، والقول بكون البيت مبنياً في زمن آدم (عليه السلام) وكان إبراهيم (عليه السلام) مجدّداً له أو بانّه لم يكن موجوداً وأوّل بنائه هو ما كان في زمن إبراهيم (عليه السلام) مسألة تأريخيّة لا نستطيع الجزم بأحد القولين فيها إلّا بوجود نصّ صريح من الكتاب أو الحديث بحيث لا يحتمل تأويلاً،أو بوجود خبر متواتر عليه بين المؤرّخين هذا، ولم يرد في القرآن الكريم ممّا يتعلق ببناء البيت إلّا ثلاث آيات:

الآية الأولى: قال تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ـ سورة البقرة الآية/ ١٢٧. ولا يوجد في هذه الآية دلالة على أنّ البيت كان موجوداً قبل لأنه يقال رَفَع فلان قواعد بيته وأسسه أو حيطان داره ولم يكن له بيت قبل بل يريد بناءه من جديد.

الآية الثّانية: وقال تعالى حكاية لقول إبراهيم (عليه السلام): ﴿ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ربنا ليقيموا الصلاة﴾ سورة إبراهيم الآية/ ٣٧. فهذه الآية تدلّ بظاهرها وبوضوح على أنّه كان البيت موجوداً قبل بناء إبراهيم (عليهما السلام) وتجديده له، لأنّه حينما أسكن إبراهيم هاجر وإبنه إسماعيل (عليه السلام) وأنزلهما بوادي بكّة

لم يكن هناك بيت إبراهيم (عليه السلام) موجوداً، فلابّد أنّه أراد أنّه عند مكان البيت الّذي وجد فاندرس ثمّ جدّده إبراهيم (عليه السلام)، ويدلّ على ذلك أقوال المفسّرين (رضي الله تعالى عنهم) كما يلي: ١- قال القرطبيّ بعد قوله تعالى: ﴿عند بيتك المحرّم﴾ يدلّ هذا على أنّ البيت كان قديماً على ما روي وكان موجوداً قبل الطّوفان فاندرس به.

٢ ـ قال في تفسير الجلالين: (عند بيتك المحرم) الّذي كان قبل الطّوفان، وعلّق عليه العلاّمة الجمل في حاشيته فقال: أشار بهذا إلى أنّ إطلاق البيت على ذلك الوقت باعتبار ما كان قبل الطّوفان وأمّا وقت دعائه فلم يكن وإنّما كان تلاًّ من رمل.

٣ ـ قال في تفسير النّسفي: (عند بيتك المحرّم) هو بيت الله تعالى سمّي به لأنّ الله تعالى حرّم التّعرض له والتّهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه أي لشرفه، أو لأنّه لم يزل ممنّعاً يهابه كلّ جبّار، أو لأنّه محرّم عظيم الحرمة لا يحلّ إنتهاكه، أو لأنّه حرّم على الطّوفان.

٤ ـ قال الخازن: (عند بيتك المحرم) سميّ به لأنّه يحرم عنده ما لا يحرم عند غيره، وقيل: لأنّ الله تعالى حرّمه على الجبابرة فلم ينالوه بسوء، وحرّم التّعرض له والتّهاون به، وبحرمته وجعل حوله حرماً لشرفه، وقيل: لأنّه حرّم على الطّوفان وسميّ عتيقاً، لأنّه أعتق من الجبابرة ومن الطّوفان.

٥ ـ نقل الجمل عن البيضاوي: فقال: وفي البيضاوي (عند بيتك المحرم) أي الّذي حرّمت التّعرض له والتّهاون به، ولم يزل معظّماً ممنّعاً تهابه الجبابرة، أو منع من الطّوفان فلم يُستولَ عليه ولذلك سميّ عتيقاً، أي أعتق منه أي من الطّوفان. فعلى ظاهر هذه الآية إنّ البيت كان موجوداً قبل إبراهيم (عليه السلام) وإنّما كان بناء إبراهيم (عليه السلام) تجديداً له بعد إندراسه وعلى ذلك جمهور المفسرين كما علمت. فإن قيل: (عند بيتك المحرّم) مجاز باعتبار ما يؤول إليه، أي في مكان يكون بيتك المحرّم عنده، لأنّه علم بأنّه سيؤمر ببناء بيت هناك ويكون محرّماً.

قلنا: هذا قول بعيد لا يلائم ظاهر هذه الآية ولا يترك الظّاهر بالوهم والشّكوك والله تعالى أعلم.

الآية الثّالثة: قال تعالى: ﴿وإذْ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أنْ لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطّائفين والقائمين والرّكع السجود﴾ سورة الحج الآية/ ٢٦ وآراء المفسّرين فيها:

١- قال القرطبيّ: في تفسير هذه الآية: وقيل (بوّأنا لإبراهيم مكان البيت) أي أريناه

أصله ليبنيه، وكان قد اندرس بالطّوفان أو غيره، فلمّا جاءت مدّة إبراهيم (عليه السلام) أمره الله تعالى ببنائِه، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثره، فبعث الله ريحاً فكشفت أساس آدم (عليه السلام) فرتّب قواعده عليه.

٢ ـ قال في الجلالين: (وإذ بوّأنا) أي بيّنا (لإبراهيم مكان البيت) ليبنيه، وكان قد رفع زمان الطّوفان، وعلّق عليه الجمل في حاشيته فنقل قول القرطبيّ الّذي ذكرناه آنفاً ثمّ علّق على قوله: (وقد كان قد رفع) فقال: وكانت الأنبياء بعد رفعه يحجون مكانه ولا يعلمونه حتّى بوّأه الله تعالى لإبراهيم (عليه السلام) فبناه على أساس آدم (عليه السلام) وجعل طوله في السّماء أي إرتفاعه سبعة أذرع بذراعهم، وذرعه في الأرض ثلاثين ذراعاً، وأدخل المحجر في البيت ولم يجعل له سقفاً، وحفر له بئراً يلقى فيها ما يهدى للبيت، وبناه قبله شيت (عليه السلام) وقبل آدم (عليه السلام) الملائكة.

٣ ـ قال في النّسفي: (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت) أي واذكر يا محمّد حين جعلنا البيت مباءةً أي مرجعاً يرجع إليه النّاس للعمارة والعبادة، وقد رفع البيت إلى السّماء أيام الطّوفان وكان من ياقوتةٍ حمراء؛ فأعلم الله إبراهيم (عليه السلام) مكانه بريح أرسلها فكشف مكان البيت فبناه على أساسه القديم .

٤ ـ قال في الخازن: (وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت) قال إبن عبّاس (رضي الله عنه) : وإنّما ذكر مكان البيت لأنّ الكعبة رفعت إلى السّماء زمن الطوفان، فلمّا أمر الله تعالى إبراهيم (عليه السلام) ببناء البيت لم يدر أي جهة يبني، فبعث الله تعالى ريحاً فجوجاً فكشف له ما حول البيت عن الأساس. وبهذا التّحقيق تبيّن أنّ البيت كان قبل بناء إبراهيم (عليه السلام) له مجدّداً، فوجب تأويل الحديث وقول عليّ (كرم الله وجهه) على ما ذكرنا والله تعالى أعلم. وذكر في الجمل: أنّه نظّم أسماء من بنى البيت أحد الشّعراء فقال:

بنى بيت ربّ العرش عشر فخذهم	**ملائكة الله الكرام وآدمُ**
فشيت فإبراهيم ثمّ عمالق	**قصي قريش قبل هذين جُرْهُمُ**
وعبدالله إبن الزّبير بنى كذا	**بناء لحجّاج وهذا متمّم**

ثمّ قال:

وهذا حسب ما اطّلع عليه النّاظم، وإلّا فقد بناه بعد ذلك بعض الملوك سنة ألف وتسع وثلاثين كما نقله المؤرّخون.

* * *

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

(فيه) أي في البيت **(آيات بيّنات)** أي معجزات باهرات ظاهرات منها: **(مقام إبراهيم)** (عليه السلام) وهو حجر كان يقوم عليه سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) لبناء البيت فأثّر فيه قدماه وبقي إلى الآن. ومنها: تضعيف الحسنات فيهنّ، أي في الحرم كلّه، ومنها: أنّ الطّير لا تطير عليه، بل تنحرف عنه يميناً وشمالاً ولا يقطع هواءه[1] إلّا إذا كان به مرض فيدخل هواءه للتداوي به، ومنها: أنّه **(ومن دخله كان آمناً)** لا يتعرّض له بالقتل والإيذاء ولو كان قصاصاً، وهكذا كان حكم الجاهليّة، فكان الرّجل يقتل ويدخل الحرم فلا يتعرّض له فيه. وأمّا بعد الإسلام فالحكم فيه: أنّ القاتل إذا قتل في الحرم اقتصّ منه فيه إجماعاً، وكذلك إن زنى أو سرق أو عمل أي عمل يوجب الحدّ فيه أقيم عليه الحدّ فيه. وأمّا إن قتل خارجه أو فعل ما يوجب الحدّ ثمّ دخله فلا يتعرّض له ما دام فيه عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ولا يبايع حتّى يضطّر للخروج. وعند الشّافعي يوقع عليه الحدّ والقصاص فيه أيضاً. وكونه مأمناً أنّ الجبابرة لا يقوون عليه، وأنّ الله تعالى يمنعهم كأصحاب الفيل. وهذا من المعجزات. **(ولله)** أي ولأداء أمره وعبادته خاصّة يجب **(على النّاس حجُّ)** أي زيارة **(البيت)** بأركان وشروط وهيئات مخصوصة، إلّا أنّه لا يجب على كلّ أحد بل إنّما يجب على **(من استطاع)** بدناً ومالاً وبذلك وجب أن يسلك **(إليه)** إلى البيت **(سبيلاً)** طريقاً كنايةً عن إمكان الذّهاب إليه من حيث الصّحة والجدة، فالحجّ واجب على كلّ مسلم ومسلمة وجد زاداً وراحلةً ولم يمنعه مانع من عذر كالمرض أو الخوف أو الفقر.

هذا وقد ذكرنا كيفيّة أداء الحجّ والعمرة بتفصيل عند قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٩٦ ـ (ومن كفر) بسبب ترك الحجّ فلم يحجّ بعد أن إستطاع فإنّما يضرّ نفسه ولا يضرّ الله شيئاً حيث **(فإنّ الله غنيّ عن العالمين)** كلّهم وليس محتاجاً إلى عباداتهم ولا إليهم، وإنّما فرض عليهم الفرائض لمصلحتهم ومنافعهم.

سؤال: هل يكفر المرء بترك الحجّ كما يفيد ذلك ظاهر قوله (ومن كفر) أو لا ؟

---

(١) أي لا يمر بالخط الجوي الذي يمر فوقه مباشرة.

الجواب: إنّ ترك الحجّ هو ترك الواجب والفرض، وترك الواجب معصية كبيرة، وإنّ الكبيرة عند أهل السّنة والجماعة لا يكفّر بها المؤمن بل هو مؤمن فاسق فقط، وعند المعتزلة تخرج الكبيرة صاحبها من الإيمان؛ فهو ليس بمؤمن ولا تدخله في الكفر فليس بكافر أيضاً؛ فأثبتوا منزلة بين الكفر والإيمان، وعند الخوارج صاحب الكبيرة كافر فقوله: (ومن كفر) يفسر على ظاهره عند الخوارج، وعند المعتزلة معناه: (ومن كفر) أي خرج عن الإيمان لا بمعنى دخل في الكفر، وعند أهل السّنة معناه: (ومن كفر) أي ترك الحجّ إنكاراً لوجوبه لأنّ المنكر لما ثبت من الدّين بالضّروره كافر إجماعاً، أو المراد بالكفر هنا الكفر ضدّ الإسلام؛ لأنّ الإسلام عمل والكفر ترك العمل[1] وليس المراد به الكفر ضدّ الأيمان، وذلك لأنّ المؤمن لا يصير كافراً بارتكاب الكبيرة عندهم؛ لأنّ الله تعالى أطلق لفظ المؤمن على من هو في الكبيرة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ سورة الحجرات الآية/ ٩، ثمّ إنّ الله تعالى بعد أن ذكر قبائح أفعال أهل الكتاب ونيّاتهم الخبيثة ضدّ الإسلام ومؤامراتهم السّيئة ضدّ الرّسول (ﷺ) والمؤمنين أراد تعالى أن يأمر الرّسول بأن يستفهم إستفهام الإنكار والتّضليل والتّنديد فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ لأهل الكتاب توبيخاً **(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله)** المراد بها آيات الله الموجودة في التّوراة المبشّرة بالرّسول (ﷺ) والآمرة بالإيمان به، أو المراد بها آيات القرآن، أو المراد كلتاهما لأنّهم كفروا بكلتيهما جميعاً **(والله شهيد على**

(١) لعل المراد به كفران نعمة المال والصحة التي أنعم بهما الله تعالى عليه فيستطيع أن يحج ولا يحج، أو أن المراد به اتصف بعمل الكفار وإن كان مسلما كما يعمل كثير من المسلمين كثيرا من الأعمال التي هي من سجايا الكفار كلعب القمار وشرب الخمور ولبس السفور وأكل الربا وارتكاب الزنا وغيرها مع كونهم مسلمين أو يدّعون الإسلام. أو أن المقصود به أن هذا الخطاب وهو وجوب الحج متوجه للمؤمنين، أما الكفار فلا تأثير لهم لأن الله غني عن العالمين وهم من ضمنهم.

ما تعملون) من الكفر والتّكذيب لآيات الله وكتم للحقّ فينتقم منكم على ذلك **(قل يا أهل الكتاب لم تصدّون)** تمنعون **(عن)** الدّخول في **(سبيل الله)** دين الله وهو الإسلام **(من آمن)** من أراد أن يؤمن **(تبغونها)** أي تريدون سبيل الله ودينه **(عوجاً)** بأن يكون حسب هواكم فتحلّلون ما شئتم وتحرّمون ما أردتم وتشركون بالله **(وأنتم شهداء)** على حقيّة هذا الدّين بسبب ما تعلمون من شهادة التّوراة والإنجيل بذلك **(وما الله بغافل عمّا تعملون)** عن منع النّاس عن الدّخول في الإسلام والرّجوع بهم إلى الكفر في حياة الرّسول (ﷺ) وكان من إحدى مؤامراتهم: أنّ شاس بن قيس اليهوديّ مرّ على نفر من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدّثون، فغاظه تحدّثهم وتآلفهم وإتّفاقهم هذا، فأرسل شاباً من اليهود لأن يدخل بينهم ويذكّرهم بيوم بعاث لعلّهم يغضبون، ويوم بعاث كان يوماً أقتتل فيه الأوس والخزرج، وكان الظّفر فيه للأوس، ففعل الشّاب فتنازع القوم عند ذلك فقالوا السّلاح السّلاح فبلغ ذلك النّبيّ (ﷺ) فخرج إليهم في جماعة من المهاجرين والأنصار فقال: أتدعون بدعوى الجاهليّة وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله تعالى بالإسلام وألّف بينكم، فعرف القوم أنّها نزغة من الشّيطان فألقوا السّلاح وتعانق بعضهم بعضاً وهم يبكون[1] فنزل قوله جلّ وعلا:

---

(١) القصة هي ما روي عن زيد بن اسلم قال: مر شاس بن قيس اليهودي وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين كثير الحسد لهم على نفر من أصحاب رسول الله (ﷺ) من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه،فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفتهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية؛ فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم ويذكّرهم يوم بعاث وينشدهم ماكانوا يقولون فيه من الأشعار، وكان يوم بعاث يوم اقتتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظّفر فيه للأوس على الخزرج،ففعل فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الرّكب فتقاولا، وغضب الفريقان جميعا وقالوا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة،والظاهرة الحرّة، فخرجوا إليها، وبلغ ذلك رسول الله (ﷺ) فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم فقالا يا معشر الأنصار الله الله! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله للإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف به بينكم ترجعون إلى ماكنتم عليه كفارا!؟ فعرف القوم أنّها نزعة من الشّيطان وكيد من عدوّهم، فألقوا السّلاح من أيديهم وبكوا وعانق بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين. فنزل قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا...الخ)/ أنظر تفسير الطبري ٤/٢٣ رواه بسنده، وتخريج الأحاديث والآثار/ ١/٢٠٩ الحديث رقم ٢١٩ واللفظ للثاني.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا**) بالإسلام واتّبعوا رسوله (ﷺ) (**إن تطيعوا فريقاً من ٱلّذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم**) بالإسلام (**كافرين**) مرتدّين وراجعين عنه، وإنّ هذه الدّسيسة دسيسة تكفير المسلمين وإبعادهم عن دينهم دسيسة مستمرّة؛ فلا يزال الصّهيونية والماسونيّة والصّليبيّة والتّبشيرات المسيحيّة تعمل في بلاد المسلمين وتبذل كلّ الجهود لتضليل المسلمين وإبعادهم عن دينهم ليستطيعوا الإستيلاء عليهم، فإنّ المسلمين ما داموا متمسكّين بدينهم الحقيقيّ لا يمكن لأحد الإستيلاء عليهم، فانّ الإسلام لا يقبل الخضوع للكافر أبداً، وقد نجح الأعداء في خطتهم هذه فقد استعمروا البلاد بعد إبعاد بعض المسلمين عن دينهم واتّخذوهم جسراً عبروا عليهم إلى البلاد واستعمروها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ سورة الشّعراء الآية/ ٢٢٧ ـ فليتنبه المسلمون وليعلموا أنّهم خسروا السّيادة بالبعد عن الإسلام ولا يستعيدونها إلّا بالرجوع إليه وتطبيقه روحاً ومعنى. اللّهم فقعل وأنت أرحم الرّاحمين (**وكيف تكفرون**) أيّها المسلمون (**وأنتم تتلى عليكم آيات الله**) من القرآن الكريم (**وفيكم رسوله**) شخصيّاً، حينما نزلت الآية وروحيّاً بعد وفاته، حيث قال: (إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب الله وسنّتي)[1] فالرّسول (ﷺ) موجود فينا بوجود سنّته والكتاب الّذي جاء به من عند الله العليم الحكيم (**ومن يعتصم بالله**) أي بدينه وشريعته (**فقد هدي**) أوصل (**إلى صراط**) منهج ونظام (**مستقيم**) لاعوج فيه ولا ضلال ولا خطأ ولا خيال، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويوصله ذلك المنهج إلى سعادة الدّنيا والآخرة بإذن الله تعالى. ثمّ حذّر الله تعالى المؤمنين من الإنحراف عن هذا الدّين نتيجة دسائس الأعداء وخطط الكافرين فقال جلّ وعلا:

---

(١) أقرب لفظ إلى هذا هو ما رواه الحاكم عن أبي هريرة قال:قال رسول الله: إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما، كتاب الله وسنتي،ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض. / المستدرك على الصحيحين ١/ ١٧٢ الحديث رقم ٣١٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام ودخلوا فيه **(إتّقوا الله)** واخشوا عقابه على كلّ إنحراف يصدر منكم عن هذا الدّين فاتّقوه **(حقّ تقاته)** حقّ تقواه **(ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون)** أي استمروا على الإسلام والعمل به إلى أن تموتوا عليه وتبعثوا عليه يوم القيامة. وفيما روي عن مرّة عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): (حقّ تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر)[١] وقال المفسّرون[٢] : إنّه لما نزلت هذه الآية قالوا يارسول الله: من يقوى على هذا؟ وشقّ عليهم فأنزل الله تعالى: **(فاتّقوا الله ما استطعتم)** فنسخت هذه الآية. قال القرطبيّ: الأصوب أنّ الآية الثّانية بيان لمعنى **(حقّ تقاته)** لا نسخ؛لأنّ النّسخ لا يصار إليه إلّا إذا لم يمكن الجمع بين الآيتين، وإذا أمكن الجمع فهو أولى. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالتّقوى حقّ تقاته أراد أن يذكر ما تكون به تلك التّقوى والبقاء على الإسلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾

(واعتصموا) تمسّكوا **(بحبل)** بدين **(الله)** وشريعته **(جميعاً)** أفراداً وجماعات **(ولاتفرقّوا)** فإنّ التّفرقة تسّبب عدم التّقوى والكفر والفسوق **(واذكروا نعمة الله عليكم)** واشكروا هذه النّعمة الّتي أنعم الله بها عليكم **(إذ كنتم أعداءً)** يقتل بعضكم بعضاً، وكان في ذلك ضياع الرّاحة والأنفس والأحوال **(فألّف)** الله تعالى **(بين قلوبكم)** وأزال هذا العداء بينكم **(فأصبحتم بنعمته)** أي بنعمة الله وهو دين الإسلام **(إخواناً)** لا يضرّ

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٧/١٠٦ الحديث رقم ٣٤٥٥٣،بزيادة: وإيتاء المال على حبه أن أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخاف الفقر وفضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية.

(٢) تفسير القرطبي ٤/١٥٧.

أحدكم أحداً، بل يحبّ له ما يحبّ لنفسه **(وكنتم على شفا)** على طرف **(حفرة من النّار)** ليس بينكم وبين الوقوع فيها إلّا الموت بسبب الكفر **(فأنقذكم)** الله تعالى **(منها)** من الوقوع فيها بالإسلام **(كذلك)** مثل ما ترى **(يبيّن الله)** تعالى **(لكم)** لإنتفاعكم وإرشادكم **(آياته)** من الأحكام والعقائد والتّحذير من دسائس الأعداء الكافرين والتّنبيه عليها **(لعلكم تهتدون)** أي لكي تسترشدوا بآياته وتنتفعوا بها. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن للمسلمين الوسيلة الّتي يستطيعون بها الإعتصام بدين الله والبقاء على الإسلام، وعدم نفوذ التّفرقة فيهم وهي الأمر بالمعروف والعمل به والنّهي عن المنكر والإجتناب عنه فقال جلّ وعلا:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

(ولتكن منكم أمّة) وفي تفسير هذا قولان: **القول الأوّل:** قال بعض العلماء، من: للتّبعيض أي يجب على المسلمين أن يكون فيهم ويخصّصوا طائفة منهم للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، قولاً، وهم العلماء، وجبراً وهم الأمراء، فبهذا يستقيم الدّين وتستقيم الأمّة ويصلح دينها ودنياها. وفي الحديث: (صنفان من أمّتي إذا صلحا صلحت الأمة كلّها وإذا فسدا فسدت الأمة كلّها العلماء والأمراء)[1] فوجود العلماء المرشدين والأمراء العادلين فرض كفاية. **القول الثّاني:** وقال بعض العلماء كلمة من ليست للتّبعيض بل هي للتّجريد كما يقال: ليكن منك أسد، أي كن أسداً أي شجاعاً. فالمعنى، ويجب أن تكونوا كلّكم أمّة **(يدعون إلى الخير)** وهو إقامة دين الله والمحافظة على شريعة الله تعالى أخلاقاً وأعمالاً وعادات ومعاملات وعبادات وإجتماعيّات وإقتصاديّات وسياسيّات والعمل بها في كل نواحي حياة الفرد والأمّة **(ويأمرون)** بعضهم بعضاً **(بالمعروف)** والمعروف هو ما جعله الله معروفاً وحسناً **(وينهون)** بعضهم بعضاً **(عن المنكر)** والمنكر هو كلّ ما جعله الشّرع منكراً ولو صغيراً أو قليلاً. والحاصل يجب على الأمّة أن يكون كلّ فردٍ من أفرادها رقيباً على غيره؛ فيأمره بالخير والمعروف

(١) الفوائد لتمام الرازي ٢/١٩٦ الحديث رقم ١٥١٦ بلفظ (صنفان من أمتي إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس: السلطان والعلماء).

وينهاه عن الشّر والمنكر، وكما قال رسول الله (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[١] أي أضعف الأعمال.

ولهذا فالقول الثّاني أصحّ لهذا الحديث ولقوله تعالى: ﴿والعصر إنّ الإنسان لفي خسر إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصّبر﴾ سورة العصر. وهو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر (وتواصوا بالصّبر) على تحمل المشّقة والأذى في سبيل هذا الواجب الإجتماعي المقدّس المحتّم على كلّ فرد، ولعمري ما فسدت الأمّة إلّا بالتّغاضي عن الجاهلين والتّسامح عن المفسدين والمجاملة مع الفاسقين إلى أن صدق فينا قول الرّسول الأمين: (لتأمرنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليسلِطَّنَ الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم)[٢] وهذا ماوقعْنا فيه فإنّا لله وإنا اليه راجعون، ألا ترى إستيلاء اليهود على فلسطين والإستعمار عمّ الكثير من بلاد الإسلام. **(وأولئك)** الّذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر **(هم المفلحون)** أي الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة، وبهذه الصّفة وحدها تنال الأمّة السّيادة والسّلطان في الأرض. وتفيد الآية بأنّ الأمّة تفقد فلاحها وسعادتها وسيادتها إذا فقدت هذه الصّفة وهي الوحدة والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر والحفاظ على دين الله تعالى، وقد صدّق الواقع والتّاريخ ذلك؛ فإنّ المسلمين الأوائل حينما كانوا يطبقون شريعة الله فيمتثلون لأوامر الله ويجتنبون نواهيه ويجاهدون لإعلاء كلمته ونشر دينه وبسط سلطانه في الأرض، ولم يكن بينهم حزازات ولم تدخل فيهم التّفرقة ولم تؤثّر فيهم الأطماع والأنانيّة وحبّ الذّات، فتحوا البلاد ودانت لهم العباد واستولوا على أكثر المعمورة في نصف قرن، ثمّ لمّا دخلت بين المسلمين الحزازات وفشت فيهم التّفرقة وابتعدوا عن روح الدّين، قَلّوا وذَلّوا إلى أن بسطَ الإستعمار خيمتهُ السّوداء عليهم، وسلب السّلطة والسّيادة منهم واستولت أرذل أمةٍ على أُولى قبلتهم، وداست مقدّساتهم، وشردّوا منهم الآلاف، ويَتموّا الأولاد وأرملوا النّساء، وهتكوا الأعراض، كلّ ذلك بسبب بعد النّاس عن دينهم وعقيدتهم، فهل للمسلمين بعد ذلك من يقظة من هذا السُّبات العميق! اللّهم افعل برحمتك يا أرحم الرّاحمين، آمين. ثمّ إن التّفرقة تعمل عملها في ضعف الأمّة وتؤدّي

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٩ الحديث رقم ٤٩.

(٢) كنز العمال ١٣ / ٢٣٩ الحديث رقم ٢٧٤٤٦، المعجم الأوسط للطبراني ٢/ ٩٩ الحديث رقم ١٣٧٩.

بالبعض إلى الإنحراف عن الحقّ والواقع والدّين، فنهى تعالى عن التّفرقة وذكر أنّها سبب لعذاب الآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

(ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا) عن عقيدتهم **(واختلفوا)** عن شريعتهم **(من بعد ماجاءهم)** الأحكام البيّنات والواضحات والّتي لا غموض فيها ولا خفاء، وهم أهل الكتاب **(وأولئك)** الّذين يتفرّقون عن العقيدة والدّين **(لهم عذاب عظيم)** جداً لأنّ التّنكير للتّكثير، اللّهم ارحمنا من هذا العذاب.

تنبيه: قال العلماء والمفسّرون: التّفرقة المذمومة هي ما كان على الطّمع والمال والسّيادة أو التفرّق عن وحدة العمل والسّياسة الإسلاميّة والإبتعاد عن الأمور الّتي ورد النّص فيها ومثبت بالآيات المحكمات. وأمّا التّفرقة في الأمور الإجتهاديّة والظّنيّة كالمذاهب الفروعيّة، فليست بممنوعة لأنّ الأصحاب إختلفوا في آرائهم وتفسيراتهم لكتاب الله تعالى ولأوامر الرّسول (ﷺ) في حياته، وكان يعلم بذلك فلم ينههم عن ذلك، وإنّ الإختلافات في الفروع إذا أدّت إلى التّعصب والعداء بين أهل المذاهب تكون مهلكة للأمّة ومحرّمة، فإجتهدات المجتهدين لا يجوز أن يجعل منها وسيلة للتّعصّب والعداء، فإن كلّ واحد منهم مأجور وليس لأحد أن يجبر أحداً على مذهبه أو مذهب مقلده، وإنّ مايفعله بعض النّاس من عداوة بعض المذاهب أو الأقوال الّتي إستنبطها بعض العلماء من الكتاب والسّنة لا يخلو من أحد الأمور التّالية:

الأمر الأوّل: الجهل بالفقه الاسلامي وسعته وسماحته ومرونة السّلف الصّالحين.

الأمر الثّاني: أنّه مأجور من جهة معادية للإسلام لبث التّفرقة بين المسلمين بهذا التّعصّب.

الأمر الثّالث: هو منتفع بما هو عليه فيعادي كلّ من يخالفه ويذهب غير مذهبه مخافة منافعه. وقد فَتَّشْتُ أحوال النّاس كلّهم؛ فلم أجد غير هذه الأسباب، والحقّ أنّ كلّ قول قال به عالم واستند في قوله إلى كتاب أو سنّة لا يجوز إنكاره ولا معاداته ولا يجوز لأحد أن يَجْبُرَ أحداً على مذهب معيّن وفكرة معيّنة ما دام لم يخرج في فكرته عما أجمعت عليه الأمّة أو عمّا كان معلوماً من الدّين بالضّرورة، وهذا في الفروع

والعقائد أيضاً قال أهل الحقّ: نحن لا نكفر أحداً ببدعته حتّى المجسّمة[١]، فمن صلّى صلاتنا وتوجّه إلى قبلتنا فلا نكفره إلّا إذا رأينا منه ما يكفر به بإتفاق الأمّة وإجماع العلماء. وقال الفقهاء كلّهم: للمقلّد أن يقلّد من شاء في عمله نفسه حتّى الأقوال الضّعيفة. هذا ما أنا عليه، ولا تتّفق الأمّة إلّا بهذا الخلق الرّفيع وبهذا الصّدر الوسيع، فلعنة الله تعالى على أصحاب الأطماع والمستغلّين للدّين والعقيدة لجمع المال أو المأجورين لتفرقة الأمّة بباطل الأفكار وسموم الأقوال، اللّهم فافعل، واحفظنا منهم برحمتك يا أرحم الرّاحمين. أو إهدهم ياربّنا فإنّهم لايعلمون.

❊ ❊ ❊

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن الوقت الّذي ينال المتفرّقون في الدّين عذابهم العظيم فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

(يوم تبيضّ وجوه) وتظهر عليها النّضارة وآثار الفرح حيث ظهر له أنّه فائز برحمة الله تعالى **(وتسودّ وجوه)** ويظهر ويستولي عليها سواد الحزن والحسرات حيث ظهر له أنّه من أهل العذاب **(فأمّا الّذين اسودّت وجوههم)** فيقال لهم تبكيتاً وتقريعاً **(أكفرتم بعد إيمانكم)** قيل: المراد بهم المنافقون لأنّهم كفروا باطناً بعد الإيمان ظاهراً، وقيل: هم

---

(١) المقصود به هنا المذاهب الكلامية التي كل منها أراد تنزيه الله تعالى وفق اجتهاده في القرآن والسنة وإن أساء بعضهم فهم بعض، أما المبتدعة الذين ينكرون مايثبته القرآن والسنة ويثبتون ما ينكره القرآن والسنة وفق أهوائهم وصناعتهم للدين ووفق ما يشتهون ويحرفون ليشتروا به ثمنا قليلا من الدنيا فهولاء لا شك في كفرهم وهم ملعونون بنص القرآن الكريم.قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)) ن كما قال تعالى في السورة نفسها: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤)﴾.

المرتّدون، وقيل: هم أهل الكتاب، لأنّهم آمنوا بالرّسول (ﷺ) قبل مجيئه لما وجدوه في التّوراة والإنجيل، ثمّ كفروا به بعد ما جاء، وهذا أصحّ من الأولين، وقيل: المراد بالإيمان هو الإيمان يوم الميثاق حينما قال تعالى لهم: ﴿ألست بربّكم قالوا بلى﴾ الأعراف/ ١٧٢. فكلّ إنسان آمن يوم الميثاق فإذا كفر فقد كفر بعد الإيمان.

وأنا أقول: إنّ الإسلام هو دين العقل والمنطق ودين الفطرة، فكلّ إنسان إذا نظر وتفكّر في الأدلّة وقارن فلا يقبل إلّا الإسلام، فكلّ إنسان مؤمن بعقله وفطرته السّليمة فإذا كفر فقد كفر بعد الأيمان العقليّ والفطريّ. ويقال لهم أيضاً إهانةً: **(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون)** فـ **(ما)** مصدريّة فتؤوّل ما بعدها بالمصدر، فالّتقدير بكونكم كافرين أي بسبب كفركم في الّدنيا **(وأمّا الّذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله)** أي جنّته ونعيمه ورضوانه **(هم فيها خالدون)** لا يَخرجون منها ولا يُخرجون:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

(تلك) الأحكام الّتي ذكرت من عذاب الكافرين وثواب المؤمنين هما **(آيات الله)** تعالى **(نتلوها عليك)** لتبلّغ النّاس وتقرأها عليهم **(وما الله يريد ظلماً للعالمين)** فلا يعذّب أحداً بغير ذنب ولا يقلّل من ثواب أحد ولا يعذب من لم يبلّغ. وإنّما هم ظلموا أنفسهم لأنّه قد بيّن لهم ما هو الخير والشرّ وبيّن لهم عاقبة من سلك الخير وعاقبة من اتّبع الشّرّ وهم اختاروا الشّرّ وارتكبوه فأودى بهم إلى هذا العذاب فهم مستحقّون.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

(ولله) مُلكاً و مِلكاً[1] كلّ **(ما في السّماوات)** وكلّ **(ما في الأرض)** فيشمل الإنسان والحيوان أيضاً **(وإلى الله ترجع الأمور)** كلّها يوم القيامة للحساب، أو معناه كلّ أمر يرجع إليه فهو يقضى به ويقدّره ويخلقه، وفي هذه الآية إشارات:

الأولى: إنّ مَنْ كان مالكَ وملكَ كلّ ما في السّماوات والأرض ومرجعاً لكلّ الأمور فمن الحقّ أن يعذّب من يكفر به ويعصيه.

الثّانية: إنّ من كان بهذا الوصف والقدرة العظيمة يستطيع أن يعذّب الكافر والعاصي ويثيب المؤمن والمطيع.

---

(١) أي تملكا وسلطانا.

الثّالثة: إنّ كلّ ما في السّماوات والأرض ملكه، فالإنسان أيضاً ملكه وعبده ومن حقّ السّيد أن يعاقب عبده إذا عصاه وبعُد عن أمره.

الرّابعة: هي أنّ الله تعالى خلق الأسباب وربط بينهما وبين المسبّبات، فكلّ شيء يوجد أو يفقد ينسب وجوده إلى سبب، وفقدانه إلى سبب ولكن إذا تتبّعت الأسباب وقلت: لم وجد هذا الأمر؟ فقيل: بذلك السّبب، وقلت: وذلك لِمَ؟ يقال: لذلك، وهكذا فينتهي إلى أن يقول ويعترف بأنّه من إرادة مسبّب الأسباب، فكلّ شيء يرجع إليه خلقاً وإيجاداً وفناءً وإماتةً وإحياءً، وإنْ كان هناك أسباب ومسبّبات فهو مسبّب الأسباب للمسبّبات (**فلِمَ**) كلمة توصلك إلى الحقّ وإلى الهداية ولذلك قيل: من لم يقل لشيخه لم لا يفلح أبداً. (فلم) سُلّمُ الإيمان فلا تغضب إذا قيل لك: لِمَ؟ ولا يَغْضِبُ منه إلّا من عجز عن الجواب وجهل تحليل الأمور والأسباب، قال في شرح المواقف: نحن المسلمين لا ننكر الأسباب وإنّما نعترف بمسبّب الأسباب، وهذا هو الفرق بيننا وبين الطّبيعيين، ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مذمّة أهل الكتاب ولامهم، أراد أن يذكر محاسن المسلمين ويمدحهم فقال جلّ وعلا:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

(**كنتم**) أي أصبحتم أيّها المسلمون (**خير أمةٍ**) جماعةٍ أو ملّةٍ (**أخرجت للنّاس**) وذلك لأنّكم (**تأمرون بالمعروف**) وهو ما أحبّه الله تعالى (**وتنهون عن المنكر**) وهو ما أنكره الله تعالى (**وتؤمنون بالله**) ومن إيمانكم به إعتنقتم الإسلام (**ولو آمن أهل الكتاب**) فاعتنقوا الإسلام (**لكان خيراً لهم**) والمراد بخيراً هنا هو الصّفة المشبّهة لا أفعل التّفضيل، لأنّ من لم يؤمن منهم بقي على الشّر ولا خير فيه إلّا أنّهم لم يؤمنوا كلّهم بل (**منهم المؤمنون**) كأمثال عبدالله بن سلام (**وأكثرهم الفاسقون**) أي خارجون عن أمر الله تعالى، حيث أمرهم في التّوراة والإنجيل بالإيمان بمحمّد (ﷺ) حينما جاء وأرسل إلى النّاس. **وفي هذه الآية إشارات**:

الأولى: أنّها تفيد أنّ النبيّ (ﷺ) خير الأنبياء لأنّ رسول خير الأمة يكون خير الرّسل.

الثانية: أنّ المسلمين كانوا خير أمّة لأنّهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر لا مطلقاً، فإذا فقدوا هذه الصّفة فقدوا الخيريّة ويكونون كغيرهم شراراً ففي الخازن عن البخاري ومسلم عن إبن مسعود قال: قال رسول الله (ﷺ): أنا فرطكم على الحوض وليُرفَعُن إليّ رجال منكم حتّى إذا أهويت إليهم لأنالهم إختلجوا دوني فأقول: أي ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك)[١] والمراد، بأصحابي، الأمّة، حيث وردت في رواية: (أي ربّ أمّتي)[٢] كافر بإجماع الأمّة ولاخلاف في كفرهم أنّ دعوة الرّسول (ﷺ) عامّة، فمن لم يؤمن بالإسلام من أهل الكتاب فهو كافر بإجماع الأمّة ولا خلاف في كفرهم.

* * *

ثمّ إنّ من أهل الكتاب وهم اليهود كانوا يكيدون للأضرار بالمسلمين كلّ كيد ويتّخذون لذلك كلّ وسيلة، فطمأن الله تعالى المؤمنين بأنّهم لا يضرّونهم فقال جلّ وعلا:

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

(لن يضرّوكم) أي اليهود الّذين كانوا يعادون المسلمين في المدينة **(إلّا أذىً)** وهو الطّعن والكلام السّيء **(وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار)** أي ينهزمون **(ثم لا ينتصرون)** عليكم أبداً، وهذه من معجزات القرآن فإنّه أخبر بأنّ اليهود لا ينتصرون على المسلمين وقد وقع كما أخبر. ففي مدى التأريخ لم تقع معركة بين المسلمين واليهود إلّا كانت الهزيمة لهم والنّصر للمسلمين. وأمّا إنتصار اليهود على المسلمين في هذه الآونة الأخيرة في فلسطين فليس من عندهم، بل هو من تأييد الصّليبيين لهم وهذا ما أخبر عنه الله

---

(١) صحيح البخاري ٥/٢٤٠٤ الحديث ٦٢٠٥، صحيح مسلم ٤/١٧٩٦ الحديث رقم٢٢٩٧.

(٢) سنن أبي عوانة ١/٤٤٨ الحديث ١٦٥٤.

تعالى في قوله: **(ضربت عليهم الذّلة)** كما تضرب الخيمة على النّاس فلا ينتصرون لذلّتهم هذه فهم أذلّاء **(أينما ثقفوا)** أي وجدوا **(إلّا بحبل)** بتأييد من الله تعالى وإنّ الله تعالى لا يؤيّدهم عليكم ما دمتم متمسّكين بالإسلام **(وحبل من النّاس)** الواو بمعنى: أو، أي إلّا بتأييد من النّاس، فإنتصار اليهود في فلسطين هو بتأييد من الدّول الغربيّة المسيحيّة لا بقوّتهم، أو لأنّ المسلمين لم يبقوا كمسلمين في وحدتهم وتمسّكهم بالإسلام ولا يعملون لنصرة الدّين ورفع راية الإسلام، وإلّا فلا سبيل لأيّ ملّة عليهم سواء اليهود أو غيرهم من النّصارى أو الملحدين، حيث إنّ الله تعالى وعد المسلمين بالنّصر فقال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة الرّوم الآية/٤٧، فالله تعالى لا يخلف وعده ولكنّ المسلمين أخلفوا الوعد مع الله تعالى فتفرّقت كلمتهم بعد وحدتها، ودخلت الأنانيّة وحبّ الذّات وأطماع المال والجاه والمناصب فيما بينهم، حتّى أصبح بعضهم عملاء للإستعمار وباعوا أوطانهم للأعداء، وما باع فلسطين إلّا بعض المسلمين المنحرفين. فإذا ابتعد المسلمون عن الإسلام وعن الله تعالى والتّضحية له، لا يبقى الله تعالى معهم؛ فيكون العمل للقوّة والمعدّات والنّصر لمن أكثر قوّة وأكثر عتاداً، فلا لوم إلّا على المسلمين اليوم لأنّ الله تعالى وعد بالنّصر للمسلمين حقاً، لا للمسلمين حسب الجنسيّة ودفتر النّفوس. **(وباؤوا)** أي ابتلوا **(بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة)** وهي التذلّل وفقدان عزّة النّفس **(ذلك)** الّذي ضرب عليهم من ذلّة ومسكنة وغضب من الله كان **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(كانوا يكفرون بآيات الله)** في التّوراة والإنجيل والقرآن ولم يعملوا بواحدة منها، بل عملوا حسب هواهم وحسب ما تقتضي مصالحهم ومنافعهم، فحرّفوا آيات التّوراة والإنجيل وغيّروا أحكام الله الجليل ولم يؤمنوا بآيات القرآن الكريم **(و)** كانوا **(يقتلون الأنبياء بغير حقّ)** لأنّهم كانوا يدعونهم إلى أصل الدّين والعمل بأحكام الله المبين والّتي تخالف منافعهم ومصالحهم وآراءهم وهواهم **(ذلك)** القتل لأنبياءهم كان **(بما عصوا)** بسبب عصيانهم لشريعة الله **(وكانوا يعتدون)** يتجاوزون الحقّ ويظلمون، فيعظهم الأنبياء وينهونهم عن ذلك فيقتلونهم لمخالفتهم إيّاهم مخافة أن يضربوا مصالحهم أو أن يضرّوا بسيادتهم، فتفيد هذه الآية بأنّ الذّلة وغضب الله تعالى والمسكنة ضربت كلّ ذلك على اليهود، لأنّهم حرّفوا دينهم وابتعدوا وخالفوا شريعة الله، وأنّهم كانوا يقتلون من ينهاهم عن ذلك من الأنبياء وعصوا ربّهم واعتدوا وتجاوزوا الحقّ في الأمور، فلذلك سلّط الله تعالى عليهم الذّلة والمسكنة والغضب، وهذه الأمور كلّها وجدت في المسلمين اليوم؛ فإنّهم ابتعدوا عن شرع الله وتجاوزوا عن حكم الله،

ويقتلون من يخالفهم في ذلك وينهاهم عنه؛ فلذلك سلّط الله عليهم الذّلّة والمسكنة والغضب، لأنّه من القاعدة العامّة أنّه إذا وجدت العلّة وجد المعلول وما ربط بها، ولذلك استولى اليهود على فلسطين، وسيطر الاستعمار عل أكثر بلاد المسلمين، فلا فلاح للمسلمين ولا نصرة ولا عزّة إلّا بالرّجوع إلى الدّين والتّمسّك بأمر الله المتين، فحينئذ يأتيهم النّصر من الله تعالى ومن حيث لا يحتسبون، قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ سورة محمد الآية/ ٧، والمفهوم المخالف إنْ لم تنصروا الله يخذلكم ويزلزل أقدامكم، أللّهم فارجع بنا إلى صراطك المستقيم لتعيد لنا السّيادة المسلوبة ونحظى بالعزّ والتّكريم آمين، يارب العالمين. ثمّ إنّ الله تعالى لما ذكر أهل الكتاب ولامهم وقد أسلم بعضهم أراد الله تعالى أنّ يستثني هؤلاء منهم ويمدحهم فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(ليسوا) أي ليس أهل الكتاب كلّهم **(سواء)** متساوين فإنّه يوجد **(من أهل الكتاب أمّة قائمة)** أي جماعة عابدة لله تعالى **(يتلون آيات الله)** من القرآن الكريم. وهم أمثال عبدالله بن سلام **(آناء)** جمع مفرده إنَى بكسر الهمزة أو فتحها وفتح النّون وآخره ألف مقصورة تكتب بالياء، أو إنّي بكسر الهمزة وسكون النّون أخره ياء، بمعنى جزء فالمعنى يتلون آيات الله في ساعات **(اللّيل)** أجزاءه[١] **(وهم يسجدون)** يصلّون التّهجّد **(يؤمنون بالله واليوم الآخر)** أي و بالرّسول بقرينة ما سبق من تلاوتهم للقرآن **(ويأمرون)** غيرهم من أهل الكتاب **(بالمعروف)** بالدّخول في الإسلام **(وينهون)** هم **(عن المنكر)** عن البقاء على الكفر **(ويسارعون)** ويسابقون **(في الخيرات)** الأعمال الصّالحات **(وأولئك)** المتّصفون بهذه الصّفات **(من الصّالحين)** يفيد أنّ غيرهم ليسوا من الصّالحين لعدم إتّصافهم بهذه الصّفات **(وما يفعلوا من خير)** من الأعمال الصّالحة **(فلن يكفروه)** وكفران

(١) أي أجزاء الليل وقيل ساعاته...

الشّيء عدم قبوله وعدم المجازاة عليه. فمعنى: لن يكفروه، أنّهم ليشكرون على هذه الأعمال ويجزون عليها يوم القيامة ويثابون **(والله عليم بالمتقين)** فلا يضيع أعمالهم. ويفيد أن غيرهم الباقون على كفرهم يكفّر أعمالهم فلا يقبل، ولا يجزون عليها كما قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

(إنّ الّذين كفروا) من أهل الكتاب وغيرهم **(لن تغني)** لن تدفع **(عنهم أموالهم ولا أولادهم من)** عذاب **(الله شيئاً)** ولو قليلاً **(وأولئك أصحاب النّار)** أي أهلها، الدّاخلون فيها و**(هم فيها خالدون)** مخلّدون حيث لا موت هناك **(مثل)** كفرهم في إحباط **(ما ينفقون)** في الخيرات والأعمال الصّالحة **(في هذه الحياة الّدنيا كمثل ريح فيها صرّ)** برد شديد **(أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم)** بالفسق والفجور والكفر **(فأهلكته)** فأهلكت الرّيح الحرثَ **(وما ظلمهم الله)** بإحباط عملهم وعدم قبوله **(ولكن)** هم **(أنفسهم يظلمون)** أنفسهم بكفرهم، لأنّ شرط قبول الأعمال هو الإيمان، وشبّه تعالى أعمالهم بالحرث والكفر بالرّيح المفسدة للحرث في أنّه يهلك العمل الصّالح كما تهلك الرّيح الحرث، والله تعالى أعلم. ثمّ إنّ الله تعالى نبّه المسلمين على ما في قلوب أهل الكتب والكافرين من الحقد والكراهيّة للمسلمين وحذّرهم من أن يجعلوهم أصدقاء أو محرم أسرارهم ومعتمدهم في العمل والأمور فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام ورسوله ودخلوا فيه واعتنقوه ديناً ونظاماً **(لا تتّخذوا)** لأنفسكم ولأعمالكم **(بطانةً)** جماعةً تقرّبونهم إليكم وتجعلونهم مطلعين على باطن أموركم **(من دونكم)** من غير المسلمين، فلا تصادقوهم ولا تعتمدوا عليهم أبداً، فإنّهم يضرّونكم و **(لا يألونكم خبالاً)** لا يتركون جهداً في خداعكم وإلحاق الضّرر بكم و **(ودّوا)** وأحبّوا **(ما)** مصدريّة تؤول ما بعدها مصدراً أي أحبّوا عنتكم أي هلاككم **(قد بدت البغضاء)** منهم لكم **(من أفواههم)** من كلامهم **(وما تخفي صدورهم)** من بغضكم **(أكبر)** مما في ألسنتهم **(قد بيّنا لكم الآيات)** الإرشادات **(إن كنتم تعقلون)** إي إن كان لكم عقل، تأخذون بإرشاداتنا وإلّا فلا خسارة إلّا عليكم من مصادقة الكافرين بدينكم واتّخاذهم أمناء أو معتمدين عليهم في العمل والإدارة والسّياسة للأمور. ثمّ بيّن الله تعالى أموراً تدلّ على أنّ تولية المسلمين غيرهم لأمورهم واتّخاذهم أصدقاء أمناء ليس من مقتضى العقل والصّحة في التّفكير والتّدبير، فقال جلّ وعلا: **(ها أنتم أولاء تحبّونهم)** أي أهل الكتاب **(و)** هم **(لا يحبّونكم)** تحبّ من لا يحبّك من السّفاهة والمرض في العقول **(و)** أنتم **(تؤمنون بالكتاب)** بكتابهم من التّوراة والإنجيل **(كلّه)** سوى المحرّف منهما وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم بل ينافقون حيث **(وإذا لقوكم قالوا آمنّا)** بكتابكم ورسولكم **(وإذا خلوا)** مضوا وابتعدوا عنكم **(عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ)** في الكلام تقديم وتأخير إذ التّقدير: (عضّوا الأنامل من الغيظ عليكم) أي من الغضب عليكم يعضّون ويأكلون أناملهم **(قل موتوا بغيظكم)** أيّها الكفرة **(إنّ الله عليم بذات الصّدور)** فينتقم منكم، وذات الشّيء حقيقته فذات الصّدور معناه حقيقة ما في الصّدور من النّيات والأفكار.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

(إن تمسسكم حسنة) أي خير قليل لأنّ المسّ يستعمل فيما يقل **(تسؤهم)** فيحزنون **(وإن تصبكم سيّئة)** كبيرة **(يفرحوا بها)** لشدّة كراهتهم لكم، فكيف تعتمدون عليهم وتصادقونهم إلّا أنّهم لا يفلحون فإنّه **(وإن تصبروا)** على مواصلة الدّعوة والكفاح لها **(وتتّقوا)** مصادقة غير المسلمين **(لا يضرّكم كيدهم)** أي دسائسهم **(شيئاً)** لأنّ الله تعالى معكم و **(إنّ الله بما يعملون)** من الدّسائس ضدّكم **(محيط)** أي محيطة ومبطلة إن صدقتم وعملتم لله واجتنبتم الكفر والكافرين بدينكم. ثمّ بعد أن قال تعالى: **(وإن**

تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً) أراد أن يذكّرهم بمواقع حصل لهم النّصر فيها عند الصّبر والتّقوى. والهزيمة عند عدم صبرهم ومخالفتهم للرّسول (ﷺ) فذّكرهم أولاً بموقعة أُحُد الّتي كان لهم النّصر إبتداءً، ثمّ لمّا خالفوا أمر الرّسول إنهزموا، ثمّ لما رجعوا إلى أمره إنتصروا، وقبل الخوض في تفسير الآيات، نذكر معركة أُحد إن شاء الله تعالى، لتكون عوناً لفهم هذه الآية الكريمة، وآيات أخرى تأتي بعد في هذه السّورة متعلّقة بمعركة أحد فنقول: قال إبن هشام في السّيرة: لمّا أصيب يوم بدر من كفار قريش ورجع كلّهم إلى مكّة ورجع أبو سفيان بعيره، مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أميّة في رجال آخرين من قريش ممّن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر؛ فكلّموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا: يامعشر قريش إنّ محمّداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلّنا ندرك منه ثأرنا. فوافقوا على ذلك، فلمّا اجتمعت قريش ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة دعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشيّاً يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قلما يخطئ بها فقال له: اخرج مع النّاس فإن أنت قتلت حمزة عمّ محمّد بعمّي طعيمة بن عدي فأنت عتيق. فخرجت قريش ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة وخرجوا بالنّساء معهم لكي لا يفرّوا، فخرج أبو سفيان بزوجته هند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمّ حكيم بنت الحارث بن هشام أي بزوجته، وخرج الحارث بن هشام بزوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أميّة بزوجته برزة بنت سعود بن عمرو، وخرج عمرو بن العاص بزوجته ربطة، وخرج طلحة وأبوه عبدالله بن عبد العزى بسلافة بنت عبدالعزى وهي أمّ أبنه طلحة، وخرجت خناس بنت مالك مع إبنها أبي عزيز بن عمير وهي أمّ مصعب بن عمير، وخرجت عمرة بنت علقمة، وكانت هند كلّما مرّت بوحشي أو مرّ بها قالت: يا أبو دسمة (كنية وحشي): أشف واستشف. فذهبت قريش إلى أن نزلوا بعينين بجبل ببطن السّبخة من قناة على شفير الوادي مقابل المدينة. فلمّا سمع بهم رسول الله (ﷺ) والمسلمون أنّهم نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله (ﷺ) للمسلمين: إنّي قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً تذبح، ورأيت في سيفي ثلماً، ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حصينة، فأمّا البقر فهي أناس من أصحابي يقتلون، وأمّا الثّلم فهو رجل من أهل بيتي يقتل. فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رسول الله (ﷺ) يكره الخروج إليهم، فقال رجال ممّن فاتهم يوم بدر يحبّون الشّهادة: يارسول الله،

اخرج بنا إلى أعدائنا لكي لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا، فقال عبدالله بن أبي بن سلول: يارسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلّا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلّا أصبنا منهم، فدعهم يارسول الله، فإنّ أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإن دخلوا قاتلهم الرّجال في وجههم، ورماهم النّساء والصّبيان بالحجارة من فوقهم وإن رجعوا رجعوا خائبين. فلم يزل النّاس برسول الله (ﷺ) ممّن يحبّون لقاء القوم حتّى دخل رسول الله (ﷺ) بيته فلبس لامّته ثمّ خرج عليهم رسول الله (ﷺ) وقد ندم النّاس، وقالوا: يارسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد (صلّى الله عليك)، قال: ما ينبغي لنبيّ إذا لبس لامته أن يضعها حتّى يقاتل، فخرج رسول الله (ﷺ) في ألف من أصحابه. حتّى إذا كانوا بالشّوط بين المدينة وأُحُد، اعتزل عنه عبدالله بن أبيّ بثلث النّاس وقال: أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيّها النّاس؛ فرجع بمن اتّبعه من قومه. ثمّ قال رسول الله (ﷺ): من رجل يخرج بنا على القوم من قرب ومن طريق لا يمُر بنا عليهم؟ فقال أبو خيشمة أخو بني حارثة بن الحارث: أنا يارسول الله، فنفذ به في حرّة بني حارثة ومضى رسول الله (ﷺ) حتّى نزل الشعب من أحد في عروة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وقال: لا يُقاتلنَّ أحد منكم حتّى نأمره بالقتال. فتعبأ رسول الله (ﷺ) وهو في سبعمائة رجل وأمَّرَ على الرماة عبدالله بن جبير، وهو معلّم بثياب بيض والرّجال خمسون رجلاً فقال: إنضح الخيل عنّا بالنّبل. أي إدفعهم لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لانؤتيَنَ من قِبلَكَ. وظاهر رسول الله (ﷺ) بين درعين ودفع اللّواء إلى مصعب بن عمير هذا، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس، فجعلوا خالد بن الوليد على ميمنة الخيل، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وقال رسول الله (ﷺ): من يأخذ هذا السّيف بحقه؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتّى قام إليه أبو دجانة فقال: وما حقّه يارسول الله؟ قال: أن تضْرب به العدد حتّى ينحني، قال: أنا آخذه بحقّه فأعطاه إيّاه. وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحَرْبْ، وكان إذا اعتصب بعصابة له حمراء علم النّاس أنّه سيقاتل، فلمّا أخذ السّيف أخرج عصابته فعصّب بها رأسه ومشى يتبختر بين الصّفين؛ فقال (ﷺ) حيث رآه يتبختر إنّها لمشية يبغضها الله تعالى إلا في هذا الموطن. فلما التقى النّاس وحميت الحرب قاتل أبو دجانة فجعل لا يلقى أحداً إلّا قتله. وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً من المسلمين إلا ذفّف عليه، فلقيه أبو دجانة فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعصت بسيفه وضربه أبو

دجانه فقتله. وقاتل حمزة (رضي الله عنه) حتى قتل حامل لواء المشركين وهو أرطأة بن عبد شرحبيل. ثم مرّ به سباع بن عبد العزى فقال له حمزة: هلمّ إليّ يا ابن مقطعة البظور، فلمّا إلتقيا ضربه حمزه فقتله. فرآه وحشي فهزّ حربته فدفعها عليه فوقع في ثنيّته فاستشهد هناك (رضي الله عنه). وقاتل مصعب بن عمير حتّى قتل، وكان حامل لواء الرّسول (ﷺ)، فلمّا قتل أعطى الرّسول (ﷺ) علياً بن أبي طالب، وقاتل عليّ ورجال من المسلمين. فلمّا اشتدّ القتال جلس رسول الله (ﷺ) تحت راية الأنصار، وأرسل إلى عليّ أن قدّم الرّاية فتقدم عليّ (كرم الله وجهه) فقال: أنا أبو القصم، فناداه أبو سعد حامل لواء المشركين: يا أبا القصم هل لك من مبارزة؟ قال: نعم، فبرز بين الصفين فاختلفا ضربتين فضربه عليّ فصرعه فمات. والتقى حنظلة بن أبي عامر وأبو سفيان فاعتلاه حنظلة بسيفه،فرآه شدّاد بن الأسود فضربه بسيفه فقتله فقال (ﷺ): صاحبكم أي حنظلة لتغسله الملائكة. فسألوا أهله فقالت: إنّه خرج وهو جنب فسميّ حنظلة غسيل الملائكة. ثم أنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسّوهم بالسّيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لهم لا شك فيها فصرخ صارخ أن محمّداً قد قتل. فانكشف المسلمون فأصاب فيهم العدوّ وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرمه بالشّهادة منهم حتّى خلص العدوّ إلى رسول الله (ﷺ) فرث بالحجارة حتّى وقع لشقّه فأصيبت رباعيّته وشُجَّ في وجهه وكلمت شفته الشّريفة، وكان الّذي أصابه عتبة بن أبي وقاص، فأوّل من عرف رسول الله ورآه بعد الهزيمة وقول النّاس قتل رسول الله (ﷺ) كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله (ﷺ). فلمّا عرف المسلمون ذلك نهضوا به ونهض معهم نحو الشِّعب وكان معه أبو بكر الصّديق وعمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب وطلحة بن عبدالله والزّبير بن العوّام والحارث بن الصُمّة ورهط من المسلمين (رضوان الله تعالى عليهم). فلمّا أسند رسول الله (ﷺ) في الشِّعب أدركه أبي بن خلف فقال: يا محمّد لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يارسول الله (ﷺ) أيعطف عليه منّا أحد؟ فقال: دعوه، فلما دنا تناول الرّسول (ﷺ) الحربة من الحارث بن الصُّمه ثمّ استقبله فطعنه في عنقه طعنةً تدأدأ منها عن فرسه مراراً، وكان أبيّ هذا حينما يلقى رسول الله (ﷺ) بمكّة يقول: يا محمّد إنّ عندي فرساً أعلفه كلّ يوم ستّة عشر منّا من ذرة، أقتلك عليه، فيقول الرّسول (ﷺ): بل أنا أقتلك إن شاء الله تعالى. فلمّا رماه رسول الله (ﷺ) ورجع إلى قريش وقد خدشه خدشاً غير كبير فاحتقن الدّم قال: قتلني والله محمّد، قالوا له: ذَهب والله فؤادك، والله

مابك من بأس، قال: إنّه كان قد قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني؛ فمات وهم قافلون به إلى مكّة بحزن. ثمّ فبينا والرّسول (ﷺ) بالشّعب ومعه أولئك النّفر من أصحابه، إذ علت عالية من قريش الجبل وكان على تلك الخيل خالد بن الوليد فقال (ﷺ): اللّهم لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطّاب ورهط معه من المهاجرين حتّى أهبطوهم من الجبل وبعد ذلك أرادت قريش الإنصراف فانصرفوا.

تنبيه: كان سبب هزيمة الأصحاب مخالفتهم لأمر الرّسول (ﷺ) وعدم صبرهم حيث أمرهم الرّسول (ﷺ) أن لا يتركوا مكانهم، ولكنّهم حينما رأوا هزيمة المشركين تركوا مكانهم ونزلوا لأخذ الغنيمة وجمعها، فاعتلى المشركون الجبل وصار ما صار من أمر المسلمين كما يذكر الله ذلك في ضمن الآيات الّتي تأتي. ثم إنّ أبا سفيان حينما أراد الإنصراف أشرف على الجبل ثمّ صرخ بأعلى صوته أنعمت فقال: وإنّ الحرب سجال يوم بيوم أعل ياهبل، أي أظهر دينك، فقال رسول الله (ﷺ): قم ياعمر فأجبه، فقل الله أعلى وأجل لا سواه، قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النّار. فلمّا أجابه عمر قال هلمّ إليّ يا عمر، فقال (ﷺ): إئته يا عمر فانظر ما شأنه فجاءه فقال: أنشدك بالله هل قتلنا محمّداً؟ قال: لا والله وإنّه ليسمع كلامنا، قال: أنت أصدق من ابن قميئة إذ يقول: إنّي قتلت محمّداً. فلمّا انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إنّ موعدكم بدر للعام القابل، فقال (ﷺ) لرجل: قم وقل له: نعم هو موعد بيننا وبينكم. ثمّ بعث رسول الله عليّ بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فقال: اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكّة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنّهم يريدون المدينة، والّذي نفسي بيده لإن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثمّ لأناجزهم، قال عليّ (كرّم الله وجهه): فخرجت فرأيتهم جنّبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجّهوا إلى مكّة. فخرج رسول الله (ﷺ) وراءهم حتّى إنتهى إلى حمراء الأسد ثمانية أميال من المدينة، فأقام بها ثلاثة أيام. ثمّ إنّ أبا سفيان أراد الرّجوع إلى المدينة ليستأصل بقيّة أصحاب رسول الله (ﷺ) فقال لهم صفوان بن أميّة: لا تفعلوا فإنّ القوم قد غضبوا وقد خشينا أن يكون لهم قتال غير الّذي كان فارجعوا فرجعوا.

* * *

هذا وقد أنزل الله تعالى في هذه السّورة ستّين آية تتعلّق بيوم أحد، فأوّلها قوله تعالى ﴿وإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ...﴾ إلخ، ولنبدأ بتفسير الآيات الكريمة بتوفيق الله تعالى:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

(وإذ غدوت) أي واذكر إذ خرجت في الصّباح المبكر **(من أهلك)** من بيت أهلك، بيت عائشة (رضي الله تعالى عنها) **(تبوئ)** تنزّل **(المؤمنين مقاعد)** منازلهم **(للقتال)** يوم أحد **(والله سميع)** يسمع أقوالكم كلّها **(عليم)** يعلم أعمالكم بل وما في قلوبكم، فعلم تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

(إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا) إي أن تجبنا وترجعا عن القتال، وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حرثة من الأوس، وذلك حينما رجع عبدالله بن أبيّ مع أصحابه المنافقين، إلّا أنّ الله تعالى ثبّتهما حيث **(والله وليّهما)** ناصرهما وبيده أمورهما وقلوبهما **(وعلى الله)** وحده **(فليتوكّل المؤمنون)** لا على غيره.

فائدة في بيان معنى التوكّل: قال القرطبيّ: قال سهل التّستري رحمه الله: من قال: إنّ التوكّل هو ترك الأسباب فقد طعن في سنّة رسول الله (ﷺ) لأنّه كان هو وأصحابه يتّخذون الأسباب ويعدّون العدّة ويستعملون ما به التّحرّز من العدوّ، ويستعملون ما تقتضيه سنّة الله تعالى المعتادة. فالتّوكّل هو الأخذ بالأسباب والإعتماد على الله تعالى في أن تفيد وتنتج الأسباب والإيمان بأنّ كلّ سبب لا يؤثّر بدون إرادة مسبّب الأسباب، وإلى هذا ذهب الصّوفية إلّا أنّهم قالوا: لايستحقّ اسم التّوكل عندهم مع الطّمأنينة إلى الأسباب والإلتفات إليها بالقلوب؛ فإنّها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضرّاً، بل السّبب والمسبّب كلّه فعل الله تعالى، والكلّ منه وبمشيئته، ومتى وقع من المتوكّل ركون إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن إسم المتوكّل. فالمتوكّل على قسمين:

الأوّل: المتّصف بحال المتمكّن وهو الّذي لا يلتفت إلى شيء من تلك الأسباب بقلبه ولا يتّخذها إلّا لداعي الشّرع.

الثّاني: غير المتمكّن وهو الّذي يقع له الإلتفات إلى الأسباب أحياناً، إلّا أنّه يدفع الإلتفات بالطّرق العلميّة والأذواق الحاليّة، فلا يزال كذلك إلى أن يرقيه الله تعالى بكرمه إلى مقام المتمكّنين ويلحقهُ بِالعازمين. ألّلهم أنِلْنا ذلك المقام برحمتك يا أرحم الرّاحمين. ثمّ قبل أن يكمل الكلام عن أُحد ذكرّهم الله تعالى بموقعة بدر لأمرين:

الأوّل: ليستدلّ بها على أنّ التوكّل يجب على الله تعالى فقط ومن توكّل عليه فإنّه ينصره، ألا يرون أنّهم إنتصروا في بدر وهم أذلّة لأنّهم توكّلوا عليه.

الثّاني: أن يذكّرهم بأنّهم في البدر انتصروا بدون هزيمة، لأنّه كان عندهم الصّبر المحض وعدم مخالفة أمر الرّسول(ﷺ)، ولكنّهم في أحد انتصروا حينما صبروا، وانهزموا حينما لم يصبروا وتركوا مكانهم مخالفةً لقول الرّسول (ﷺ) لا يتركنَّ أحد منكم مكانه وتوجّهوا إلى جمع الغنائم.

* * *

ثمّ عاد إليهم النّصر حينما رجعوا إلى الصّبر والتفّوا حول الرّسول (ﷺ) فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

(و) بعزّتي **(لقد نصركم الله ببدر)** في بدر، وهي كانت عين ماء بين المدينة ومكّة، سمّيت باسم صاحبها وهو بدر، والآن أصبحت قرية معمورة **(وأنتم أذلّة)** لقلّة عددكم وكثرة عدد الكافرين، حيث كانوا ثلاثة أضعافهم، إلّا أنّ الله تعالى نصر المؤمنين بصبرهم وشدة توكّلهم على الله تعالى وعدم مُخالفة أمر الرّسول (ﷺ) **(فاتّقوا الله)** فلا تتركوا الصّبر ولا تتوكّلوا على غير الله تعالى، ولا تخالفوا أوامر الرّسول (ﷺ) **(لعلكم تشكرون)** أي لكي تشكروا الله تعالى على النّصر الّذي يأتيكم بسبب الصّبر واتّباع الرّسول (ﷺ). **(إذ)** مفعول فيه لقوله، ولقد نصركم، أي نصركم وقتما **(تقول للمؤمنين)** بشارة **(ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة الآف من الملائكة منزلين)** من السّماء ليقاتلوا معكم **(بلى)** أي يكفيكم ذلك **(و)** لكن **(إن تصبروا وتتّقوا)** الإنهزام ومخالفة الرّسول (ﷺ) **(ويأتوكم)** الكفّار **(من فورهم هذا)** من سرعتهم هذه يزدكم حيث **(يمدكم ربّكم بخمسة الآف من الملائكة مسوّمين)** بدون تأخير، ومعلّمين بعلامة يعرفون بها، فنزلوا ثلاثة الآف ثمّ خمسة الآف، وعلامتهم أنّهم كانوا لابسين عمائم بيضاء إلّا جبريل كانت

عمامته صفراء، وقيل: كانت عمائم الكلّ صفراء، وكان خيلهم مجزورة الأذناب، وقيل: كان خيلهم بلقاً[١] وقيل في: **(إذ تقول)** أنّها ظرف زمان لقوله **(وإذ غدوت)** فيكون بشارة بنزول الملائكة يوم أحد، وضعّفوا ذلك بأنّه لو أمدّوا بالملائكة لما كان الإنهزام، وأجيب عنه بأنّهم أمدّوا بالملائكة حينما صبروا فانتصروا، ثمّ لما خالفوا أمر الرّسول (ﷺ) رجعت الملائكة فانهزموا، أو بأنّهم بُشّروا بالملائكة أن يصبروا ويتّقوا فلم يصبروا فلم تنزل الملائكة. والأوّل هو الأصحّ، وأمّا الحديث الوارد عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيت عن يمين رسول الله (ﷺ) وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال ما رأيتهما قبل ولا بعد، يعني جبريل وميكال عليهما السلام[٢]، فلا يدلّ على أنهم أمدّوا بالملائكة في أُحد بثلاثة الآف أو خمسة بل إنّما يدل على أنّه حينما انهزم المسلمون وهاجم الكفّار رسول الله (ﷺ) نزل جبريل وميكائيل (عليهما السلام) يدافعان عن رسول الله (ﷺ) إلى أن التفّ المسلمون حوله ورجعوا. ثمّ أراد الله تعالى أن ينبّه المسلمين على أنّ الملائكة وإمدادهم أيضاً ليس إلّا سبباً عادياً للنّصر لا موجداً له، وإنّما الموجد هو الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

(وما جعله) أي هذا الإمداد **(إلا بشرى لكم)** بالنّصر وإنّكم تنصرون من الله تعالى **(ولتطمئن قلوبكم به)** بهذا الإمداد لأنّه من علامة النّصر، فالنّصر ليس من الملائكة ولا منكم بل **(وما النّصر إلا من عند الله العزيز)** الغالب على ما أراد، فلو كان منكم عشرة أشخاص لنصركم لأنّه أراد ذلك **(الحكيم)** والحكمة منه أراد نصركم، أو أمدّكم بالملائكة. ثمّ ذكر الله تعالى نتيجة النّصر فقال جلّ وعلا: **(ليقطع)** أي ليهلك **(طرفاً)** قسماً **(من الّذين كفروا)** يذلّهم ويخزيهمْ **(فينقلبوا)** إلى ديارهم **(خائبين)** غير ظافرين بمرادهم. وفي كلّ ذلك من نصر المؤمنين وقطع طرف من الكافرين أو تذليلهم.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

---

(١) اي لونها فيه سواد وبياض / القاموس المحيط مادة بلق.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٨٠٢ الحديث رقم ٢٣٠٦.

(ليس لك) أيها النّبيّ ولا لأحد غير الله تعالى **(من الأمر)** أي من التّكوين **(شيء)** فالتّكوين كلّه لله تعالى والخطاب للرّسول (ﷺ) والمراد به المسلمون لأنّ الرّسول كان يعلم ويؤمن بذلك كلّه، وإنّما أراد بذلك تنبيه المسلمين لكي لا يغترّوا بأعمالهم فيدخل في قلوبهم العجب والغرور **(أو يتوب عليهم)** بأنّ يهديهم للإسلام **(أو يعذّبهم)** إن أصّروا على الكفر **(فإنّهم)** ببقائهم على الكفر **(ظالمون)** متجاوزون الحقّ والحقيقة. وإنّما توسّطت جملة (ليس لك من الأمر شيء) وتقدّمت على التّوبة والعذاب لأنّ كلّ مسلم مقتنع بأنّ التّوبة والعذاب عائدان إلى الله فحسب. فلا سبيل للعجب بذلك، ولكنّ النّصر وهزيمة الأعداء ممّا يدخل في قلب المرء العجب إن لم ينبّه أو لم ينتبه. ثمّ استدل تعالى على ما سبق فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

(ولله) ملكاً وملكاً كلّ **(ما في السّماوات)** وكلّ ما في الأرض، فمن كان هذه صفته وقدرته فكلّ شيء منه وهو مختار في أمره؛ ولذلك **(يغفر لمن يشاء)** وهم المؤمنون فقط لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ سورة النّساء الآية/٤٧ ـ وكلّ كفر أشرك به فلا يغفر لهم **(ويعذّب من يشاء)** عذابهم من عصاة المؤمنين **(والله)** تعالى **(غفور)** كثير المغفرة **(رحيم)** شديد الرّحمة ولرحمته يغفر لا لأمر آخر. وقد فتح الله تعالى أبواب رحمته ومغفرته للكافرين والعصاة أيضاً بأنّه يقبل توبتهم وإيمانهم ما لم يغرغر المرء، أي ما لم يتيقّن الفوت ويحضره الموت، فإنّ الإيمان والتّوبة حين اليأس غير مقبول. ثمّ أعلن الله تعالى عن فتحه باب الرّحمة بالأوامر والنّواهي الّتي ذكرها في الآيات التّالية فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةًۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا لا تأكلوا) أي لا تأخذوا **(الرّبا)** أي الزّيادة على القرض، عبّر عن الأخذ بالأكل لأنّ غالب ما يؤخذ فهو للأكل، أمّا مباشرة أو بالتّبديل **(أضعافاً مضاعفة واتّقوا الله)** أي اتّقوا عذاب الله تعالى بترك الرّبا **(لعلكم تفلحون)** أي لكي تفلحوا، فانظر أيّها الإنسان كيف فتح الله لك باب الفلاح والرّحمة بالتّعامل وفق الشّريعة وترك ما نهى الله تعالى عنه من المعاملات. وهنا يقول بعض الجهلة: بأنّ الله تعالى نهى عن الرّبا أضعافاً مضاعفة وإنّ الخمسة من المائة أو العشرة منها ليست أضعافاً مضاعفة فيكون الرّبا الموجود في البنوك الآن غير داخل في النّهي.

الجواب: أنّه ليس معنى الآية أضعاف رأس المال مضاعفةً، بل المعنى أضعاف الزّيادة مضاعفةً، فإنّ الزّيادة تتضاعف وتزيد كلّما حال على الدّين الحول وتكرّرت السّنوات عليه، فالّذي يأخذ ألف دينار من البنك مقابل خمسين من الألف لسنة ففي كلّ سنة تمرّ على الدّين يدفع الدّائن خمسين، وإذا لم يوفّ الدّين بعد انتهاء السّنة فالرّبا والزّيادة تتضاعف بتضاعف السّنوات أو الآجال، وكذلك كان الرّبا في الجاهليّة، كلّ ما حلّ الأجل ولم يوفّ المدين الدّين يزداد مقدار على الدّين مقابل الأجل الّذي يؤجّلونه وهكذا الجاهليّة اليوم، فالجاهليّة هي الجاهليّة في الماضي والحاضر والمستقبل وإلى يوم القيامة **(وأطيعوا الله والرّسول)** في عقائدكم ومعاملاتكم وفي جميع نواحي حياتكم **(لعلكم ترحمون)** أي لكي ترحموا، فقد فتح الله تعالى باب الرّحمة لكلّ أحد باتّباعه له ولشريعته ولرسوله (ﷺ) **(وسارعوا)** وسابقوا **(إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها)** سعتها تسع **(السّماوات)** كلّها **(والأرض)** لأنّ الجنّة إمّا فوق الكرسي وهي محيطة بالسّماوات والأرض كلّها، أو تتشكّل الجنّة فوق الأرض يوم القيامة وبعد أن انضمّ إليها ووقع عليها السّماوات والنّجوم والكواكب كلّها فتصير كتلة واحدة، ولكنّ قوله: **(أعدت)**

بصيغة الماضي أي هُيِّئت (**للمتّقين**) يؤيد الأوّل وهو أنّ الجنّة موجودة فوق الكرسيّ وقال تعالى ﴿وسع كرسيّه السّماوات والأرض﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٥٥، ثم بيّن الله تعالى صفات المتّقين ليعرفوها، فيقتدي المرء بهم فيتّصف بصفاتهم ليصير منهم، ويحظى بما أعدّ لهم فقال: (**الذّين ينفقون**) أموالهم (**في السّرّاء والضّرّاء**) في حال اليسر والعسر (**والكاظمين**) والّذين يكظمون ويمسكون غيظهم وغضبهم فلا ينتقمون بسببه (**والعافين عن النّاس**) الّذين أساؤوا إليهم (**والله يحبّ المحسنين**) فلا يعذّبهم بل ينعم عليهم، والمراد بالمحسنين هم المتّصفون بالصّفات المذكورة، عبّر عنهم بالمحسنين لبيان زيادة شرفهم ورتبتهم فإنّ رتبة الإحسان لا رتبة فوقها (**والّذين إذا فعلوا فاحشة**) أي كبيرة (**أو ظلموا أنفسهم**) بارتكاب الصّغائر (**ذكروا الله**) وعذابه ومغفرته فندموا من فعلهم هذا (**فاستغفروا لذنوبهم**) الّتي ارتكبوها وطلبوا المغفرة من عند الله تعالى، حيث يؤمنون (**ومن**) الإستفهام للإنكار، وإنكار المثبت نفي، فالتّقدير وما (**يغفر الذنوب**) أحد (**إلّا الله**) تعالى فلذلك يتوجّهون إليه بالنّدامة والإستغفار (**ولم يصرّوا على ما فعلوا**) بدون إستغفار (**وهم يعلمون**) أي يؤمنون بأنّ لهم ربّاً يغفر الذّنوب ويعفو عمّن يتوب، هذا، وقد ورد في فضل المتّقين والمنفقين والكاظمين الغيظ والعافين والمستغفرين أحاديث كثيرة يغني عن كلّها قوله تعالى: ﴿**أولئك جزاؤهم مغفرة من ربّهم وجنّات**﴾ أي لكلّ واحدٍ منهم جنّات أي بستين في الجنّة، أو من قبيل ركب القوم دوابهم، أي كلّ واحد دابّته فتفيد أن لكلّ واحد منهم جنّة (**تجري من تحتها الأنهار**) قد مرّ تفسيره مراراً (**خالدين فيها**) مؤبّدين في الجنّات لا يَخرجون ولا يُخرجون. وخالدين حال من (**وهم**) في قوله، جزاؤهم وكلمة (هم) نائب فاعل لجزاء، لأنّ جزاء مصدر مجهول أضيف إلى نائب الفاعل، فالتّقدير يجزون من ربّهم، وحيث إنّ زمان الجزاء والخلود ليس متّحداً وشرط الحال أن يكون مقارناً زمانه لزمان العامل فيها، سميّ مثل هذا الحال بالحال المقدرة، ومعناها أنّه يقدّر لها ما يقارن زمانه زمانها فالتّقدير: يجزون من ربّهم الجنّة مقدراً خلودهم فيها، فزمان تقدير الخلود وزمان الجزاء واحد، وبهذا صّح هنا الحال (**ونِعمَ**) فعل مدح فاعله (**أجر العاملين**) والمخصوص أي المقصود بالمدح محذوف تقديره، ونعم أجر العاملين لهذه الأعمال الّتي ذكرت هذا الأجر المذكور وهو المغفرة والجنّة والخلود فيها، فلا أجر أحسن من هذا. ثمّ أراد الله تعالى أن يعيد الكلام إلى تفصيل ما جرى في معركة أحد وقدم على ذلك تسلية للمؤمنين بقوله جلّ وعلا:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

(قد خلت) أي قد مضت **(سنن)** أي عادات لله تعالى ومقاديره في الأمم **(من قبلكم)**، وتلك المقادير والسّنن هي نصره تعالى للرّسل وأتباعهم وخذلان المنحرفين عن منهج الله تعالى والكافرين برسله، وإنّ سنن الله تعالى لا تتبدّل وإن عاقبتكم أيّها المسلمون النّصر فيما بعد، وإنّ مصير الكافرين الهزيمة والذلّ والهوان وللعلم بذلك فسيروا .... إلخ. **(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذّبين)** للرّسل من الهلاك والدّمار، لتعلموا أنّ العاقبة للمؤمنين وأنّ الهلاك للكافرين، ولتطمئنّ قلوبكم بذلك، هذا وإن السّير سيران، سير يبيّن بالمشي والسّياحة في تلك البلاد وآثارها، وسير في مطالعة كتب التّواريخ الصادقة وما فيها من الحوادث الّتي تذكر وتروى كما وقعت[1]، ومن أصدق الكتب هو القرآن الكريم؛ ولذا قال جلّ وعلا:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

(هذا) أي القرآن الكريم **(بيان للنّاس)** أي لأحوال الأمم وما جرى عليهم نتيجة التّكذيب للرّسل والإنحراف عن منهجهم وشريعتهم **(وهدى)** وإرشاد إلى الخير والحسن والصّالح من الأعمال، فما يخالفها فهو الشّر والقبيح والفاسد، وسبب للهلاك والدّمار **(وموعظة للمتقين)** فهم المتّعظون به لا غيرهم، وإن كان وعظه عامّاً ولكل أحد، المؤمن والكافر، إلّا أنّه من لم يتّعظ فكأنه لم يوعظ، فلذلك خصّ المتّقين بالذّكر فقط، والمراد بالمتّقين المؤمنون فعلاً فيعملون به، ومن يحبّ الإيمان والوصول إلى الحقيقة فيهتدي بهذا القرآن الكريم عند سماعه والتدبّر فيه، فما أكثر من إهتدى بهذا القرآن الكريم، وبمجرّد تلاوته والتدبّر فيه دون إرشاد مرشد وهداية هاد غير القرآن الكريم، وذلك من العلماء والفلاسفة ومن الأجانب والمستشرقين، فالقرآن هدى وموعظة لكلّ من تعطش إلى إدراك الحقّ والعدل والصّراط المستقيم، ومن لم يرد

---

(١) وسير بتتبع الآثار القديمة وحفرياتها كما قال تعالى: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الأحقاف(٤).

فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، هذا وحيث أنّ سنن الله تعالى في الأمم قبلكم تدلّ على أنّ العاقبة والنّصر لكم قال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

(ولا تهنوا) فلا تضعفوا عزيمة وإرادة عن الجهاد، والمضيّ في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر راية الإسلام بسبب ما أصابكم يوم أحد **(وأنتم الأعلون)** المتفوّقون والمنتصرون فيما يستقبل، والكافرون نصيبهم الهزيمة والخسران **(إن كنتم مؤمنين)** أي إن دمتم على الإيمان وعملتم حسب مقتضاه وما خالفتم الرّسول، وصبرتم واتّقيتم وتمسّكتم بشريعة الله تعالى ودينه. وفي هذه الآية معجزة، حيث كان النّصر حليف المؤمنين بعد أحد، فما وقعت معركة إلّا كان حليفهم النّصر ولأعدائهم الخسران. ودلالة على أنّ المسلمين في القرون الأخيرة والّذين استولى عليهم الأجنبي إنّما أصيبوا بالذلّ لأنّهم انحرفوا عن الإسلام والعمل المتواصل له ولإعلاء كلمة الله تعالى، فإنّ الله تعالى لا يخلف وعده وإنّما المسلمون أخلفوا فذاقوا مرارة مخالفتهم هذه وعصارة تفرقهم وبعدهم عن حقيقة الإسلام وحقّ العمل له. فهل للمسلمين من يقظة ؟! اللّهم فافعل.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٤٤)﴾

(إن يمسسكم) أيّها المؤمنون يوم أحد **(قرح)** بضمّ القاف وفتحه بمعنى الألم والجرح وهما قراءتان، أي إن أصابكم يوم أحد الألم بالجرح أو القتل فلا تحزنوا حيث **(فقد مسّ القوم)** الأعداء **(قرح)** ألم **(مثله)** يوم بدر ويوم أحد، وإن طبيعة الحرب كذلك

يوم لك ويوم عليك، فمن أراد إقامة الحقّ فلا يبالي بالتّضحية والفداء **(وتلك الأيام نداولها)** نصرفها **(بين النّاس)** ففي يوم نعمة وفي آخر نقمة وفي يوم حزن وفي يوم سرور، وهذه سنّة الله تعالى إمتحاناً للنّاس بالعسر واليسر والشّدة والرّخاء، ليظهر قوّة إيمان النّاس وضعفه، كما قال **(وليعلم الله)** علماً واقعيّاً متعلقاً بالموجود المحض في الخارج، كما علم من قبل علماً أزلياً لم يتعلق بالشّيء، وهو موجود فيعلم بذلك العلم **(الّذين آمنوا)** إيماناً لا يزلزل بالمصائب ويفدي في سبيله بالمال والأنفس **(ويتخذ منكم)** أي وليكرم فيتخذ منكم **(شهداء)** لينالوا أجرهم **(والله لا يحب الظالمين)** الكافرين، فغلبة الكافرين عليكم لم تكن لأنّ الله تعالى يحبّهم، كلّا، بل لإمتحان المؤمنين ولتكريمهم بالشّهادة أيضاً **(وليمحصّ)** أي وليطّهر الله **(الّذين آمنوا)** من المنافقين فيظهر المؤمن من المنافق، وقد قيل: (لا تكرهوا الفتن فإنّ فيها حصاد المنافقين)[١] أي ظهورهم وتعيينهم **(ويمحق الكافرين)** أي ويهلكهم، فالمقتول في الحرب إن كان مؤمناً فإنّه يستشهد، وإن كان كافراً فإنّه يهلك، فالجهاد نعمة للمؤمن، إن إنتصر فنعمته النّصر وإن قتل فنعمته الشّهادة، ثمّ ذكر الله تعالى أنّ نعمة الجنّة لا توهب بدون تعب فقال: **(أم حسبتم)** أي أظننتم والإستفهام للإنكار أي لا تظنوا **(أن تدخلوا الجنّة ولّما يعلم)** أي قبل أن يمتحنكم **(الله)** فيعلم **(الّذين جاهدوا منكم)** وغيرهم **(ويعلم الصابرين)** من غيرهم، ونفي علم الله هنا ليس نفياً لعلمه، لأنّ علمه قديم ثابت لا يجري عليه التّغيير، بل إن الله تعالى علم في الأزل الّذي يجاهد والّذي يصبر، ولكن لا يتعلّق ذلك العلم بالمجاهد الموجود فعلاً حتى يجاهد وبالصّابر حتّى يصبر، فنفى العلم هو نفي تعلقه لا نفي العلم **(ولقد كنتم)** قبل وقوع الحرب، حرب أحد **(تمنّون)** تتمنّون، حذفت إحدى التائين تخفيفاً **(الموت)** في سبيل الله فتقولون يا ليتنا حضرنا مشهداً كما شهد أهل بدر فننال تكريم الشّهادة في سبيل الله تعالى **(فقد رأيتموه)** الموت الّذي طلبتم فلماذا تحزنون **(وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ)** تأكيد رأيتموه، ثمّ إنّه كان من أحد أسباب هزيمة المسلمين يوم أحد أنّه رمى إبن قميئة رسول الله (ﷺ) فقال: قتلت محمّداً، فصرخ

---

(١) هو أثر مروي عن الإمام علي (ﷺ) بلفظ: (لا تستعيذوا من الفتن فإن فيها حصاد المنافقين) وفي رواية بلفظ: إسألوا الفتنة...الخ و في سنده ضعيف ومجهول وقال: قال ابن وهب هو باطل، وهو مخالف لما ورد عن النبي (ﷺ) من التعوذ من فتنة الدنيا وفتنة الغنى والفقر وغير ذلك / انظر فتح الباري في شرح البخاري ١٣/ ٤٤، وعمدة القاري ٢٤/ ١٩٨.

صارخ ألّا إنّ محمّداً قد قتل، ففشا في النّاس خبر قتله فانكفأ النّاس وجعل رسول الله (ﷺ) ينادي: إليّ عباد الله، فانحازت إليه جماعة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم فقالوا: فداك أباؤنا وأمهاتنا، سمعنا قتلك فولّينا مدبرين فقال تعالى لهم: **(وما محمّد إلّا رسول قد خلت)** قد مضت (من **قبله الرّسل)** فجاؤوا وماتوا وإنّ محمّداً جاء ويموت **(أفإنَ مات أو قتل انقلبتم)** رجعتم **(على أعقابكم)** عن الإسلام وارتددتم عنه، والإستفهام للإنكار، أي من المنكَر أن تكونوا كذلك، وأن تقاتلوا لمحمّد، بل القتال يجب أن يكون لله وللإسلام ونشره، لا لمحمّد فإنّ محمّداً يموت ولكنّ الله لا يموت، والإسلام لا يموت بموت محمّد، فسواء كان محمّد بقي أو مات فالقتال محتّم للإسلام لا لمحمّد، فمن كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً يموت، ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لايموت **(ومن ينقلب)** بموت محمّد عن الإسلام كما فعل ذلك كثير من النّاس **(فلن يضرَّ الله)** بارتداده **(شيئاً)** بل وإنّما يضرّ نفسه بكفره وجعل نفسه مستحقّاً للعذاب **(وسيجزي الله الشّاكرين)** الثّابتين على نعمة الإسلام شاكرين لها.

حكاية: لمّا توفّي رسول الله (ﷺ) تشوّش النّاس وكاد أن يتجنّن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وسلّ سيفه فقال: إنّ محمّداً لا يموت ولم يمت، بل ذهب لمناجاة ربّه كما ذهب موسى، فمن قال محمّد مات قتلته بهذا السّيف، فلّما جاء أبو بكر قبل جثمان رسول الله (ﷺ) وقال: طبت يا رسول الله حيّاً وميتاً، ثمّ صعد المنبر فقال: من كان يعبد محمّداً فإنّ محمّداً قد مات ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت، وقرأ هذه الآية (وَما مُحَمَّدٌ إِلّا رَسُولٌ ...إلخ) فرمى عمر سيفه وقال: والله كنت نسيت هذه الآية[1].

* * *

(١) الحديث كما في البخاري: عن عائشة (رضي الله عنها) زوج النبي (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ) مات وأبوبكر بالسنح فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله (ﷺ) قالت: وقال عمر والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم،فجاء أبوبكر فكشف عن رسول الله (ﷺ) فقبله قال بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا، والذي نفسي بيده لايذيقك الله الموتتين أبدا، ثم خرج فقال أيها الحالف على رسلك،فلما تكلم أبوبكر جلس عمر فحمد الله أبوبكر واثنى عليه وقال ألا من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لايموت،وقال: إنك ميت وإنهم ميتون،وقال: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم،ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر

ثمّ ينبّه الله تعالى على أنّ الموت ليس بالقتال، فمن قاتل مات ومن لا فلا، بل إنّ الموت بإرادة الله تعالى وأجله، فمن جاء أجله مات قاتل أو لم يقاتل، ومن لم يأت أجله لم يمت وإن قاتل سنين، فإذاً لماذا تخافون القتال وتتكاسلون عن الجهاد خوفاً من الموت فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

(وما كان) أي وما يمكن **(لبشر أن يموت إلا بأذن الله)** إلا بإرادته فمن أراد الله تعالى موته مات في القتال وغيره، وإن كان في بروج مشيّدة، ومن لم يرد موته لا يموت وإن قاتل سنين أو وقع في النار، فكل النّاس يموتون بأجلهم، ولا يؤخّر عدم القتال الأجل ولا يقدّمه **(ومن يرد ثواب الدّنيا)** بالقتال أو غيره وسعى لثواب الدّنيا ومنافعها **(نؤته منها)** من الدّنيا بقدر ما نشاء **(ومن يرد ثواب الآخرة)** ومنافعها وسعى لها **(نؤته منها)** من الآخرة بقدر ما نشاء **(وسنجزي الشاكرين)** الثّابتين على الإسلام شاكرين نعمته، فلم يزحزحه عنه العسر ولا اليسر، سنجزيهم جزاءً لا يعرف ولا يوصف لعظمته، ولذلك لم يذكره الله تعالى، اللّهم فأنلناه آمين. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر للمسلمين أحوال بعض الأمم السّابقة في الصّبر والثّبات والإخلاص والإستماتة في سبيل نشر دين الله تعالى وإذلال الكفرة أعداء الله، ليقتدي بهم المسلمون في كلّ وقت فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

الله شيئا، وسيجزي الله الشاكرين)، فنشج الناس يبكون... وفي رواية أخرى فيه أن عمر قال:والله ماهو إلا أن سمعت أبابكر تلاها فعقرت حتى ماتقلني رجلاي وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي (ﷺ) قد مات./ صحيح البخاري الحديث رقم ٣٤٦٧ و الحديث رقم ٨٧ ٤١.

(وكم) وكثيراً **(من نبيّ)** من أنبياء الله قبل محمّد (ﷺ) **(قاتل)** وجاهد **(معه ربّيون)** بفتح الراء وكسرها وضمها، نسبة إلى الربّ أي ربّانيّون **(كثير)** عددهم وهم المتفانون في سبيل الله، والمفلحون بكلّ ما يعزّ عليهم في أداء أوامر الله تعالى **(فما وهنوا)** فما تكاسلوا **(لما)** بسبب ما **(أصابهم في سبيل الله)** من زوال الأموال والأنفس والثّمرات **(وما ضعفوا)** بل زادت قوّتهم في العمل والعزيمة **(وما استكانوا)** وما ذلّوا للعدوّ بل تجلّدوا وصبروا **(والله يحبّ الصّابرين)** على ما أمرهم الله تعالى وفي مواجهة العدوّ الكافر **(وما كان قولهم)** ودعاؤهم من الله تعالى **(إلّا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا)** وتقصيرنا **(فى أمرنا)** الّذي كلّفنا به من عندك يا الله **(وثبّت أقدامنا)** فلا تزلّ عن مواضعها في مواجهة العدوّ الكافر **(وانصرنا على القوم الكافرين)** فلم يكن قصدهم ونيّتهم إلّا نصرة دين الله ولم يصبهم الغرور، لا بالأعمال ولا بالأقوال، بل كانوا لا يشعرون بالقصور مع هذا العمل والجهاد والإخلاص **(فأتاهم الله ثواب الدّنيا)** وهو العزّه والسّيادة في الأرض والنّصر على الكفرة **(وحسن ثواب الاخرة)** أي أتاهم الثّواب الحسن في الآخرة،وهو الجنّة والمغفرة والحور والغلمان والرّضوان، لأنّهم كانوا في الدّنيا محسنين **(والله يحبّ المحسنين)** فينعم عليهم في الدّنيا والآخرة، فكونوا مثلهم أيّها المسلمون لتنالوا ما نالوا من السّعادة في الدّنيا والآخرة، أللّهم فافعل، آمين. ثمّ إنّ المنافقين والمشركين واليهود وجدوا من هزيمة المسلمين في أُحد فرصة اغتنموها للّعب بعقول البسطاء وضعفاء الإيمان، فكانوا يروّجون بينهم أنّه لو كان الإسلام حقاً لما انهزموا، ولنصرهم الله تعالى، ويقولون لبعضهم إرجعوا إلى دينكم، فهو خير من هذا الدّين فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا إن تطيعوا الّذين كفروا) من اليهود والنّصارى والمشركين **(يردّوكم)** يرجعوكم **(على أعقابكم)** أي إلى الدّين الّذي تركتموه **(فتنقلبوا)** بعد الإسلام **(خاسرين)** أي كافرين، وعبّر عنه بخاسرين إشارة إلى أنّ الكفر خسارة في الدّنيا، لأنّ الله تعالى قدّر للإسلام النّصر والسّيادة والسّلطان، وفي الآخرة لأنّ مأوى الكافر يوم القيامة عذاب النّار، وهذه الدّيدنة ديدنة تضليل المسلمين واللّعب بأفكار البسطاء منهم وإبعادهم عن دينهم ديدنة قديمة ومستمرة، فلا تزال مؤن الكفر تشكّل جماعات لإبعاد

المسلمين عن دينهم، ويصرفون على ذلك مبالغ باهظة من الأموال والنّقود، وعلى المسلمين اليقظة والحذر من ذلك، ولا يستطيع المسلم أن يسلم من هذه المكايد إلّا بأن يجعل الكتاب والسّنة ميزاناً للدّعاة، فكلّ من يدعو إلى مبدأ غير الكتاب والسّنة وشريعة الإسلام يتجنّبه ويبتعد عنه ولا يتبعه ولا يشاركه في العمل، فبذلك وحده يستطيع أن يسلم من الغواية والضّلالة، ومن شبكة الصّيادين للنّاس والبسطاء. ثمّ وعدهم الله تعالى بالنّصر فيما يستقبل فقال جلّ وعلا:

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

(**بل**) لا تطيعوا الكفّار لينصروكم فإنّهم لا يستطيعون النّصر ولا ينصرونكم، وأبشّركم بأنّ (**الله**) تعالى (**مولاكم**) ناصركم؛ فهو ينصركم لاغيره (**وهو خير النّاصرين**) أي إن وجد ناصرون غيره فهو خيرهم، ولا ناصر في الحقيقة سواه، فهو كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٤ ـ حيث لا خالق سواه، فالمعنى: لو وجد خالقون غيره فهو أحسنهم[١]. ثمّ بيّن الله تعالى كيف ينصُرهم فيما يستقبل فقال جلّ وعلا:

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

(**سنلقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب**) الخوف منكم أيّها المسلمون (**بما**) ما مصدريّة تؤول ما بعدها مصدراً فمعنى (**بما أشركوا**) بسبب إشراكهم (**بالله مالم ينّزل به سلطاناً**) أي دليلاً على شركه له، بل أنزل حجّة ودلائل على نفي الشّريك له، وهذا

(١) الخلق خلقان، خلق هو إيجاد من العدم، وهو ليس إلا لله تعالى فهو الخالق وحده بهذا الإعتبار، وخلق بمعنى الصناعة من الموجودات التي خلقها الله تعالى كالنجار يصنع الكرسي والمصنع يصنع السيارة والطائرة وهكذا جميع المصنوعات والمخترعات التي وصل إليها البشر مستفيدا مما خلقه الله تعالى من الموجودات التي حوله، فبهذا الإعتبار يكون غير الله خالقا مجازا بمعنى الصانع المركب، مع أنه أيضا معان من الله تعالى في هذا الصنع، كما يطلق على البشر بكونه عالما مع أن الله تعالى هو العالم وحده بمعناه الحقيقي..من هنا قال تعالى فتبارك الله الله أحسن الخالقين... ـ والله أعلم .

الخوف والرّعب بالنّسبة للدّنيا (و) بالنّسبة للآخرة (**مأواهم النّار وبئس مثوى الظّالمين**) أي المتجاوزين الحقّ بالكفر والإشراك. وفي هذه الآية معجزة لأنّها أخبرت عن المستقبل كما وقع؛ فإنّ المشركين دخل في قلوبهم الخوف فرجعوا في أحد إلى مكّة مع قوّتهم وغلبتهم، وفي الطّريق قال أبو سفيان: قاتلناهم حتّى غلبناهم فتركناهم، فلنرجع لنستأصلهم. فقال صفوان لا ترجعوا فإنّ القوم قد غضبوا وأخاف أن يكون لهم قتال غير الّذي كان، فدخل في قلوبهم الرّعب فرجعوا إلى مكّة، وبعد حرب أحد لم تقع معركة إلّا كان النّصر للمسلمين والهزيمة لأعدائهم، ويشهد بذلك التّأريخ بوضوح. ثمّ أراد الله تعالى أن يُبيّن بأنّ الهزيمة كانت لسبب منهم، وهو أنّه لما وصلوا أحد رتّبهم الرّسول وبوّأهم مقاعدهم للقتال، وقال لهم لا يتركنّ أحد منكم مكانه، فلمّا بدأ القتال وصبر المسلمون واتّبعوا أمر الرّسول (ﷺ) نصرهم الله تعالى فانهزم المشركون شرّ هزيمة، فلمّا رأى المسلمون إنهزام المشركين تركوا مكانهم وتوجهوا إلى جمع الغنائم، فخلا السبيل، واغتنم الأعداء هذه الفرصة للكرّ عليهم، فكرّوا وغلبوهم وانهزم المسلمون، ثمّ لمّا دعا الرّسول (ﷺ) المسلمين وقال: إليّ ياعباد الله فالتفّوا حوله، إنهزم المشركون مرّة أخرى ودخل في قلوبهم الخوف فرجعوا متّجهين نحو مكّة، ولذِكر هذه الحقيقة قال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

(**ولقد صدقكم الله وعده**) بنصركم، بقوله: (كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) - سورة الرّوم الآية/ ٤٧، وقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم﴾ سورة محمّد الآية/ ٧، فنصركم حينما بدأتم بالقتال نصراً عظيماً (**إذ**) وقتما كنتم (**تحسّونهم**) تقتلونهم قتلاً ذريعاً وانقتل إثنان وعشرون من المشركين فانهزموا شرّ هزيمة ودام نصركم (**حتى إذا فشلتم**) أصابكم الضّعف(**وتنازعتم**) من عطف السّبب على المسبّب فالمعنى، فشلتم حيث تنازعتم (**في الأمر**) أي أمر الرّسول (ﷺ) من قوله لا يتركن أحد منكم كأنّه (**وعصيتم**) أمره هذا (**من بعد ما أراكم**) الله تعالى (**ما تحبّون**) من النّصر والظّفر بالأعداء، ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة نزاعهم فقال: (**منكم**) أي يوجد منكم (**من يريد الدّنيا**) فترك مكانه وتوجّه إلى الأسلاب والغنائم ليجمعها (**و**) وجد (**منكم من يريد الآخرة**) بإمتثال الأمر والثّبوت مكانه.فثبت (**ثمّ**) بعد هذا النزاع والتفرّق (**صرفكم**) أي صرف الله نصركم (**عنهم**) عن المشركين وذلك (**ليبتليكم**) ليمتحنكم فيتبين من يصبر ولا يجزع عند المصائب، ومن لا يصبر فيجزع (**ولقد عفا عنكم**) أي عن الّذين تركوا مكانهم وعصوا بذلك أمر الرّسول (ﷺ) وأصبح سبباً للهزيمة (**والله ذو فضل على المؤمنين**) وبفضله عفا (**إذ تُصعدون**) أي واذكروا إذْ تفرّون وتنهزمون (**ولا تلوون**) ولاتلتفتون (**على أحدٍ و**) كان (**الرّسول يدعوكم في أخراكم**) أي في ساقتكم[1] إلى خلفكم وفيه مدح للرّسول (ﷺ) فإنّ الأخرى هي موقف الأبطال فكان يناديكم، إليّ عباد الله، (**فأثابكم**) أي جزاكم الله تعالى بسبب هذه المخالفة (**غمّاً بغم**) أي غمّاً وهو فوت الغنيمة مهموماً (بغم) آخر وهو الإنهزام، وجزاكم هذا الجزاء (**لكيلا تحزنوا**) أي لكي تتدرّبوا وتتعلّموا على تحمّل المصائب فلا تحزنوا (**على ما فاتكم**) مثل الغنيمة (**ولا ما أصابكم**) من إستشهاد البعض (**والله خبير بما تعملون**) فكونوا على علم دائماً بهذه المراقبة من الله تعالى، فلا تعصوه (**ثم**) بعد ذلك (**أنزل**) الله تعالى (**عليكم أمنة**) أمناً واطمئناناً

(١) موضع قيادة الجيش / لسان العرب ١٠/ ١٦٧.

(نعاساً) أي نمتم في هذا الأمن نوماً؛ لأنّ النّوم لا يأتي عند الخوف، فالخائف لا ينام، فأمن المسلمون حيث انهزم المشركون ورجعوا إلى مكّة فنزل أمن **(يغشى طائفة منكم)** وهم المؤمنون، **(وطائفة)** وهم المنافقون، لم يناموا لأنّهم **(قد أهمّتهم أنفسهم)** أي حملتهم أنفسهم على الهمّ والخوف،حيث كانوا يخافون أن يرجع إليهم جيش المشركين وكانوا **(يظنّون بالله غير الحقّ)** أي ظنّاً غير حق وظنّاً مثل **(ظنّ الجاهليّة)** وهو أنّهم لو لم يأتوا لهذه المعركة ما قتل وما مات منهم أحد، وكانوا **(يقولون)** للمؤمنين في ظاهر القول **(هل لنا)** أي ما لنا **(من الأمر)** من أمر الله **(من شيء قل إنّ الأمر كلّه لله)** وليس لأحد شيء من الأمر وفي أيّ شيء ولكن **(يخفون)** أي يريدون بقولهم **(هل لنا من الأمر من شيء في أنفسهم ما)** أي معنى **(لا يبدون)** لا يُظهرونه **(لك)** يا محمّد (ﷺ) وذلك هو أنّهم **(يقولون)** في أنفسهم وفيما بينهم **(لو كان لنا من الأمر)** أي من السّلطة والقوّة شيء لما جئنا ههنا و**(ما قتلنا)** أي لما قتل من عشيرتنا **(ههنا)** ولكنّا جئنا مكرهين **(قل)** يا أيّها النبيّ، إنّ الله تعالى قد قدّر عليكم أن تُقتلوا سواء جئتم إلى هنا أو لا، بل حتّى و **(لو كنتم)** أنتم ومن قتل منكم **(في بيوتكم لَبَرزَ)** لخرج **(الذين كتب عليهم القتل)** لقتالكم **(إلى مضاجعهم)** فقتلوهم هناك، لأنّ الله تعالى قدّر قتلهم على أيديهم، وما قدّر الله تعالى كان **(و)** فعل تعالى ما فعل بكم في أحد **(ليبتلي)** ليظهر **(الله ما في صدوركم)** من إخلاص المؤمنين ونفاق المنافقين **(ولِيُمحّص)** وَليميّزَ **(ما في قلوبكم)** من إخلاص المخلصين وتكسل الضّعفاء ونفاق المنافقين **(والله)** تعالى **(عليم بذات الصّدور)** وبكل ما فيه وليس بحاجة إلى الإمتحان، إلّا أنّه أراد أن يظهر ما علم هو للنّاس فيعملوه أيضاً، ليميّز الخبيث من الطّيب، وكلّ إمتحان ينسب إلى الله تعالى فهو بهذا المعنى، أو بمعنى: ليتعلّق علمه بالشّيء وهو موجود كما كان متعلقاً به في الأزل وهو معدوم[١].

ثمّ أراد الله تعالى أن يطمئن المسلمين ويزيل خوفهم من العذاب في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما بسبب مخالفتهم للرّسول وإنهزامهم وتركهم أماكنهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٥٥﴾﴾

---

(١) أو لعل الإمتحان لإقامة الحجة على العباد أو لهم عند الحساب.

(إنّ **الّذين تولّوا**) وانهزموا وهم (**منكم**) أيّها المسلمون فتولوا (**يوم التقى الجمعان**) أي التقى جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد (**إنما استزلهم**) أي إنّما أوقعهم الشّيطان في هذه الزلّة (**ببعض ما كسبوا**) وهو مخالفة أمر الرّسول (ﷺ) حيث قال لايتركنَّ أحد منكم مكانه (**ولقد عفا الله عنهم**) حيث (**إنّ الله غفور**) لعباده (**حليم**) ذو حلم فلم يغضب عليكم؛ لأنّكم ما تركتم مكانكم بقصد المخالفة والفرار من الزّحف، بل لأنّكم إعتقدتم أنّ المشركين انهزموا ولم يبق حاجة إلى ثبوتكم في مكانكم. فتبيّن من هذا أنّ مخالفة الأمر لتأويله معقول مغفور، ولكنّ العمل وفق الأمر مأجور، فإن قيل: إنّ مخالفة الأمر بتأويل إجتهاد، والمجتهد إن أخطأ فله أجر واحد وإن أصاب فله أجران، فيلزم أن يكون صاحب التأويل مأجوراً لا مغفوراً فقط.. قلنا هذا صحيح إلّا أنّ الأمر في القتال أشدّ، وإنّه دخل في تأويلهم هذا ميل إلى الدّنيا حيث أرادوا جمع الأسلاب والغنائم؛ ولذلك تركوا مكانهم بهذا التأويل، ولو كان للتّأويل فقط، لاستحقوا الأجر أيضاً ولم يعاقبوا[1]، كما لم يعاقب من خالف أمر الرّسول حيث ذهب إلى بني قريظة فقال: لايصليّن أحد العصر الّا في بني قريظة، فقال بعضهم إنّ الرّسول أراد الإستعجال فصلّى وراح، وبعضهم تمسّك بالنّص حرفيّاً فلم يصلِّ العصر إلا في بني

---

(١) لعل المسألة هي أن الأعمال الحربية من الأمور العادية التي تتبع فنون الحرب لأجل الإنتصار لا يجوز فيها التصرف وفق إجتهاد لأفراد الجيش بل الإجتهاد فيها هنا للأمراء العالمين بفنونها وعلى الجنود الطاعة المحضة مالم يكن فيها معصية، وإن رأى الجنود رأيا أنفع لفن الإنتصار يعرض على الأمير فإن أمر به وإلا فلا بدليل ما روي أنه حينما نزل رسول الله (ﷺ) في مكان غير مناسب حربيا قال له الخباب بن المنذر: يارسول الله، منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتعداه ولا نقصر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله (ﷺ) بل هو الرأي والحرب والمكيدة،فقال الحباب يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل! ولكن انهض حتى تجعل القلب كلها من وراء ظهرك ثم غور كل قليب بها إلا قليبا واحدا ثم احفر عليه حوضا فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقال رسول الله (ﷺ) قد أشرت بالرأي ففعل ذلك. / دلائل النبوة ١/ ٣٥، والسيرة الحلبية ٢/ ٣٩٣. فخباب (رضي الله عنه) لم يتصرف باجتهاده وإنما عرضه على النبي (ﷺ) فأمر النبي (ﷺ) كقائد جيش بما أشار عليه، أي جعل الأمر مركزيا، فإن سمح لكل أحد التصرف وفق مايراه يصبح الأمر فوضى يؤدي إلى الخسارة. لذلك كان نزول الرماة وفق رأيهم لجمع الغنائم مخالفة لأمر النبي (ﷺ) لا اجتهادا، والمخالفة في الحرب يعد جريمة وإن خرج بغير قصد المخالفة، والجريمة لها عقابها في الإسلام وإن كان خطأ كما في وجوب الدية في القتل الخطأ والكفارة فيه وفي غيره لتكفير الذنب. لذلك احتاج الرماة إلى الغفران والحلم معهم. والله تعالى أعلم.

قريظة، وفاتت صلاة بعضهم فلم يعاقب من صلّى قبل الوصول إلى بني قريظة لأنّه فعل ذلك بتأويلٍ محضٍ، ولم يدخل فيه حظّ من منافع الدّنيا[1]، وبهذا يعرف أنّ التّأويل لمجرد الإجتهاد مأجور، ولمنفعة الدّنيا غير مأجور والله تعالى أعلم. ثمّ أراد تعالى أن يوجّه المسلمين إلى أصالة عقيدة الإسلام، وهي أنّ ماقدّر الله تعالى كان البتة، وما لم يقدر لا يكون قطعاً، وإنّ الأسباب لا تغيّر مقادير الله تعالى ولا تؤثّر في قضائه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

(**يا أيّها الّذين آمنوا لا تكونوا كالّذين كفروا**) في عقيدتهم وقولهم؛ لأنّهم كفروا بقدر الله تعالى وقضائه حيث (**وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض**) للتّجارة أو للسّياحة أو لأمر آخر فماتوا (**أو كانوا غزىً**) مجاهدين فقتلوا (**لو كانوا عندنا**) ولم يسافروا أو ما خرجوا للجهاد (**ما ماتوا وما قتلوا ليجعل**) اللّام لام عاقبة، فمعناه أنّ هذه العقيدة ونتيجتها أنّه (**يجعل الله ذلك**) هذه العقيدة (**حسرة في قلوبهم**) وإنّ هذه العقيدة باطلة، وقولهم هذا باطل أيضاً لأنّ السّفر لا يميت، فربّ مسافر رجع وقد مات المقيم، وربّ مجاهد رجع وقد مات القاعد، فالموت والحياة ليست بالسّفر ولا بالجهاد، بل (**والله يحيي**) من يشاء وإن كان مسافراً أو مقاتلاً (**ويميت**) من يشاء وإن كان مقيماً

---

(١) الحديث كما رواه البخاري عن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: قال النبي (ﷺ) يوم الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها وقال بعضهم بل نصلي ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي (ﷺ) فلم يعنف واحدا منهم./ صحيح البخاري ٤/ ١٥١٠ الحديث رقم ٣٨٩٣. وفي رواية الطبراني: وخرجوا فلم يأتوا بني قريضة حتى غابت الشمس، فاختصم الناس في غزوتها في صلاة العصر، فقال بعضهم قد عزم علينا أن لا نصلي العصر حتى نأتي بني قريظة، وإنما نحن في عزمة من رسول الله (ﷺ)، فليس علينا إثم، فصلت طائفة منهم العصر إيمانا واحتسابا، وطائفة أخرى لم يصلوا العصر حتى أتوا بني قريظة بعدما غابت الشمس فصلوها إيمانا واحتسابا، فلم يعنف رسول الله (ﷺ) واحدة من الطائفتين./ المعجم الكبير للطبراني ١/ ٧٩ الحديث رقم ١٦٠.

وقاعداً (**والله بما تعملون بصير**) فيجازيكم عليه بعد الموت إن خيراً فثوابٍ جزيل وإن شراً فبعذابٍ وبيل. ثمّ ذكر الله تعالى أنّه لا ينبغي للمسلم أن يتأسّف على من قتل أو مات في سبيل الله، فإنّ ذلك الموت خير له؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

(**ولئن قتلتم أو متّم في سبيل الله**) فلا تحزنوا ولا تتأسّفوا؛ حيث وبعزّتي (**لمغفرة**) كثيرة يورثها القتل أو الموت في سبيل الله (**من الله ورحمة**) أي وجنّة (**خير**) بكثير (**ممّا يجمعون**) أي مما يجمعه الأحياء من منافع الدّنيا وأموالها، لأنّ الدّنيا زائلة ونعيم الجنّة الحاصل بتلك المغفرة دائم لا يفنى ولا يزول، وإنّه خال من كلّ كدر وتعب وغصص، ونعيم الدّنيا لا يخلو من الغصص والأكدار (**و**) بعزّتي (**لئن متّم أو قتلتم لإلى الله**) لإلى رحمة الله الواسعة (**تحشرون**) لا إلى غيره، وكفى برَحمة الله نعمة ومنفعة وربحاً.

قال في تفسير الخازن: قسّم بعض العلماء العبوديّة إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: من عبد الله تعالى خوفاً من ناره، فأمّنه منها وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**لمغفرة من الله**﴾.

الثّاني: من عبد الله شوقاً إلى الجنّة فأناله الله تعالى ما اشتاق إليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى (**ورحمة خير... إلخ**) لأنّ الرّحمة هنا بمعنى الجنّة.

الثّالث: من عبد الله تعالى إبتغاء وجهه ورضوانه، فهذا هو العبد المخلص الّذي يتجلى له الحقّ في دار كرامته، وإليه الإشارة بقوله: (**لإلى الله تحشرون**). أللّهم فارزقناه آمين[1]. ثمّ إنّ من عادة القُوّاد أنّ الجنود حينما يُخطئون ويخالفون التّخطيط الحربي يعنّفهم القائد ويعاقبهم، إلّا أنّ رسول الله (ﷺ) لم يعّنف أحداً ممن ترك مكانه وأصبح سبباً للهزيمة وانهزم؛ فقال جلّ وعلا مؤيداً لهذا الخلق العظيم:

---

(١) ويمكن أن نضيف نوعا رابعا وهو: من عبد الله عرفانا لحقه تعالى أن يعبد لأنه الإله بمعنى المعبود، وفقا لقول النبي: (إن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشرك به شيئا) / البخاري ٣٠٨/٧ الحديث رقم ٢٨٥٦.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

(فبما) أي بسبب أمر عظيم ثمّ فسّره تعالى بقوله: ﴿**رحمة من الله**﴾ فالمعنى فبسبب أمر عظيم وهو رحمة الله تعالى **(لنت لهم)** فتساهلت معهم وماعنَّفْتَ أحداً منهم، وهذا الخلق عظيم ومفيد لأنّه **(لو كنت فظّاً)** أي قاسياً **(غليظ القلب)** وقليل التّحمل **(لانفضّوا)** لتفرّقوا **(من حولك)** من عندك، فالحلم والتّسامح سبب لجمع النّاس واتّباعهم، والعنف سبب لتفرّقهم وعدم طاعتهم **(فاعف عنهم)** مما صدر منهم **(واستغفر لهم) من** الله تعالى **(وشاورهم في الأمر)** أي في الأمور التي لم يرد فيها نصّ من الله تعالى ولم يوح إليك فيه بشيء، وذلك من أمور الدّنيا وإدارة النّاس وسياسة الأمور[1] **فإذا عزمت)** على أمر بعد المشورة والتّداول فيه فامض إلى ذلك الأمر **(فتوكّل على الله)** لا على غيره **(إنّ الله يحبّ المتوكّلين)** فينصُرهم ويصيبهم الخير والفوز والفلاح، وإن توكّلتم على غيره فلا تفلحون.

تنبيــه: أمر اللهُ تعالى رسوله بالمشاورة مع كمال عقله وجزالة رأيه ونزول الوحي إليه ووجوب طاعته على النّاس، وذلك لأنّ المشاورة أجلب لقلوب النّاس وأذهب

(١) الأمر نوعان: أمر ديني وهو ما يخضع لأحكام الشرع كالعقائد والعبادات ومافيه تنظيم للعلاقات الإجتماعية فتدخل تحت الأحكام الشرعية من الوجوب والندب والحرمة والكراهة والإباحة والصحة والبطلان فلا يجوز مخالفة الشرع فيها واتباع رأي البشر فيها. وأمر عادي وهو مالا يخضع لتلك الأحكام كخطط الحرب وهندسة البناء وعلوم الصناعة وفنون الزراعة وما مثلها فهذا مما لا يتدخل فيه الشرع إلا إذا كان لها علاقة بالحلال والحرام كحرمة صناعة المحرمات وجعل البناء مكشوفا فيها العورات وزراعة الأفيون.. وما مثله، لذلك فإن الفصل بين الأمرين دقيق فانتبه لذلك وهذا ما قصد به النبي (ﷺ) في قوله: ما كان من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم وما كان من أمر دينكم فإليّ/ شرح مشكل الآثار ٤/ ٤٢٤، وإلا فالدنيا يجب أن تنتظم بالدين فلا يفهمن أحد منه فصل الدين عن الدنيا.لأن المقصود بالدين هنا ما يخضع للحكم الشرعي وبالدنيا ما لا يخضع له.

لأضغانهم؛ لأن النّاس إذا لم يشاوروا في الأمور شقّ عليهم ذلك، فيجب على أفراد الأمّة أن يستنّوا بالرّسول، وأن لا يتركوا المشاورة في الأمور، فإنّ ذلك أصلح لهم، ولكنّ اتّفق العلماء واجمعوا على أنّ كلّ ما ورد فيه نصّ من الكتاب أو السنّة فلا مشاورة فيه، لأنّ الأمر فيه موكول حسب ما ورد به النّص[١]، وإنّما المشاورة فيما لم يوجد فيه نصّ ليطّلعوا على نصّ أو يعملوا فيه حسب المصلحة حينما ييئسون من وجود نصّ فيه، وهكذا كان الخلفاء الرّاشدون، وهكذا يجب أن يكون القادة والمقودون في الإسلام. قال عليّ (كرم الله وجهه): الإستشارة عين الهداية والتدبّر في الأمور قبل العمل يؤمّنك من النّدامة، وقيل: (ما خاب من استخار ولا ندم من استشار)[٢]. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى أن يتوكّل المسلمون على الله وحده لا على غيره علّل ذلك بقوله جلّ وعلا: **(إن ينصركم الله فلا غالب)** موجود **(لكم)** ليغلبكم **(وإن يخْذلكم)** بعد تأييده لكم **(فمن ذا الّذي ينصركم)** يؤيدكم ويجعلكم غالبين على الأعداء **(من بعده)** أي من غيره، والإستفهام للإنكار أي لا يوجد أحد ينصركم عند خذلانه لكم، فإذا كان الأمر كذلك، فليثق المؤمنون به وحده **(وعلى الله)** تعالى وحده **(فليتوكل المؤمنون)** لا على غيره، قال القرطبيّ: قال بعض من المتصّوفة: (لا يكون المرء متوكّلاً إلّا إذا لم يخالط قلبه خوف من عدوّ أو سبع) وخالف ذلك عامّة الفقهاء وقولهم هو الصّحيح[٣]؛ فإنّ الحذر واجب، واتّخاذ الأسباب فرض، وقد خاف موسى (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ سورة طه الآية/ ٦٧، وكان في أعلى درجات التوكّل،

---

(١) إن المشاورة في النص يكون في الإجتهاد فيه وفي كيفية تطبيقه وظروفه وملابساته المناسبة لتطبيق أو تأجيل تطبيقه كما أن الإمام عمر لم يقطع يد السارق عام المجاعة وكذلك منع سهم المؤلفة قلوبهم رغم وجود النص فيهما..

(٢) في كشف الخفاء ١٥/ ٥١٧ وغيره ذكروه قولا، ولكنه حديث فيما روي عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد. / المعجم الصغير للطبراني ٦/ ٣٦٥ الحديث رقم ٦٦٢٧. وهوضعيف، أنظر التيسير بشرح الجامع الصغير ٢/ ٣٤٨

(٣) الخوف خوفان: خوف غريزي فطري لايسلم منه أحد ولا يلام عليه كالخوف من الحيوان المفترس، وهذا يتغلب عليه بالشجاعة و قوة الإيمان، وخوف ناشئ من حبّ الدّنيا وشهواتها والركون إليها لضعف الإيمان أو عدمه، وهو قبيح و مذموم مخالف للتّوكل وحقيقة الإسلام والإيمان المتّصفين بالإحسان كالخوف من القتل في الجهاد، وهذا يتغلب عليه أيضا بصحيح الإيمان وإحسان الإسلام.. والله أعلم.

كيف لا وإنّه من أولي العزم (صلوات الله وسلامه عليهم وعلى أممهم أجمعين) آمين.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

(وما كان) أي وما يليق ولا يمكن **(لنبيّ أن يغلّ)** لأنّ النبيّ معصوم والغلول، هو أخذ شيء من الغنيمة خيانة فهو حرام بدليل **(ومن يغلل)** يأخذ شيئاً من الغنيمة خيانة **(يأت بما غلّ)** وهو حامله **(يوم القيامة)** وقيل: يأتي بإثم ما غلّه ويعاقب عليه يوم القيامة كما قال: **(ثم توفّى كلّ نفس ماكسبت وهم لا يظلمون)** فلا ينقص من خيرهم شيء ولا يحمل عليهم مالم يعملوا، ﴿هم درجات عند الله﴾ أي أنّ أهل الخير لهم درجات في الجنّة أي متفاوتون فيها بعضهم فوق بعض على قدر أعمالهم، كما أنّ أهل النّار لهم دركات فيها بعضهم أسفل بعض حسب ذنوبهم، **(والله بصير بما يعملون)** أي عالم بأعمالهم ودرجاتها فيجازيهم على حسبها فلا يتساوون فيها[١].

ثمّ ذكر تعالى أنّه لا يساوي بين المطيع والعاصي بسبب الغلول أو غيره فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

(أفمن اتّبع رضوان الله) وعمل لذلك، ولم يعمل للغلول أو للغنيمة أو لمنافع أخرى يكون عند الله **(كمن باء)** إبتلى **(بسخط من الله)** تعالى بسبب الغلول أو معاصٍ أخرى **(ومأواه جهنّم وبئس المصير)** والإستفهام للإنكار فالمعنى: لا يكون هذان الصّنفان سواءً بل **(هم درجات عند الله)** أي أصحاب درجات عنده، فللصّنف الأوّل من النّعيم وللصّنف الثّاني من العذاب **(والله بصير بما يعملون)** من الصّنفين، فيجازي كلّاً حسب ما يستحقّ من الثّواب أو العقاب. ثمّ إنّ بعض ضعفاء الإيمان وأصحاب القلوب المزّيفة

(١) ما تحته خط من إضافتي سدا للنّقص لأنّ الظّاهر أنّ الشّيخ الوالد رحمه الله تعالى إمّا نسيها أو قدّم وأخّر بقصد توضيح المعنى أكثر.

كان يختلج في قلوبهم التّشاؤم من الرّسول ومجيئه، ويوسوس إليهم الشّيطان بأنّه لولا مجيئه لما وقعت هذه المعركة ولمّا قتل هؤلاء النّاس؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

(**لقد مَنَّ**) أحسنَ وأنعمَ (**الله**) نعمة عظيمة لا يمكن صدورها إلّا منه (**إذ**) تعليل وبيان للنّعمة، فالمعنى: لأنّه (**بعث**) أرسل (**إليهم رسولاً من أنفسهم**) جنساً، لأنّه إنسان وليس بجنيّ أو ملك لا يمكن المعايشة معه، وهو من أهل لغتهم فيسهل التّفاهم معه، ثمّ فصّل تعالى كون الرّسول نعمة فقال: (**يتلو عليهم آياته**) أي آيات الله تعالى وأحكامه، وكانوا قبل ذلك في جاهلية لا يعرفون من أحكام الله تعالى شيئاً، فأخرجهم من الضّلالة إلى الهدى ومن الجهل إلى العلم (**ويزكّيهم**) ويطهّرهم من الأخلاق الفاسدة وسفاسف الأمور، وبذلك أخرجهم من الفوضى إلى النّظام ومن التّفرقة إلى الوحدة ومن الذلّ إلى العزّه (**ويعلّمهم الكتاب**) وهو القرآن (**والحكمة**) وهو إتقان العلم بالحقّ والعمل به (**وإن**) وقد (**كانوا من قبل**) مجيئه (**لفي ضلال مبين**) فكانوا في تفرقة وجهل، وفوضى وذلّ، وعبادة للأصنام والأوثان، وسوء من الخلق والأعمال، فوحدهّم وعلمّهم ونظّمهم وأعزّهم وساقهم إلى عبادة الله الواحد الأحد، وإلى الأعمال الصالحة ومحاسن الأخلاق، وبذلك أصبحوا سادة في الأرض، ودانت لهم كلّ الشّعوب والأقوام، فأصبحوا سادة العالم وقادة الأرض، كلّ ذلك بسبب هذا المنهج العظيم منهج الله، كتاب الله وسنّة رسوله الكريم (ﷺ) فلا نعمة أعظم من هذه النّعمة. ثمّ ردَّ على تشاؤمهم بسبب هذه المعركة فقال جلّ وعلا:

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

(**أَوَ**) بعد هذه النّعمة العظيمة (**لمّا أصابتكم مصيبة**) في أحد حيث استشهد منكم سبعون رجلاً والحال أنّكم (**قد أصبتم**) من الأعداء (**مثليها**) في بدر حيث قتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين، وفي أُحد قتلتم منهم كثيرين (**قلتم أنىّ**) من أين جاء (**هذا**) الشؤم (**قل**) لهم أيّها النبيّ (**هو**) أي أنّ هذا الشّؤم جاء (**من عند أنفسكم**) لأنّكم ألححتم على الرّسول فأخرجتموه من المدينه إلى أُحد وكان يكره الخروج، ثمّ أمركم بالثّبات في أمكنتكم فتركتموها، وتوجّهتم إلى جمع الغنائم، وأعطيتم المجال للعدوّ فكرّ عليكم وانهزمتم (**إن الله على كلّ شيء قدير**) من نصركم وخذلانكم، فلم ينصركم لمخالفتكم لتعتبروا فتلتزموا بالأمر ولا تخالفوه (**وما أصابكم**) من الهزيمة والإستشهاد (**يوم التقى الجمعان**) وهو يوم أحد (**فبإذن الله**) كانت تلك الإصابة والخذلان تأديباً لكم (**وليعلم الله**) تعالى أي يُظهر (**المؤمنين**) منكم (**وليعلم الّذين نافقوا**) أي ليُظهرهم فيميزّهم وليطلع النّاس عليهم (**وقيل لهم**) عطف على نافقوا، أي الّذين نافقوا والّذين قيل لهم: (**تعالوا قاتلوا في سبيل الله**) تعالى جهاداً (**أو ادفعوا**) عن أنفسكم وأهلكم وعشيرتكم فلم يأتوا، بل (**قالوا لو كنّا نعلم قتالاً**) صحيحاً (**لاتّبعناكم**) ولكنّكم أخطأتم في تخطيط القتال وقيل معناه: لو نعلم أنّ اليوم تقاتلون لاتّبعناكم (**هم**) أي هؤلاء الّذين تخلفوا عن معركة أحد وهم: عبدالله بن أبي بن سلول وجماعته (**للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان**) وينافقون حيث (**يقولون بأفواههم ما**) قولاً (**ليس**) ذلك القول (**في قلوبهم**) فتبيّن من هذا أنّ كلّ من خالف قوله ما في قلبه من العقيدة أو من أمور أخرى فهو منافق. قال رسول الله (ﷺ): (آية المنافق ثلاث ـ أي ثلاث خصال ـ إذا حدَّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[1] والله أعلم منكم (**بما يكتمون**) في قلوبهم فيعاقبهم على ذلك (**الّذين قالوا لإخوانهم**) أي في حقّ إخوانهم الّذين استشهدوا في أحد (**وقعَدوا**) هم فما خرجوا معهم إلى أُحد (**لو أطاعونا**) فقعدوا معنا ولم يخرجوا

(١) صحيح البخاري ١/ ٢١ الحديث رقم ٣٣.

للقتال (**ما قتلوا**) هناك (**قل**) لهم أيّها النّبيّ (**فادرأوا**) أي فادفعوا (**عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين**) في قولكم إنّ الموت تأتي به الأسباب والحوادث، بل إنّ الموت بإرادة الله تعالى؛ فلا يموت من لم يرد الله موته ولو اجتمعت كلّ أسبابه أو الحوادث العظيمة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أن حال الشهداء أحسن من حالهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

(**ولا تحسبَنّ**) ولا تعتقدنّ أيّها المسلم (**الّذين قتلوا في سبيل**) نصرة دين (**الله أمواتاً**) هم (**بل أحياء عند ربّهم يرزقون**) حيث إن أرواحهم تكون في حواصل طيور خضر تسرح في الجنّة حيث شاءت فيأكلون من ثمار (**الجنّة**) كذا ورد في الحديث وكذا في الجلالين. وفي صحيح مسلم عن مسروق قال سألنا عبدالله عن هذه الآية (**ولا تحسبّن .... إلخ**) فقال أمّا إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله (ﷺ) فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع عليهم ربّهم إطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا، ففعل تعالى بهم ثلاث مرّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يارب نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أخرى فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا)[1] وبعد أن ذكر الخازن هذا الحديث قال: وهذا دليل على أنّ الجنّة مخلوقة الآن، وهو مذهب أهل السّنة خلافاً للمعتزلة، أقول: وهذا صحيح بل ويدل على أنّ الجنّة تحت العرش وفوق الكرسي كما لا يخفى، ثمّ قال الخازن: وفيه دليل أيضاً على أنّ الأرواح باقيةٌ لا تفنى بفناء الجسد وإنّ المحسن ينعم في البرزخ قبل يوم القيامة، وإنّ المسيء يعذّب أيضاً هذا. وإن هذا الحديث يورث إشكالين:

الأوّل: هو أنّه يؤيد مذهب أهل التّناسخ وهو إنتقال الرّوح من جسد إلى جسد

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٥٠٢ الحديث رقم ١٨٨٧.

غيره، فإنّ كان صاحب الرّوح محسناً فإلى جسدٍ حسن، وإلّا فإلى جسد قبيح، وإنّ هذا المذهب باطل، وأجاب عن هذا الإشكال الخازن بأنّ معنى الحديث: أنّه ينفصل جزء من جسد الشّهيد ويصير طيراً وتتعلّق به الرّوح ويتلذّذ، فلم يكن هناك إنتقال من جسد إلى جسد أجنبي.

الثّاني: هو أن يكون التنّعم والعذاب للرّوح فقط لا للبدن والرّوح، لأنّ البدن هو بدن الطّائر لا بدن الشّهيد، والجواب عنه نفس الجواب، فإنّه ما دام الطّير متكوناً من بعض جسده فالنّعمة كانت للرّوح والجسد معاً. وإنّي أقول: إن هذا تكلفٌ ويخالف ظاهر الحديث. فإذاً لابدّ في أن نقول: إن التّنعم والعذاب في البرزخ يجوز أن يكون للرّوح فقط، وأمّا في القيامة فيكون للرّوح والجسد معاً، وأنّ التّناسخ وهو إنتقال الرّوح من بدن إلى بدن آخر، إنّما هو باطل؛ لأنّ أهل التّناسخ ينكرون الحشر والحساب، وعندهم أنّ التّعيم والثّواب للصّالح والعذاب للفاسق إنّما هو في الدّنيا، فالصّالح عندهم بعد ما يموت تنتقل روحه إلى جسد طيّب منعّم في الدّنيا ويرجع إلى الدّنيا، وأمّا الفاسق فتنتقل روحه بعد الموت إلى جسد سّيء معذّب في الدّنيا، وقبيح كالكلب أو الخنزير أو حيوان سافل مثل الحمار. وأمّا إذا اعترف أهل التناسخ بالحياة بعد الموت والحشر والنّشر والحسب والنّعيم يوم القيامة في الجنّة والعذاب في النّار وخراب الدّنيا ومجيء يوم القيامة، فلا قباحة في القول بأنّ الرّوح تكون في بدن آخر غير بدنه الّذي كان في الدّنيا أي يخلق الله له بدناً ويرجع إليه، كيف وإنّ الحديث يخبر بأنّ أهل الجنّة جرد مرد[1]، فالشّيخ الهرم الّذي مات من الهرم، هل كان جسده جرداً مرداً حينما مات، والصّبيّ الّذي يموت هل هو جرد مرد؟ فلا شكّ أنّ الجسد الذي ينعم فيه الرّوح أو يقذر، ليس الّذي كان فيه في الدّنيا وإن كان مصنوعاً من أجزاء بدنه الّذي مات فيه. وهناك دليل آخر على تغيير البدن، فإنّ أهل الحق يقولون أنّ الإعراض وكذا الجواهر لا تبقى لحظة بل في كلّ لحظة تفنى جواهر البدن وأعراضه، ويكون بقاء الجسم بتجدّد الأمثال، وذلك مثل الشّط تراه نفس الشّط[2] ولكن في كلّ لحظة تتبدّل أجزاء مياهه، وإنّما صورته تبقى بمجيء مياه مكان مياهه فوراً دون تخلّل وفتور، فعلى هذا يكون

---

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله:أهل الجنة جرد مرد كحل لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم./ سنن الترمذي ٤/ ٦٧٩ الحديث رقم ٢٥٣٩ وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أي النهر الكبير كدجلة والفرات.

جسد الإنسان حتى في الدّنيا متبدلاً دائماً، وأنّ جسدك الآن ليس هو جسدك غداً أو أمس أو قبل الآن أو بعده، وقد أثبت العلم الحديث أنّ في كلّ دقيقة تفنى ملايين الخلايا من الجسم وتأتي مكانها خلايا جديدة، وأقرّ الأطباء كلّهم بذلك، ثم إنّ أهل التّناسخ أخطؤوا من جهة أخرى، وهي أنّهم يظنّون أنّ روح الإنسان قد تنتقل إلى بدن غير إنسان، كحمار أو كلب مثلاً، ولكنّ الحشر عندنا هو إرجاع الرّوح الإنسانية إلى بدن إنساني لاغيره، كما نطقت بذلك الآيات والأحاديث بأنّ الأنسان سواء الفاجر منه والصّالح يحشر إنساناً لا غيره، وأمّا في البرزخ فلا مانع من أن يكون قوالب مثل الطّير تعيش فيها روح الإنسان وتتنعّم فيها حيث ورد النصّ فيه. فالتّناسخ أي نسخ الأبدان إنّما هو باطل بالمعنى الّذي يريده أهل التّناسخ لا مطلقاً، ولذلك يقول العلاّمة سعد الدّين التّفتازاني في شرح العقائد النّسفيّة وما من مذهب إلّا وللتّناسخ فيه قدم راسخ. فالتّناسخ الّذي لا يصادم نصوص الكتاب والسنّة ولا يخالفها لا بأس بالقول به.

خاتمة في مسائل تتعلّق بالشّهيد:

المسألة الأولى: الشّهيد نوعان:

الأوّل: من قتل في معركة الإيمان والكفر والقتال في سبيل الله ونشر دينه الحنيف ويسمّى هذا شهيد الدّنيا والآخرة.

الثّاني: ما عدّه الرّسول شهيداً وهو المطعون والغريق ومن مات بذات الجنب والمبطون، وهو الميّت بداء البطن والحريق، والّذي مات تحت الهدم، والمرأة الّتي تموت بالولادة، ومن قتل دون ماله أو عرضه أو نفسه، ويسمّى هذا شهيد الآخرة فقط، فهؤلاء يغسلون ويصلّى عليهم. قال إبن قدامة في المغني: لا نعلم في ذلك خلافاً إلّا ما يحكى عن الحسن أنّه لا يصلّى على النّفساء لأنّها شهيدة. **الثّانية:** إنّ شهيد المعركة لا يغسل، قال إبن قدامة : لا نعلم فيه خلافاً إلّا عن الحسن وسعيد بن المسيّب قالا: يغسّل، والإقتداء بالنبيّ (ﷺ) أولى لأنّه لم يغسل شهداء أحد.

الثّالثة: إنّ شهيد المعركة لا يصلّى عليه عند مالك والشّافعي وفي رواية عن أحمد (رضي الله تعالى عنهم)، ويصلّى عليه عند أبي حنيفة ورواية عن أحمد، وعند إبن حَزْم المرء مخيّر بين الصّلاة عليه وتركها، حيث وردت أحاديث في الصّلاة عليه وفي تركها فالكلّ جائز. هذا كلّه في الشّهيد الّذي قتل ومات في المعركة، وأمّا إذا جرح وحمل حيّاً وعاش وأكل ثم مات من أثر الجرح فيغسل ويصلّى عليه إتفاقاً.

الرّابعة: من قتله البغاة، لا يغسل ولا يصلّى عليه عند أحمد وأبي حنيفة وللشّافعي

قولان، وقال مالك: كلّ قتيل غير قتيل معركة الكفر والإيمان يغسل ويصلّى عليه.

الخامسة: المقتول ظلماً أو دون ماله أو نفسه أو عرضه، قال أبو حنيفة: لا يغسّل ولكن يصلّى عليه وللشّافعي قولان. وعند أحمد يغسّل ويصلّى عليه، وقد عرفت قول مالك: أنّ كلّ قتيل سوى قتيل المعركة بين الكفر والإيمان يغسّل ويصلّى عليه. وأمّا الباقي فيغسّل ويصلّى عليه دون خلاف.

* * *

(**فرحين**) حال من الضمير في يرزقون أي يرزق الشّهداء (**فرحين**) مسرورين (**بما آتاهم الله من فضله**) من نعمتهِ وكرمه (**ويستبشرون**) ويفرحون (**بالذّنب**) بحال المؤمنين الّذين (**لم يلحقوا بهم**) بعد وهم أحياء (**ألّا**) أصله، أنْ لا، أي لأن لا، وأن مخففة إسمها ضمير الشأن المقدر تقديره لأنّ الشّأن أنّه (**لا خوف عليهم**) بعد الموت (**ولا هم يحزنون**) من فوات الدّنيا لأنّهم يخرجون إلى خير منها وهي الجنّة، وفرحوا بذلك لأنّهم شاهدوا وعلموا ما للمؤمنين من الثّواب سواء استشهدوا أو لا. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ عاقبة المؤمنين ليس هو الأمن من الخوف والحزن فقط، بل لهم الثّواب بالأجر الجزيل والنّعمة الوفيرة أيضاً، فقال جلّ وعلا: (**يستبشرون**) أي يفرحون (**بنعمة**) للمؤمنين (**من الله**) تعالى (**وفضل**) منه أي وزيادة على النّعمة مما يسرُّ به المؤمن كاللّقاء ورؤية الله تعالى ورضوانه (**و**) يفرحون من (**أنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين**) بل يثيبهم عليه. وفي هذه الآية إشارتان:

الأولى: أن الله يضيع أجر الكافرين فلا يثيبهم على أعمالهم الصّالحة كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٢٣، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ سورة الكهف الآية/ ١٠٥، لأنّ من شرط صحّة الأعمال وقبولها الإيمان. ثمّ أراد الله تعالى أن يمدح أصحاب أحد ويذكر ثوابهم فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

فقبل أن نبدأ بتفسير هذه الآيات الكريمة، نذكر قصّة تتعلق بالآيات ليكون القارىء على بصيرة من تفسيرها والقصّة هي مايلي:

لمّا انصرف أبو سفيان ومن معهُ من المشركين من أحد فبلغوا الرّوحاء ندموا على إنصرافهم فقالوا: لا محمّداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، قتلتموهم حتّى إذا لم يبق فيهم إلّا الشّريد تركتموهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فبلغ ذلك رسول الله (ﷺ)، فأراد أن يرهب العدوّ ويريهم من نفسه وأصحابه قوّة. فندب أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فانتدب جماعة من الأصحاب مع ما بهم من ألم الجراح والقرح الّذي أصابهم يوم أحد، فانصرف رسول الله (ﷺ)، حتّى بلغ حمراء الأسد، وهي من المدينة ثلاثة أميال، فمرّ برسول الله (ﷺ) معبد الخزاعي فقال: يا محمّد والله عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أنّ الله تعالى كان قد أعفاك فيهم، ثمّ خرج معبد من عند رسول الله (ﷺ) حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالرّوحاء وقد أجمعوا على الرّجعة إلى المدينة للقضاء على رسول الله (ﷺ) وأصحابه واستئصالهم، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً قال له: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمّد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أرَ مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرّقاً، وقد اجتمع معه كلّ من تخلّف عنه يوم أحد وندموا على صنيعهم وفيهم من الحنق عليكم شيء لم أرَ مثله قط، قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ فإنّا قد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم، فقال معبد: والله إنيّ لأنهاك عن ذلك، فوالله لقد حملني ما رأيت على أن قلت أبياتاً، قال. وما قلت؟ قال قلت:

أدت تهدّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيلِ

تردى بأسدٍ كرام لا تنابلة ... عند اللّقاء ولاميل معازيلِ

فقلت ويلُ ابن حرب من لقائكمْ ... إذا تَغطّمت البطحاء بالخيلِ

إنّي نذير لأهل السّبلَ ضاحية ... لكلّ ذي أوبة منهم ومعقولِ

من جيش أحمد لا وحشٌ يقابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيلِ

فثنى ما قال معبد أبا سفيان ومن معه، فندموا على ما قصدوا، ورجعوا نحو مكّة، ومرّ بهم ركب من عبدالقيس، فقال لهم أبو سفيان: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة للميرة. فقال لهم أبو سفيان: أبلغوا عنّا محمّداً بأنّا قد أجمعنا السّير إليهم لنستأصلهم، وانصرف أبو سفيان بمن معه نحو مكّة. ومرّ ركب عبد القيس برسول الله (ﷺ) وبلّغوه

بالّذي قال أبو سفيان فقال (ﷺ) وأصحابه: حسبنا الله ونعم الوكيل. ثمّ بعد أن علم الرّسول رجوع المشركين نحو مكّة إنصرفوا راجعين إلى المدينة.

* * *

(**الّذين استجابوا**) لبّوا (**لله**) نداء اللّه (**والرسول**) وقد كان النّداء من الرّسول فقط، فتبيّن أنّ نداء الرّسول (ﷺ) هو نداء الله، وأنّ أمره هو أمر الله، فاستجابوا لذلك النّداء وهو الخروج واللّحوق بالمشركين في طريق عودتهم إلى مكّة (**من بعد ما أصابهم القرح**) في يوم قبل النّداء، فخرج منهم من لا يزال ينزف الدّم من جراحه (**للّذين أحسنوا منهم**) فخرجوا (**واتّقوا**) مخالفة الرّسول (**أجرٌ عظيم**) لا يدرك كنهه (**الّذين قال لهم النّاس**) وهم ركب عبد القيس (**إنّ النّاس**) وهم المشركون أتباع أبي سفيان (**قد جمعوا لكم**) ليكرّوا عليكم (**فاخشوهم**) لأنّهم كثيرون وذو قوّة (**فزادهم**) قول هؤلاء النّاس (**إيماناً**) بنصر الله تعالى (**وقالوا حسبنا**) أي كافينا (**الله ونعم الوكيل**) هو الله تعالى (**فانقلبوا بنعمة من الله**) تعالى وهي السّلامة من الحرب وإيخاف الأعداء (**وفضل**) **من** الله تعالى وهو الأجر الّذي كتب لهم (**لم يمسسهم سوء**) هذا بيان للنّعمة (**واتّبعوا رضوان الله**) باستجابتهم لهذا النّداء (**والله ذو فضل عظيم**) فبفضله هذا يثبّتهم في الدّنيا بالنّصر والغلبة، وفي الآخرة بالمغفرة وجنّة النّعيم (**إنما ذلكم**) النّاس الّذين يخبرونكم بأنّ النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم هم (**الشّيطان**) فإنّ الشّيطان يكون من الإنس كما يكون من الجن، فكلّ مفسد وداعٍ إلى الفساد فهو شيطان، سواء كان من الجنّ أو من الإنس (**يخوّف**) ذلك الشّيطان (**أولياءه**) فقط (**فلا تخافوهم**) لأنّكم أوليائي إن كنتم مؤمنين، فلا تخافوا غيري لأنّ الإيمان بالله وقدرته يقتضي أن لا يخاف المؤمن غيره. ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان يحزنه كفر الكافرين وأعمالهم القبيحة فسّلاه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

(**ولا يحزنك الّذين يسارعون في الكفر**) ويسابقون فيه ويزدادون كفراً حيث (**إنّهم لن يضّروا الله**) تعالى بهذا الكفر والأعمال القبيحة (**شيئاً**) ويفهم من هذا أنّ حزن

الرّسول (ﷺ) على كفرهم كان لله لا لنفسه، وإلّا لقال لن يضرّوك شيئاً، وهكذا يجب أن يكون المسلم، فيكون حزنه لله وسروره في الله تعالى أي في إزدياد دينه، فهؤلاء لا يضرّون الله ودينه شيئاً، بل يضّرون أنفسهم لأنّه (**يريد الله**) بسبب كفرهم هذا (**أن لا يجعل لهم حظّاً**) نصيباً من النّعيم (**في الآخرة**) بل (**ولهم**) بدل النّعيم فيها (**عذاب عظيم**) جدّاً. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الكافرين أراد أن يذكر المنافقين فقال جلّ وعلا: (**إنّ الّذين اشتروا الكفر**) فكفروا (**بالإيمان**) بعد الإيمان ونافقوا فيه وفضّلوا الكفر على الإيمان (**لن يضّروا الله شيئاً**) كالكافرين (**ولهم عذاب اليم**) مؤلم جداً، مقابل هذا النفاق. ثمّ إنّ المنافقين قد غرّهم طول العمر وكثرة الأموال، وظنّوا أنّهم لولاهم على الحقّ لما أنعم الله تعالى عليهم هذه النّعم؛ فقال تعالى: (**ولا يحسَبنَّ الّذين كفروا أنّما نملي لهم**) ما مصدريّة فتؤول ما بعدها مصدراً فيكون التّقدير (**ولا يحسبنَّ**) ولايظننَّ (**الّذين كفروا**) أن إملاءنا لهم وإمهالنا إيّاهم وعدم نزول العذاب عليهم وإسداء إنعامنا عليهم (**خير لأنفسهم**) وذلك لأنّه (أإنّما **نملي لهم ليزدادوا إثماً**) ويستحقّوا عذاباً أكثر بذلك (**ولهم**) على غرورهم هذا (**عذاب مهين**) يهينهم ويذلّهم بعد إعتزازهم بما هم فيه وغرورهم به. ثم أراد الله تعالى أن يذكر الحكمة في المعركة والحرب بين المسلمين والكافرين والحكمة في إرسال الرّسل فقال جلّ وعلا:

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

(**ما كان الله ليذر**) ليترك (**المؤمنين على ما**) على الحال الّذي (**أنتم عليه**) من إختلاط قويّ الإيمان بضعيفه، وإختلاط المؤمن بالمنافق (**حتّى يميز الخبيث**) وهو المنافق وضعيف الإيمان (**من الطّيب**) وهو المؤمن القويّ في إيمانه، فيوجد الله الحرب ليظهر بذلك المنافقون وضعفاء الإيمان، ثمّ إنّ النّاس مختلفون في أفكارهم وميولهم واتّجاهاتهم وعقائدهم فلا يمكن إظهار ما هو الحقّ والباطل ممّا اختلف النّاس فيه إلّا بأحدى صورتين:

الأولى: أن يطلع الله كلّ أحدٍ على الغيب وهو: ما هو الحقّ، وما هو الباطل، عنده أو يرسل رسولاً يعلّمه ذلك وهو بدوره يبلّغ النّاس، فهذه الصّورة لم يجعلها الله تعالى من عادته.

الثّانية: كما قال جلّ وعلا (**وَما كانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ**) كُلَّكُمْ (**عَلى الْغَيْبِ**) وهو معرفة ما هو الحقّ والباطل عند الله تعالى، فلم يجعل ذلك من عادته (**ولكن**) لم يترك النّاس بل إنّ (**الله**) جعل من عادته أنّه (**يجتبي**) يختار (**من رسله من يشاء**) لقوم دون آخر، أو لزمان دون آخر، أو لكلّ النّاس كافّة فيرسله ويعلمه الخيرَ والشّر والحقّ والباطل، ويقوم الرّسول بدوره فيبلغ ذلك النّاس (**فآمنوا بالله ورسله**) لتعرفوا ما هو الحقّ من الباطل (**وإن تؤمنوا**) بالله ورسله (**وتتّقوا**) مخالفة ماجاء به الرّسول (**فلكم أجر عظيم**) جداً لا يدركه كنهه إلّا الله تعالى وهذا ما يختاره الله تعالى عادة. ثمّ بعد أن ذمّ الله تعالى الّذين لم يشتركوا في الجهاد بالأنفس أراد أن يلوم الّذين لم يشتركوا فيه بالمال فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

(**ولا يحسبنّ**) ولايظننّ (**الّذين يبخلون بما**) بالمال الّذي (**آتاهم الله**) تعالى أياه (**من فضله**) وإنعامه (**هو**) إلى البخل (**خيراً لهم**) لأنّهم يبقون به المال عندهم، فهو خير عند ظنّهم (**بل هو**) أي البخل (**شرّ لهم**) لأنّه (**سيطوقون ما بخلوا به**) أي يجعل المال الّذي بخلوا به طوقاً في أعنقهم، ويجرّون به إلى النّار (**يوم القيامة**) والحساب (**والله**) أي وملك الله تعالى (**ميراث السّماوات والأرض**) كلّ ما يتوارثه النّاس ويحصلون عليه، وليس ملكاً للنّاس في الحقيقة، فإذن لماذا يبخلون بمال الله ولا يمتثلون أمره في طرق الإنفاق وكيفيّة صرفه (**والله بـ**) كلّ (**ما تعملون**) من بخل وسخاء وإمتثال في الأمر بالإنفاق وعدمه (**خبير**) فيجازيكم حسب ما تعملون إن جوداً وإنفاقاً فيما أمر بثواب جزيل، وإن بخلاً فبعقاب وبيل. ثمّ إنّ اليهود لم يكتفوا بالبخل بل أساؤوا الأدب مع الله تعالى فحينما سمعوا قوله تعالى: ﴿من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾ قالوا: إنّ الله فقير ونحن أغنياء، ألا ترون أنّه يطلب أن نقرضه، فقال جلّ وعلا توبيخاً لهم:

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

(لقد سمع الله قول الّذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء) فيعاقبهم وينتقم منهم على هذا القول **(سنكتب ما قالوا)** ليعاقبوا عليه **(و)** نكتب **(قتلهم الأنبياء بغير حقّ)** ونسب قتل الأنبياء إليهم وإن كان قاتلهم أسلافهم لا هم، لأنّهم كانوا راضين ومؤمنين بذلك ولو استطاعوا لقتلوا النّبيّ (ﷺ) إلّا أنّ الله تعالى عصمه منهم **(ونقول)** لهم يوم القيامة **(ذوقوا عذاب الحريق)** يقال لهم هذا القول حينما يطرحون في النّار **(ذلك)** العذاب وقعتم فيه **(بما)** بسبب الّذي **(قدمت)** عملته **(أيديكم)** من سوء الأدب مع الله تعالى والكفر بأنبيائه وقتلهم بغير حق **(وأنّ الله ليس بظلامٍ للعبيد)** بل هم ظلموا أنفسهم بالكفر وقبيح الأعمال فجعلوها مستحقّة لهذا العذاب وقال: **(بظلّام)** صيغة مبالغة من الظّلم، لأنّ اللّه تعالى إذا اتصّف بأي صفة فإنّما يتّصف بأبلغها، فلو ظلم كان ظلّاماً، فلا يقال إنّ نفي الظّلّامية لا يفيد نفي الظّالمية. ثمّ جعل نفي الظّلم سبباً للعذاب، لأنّ نفي الظّلم عنه يقتضي ثبوت العدل له، والعدل يقتضي الإنتقام من المجرمين.

ثمّ ذكر الله تعالى قولاً آخر وإفتراءً ثانياً إرتكبه اليهود فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

(الّذين) أي هم الّذين **(قالوا إنّ الله عهد إلينا)** أي أمرنا **(أن لا نؤمن لرسول حتّى يأتينا بقُربان تأكله النّار)** فافعل ذلك يا محمّد لنؤمن بك **(قل)** يا أيّها النبيّ لقد كذبتم في قولكم ؛لأنّ هذا العهد ليس موجوداً في التّوراة ولا في الإنجيل، وكذبتم في قولكم فافعل لنؤمن بك، فإنّه وإن أثبت كلّ ما طلبتم من المعجزات لا تؤمنون فإنّ دينكم الكفر والضّلال، والدّليل على ذلك أنّه **(قد جاءكم رسل)** كثيرون **(من قبلي بالبيّنات)** بالمعجزات الواضحة في الدّلالة على رسالتهم **(وبالّذي قلتم)** من القربان، فقرّبوا قرابين ونزلت النّار من السّماء فأكلتها **(فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين)** في قولكم بهذا العهد وهذا الأمر، فلو أتيت بما قلتم لما آمنتم بي أيضاً، ثمّ إنّ المعجزات بيد الله تعالى لا بيد الرّسل وقد خصّ الله تعالى كلّ رسول بنوع من المعجزات.

ثمّ أراد تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

(فإن كذّبوك) النّاس أيّها النّبيّ فلا تحزن؛ فإنّ هذا من عادة الأمم مع الرّسل وسنّة الله في عباده **(فقد كذّب رسل)** كثيرون **(من قبلك جاؤوا)** أممهم **(بالبيّنات)** بالمعجزات الظّاهرة الدّالة على صدقهم **(والزّبر)** وجاؤوا بالزّبر أي الصّحف **(والكتاب المنير)** المظهر للحقّ كما تظهر الشّمس ما خفي بالظّلام. وقيل: الزّبر هو الكتاب الزّاجر والكتاب المنير، أعمّ منه وهو مافيه الوعد والوعيد والأحكام وغير ذلك، ولا تحزن أيّها النّبيّ فإنّه **(كلّ نفس ذائقة الموت)** فهم يموتون وأنتم تموتون **(وإنّما توفّون أجوركم)** بعد الموت **(يوم القيامة)** يوم الحشر والحساب **(فمن زحزح)** أبعد **(عن النّار)** بسبب الإيمان بك واتّباعك **(وأدخل الجنّة)** برحمة الله لعباده المؤمنين **(فقد فاز)** أي نال بالمقاصد العالية والنّعيم الدّائم، ومن لم يؤمن فقد خسر، فالعبرة بما هناك لا بالدّنيا حيث **(وما الحياة الدّنيا إلّا متاع الغرور)** أي متاع يغترّ به الجاهل بالحقائق فيختار الفاني على الباقي والدّنيا على الآخرة. والمراد الدّنيا الّتي يترك بسببها الدّين وتغرّ عن الحقّ المبين، وإلّا فدنيا المسلم نعمة يتمتّع بها في الدّنيا والآخرة، حيث ينفق منها فيما يرضي الله ربّ العالمين ولذا قيل:

ما أحسن الدّين والدّنيا إذا اجتمعا ... واقبح الكفر والإفلاس في الرّجل

(لتبلوُن) أي لتصابنّ بإرادة من الله تعالى **(في أموالكم)** بالنّقص والزّوال **(وأنفسكم)** أي وفي أنفسكم بالجرح والأسر والموت والقتال **(ولتسمعُن من الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم)** وهم اليهود والنّصارى **(ومن الّذين أشركوا أذىً كثيرا)** من قولهم عليكم ولومهم

لكم وإفتراءاتهم، كلّ ذلك إمتحاناً، ليظهر هل تصبرون وتتحملون في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر شريعته أم لا؟ **(وإن تصبروا)** فتتحملوا المشقّة والأذى، وترضوا بالنّقص في الأموال والأنفس في سبيل الثّبات على الحقّ و نشر الشّريعة **(وتتقوا)** الإنحراف والمراهنة مع الكفار، فذلك خيرٌ لكم **(فإنّ ذلك)** الصّبر والتّحمل والثّبات **(من عزم الأمور)** أي من الأمور الّتي يجب على المسلم أن يعزم ويثبت عليها. كان بلال (رضي الله عنه) يعذّب فيبطح في الهاجرة تحت الأحجار الحارّة ويضرب بالأسواط ويقال له: إرجع عن هذا الدّين فيقول: أحدٌ أحدٌ، وجاء أحد الصحابة يشكو حال المستضعفين من المسلمين ويقول للرّسول: ألا تدعو؟ فنهض الرّسول وقال: كان من قبلكم من يضعون المنشار على رأسه فيشقّونه فلا يرجع عن دينه، والله لو تصبرون لينصركم الله ولذهبت المرأة إلى صنعاء لا تخاف على نفسها إلّا الله و الذئب أو كما قال (ﷺ)[1]، فصبر المسلمون الأوائل فكان كما قال الرّسول (ﷺ). ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ كفر أهل الكتاب لم يكن عن جهل، بل كان بعد علمهم برسالة الرّسول وحقيقة دعوته؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

(وإذ) أي واذكر **(إذ)** وقتما **(أخذ الله ميثاق الّذين أوتوا الكتاب)** وهم اليهود والنّصارى، أخذ منهم العهد في التّوراة **(لتبيّننه)** أي مجيء محمّد (ﷺ) ورسالته

---

(١) الحديث كما رواه البخاري عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله (ﷺ) وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد مادون عظمه من لحم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه!والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون. / صحيح البخاري ٣/ ١٣٢٢ الحديث رقم ٣٤١٦.

وعلاماته وأوصافه ووجوب الإيمان به **(ولا تكتمونه)** عن النّاس **(فنبذوه)** أي طرحوا هذا العهد والميثاق **(وراء ظهورهم)** أي تركوه ولم يعملوا به **(واشتروا به)** بهذا الكتم **(ثمناً قليلاً)** وهو المنافع الّتي كانوا يأخذونها بسبب رياستهم الدّينيّة **(فبئس)** أي قبح **(ما يشترون)** بكتمان الحقّ وترويج الباطل ومخالفة عهد الله تعالى **(لا تحسبنّ)** أي لا تظننّ أيّها المسلم **(الّذين يفرحون بما أوتَوْا)** من مخالفة عهد الله وكتم الحقّ والتّبديل والتّحريف في الدّين **(ويحبون أن يحمدوا)** أي يثنى عليهم **(بما لم يفعلوا)** بأن يقال هم يتّبعون الحقّ ويروجونه أو يفعلون كذا وكذا من العبادات **(فلا تحسبنّهم)** بدل من لا تحسبنّهم، أعيد لطول الفصل **(بمفازةٍ)** بنجاةٍ **(من العذاب)** كلّا، بل **(ولهم عذاب أليم)** على ما يفعلونه من نقض العهد وكتمه وتبديل الدّين وتحريفه وحبّ الثناء بالباطل **(ولله ملك)** كلّ **(السّماوات والأرض)** فيستطيع أن يعذّبهم، هذا العذاب المؤلم **(والله على كلّ شيء قدير)** فبقدرته هذه ينتقم منهم ويعذّبهم. ثمّ أراد الله تعالى أن يثبت وجوده ووحدته وقدرته ومجيء يوم الجزاء ووقوع الثّواب والعقاب فيه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

(إنّ في خلق) كلمة خلق هنا مصدر من المجهول فالمعنى: إنّ في مخلوقيّة أي وجود **(السّماوات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار)** أي مجيء واحد خلف الآخر دائماً **(لآيات)** لدلائل على وجود الله تعالى وقدرته، وعلى مجيء يوم القيامة والثّواب والعقاب فيه، وهذه الآيات دلائل **(لأولي الألباب)** أي لأصحاب العقول، الّذين يستعملون عقولهم كما قال جلّ وعلا: **(الّذين يذكرون الله)** أي يتصوّرون الله تعالى في عقولهم[1] **قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم)** ولا يغفلون عنه **(ويتفكرّون في خلق السّماوات)** من السّماوات السّبع الطّباق والنّجوم والكواكب والشّمس والقمر والسّحب والغيوم وكلّ ما هو في العلوّ **(والأرض)** أي ويتفكّرون في عالم السّفل أيضاً من الأرض والجبال والصّحارى والتّلول

(١) يقصد أنهم يتصورون عظمة الله تعالى وكمال صفاته وصفات كماله عن طريق التفكر في خلق السموات والأرض...كما يدل عليه كلامه بعد هذا.

والوديان والأنهار والعيون والبحار والنّباتات والحيوانات والأشجار، فإذا تفكرّوا في هذه المخلوقات الكثيرة وهذه الموجودات المتنوّعة واطّلعوا على هذا الصّنع العجيب والنّظام البديع الّذي يدهش كلّ عاقل ولبيب، ويتحيّر فيه كلّ حكيم وعالم وطبيب يتيّقن أنّ هذا الصّنع لا يأتي إلى الوجود بنفسه لأنّ إبرة لا توجد بدون صانع وكوخاً لا يصير بدون بنّاء، وباباً لا يكون بدون نجّار، وشباكاً لا يصنع بدون حدّاد إلى غير ذلك، فكلّ شيء له صانع مخصوص، كما ولا يمكن للطّبيعة أن توجد هذا النّظام لأنّ الطّبيعة لا علم لها ولا إرادة، وصانع هذا النّظام يجب أن يكون في أعلى درجات العلم ونهاية في القدرة والسّلطان، فيعترف أنّ صانع هذا العالم شخص عالم قدير ذو إرادة وعلم وإتقان وهو الله تعالى، فيؤمن بوجود الله العليّ القدير، وحينما آمن بالله يعلم أنّ من بنى هذا النّظام للإنسان لا يعقل أن يهمل الإنسان ويتركه دون نظام. فإنّ رئيس قرية يضع نظاماً لأهل قريته، وكلّ رئيس دولة يضع دستوراً لمن تحت إمرته، فالله الّذي هو أحكم الحاكمين وملك الملوك كيف لا يصنع نظاماً لعباده، فيعترف أنّ لله نظاماً وشريعة فيقول: (**ربنا ماخلقت هذا**) الكون (**باطلاً**) أي دون أن تضع للنّاس نظاماً وتفرض عليهم أموراً وتعين لهم دستوراً يعملون به ويطبّقونه في شؤونهم الفرديّة والإجتماعيّة والأخلاقيّة والإقتصاديّة وسائر أمور الحياة للفرد والمجتمع؛ فيؤمن بأنّ لله شريعة ونظاماً، ويعلم أنّ كلّ نظام يقتضي ثواباً للمطيع وعقاباً على المنحرف عنه، ويرى أنّ الثواب والعقاب لا يجريان كليّاً في الدّنيا، فإنّ كثيراً من الصّالحين يموتون قبل أن يلقوا ثواباً على صلاحهم، وكثيراً من المجرمين يموتون دون أن يذوقوا عقاب جرائمهم، فلو ذهب هذان الصّنفان دون رجعة لما تحقّقت عدالة الله تعالى وهو محال، فيجب أن يأتي يوم ينال فيه المطيع ثواب إطاعته والمنحرف عقاب جريمته، وهو يوم القيامة فيقول حينئذ (**سبحانك**) أي ننزّهك عن أن تخلق هذا النّظام باطلاً، بل لك نظام وثواب وعقاب وفق النّظام (**فقنا عذاب النّار**) وأن من له هذه القدرة الّتي خلق بها هذا الكون لا يصعب عليه الإحياء بعد الموت وإعادة الإنسان بعد الفوت كما قال تعالى ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ سورة التغابن الآية/٧.

تنبيه: قال تعالى (**لآيات**) بالجمع لأنّ مجموع هذا النّظام آية والسّماء وحدها آية، بل كلّ جرم من الأجرام العلويّة وكلّ صنف من الحيوانات والنّباتات والمعادن أية، ولذا قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية ... تدلّ على أنّه الواحد

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾

(ربّنا انّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أخْزَيْتَهُ) أهنته **(وما للظّالمين)** أي للكافرين العصاة الّذين استحقّوا العذاب **(من أنصار)** ينصرونهم وينقذونهم من النّار.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

(ربّنا) منادى محذوف الياء أي يا ربّنا **(إنّنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان)** قيل: هو الرّسول (ﷺ)، وقيل: هو القرآن، والحقّ أنّ هذه الآيات تعمّ كلّ المؤمنين من آدم إلى يوم القيامة، فالمنادي هو رسول الوقت ثمّ ورثته من أصفيائه إلى نبيّنا محمّد (ﷺ) فمنادينا هو، ثمّ ورثته من علماء الأمّة والدّعاة إلى الله تعالى والإسلام. فكلّهم ينادون قومهم **(أن آمنوا)** أيّها القوم **(بربّكم)** وهو الله، بأنّه هو المعبود بحقّ وأنّ شريعته هي الّتي يجب أن تطبّق ويعمل بها **(فاغفر لنا ذنوبنا)** أي الكبائر **(وكفّر)** وأزل عنّا بالعفو **(سيئاتنا)** الصّغائر والصّغائر، وإن كانت معفوة إلّا أنّها إذا إنضمت إلى الكبائر يؤاخذ العبد عليها، قال تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّرّ عنكم سيئاتكم﴾ سورة النّساء الآية/ ١٣ ـ فعفوها مشروط باجتناب الكبائر **(وتوفّنا مع الأبرار)** والأبرار جمع بارّ أصله بارر إسم فاعل، أو جمع بر أي **بررُ** صفة مشبهة، وكلاهما بمعنى المتّصف بالبرّ فالبّار والبرّ والمتّصف بالبرّ واحد، وقد ذكّرهم القرآن في مواضع:

الأوّل: ذكر الله تعالى المتّصف بالبّر مفصلاً فقال جلّ وعلا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٧٧.

الثّاني: ذكرهم الله تعالى فقال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ

مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ سورة الإنسان الآيات/ (٧-٩). لأن قوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ يشمل أداء الواجبات كلها وقوله: (يخافون يوماً ... إلخ) يستلزم الإجتناب عن المنهيات جميعها.

الثالث: ذكرهم الله تعالى بأخصر من هذا أيضاً حيث قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٩ ـ فإنّ قوله تعالى (من اتّقى) يشمل أداء جميع الواجبات أي الإجتناب عن تركها والكف عن جميع المحّرمات. **الرّابع:** ذكرهم الله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٩٢. فمعنى الآية أنّ البرّ هو انفاق كل ما يعزُّ عليك والتّضحية به من النّفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ونشر شريعته، ويسمّى بالإصطلاح الجديد نكران الذّات في سبيل الدّعوة، فالبارّ هو من ضحّى بالنّفس والمال وَالأهل والأولاد في سبيل الدّعوة إلى الله ونشر شريعته وبسط سلطان دينه في الأرض. فإذا أردت أن تكون بارّاً فافعل ما ذكر لتكون منهم، اللّهم اجعلنا منهم آمين.

(ربّنا **وآتنا**) وهب لنا (**ما**) الّذي (**وعدتنا على**) لسان (**رسلك**) وهو النّصر على الأعداء الكافرين، والمراد الإستعجال به وإلّا فالموعود به منه يأتي دون ريب (**ولا تخزنا**) ولا تهنّا (**يوم القيامة إنك**) يا ربّنا (**لا تخلف الميعاد**) وقد وعدت بالقيامة فإنّها تأتي لا محالة، أو الكلام راجع إلى قوله: (**آتنا ما وعدتنا**) فالمراد أنّك وعدت بالنّصر، وإنّك لا تخلف الميعاد الّذي وعدت، فاستعجل بما وعدت يا الله.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَـٰجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

(**فاستجاب**) أي تقبّل الدّعاء (**لهم ربّهم**) وقال: (**إنّي لا أضيع**) لا أجعل (**عمل عامل منكم**) ضائعاً وبدون أجر بل أوجر الكلّ عليه (**من ذكر أو أنثى بعضكم من**) مثل (**بعض**) لا يزيد أجر أحدكم على الآخر، لأجل الذكورة أو الأنوثة وليس الأمر كالإرث. حيث يكون للمرأة نصف ما للرّجل، فلا تفاوت بين الذّكر والأنثى في الأجر لأجل

الذّكورة والأنوثة إلّا أنّ التّفاوت في الأجر موجود بالإخلاص والظّروف الّتي تحيط بالعامل، وهذا يعمُّ الذّكور والإناث، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٦١. **(فالّذين هاجروا)** أوطانهم **(وأخرجوا من ديارهم)** أي مواطنهم **(وأوذوا في سبيلي)** أي في سبيل نصرة ديني وإعلاء كلمة الله وحكمي **(وقاتلوا)** الكفرة **(وقتلوا)** في سبيلي **(لأكفِّرنَّ)** لأعفونَّ **(عنهم سيئاتهم)** أي ذنوبهم الكبائر والصّغائر لأنّ السّيئة إذا ذكرت مطلقة تَعُمُّ الذّنوب كلّها وإذا ذكرت مع الذنوب فهي الصّغائر فقط. فكلّ الذّنوب معفوة لهؤلاء إلّا حقّ النّاس، فيؤدّى من تركتهم إن وجِدت إلّا فعلى الحاكم أن يؤدّي عنهم وإلّا فالله يؤدّي عنهم إن لم يكونوا مقصّرين في أدائهم لإعسارهم **(ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً)** أي أثيبوا هذه الجنات ثواباً **(من عند الله)** تعالى لا من عند غيره **(والله عنده حسن الثواب)** أي الثّواب الحسن من عند الله لا من عند غيره.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

فبعد ماعلمت أيّها المسلم مالك من الثّواب عند الله تعالى **(لايغرّنّك)** أي لا يحزنك **(تقلُّب)** حركة **(الّذين كفروا في البلاد)** وحسن معيشتهم لأنّ ذلك **(متاع قليل)** لهم بالنّسبة لما أعد لكم ولأنّ متاع الدّنيا مهما كثر فإنّه قليل لأنّه زائل يفنى، ومتاع الآخرة كثير لأنّه باقٍ لا يزول **(ثم مأواهم)** مصيرهم ومرجعهم **(جهنّم وبئس المهاد)** جهنّم أي إنّ جهنّم قبحت من حيث كونها مهاداً ومرجعاً حيث ليس فيها إلّا العذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

(لكن الّذين اتّقوا ربهم) فآمنوا واجتنبوا الكفر والمعاصي ليسوا هم كالكفار بل إنَّ **(لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار)** بدون أن يروا أي عذاب، إن اجتنبوا المعاصي كلّها أو إن زادت حسناتهم على سيئاتهم أو تساوت، وإلّا بأن نقصت حسناتهم عن سيئاتهم فلهم ذلك بعد أن يتطهّروا من السّيئات الّتي زادت بالعذاب إن لم يغفر الله

لهم، فالمؤمن له الجنّة عاجلاً أو آجلاً **(نزلاً)** النّزل مايُعَد للضّيف تكريماً له فالمعنى: كرّموا هذا التّكريم نزلاً **(من عند الله)** الكريم وهذا التّكريم هو للمؤمنين الصّالحين **(وما عند الله)** من الرّضا ولقائه **(خير)** مما ذكر وهو معدّ **(للأبرار)** من المؤمنين. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى كثيراً من ملامة أهل الكتاب وذمّهم استثنى الّذين آمنوا منهم ومدحهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

(وإنّ) بعضاً **(من أهل الكتاب)** اليهود والنّصارى **(لمن يؤمن بالله)** إيماناً صحيحاً لا ينسب إليه ولداً ولا شريكاً ولا عجزاً ولا فقراً مثل ما يفعل غيرهم من أهل الكتاب **(و)** يؤمن أيضاً **(بما أنزل اليكم)** بأنّه من الله تعالى وناسخٌ لما قبله من الأديان، لا كمثل بعض أهل الكتاب يعتقدون بأنّ الإسلام حقّ إلّا إنّه ليس ناسخاً لما قبله **(و)** يؤمن **(بما أنزل إليهم)** بأنّه حقّ وكان واجب الإتّباع قبل الإسلام لا بعد مجيئه **(خاشعين)** مطيعين **(لله)** تعالى **(لا يشترون بآيات الله)** **الموجودة في التّوراة والإنجيل الشّاهدة برسالة الرّسول والآمرة بالإيمان به** **(ثمناً قليلاً)** بأن يحرّفوها مقابل أجر من الحكّام يأخذونه أو لأجل منافع يأخذونها من دينهم ورياستهم الرّوحية على الناس، كما يفعل ذلك غيرهم من الأحبار والرّهبان **(أولئك)** الّذين ذكروا من أهل الكتاب **(لهم أجرهم)** أي أجر عظيم خاص بهم من **(عند ربّهم إنّ الله سريع الحساب)** أي الجزاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

(يا أيّها الّذين آمنوا) بالإسلام واعتنقوه ديناً لهم **(اصبروا)** أي تحمّلوا المشقّة والأذى في سبيل أداء الواجبات والإجتناب عن المحرّمات وعدم الجزع عن المكروهات[١] وفي الدّعوة إلى دين الله ونشره والدّفاع عنه **(وصابروا)** أي قابلوا صبر

---

(١) يقصد الأمور المكروهة التي تصيبنا جراء العبادة والعمل والجهاد.

تفسير الباليساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
طه الباليساني (رحمة الله عليه)
١٣٣٦هـ/١٩١٨م ـ ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار إحياء التراث العربي

الأعداء بصبركم بل بأكثر منه **(ورابطوا)** أي أربطوا خيلكم ووسائل الجهاد والقتال مقابل خيل الأعداء ووسائلهم؛ لتكونوا مستعدين لصدّهم عن الهجوم على المسلمين وديارهم **(واتّقوا الله)** في كلّ الأمور **(لعلكم تفلحون)** أي لكي تفلحوا في الدّنيا بالعزّ والسّلطان وفي الآخرة بالجنّة ونعيمها واللّقاء والرّضوان من الله تعالى، فالمرابطة هي سدّ الثغور وحصن حدود ديار المسلمين عن نفوذ الكفّار منها، وهي من أفضل الأعمال بعد الإيمان. وفي صحيح مسلم عن سلمان الخير قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الّذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن من الفتّان)[1] وقيل المرابطة إنتظار الصّلاة بعد الصّلاة ويدلّ على صحّة هذا القول ما روي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (ألا أدلّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا ويرفع به الدّرجات؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وإنتظار الصّلاة إلى الصّلاة فذلكم الرّباط فذلكم الرّباط)[2] قال في تفسير الخازن: أخرجه مسلم.

وأقول إنّ الحديثين صحيحان، فالرّباط لمن يستطيع الجهاد هو الرّباط في الثغور، ولمن لا يستطيع هو الرّباط في المساجد، والأوّل أفضل لأنّه لولا الجهاد لما بقي الإسلام، فلا تبقى الصّلاة ولا المساجد والله تعالى أعلم. فالجهاد فرض كفاية، فإذا قام به البعض الكافي سقط عن الباقين، وإذا صار الزّحف العامّ أصبح فرض عين على كلّ أحد، وإذا إحتيج إلى شخص لوجود مهنة أو صنعة فيه لا توجد في غيره تعيّن عليه أيضاً، هذا وللجهاد شروط وأحكام كثيرة تجدها في كتب الفقه ومن أحسنها: (المغني) لإبن قدامة المقدسي، و(بداية المجتهد) لإبن الرشد (رحمه الله).

هذا وقد وقع ليّ الشرف بإتمام تفسير هذه السّورة الكريمة بعد أذان صلاة العصر وقبل أدائي لها وذلك في يوم الأربعاء ٢٥ صفر في عام ١٤٠٧هـ ـ ٢٩ تشرين الأول ١٩٨٦م سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، وغفر الله تعالى لي ولوالدي[3] ولسائر المسلمين آمين إنّه أرحم الرّاحمين.

---

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٥٢٠ الحديث رقم ١٩١٣.

(٢) صحيح مسلم ١/ ٢١٩ الحديث رقم ٢٥١.

(٣) أقول: ولأولاده.